

الفصل الثاني

التقديم والتأخير في القرآن الكريم

هذا الفصل هو التطبيق العملي لما سبق بيانه في الباب السابق بفصوله المختلفة حيث أقوم فيه بالدراسة التحليلية لعملية التقديم والتأخير في الآيات القرآنية ، مبتدئاً بسورة الفاتحة ومنتهاً بسورة الناس ، وسوف تتناول الدراسة أسلوب التقديم والتأخير في الآية باحثاً عن سر التقديم والتأخير من جميع الجوانب التي تعين على إبراز أسرار التقديم والتأخير في كل تعلقاته الأسلوبية والوظيفية ، والتي كانت من أعظم وجوه إعجاز القرآن الكريم ذلك الكتاب الذي لم تحرف ألفاظه لا بتقديم ولا تأخير ولا حذف ولا زيادة أو نقصان ، لقد حفظه الله من التحريف الذي تعرضت له الكتب السماوية وكان من وجوه تحريفها التحريف بالتقديم والتأخير والذي يبين أهمية هذا الأسلوب في كل الكتب السماوية ، ولذا قال الله تعالى : ﴿ تَحْرِفُونَ بِكَلِمَةٍ عَنْ مَوَاضِعِهِ ﴾ (المائدة: ١٣).

قال الأستاذ محمد رشيد رضا في هذه الآية : « التحريف إمالة الشيء عن موضعه إلى جانب من جوانب ذلك الموضع ، مأخوذ من الحرف وهو الطرف والجانب ... وتحريف الكلم عن مواضعه يصدق بتحريف الألفاظ بالتقديم والتأخير والحذف والنقصان وبتحريف المعاني بحمل الألفاظ على غير ما وضعت له » .^(١)

(١) تفسير المنار ج ٦ ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

سورة الفاتحة

من خلال اسمها نعرف مناسبة افتتاح القرآن الكريم بها فهي فاتحة الكتاب بها ابتداء ترتيب سورة لما فيها من أغراض عظيمة سبقت من أجلها ، وهي أعظم سورة في القرآن الكريم ، فقد أثبتت استحقاق الله تعالى لجميع المحامد وصفات الكمال ، وإثبات صفات الربوبية والألوهية له ، وأنه وحده مالك يوم الدين واستحقاقه بالعبادة والاستعانة ولزوم صراطه المستقيم وهو صراط المنعم عليهم الذين علموا وعملوا ، ومجانبة صراط أهل الجحيم الذين ضلوا بجهلهم فعملوا على غير الرشاد والذين علموا ولم يعملوا بمقتضى علمهم وهم المغضوب عليهم ، لقد شملت هذه السورة كل أنواع التوحيد ، الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ولزوم منهج أهل السنة ومفارقة مناهج المبتدعين .

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة: ١).

في البسملة مسائل :

الأولى : الجار والمجرور لا بد له من متعلق ، وليس بمذكور ، فيكون مقدرًا ، أو أنه يكون اسماً أو فعلاً ، أو اسماً فيه رائحة الفعل ، وعلى التقديرين فإما أن يكون مقدرًا مقدماً أو مؤخراً ، نحو : أبدأ باسم الله ، أو ابتدائي باسم الله ، أو بسم الله ابتدئ ، أو باسم الله ابتدائي أو الابتداء ، وتقدير الفعل أولى من تقدير الاسم ، لأن كل فاعل يبدأ في فعله بسم الله يكون مضمراً ، ما جعل التسمية مبدأ له ، فيكون المراد أن إنشاء ذلك الفعل ، إنما هو على اسم الله ، فيقدر هاهنا ، بسم الله أقرأ أو أتلو أو أبدأ ، لأن الذي يتلو التسمية مقروء ومبدوء به

وتقدير المحذوف متأخر أولى ، على نحو قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ تَجْرِيهَا وَمُرْسَلَهَا ﴾ (هود: ٤١). لأن ذكر الله أدخل في التعظيم ، ولأن ما هو سابق في الوجود يستحق السبق في الذكر .

وقد ذهب إلى نحو ما ذكرناه البيضاوي حيث قال : « وتقديم المعمول هاهنا أوقع كما في قوله : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ تَجْرِيهَا وَمُرْسَلَهَا ﴾ وقوله : ﴿ إِلَيْكَ نَعْبُدُ ﴾ لأنه

أهم وأدل على الاختصاص وأدخل في التعظيم وأوفق للوجود فإن اسمه سبحانه وتعالى مقدم على القراءة كيف لا وقد جعل حيث إن الفعل لا يتم ولا يعتد به شرعاً ما لم يصدر باسمه تعالى لقوله عليه الصلاة والسلام: « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتَر »^(١).

وكما يقول القرطبي: « ندب الشرع إلى ذكر البسملة في أول كل فعل ، كالأكل والشرب والنحر ، والجماع والطهارة وركوب البحر ، إلى غير ذلك من الأفعال قال الله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ (الأنعام: ١١٨) . وقال : ﴿ وَقَالَ آزْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ تَجْرِيهَا وَمُرْسَتْهَا ﴾ (هود: ٤١) وقال رسول الله ﷺ { أغلق بابك واذكر اسم الله ، وخر إنياءك واذكر اسم الله ، وأوك سقاءك واذكر اسم الله } وقال : { لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا فإنه إن قدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبداً } وقال لعمر ابن أبي سلمة : { يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك } هذا كله ثابت في الصحيح ، وروى الدارقطني عن عائشة قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا مس طهوره سمى الله تعالى ، ثم يفرغ الماء على يديه »^(٢).

أقول : ويجمع ما ذكره القرطبي حديث النبي ﷺ والذي روي بروايات مختلفة منها ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : { كل كلام أو أمراً يفتح بذكر الله فهو أبتَر أو قال أقطع }^(٣).

وقد ذهب إلى ترجيح ذلك أيضاً الزمخشري وذكر مثل ما ذكر القرطبي ثم زاد قائلاً : « فإن قلت لم قدرت المحذوف متأخراً ؟ قلت : لأن الأهم من الفعل هو المتعلق به ، لأنهم كانوا يبدأون بأسماء آلهتهم فيقولون باسم اللات باسم العزى ، فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله عز وجل بالابتداء ، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل كما فعل في قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ (الفاتحة: ٥) حيث صرح بتقديم الاسم إرادة الاختصاص والدليل عليه قوله : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ تَجْرِيهَا وَمُرْسَتْهَا ﴾

(١) تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي ج ١ ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) تفسير الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٦٩ .

(٣) مسند الإمام أحمد كتاب { باقي مسند المكثرين } حديث رقم ٨٣٥٥ .

فإن قلت : فقد قال : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق: ١) فقدم الفعل قلت : - والكلام للزمخشري - هناك تقديم الفعل أوقع لأنها أول سورة نزلت فكان الأمر بالقراءة أهم فإن قلت : ما معنى تعلق اسم الله بالقراءة قلت فيه وجهان :

أحدهما : أن يتعلق بها تعلق القلم بالكتابة في قولك : كتبت بالقلم ، على معنى أن المؤمن لما اعتقد أن فعله لا يجيء معتداً به في الشرع واقعاً على السنة حتى يصدر بذكر اسم الله لقوله عليه الصلاة والسلام :

« كل أمر لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر » إلا كان فعلاً كلاً فعل ، جعل فعله مفعولاً باسم الله كما يفعل الكتب بالقلم .

والثاني : أن يتعلق بها تعلق الدهن بالإنبات في قوله ﴿ تَثْبُتُ بِالْذُّهْنِ ﴾ (المؤمنون: ٢٠) على معنى متبركاً باسم الله أقرأ ، وكذلك قول الداعي للمعرس : بالرفاء والبنين ، معناه أعرست ملتبساً بالرفاء والبنين وهذا الوجه أعرب وأحسن^(١)

وفي مبحث البسملة يذكر الرازي المسألة الأولى ويعرض رأيه بأسلوبه الرياضي المنطقي ، حيث ذكر مسألة التقديم والتأخير فيقول : « قد بينا أن الباء من ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ متعلقة بمضمر فنقول : هذا المضمر يحتمل أن يكون اسماً ، وأن يكون فعلاً ، وعلى التقديرين فيجوز أن يكون متقدماً ، وأن يكون متأخراً فهذه أقسام أربعة ، أما إذا كان متقدماً وكان فعلاً فكقولك : أبدأ باسم الله ، وأما إذا كان متقدماً وكان اسماً فكقولك : ابتداء الكلام باسم الله ، وأما إذا كان متأخراً وكان فعلاً فكقولك : باسم الله أبدأ ، وأما إذا كان متأخراً وكان اسماً ، فكقولك : باسم الله ابتدائي ويجب البحث هنا عن شيئين :

الأول : أن التقديم أولى أم التأخير ؟ فنقول كلاهما وارد في القرآن ، أما التقديم فكقوله : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ تَجْرِلُهَا وَمُرْسِنَهَا ﴾ وأما التأخير فكقوله : ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ ﴾ وأقول - الكلام للرازي - التقديم عندي أولى ، ويدل عليه وجوه :

● الأول : أنه تعالى قديم واجب الوجود لذاته ، ليكون وجوده سابقاً على وجود غيره ، والسابق بالذات يستحق السبق في الذكر .

(١) تفسير الكشاف ح ١ ص ١٤ ، ١٥ .

● الثاني : قال تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ (الحديد: ٣) وقال : ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ (الروم: ٤).

● الثالث : أن التقديم في الذكر أدخل في التعظيم .

● الرابع : أنه قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فهاهنا الفعل متأخر عن الاسم فوجب أن يكون في قوله ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ كذلك فيكون التقدير باسم الله أبتدئ .

● الخامس : سمعت الشيخ الوالد ضياء الدين عمر رحمته الله يقول : سمعت الشيخ أبا القاسم الأنصاري يقول : حضر الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير الميهني مع الأستاذ أبي القاسم القشيري فقال الأستاذ القشيري : المحققون قالوا ما رأينا شيئاً إلا ورأينا الله بعده ، فقال الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير : ذاك مقام المريدين ، أما المحققون فإنهم ما رأوا شيئاً إلا وكانوا قد رأوا الله قبله ^(١).

وإلى ذلك الرأي مال الكثير من المفسرين والنحويين مثل الطيب صديق ابن علي الحسين القنوجي البخاري ، العلامة نظام الدين الحسن بن محمد ابن حسين القمي النيسابوري ، وأبو حيان الأندلسي ، ومحيي الدين درويش .
المسألة الثانية : وأما تقديم اسم الذات « الله » على الرحمن الرحيم وعلى غيره من الأسماء والصفات فراجع إلى عدة أمور :

إن ذلك الاسم غير مشتق عند الخليل ومتابعيه ، وعند أكثر الأصوليين والفقهاء وأنه اسم علم له سبحانه وتعالى ، وكذلك فإن الترتيب العقلي إنما هو ذكر الذات ثم تعقيبه بالصفات ، ومن ثم فكل الأسماء الحسنی مرجعها لذلك الاسم ومردّها إليه ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ (الإسراء: ١١٠) وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾

(الأعراف: ١٨٠)

وقوله : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

(الحشر: ٢٢، ٢٣)

(١) تفسير الفخر الرازي المعروف بـ {التفسير الكبير ومفاتيح الغيب} ج ١ ص ١٠٨ .

وأقول : ومن رحمته سبحانه أنه علمنا أن نبدأ كل شيء باسم الله ... لأن الله هو الاسم الجامع لصفات الكمال سبحانه وتعالى . والفعل عادة يحتاج إلى صفات متعددة . فأنت حين تبدأ عملاً تحتاج إلى قدرة الله وإلى قوته وإلى عونه وإلى رحمته ، فلو أن الله سبحانه وتعالى لم يخبرنا بالاسم الجامع لكل الصفات كان علينا أن نحدد الصفات التي نحتاج إليها . كأن نقول : بسم الله القوي وبسم الله الرازق وبسم الله المجيب وبسم الله القادر وبسم الله النافع إلى غير ذلك من الأسماء والصفات التي نريد أن نريد أن نستعين بها . . ولكن الله تبارك وتعالى جعلنا نقول : بسم الله الجامع لكل هذه الصفات .

المسألة الثالثة : لماذا تقدم اسم الرحمن على الرحيم في البسملة ؟

﴿ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ كلاهما مشتق من الرحمة ولكن الرحمن تتعلق برحمته خلقه وعباده جميعاً في الدنيا مؤمنهم وكافرهم فهي رحمة عامة ، بينما الرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين في الآخرة ولذلك قدمت الرحمة العامة على الرحمة الخاصة .

قال ابن عطية : « وذكر الرحيم بعده لتخصيص المؤمنين به في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٣) وقد ذكر أبو حيان هذا التفسير أيضاً لمجاهد وأبي علي الفارسي .^(١) »

وقد جاء الألوسي بالعجب العجيب مجانباً أصول علم التفسير غارقاً في الإشارات بعيداً عن الصواب في معرض حديثه عن سر تقديم الرحمن على الرحيم وقد ذكر جملة من الآراء في سبب تقدم الرحمن على الرحيم وبدأ يفندوها جميعاً وهي عند النظر والتحقيق أولى بالقبول من رأيه الذي لم يستند فيه على دليل لغوي أو شرعي أو نقل عن أصحاب النبي ﷺ الذين هم أدرى الأمة بمراد الله تعالى : يقول : « وقيل الرحمة في ذلك حقيقة شرعية ، وأن الرحمن أبلغ من الرحيم لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى ، فتؤخذ تارة باعتبار الكمية ، وأخرى باعتبار الكيفية فعلى الأول قيل يا رحمن الدنيا ، لأنه يعم المؤمن والكافر ورحيم الآخرة

(١) تفسير البحر المحيط ج ١ ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

لأنه يخص المؤمن ، وعلى الثاني قيل يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا ، لأن النعم الأخروية كلها جسام ، وأما النعم الدنيوية فجليلة وحقيرة ، وأنه إنما قدم الرحمن والقياس يقتضي الترتي لتقدم رحمة الدنيا ، لأنه صار كالعلم من حيث إنه لا يوصف به غيره لأن معناه المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتها ، وذلك لا يصدق على غيره ... أو التقديم لأن الرحمن لما دل على جلائل النعم وأصولها ذكر الرحيم ليتناول ما خرج منها فيكون كاللثمة والرديف له أو للمحافظة على رؤوس الآي وهذا جميعه لا يخلو عن مقال ، ولا يسلم من رشق نبال ... يقول :
وعندي من باب الإشارة أن تأخير صفة الرحيم لأنه صفة محمد ﷺ .

قال تعالى : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨) وبه عليه السلام كمال الوجود ، وبالرحيم تمت البسمة وبتمامها تم العالم خلقاً وإبداعاً وكان صلى الله تعالى عليه وسلم مبتدأ وجود العالم عقلاً ونفساً فيه بدأ الوجود باطناً وبه ختم المقام ظاهراً في عالم التخطيط فقال لا رسول بعدي فالرحيم هو نبينا عليه الصلاة والسلام وبسم الله هو أبونا آدم عليه السلام وأعني في ابتداء مقام الأمر ونهايته وذلك أن آدم عليه السلام حامل الأسماء قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (البقرة: ٣١) ومحمد ﷺ حامل معاني تلك الأسماء التي حملها آدم عليه السلام^(١) .

ويفهم من كلام البيضاوي أن التقديم هنا لسبق الوجود قال : « وإنما قدم والقياس يقتضي الترتي من الأدنى إلى الأعلى ، لتقدم رحمة الدنيا ولأنه صار كالعلم من حيث إنه لا يوصف به غيره ، لأن معناه المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتها . . وهناك سبب آخر ذكره وهو أن يكون التقديم من باب تقديم الأعظم والأجل قال : أو لأن الرحمن لما دل على جلائل النعم وأوصلها ذكر الرحيم ليتناول ما خرج منها فيكون كاللثمة الرديف له للمحافظة على رؤوس الآي ، وهذا الأخير لا تتفق معه فيه وسوف يأتي بيان الرد عليه في ذلك^(٢) .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الفاتحة: ٢).

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ، والسبع المثاني ج ١ ص ٦١ ، ٦٤ .

(٢) البيضاوي ٢٤ ج ١ ص ٤٠ ، ٣٩ .

في هذه الآية سؤالان : الأول : لماذا ابتدأت بالحمد مع أن التسبيح مقدم على الحمد في الذكر فنقول : سبحان والحمد لله ؟ والسؤال الثاني : لماذا تقدمت صفة الربوبية على صفة الرحمة والملك في السورة ؟

أما السبب في وقوع البداءة بالحمد وليس بالتسبيح فأقول : إن سورة الفاتحة إنما تتحدث عن صفات الله الذاتية المتعلقة بالتفضل على الخلائق بصور الإنعام المذكورة في السورة من نعمة الإيجاد والتربية والإصلاح في قوله : ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ونعمة الرحمة التي يعيش فيه الخلق كله في الدنيا وهي صفة ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ ونعمة الرحمة الخاصة بالمؤمنين وتعلقها بصفة ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ ثم نعمة العدل وتعلقها بقوله : ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ ولذلك كله بدأت السورة بالحمد الواجب لله على إنعامه المذكور في السورة بعد الحمد ولم تبدأ بالتسبيح وإن كان مقدماً عليه في الذكر .

أما الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم في شرحه للحديث الثالث والعشرين فقد قال : « وبكل حال ، فالتسبيح دون التحميد في الفضل كما جاء صريحاً في حديث علي وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو والرجل من بني سليم أن التسبيح نصف الميزان ، والحمد لله تملؤه ، وسبب ذلك أن التحميد إثبات المحامد كلها لله فدخل في ذلك إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال كلها والتسبيح هو تنزيه الله عن النقائص والعيوب والآفات والإثبات أكمل من السلب ، ولهذا لم يرد التسبيح مجرداً لكن مقروناً بما يدل على إثبات الكمال فتارة يقرن بالحمد كقوله : سبحان الله وبحمده وسبحان الله والحمد لله ، وتارة باسم من الأسماء الدالة على العظمة والجلال كقوله : سبحان الله العظيم »^(١).

وهناك جواب آخر أجابه صاحب تفسير غرائب القرآن يقول في المسألة السادسة في تفسير سورة الفاتحة : « التسبيح مقدم على التحميد لأنه يقال : سبحان الله والحمد لله فما السبب في وقوع البداءة بالتحميد ؟ والجواب أن التسبيح داخل في التحميد دون العكس ، فإن التسبيح يدل على كونه مبرراً في ذاته وصفاته عن

(١) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ج ٢ ص ١٣ .

النقائص والتحميد يدل على كونه محسناً إلى العباد ، ولا يكون محسناً إليهم إلا إذا كان عالماً بجميع المعلومات ليعلم مواقع الحاجات وإلا إذا كان قادراً على المقدورات ليقدر على تحصيل ما يحتاجون إلا إذا كان غنياً في نفسه وإلا شغله حاجة نفسه عن حاجة غيره ، فثبت أن كونه محسناً لا يتم إلا بعد كونه منزهاً عن النقائص والآفات» (١) .

لماذا تقدمت صفة الربوبية على صفة الرحمة والملك في فاتحة الكتاب فجاءت على هذا الترتيب ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعٰلَمِيْنَ ﴾ ﴿ اَلرَّحْمٰنِ اَلرَّحِيْمِ ﴾ ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّيْنِ ﴾ مع أننا نجد صفة الرحمة في البسملة جاءت بعد اسم الله مباشرة ؟ السبب في التقديم من عدة أوجه :

أولاً : بالنظر إلى ما قبل لفظ الجلالة في البسملة نجد أنها بدأت بباء الاستعانة فقولنا : بسم الله الرحمن الرحيم هو استعانة بقدرة الله حين نبدأ فعل الأشياء ثم جاء قوله الرحمن الرحيم في البسملة لمعنى آخر غير الموجود في الفاتحة إذ إنها في البسملة كما ذكر الشيخ الشعراوي تذكرنا برحمة الله سبحانه وتعالى وغفرانه حتى لا نستحي ولا نهاب أن نستعين بسم الله إن كنا قد فعلنا معصية فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نستعين باسمه دائماً في كل أعمالنا . فإذا سقط واحد منا في معصية ، قال كيف أستعين باسم الله وقد عصيته ؟ نقول : ادخل عليه سبحانه من باب الرحمة فيغفر لك وتستعين به فيجيبك .

وأنت حين تسقط في معصية تستعيز برحمة الله من عدله ، لأن عدل الله لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . ولهذا جاء اسمه الرحمن واسمه الرحيم بعد لفظ الجلالة ، بينما جاء الاسمان الكريمان بعد صفة الربوبية فهو ما نبينه في المسألة الثانية . . (٢)

المسألة الثانية : جاءت صفة الربوبية متقدمة على صفة الرحمة نظراً لتعلقها بما قبلها وهو قوله : ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ ﴾ ، فالله محمود لذاته محمود لصفاته محمود لنعمه

(١) غرائب القرآن و رغائب الفرقان ص ٩٥ .

(٢) تفسير الشعراوي ج ١ ص ٥٢ .

وعطائه وقضائه وهو سبحانه رب الجميع المؤمن والكافر فهو الذي أوجدهم من العدم ورباهم على الجود والكرم فكل النعم التي هي من عطاء الربوبية هي في الدنيا لخلقه جميعاً وقد أوجدها لهم قبل وجودهم لتكون موجبات الحمد موجودة قبل الوجود الإنساني . ولهذا أمرنا الله في فاتحة الكتاب أن نقول الحمد لله وهي تعني حمد الألوهية ، فكلمة الله تعني المعبود بحق ، فالعبادة تكليف والتكليف يأتي من الله لعباده فكان الحمد أولاً لله ثم يقتضي بعد ذلك أن يكون الحمد لربوبية الله ، وكما يقول صاحب غرائب القرآن : « لما كان الله أحسن الأسماء عقبه بأكمل الصفات وهو ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ إذ معناه أن وجود ما سواه فائض عن تربيته وإحسانه وجوده وامتنانه ، فالأول يدل على التمام . والثاني يدل على أنه فوق التمام »^(١).

فالحمد لله رب العالمين على إيجادنا من عدم وإمدادنا من عدم ثم تأتي الرحمن الرحيم في الفاتحة بمعنى رحمة الله في ربوبيته لخلقه حتى لا يفهم من هذه الربوبية أنها ربوبية ظلم .

وكما يقول القرطبي : « لما كان في اتصافه بـ ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه فيكون أعون على طاعته وأمنع كما قال :

﴿ بَنَىٰ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ۝ ﴾ (الحجر: ٤٩-٥٠)^(٢)، ولكننا إذا رأينا ظلماً واقعاً من بعض العباد على بعض في الدنيا فليس ذلك منافياً لصفة الربوبية ولا لصفة الرحمة ومن أجل ذلك جاء قوله ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (الفاتحة: ٤) ليدخل العباد في دائرة الطمأنينة من أنهم إذا أصابهم ظلم في الدنيا فإن هناك يوماً لا ظلم فيه وهذا اليوم الأمر فيه الله وحده بدون أسباب فكل إنسان لو لم يدركه العدل والقصاص في الدنيا فإن الآخرة تنتظره

(١) تفسير غرائب القرآن ص ٩٥ .

(٢) تفسير الجامع لأحكام القرآن ج ١ ص ٩٨ .

ولهذا جاء الترتيب في السورة على أساس أن البداية من الله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والرحمة في الإيجاد والمعاش من الله ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ والنهاية إلى الله ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يقول صاحب غرائب القرآن في المسألة الخامسة في تفسير قوله مالك يوم الدين : « في هذه السورة من أسماء الله خمسة : الله ، الرب ، الرحمن ، الرحيم ، المالك ، كأنه يقول لك : خلقتك أولاً فأنا الله ، ثم ربيتك بأصناف النعم فأنا الرب ، ثم عصيت فسترت عليك فأنا الرحمن ، ثم تبت فغفرت لك فأنا الرحيم ، ثم أجازيك بما عملت فأنا مالك يوم الدين . وقد جاء قوله ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة:٤) إثر قوله الرحمن الرحيم كما يقول المراغي : « ليكون كترهيب بعد ترغيب وليعلمنا أنه تعالى ربي عباده بكلما النوعين من التربية فهو رحيم بهم ومجاز لهم على أعمالهم { كما قال تعالى : ﴿بَنَىٰ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (١) وأنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (الحجر:٤٩-٥٠) (٢) » .

ومن لطائف الترتيب في فاتحة الكتاب ما ذكره الرازي في حديثه عن الأسرار المستنبطة من الفاتحة قال : « ولما تقرر هذا المعنى - يقصد معنى الحمد لله رب العالمين - ظهر أن الموجود الذي يقدر على خلق هذه العوالم على عظمتها ، ويقدر على خلق العرش والكرسي والسموات والكواكب لا بد أن يكون قادراً على إهلاكها ، ولا بد أن يكون غنياً عنها ، فهذا القادر القاهر الغني يكون في غاية العظمة والجلال وحينئذ يقع في قلب العبد أنى مع نهاية ذلتي وحقارتي كيف يمكنني أن أتقرب إليه ، وبأي طريق أتوسل إليه ، فعند هذا ذكر الله ما يجري مجرى العلاج الموافق لهذا المرض ، فكأنه قال : أيها العبد الضعيف ، أنا وإن كنت عظيم القدرة والهيبة والإلهية إلا أنني مع ذلك عظيم الرحمة ، فأنا الرحمن الرحيم وأنا مالك يوم الدين ، فما دمت في هذه الحياة لا أخليك عن أقسام رحمتي وأنواع نعمتي وإذا مت فأنا مالك يوم الدين ، لا أضيع عملاً من أعمالك ،

(١) تفسير البحر المحيط ج ١ ص ٤٩

(٢) تفسير المراغي ج ١ ص ٣٢ .

فإن أتيتني بالخير قابلت الخير الواحد بما لانهاية له من الخيرات ، وإن أتيتني بالمعصية قابلتها بالصفح والإحسان والمغفرة» .^(١)

ولقد أخطأ مكّي فيما نقله عنه أبو حيان من أن قوله تعالى في فاتحة الكتاب ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ مؤخر يراد به التقديم تقديره {الحمد لله الرحمن الرحيم رب العالمين} وعلل ذلك بقوله : « وإنما قلنا بالتقديم لأن مجاورة الرحمة بالحمد أولى ومجاورة الملّك بالملّك أولى قال : والتقديم والتأخير كثير في القرآن » ولقد رد عليه أبو حيان بما يشفي قائلاً : « وكلام مكّي مدخول من غير وجه ، ولولا جلالة قائله نزهت كتابي هذا عن ذكره والترتيب القرآني جاء في غاية الفصاحة لأنه تعالى وصف نفسه بصفة الربوبية وصفة الرحمة ، ثم ذكر شيئين : أحدهما : ملكه يوم الجزاء . والثاني : العبادة ، فناسب الربوبية للملك ، والرحمة للعبادة ، فكان الأول للأول ، والثاني للثاني » .^(٢)

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥) يقول الرازي عن سر التقديم في هذه الآية : « الفائدة الثالثة : قال إياك نعبد ، فقدم قوله إياك على قوله نعبد ولم يقل نعبدك ، وفيه وجوه : الأول : أنه تعالى قدم ذكر نفسه ليتنبه العابد على أن المعبود هو الله الحق ، فلا يتكاسل في التعظيم ولا يلتفت يميناً ولا شمالاً وثانيها : أنه إن ثقلت عليك الطاعات وصعبت عليك العبادات من القيام والركوع والسجود فاذكر أولاً قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ لتذكرني وتحضر في قلبك معرفتي ، فإذا ذكرت جلالتي وعظمتي وعزتي وعلمت أنني مولاك وأنت عبدي سهلت عليك تلك العبادات ومثاله أن من أراد حمل الجسم الثقيل تناول قبل ذلك ما يزيده قوة وشدة ، فالعبد لما أراد حمل التكالييف الشاقة الشديدة تناول أولاً معجون معرفة الربوبية من يستوقفه قوله إياك حتى يقوى على حمل ثقل العبودية . وثالثها : قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠١) ، فالنفس إذا مسها طائف من

(١) تفسير مفاتيح الغيب ج ١ ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) تفسير البحر المحيط ج ١ ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

الشیطان من الكسل والغفلة والبطالة تذکروا حضرة جلال الله من مشرق قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فيصیرون مبصرین مستعدين لأداء العبادات والطاعات .

ورابعها : إنك إذا قلت : نعبدك فبدأت أولاً بذكر عبادة نفسك ولم تذكر أن تلك العبادة لمن فيحتمل أن إبليس يقول : هذه العبادة للأصنام أو للأجسام أو للشمس أو القمر أما إذا غيرت هذا الترتيب وقلت أولاً إياك ثم قلت ثانياً نعبد كان قولك أولاً إياك صريحاً بأن المقصود والمعبود هو الله تعالى ، فكان هذا أبلغ في التوحيد وأبعد عن احتمال الشرك .

وخامسها : هو أن القديم الواجب لذاته متقدم في الوجود على المحدث الممكن لذاته فوجب أن يكون ذكره متقدماً على جميع الأذکار فلهذا السبب قدم قوله إياك على قوله نعبد ليكون ذكر الحق متقدماً على ذكر الخلق .

وسادسها : قال بعض المحققين : من كان نظره في وقت النعمة إلى المنعم كان نظره في وقت البلاء إلى المبتلي لا إلى البلاء ، وحينئذ يكون غرقاً في كل الأحوال في معرفة الحق سبحانه ، وكل من كان كذلك كان أبداً في أعلى مراتب السعادات ، أما من كان نظره في وقت النعمة إلى النعمة لا إلى المنعم كان نظره في وقت البلاء إلى البلاء لا إلى المبتلي فكان غرقاً في كل الأوقات في الاشتغال بغير الله ، فكان أبداً في الشقاوة ، لأن في وقت وجدان النعمة يكون خائفاً من زوالها فكان في العذاب وفي وقت فوات النعمة كان مبتلي بالخزي والنكال فكان في محض السلاسل والأغلال ، ولهذا التحقيق قال لأمة موسى : ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِي﴾ (البقرة: ٤٧) وقال لأمة محمد : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ (البقرة: ١٥٢) إذا عرفت هذا فنقول : إنما قدم قوله إياك على قوله نعبد ليكون مستغرقاً في مشاهدة نور جلال إياك ومتى كان الأمر كذلك كان في وقت أداء العبادة مستقراً في عين الفردوس كما قال تعالى : { لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً } . وسابعها : لو قيل نعبدك لم يفد نفي عبادتهم لغيره ، لأنه لا امتناع في أن يعبدوا الله ويعبدوا غير الله كما هو دأب المشركين ، أما لما قال إياك نعبد أفاد أنهم يعبدونه ولا يعبدون غير الله .

ويفرض الرازي هنا سؤالاً يجيب عنه بنفسه فيقول : فإن قال قائل : جميع ما ذكرتم قائم في قوله الحمد لله مع أنه قدم فيه ذكر الحمد على ذكر الله .

فالجواب أن قوله الحمد يحتمل أن يكون لله ولغير الله فإذا قلت لله فقد تقيد الحمد بأن يكون لله ، أما لو قدم قوله : {نعبد} احتمل أن يكون لله واحتمل أن يكون لغير الله وذلك كفر ، والنكته أن الحمد لما جاز لغير الله في ظاهر الأمر كما جاز لله ، لا جرم حسن تقدم الحمد ، أما هنا فالعبادة لما لم تجز لغير الله لا جرم قدم قوله إياك على نعبد ، فتعين الصرف للعبادة فلا يبقى في الكلام احتمال أن تقع العبادة لغير الله .^(١)

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة:٥) تكلم الرازي عن سر التقديم والتأخير في الآية ولم يخل تفسيره من الإشارات والعبارات الصوفية كما هو معروف من طريقته وقد ألجأه ذلك إلى ذكر أحاديث القوم التي لم يثبت صحتها عند المحققين والتي تروى عند العوام والقصاصين وقد رأيت أن أحذفها طلباً للاقتصار على موضوع بحثنا حتى لا نخرج بالرد عليه عما نريد أن نسير فيه ، قال : «الفائدة الأولى : لقائل أن يقول : الاستعانة على العمل إنما تحسن قبل الشروع في العمل ، وهاهنا ذكر قوله إياك نعبد ثم ذكر عقيبه وإياك نستعين ، فما الحكمة فيه ؟ الجواب من وجوه :

• الأول : كأن المصلي يقول : شرعت في العبادة فأستعين بك في إتمامها ، فلا تمنعني في إتمامها بالموت ولا بالمرض ولا بقلب الدواعي وتغيرها .

• الثاني : كأن الإنسان يقول : يا إلهي إني أتيت بنفسي إلا أن لي قلباً يفر مني فأستعين بك في إحضاره وكيف وقد قال عليه الصلاة والسلام : {قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن} ، فدل ذلك على أن الإنسان لا يمكنه إحضار القلب إلا بإعانة الله .

• الثالث : لا أريد في الإعانة غيرك لا جبريل ولا ميكائيل ، بل أريدك وحدك وأقتدي في هذا المذهب بالخليل عليه السلام..... فكما لم يرض الخليل - عليه السلام - بغيرك معيناً فكذلك لا أريد معيناً غيرك ..

(١) تفسير مفاتيح الغيب ج ١ ص ٢٤٨-٢٥٠ .

• الرابع : إياك نستعين : أي لا أستعين بغيرك ، وذلك لأن الغير لا يمكنه إعانتني إلا إذا أعنته على تلك الإعانة ، فإذا كانت إعانة الغير لا تتم إلا بإعانتك فلنقطع هذه الوساطة ولنقتصر على إعانتك .

• الخامس : قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يقتضي حصول رتبة عظيمة للنفس بعبادة الله تعالى ، وذلك يورث العجب فأردف بقوله : وإياك نستعين ليدل ذلك على أن تلك الرتبة الحاصلة بسبب العبادة ما حصلت من قوة العبد ، بل إنما حصلت بإعانة الله ، فالمقصود من ذكر قوله : وإياك نستعين إزالة العجب وإفناء تلك النخوة والكبر.^(١)

أقول : لقد أحسن الرازي في استخراجِه لتلك الكنوز والأسرار من قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ غير أنه قد فاتَه وجه آخر هام لعلة نسيه لربطه مفهوم الاستعانة بالعبادة وحصره عليها فإنه لا يغيب عن عالم أن استعانة العبد بالله ينبغي أن تكون صفة لازمة للعبد في كل أموره وأحواله فيما يرجوه وما يحذره في الخير والشر والرغبة والرغبة في الدنيا والآخرة والدليل على ذلك :

حديث ابن عباس رضي الله عنه وفيه {وإذا استعنت فاستعن بالله} رواه الترمذي وقال : حسن صحيح ورواه الإمام أحمد في المسند وهو الحديث التاسع عشر في جامع العلوم والحكم ، قال الحافظ ابن رجب في شرحه للحديث وقوله : ﷺ {إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله} هذا منتزع من قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإن السؤال هو دعاؤه والرغبة إليه . فتضمن هذا الكلام أن يسأل الله - عز وجل - ولا يسأل غيره وأن يستعان بالله دون غيره

فأما السؤال فقد أمر الله بمسأته ﴿وَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النساء: ٣٢) وفي الترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً {سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل}... وفي حديث آخر {ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها ، حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع} . وفي النهي عن مسألة المخلوقين أحاديث كثيرة صحيحة ، وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئاً ، منهم أبو بكر الصديق وأبو ذر

(١) مفاتيح الغيب ج ١ ص ٢٤٦ - ٢٥٠ .

وثوبان ، وكان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته ، فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه.^(١)

وأنا أضيف ثلاثة أوجه أخرى غير الخمسة السابقة التي ذكرها الرازي :

• الوجه السادس في تقديم قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أنه لما كانت العبادة حق خالص لله وهي مطلوبة ومراده ، وكانت الإعانة فيها ما هو طلب العون على العبادة وعلى غيرها من حاجات العباد قدم ما كان حقاً خالصاً لله على حق الله المشوب بحقوق الآدميين .

• الوجه السابع : أنه لو علقنا طلب الاستعانة ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بالعبادة وحدها .

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ دون ما سواها فإنه أيضاً يجب أن يتقدم قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على قوله : ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حيث إن العبادة هي الغاية بدليل قوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦) والاستعانة وسيلة للوصول إليها والغايات أشرف من الوسائل ولذا قدمت عليها .

• الوجه الثامن : وهو أن تقديم الضمير المنفصل على الفعلين {نعبد ونستعين} إنما هو للاختصاص فلا يعبد ويدعى إلا الله عز وجل ، بينما يرى الثعالبي والقرطبي أن التقديم للاهتمام .

قال الثعالبي : « وقدّم إياك على الفعل اهتماماً ، وشأن العرب تقديم الأهم^(٢) وتحت عنوان المسألة الرابعة والعشرين قال القرطبي : « إن قيل : لم قدم المفعول على الفعل ؟ قيل له قدم اهتماماً ، وشأن العرب تقديم الأهم . يذكر أن أعرابياً سب آخر فأعرض المسبوب عنه ، فقال له الساب : إياك أعني : فقال له الآخر : وعنك أعرض ، فقدما الأهم ، وأيضاً لثلاث يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود ، فلا يجوز نعبدك ونستعينك ، ولا نعبد إياك ونستعين إياك فيقدم الفعل على كناية المفعول ، وإنما يتبع لفظ القرآن .

(١) جامع العلوم والحكم ، ص ٣٧١ ، ٣٧٢ .

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن ج ١ ص ٤١ .

وقال العجاج :

إياك أدعو فتقبل ملقي واغفر خطايي وكثر ورقي .^(١)

وهذه الفوائد التي ذكرها الرازي هي بعينها وعللها التي نقلها صاحب تفسير غرائب القرآن ولكن دون أن ينسبها إليه وقال تحت المسألة السادسة : هاهنا مقامان : معرفة الربوبية ومعرفة العبودية ، وعند اجتماعهما يحصل الربط المذكور في قوله : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾ (البقرة: ٤٠).

أما معرفة الربوبية فكما لها مذكور في قوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ﴿ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ فانتقال العبد من العدم السابق إلى الوجود يدل على كونه إلهاً ، وحصول الفائدة للعبد حال وجوده يدل على كونه رباً رحماً رحيماً ، وأحوال معاده تدل على أنه مالك يوم الدين ، وأما معرفة العبودية فمبدؤها ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ وكما لها ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ في جميع المطالب ، وإذا تم الوفاء بالعهدين ترتبت عليه الثمرة وهو قوله : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة: ٦) فهذا ترتيب لا يتصور أحسن منه^(٢)

من حكم التقديم والتأخير عند الخازن في قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

قال : فإن قلت الاستعانة على العمل إنما تكون قبل الشروع فيه فلم آخر الاستعانة على العبادة وما الحكمة فيه؟ قلت : ذكروا فيه وجوهاً :

• أحدها : إن هذا يلزم من يجعل الاستطاعة قبل الفعل ونحن بحمد الله نجعل التوفيق والاستطاعة مع الفعل فلا فرق بين التقديم والتأخير .

• الثاني : إن الاستعانة نوع تعبد فكأنه ذكر جملة العبادة أولاً ثم ذكر ما هو من تفاصيلها ثانياً .

• الثالث : كأن العبد يقول شرعت في العبادة فإني أستعين بك على إتمامها فلا يمنعني من إتمامها مانع .

(١) تفسير القرطبي ج ١ ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٢) تفسير غرائب القرآن ص ١٠٧ .

• الرابع : إن العبد إذا قال إياك نعبد حصل له الفخر وذلك منزلة عظيمة فيحصل بسبب ذلك العجب فأردف ذلك بقوله : ﴿ وَإِيَّاكَ فَسْتَعِيسُ ﴾ ليزول ذلك العجب الحاصل بسبب تلك العبادة .^(١)

قال البيضاوي : « وتقديم ما هو مقدم في الوجود والتنبيه على أن العابد ينبغي أن يكون نظره إلى المعبود أولاً وبالذات ، ومنه إلى العبادة . . . ويعلم منه أن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدعى إلى الإجابة »^(٢)

ويضيف الألوسي وجهاً آخر للتقديم وهو التقديم لسبق الوجود فيقول : وتقديم ما هو مقدم في الوجود فإنه تعالى مقدم على العابد والعبادة ذاتاً فقدم وضعاً ليوافق الوضع الطبع . وتنبيه العابد من أول الأمر على أن المعبود هو الله تعالى الحق فلا يتكاسل في التعظيم ولا يلتفت يميناً وشمالاً ، والاهتمام فإن ذكره تعالى أهم للمؤمنين في كل حال لا سيما حال العبادة لأنها محل وساوس الشيطان من الغفلة والكسل والبطالة ، ويرى كذلك أنه في تأخير الاستعانة توافق رؤوس الآي .^(٣) ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (النحل: ١١٤) .

أولى التفاسير في قوله تعالى : ﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (الفاتحة: ٧) هو رأي جماهير المفسرين بأنهم هم النبيون والصادقون والشهداء والصالحون ، فخير ما يفسر به القرآن هو القرآن ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء: ٦٩) .

على أن المغضوب عليهم والضالين قد تعددت فيهم الأقوال واختلفت ، والظاهر ما قاله الأستاذ المراغي : « أن المغضوب عليهم هم الذين بلغهم الدين الحق الذي شرعه الله لعباده فرفضوه ونبذوه وراءهم ظهرياً ، وانصرفوا عن النظر في الأدلة تقليداً لما ورثوه عن الآباء والأجداد وهؤلاء عاقبتهم النكال والوبال في جهنم وبئس القرار .

(١) تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل ، ج ١ ص ٣٠ .

(٢) تفسير البيضاوي : ج ١ ص ٦٨ .

(٣) تفسير روح المعاني : ج ١ ص ٨٧ ، ٨٨ .

والضالون هم الذين لم يعرفوا الحق ، أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح ، وهؤلاء هم الذين لم تبلغهم رسالة أو بلغتهم على وجه لم يستبن لهم فيها الحق ، فهم تائهون في عماية لا يهتدون معها إلى مطلوب ، تعترضهم الشبهات التي تلبس الحق بالباطل والصواب بالخطأ إن لم يضلوا في شئون الحياة الدنيا ضلوا في شئون الحياة الأخرى^(١).

وبناء على هذا التفسير الذي ارتضيناه أقول : إن التقديم والتأخير على النحو التالي :

أولاً : تقديم المنعم عليهم أولاً لشرفهم وفضلهم فهم أولى بالذكر من هاتين الطائفتين الهالكتين .

ثانياً : تقديم ما أنعم الله به على عباده من الهداية والكرامة أولى من تقديم ما فعله أشرار العباد بأنفسهم من استحقاق الغضب عليهم والوقوع في الضلالة والغواية فقدّم الله ذكرهم لبيان إنعامه وإكرامه لهم .

ثالثاً : عند وصف الأشياء إنما يوصف الشيء بصفاته الثابتة واللازمة له قبل وصفه بصفات غيره المميزة له والفارقة بينه وبين المغاير له ، وكما هو معلوم أن مدلول {غير} هو المخالفة بوجه ما ، ولذا قدم صراط المنعم عليهم قبل المغضوب عليهم والضالين .

وقد مر بنا في الفصل الرابع {أثر التقديم والتأخير في المعاني} حكم تقديم غير وسوى وأن حكمهما وجوب التقديم في باب الإسناد إليهما ومر بنا قول المتنبي :
غيري بأكثر هذا الناس ينخدع حيث إنه ليس ممن ينخدع ويغتر وكذلك قول أبي تمام : غيري يأكل المعروف سحتاً ، حيث ينفي عن نفسه تلك الصفة الثابتة لغيره .
﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (الفاتحة:٧).

رأي أبي حيان في تقديم المغضوب عليهم على الضالين .

قال : « وقدّم الغضب على الضلال وإن كان الغضب من نتيجة الضلال ضل عن الحق فغضب عليه لمجاورة الإنعام ومناسبة ذكره قرينة ، لأن الإنعام يقابل الانتقام ولا يقابل الضلال الإنعام ، فالإنعام إيصال الخير إلى المنعم إليه ، والانتقام إيصال

(١) تفسير المراغي ، ج ١ ص ٣٧ .

الشر إلى المغضوب عليه ، فبينهما تطابق معنوي وفيه أيضاً تناسب التسجييع ، لأن قوله : ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ تمام السورة فناسب أواخر الآي ، وكان العطف بالواو الجامعة التي لا دلالة فيها على التقديم والتأخير لحصول هذا المعنى من مغايرة جمع الوصفين الغضب عليه والضلال لم أنعم الله عليه ، وإن فسر اليهود والنصارى فالتقديم إما للزمان أو لشدة العداوة ، لأن اليهود أقدم وأشد عداوة من النصارى^(١).

أقول : والأرجح عندي تقدم اليهود على النصارى بسبب شدة عداوتهم يدل عليه قوله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قِسِيسِينَ وَزُهَّابًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المائدة: ٨٢).

رأي الرازي :

اعتمد الرازي أسلوب التقديم والتأخير بين الآيات لبيان أحد وجوه التفسير لقوله تعالى : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ قال : ويحتمل أن يقال : المغضوب عليهم هم الكفار ، والضالون هم المنافقون ، وذلك لأنه تعالى بدأ بذكر المؤمنين والثناء عليهم في خمس آيات من أول البقرة ثم أتبعه بذكر الكفار وهو قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (البقرة: ٦) ثم أتبعه بذكر المنافقين وهو قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا ﴾ (البقرة: ٨) فكذا هاهنا بدأ بذكر المؤمنين وهو قوله : ﴿ أُنْعِمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ثم أتبعه بذكر الكفار وهو قوله : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ثم أتبعه بذكر المنافقين وهو قوله : ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾^(٢).

أقول : وهذه مقارنة حسنة ، وحسن نظر غير سالم من الرد حيث يقال : إنما ذكر الكفار بعد المؤمنين في سورة البقرة ، وسبق ذكرهم ذكر المنافقين للسبق الوجودي حيث لم يوجد المنافقون كما هو معلوم إلا في المجتمع المدني ، كما

(١) تفسير البحر المحيط ج ١ ص ٦٠ .

(٢) مفاتيح الغيب ج ١ ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

أنه عند التخلي عن المعايير وسيئ الصفات إنما يبدأ بالتنزه عن الأسوأ ثم السيئ ،
ومعلوم أن المنافقين أسوأ كفرة وأعظم جرماً وأشد عذاباً من الكافرين قال تعالى :
﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ (النساء: ١٤٥) ، فلو
كان الترتيب بين هذه الطوائف كما يدعي الرازي لكان المغضوب عليهم المقصود
بهم المنافقون أولى من أن يكون المقصود بهم الكافرين ، ولهذا نجد الترتيب في
الشر ذكره القرآن مرتباً ترتيباً تنازلياً مبتدئاً بالأسوأ فالأقل سوءاً وهكذا ، ومنه
قوله تعالى : ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ (الحجرات: ٧).

من نكات الترتيب التي ذكرها الرازي في الفاتحة :

بعد ذكر الرازي للأسماء الخمسة ذكر جملة من فوائدها منها النكتة الأولى : أن
سورة الفاتحة فيها عشرة أشياء ، منها خمسة من صفات الربوبية ، وهي : الله ،
والرب ، والرحمن ، والرحيم ، والمالك ، وخمسة أشياء من صفات العبد وهي :
العبودية ، والاستعانة ، وطلب الهداية ، وطلب الاستقامة ، وطلب النعمة ، كما قال :
﴿ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ فانطبقت تلك الأسماء الخمسة على هذه الأحوال
الخمسة ، فكانه قيل إياك نعبد لأنك أنت الله ، وإياك نستعين لأنك أنت الرب ،
اهدنا الصراط المستقيم لأنك أنت الرحمن ، وارزقنا الاستقامة لأنك أنت الرحيم ،
وأفضل علينا سجال نعمك وكرمك لأنك مالك يوم الدين .^(١)

* * *

(١) مفاتيح الغيب ج ١ ص ٢٨٨ .

سورة البقرة

ومناسبة سورة البقرة لفاتحة الكتاب واضحة جلية في أول السورة ، فإنه لما أخبر سبحانه أن عباده المخلصين سألوا في الفاتحة هداية الصراط المستقيم ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الفاتحة: ٦) الذي هو غير طريق الهالكين أرشدهم في أول التي تليها إلى أن الهدى المسؤول إنما هو في هذا الكتاب ، وبين لهم صفات الفريقين فريق المؤمنين الناجين وفريق الهالكين الكافرين ، فكان ذلك من أعظم المناسبات لتعقيب الفاتحة بالبقرة ، لأنها سيقى لنفي الريب عن هذا الكتاب ، وأنه هدى للمتقين الذين سألوا ربهم الهدى ثم شرعت في وصفهم ولماذا استحقوا الفلاح ووصفت الكافرين الذين لا يؤمنون لما وقع من الختم على حواسهم .

﴿ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ٢، ١) لقد تصدرت ثلاثون سورة في القرآن الكريم بالأحرف المقطعة منها سورة البقرة ، وبعيداً عن الخوض في معناها نسأل لماذا تقدمت هذه الأحرف المقطعة الثلاثين سورة؟ ولماذا لم تأت في وسط السورة أو آخرها ؟ الجواب : أن الحكمة في البداء بهذه الأحرف هو التنبيه وطلب إصغاء السامعين إلى ما يلقي بعدها خاصة وقد قالوا : ﴿ لَا تَسْمَعُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (فصلت: ٢٦) ولذا فإن الحكيم إذا خاطب من يكون مشغول البال قدم على المقصود شيئاً غيره ، والغالب أن يكون مستغرباً جديداً في طرحه ليلتفت المخاطب بسببه إلى ما يراد أن يلتفت إليه ، فحينئذ يكون كلاماً مفهوماً كقول القائل : اسمع أو ألقِ بالك إلي ، وحينئذ يكون في معنى الكلام المفهوم كقولك يا علي ، وحينئذ يكون صوتاً غير مفهوم المعنى كمن يصفر خلف إنسان ليلتفت إليه .

قال المراغي : « فحسن من الحكيم الخبير أن يقدم على المقصود حروفاً هي كالمنبهات لا يفهم منها معنى ، لتكون أتم في إفادة التنبيه ، لأنه إذا كان المقدم قولاً مفهوماً فربما ظن السامع أنه هو المقصود ولا كلام للمتكلم بعد ذلك ليصغى إليه ، أما إذا سمع صوتاً لا معنى له جزم أن هناك كلاماً آخر سيرد بعد فيقبل إليه تمام الإقبال ويرهف السمع إلى ما سيأتي » .

وقد ثبت بالاستقراء أن كل سورة في أوائلها حروف التهجي بدئت بذكر الكتاب أو التنزيل أو القرآن نحو {الم ذلك الكتاب ، المص كتاب أنزل إليك ، يس والقرآن ، ص والقرآن ، ق والقرآن ، حم تنزيل الكتاب} إلا ثلاث سور {كهيعص ، الم أحسب الناس ، الم غلبت الروم} ^(١)

وقد تقدم الريب على الظرف لأن المقصود نفي الريب عن الكتاب لا إثباته لغيره .

قال الزمخشري : « فإن قلت : فهلا قدم الظرف على الريب ، كما قدم على الغول في قوله تعالى : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ (الصفات: ٤٧) قلت : لأن القصد في إيلاء الريب حرف النفي ، نفي الريب عنه وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب ، كما كان المشركون يدعونه ، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد وهو أن كتاباً آخر فيه الريب فيه ، كما قصد في قوله : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ تفضيل خمر الجنة على خمر الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هي كأنه قيل ليس فيها ما في غيرها من العيب والنقيصة » ^(٢).

رأي الزمخشري في ترتيب الجمل داخل الآية :

بعدما ذكر الزمخشري الوجوه المختلفة في إعراب الآيات يرجح وجهاً إعرابياً مستنداً في ذلك على أنه أبلغ يقول : « والذي هو أرسخ عرقاً في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحاً ، وأن يقال : إن قوله : ﴿ التمر ﴾ جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة برأسها ، ﴿ ذَلِكَ أَلَكِ تَب ﴾ جملة ثانية و ﴿ لَا رَبَّ فِيهِ ﴾ ثالثة و ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ رابعة .

يقول : وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم ، حيث جرى بها متناسق هكذا من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متأخية آخذ بعضها بعنق بعض ، فالثانية متحدة بالأولى معتقة لها وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة . بيان ذلك أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتحدى به ، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال . فكان تقريراً لجهة التحدي ، وشداً من أعضاده ثم نفى عنه أن يتشبه به

(١) تفسير المراغي : ج ٢ ص ١١١ .

(٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٤٤ .

طرف من الريب ، فكان شهادة وتسجيلاً بكماله ، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة . وقيل لبعض العلماء : فيما لذتك ؟ فقال : في حجة تتبختر اتضاحاً ، وفي شبهة تتضاءل افتضاحاً . ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن ترتب هذا الترتيب الأنيق ، ونظمت هذا النظم السري ، من نكتة ذات جزالة ^(١) .
رأي أبي حيان في الآلية السابقة :

ومع أن أبا حيان خالف الزمخشري في رأيه الذي علل به تقديم الخبر على الظرف فقال : وقد انتقل الزمخشري من دعوى الاختصاص بتقديم المفعول إلى دعواه بتقديم الخبر ولا نعلم أحداً يفرق بين [ليس في الدار رجل] و[ليس رجل في الدار] وعلى ما ذكر من أن خمر الجنة لا يغتال ، وقد وصفت العرب بذلك خمر الدنيا .

قال علقمة بن عبدة :

تُشفي الصداغ ولا يُؤذيكَ طالِبها ولا يُخالِطُها في الراسِ تدويمُ
ونجد أن أبا حيان ينقل كلام الزمخشري بعينه دون أن يعزوه له وكان الأولى به نسبته إليه ، يقول أبو حيان ذاهباً إلى رأي الزمخشري دون أن يعترف بذلك : « والأولى جعل كل جملة مستقلة فذلك الكتاب جملة ولا ريب جملة وفيه هدى للمتقين جملة ، ولم يحتج إلى حرف عطف لأن بعضها أخذ بعنق بعض فالأولى أخبرت بأن المشار إليه هو الكتاب الكامل كما تقول زيد الرجل : أي الكامل في الأوصاف والثانية نعت . . والثالثة أخبرت أن فيه الهدى للمتقين » ^(٢) .
رأي الرازي :

يرى الرازي أن تقديم الخبر على الظرف للأهمية يقول : السؤال الثاني : لم قال هاهنا ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ وفي موضع آخر ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ ؟ الجواب لأنهم يقدمون الأهم فالأهم وهاهنا الأهم نفي الريب بالكلية عن الكتاب ، ولو قلت :

(١) الكشف ج ١ ص ٤٦ .

(٢) تفسير البحر المحيط ج ٦ ص ١٦١ .

لا فيه ريب لأوهم أن هناك كتاباً آخر حصل الريب فيه لا هاهنا كما قصد في قوله : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا فإنها لا تغتال العقول كما تغتالها خمرة الدنيا . وبهذا يتفق رأي الرازي مع رأي الزمخشري وهو ما ذكره صاحب غرائب القرآن .^(١)

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ (البقرة: ٣) .

في الآية السابقة تقدم ذكر الإيمان بالغيب على إقامة الصلاة والإنفاق ، والسبب في ذلك يرجع إلى أن أمر العبادات كلها ويأتي في مقدمتها الصلاة ، وهي حق الله ثم الزكاة وهي حق العباد إنما يتعلق قبولها والجزاء عليها بالإيمان ، فالله تعالى يقول : ﴿ وَقَدِّمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ (الفرقان: ٢٣) ، ويقول ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَتْهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يُخْسِبُهُ أَطْطَمَانٌ مَّاءٌ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (النور: ٣٩) وقد يكون التقديم للترتيب الوجودي أيضاً : إذ إن العبد يؤمر ويخاطب بالإيمان أولاً فإذا ما استجاب خوطب بعد ذلك بفروع الشريعة فإن الخطاب بالتكليف لا يتوجه لغير المؤمنين .

﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴾ تقدمت الصلاة لأهميتها فهي ثاني الأركان بعد الشهادتين ، ولهذا تقدمت الصلاة على الزكاة في كل المواضع التي اقترنت بها في القرآن .

يقول الرازي في تفسير هذه الآية : « يحتمل أن يكون كالتفسير لكونهم متقين وذلك لأن المتقي هو الذي يكون فاعلاً للחסنات وتاركاً للسيئات ، أما الفعل فإما أن يكون فعل القلب وهو قوله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ ﴾ وإما أن يكون فعل الجوارح ، وأساسه الصلاة والزكاة والصدقة ، لأن العبادة إما أن تكون بدنية وأجلها الصلاة أو مالية وأجلها الزكاة ولهذا سمى الرسول - عليه الصلاة والسلام { الصلاة عماد الدين ، والزكاة قنطرة الإسلام } .^(٢)

(١) مفاتيح الغيب ج ١ ص ٢١ ، غرائب القرآن ص ١٣٧ .

(٢) مفاتيح الغيب ج ١ ص ٢٦ .

وجه آخر للتقديم وهو أن الصلاة حق الله والزكاة حق العبد فقدم حق الرزاق على حق المرزوق والدليل على ذلك حديث النبي - عليه الصلاة والسلام - {فدين الله أحق بالقضاء} وقد يكون التقديم أيضاً لأن الصلاة سبب للرزق والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأُمِرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ (طه: ١٣٢) ، وأما التقديم في قوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ على قوله : ﴿ يُنْفِقُونَ ﴾ فقد ذكر البعض أنه من باب تقديم المفعول على الفاعل للاهتمام .

وأقول : بأن التقديم هنا له أسباب آخر منها :
أولاً : إثبات الأدب مع الله بذكر كريم فعله بعباده أولاً فقدم فعل الله على فعل العبد .

ثانياً : الحث على السخاء والإنفاق بإثبات الملك لمالكة وواهبه الحقيقي .
ثالثاً : حسن الفاصلة .

قال أبو حيان : « وترتيب الصلاة على حسب الإلزام فالإيمان بالغيب لازم للمكلف دائماً ، والصلاة لازمة في أكثر الأوقات ، والنفقة لازمة في بعض الأوقات ، وهذا من تقديم الأهم فالأهم » .^(١)
﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾
(البقرة: ٤) لم ذكر الله تعالى الإيمان بما أنزل إليه قبل ما أنزل من قبله مع أنه أسبق وجوداً ؟

وأقول : لأن الإيمان بما أنزل من قبل لم يعرف إلا من خلال الإيمان بما أنزل على محمد ، أو أن صحة الإيمان بما أنزل من قبل متوقفة على ما أنزل على النبي - عليه الصلاة والسلام - إذ هي الحكم في إثبات الصحيح من الزائف منها ولهذا قدم عليه والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ (المائدة: ٤٨) ، ويرى الرازي أن الآية التي قبلها ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ (البقرة: ٣) في المسلمين ، وأن هذه الآية التي بعدها

(١) تفسير البحر المحيط ج ١ ص ١٦٥ .

في أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسول : كعبد الله بن سلام ، وأن هذا التخصيص بالذكر مزيد تشريف لهم كما في قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ ﴾ (البقرة: ٩٨) ، ويرى الرازي أن هذه الآية من ذكر الخاص بعد العام ، وهذا القول يفتقر إلى الدليل فدعوى التخصيص تحتاج إلى التنصيص .^(١)

بينما يرى أبو حيان أن تقديم الجار والمجرور في الآية ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ اعتناءً به ولتطابق الأواخر .^(٢)

وأقول : نعم التقديم هنا للاعتناء ، أما تطابق الأواخر فسفن بحره فيها واقفة ليست بالمواخر ، وإنني لخائض يمه وللجته بعد قليل عابر حتى ينجلي ظلام الليل يصبح سافر ، ويصل إلى بر الأمان من عاتي أمواجه المسافر .

﴿ حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ (البقرة: ٧)

ويرى الزركشي أن التقديم والتأخير للتفنن في الفصاحة وإخراج الكلام على عدة أساليب .^(٣)

أقول : وليس هذا بالمراد فيما أرى والله أعلم بالصواب ، ففي هذه الآية ذكر ثلاثة أشياء على هذا الترتيب القلب ثم السمع ثم البصر ، فما هو السر في هذا الترتيب؟ الجواب لكون القلب أشرف أعضاء الإنسان ، فحواس الإنسان كلها في خدمة القلب وموصلة إليه ، وهو الحكم على كل ما يسمعه الإنسان أو يراه في حياته حباً أو بغضاً قبولاً أو رفضاً ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ (الكهف: ٥٧)

فالسماح ثابت لهم بدليل قوله : ﴿ ذُكِّرَ ﴾ وهو متقدم وجوداً إذ العلم مترتب عليه أولاً ثم جاء قوله : ﴿ فَأَعْرَضَ ﴾ وهو من عمل القلب حيث كره الحق فأعرض عنه وتصديق ذلك أنه عند ذكر السبب تقدم القلب أولاً ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً

(١) تفسير مفاتيح الغيب ج ١ ص ٣٥ .

(٢) تفسير البحر المحيط ج ١ ص ٣٦ .

(٣) البرهان في علوم القرآن ج ٢ ص ٣٣٣ .

أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِيءَ أَذَانِهِمْ وَقَرَأَ ﴿ وَنَظِيرَ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيءَ أَذَانِنَا وَقَرُّ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ ﴾ (فصلت: ٥) والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً ولأن القلب هو محل الإيمان وقبول الحق قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ (الشعراء: ١٩٣، ١٩٤) أما قوله تعالى : ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَقَلْبِهِ ﴾ (الجاثية: ٢٣) فأخر القلب فيها لأن العناية في هذه الآية بدم المتصاممين عن السماع ، ومنهم الذين كانوا يضعون القطن في أذانهم حتى لا يسمعوا ، ولهذا صدرت السورة بذكرهم في قوله : ﴿ وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ ﴿ يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا ﴾ (الجاثية: ٨٠، ٨١) وفي الحديث {إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب} .

وأدب الإنسانية في حديثه عن العاطفة إنما يذكر القلب على أنه السبب أو المحرك للعواطف الإنسانية .

قال الألوسي : « وإنما قدم سبحانه الختم على القلوب هنا لأن الآية تقرير لعدم الإيمان فناسب تقديم القلوب لأنها محل الإيمان والسمع والأبصار طرق وآلات له وهذا بخلاف قوله تعالى : ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَقَلْبِهِ ﴾ فالسياق لعدم المبالاة بالمواعظ ولذا جاءت الفاصلة ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فكان المناسب هناك تقديم {السمع} .^(١)

﴿ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَرِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ (البقرة: ٧) ذهب جمهور المفسرين وعلماء القرآن إلى تفضيل السمع على البصر ، وأن هذا التقديم للترقي ، لأن السمع أشرف من البصر ، ويستدلون على ذلك بأدلة عقلية ذكرها الرازي في المسألة السابعة فقال : « من الناس من قال : السمع أفضل من البصر لأن الله تعالى حيث ذكرهما قدم السمع على البصر لأن التقديم دليل على التفضيل ولأن السمع شرط النبوة بخلاف البصر ، ولذلك ما بعث الله رسولا أصم وقد كان فيهم من كان مبتلى بالعمى ، ولأن بالسمع تصل نتائج عقول البعض إلى البعض ، فالسمع كأنه

(١) تفسير روح المعاني ج ١ ص ٣٥ .

سبب لاستكمال العقل بالمعارف ، والبصر لا يوقفك إلا على المحسوسات ولأن السمع متصرف في الجهات الست بخلاف البصر ، ولأن السمع متى بطل ، بطل النطق . ومنهم من قدم البصر لأن آلة القوة الباصرة أشرف ولأن متعلق القوة الباصرة هو النور ومتعلق القوة السامعة هو الريح .

وقولهم غير مسلم له لجملة من الأسباب :

• أولاً : السمع هو وسيلة الوحي تلقياً للرسول وسماعاً للمرسل إليهم قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا فَسَمِعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (الملك: ١٠) أما ما ذكره من أن السمع شرط للنبوة فذلك الشرط يشاركه غيره من انتفاء صفات العيب الخلقي كلها من العرج والعمى والبكم والصمم وغيرها مما يعد عيباً خلقياً ، وأما ما ابتلى الله به بعض الأنبياء بالعمى ولم يبتلهم بالصمم فليس فيه دليل على تفضيل إذ هو محض إرادة الله وحكمته .

• ثانياً : قد يكون التقديم هنا من باب سبق الوجود ، أي أن الأذن تخلقت قبل العين أو سبق إدراك ووظيفة ، حيث إن إدراك المسموعات أسبق من إدراك المبصرات وقد بحثت هذه المسألة من الناحية الطبية . وخلصت إلى صحة ما ذهب إليه من سبق إدراك المسموعات قبل المبصرات ، حتى أن الجنين ليسمع الأصوات وهو في رحم أمه ، وكذلك بعد الولادة لا يستطيع المولود أن يبصر شيئاً عدة أيام بينما يسمع الأصوات التي من حوله ، قال الطبيب الأمريكي المشهور كيث صاحب المرجع الطبي المعروف [النمو البشري] حيث يقول : « تبدأ الأذن والعين في التكون أثناء الأسبوع الرابع من الحمل ولكن وظيفتي السمع والبصر يتكونان في وقت لاحق ، حديثو الولادة لا يستطيعون الرؤية بوضوح في الأسابيع الأولى بعد الولادة وذلك يرجع إلى عدم اكتمال تكون الجزء الحساس في شبكية العين المسئول عن حدة البصر » .^(١)

(1) Keith L Moor . the developing human clinically oriented embryology, 3rd edition with Islamic additions correlation studies with Qur'an and Hadith, by W .B . Saundres company USA 1982;{ 19} p 420

« وظيفة السمع تسبق وظيفة البصر في التطور حيث إن جنين الإنسان يستطيع السمع بعد انتهاء الشهر السادس من الحمل ، بينما لا يرى بوضوح حتى بداية الأسبوع العاشر بعد الولادة » .^(١)

أيضاً العصب البصري يكون غير كامل التكون عند الولادة ، بعد تعرض العين للضوء لمدة عشرة أسابيع تقريباً يكتمل تطور العصب البصري .^(٢)

توجد كثير من الدلائل على قدرة الجنين على اختزان الخبرات الصوتية التي تظهر لاحقاً في المرحلة المتقدمة بعد الولادة ، يستطيع المولود أن يميز صوت أمه أو صوت أبيه أو بعض القطع الموسيقية التي استمع لها مسبقاً أثناء الحمل مما يثبت قدرة الجنين على التعلم وهو داخل الرحم .

« اكتشف حديثاً أن الأصوات المحيطة بالمرأة الحامل تخترق الأنسجة والسوائل المحيطة برأس الجنين فتثير الأذن الداخلية من خلال التوصيل العظامي للموجات الصوتية »^(٣)

وقد نشرت جريدة العالم الإسلامي مقالاً بعنوان [مدلولات مختلفة للبصر والرؤية والنظر في القرآن] وتحت هذا العنوان : [خواطر من وحي آيات البصر] موضوع البحث العلمي الذي أعده الدكتور عفيفي محمود الأستاذ بكلية العلوم جامعة المنصورة والذي يتناول فيه المناقشة والإعجاز العلمي في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ وأيضاً قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْفُورًا ﴾ ويقول الباحث : « إن هناك آيات أخرى تعد بالعشرات تقرن بين السمع والبصر ، وأول ما يلفت النظر فيها هو ذكر السمع قبل البصر مع أن البصر لا يقل عن السمع

(1) Kwitko, ML {ED}: Surgery of the infant eye . New York, Appleton-Centurycrofts, 1979

(2) Gerhardet KJ, Abrams RM . Fetal exposures to sound and vibroacoustic stimulation . J Perinatol 2000 Dec, 20 {8 Pt 2} : S21-30

(3) Moon CM, Fieffer WP . Evidence of transnatal auditory learning . J Prinatol 2000 Dec, 20{ 8 Pt 20}:S37-44 .

أهمية ، وقد يفوقه في الأهمية ، وذكر السمع قبل البصر مطابق للحقيقة العلمية ،
 فبينما يصبح الجنين سمياً وهو في الشهر الثالث من الحمل لا يصبح بصيراً إلا
 بعد الولادة بأسبوعين ، فاكتمال حاسة السمع في هذا الطور المبكر يعطي الجنين
 فرصة الاستماع إلى دقات قلب أمه فترة كافية تجعله يستوعبها تماماً بحيث
 يتذكرها بعد الولادة كلما ضمته إلى صدرها وبهذا يهدأ ويطمئن وقت الإرضاع ،
 أما حاسة البصر فإن أعضاء الإبصار لا تمارس وظائفها إطلاقاً طوال الحياة
 الجنينية - رغم اكتمال تكوينها - لانعدام الضوء اللازم لنقل المثيرات^(١)

ثالثاً : لقد ذكر القرآن العین قبل الأذن في قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا عَلَيْنِمْ فِهَا
 أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْأَنْفِ وَالْأَنْفَ بِالْأُذُنِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالْأُذُنَ
 بِالْأُذُنِ ﴾ (المائدة: ٤٥) وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَزْجُلْ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ
 بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ
 ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونِ ﴾ (الأعراف: ١٩٥).

● ثالثاً : أما كون السمع تصل به نتائج العقول بعضها إلى بعض فصحيح ولكن
 بالقراءة والنظر أيضاً تصل نتائج العقول بعضها إلى بعض ولا سيما الآن في عصر
 ثورة الاتصالات والتي تعتمد على النظر أكثر من السمع .

● رابعاً : الثابت عند أهل السنة والجماعة أن أعظم نعيم أهل الجنة هو النظر
 إلى ربهم في الجنة كما فسر النبي بذلك قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى
 وَزِيَادَةٌ ﴾ (يونس: ٢٦) الحسنَى الجنة والزيادة النظر إلى وجهه الكريم ، وفي
 الحديث عن نعيم أهل الجنة ﴿فَمَا أُعْطُوا شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى ...﴾

● خامساً : إن فقد البصر أشد إيلاماً من فقد السمع ولهذا بدئ به في قوله تعالى :
 ﴿ وَخَشَرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمياً وَكُمياً وَصُمّاً ﴾ (الإسراء: ٩٧).

ويؤيد ما ذكرته من أن البصر أهم من السمع وأفضل بوجه عام منه حديث
 البخاري الذي رواه عن أنس رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ﴿إن الله عز
 وجل قال : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصر عوضته عنهما الجنة ، يريد عينيهِ﴾ قال شارح

(١) جريدة العالم الإسلامي ص ٨ .

رياض الصالحين معلقاً على الحديث : محضهما بذلك لأنهما أحب أعضاء الإنسان إليه ، وأخرج الترمذي وصححه من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : { يقول الله عز وجل : من أذهبت حبيته فصر واحتسب لم أرض له ثواباً دون الجنة } ووجه هذا الجزاء ، أن فاقدتهما حبس الدنيا فالدنيا سجنه حتى يدخل الجنة. ^(١)

وأقول : هذا الحديث قاطع في المسألة على أن البصر أفضل من السمع ولهذا ورد فيه هذا الفضل الذي لم يرد في أي عضو آخر .

أما الترتيب في قوله تعالى : { صُمُّ بُكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } (البقرة: ١٨) هذا مثل ضربه الله لحال المنافقين في الدنيا إذ إن هذا الترتيب يتوافق مع حال إعراضهم وعدم انتفاعهم بسماع الوحي فصاروا مثل الأصم ، ثم لم يتكلموا بالإيمان ويشهدوا بالحق فترتب على ذلك عمايتهم في طريق الضلال .

قال الرازي : « اعلم أنه لما كان من المعلوم من حالهم أنهم كانوا يسمعون وينطقون ويبصرون امتنع حمل ذلك على الحقيقة فلم يبق إلا تشبيه حالهم لشدة تمسكهم بالعناد وإعراضهم عما يطرق سمعهم من القرآن وما يظهره الرسول من الأدلة والآيات بمن هو أصم في الحقيقة فلا يسمع ، وإذا لم يسمع لم يتمكن من الجواب فلذلك جعل بمنزلة الأبكم ، وإذا لم ينتفع بالأدلة ولم يبصر طريق الرشده فهو بمنزلة الأعمى » ^(٢)

وللألوسي رأي وجيه في سر التقديم ، يقول : « وقدم الصمم لأنه إذا كان خلقياً يستلزم البكم وآخر العمى لأنه كما قيل : شامل لعمى القلب الحاصل من صرف المبصرات والحواس الظاهرة ، وهو بهذا المعنى متأخر لأنه معقول صرف ولو توسط - حل بين العصا ولحائها - ولو قدم - لأوهم تعلقه بـ { لا يبصرون } ، أو الترتيب على وفق حال الممثل له لأنه يسمع أولاً دعوة الحق ثم يجيب ويعترف ثم يتأمل ويتبصر » . ^(٣)

(١) دليل الفالحين ج ١ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٢) مفاتيح الغيب ج ١ ص ٨٤ .

(٣) روح المعاني ج ١ ص ٣٥ .

ويؤيد ما ذهبت إليه في هذا الترتيب قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَآلَا نَعْمٍ لِّبَلِّغُهُمْ أَوْلَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩) وقد ذهب البقاعي في تفسيره أن تقديم البصر هنا للعموم لأنه ينتفع به الصغير الذي لا يفهم القول وكذا كل من في حكمه .^(١)

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ (محمد: ٢٣) .

● سادساً : قد لا يكون في الآية تقديم ولا تأخير إذا قلنا بأن على أبصارهم استئناف والجار والمجرور خبر المبتدأ الذي هو غشاوة وسوغ الابتداء بالنكرة فيه اعتمادها على الجار والمجرور قبلها ، ولذلك يجب تقديم هذا الخبر لأنه هو الذي سوغ الابتداء بالمبتدأ فتحصل أن الختم على القلوب والأسماع وأن الغشاوة على الأبصار ، فليس هنا تقديم للسمع على الأبصار .

قوله تعالى : ﴿ يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ﴾ (البقرة: ٢١، ٢٢) .

رأي الزمخشري في هذا الترتيب :

إنه سبحانه قدم من موجبات عبادته وملزمات حق الشكر له خلقهم أحياء قادرين أولاً لأنه سابقة أصول النعم ومقدمتها ، والسبب في التمكن من العبادة والشكر وغيرهما ، ثم خلق الأرض التي هي مكانهم ومستقرهم الذي لا بد لهم منه ، وهي بمنزلة عرصة المسكن ومتقلبه ومفترشه ، ثم خلق السماء التي هي كالقبة المضروبة والخيمة المطبئة على هذا القرار ، ثم ما سواه عز وجل من شبه عقد النكاح بإنزال الماء عليها والإخراج به من بطنها - أشباه النسل المنتج من الحيوان - من ألوان الثمار رزقاً لبني آدم . .^(٢)

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ج ٣ ص ١٥٩ .

(٢) الكشف : ج ١ ص ٩٩ .

وقد ذكر الرازي في ترتيب الآية جملة من الأسباب لها وجاهاتها فيقول :
المسألة الثالثة : أن الله تعالى ذكر هاهنا خمسة أنواع من الدلائل اثنين من
الأنفس وثلاثة من الآفاق ، فبدأ أولاً بقوله ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ وثانياً بالآباء والأمهات وهو
قوله : ﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴾ ، وثالثاً بكون الأرض فراشاً ، ورابعاً بكون السماء بناءً ،
وخامساً بالأمور الحاصلة من مجموع السماء والأرض ، وهو قوله : ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ﴾ ولهذا الترتيب أسباب .

• الأول : أن أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه ، وعلم الإنسان بأحوال نفسه أظهر
من علمه بأحوال غيره ، وإذا كان الغرض من الاستدلال إفادة العلم ، فكل ما كان
أظهر دلالة كان أقوى إفادة ، وكان أولى بالذكر . فلهذا السبب قدم ذكر نفس
الإنسان ، ثم ثناء بآبائه وأمهاته ثم ثلث بالأرض ، لأن الأرض أقرب إلى الإنسان من
السماء ، والإنسان أعرف بحال الأرض منه بحال السماء ، وإنما قدم ذكر السماء
على نزول الماء من السماء وخروج الثمرات بسببه لأن ذلك كالأمر المتولد من
السماء والأرض والأثر متأخر عن المؤثر ، فلهذا السبب أخر الله ذكره عن ذكر
الأرض والسماء .

• الثاني : هو أن خلق المكلفين أحياء قادرين أصل لجميع النعم ، وأما خلق
الأرض والسماء والماء فذاك إنما ينتفع به بشرط حصول الخلق والحياة والقدرة
والشهوة ، { فلا جرم قدم ذكر الأصول على الفروع } .

أقول : ومما يؤيد قول الرازي ويشهد لصحته قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ (الجاثية: ١٣) .

• الثالث : أن كل ما في الأرض والسماء من دلائل الصانع فهو حاصل في
الإنسان ، وقد حصل في الإنسان من الدلائل ما لم يحصل فيهما لأن الإنسان حصل
فيه الحياة والقدرة والشهوة والعقل ، وكل ذلك مما لا يقدر عليه أحد سوى الله
تعالى . فلما كانت وجوه الدلائل له هنا أتم كان أولى بالتقديم . ويذكر في المسألة
السادسة تفصيل القول في أن السماء أفضل أم الأرض ؟ قال بعضهم : السماء أفضل
لوجوه .

أحدها : أن السماء متعبد الملائكة ، وما فيها بقعة عصى الله فيها أحد .

وثانيها : لما أتى آدم - عليه السلام بتلك المعصية - قيل له اهبط من الجنة ، وقال الله تعالى : لا يسكن في جواربي من عصاني .

• الرابع : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾ (الأنبياء: ٣٢) وقوله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ﴾ (الفرقان: ٦١) ولم يذكر في الأرض مثل ذلك.

• الخامس : أن في أكثر الأمر ورد ذكر السماء مقدماً على الأرض في الذكر . ونحن نتفق مع قول الرازي فيما ذهب إليه من أسباب التفضيل ، ولكن لو قال وما عصي الله في بقاع السماء كما عصي في بقاع الأرض لكان أحسن لأن إبليس قد عصى الله في السماء وليس على الأرض ، وذكر الرازي وجوهاً كثيرة لسبب تفضيل السماء على الأرض ، منها أن :

« فيها العرش والكرسي ومتعبد الملائكة ومنها أنها قبلة الدعاء ، فالأيدي ترفع إليها والوجوه تتوجه نحوها ، وهذا مردود عليه بأن السماء ليست قبلة الدعاء وإنما ترفع الأيدي إلى الله وتتوجه الوجوه نحوه حيث له علو الذات وعلو القهر ، ومنها أن السموات مؤثرة غير متأثرة ، والأرضون متأثرة غير مؤثرة والمؤثر أشرف من القابل ، فلهذا السبب قدم ذكر السماء على الأرض في الأكثر»^(١).

وأزيد على ما ذكره الرازي من أن تقديم السماء على الأرض للتفضيل ، لأن لها صفة الفوقية ، والعلو أفضل من السفلى فمن أسماء الله تعالى الظاهر ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾ (الحديد: ٣) والمراد بالظهور العلو ومنه قوله : ﴿ فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ (الكهف: ٩٧) ووصف الله نفسه بالفوقية ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ (الأنعام: ١٨) وكما قال تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ (النحل: ٥٠) والله تعالى مستو على السماء كما روى أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وهذه رواية مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي قال « بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم ، فقلت : واثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إليّ ، فجعلوا يضربون بأيديهم

(١) مفاتيح الغيب ج ١ ص ١١٥-١١٧ .

على أفخاذهم فلما رأيتهم يصمتونني لكنني سكت ، فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً فوالله ما نهزني ولا ضربني ولا شتمني قال : إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن ، أو كما قال رسول الله ﷺ ، قلت : يا رسول الله إني حديث عهد بجاهلية وقد جاء الله بالإسلام وإن منا رجالاً يأتون الكهان قال : فلا تأتهم ، قال : ومنا رجال يتطيرون ، قال : ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدركم ، قال قلت : ومنا رجال يخطون ، قال : كان نبي من الأنبياء يخط فممن وافق خطه فذاك ، قال : وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قبل أحد فاطلعت يوماً فإذا الديب قد ذهب بشاة من غنمها وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون لكنني صككتها صكة فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليّ قلت يا رسول الله أفلا أعتقها ؟ قال : اثنتي بها ، فأتيتها بها فقال لها : أين الله ؟ قالت في السماء ، قال : فمن أنا ؟ قالت : أنت رسول الله قال : أعتقها فإنها مؤمنة .^(١)

ومن السماء تنزل الرحمة وهذا ثابت من رقية النبي - عليه الصلاة والسلام - للمريض قال : {ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك أمرك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء اجعل رحمتك في الأرض اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرأ} رواه أبو داود وأحمد .^(٢)

ومن السماء تنزل الرحمة المادية والمعنوية ، المادية وهي الماء كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَتَلُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ﴾ (الشورى: ٢٨) والمعنوية وهذا ثابت من رقية النبي ﷺ للمريض {ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك أمرك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء اجعل رحمتك في الأرض اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع

(١) صحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم {٨٣٦} والنسائي كتاب السهو رقم {١٢٠٣} وأبي داود كتاب الصلاة رقم {٧٩٥} وكتاب الأيمان والنذور رقم {٢٨٥٦} ومسند أحمد باقي مسند المكثرين رقم {٧٥٦٥} ومسند الشاميين {١٧٢٦٦} ومسند الكوفيين {١٨٦٣٦} و{١٨٦٤٧} وباقي مسند الأنصار {٢٢٦٤٥} و {٢٢٦٤٩} و {٢٢٦٥٢} .

(٢) أحمد/٢٠/٦ أبو داود ٣٨٩٢ .

فيراً { كما أنه قد عصي الله في الأرض بما لم يعص في السماء قال تعالى : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ (البقرة: ٣٠) وقدمت الأرض على السماء في ستة مواضع وليس في خمسة مواضع كما ذكر الفيروزآبادي ، منها هذه الآية وفي آل عمران في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (آل عمران: ٥) وبدأ بالحديث عن علم الله بالأرض لأن المخاطبين هم البشر وحياتهم وأعمالهم فوق الأرض ليس في السماء وهو نفس السبب في سورة إبراهيم ﴿ وَمَا تَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (إبراهيم: ٣٨) وكذلك في يونس ﴿ فِيهِ وَمَا يَغْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (يونس: ٦١) أما في طه فالتقديم كآية سورة البقرة للترتيب الوجودي ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ (طه: ٤) أما سورة العنكبوت فلأن البشر على الأرض أقدر منهم في السماء ، أو قد يكون من باب الترقى ، أي إن كنتم قادرين في الأرض ثم أصبحتم أعظم في القدرة فصرتم إلى السماء فليست معجزين لله ﴿ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (العنكبوت: ٢٢) .
 رأي أبي حيان الأندلسي :

قال : « وعطف قوله : ﴿ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ على الضمير المنصوب في ﴿ خَلَقَكُمْ ﴾ والمعطوف متقدم في الزمان على المعطوف عليه وبدأ به وإن كان متأخراً في الزمان لأن علم الإنسان بأحوال نفسه أظهر من علمه بأحوال غيره ، إذ أقرب الأشياء إليه نفسه ، ولأنهم المواجهون بالأمر بالعبادة ، فتنبههم أولاً على أحوال أنفسهم أكد وأهم ، وبدأ أولاً بصفة الخلق إذ كانت العرب مقرة بأن الله خالقها ، وهم المخاطبون والناس تبع لهم إذ نزل القرآن بلسانهم » .^(١)

ويقول في موضع آخر عن سر التفضيل في هذه الآية حكاية عن بعض المفسرين : « وقدم الخلقة البشرية وإن كانت العالم الأصغر لما فيها من بدائع الصنعة ما لا يعبر عنه وصف لسان ، ولا يحيط به فكر جنان ، وظهور حسن الصنعة في الأشياء اللطيفة الجرم أعظم من في الأجرام العظام ، ولأن اعتبار الإنسان

(١) البحر المحيط ج ٣ ص ٢٣٤ .

بنفسه في قلب أحواله أقرب إلى ذهنه قال تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢١) أو لأن العرب عاداتها تقديم الأهم عندها والمعنى به وهو تعالى بإصلاح حال البنية البشرية أكثر اهتماماً من غيرها من المخلوقات ، لأنها أشرف مخلوقاته وأكرمها عليه قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ﴾ (الإسراء: ٧٠) ولأنه تعالى خلق هذه الأشياء منافع لبني آدم وأعدها نعماً يمتن بها عليهم وذكر المنعم عليه يتقدم على ذكر النعمة ، ... وقد ذكر الأرض على السماء وإن كانت أعظم في القدرة وأمكن في الحكمة وأتم في النعمة وأكبر في المقدار ، لأن السقف والبنيان فيما يعهد لا بد له من أساس وعمد مستقر على الأرض ، فبدأ بذكرها إذ على متنها يوضع الأساس وتستقر القواعد ، إذ لا ينبغي ذكر السقف أولاً قبل ذكر الأرض التي تستقر عليها قواعده ، أو لأن الأرض خلقها متقدماً على السماء ، فإنه تعالى خلق الأرض ومهد رواسيها قبل خلق السماء قال تعالى : ﴿ قُلْ أُنَبِّئُكُمْ لَتَكْفُرُونَ ﴾ (فصلت: ٩) ، أو لأن ذلك من باب الترقي بذكر الأدنى إلى ذكر الأعلى^(١).

أقول : وتقديم الأرض على السماء في هذه الآية إنما هو تقديم وجودي وليس تقديم فضل ، فالأرض أسبق وجوداً من السماء وهذا ما يتفق وظاهر القرآن في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أُنَبِّئُكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ١٠ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْنٌ ١١ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ اأْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ١٢ (فصلت: ٩-١١) ، وليس ذلك معارض بقوله تعالى : ﴿ هَـ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴾ ١٣ رَفَعَ سَمْعَهَا فَسَوَّاهَا ١٤ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ١٥ (النازعات: ٢٧-٢٩) فإن الله ذكر دحي الأرض وليس خلقها وإيجادها وليس معارضاً كذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (يونس: ٦١) رأي الزمخشري قال : « فإن قلت : لم قدمت الأرض على السماء بخلاف قوله في سورة سبأ : ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٢٤١ .

وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴿سبأ: ٣﴾ قلت : حق السماء أن تقدم على الأرض ، ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ووصل بذلك قوله : ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ لأم ذلك أن قدم الأرض على السماء .^(١)

وقد ذكر القرطبي في تفسيره للآية السابعة من سورة آل عمران حديثاً يزيل ذلك الإشكال ، روى البخاري عن سعيد بن جبير قال : قال رجل لابن عباس إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ قال : ما هي ؟ قال : ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠١) وقال : ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (الصفافات: ٢٧) وقال : ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٤٢) وقال : ﴿قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٢٣) فقد كتموا الله في هذه الآية وفي النزاعات ﴿أَمِيرَ السَّمَاءِ بَنَیْهَا﴾ إلى قوله ﴿دَحَنَهَا﴾ فذكر خلق الأرض قبل خلق السماء ثم قال : ﴿أَبْنَيْكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ .

فذكر في هذا خلق الأرض قبل خلق السماء وقال : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ١٠٠) ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٥٨) ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٤٨) فكانه كان ثم مضى فقال ابن عباس : ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾ في النفخة الأولى ثم ينفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون ، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون وأما قوله : ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٢٣) و ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٤٢) فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم ، وقال المشركون : تعالوا نقول : لم تكن مشركين فختم الله على أفواههم فتتطق جوارحهم بأعمالهم فعند ذلك عُرِفَ أن الله لا يكتُم حديثاً وعنده يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ، وخلق الله الأرض في يومين ثم دحا الأرض أي بسطها فأخرج منها الماء والمرعى وخلق فيها الجبال والأشجار والأكام وما بينها في يومين آخرين فذلك قوله : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَنَهَا﴾ (النزاعات: ٣٠) فخلقت الأرض وما فيها في أربعة أيام وخلقت السماء في يومين وقوله : ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ .

(١) الكشف ج ٢ ص ٤٣٢ .

يعني نفسه ذلك أي لم يزل ولا يزال كذلك ، فإن الله لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد ويحك فلا يختلف عليك القرآن فإن كلاً من عند الله .^(١)

أما تقديم المفعول غير الصريح في الآية فله عدة أوجه ، أن يكون ذلك إظهاراً للفضل وإشعاراً بالمنة والتخصيص بالنعمة ، أو كما ذكر الألوسي أنه تعجيل المسرة . بيان كون ما يعقبه من منافع المخاطبين أو للتشويق إلى ما يأتي بعده ، أو لما في المؤخر وما عطف عليه من نوع طول فلو قدم لفات تجاوب الأطراف .^(٢)

وفي هذه الآية تنقل من الأقرب إلى الأبعد كما ذكر الزركشي : قدم ذكر المخاطبين على من قبلهم ، وقدم الأرض على السماء .^(٣)

قال البقاعي : « ورتبت هذه النعم الدالة على الخالق الداعية إلى شكره أحكم ترتيب قدم الإنسان لأنه أعرف بنفسه والنعمة عليه أدعى إلى الشكر ، وثنى بمن قبله لأنه أعرف بنوعه ، وثلاث بالأرض لأنها مسكنه الذي لا بد له منه ، وربيع بالسماء لأنها سقفه ، وخمس بالماء فقال : { وأنزل } .^(٤)

وقد تقدم ذكر السماء على الأرض في معظم المواضع منها قوله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ (آل عمران: ١٣٣) وقوله تعالى في نفس السورة : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (آل عمران: ١٨٩) والآية التسعين بعد المائة من نفس السورة ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ وفي سورة المائدة في قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (المائدة: ١٧) ، وفي الآية التالية أيضاً ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (المائدة: ١٨) وفي الآية السابعة والتسعين من نفس السورة ﴿ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، وفي الآية العشرين بعد المائة ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ﴾ وفي سورة الأنعام ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ

(١) القرطبي ج ٣ ص ٩ ، ١٠ .

(٢) روح المعاني ج ١ ص ١٨٨ .

(٣) نظم الدرر ج ١ ص ٥٦ .

(٤) البرهان ج ٣ ص ٣١١ ، ٣١٢ .

وَالنُّورِ ﴿ (الأنعام: ١) وقوله تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الإسراء: ٥٥) والتاسعة والتسعين من السورة نفسها .
﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ وفي سورة فاطر
﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمِيسِلُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ (فاطر: ٤١) وفي سورة الأحزاب
﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الأحزاب: ٧٢) وفي سورة الحديد
﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ (الحديد: ٤) وفي مواطن كثيرة أخرى لم أذكرها طلباً للاختصار .

قوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (البقرة: ٢٤) تقدم ذكر الحجارة على ذكر الناس كما في قوله تعالى : ﴿ قُودًا أَنْفُسُكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (التحریم: ٦) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ (الأنبياء: ٩٨) وسر التقديم هنا أن الآية سيقت لتهديد ووعيد العصاة بالنار وتخويفهم بها ، فكان المناسب أن يبدأ بهم ، لأن النار وما فيها من حطب إنما خلقت من أجل تعذيبهم وهذا من باب تقديم الغايات على الوسائل .

قال أبو حيان : « وقدم الناس على الحجارة لأنهم العقلاء الذين يدركون الآلام والمعذبون ، أو لكونهم أكثر إيقاداً للنار من الجماد لما فيهم من الجلود والشحوم والعظام والشعور ، أو لأن ذلك أعظم في التخويف فإنك إذا رأيت إنساناً يحرق اقشعر بدنك وطاش لبك ، بخلاف الحجر . وهذا الأخير هو ما نميل إليه ، إذ إن السياق في الآيات ذكر على سبيل التخويف والأمر باتقائها »^(١).

وإلى المعنى نفسه ذهب الألوسي^(٢) . ﴿ وَنُفِثَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ هُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ (البقرة: ٢٥) .

تقدم خبر أن على اسمها وذلك لأن تقديم الخبر كما يقول أبو حيان أكد من تقديم المخبر عنه لقرب عود الضمير على ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ فهو أسرّ للسامع ،

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٢٥٠ .

(٢) روح المعاني ج ١ ص ١٦٣ .

والشائع أنه إذا كان الاسم نكرة تعين تقديمه كما في قوله تعالى: ﴿إِن لَّنَا لَأَجْرًا﴾ (الشعراء: ٤١)، وفي وصف الجنة في القرآن نجد دائماً أن ذكر الأنهار فيها مقدم على سائر الصفات وسر ذلك لتقديم كما يقول أبو حيان: «ولما كانت الجنة لا تشوق والروض لا يروق إلا بالماء الذي يقوم لها مقام الأرواح للأشباح ما كاد مجيء ذكرها مشفوعاً بذكر الأنهار مقدماً على هذا الوصف فيها على سائر الصفات»^(١).

وفي هذا التقديم كما لا يخفى بيان كمال الاعتناء والاهتمام بالمؤمنين وأن نعيم الجنة إنما سيق من أجلهم .

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ (البقرة: ٢٦) أما لماذا تقدم الضلال على الهدى في هذه الآية مع أنه أشرف؟ فأقول: لمناسبة السياق حيث إن الحديث هنا عن الكافرين الضالين الذين لم ينتفعوا بالأمثال بل ضلوا بها، فكان المناسب أن يبتدأ بهم لأنهم أصحاب الشأن والآية إنما نزلت في شأنهم، وهذا لا يعارض بأن التقديم قد يكون أيضاً للأغلبية والكثرة حيث إنه لا يهتدي بالأمثال ولا يعقلها إلا المؤمنون وهم الأقل .

يقول الألوسي عن سبب ذلك: «وقدم في النظم الإضلال على الهداية مع سبق الرحمة على الغضب، وتقدمها بالرتبة والشرف لأن قولهم ناشئ من الضلال»^(٢).
﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (البقرة: ٢٧)، تقدم في هذه الآية حق الله على حق عباده من باب التقديم للاهتمام والفضل والشرف، كما أن كل عهد بين العباد إنما هو فرع من عهد الله ونابع منه فهو أصل كل العهود ونظير هذه الآية قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ (الرعد: ٢١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض حديثه عن قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ «واعلم أن حق الله داخل في الحقيقين ومقدم عليهما ولهذا

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٢٥٦ .

(٢) روح المعاني ج ١ ص ٢٠٩ .

قدمه في قوله : ﴿ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾ فإن الله خلق العبد وخلق أبويه وخلق من أبويه . فحق النسب والقرابة والرحم تقدمه حق الربوبية ^(١) .
﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُعَمِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (البقرة: ٢٨) ، وقبل النظر في أسباب التقديم والتأخير في هذه الآية ينبغي أن نعرف ما المقصود بالموت الأول والثاني والحياة الأولى والثانية نظراً لتعدد أقوال العلماء في ذلك ، كما أن القول بالتقديم والتأخير إنما مداره وتعلقه على هذا المعنى .

أقول : إن أولى الأقوال بالقبول هو قول ابن عباس ، وابن مسعود ، ومجاهد : كنتم أمواتاً معلومين قبل أن تخلقوا دارسين ، كما يقال للشيء الدارس ميت ثم خلقتهم وأخرجتم إلى الدنيا فأحياكم ، ثم أماتكم الموت المعهود ثم يحييكم للبعث يوم القيامة .

وهذا القول هو المقدم بدلالة الآية الثانية من سورة الملك : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ وهو ما سوف يأتي بيانه عند الحديث عنها .

وقد ذكر ابن عطية عن القاضي أبي محمد أن هذا القول هو أولى الأقوال ، لأنه الذي لا محيد للكفار عن الإقرار به في أول ترتيبه ثم إن قوله أولاً ﴿ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ وإسناده آخر الإمامة إليه تبارك وتعالى مما يقوي ذلك القول ، وإذا أذعن نفوس الكفار لكونهم أمواتاً معلومين ، ثم للإحياء في الدنيا ، ثم للإماتة فيها قوي عليهم لزوم الإحياء الآخر ، وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها ^(٢) . وقريباً من هذا القول ما ذهب إليه البغوي في معالم التنزيل قال : ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا ﴾ نطفاً في أصلاب آبائكم ﴿ فَأَحْيَاكُمْ ﴾ في الأرحام والدنيا ﴿ ثُمَّ يُعَمِّتُكُمْ ﴾ عند انقضاء آجالكم ﴿ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ للبعث ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ أي تردون في الآخرة فيجزئكم بأعمالكم ^(٣) . لقد تقدم ذكر الموت على الحياة في أكثر آيات القرآن

(١) أحكام الزواج للإمام تقي الدين ابن تيمية ص ١٠ ، ١١ .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المشتهر باسم تفسير ابن عطية ج ١ ص ٢٢٠-٢٢٢ .

(٣) معالم التنزيل في التفسير والتأويل ج ١ ص ٦٠ .

الكريم مع أن الحياة أشرف من الموت من ذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَنَا أَتْنَتْنِي وَآخِيَّتَنَا أَتْنَتْنِي ﴾ (غافر: ١١) وقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾

(النجم: ٤٤) .

ذكر الزركشي بعضاً من أسباب ذلك التقديم فقال : « إن فيه قهراً للخلق والمقام يقتضيه ومنها أن حياة الإنسان كلا حياة ، ومآله إلى الموت ، ولا حياة إلا بعد الموت . ومنها : أن الموت تقدم في الوجود ، إذ الإنسان قبل نفخ الروح فيه كان ميتاً لعدم الروح . وهذا إن أريد بالموت عدم الوجود ، بدليل ﴿ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ وإن أريد به بعد الوجود فالناس منازعون في الموت هل هو أمر وجودي كالحياة أو لا ؟

وقيل بالوقف ، قالت الفلاسفة : الموت عدم الحياة عما من شأنه أن يكون حياً . والجمهور على أنه أمر وجودي يضاد الحياة ، محتجين بقوله : ﴿ الَّذِي خَلَقَ أَلْمُوتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ (المالك: ٢) والحديث في الإتيان بالموت على صورة كبش وذبحه . وأجيب عن الآية بأن الخلق بمعنى التقدير ، ولا يجب في المقدر أن يكون وجودياً ، وعن الثاني بأن ذلك على طريق التمثيل ، لبيان انقطاع الموت وثبوت الخلود .

فإن قلنا عدمي ، فالتقابل بينه وبين الحياة تقابل العدم والملكة ، وعلى الصحيح تقابل التضاد .

وعلى القول بأنه وجودي يجب أن يقال : تقديم الموت الذي هو عدم الوجود ، لكونه سابقاً أو معدوم الحياة الذي هو مفارقة الروح البدني يجوز أن يكون لكونه الغاية التي يساق إليه الإنسان في دار الدنيا ، . . أو تزهداً في الدار الفانية ، وترغيباً فيما بعد الموت .

فإن قيل : فما وجه تقدم الحياة في قوله : ﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٥)

وقوله : ﴿ وَتَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام: ١٦٢) قلنا : - الكلام للزركشي - إن كان الخطاب لآدم وحواء ، فلأن حياتهما في الدنيا سبقت الموت ، وإن كان للخلق فالخطاب لمن هو حي يعقبه الموت فما التقديم بالترتيب ، وكذا الآية بعده .

فإن قيل : فما وجه تقديم الموت على الحياة في الحكاية عن منكري البعث ﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ (المؤمنون: ٣٧) قلت لأجل مناسبة رؤوس الآي فإن قلت : فما وجه تقدم التوفي على الرفع في قوله : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ ﴾ (آل عمران: ٥٥) قيل فيه جوابان :

أحدهما : المراد بالتوفي النوم ، كقوله تعالى : ﴿ يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ (الأنعام: ٦٠).
 ثانيهما : أن التاء في متوفيك زائدة ، أي متوفيك عملك .^(١)

أقول : وهناك أوجه آخر لم يذكرها الزركشي منها : أن التوفي هو الإماتة العادية والرفع رفع الروح والمكانة لا المكان كما قال تعالى : في شأن إدريس - عليه السلام - ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (مريم: ٥٧) وقال في شأن المؤمنين : ﴿ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ (القمر: ٥٥) ويكون المعنى إني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان علي رفيع ، والذي أراه أن عيسى - عليه السلام - رفع من غير نوم ولا موت ، حيث رفع حياً بجسمه وروحه وسينزل في آخر الزمان فيحكم بشريعة الإسلام ثم يميتة الله ، وأن الآية على التقديم والتأخير لأن الواو لا توجب الرتبة ، والمعنى إني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء كقوله : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ (طه: ١٢٩) وهذا القول هو الذي دلت عليه الأحاديث النبوية الصحيحة ، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ {والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً} ^(٢) روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ {كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم} ^(٣) وعلى هذا الرأي أكثر العلماء وهو اختيار القرطبي والطبري والدكتور وهبة الزحيلي وذكر حديثاً لا يحتمل التأويل يؤيد هذا الرأي فلو صح لوجب المصير إليه ، {إن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة} .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَتَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(١) البرهان ج ٣ ٢٨٤ - ٢٨٦ .

(٢) صحيح مسلم ، باب نزول عيسى ابن مريم - عليه السلام - بشريعة نبينا محمد ﷺ رقم ٢٤٣ .

(٣) صحيح مسلم ، الباب السابق رقم ٢٤٥ .

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿قَالَ يَقَادِمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾
(البقرة: ٣٠، ٣٤)

لقد خرج الترتيب عن حد التسلسل الزمني والسياق التاريخي لتسلسل الأحداث فعندما قص الله قصة خلق آدم ، كان السياق التاريخي وتتابع الأحداث الزمنية يقتضي ذكر سجود الملائكة لآدم بعد ذكر خلقه ، ثم ذكر تعليم الله له أسماء كل شيء ما قال تعالى في موضع آخر ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾ ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص: ٧١، ٧٢) وظهور فضله بذلك على الملائكة فيعلمون علة سجودهم له ، ولكن الذي ذكر في سورة البقرة غير ذلك ، فقد ذكر بعد خلقه تعليمه أسماء كل شيء ، ثم عقب بذكر سجود الملائكة له كما جاء في الآيات السابقة قال الحافظ ابن كثير في تفسيره تعليلاً لهذا «وإنما قدم هذا الفصل على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليقة حين سألوا عن ذلك فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا تعلمون ، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل عليهم من العلم»^(١)

الترتيب في الآية الواحدة والثلاثين يدل على حسن جواب الملائكة إذ قدموا تنزيه الله أولاً ثم اعترفوا بنقصهم وجهلهم ثانياً ثم نسبوا إلى الله العلم والحكمة وناسب تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة كما يقول أبوحيان : «لأنه المتصل به في قوله وعلم ، أنبئوني ، لا علم لنا ، فالذي ظهرت به المزية لآدم من الفضيلة هو العلم ، فناسب ذكره متصلاً به ، ولأن الحكمة إنما هي آثار العلم وناشئة عنه ، ولذلك أكثر ما جاء في القرآن تقديم الوصف بالعلم على الوصف

(١) تفسير القرآن العظيم ت ٧٧٤ هجرية ج ١ ص ٧٢ ، ٧٣ .

بالحكمة ولأن يكون آخر مقالهم مخالفاً لأوله حتى يبين رجوعهم عن قولهم :
﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا ﴾ .^(١)

ويرى الزركشي في تقديم العليم على الحكيم أنه تقديم بالعلة والسببية كتقديم العزيز على الحكيم لأن الإتيان ناشئ عن العلم ، وكذلك أكثر ما في القرآن من تقديم وصف العلم على الحكمة يقول : « ويجوز أن يكون قدم وصف العلم هنا ليتصل بما يناسبه ، وهو ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ وفي غيره من نظائره ، لأنه صفات ذات فيكون من القسم قبله » .^(٢)

لماذا قدم العلم بالمشاهد على العلم بالغيب في الآية الثالثة والثلاثين ؟ معلوم أن العلم بالغيب أشرف وأثبت لصفات القدرة ، وأن من يعلم الغيب يعلم الجهر ولا يجب العكس وبهذا جاءت أكثر آيات القرآن التي تتحدث عن علم الله أنها تقدم علم الغيب على علم الشهادة كما في قوله تعالى : ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ (المؤمنون: ٩٢) وقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ ﴾ (الأنعام: ٣) وقوله : ﴿ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ (التغابن: ٤) أو تقتصر على علم الغيب وحده لدلالته على علم الشهادة ، كما في قوله تعالى : ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ (الجن: ٢٦)

أما هذه الآية فكما يقول أبو حيان : « وعطف قوله : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ هو من باب الترقى في الإخبار لأن علم الله تعالى واحد لا تفاوت فيه بالنسبة إلى شيء من معلوماته جهراً كان أو سراً » .^(٣)

وأرى أن الآية لم يتقدم فيها علم المشاهدة على علم الغيب ، بل تقدم فيها العلم بالغيب أولاً ليشمل ما في السموات والأرض ﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ هذا على سبيل العموم ثم ذكر الله بعد ذلك علمه بالملائكة وحالهم جهراً وسراً لإظهار حكمته في هذا الشيء الذي أظهره .
وللزركشي رأي وجيه إذ يرى أن التقديم لقصد أن يقع البداء والختم به ، للاعتناء بشأنه .^(٤)

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٢٩٨ .

(٢) البرهان ج ٣ ص ٢٨٩ .

(٣) البحر المحيط ص ٣٠٠ .

(٤) البرهان ج ٣ ص ٣٣٢ .

أما قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْسِرَّ وَخَفَى ﴾ (طه: ٧) والسر ما أسررت في نفسك وأخفى منه ما لم تحدث به نفسك ، مما يكون في علم الله سواء ، ولا شك أن الأَخْفَى من السر أبلغ منه في الإخفاء فلماذا قدم السر عليه ؟ ذكر الزركشي في هذه المسألة وجهين :

الأول : أنه أفعل تفضيل يستدعي مفضلاً عليه ، علم حتى يتحقق في نفسه ، فحينئذ يكون تقديم السر من النوع الأول .

الثاني : مراعاة رؤوس الآي .

أقول : ومن هذا القسم قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴾ (الأعلى: ٧) ولكنه ليس من باب مراعاة الفاصلة بل من باب الترقي في المعلوم من الأدنى إلى الأعلى .

﴿ وَقُلْنَا يَتَّعَدُمُ اسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (البقرة: ٣٥) تقدم ذكر الزوجة على الجنة في هذه الآية لأن نعمة السكن الروحي مع الإنسان أعظم من نعمة السكن البدني في المكان وأي نعيم بلا أنيس ؟ فالجار أهم من الدار ولهذا السبب قدم قوله تعالى : ﴿ عِنْدَكَ ﴾ على قوله : ﴿ فِي الْجَنَّةِ ﴾ في دعاء امرأة فرعون المذكور في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ (التحريم: ١١) حيث ذكرت الجار قبل الدار .

قال الألوسي : « وأيضاً في تقديم زوجك على الجنة نوع إشارة إليه ، وفي المثل : الرفيق قبل الطريق ، وأيضاً هي مسكن القلب والجنة مسكن البدن ومن الحكمة تقديم الأول على الثاني^(١) »

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٣٨) تقدم الخوف على الحزن لأنه أعظم الضررين وأشد الألمين ، فخوف المجهول أشد على النفس من الحزن على المعلوم .

قال صاحب غرائب القرآن : « وجمع قوله : ﴿ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ جميع ما أعد الله تعالى لأوليائه ، لأن الخوف ألم يحصل للنفس من توقع مكروه ،

(١) روح المعاني ج ١ ص ٢٣٤ .

أو انتظار محذور ، وزواله يتضمن السلامة من جميع الآفات ، والحزن أَلَم يعرض للنفس لفقد محبوب أو فوات مطلوب ونفيه يقتضي الوصول إلى كل اللذات والمرادات وإنما قدم عدم الخوف على عدم الحزن لأن زوال ما لا ينبغي مقدم على حصول ما ينبغي ^(١) .

وأقول : هناك سر آخر للتقديم في هذه الآية ، فيما أن الخوف يتعلق بما لم يحصل بعد ، أي بما يتوقع حدوثه في المستقبل ، فإن الخوف في هذه الآية متعلق بالآخرة أي بهذا العالم المجهول الغريب وما فيه من أهوال ، أما الحزن فهو على ما حدث في الماضي أي حزن على ترك الدنيا ومفارقة الأهل والأحباب والأموال وكل ما يحدث في الدنيا من حزن أو مكروه فإنه لا يداني لحظة أَلَم من عذاب الآخرة ، ولهذا قدم الخوف لما هو آت على الحزن لما قد فات فقدم أهمهما ، وإلى ما ذهبت إليه وجدت الرازي قد ذكره عن ابن زيد : لا خوف عليهم أمامهم فليس شيء أعظم في صدر الذي يموت مما بعد الموت ، فأمنهم الله تعالى منه ثم سلاهم عن الدنيا فقال : ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوه بعد وفاتهم في الدنيا ^(٢) .

﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة: ٤٥) يرى أبو حيان : أن تقديم الصبر على الصلاة لأن تأثير الصبر في إزالة ما لا ينبغي وتأثير الصلاة في حصول ما ينبغي ، والنفي مقدم على الإثبات ، ولم يذكر أبو حيان سبباً لرفضه هذا الرأي واكتفى بذكر رأيه حيث يقول : ويظهر أنه قدم الاستعانة به على الاستعانة بالصلاة لأنه سبق ذكر تكاليف عظيمة شاق فراقها على من ألفها واعتادها من ذكر ما نسوه ، والإيفاء بما أخلفوه والإيمان بكتاب متجدد ، وترك أخذهم الرشا على آيات الله ، وتركهم إلباس الحق بالباطل ، وكنتم الحق الذي لهم بذلك الرياسة في الدنيا ، والاستتباع لعوامهم ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وهذه أمور عظيمة فكانت البداية بالصبر لذلك ^(٣) .

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج ١ ص ٢٦٦ .

(٢) مفاتيح الغيب ج ٣ ص ٢٩٥ .

(٣) البحر المحيط ج ١ ص ٣٤١ .

وأقول: هذا رأي حسن، وحسن ربط للمعاني في السياق من خلال النظر لمفهوم الصبر في إزالة ما لا ينبغي وجعله سبب التقديم على الصلاة التي تأثيرها في حصول ما ينبغي، ولو أننا أخذنا الصبر بمفهومه الشامل لظهر لنا سر آخر للتقديم، فإن الصبر يندرج تحته الأنواع التالية: الصبر عن المعصية والصبر على المكروه والصبر على فعل الطاعات، ويأتي على رأسها أداء الصلوات والتي تحتاج إلى صبر على أداؤها وإتمامها، ولهذا ذكر الصبر قبلها، يؤيد ما ذكرناه أنه عندما تقدم الصبر أيضاً على الصلاة في سورة الرعد ذكر بعده جملة من صفات المؤمنين التي استحقوا بها دخول الجنة، وقد جمعت الملائكة كل أعمال الطاعات المذكورة في الآية في كلمة واحدة اقترنت بباء السببية في قوله تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَبِعَمِّ عَقِي الدَّارِ﴾ (الرعد: ٢٤) عقب قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ أَلَسَيِّفَةُ أُولَئِكَ هُمُ عَقِي الدَّارِ ﴿٢٥﴾ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (الرعد: ٢٣، ٢٤) وإلى ما ذهبت إليه في تقديم أمر الصبر على الصلاة وجدت أن أبا حيان قد ذكر نحوه عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ (البقرة: ١٥٣) يقول: «فالصبر قصر النفس على المكروه والتكاليف الشاقة، وهو أمر قلبي والصلاة ثمرته وهي من أشق التكاليف لتكررها. ثم ذكر اختلاف المفسرين في معنى الصبر حيث قيده بعضهم بأنه الصبر على أذى الكفار أو الصبر على أداء الفرائض أو الصوم أو الجهاد وعقب قائلاً: والأولى ما قدمناه من عموم اللفظ فتندرج هذه الألفاظ تحته»^(١).

وعن سر التقديم يقول الألوسي: «لما أمرهم سبحانه بترك الضلال والإضلال والتزام الشرائع، وكان ذلك شاقاً عليهم لما فيه من فوات محبوبهم وذهاب مطلوبهم عالج مرضهم بهذا الخطاب و{الصبر} حبس النفس على ما تكره وقدمه على الصلاة لأنها لا تكمل إلا به أو لمناسبته لحال المخاطبين، أو لأن تأثيره كما

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٦٢١.

قيل - في إزالة ما لا ينبغي وتأثير الصلاة في حصول ما ينبغي ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح» .^(١)

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة: ٤٨)، في هذه الآية تقدمت الشفاعة على العدل وفي آية أخرى في نفس السورة تأخرت عن العدل في قوله تعالى :

﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة: ١٢٣) قال الفيروزبادي : « قدم الشفاعة في هذه الآية وأخر العدل وقدم العدل في الآية الأخرى من هذه السورة وأخر الشفاعة . وإنما قدم الشفاعة قطعاً لطمع من زعم أن آباءهم تشفع لهم ، وأن الأصنام شفعاؤهم عند الله ، وأخرها في الآية الأخرى ليكون لفظ القبول مقدماً فيها» .^(٢)

يقول الشعراوي : « ففي الآية الأولى قدم الشفاعة وقال : لا يقبل والثانية أخر الشفاعة وقال لا تنفع . الشفاعة في الآية الأولى مقدمة والعدل متأخر ، وفي الآية الثانية لا تنفعها شفاعة والمقصود بقوله تعالى : ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا﴾ هل يوم القيامة الذي قال عنه سبحانه وتعالى : ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (الانفطار: ١٩)، وقوله تعالى : ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ كم نفس هنا؟ إنهما اثنتان نفس عن نفس هناك نفس أولى ونفس ثانية فما هي النفس الأولى؟ النفس الأولى هي الجازية والنفس الثانية هي المجزي عنها ومادام هناك نفسان فقولته تعالى : ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ هل من النفس الأولى أو الثانية؟ إذا نظرت إلى المعنى فالمعنى أنه سيأتي إنسان صالح يوم القيامة ويقول يارب أنا سأجزي عن فلان أو أغني عن فلان أو أقضي حق فلان ، النفس الأولى أي النفس الجازية تحاول أن تتحمل عن النفس المجزي عنها... والإنسان الصالح يحاول أن يشفع لمن أسرف على نفسه فلا تقبل شفاعته ولا يؤخذ منه عدل ولا يسمح لها بأي مساومة أخرى . إذاً لا يتكلم عن العدل في الجزاء إلا إذا فشلت الشفاعة .

(١) روح المعاني ج ٣ ص ٢٩ .

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ج ١ ص ١٤٢ .

هنا الضمير يعود إلى النفس الجازية أي التي تتقدم للشفاعة عند الله فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ ﴾ فلا يقبل منها أي مساومة أخرى ويقول سبحانه : ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ وهذا ترتيب طبيعي للأحداث .

في الآية الثانية يتحدث الله تبارك وتعالى عن النفس المجزي عنها قبل أن تستشفع بغيرها وتطلب منه أن يشفع لها لا بد أن تكون قد ضاقت حيلها وعزت عليها الأسباب فيضطر أن يذهب إلى غيره وفي هذا اعتراف بعجزه فيقول يارب ماذا أفعل حتى أخفر عن ذنوبي فلا يقبل منه فيذهب إلى من تقبل منهم الشفاعة فلا تقبل شفاعتهم .

وإذا أردنا أن نضرب لذلك مثلاً من القرآن الكريم فاقراً قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ (السجدة: ١٢) هؤلاء هم الذين يطلبون العدل من الله بأن يعيدهم إلى الدنيا ليكفروا عن سيئاتهم ويعملوا صالحاً ينجيهم من العذاب ذلك أن الحسنات يذهبن السيئات فماذا كان رد الحق سبحانه وتعالى عليهم قال جل جلاله : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٤) فهم عرضوا أن يكفروا عن سيئاتهم ، بأن يطلبوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً فلم يقبل الله سبحانه وتعالى منهم هذا العرض . اقرأ قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (الأعراف: ٥٣) لقد طلب هؤلاء الشفاعة أولاً ولم تقبل فدخلوا في حد آخر وهو العدل فلم يؤخذ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ وهكذا نرى الاختلاف في الآيتين فليس هناك تكرار في القرآن الكريم...^(١)

وفي هاتين الآيتين يقول صاحب درة التنزيل : « فقدم في الأول قبول الشفاعة على أخذ الفدية ، وفي الثاني قبول الفدية على نفع الشفاعة ، والوجه في الأول أنه

(١) تفسير الشعراوي ج ١ ص ٣١٩ .

لما قال : لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ، بمعنى لا يغني أحد عن أحد شيئاً فيما يلزمه من العقاب ولا يكفر سيئاته ما له من الثواب ، وهو كقوله عز من قائل : ﴿ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ (لقمان: ٣٣)

فهذه الأشياء التي ذكرت في هذه الآية امتناع وقوعها في الآخرة أربعة أنواع يتلقى بها المكاره ويداوي بها الشدائد . ألا ترى العرب إذا دفع أحدهم إلى كريمة وارتفعت نفسه بعظيمة ، وحاولت أعزته دفع ذلك عنه وتخليصه منه بذلت ما في نفوسها الأبية من مقتضى الحمية ، فذبت عنه كما يذب الوالد عن ولده بغاية قوته وجلده فإن رأى من لا قبل له بممانعته ، ولا يد له بمدافعته ، عاد بوجوه الضراعة ، وصنوف المسألة والشفاعة فحاول بالملاينة ما قصر عنه بالمخاشنة ، فإن لم تغن عنه الحالتان ، ولم تنج الخلتان من الخشونة والليان لم يبق بعدهما إلا فداء الشيء بمثله وفكه من الأسر بعدله إما بمال وإما بغيره ، فإن لم تنج هذه الثلاثة في العاجلة تعلل بما يرجوه من نصر في الآجلة وإدالة في الخاتمة ، كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ ﴾ (الحج: ٦٠) وقال تعالى : ﴿ فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ (الإسراء: ٣٣) على أحد وجوه التفسير فأخبر الله تعالى أن ما يغني في هذه الدنيا عن المجرمين ، وتترتب هذه المراتب بين العالمين لا يغني شيء منه في الآخرة عن الظالمين ، والفائدة في قوله تعالى في الآية الثانية وتقديم قبول الفدية على نفع الشفاعة هي أنه لما قال : ﴿ وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ ومعناه ما ذكرنا عقبه بنفي الفداء لأن النفس تجزي عن النفس فداء مؤقت ، يرتهن عنها مدة معلومة ويكون بعد ذلك فداء يفك الرهن ويخلصه من التبعات فيكون معنى ﴿ لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا ﴾ لا تغني عنها بفداء محصور بوقت ولا بفداء يخلصه على وجه الرهن ويكون بعد ذلك ﴿ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ ﴾ معناه ولا تخفف مسألة من عذابها ولا ينقص شفيع من عقابها ﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾^(١) .

أما قول الرازي : « أن الله تعالى قدم في هذه الآية قبول الشفاعة على أخذ الفدية ، وذكر هذه الآية في هذه السورة بعد العشرين ومائة وقدم قبول الفدية على ذكر

(١) حرة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابهات في كتاب الله العزيز ص ٦ .

الشفاعة فما الحكمة فيه ؟ الجواب : أن من كان ميله إلى حب المال أشد من ميله إلى علو النفس فإنه يقدم التمسك بالشافعين على إعطاء الفدية ومن كان بالعكس يقدم الفدية على الشفاعة ففائدة تغيير الترتيب الإشارة إلى هذين الصنفين .^(١)

أقول : وفيما قاله الرازي بعد إذ يود الكافر في هذا اليوم أن يفتدي بأي شيء ينجيه من العذاب فدية كان أو شفاعة قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلَّةٌ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِمِائَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٩١) وأرى والله أعلم بمراده أن تقديم الشفاعة تارة والعدل تارة إنما يرجع إلى حال الكافرين وتنوع أحوالهم فمنهم أصحاب الأموال الذين يظنون أن أموالهم تأتي لهم بما يشتهون وتدفع عنهم ما يكرهون فبدأ الله تعالى بالعدل ليعي هؤلاء بأن أموالهم لن تغني عنهم من الله شيئاً يوم القيامة ، وإذا تقدمت الشفاعة فهي إلى هؤلاء أصحاب الجاه والرياسة والأتباع الذين ظنوا أن معارفهم وأتباعهم وأقاربهم وأصدقاءهم قادرون على نفعهم ودفع الضرر عنهم فقدمت الشفاعة في حال هؤلاء ونظرانهم .

﴿ وَإِذْ أَخْبَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (الأعراف: ١٤١)

تقدم الذبح على الاستحياء لأنه أعظم البلاءين .

﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (البقرة: ٥٧) يقول أبو حيان : { لكن } هنا وقعت أحسن موقع لأنه تقدم قبلها نفي وجاء بعدها إيجاب نحو قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ وكذلك العكس نحو قوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ السَّافِهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣) أعني أن يتقدم إيجاب ثم جىء بعدها نفي ، لأن الاستدراك الحاصل بها إنما يكون يدل عليه ما قبلها بوجه ما وذلك أنه لما تقرر أنه قد وقع منهم ظلم فلما نفى ذلك الظلم أن يصل إلى الله تعالى بقيت النفس متشوفة ومتطلعة إلى ذكر من وقع به الظلم فاستدرك بأن الظلم الحاصل منهم إنما كان واقعاً وأحسن مواقعها أن تكون بين التضادين ، ويليه أن

(١) مفاتيح الغيب ج ٢ ص ٥٨ .

تقع بين النقيضين ، ويليهِ أن تقع بين الخلافين وقدم معمول الخبر عليه هنا وهو قوله ﴿ أَنْفُسُهُمْ ﴾ ليحصل بذلك توافق رؤوس الآي والفواصل وليدل على الاعتناء بالإخبار عمن حل به الفعل ولأنه من حيث المعنى صار العامل في المفعول توكيداً لما يدل عليه ما قبله فليس ذكره ضرورياً ، وبأن التوكيد أن يتأخر عن المؤكد ، وذلك أن تقول : [ما ضربت زيدا] ولكن ضربت عمراً فذكر ضربت الثانية أفادت التأكيد لأن لكن موضوعها أن يكون ما بعدها منافياً لما قبلها ولذلك يجوز أن تقول : [ما ضربت زيدا] ولكن عمراً] فلست مضطراً لذكر العامل ، فلما كان معنى قوله : ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ (البقرة: ٥٧) لكان كلاماً عربياً ، ويكتفى بدلالة لكن أن ما بعدها مناف لما قبلها فلما اجتمعت هذه المحسنات لتقديم المفعول كان تقديمه هنا الأنصح .^(١)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة: ٥٨) ، في هذه الآية موضعان للتقديم والتأخير : الأول قوله : ﴿ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ على قوله : ﴿ رَغَدًا ﴾ وفي الآية الأخرى في نفس السورة تقدم قوله : ﴿ رَغَدًا ﴾ على قوله : ﴿ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ .

يقول الشعراوي في الموضع الأول : « الفرق في المعنى أن قوله تعالى : ﴿ حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ تدل على أن هناك أصنافاً كثيرة من الطعام . و {رغداً حيث شئتم} يكون هناك صنف واحد والناس جائعون فيقبلون على الطعام . . عندما يقول الحق جل جلاله : كلوا رغداً يكون المخاطب هنا نوعين : إنسان غير جائع ولذلك تعد له ألواناً متعددة من الطعام لتغريه على الأكل . . فتقدم في هذه الحالة ﴿ حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ فيقال : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا ﴾ . . فإذا كان الإنسان جوعان يرضى بأي طعام فيقال رغداً حيث شئت » .^(٢)

الموضع الثاني : تقدم الأمر بالسجود على قولهم حطة وهو عكس التقديم في آية الأعراف ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٣٨٧ .

(٢) الشعراوي : ج ١ ص ٣٥٣ .

حِطَّةٌ وَأَدْخُلُوا آلْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿الأعراف: ١٦١﴾ قال الفيروزآبادي: «وقدم ﴿وَأَدْخُلُوا آلْبَابَ سُجَّدًا﴾ في هذه السورة وأخرها في الأعراف لأن السابق في هذه السورة ﴿وَأَدْخُلُوا﴾ فبين كيفية الدخول»^(١).

يرى صاحب درة التنزيل أن التقديم والتأخير غير مقصود في هذه الآية وحجته في ذلك أن القرآن لم يقصد حكاية الألفاظ بأعيانها وإنما قصد إلى اقتصاص معانيها ، وأن من قصد حكاية المعنى كان مخيراً بأن يؤديه بأي لفظ أراد وكيف شاء من تقديم وتأخير بحرف لا يدل على الترتيب^(٢).

أقول :وهذا الكلام غير مسلم له بما يلي :

أولاً : إن هاتين الآيتين ليستا حكاية عن بني إسرائيل ، وإنما كلام الله عن بني إسرائيل فهذا قول الله عنهم وليس قولهم هم عن أنفسهم ﴿وَأَدْخُلُوا﴾ و﴿وَأَدْخُلُوا﴾ إذا فلماذا اختلف الترتيب وهذا هو الأمر الثاني ؟

أقول : إن أسلوب الأمر يتكون من ثلاثة أمور أمر ومأمور ومأمور به ، والأمر في الآيتين واحد وكذلك المأمور وإنما وقع الاختلاف في المأمور به تقديماً وتأخيراً وهذا فيما نراه والله أعلم راجع إلى تيسير الله لهم بقبول الطاعة منهم على أي من الحالتين ، سواء قدموا القول أم الفعل وليان مدى تكاسلهم عن الاستجابة وعدم رغبتهم في أداء الطاعة على أي وجه من الوجوه المأمور بها .

وهناك احتمالات أخرى في التقديم والتأخير ذكرها الألوسي قال : «وأيضاً المخاطبون يحتمل أن يكون بعضهم مذنبين ، والبعض الآخر ما كانوا كذلك ، فالمذنب لا يجد أن يكون اشتغاله بحط الذنب مقدماً على اشتغاله بالعبادة ، فلا جرم أن يكون تكليف هؤلاء أن يقولوا ﴿حِطَّةٌ﴾ ثم يدخلوا ، وأما الذي لا يكون مذنباً ، فالأولى به أن يشتغل أولاً بالعبادة ثم يذكر التوبة ثانياً للهضم وإزالة العجب فهؤلاء يجب أن يدخلوا ثم يقولوا فلما احتتمل كون أولئك المخاطبين منقسمين إلى ذين القسمين ، لا جرم ذكر كل واحد منهما في سورة أخرى»^(٣).

(١) بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٤٣ .

(٢) درة التنزيل وغرة التأويل ص ٨ .

(٣) روح المعاني ج ١ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

يَعْتَدُونَ ﴿ (البقرة: ٦١) يقول أبو حيان في هذه الآية : « ولما ذكر تعالى حلول العقوبة بهم من ضرب الذلة والمسكنة والمبءاء بالغضب بين علة ذلك فبدأ بأعظم الأسباب في ذلك وهو كفرهم بآيات الله ثم ثنى بما يتلو ذلك في العظم وهو قتل الأنبياء ، ثم أعقب ذلك بما يكون من المعاصي وما يتعدى من الظلم ، قال معنى هذا صاحب المنتخب ويظهر أن قوله بأنهم كانوا يكفرون ويقتلون تعليل لضرب الذلة والمسكنة والمبءاء بالغضب ، وأن الإشارة بقوله ذلك بما عصوا إشارة إلى الكفر والقتل وبما تعليل لهما فيعود العصيان إلى الكفر ويعود الاعتداء إلى القتل فيكون قد ذكر شيئين وقابلهما بشيئين كما ذكر أولاً شيئين وهما الضرب والمبءاء وقابلهما بشيئين وهما الكفر والقتل فجاء هذا لفاً ونشراً في الموضعين ، وذلك من محاسن الكلام وجودة تركيبه » .^(١)

أقول : وقد ناسب تقديم الذلة على المسكنة أيضاً تقديم الكفر على القتل ، إذ إن الذلة أشد العقوبتين حيث إنها الخضوع والاستكانة للغير أما المسكنة فهي أثر نفسي وشعور داخلي لا يستلزم الخضوع للغير ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ يَزْتَدُ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ حُسْبِهِمْ وَيُجْيئُهُمْ أُدْلَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة: ٥٤).

وتقدم قوله : ﴿ بِمَا عَصَوْا ﴾ على قوله : ﴿ وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ لأن المعصية كلها حرام يأمر باجتنابها ، أما العدوان فمنه الحق والباطل بدليل قوله : ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٤) من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ (المائدة: ٢) حيث تقدم الإثم على العدوان .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّاتِ مِنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٦٢) .

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٤٠٠ .

ورد ذكر أربع فرق في هذه الآية وفي موضعين آخرين في سورة المائدة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (المائدة: ٦٩).

وفي سورة الحج ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (الحج: ١٧) .

ورد في الآيات السابقة تقديم وتأخير بين فرقتي النصارى والصابئين فما هو السر في ذلك ؟

قال الفيروزبادي : « لأن النصارى مقدّمون على الصابئين في الرتبة ، لأنهم أهل الكتاب فقدمهم في البقرة ، والصابئون مقدّمون على النصارى في الزمان ، لأنهم كانوا قبلهم في الحج ، وراعى في المائدة المعنيين فقدمهم في اللفظ ، وأخبرهم في التقدير ، لأن تقديره : والصابئون كذلك .

قال الشاعر :

فمن كان أمسى بالمدينة رحلهُ فإنني وقيارٌ بها لغريبُ
أراد : إني لغريب بها وقيار كذلك . فتأمل فيها وفي أمثالها يظهر لك إعجاز القرآن^(١) .

ولصاحب غرة التأويل في سر هذا الترتيب رأي حسن .

قال : « إن الذين ءامنوا بكتب الله المتقدمة مثل صحف إبراهيم ، والذين ءامنوا بما نطق به التوراة وهم اليهود ، والذين ءامنوا بما أتى به الإنجيل وهم النصارى ، فهذا ترتيب على حسب ما ترتب تنزيل الله كتبه ، فصحف إبراهيم - عليه السلام - قبل التوراة المنزلة على موسى - عليه السلام - ، والتوراة قبل الإنجيل المنزل على عيسى - عليه السلام - ، فرتبهم عز وجل في هذه الآية على ما رتبهم عليه في بعثة الرسالة ، ثم أتى بذكر الصابئين وهم الذين لا يشبتون على دين وينتقلون من ملة إلى ملة ، ولا كتاب لهم كما للطائفتين اللتين ذكرهما الله تعالى في قوله : ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴾ (الأنعام: ١٥٦)

(١) بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٢٤٥ .

فوجب أن يكونوا متأخرين عن أهل الكتاب : وأما بعد هذا الترتيب ، فترتيبهم في سورة المائدة ، وتقديم الصابئين على النصارى ، ورفعهم هنا ونصبه هناك ترتيب ثان ، فالأول على ترتيب الكتب ، والثاني على ترتيب الأزمنة ، لأن الصابئين وإن كانوا متأخرين على النصارى بأنهم لا كتاب لهم ، فإنهم متقدمون عليهم بكونهم قبلهم لأنهم كانوا قبل عيسى - عليه السلام - ، فرفع الصابئون ونوى به التأخير عن مكانه ... ، إنما قدم في اللفظ وآخر في النية ، لأن التقديم الحقيقي التقدم بكتبه المنزلة على الأنبياء - عليهم السلام - فلذا فعل ذلك في الآية الأولى ، وكان هاهنا تقدم آخر بتقديم الزمان ، جاءت آية أخرى قدم فيها هذا الاسم على ما أخر عنه في الآية التي قبل ، ثم أقيمت في لفظه أمانة تدل على تأخره عن مكانه . كان ذلك دليلاً على أن هذا الترتيب ترتيب بالأزمنة ، وأن النية التأخير والترتيب بالكتب المنزلة ، وأما الترتيب الثالث في سورة الحج فترتيب الأزمنة لا نية للتأخير معه ، لأنه لم يقصد في هذا المكان أهل الكتاب ، إذ كان أكثر من ذكر ممن لا كتب لهم وهم الصابئون والمجوس والذين أشركوا وعبدوا الأوثان ، فهذه ثلاث طوائف .

وأهل الكتاب طائفتان ، فإن لم يقصد في الأغلب الأكثرين من المذكورين ترتيبهم بالكتب رتبوا بالأزمنة وآخر الذين أشركوا لأنهم وإن تقدمت لهم أزمنة وكانوا في عهد أكثر الأنبياء الذين تقدمت بعثتهم - صلوات الله عليهم - فإنهم كانوا أكثر من مني رسول الله ﷺ بجهادهم ، وكأنهم لما كانوا موجودين في عصر النبي كانوا أهل زمانه وهذا الزمان متأخر عن أزمنة الفرق الذين ذكرهم^(١) .

وللزمخشري رأي وجيه في تقديم الصابئين في آية المائدة قال : « فإن قلت : ما التقديم ولا التأخير إلا لفائدة ، فما فائدة هذا التقديم ؟ قلت : فائدته التنبيه إلى أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح ، فما الظن بغيرهم^(٢) » .

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ص ١١٠ ، ١١١ .

(٢) الكشف ج ١ ص ٦٤٨ .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً ۖ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (البقرة: ٦٧) .

في هذه القصة نوع آخر من التقديم والتأخير في القرآن الكريم وهو التقديم والتأخير في الأحداث الزمانية وهذا الأسلوب قد اعتمده الروائيون في بعض كتاباتهم القصصية فأول القصة تبدأ من قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۗ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة: ٧٢) .

فكان الظاهر والتسلسل السردى أن يقال : قال موسى : إذ قتل قتيل تنوزع في قتله إن الله يأمر بذبح بقرة هي كذا وكذا ، وأن يضرب ببعضها ذلك القتيل فيخبر بقاتله فيكون كيت وكيت إلا أنه قدم ذكر قصة البقرة لبيان مدى تعنتهم وعدم مبادرتهم للاستجابة وغلظ طبعهم وسوء أدبهم .

وقد جعل الزركشي هذا تحت باب - مما قدم والنية به التأخير - قال : ومنه ما يدل على المعنى كقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا ﴾ .

قال الخازن : « فإن قلت كان حق هذه القصة أن يقدم ذكر القتيل أولاً ، ثم ذكر ذبح البقرة بعد ذلك فما وجه ترتيب هذه القصة على هذا الترتيب ؟ قلت : وجهه أن الله لما ذكر من قصص بني إسرائيل وما وجد من خياناتهم تقرّيعاً لهم على ذلك وما وجد فيهم من الآيات العظيمة ، وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقرّيع ، وإن كانتا متصلتين متحدتين في نفس الأمر ، فالأولى لتقرّيعهم على ترك المسارعة إلى امتثال الأمر وما يتبعه ، والثانية لتقرّيعهم على قتل النفس المحرمة فلو قدم قصة القتيل على قصة الذبح لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض من ثنية التقرّيع فلهذا قدم ذكر الذبح أولاً ثم عقبه بذكر القتل »^(١) .

ويظهر جلياً أن الخازن إنما ذكر قول الزمخشري حول هذا الترتيب وقد ذكر القاسمي وجهاً آخر نقله عن الحرالي قال : « قدم نبأ موسى - عليه السلام - على ذكر ندائهم في القتيل ، ابتداء بأشرف القصدين من معنى التشريع الذي هو قائم على أفعال الاعتداء وأقوال الخصومة »^(٢) .

(١) الخازن ج ١ ص ٩٦ .

(٢) تفسير القاسمي ، ج ١ ص ٣٢٩ .

﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (البقرة: ٧٧) .

يرى الألوسي أن تقديم السر على العلن إما لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شيء يعلن إلا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمّر في القلب يتعلق به الإسرار غالباً ، فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بالحالة الثانية ، وإما للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر ، وإما للمبالغة في بيان شمول علمه تعالى المحيط بجميع الأشياء .

وأرى أن الألوسي قد أخطأ بقوله أن علمه بما يسرون أقدم منه بما يعلنونه مع كونهم في الحقيقة على السوية فإن علمه تعالى ليس بطريق حصول الصورة ، بل وجود كل شيء بنفسه علم بالنسبة إليه تعالى ، وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة ولا الكامنة .

نعم هما في الحقيقة على السواء كما قال ولكن ادعاه بأن علم السر أقدم من العلن فغير مسلم له فيه ، حيث يلزم منه القول بالعلم المحدث لله تعالى أي عدم وجود العلم السابق له سبحانه ، وأما قوله : « فإن علمه ليس بطريق حصول الصورة » فالأولى من ذلك لو أنه قال فإن علمه سبحانه لا يفتقر إلى حصول الصورة ، فالكيفية من التكلف بالغيب الذي لا يعلم كنهه إلا الله وحده .^(١)

ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ حيث يرى الزركشي وتبعه السيوطي أن التقديم فيها لشرف المعلوم وهذا ما نراه معهما فإن علم الغيبات أشرف من علم المشاهدات .

ومنه قوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ﴾ (الأنعام: ٣) ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (التغابن: ٤) .

وأما قوله تعالى ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ الْسِرَّ وَآخَفَى﴾ (طه: ٧) فيذكر فيه الزركشي قول ابن عباس : أن السر ما أسررت في نفسك وأخفى منه ما لم تحدث به نفسك مما يكون في عد علم الله فيهما سواء ، ثم يرجح أن الآتي أبلغ وأن فيه وجهان : أحدهما : أنه أفعال تفضيل يستدعي مفضلاً عليه علم حتى يتحقق في نفسه فيكون حينئذ تقديم السر من النوع الأول .

(١) روح المعاني ج ١ ص ٣٠١ .

وثانيهما : مراعاة رؤوس الآي . وهذه المراعاة لا يقبل القول بها ، إنما هو من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى بالنسبة للمعلوم^(١) .

وقد عكس الترتيب في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُبْذَرُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُحَاسِبَنَّكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ (البقرة: ٢٨٤) لأن الأصل فيما يتعلق المحاسبة به هو الأمور البادية دون الخافية .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ (البقرة: ٨٣) .

تقدم الإحسان إلى الوالدين بعد عبادة الله على كل الحقوق ، وذلك لأن حقهما أوكد من غيرهما وبرهما مقدم على ما سواهما ، فهما سبب وجود الولد كما أنهما سبب التربية ، وغير الوالدين قد يكون سبب التربية فقط ، فلا إنعام بعد إنعام الله تعالى أعظم من إنعام الوالدين ، ومنها أن إنعامهما يشبه إنعام الله تعالى من حيث إنهما لا يطلبان بذلك ثناء ولا ثواباً ﴿ إِنَّمَا نَطْعِمُكُمْ لِرُجَاؤِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ (الإنسان: ٩) .

﴿ ثُمَّ أَنْتُمْ هَتُولَاءُ تُقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِّن دِينِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تُمْفِدُوهُمْ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ (البقرة: ٨٥) .

قال الخازن : « وفي الآية تقديم وتأخير تقديره وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان وهو محرم عليكم إخراجهم وإن يأتوكم أسارى تفادوهم »^(٢) .

لم يذكر الخازن السر في التقديم والتأخير ، وأقول : سبب التقديم هنا هو إظهار التعجب من فعلهم ، إذ كيف يستبيحون قتالهم وفي نفس الوقت يفدونهم بالمال إذا وقعوا في الأسر ولهذا تقدم قوله : ﴿ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَىٰ تُمْفِدُوهُمْ ﴾ على قوله : ﴿ وَهُمْ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ .

﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ (البقرة: ٨٧) .

(١) البرهان ج ٣ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(٢) الخازن ج ١ ص ١٠٦ .

وفائدة تقديم المفعول كما ذكر صاحب غرائب القرآن بيان غاية عنادهم وفرط عتوهم ، حيث جعلوا الرسل فريقين : أحدهما : منخصص بالكذب . والآخر : بالقتل ، كأن وصف الرسالة عندهم هو الذي اقتضى عندهم أحد هذين حتى خصص المنعوت به دون سائر الناس بأحد الأمرين ^(١).

﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٩٨) .

تقدم ذكر الملائكة على ذكر الرسل في هذه الآية ، ولا يدل تقديم الملائكة في الذكر على تفضيلهم على رسل بني آدم كما يرى أبوحيان الذي قال : « لأن الترتيب الذي ذكرناه هو ترتيب بالنسبة إلى الوسائط لا بالنسبة إلى التفضيل » ^(٢).

ويرجح صحة هذا الرأي هو إجماع أهل التفسير على أن سبب نزول الآية أن اليهود قالوا : جبريل عدونا ، لما أخبروا أنه هو الذي ينزل بالوحي على النبي ﷺ فالآية نزلت للدفاع عن الملائكة وإبطال حجج اليهود للتفريق بينهم ، أما تقدم ذكر جبريل على ميكال فيحتمل أنه تقدم فضل لأن جبريل ينزل بالوحي والعلم ، وهو مادة الأرواح وميكال ينزل بالخصب والأمطار وهي مادة الأبدان وغذاء الأرواح أشرف من غذاء الأشباح .

ومن قبيل هذا الترتيب تقدم ذكر الملائكة على الرسل في قوله تعالى : ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (البقرة: ٢٨٥) .

قال الزركشي : « فبدأ بالرسول قبل المؤمنين ثم قال : ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ ﴾ .

فبدأ بالإيمان بالله ، لأنه قد يحصل بدليل العقل والعقل سابق في الوجود على الشرع ، ثم قال ﴿ وَمَلَائِكَتِهِ ﴾ مراعاة لإيمان الرسول ، فإنه يتعلق بالملك الذي هو

(١) غرائب القرآن ج ١ ص ٣٣١ .

(٢) البحر المحيط ج ١ ص ٤٨٨ .

جبريل أولاً ثم بالكتاب الذي نزل به جبريل ، ثم بمعرفة نفسه أنه رسول . ثم حكى الزركشي قول السهيلي : وإنما عرف نبوة نفسه بعد معرفته بجبريل - عليه السلام - وإيمانه ، فترتب الذكر المنزل عليه بحسب ذلك ، فظهرت الحكمة والإعجاز ، فقال ﴿ كُلُّ عَامِنٍ بِاللَّهِ وَمَلَكَيْهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ لأن الملك هو النازل بالكتاب ، وإن الكتاب أقدم من الملك ، ولكن رؤية النبي ﷺ للملك كانت قبل سماعه الكتاب ، وأما إيماننا نحن بالعقل آمنا بالله أي بوجوده ، ولكن الرسول ﷺ عرفنا اسمه ووجوب النظر المؤدي إلى معرفته ، فآمنا بالرسول ثم بالكتاب المنزل عليه ، وبالمملك النازل به ، فلو ترتب اللفظ على حسب إيماننا لبدأ بالرسول قبل الكتاب ، ولكن إنما ترتيب على حسب إيمان الرسول ﷺ الذي هو إمام المؤمنين^(١) .

وقريباً مما ذكره الزركشي قول صاحب الغرائب قال : « واعلم أن الآية دلت على أن معرفة هذه المراتب الأربع من ضروريات الإيمان : المرتبة الأولى : هي الإيمان بالله سبحانه فإن صدق المبلغ والرسول يتوقف على وجود المبلغ والمرسل .

والثانية : الإيمان بالملائكة فإنهم وسائط بين الله وبين البشر ﴿ يُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ (النحل: ٢) ﴿ عَلَيْهِ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ (النجم: ٥)

والثالثة : الكتب فإنه الوحي الذي يتلقفه الملك ويوصله إلى النبي ﷺ فمثال الملك في عالم الصورة : جرم القمر ، ومثال الوحي : نور القمر ، فكما أن القمر يستفيد من نور الشمس ويوصله إلينا ، فكذا الملك يأخذ الوحي من الله تعالى ويلقيه على الأنبياء فلا جرم وقع الرسل في المرتبة الرابعة وهذا الترتيب مما تقتضيه حكمة عالم التكليف والوسائط^(٢) .

قال القاسمي : « وصدر الكلام بذكر الجليل تفخيماً لشأنهم وإيضاحاً بأن عداوتهم عداوته عز وعلا ، وقدم الملائكة على الرسل كما قدم الله على الجميع ،

(١) البرهان ج ٣ ص ٢٨٨ .

(٢) غرائب القرآن ج ٢ ص ٨٦ ، ٨٧ .

لأن عداوة الرسل بسبب نزول الوحي ونزوله بتنزيل الملائكة ، وبتنزيلهم لها بأمر الله ، فذكر الله تعالى ومن بعده على هذا الترتيب^(١).

أقول : وقد تقدم هنا ذكر جبريل على ذكر ميكائيل ، لأن جبريل صاحب الوحي والعلم وميكائيل صاحب الأرزاق ، والخيرات النفسانية أفضل من الخيرات الجسمانية .

﴿ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة: ١٠٧) .

تقدم هنا الولي على النصير ، والتقديم هنا قد يكون للترقي من الأدنى إلى الأعلى ، فالولي قد يضعف عن النصرة فلا تفيد ولايته والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور فلا ينصره .

﴿ وَإِذْ أَيْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا ۖ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (البقرة: ١٢٤، ١٢٥) .

قال صاحب غرائب القرآن : « قيل : في الآية تقديم وتأخير لأن قوله : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ﴾ لا يمكن إلا بعد دخول البلد في الوجود فقوله : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ ﴾ وإن كان متأخراً في التلاوة فهو متقدم من حيث المعنى قلت : - والكلام له - في ترتيب القصة فوائد منها : أنه أجمل القصة في قوله : ﴿ وَإِذْ أَيْتَلَى ﴾ إلى ﴿ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ ثم فسر ، وفي التفسير قدم الأهم فالأهم ، ولا ريب أن ذكر جعل إبراهيم إماماً أولى بالتقديم لعموم نفعه للخلائق ولتقدمه في الوجود أيضاً ، ثم ذكر جعل البيت مثابة للناس وأمناً لأنه المقصود من عمارة البيت ثم حكاية عمارة البيت^(٢).

أقول : ما ذكره هو الظاهر ، إلا أن هناك احتمال آخر ، أن يكون إبراهيم - عليه السلام - قد أوحى إليه بأن البلد سوف يوجد ، وأن أهله سوف يسكنونه ويعمرونه فجاء الدعاء على الترتيب الوجودي باعتبار ما سيكون ، وليس هذا ببعيد .

(١) محاسن التفسير المعروف بتفسير القاسمي ج ١ ص ٣٦٠ .

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج ١ ص ٧٤ .

﴿ أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾

قال الزركشي : « فقدم الطائفين لقربهم من البيت ، ثم ثنى بالقائمين وهم العاكفون لأنهم يخصون موضعاً بالعكوف والطواف بخلافه فكان أعم منه ، والأعم قبل الأخص ، ثم ثلث بالركوع ، لأن الركوع لا يلزم أن يكون في البيت ولا عنده ، وما ذكره الزركشي رأي حسن وهو المناسب للسياق ، حيث إن الآية إنما تتحدث عن البيت » .^(١)

أقول : وقد يكون تقديم الطائفين لأنه أكثر فالبيت مثابة الناس ، وهم ضيوف البيت والاعتناء بالضيف أولى وأظهر ، أو يكون التقديم لكثرة الطواف نفسه إذ إن تحية البيت هي الطواف لكل من دخل البيت من أهله ومن غير أهله ، ولذا بدأ بالطائفين لكثرة وقوع عبادة الطواف ، وهناك تقديم الركوع على السجود ، وقد ورد في آيات كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ (الحج: ٧٧) وقوله : ﴿ تَرْتَلِّمُ رُكْعًا سُجَّدًا ﴾ (الفتح: ٢٩) وقوله : ﴿ الرُّكُوعُ السُّجُودُ ﴾ (التوبة: ١١٢) وسبب التقديم لأنه أسبق في الوجوب ، وإن كان السجود أفضل وفي الحديث { أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد } أما تقدم السجود على الركوع في قوله تعالى : ﴿ يَنْمُرِيْمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ (آل عمران: ٤٣) ففيه أوجه :

يحتمل أنه كان في شريعتهم السجود قبل الركوع ، وأما قول الزركشي : يحتمل أن يراد بالركوع ركوع الركعة الثانية فقول غريب لا مسوغ له والأغرب منه أن المراد بـ { اركعي } اشكري فهذا أمر تأباه اللغة والسياق^(٢) .

وقيل : أراد بـ { اسجدي } صلي وحدك وبـ { اركعي } صلي في جماعة ، ولذلك قال : ﴿ مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ .

رأي العلامة الألوسي : قال : « ولعل تقديم السجود على الركوع لأنه كذلك في صلاتهم ، وقيل : لأنه أفضل أركان الصلاة وأقصى مراتب الخضوع وفي الخبر

(١) البرهان ج ٣ ص ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٢) البرهان ج ٣ ص ٢٨٧ .

{أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد} أو للتبنيه على أن الواو لا توجب الترتيب ، أو ليقترن اركعي مع الراكعين للإيذان بأن من ليس في صلاتهم ركوع ليسوا مصلين ، قال الألوسي : وكل هذه الأوجه لا يخلو من دغدغة .
 أما أولاً : فلأنه يتم على القول بأن القيام ليس أفضل من السجود كما نقل عن الإمام الشافعي .

وأما الثاني : فلأن الخطاب مع من يعلم لغة العرب لا مع من يتعلم منه اللغة .
 وأما الثالث : فلأن تماميته تتوقف على بيان وجه على أنه لم يعبر بالساجدين تنبيهاً على أن من لا سجدة له في صلاته ليس من المصلين ، وكأن وجه ذلك يستفاد من كلام الزمخشري حيث قال : « ويحتمل أن يكون في زمانها من كان يقوم ويسجد في صلاته ولا يركع وفيه من يركع ، فأمرت بأن تركع مع الراكعين ، ولا تكون مع من لا يركع ، فالنكتة في التعبير ما جعلت نكتة في ذكر واركعي مع الراكعين واعترضه أيضاً بعضهم بأنه إذا قدم الركوع وقيل واركعي مع الراكعين واسجدي يحصل ذلك المقصود ، ولا مدخل للتقديم والتأخير في إفادة ذلك ، وقيل المراد بالسجود الصلاة كما في قوله : ﴿ وَأَذْبَرِ السُّجُودِ ﴾ (ق: ٤٠) والتعبير عن الصلاة بذلك من التعبير بالجزء عن الكل ، ويراد بالركوع الخشوع والتواضع ، كأن أمرها بذلك حفظاً لها من الوقوع في مهاوي التكبر والاستعلاء بما لها من علو الدرجة»^(١).

أقول : وهذا احتمال ضعيف إذ كيف يتصور الكبر من مريم وهي التي اصطفاها الله على نساء العالمين وطهرها فذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأْتُكَ يَنْمِرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٤٢) والطهارة هنا عامة تشمل طهارة الباطن وطهارة الظاهر فلا وجه للكبر والاستعلاء بعد تطهير ربها لها .

أقول : هناك احتمال بأن تقديم السجود على الركوع باعتبار أن هذا السجود سجود شكر أمرت به عند حدوث نعمة الاصطفاء والتطهير فناسب غاية التكريم

(١) روح المعاني ج ٢ ص ١٥٧ .

غاية الذل والخضوع لله رب العالمين وذلك في حالة السجود وقد كان النبي ﷺ يسجد لله شكراً عندما يأتيه خبر سار أو بشارة خير .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٧).

يقول أبو حيان : « وتقدمت صفة السمع وإن كان سؤال التقبل متأخراً عن العمل للمجاورة ، نحو قوله : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ ﴾ (آل عمران: ١٠٦) وتأخرت صفة العليم لكونها فاصلة ولعمومها ، إذ يشمل علم المسموعات وغير المسموعات»^(١). وهو نفس السبب الذي ذكره في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ (البقرة ٢٤٩)

وأقول : وقد يكون تقدم صفة السمع هنا لأن المقام مقام دعاء ، فناسب أن يذكر الصفة التي تتناسب مع حال دعائه فتضرع إلى الله بصفة السميع الذي يسمع هذا الدعاء ، وقد جاء التضرع بهذه الصفة صفة السميع على لسان زكريا في الآية الثامنة والثلاثين من سورة آل عمران في قوله تعالى : ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

يرى الزمخشري : أن الاستثناء في قوله : ﴿ إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ ﴾ من قوله : ﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ وأن الجملة الثانية في حكم المتأخرة ، إلا أنها قدمت للعناية كما قدم ﴿ وَالصَّابِرُونَ ﴾ في قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرُونَ ﴾ (المائدة: ٦٩) ومعناه الرخصة في اغتراف الغرفة باليد دون الكروع ، والدليل عليه قوله : ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ ﴾ أي فكرعوا فيه ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾ وقرئ ﴿ غُرْفَةً ﴾ بالفتح بمعنى المصدر ، وبالضم بمعنى المغروف وقرأ أبي والأعمش إلا قليل بالرفع ، وهذا من ميلهم مع المعنى والإعراض عن اللفظ جانباً ، وهو باب جليل من علم العربية ، فلما كان معنى ﴿ فَشَرِبُوا مِنْهُ ﴾ في معنى لم يطيعوه ، حمل عليه ، كأنه قيل : فلم يطيعوه إلا قليل منهم»^(٢).

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٥٩٥ .

(٢) الكشف ج ١ ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٨).

يرى أبو حيان أن تقديم التواب على الرحيم لأنهما دعوا بأن يجعلهما مسلمين ومن ذريتهما أمة مسلمة وبأن يريهما مناسكهما وبأن يتوب عليهما فناسب ذكر التوبة عليهما أو الرحمة لهما وناسب تقديم ذكر التوبة على الرحمة لمجاورة الدعاء الأخير في قوله: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ وتأخرت صفة الرحمة لعمومها لأن من الرحمة التوبة ولكنها فاصلة والتواب لا يناسب أن تكون فاصلة هنا لأن قبلها إنك أنت السميع العليم وبعدها إنك أنت العزيز الحكيم^(١).

ذكر الألوسي أن تقديم التوبة على الرحمة للمجاورة ، وتأخير الرحمة لعمومها ولكونها أنسب الفواصل^(٢).

وأقول : إن تقديم التواب على الرحيم من باب تقديم السبب على المسبب لأن التوبة هي سبب الرحمة ، وقد تقدمت التوبة على المغفرة والرحمة والصلاح ودخول الجنة في كثير من آي القرآن لنفس العلة ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿فَتَقَلَّبْ أَأْدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٣٧) وقوله : ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ١٦٠) وقوله : ﴿فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ (النساء: ١٦) وقوله : ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ (المائدة: ٣٩) وقوله : ﴿وَإِذَا حُيِّتُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بَيِّتْنَاهُ فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأنعام: ٥٤) وقوله : ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (هود: ٩٠) وقوله : ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (مريم: ٦٠) وقوله تعالى : ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١). وقوله تعالى : ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (النمل: ٤٦) . والآيات في هذا الموضوع كثيرة .

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٥٦٢ .

(٢) روح المعاني ج ٣ ص ١١٤ .

﴿ رُبُّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ١٢٩) .

تقدم ذكر التلاوة والعلم والحكمة على التزكية بخلاف قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٥١) .

وهو نفس الترتيب في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (آل عمران: ١٦٤) وهي نظير قوله تعالى : ﴿ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ (النازعات: ١٩) .

لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة ، فمعرفة الله مقدمة على طاعته ، فبالتلاوة والهداية تحصل المعرفة ، ونظير ذلك قوله تعالى : ﴿ أَنْ أُنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ (النحل: ٢٠) وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (طه: ١٤) .

ففي هذه الآية تقدمت التزكية على العلم بالكتاب والحكمة وكذلك في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (الجمعة: ٢) .

والسبب في التقديم أن التزكية هي الغاية التي من أجلها أرسل الرسول ، وهي تطهيرهم من الضلال ثم تأتي بعد ذلك صفة تعليم الكتاب والحكمة ، لأن ذلك ناشئ عن تطهير الإنسان باتباعه للنبي ﷺ فيعلمه بعد ذلك ويفهمه ما انطوى عليه كتاب الله وما اقتضته الحكمة الإلهية ، فأول منزلة للنبي ﷺ بعد النبوة الآيات الدالة على النبوة ثم بعد ذلك تعليمهم الكتاب لفظاً ومعنى إلهاماً وتربية ومن ثم يصلون بذلك التعليم وتلك التربية إلى الحكمة والتي هي إصابة السداد في الأقوال والأعمال فيصير الإنسان حينئذ مزكى ومطهر من كل ما يشينه .

قال الألوسي : في قوله تعالى : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا ﴾ .. ﴿ وَيُزَكِّيكُمْ ﴾ أي يطهركم من الشرك وهي صفة أخرى للرسول وأتى بها عقب التلاوة لأن

التطهير عن ذلك ناشئ عن إظهار المعجزة لمن أراد الله تعالى توفيقه ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ صفة إثر صفة وأخرت لأن تعليم الكتاب وتفهم ما انطوى عليه من الحكمة الإلهية والأسرار الربانية إنما يكون بعد التخلي عن دنس الشرك ونجس الشك بالإتباع ، وأما قبل ذلك فالكفر حجاب ، وقدم التزكية على التعليم في هذه الآية وأخرها عنها في دعوة إبراهيم لاختلاف المراد بها في الموضوعين^(١) .

قال صاحب التحرير والتنوير في قوله تعالى : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ﴾ «وقدمت جملة ﴿وَيُزَكِّيَكُمْ﴾ على جملة ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ هنا عكس ما في الآية السابقة في حكاية قول إبراهيم {يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم} لأن المقام هنا للامتثال على المسلمين فقدم فيها ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم وهي منفعة تزكية نفوسهم اهتماماً بها وبعثاً لها بالحرص على تحصيل وسائلها وتعجيلاً للشارة بها . فأما في دعوة إبراهيم فقد رتب الجمل على حسب ترتيب حصول ما تضمنته في الخارج ، مع ما في ذلك التخالف من التفنن^(٢) .

قال الألوسي : «فتقديم التلاوة لأنها من باب التمهيد ثم التزكية لأنها بعده وهي أول أمر يحصل منه صفة يتلبس بها المؤمنون وهي من قبيل التخليئة المقدمة على التحلية لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، ثم التعليم لأنه يحتاج إليه بعد الإيمان ، بقي أمر تقديم العلم على التزكية في آية البقرة ولعله كان إيذاناً بشرافة التحلية»^(٣) .

﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُهَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة: ١٣٣)^(٤)

(١) روح المعاني ج ٢ ص ٨١-٩١

(٢) التحرير والتنوير ج ٢ ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) روح المعاني ج ١ ص ١٨ ، ١٩ .

(٤) الكشف ج ١ ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .

تقدم إبراهيم لفضله وأبوته وتقدم إسماعيل على إسحق وليس عندنا دليل على التفضيل فبقي السن وهذا يرجح قول أكثر العلماء الذين قالوا بأنه بكر إبراهيم . وذكر الرازي نقلاً عن القفال : أن تقديم إسماعيل من أجل سنه ^(١) . وإلى هذا ذهب الخازن أيضاً في تفسيره ^(٢) وهو قول جماهير العلماء ، ويؤيد ذلك قوله تعالى حكاية عن نبي الله إبراهيم ﴿ اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي وَهَبَ لِيْ عَلٰى الْكِبَرِ اِسْمَاعِيْلَ وَاِسْحٰقَ ﴾ (إبراهيم: ٣٩) .

﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنْزِلَ اِلَيْنَا وَمَا اُنْزِلَ اِلَيْنَا ﴾ ، حيث الترتيب في هذه الآية ترتيب وجودي إلا في قوله : ﴿ وَمَا اُنْزِلَ اِلَيْنَا ﴾ ، حيث تقدم على ما بعده في الآية ، وهو أسبق نزولاً ، وعلة التقديم هنا لأنه أول بالإضافة إلينا أو أنه كان السبب للإيمان فيما أنزل من قبلنا . ﴿ قُلْ لِلّٰهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ (البقرة: ١٤٢) .

وقع تقديم المشرق على المغرب ضمن السياق الزمني ، فالشروق قبل الغروب فما من غروب إلا ويسبقه شروق ، وهذا التقديم مطرد في كتاب الله تعالى ومنه قوله تعالى : ﴿ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ (النور: ٣٥) وقوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ (الرحمن: ١٧) وقوله تعالى في سورة المعارج : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ اِنَّا لَقٰتِرُونَ ﴾ (المعارج: ٤٠)

﴿ وَمَا كَانَ لِلّٰهِ لِيُضَيِّعَ اِيْمَانَكُمْ اِنَّ اللّٰهَ بِالنَّاسِ لَرَّءُوفٌ رَّحِيْمٌ ﴾ (البقرة: ١٤٣) . قال صاحب التحرير والتنوير : « وتقديم ﴿ رَّءُوفٌ ﴾ ليقع لفظ رحيم فاصلة فيكون أنسب بفواصل هذه السورة لانبناء فواصلها على حرف صحيح ممدود يعقبه حرف صحيح ساكن ، ووصف رءوف معتمد ساكنه على الهمز والهمز شبيه بحروف العلة ، فالنطق به غير تام التمكن على اللسان وحرف الفاء لكونه يخرج من بطن الشفة السفلى ، وأطراف الثنايا أشبه حرف اللين فلا يتمكن عليه سكون الوقف .

(١) مفاتيح الغيب ج ٤ ص ٨٤ .

(٢) الخازن ج ١ ص ١٥١ .

وتقديم ﴿بِالنَّاسِ﴾ على متعلقه وهو رءوف رحيم للتنبيه على عنايته بهم
إيقاظاً لهم ليشكروه مع الرعاية على الفاصلة^(١).

وأقول : تقدمت الرأفة على الرحمة من باب التدرج في الإحسان ، فإن الرأفة
تتعلق برفع المكروه وإزالة الضرر ، أما الرحمة فإنها اسم جامع يدخل فيه ذلك
المعنى ويدخل فيه الإفضال والإنعام وقد سمي الله تعالى المطر رحمة ﴿وَهُوَ
الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ (الأعراف: ٥٧) ، وقال تعالى :
﴿أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٤).

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ
أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٣) .

وجاء في ثلاثة مواضع بعده وما أهل لغير الله به ، أولها في سورة المائدة
﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (المائدة: ٣)

وفي آخر سورة الأنعام : ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ
إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ
لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (الأنعام: ١٤٥) . وفي سورة النحل ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلْالًا
طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (النحل: ١١٤، ١١٥) .

جاء في المواضع الثلاثة به مؤخراً عن قوله لغير الله .

قال الفيروزآبادي : «قدم {به} في هذه السورة ، وأخرها في المائدة والأنعام
والنحل ، لأن تقديم الباء الأصل ، فإنها تجري مجرى الألف والتشديد في التعدي ،
وكان كحرف من الفعل ، وكان الموضع الأول أولى بما هو الأصل ، ليعلم
ما يقتضيه اللفظ ، ثم قدم فيما سواها ما هو المستنكر وهو الذبح لغير الله ، وتقديم
ما هو الغرض أولى ، ولهذا جاز تقديم المفعول على الفاعل والحال على ذي
الحال ، والظرف على العامل فيه إذا كان أكثر الغرض في الإخبار»^(٢).

(١) التحرير والتنوير ج ٢ ص ٢٦

(٢) بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٥٠، ١٥١ .

أما صاحب درة التنزيل فيقول : « للسائل أن يسأل فيقول : لماذا اختلف
الموضع الأول مع المواضع التي بعده ؟ والجواب أن يقال : أما الموضع الأول فإنه
جاء على الأصل الذي يقتضيه حكم اللفظ ، لأن الباء التي يتعدى بها الفعل في
هذا المكان من جملة الباءات التي تجيء كحرف من نفس الفعل ، فصار قوله :
﴿ أَهْلٌ بِهِ لَغَيْرِ اللَّهِ ﴾ بمنزلة ذبح لغير الله مسمى عليه اسم بعض الآلهة ، فلما كان
هذا الأصل في الأول جرت الآية الأولى عليه ، ولما كان الإهلال بالمذبح
لا يستكر إلا إذا كان لغير الله ، كان ما عدا الأصل بتقديم المستكر أحق وأولى .
ألا ترى أنهم يقدمون المفعول إذا كانوا ببيان أعنى ، فيقولون : ضرب زيداً عمرو
فيقدمون المفعول على الفاعل لأن الاهتمام بأمره أتم ، لأن هذا ينفي ما فيه وهم
متوهم ، أو قول قائل : ضرب محمد زيداً ، فيقع الخلاف في المفعول لا في
الفاعل ، فيقول المنكر لذلك المثبت صحة ما عنده ضرب عمراً زيد لا محمداً ،
فإن ترك قوله لا محمداً كان مكثفاً عنه بتقديم المفعول ، وكذلك ما ينكره من
الفضلات كالظرفين والحال فقال المخاطب إذ توهم ضرب زيد عمراً اليوم فقال
المنكر ضرب أمس عمراً فقدم أمس على الفاعل والمفعول به لأنه هو الذي ينكره
ويمنع أن يكون على ما توهمه ، والباقي من الكلام ليس فيه ما يستكره ، فالعناية
بتقديم ما يزيل الشك عنه أتم وهو بالتقديم أحق فذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَهْلٌ بِهِ لَغَيْرِ اللَّهِ ﴾ مع قوله : ﴿ وَمَا أَهْلٌ لَغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ في الآية الثلاث .^(١)

وتقدم في الآية اسم الغفور على الرحيم ، وهذا تقديم بالرتبة كما ذكر الزركشي
فإن المغفرة سلامة ، والرحمة غنيمة ، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة وإنما تأخرت
في آية سبأ في قوله : ﴿ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ (سبأ: ٢) لأنها منتظمة في سلك تعداد
الخلق من المكلفين وغيرهم ، وهو قوله : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا
وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ فالرحمة شملتهم
جميعاً ، والمغفرة تخص بعضاً ، والعموم قبل الخصوص بالرتبة .^(٢)

(١) درة التنزيل ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) البرهان ج ٣ ص ٢٩١ .

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ (البقرة: ١٣٥) تقدم اليهود على النصارى ليس تقدم فضل ، بل هو تقدم لسبق الوجود حيث إنهم أسبق منهم زماناً ونظيره قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ (آل عمران: ٦٧) بدليل قوله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَبِيلٌ مِّنْهُمْ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المائدة: ٨٢) فتقديم اليهود لشدة عداوتهم للمؤمنين ، فقد كانوا أسرع الناس كفرًا بالنبي ﷺ وتكذيباً له وصد الناس عن دعوته والمصارعة بالإنفاق في محاربة الإسلام والكيد والتأمر ونقض العهود وخيانة المواثيق وإشعال الحروب وكل ذلك مسطور في القرآن مذكور في السيرة .

﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة: ١٣٦) يقول أبو حيان : « وقد ما أنزل إلينا وإن كان متأخراً في الإنزال عن ما بعده لأنه أولى بالذكر لأن الناس بعد بعثة محمد ﷺ مدعوون إلى الإيمان بما أنزل إليه جملة وتفصيلاً ، قدم ما أنزل على إبراهيم على ما أوتي موسى وعيسى للتقدم في الزمان ، أو لأن المنزل على موسى ومن ذكر معه هو المنزل إلى إبراهيم إذ هم داخلون تحت شريعته » .^(١)

وأقول : وقد تقدم الإيمان بما أنزل إلينا ، لأن الإيمان بالكتب السماوية السابقة ومعرفة كتبهم وأنبيائهم إنما كان عن طريق ما أنزل إلينا فهو المخبر عنها والحاكم عليها . ﴿ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ (البقرة: ١٤٠) .

قال أبو حيان : « وقد توسط هنا المستول عنه ، وهو أحسن من تقدمه وتأخره ، إذ يجوز في العربية أن يقول : أأعلم أنت أم الله ، ويجوز أنت أم الله أعلم ؟ ولا مشاركة بينهم وبين الله في العلم حتى يسأل أهم أزيدُ علماً أم الله ، ولكن ذلك على سبيل التهكم بهم والاستهزاء وعلى تقدير أن يظن بهم علم وهذا نظير قول حسان : (فشرُّكم لخيركم الفداء) وقد علم أن الذي هو خير كله هو الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وأن الذي هو شر كله هو هاجيه »^(٢) .

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٥٨٥ .

(٢) البحر المحيط ج ١ ص ٥٨٧ .

والشطر الأول من البيت هو :

أَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِكَفٍّ فَشَرُّكُمْ لَخِرُّكُمَْا الْفِدَاءُ^(١)

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣) هنا تقدمت شهادتهم على شهادة النبي ﷺ لأنها تقع هكذا ، يشهدون أولاً على الأمم ، ثم يشهد هو عليهم ثانياً ، وهذا منصوص عليه في حديث النبي ﷺ من أنه إذا أنكرت الأمم رسلهم وشهدت عليهم أمة محمد بالتبليغ يؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بصدقهم وإن فسرت الشهادتان بغير ذلك فحينئذ يمكن أن تكون شهادة الرسول من باب الترقى ، لأن شهادة الرسول عليهم أشرف من شهادتهم على الناس .

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ١٤٤).

التقديم والتأخير هنا في عرض الأحداث ، إذ جاء ذكر الآثار التي ترتبت على هذه الواقعة قبل وقوعها فكشفت الآيات عن موقف اليهود من تحول القبلة إلى المسجد الحرام أولاً ، ثم عرضت الأمر بهذا التحول بعد ذلك ، وفي هذا ما يشعر بأن هذا التحول في ذاته ما كان ليكون موضع تساؤل وجدل فهو أمر من الله ووجه من الوجوه إليه ﴿ وَلِلَّهِ الشَّرْقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ ولكن النفوس المريضة لا تجد طعماً حلواً ولا مساعاً لطيب ، وهذا هو محل النظر والأولى بالبلاء به خاصة إذا كان الجدال والشغب فيه عن علم ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَنَبْشُرُ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة: ١٥٥) وهي نظير قوله تعالى : ﴿ لَتَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ (آل عمران: ١٨٦) ، وقدم الابتلاء بالخوف على الابتلاء بالجوع من

(١) ديوان حسان ص ٢٠ .

باب الترقى من الصعب إلى الأصعب وكذلك قدمت الأموال على الأنفس أيضاً من باب الترقى من الصعب إلى الأصعب أو لأن الابتلاء في الأموال أكثر من الابتلاء في النفوس وهذا الترتيب عكس الترتيب في اللفظ في سورة قريش وإن كان متفقاً في المعنى حيث قدم الامتنان بالإطعام من الجوع على الأمن من الخوف لأن مضرة الجوع أعظم إذ إنه يفضي إلى الهلاك .

﴿ إِنِّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ١٥٨) يرتبط التقديم والتأخير في هذه الآية بفقه الحج والعمرة ، حيث إن النبي ﷺ بدأ في سعيه بين الصفا والمروة بالصفا ، ففي حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما دنا من الصفا قرأ ﴿ إِنِّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرٌ فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أبدأ بما بدأ الله به فبدأ بالصفا فرقى عليه^(١) رواه مسلم وهو عند الترمذي وقال فيه هذا حديث حسن صحيح والعمل على هذا عند أهل العلم أنه يبدأ بالصفا قبل المروة فإن بدأ بالمروة لم يجزه .^(٢)

قال أبو حيان : « ومشروعية السعي على قول كافة العلماء البداء بالصفا . و يترتب على ما سبق أنه لو خالف الترتيب فبدأ بالمروة لم يعتد بذلك الشوط » . قال ابن قدامة والنووي : « ويفتح بالصفا ويختتم بالمروة » وجملة ذلك ، أن الترتيب شرط في السعي ، وهو أن يبدأ بالصفا ، فإن بدأ بالمروة لم يعتد بذلك الشوط ، فإذا صار إلى الصفا اعتد بما يأتي به بعد ذلك لأن النبي ﷺ بدأ بالصفا وقال : { تبدأ بما بدأ الله به } وهذا قول الحسن ومالك والشافعي والأوزاعي وأصحاب الرأي ، وعن ابن عباس قال :

قال الله تعالى ﴿ إِنِّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ فبدأ بالصفا وقال : اتبعوا القرآن فما بدأ الله به فابدؤوا به .^(٣)

قال صاحب منهج السالك : « فيبدأ بالصفا ويختتم بالمروة ، ولو بدأ بالمروة سقط الشوط الأول ، قال الشارح : إشارة إلى ترتيب أشواط السعي وأن ذلك شرط

(١) مسلم باب حجة النبي ﷺ { ١٤٧ } { ١٢١٨ } ومنن الترمذي كتاب الحج رقم { ٧٩٠ } .

(٢) البحر المحيط ج ١ ص ٦٣٢ .

(٣) المغني ج ٣ ص ٢٧٥ المجموع ج ٨ ص ١٠٥ .

فيبدأ بالصفاء ويختم بالمرودة لأن النبي ﷺ بدأ بالصفاء وقال : {أبدأ بما بدأ الله به} {فبدأ بالصفاء} وعند النسائي في الكبرى {ابدؤوا} وفي الصغرى {فابدؤوا} قال في شرحه على قول المؤلف : ولو بدأ بالمرودة سقط الشوط الأول : أي لم يحتسب له لمخالفة فعل النبي ﷺ والمستفيض عنه ولأمر البداء بالصفاء في الحديث السابق فبدأ بالصفاء وقرأ ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ وهذا بيان لمراد الله وتقرير له . (١)

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (البقرة ١٦١) قال أبو حيان : «بدأ تعالى بنفسه وناهيك بذلك طرداً وإبعاداً» ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ (المائدة: ٦٠) . فلعنة الله هي التي تجر لعنة الملائكة والناس ، ألا ترى إلى قول بعض الصحابة ، ومالي لا ألعن من لعن الله على لسان رسوله ، وكما روي عن أحمد أن ابنه سأله : هل يلعن وذكر شخصاً معيناً ، فقال لابنه : يا بني هل رأيتني ألعن شيئاً قط ؟ ثم قال : ومالي لا ألعن من لعنه الله في كتابه قال : فقلت : يا أبت وأين لعنة الله ؟ قال : قال تعالى : ﴿أَبْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (الأعراف: ٤٤) ثم ثنى بالملائكة لما في النفوس من عظم شأنهم وعلو منزلتهم وطهارتهم ، ثم ثلث بالناس لأنهم من جنسهم فهو شاف عليهم لأن مفاجأة المماثل مما يدعي المماثلة بالمكروه أشق بخلاف صدور ذلك من الأعلى . (٢)

وقد ذكر البغوي نقلاً عن أبي العالية ما يفيد أن هذا للترتيب الوجودي يوم القيامة وهو لا يتعارض مع ما ذكره البغوي قال : قال أبو العالية : هذا يوم القيامة يوقف الكافر فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس . (٣) أقول : ولا منافاة بين القولين ، فأبو حيان نظر إلى المعنى والبغوي نظر إلى الفعل ، وكلا الرأيين صحيح .

(١) منهج السالك إلى بيت الله المجلد في أعمال المناسك ص ١٩٦ ، الواضح في فقه الإمام أحمد د/ علي أبو الخير دار الخير دمشق ١٤١٦ هجرية ١٩٩٥ ميلادية .

(٢) البحر المحيط ج ١ ص ٦٤٢ .

(٣) معالم التنزيل في التفسير والتأويل ج ١ ص ١٨٨ .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ لَأَرْضٍ وَأَاخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكُلٌّ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَاتٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَتَّبِعُ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة ١٦٤)، وعن سر التقديم والتأخير بين هذه الآيات كلام لأبي حيان منه ما يقبل الاحتمال ومنه ما هو عين الوهم والخيال يقول : « وقدّم السموات على الأرض لعظم خلقها ، أو لسبقه على خلق الأرض عند من يرى ذلك ، ثم أعقب ذكر خلق السموات والأرض باختلاف الليل والنهار ، وهو أمر ناشئ عن بعض الجواهر العلوية النيرة التي تضمنتها السموات ، ثم أعقب ذلك بذكر الفلك ، وهو معطوف على الليل والنهار كأنه قال : واختلاف الفلك : أي ذهابه مرة كذا ومرة كذا على حسب ما تحركها المقادير الإلهية ، وهو أمر ناشئ عن بعض الأجرام السفلية الجامدة التي تضمنتها الأرض ، ثم أعقب ذلك بأمور اشترك فيها العالم العلوي والعالم السفلي ، وهو إنزال الماء من السماء ونشر ما كان دفيناً في الأرض بالإحياء، وجاء هذا المشترك مقدّم فيه السبب على المسبب، فلذلك أعقب بالفاء التي تدل على السبب عند بعضهم ثم ختم ذلك بما لا يتم تقدمه من ذكر جريان الفلك ، فانظر إلى هذا الترتيب الغريب في الذكر حيث بدأ أولاً باختراع السموات والأرض ، ثم ثنى بذكر ما نشأ عن العالم العلوي ، ثم أتى ثالثاً بذكر ما نشأ عن العالم السفلي ، ثم أتى بالمشارك ، ثم ختم ذلك بما لا تتم النعمة للإنسان إلا به وهو التصريف المشروح . »^(١)

أقول : أما ما ذكره من تقديم خلق السموات على الأرض لعظم خلقها ، فهذا احتمال وارد وقد صار اليوم من اليقينيّات العلمية أن الأرض بالنسبة إلى السماء كحبة رمل في الصحراء ، وأما قوله : {أو لسبقه على خلق الأرض عند من يرى ذلك} ، فقد بسطت فيه القول في الآية الواحدة والعشرين وذكرت أن خلق الأرض مقدّم على خلق السماء ، وأما قوله : عن اختلاف الليل والنهار بأنه ناشئ عن بعض الجواهر العلوية النيرة التي تضمنتها السموات فليته سكت إذ لم يعلم ولم يتخرص

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٦٤٢ .

بالظن ، فقد أثبت العلم بما لا يدع مجالاً للشك أن تغير اختلاف الليل والنهار بسبب دوران الأرض حول محورها أمام الشمس .

وفي هذه الآية تقدم الليل على النهار ، وفي سبب التقديم احتمالات . ذكر الألوسي أن تقديم الليل لسبقه في الخلق أو لشرفه ، ولا أدري أي شرف عناه ؟ فالليل والنهار كلاهما وعاء لما يحدث فيهما من خير أو شر ، فالشرف إنما يثبت بالدليل كما ثبت فضل أيام العشر على ما سواها من أيام وشهر رمضان على ما سواه من الشهور ويوم الجمعة على سائر أيام الأسبوع وليلة القدر على سائر الليالي أما الليل والنهار فكلاهما مطيتان للبلوغ بالأعمال ، وأما ما ورد في شأن فضل صلاة الليل وعلى الأخص في الثلث الآخر فإنما ذلك راجع إلى المشقة اللاحقة بترك النوم والراحة والنهوض بأعباء العبادة .^(١)

وما ذكر من التقدم بالخلق والإيجاد أولي بالقبول وهو ما ذهب إليه الزركشي ، يقول : « ومنه تقدم الليل على النهار ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ ﴾ (الإسراء: ١٢) ومنه قوله تعالى : ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴾ (سبا: ١٨) وقوله تعالى : ﴿ بَلْ مَكْرَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ (سبا: ٣٣) وقوله تعالى : ﴿ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ (الروم: ١٧) ولذلك اختار العرب التاريخ بالليالي دون الأيام ، وإن كانت الليالي مؤنثة والأيام مذكرة وقاعدتهم تغليب المذكر إلا في التاريخ . فإن قلت : فما تصنع بقوله تعالى : ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ (يس: ٤٠) قلت : استشكل الشيخ أبو محمد بن عبد السلام في {قواعده} بالإجماع على سبق الليلة على اليوم . وأجاب بأن المعنى : تدرك القمر في سلطانه ، وهو الليل ، أي لا تجيء الشمس في أثناء الليل فقوله بعده : ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أي لا يأتي في بعض سلطان الشمس وهو النهار ، وبين الجملتين مقابلة .

فإن قيل : قوله تعالى : ﴿ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ (الحديد: ٦) مشكل على هذا ، لأن الإيلاج إدخال الشيء في الشيء ، وهذا البحث ينافيه .

(١) روح المعاني ج ٢ ص ٣١ .

قلت : المشهور في معنى الآية أن الله يزيد في زمن الشتاء مقداراً من النهار ومن النهار في الصيف مقداراً في الليل وعلى غير المشهور ، يجعل الليل في المكان الذي كان فيه النهار ويجعل النهار في المكان الذي كان فيها الليل ، والتقدير : يولج الليل في مكان النهار ويولج النهار في مكان الليل» .^(١)

أقول : وما ذهب إليه الشيخ أبو محمد وتابعه عليه الزركشي من تقديم الليلة على اليوم هو الراجح ، فالفضل ليس في زمن الليل نفسه ، وإنما لأنه أقرب إلى الإخلاص وأبعد عن الرياء ، أو لما فيه من المجاهدة في السهر ومغالبة النوم من أجل العبادة ولهذا جاء الليل والنهار في معرض الشاء على المنفقين مقابلة بالسر والعلن على طريقة اللف والنشر في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ (البقرة: ٢٧٤) قال الألوسي : «وقدم الليل على النهار والسر على العلانية للإيذان بمزية الإخفاء على الإظهار .

وذكر الألوسي قول بعضهم عن سر التقديم والتأخير واعترض عليه ولست معه في اعتراضه هذا لما تبين لي من ترجيح لهذا القول عند النظر في الآية ، قال الألوسي في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَهُ مِنْ أَلْسَمَاءٍ مِنْ مَاءٍ ﴾ عطف على {الفلك} قيل : وتأخيره عن ذكرها مع كونه أعم منها نفعاً لما فيه من مزيد تفضيل ، وقيل : المقصود من الأول الاستدلال بـ{البحر} وأحواله لا بـ{بالفلك} الجاري فيه لأن الاستدلال بذلك إما بصنعتة على وجه يجري في الماء ، أو العلم بكيفية إجرائه - أو بتسخير الرياح والبحر - لذلك أو توسله إلى {ما ينفع الناس} وشيء منها ليس من حاله في نفسه ، ولأن الاستدلال - بالفلك الجاري في البحر - استدلال بحال من أحوال البحر بخلاف ما لو استدل بالبحر وجميع أحواله فإنه أعم وأليق بالمقام، إلا أنه خص الفلك بالذكر مع أن مقتضى المقام حينئذ أن يقال : والعجائب التي في البحر - لأنه سبب الاطلاع على أحواله وعجائبه - فكان ذكره ذكراً لجميع أحواله ، وطريقاً إلى العلم بوجوه دلالاته ، ولذلك قدم على ذكر المطر والسحاب - أن منشأهما البحر في غالب الأمر ، وإلا فالمناسب بعد ذكر

(١) البرهان ج ٣ ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

﴿وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ الذي هو من الآيات العلوية ذكر - المطر والسحاب -
 اللذين هما من كائنات الجو وعدم نظم الفلك في البين لكونها من الآيات
 السفلية . يقول الألوسي : وعندي أن ذلك خلاف الظاهر جداً - وإن جل قائله - إذ
 يؤول المعنى إلى - والبحر الذي تجري فيه الفلك بما ينفع الناس - وهو قلب
 للنظم الكريم بغير داع إليه ولا دليل يعول عليه ، وأي مانع من كون الاستدلال
 باختلاف الفلك وذهابها مرة كذا ومرة كذا على حسب ما تحركها المقادير
 الإلهية، أو بالفلك الجارية في البحر من حيث أنها جارية فيه موقرة مقبلة ومدبرة،
 متعلقة بجمال الهواء على لطفه ، وكثافتها لا ترسب إلى قاع البحر مع تلاطم
 أمواجه واضطراب لججه وكون شيء من ذلك ليس حالاً لها في نفسها غير مسلم،
 ووجه الترتيب - على ما أرى - والكلام للألوسي - أنه سبحانه ذكر أولاً خلق أمرين
 علوي وسفلي ، واختلاف شيئين بمدخلية أمرين سماوي وأرضي {ثانياً} إذ تعاقب
 الليل والنهار أو اختلافهما ازدياداً أو انتقاصاً أو ظلمة أو نوراً إنما هو بمدخلية سير
 الفلك وحيلولة جرم الأرض على كيفيتين مخصوصتين ، ثم عقب ذلك بما يشبه
 آيتي الليل والنهار السابح كل منهما في لجة بحر فلكه الدوار المسخر بالجريان
 فيه ذهاباً وإياباً بما ينفع الناس في أمر معاشهم وانتظام أحوالهم ، وهو الفلك التي
 تجري على كبد البحر بذلك ، ويختلف جريانها شرقاً وغرباً على حسب تسليك
 المقادير الإلهية لها في هاتيك المسالك ، فالآية حينئذ على حد قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ
 لَيْلٍ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ (٢٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا
 ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٢٨) وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ
 (٢٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ
 يَسْبَحُونَ (٣٠) وَأَيُّهُمُ أُنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿ (يس: ٣٧-٤١) (١)

إلا أن الفرق بين الآيتين أن الآيتين في الثانية ذكرتا متوسطتين صريحاً بين حديث
 الفلك وشأن الليل والنهار ، وفي الأولى تقدم ما يشعر بهما ويشير إليهما ، ثم
 عقب ذلك بما يشترك فيه العالم العلوي والعالم السفلي ، وله مناسبة لذكر البحر

(١) روح المعاني ج ٢ ص ٤٧ .

بل ولذكر الفلك التي تجري فيه بما ينفع الناس وهو إنزال الماء من السماء ونشر ما كان دفيناً في الأرض بالإحياء ، وفي ذلك النفع التام والفضل العام ... وعقب إحياء الأرض بالمطر ، وبث كل دابة فيها بتصريف الرياح لأن في ذلك تربية النبات وبقاء حياة الحيوانات التي تدب على وجه الأرض قال بعض الفضلاء : لعل تأخير تصريف الرياح وتسخير السحاب في الذكر عن جريان الفلك وإنزال الماء مع انعكاس الترتيب الخارجي للإشعار باستقلال كل من الأمور المعدودة في كونها آية ولو روعي الترتيب الخارجي لربما توهم كون المجموع المرتب بعضه على بعض آية واحدة ، ولا يخفى أنه يبعد هذا التوهم ظاهر قوله تعالى » . (١)

أقول : وتقديم السموات على الأرض كثير في القرآن الكريم وأما تأخيرها عنها في قوله : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (يونس: ٦١) فإنه لما ذكر المخاطبين وهو قوله : ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ وهو خطاب لأهل الأرض وعملهم يكون في الأرض وهذا بخلاف الآية التي في سبأ فإنها منتظمة في سياق علم الغيب وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا تَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ (آل عمران: ٥) وأما تأخيرها عنها في قوله : ﴿ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ (الزمر: ٦٧) فلأن الآية في سياق الوعد والوعيد وإنما هو لأهل الأرض ، وكذا قوله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ﴾ (إبراهيم: ٤٨).

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٧٣) هذا التحريم المجمل فصل في صدر سورة المائدة في قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾ (المائدة: ٣) يرى بعض المفسرين أن هذه الآية ليس فيها

(١) روح المعاني ج ٢ ص ٣١-٣٣ .

تقديم ولا تأخير بينما يقول الفقهاء : يقدم الأخف تحريماً فيؤكل عن الاضطرار فميتة المأكول على ميتة غيره .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٧٤) في هذه الآية جاء التقديم والتأخير على أسلوب الطي والنشر السابق ذكره في الفصل الثالث - دوافع التقديم والتأخير - لقد ترتب على كتمان ما أنزل الله وشراء الثمن القليل أخبار أربعة هي :

أولاً : أكلهم النار .

ثانياً : عدم تكليم الله لهم يوم القيامة .

ثالثاً : عدم تزكيتهم .

رابعاً : استحقاقهم العذاب الأليم .

وعن سر ذلك الترتيب يقول أبو حيان : « وناسب ذكر هذه الأخبار ما قبلها ومناسب عطف بعضها على بعض لما نذكره ، فنقول متى : ذكر وصف ورتب عليه أمر فللعرب فيه طريقان : أحدهما : أن تكون تلك الأمور المترتبة على الأوصاف مقابلة لها ، الأول منها لأول تلك الأوصاف والثاني بالثاني ، وتارة يكون الأول من تلك الأمور مجاوراً لما يليه من تلك الأوصاف فتحصل المقابلة من حيث المعنى لا من حيث الترتيب اللفظي ، وهذه الآية جاءت من هذا القبيل ، لما ذكر تعالى اشتراءهم الثمن القليل وكان ذلك كناية عن مطاعهم الخسيسة الفانية بدأ أولاً في الخبر بقوله : ﴿ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾ ثم قابل تعالى كتمانهم الدين ، والكتمان هو أن لا يتكلموا به بل يخفوه بقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ فجوزوا على منع التكلم بالدين أن منعوا تكليم الله إياهم ، وابتنى على كتمانهم الدين واشترائهم بما أنزل الله ثمناً قليلاً أنهم شهدوا زور وأخبار سوء ، حيث غيروا نعت رسول الله وادعوا أن النبي المبتعث غير هذا قوبل ذلك كله بقوله : ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ ، ثم ذكر أخيراً ما أعد لهم من العذاب الأليم فرتب على اشتراء الثمن القليل قوله : ﴿ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾ وعلى الكتمان قوله :

﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ وعلى مجموع الوصفين قوله: ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فبدأ أولاً بما يقابل فرداً فرداً وثانياً بما يقابل المجموع .^(١)

قال الألوسي : « وقد جاءت هذه الأخبار مرتبة بحسب المعنى ، لأنه لما ذكر سبحانه اشتراءهم بذلك - الثمن القليل - وكان كناية عن مطامعهم الخبيثة الفانية بدأ أولاً في الخبر بقوله تعالى : ﴿ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾ ثم قابل كتمان الحق وعدم التكلم به بقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ - وابتنى على كتمانهم واشترائهم بما أنزل الله ثمناً قليلاً - أنهم شهود زور وأخبار سوء آذوا بهذه الشهادة الباطلة رسول الله ﷺ وآلموه فقبولوا بقوله سبحانه : ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وبدأ أولاً بما يقابل فرداً فرداً ، وثانياً بما يقابل المجموع » .^(٢)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٧٤) بدأ الوعيد في الثمن ﴿ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾ لكونه الحامل على كتمان العلم ثم أتبعه الوعيد على نفس الكتمان ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ ﴾ .

﴿ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْفُوتَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧) قال الألوسي : « ﴿ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ السمتان المعنيتان ، فإن اليهود تصلي - قبل المغرب - إلى بيت المقدس من أفق مكة ، والنصارى قبل المشرق وقدم المشرق على المغرب مع تأخر زمان الملة النصرانية رعاية لما بينهما من الترتيب المتفرع على ترتيب الشروق والغروب ، وقرأ حمزة وحفص - البر - بالنصب والباقون بالرفع . ووجه الأولى أن يكون خبراً مقدماً كما في قوله :

(١) البحر ج ١ ص ٦٦٨ .

(٢) روح المعاني ج ١ ص ٤٤ .

سلي أن جهلت الناس عنا وعنهم فليس سواء عالم وجهول

وحسن ذلك أن المصدر المؤول أعرف من المحلى باللام لأنه يشبه الضمير من حيث إنه لا يوصف ولا يوصف به والأعرف أحق بالاسمية ولأن في الاسم طولاً فلو روعي الترتيب المعهود لفات تجاوب أطراف النظم الكريم ، ووجه الثانية أن كل فريق يدعي أن البر هنا فيجب أن يكون الرد موافقا لدعواهم وما ذلك إلا بكون البر اسماً كما يفصح عنه جعله مخبراً عنه في الاستدراك ... ﴿ ذَوِي الْقُرْبَى ﴾ مفعول أول لـ ﴿ وَءَاتَى ﴾ قدم عليه مفعوله الثاني للاهتمام أو لأن فيه مع { ما } عطف عليه طولاً لو روعي الترتيب لفات تجاوب الأطراف ، وهو الذي اقتضى تقديم الحال أيضاً ، وقيل : هو المفعول الثاني ، والمراد بذوي القربى - ذو قرابة - المعطي لكن المحاويع منهم لا مطلقاً ... وقدم هذا الصنف لأن إيتاءهم أهم فقد صح عن أم كلثوم بنت عقبة قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول : { أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح } وأخرج أحمد والترمذي وغيرهما عن سلمان ابن عامر قال : قال رسول الله ﷺ { الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم اثنان صدقة وصلة } ... ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ والبأساء - والبؤس والفقر - والضراء - السقم والوجع - . ﴿ وَجِينَ الْبَأْسِ ﴾ أي وقت القتال وجهاد العدو وهذا من باب الترقى في الصبر من الشديد إلى الأشد لأن الصبر على المرض فوق الصبر على الفقر والصبر على القتال فوق الصبر على المرض .^(١)

قال أبو حيان : « وقدم الملائكة والكتب على الرسل وإن كان الإيمان بوجود الملائكة وصدق الكتب لا يحصل إلا بواسطة الرسل ، لأن ذلك اعتبر فيه الترتيب الوجودي لأن الملك يوجد أولاً ، ثم يحصل بواسطة تبليغه نزول الكتب ، ثم يصل ذلك الكتاب إلى الرسول فروعى الترتيب الوجودي الخارجي ، لا الترتيب الذهني ، وقدم الإيمان بالله واليوم الآخر على الإيمان بالملائكة والكتب والرسل ، لأن المكلف له مبدأ ووسط ومنتهى ، ومعرف المبدأ والمنتهى هو المقصود بالذات وهو المراد بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وأما معرفة مصالح الوسط فلا تتم إلا

(١) روح المعاني ح ١ ص ٤٧ ، ٤٨ .

بالرسالة ، وهي لا تتم إلا بأمور ثلاثة : الملائكة الآتين بالوحي ، والموحي به وهو الكتاب ، والموحي إليه وهو الرسول ، وقدم الإيمان على أفعال الجوارح وهو إيتاء المال والصلاة والزكاة ، لأن أعمال القلوب أشرف من أعمال الجوارح ، ولأن أعمال الجوارح النافعة عند الله تعالى إنما تنشأ عن الإيمان... قال الراغب : « فإن قيل لم قدم هنا ذكر اليوم الآخر وأخره في قوله : ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (النساء: ١٣٦) قيل : يجوز ذلك مع أن الواو لا تقتضي ترتيباً من أجل أن الكافر لا يعرف الآخرة ولا يعنى بها ، وهي أبعد الأشياء عن الحقائق عنده ، فأخر ذكره ، لما ذكر حال المؤمنين والمؤمن أقرب الأشياء إليه أمر الآخرة فقدم ذكره تنبيهاً على أن البر مراعاة الله ومراعاة الآخرة... ويرى أبو حيان أن تقديم البأساء على الضراء من باب الترقي من الشديد إلى الأشد فذكر أولاً الصبر على الفقر ، ثم الصبر على المرض ، وهو أشد من الفقر ، ثم الصبر على القتال ، وهو أشد من الفقر والمرض » .^(١)

ولصاحب الظلال لفظة جميلة في تقديم ذوي القربى على غيرهم يقول : « هذه الصلة لذوي القربى فيها تحقيق لمروءة النفس ، وكرامة الأسرة ، وشائج القربى والأسرى هي النواة الأولى للجماعة ومن ثم هذه العناية بها وهذا التقديم » .^(٢)

وهذه الآية لها نظائر كثيرة في كتاب الله تعالى من ذلك قوله تعالى :
﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢١٥).

وعن هذا الترتيب يقول صاحب الظلال : « أما طريق الإنفاق ومصرفه فيجىء بعد تقرير نوعه : ﴿ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ وهو يربط بين طوائف من الناس بعضهم تربطه بالمنفق رابطة العصب ، وبعضهم رابطة الرحم ، وبعضهم رابطة الرحمة ، وبعضهم رابطة الإنسانية الكبرى في إطار العقيدة .

(١) البحر ج ٢ ص ١٠٠٦ .

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب ميلادية ج ١ ص ١٦٠ .

وكلهم يتجاوزون في الآية الواحدة : الوالدون . والأقربون واليتامى والمساكين وابن السبيل . وكلهم يتضامنون في رباط التكافل الاجتماعي الوثيق بين بني الإنسان في إطار العقيدة المتين .

ولكن هذا الترتيب في الآية وفي الآيات الأخرى ، والذي تزيده بعض الأحاديث النبوية تحديداً ووضوحاً كالذي جاء في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لرجل : « ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلاهلك ، فإن فضل شيء عن أهلك فللذي قرابتك ، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا » .^(١)

هذا الترتيب يشي بمنهج الإسلام الحكيم البسيط في تربية النفس وقيادتها إنه يأخذ الإنسان كما هو ، بفطرته وميوله الطبيعية واستعداداته ، ثم يسير به من حيث هو كائن ، ومن حيث هو واقف يسير به خطوة خطوة ، صعوداً في المرتقى العالي : على هيئة وفي سر ، فيصعد هو مستريح ، هو يلبي فطرته وميوله واستعداداته ، وهو ينمي الحياة معه ويرقيها لا يحس بالجهد والرهق ، ولا يكبل بالسلاسل والأغلال ليجر في المرتقى ، ولا تكبت طاقاته وميوله ، ليخلق ويرف ولا يعتسف به الطريق اعتسافاً ، ولا يطير به طيراناً فوق الآكام ، إنما يصعد به صعوداً هيناً وقدماه على الأرض وبصره معلق بالسما ، وقلبه يتطلع إلى الأفق الأعلى وروحه موصولة بالله في علاه .

ولقد علم الله أن الإنسان يحب ذاته ، فأمره أولاً بكفايتها قبل أن يأمره بالإنفاق على من سواها ، وأباح له الطيبات من الرزق وحثه على تمتيع ذاته بها في غير ترف ولا مخيلة ، فالصدقة لا تبدأ إلا بعد الكفاية والرسول ﷺ يقول : { خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول } ولقد علم الله أن الإنسان يحب - أول ما يحب - أفراد أسرته الأقربين . عياله . . ووالديه فسار به خطوة في الإنفاق وراء ذاته إلى هؤلاء الذين يحبهم ، ليعطيهم من ماله وهو راض ، فيرضي ميله الفطري الذي لا ضير منه ، بل فيه حكمة وخير ،

(١) صحيح مسلم كتاب الزكاة رقم {١٦٦٣} سنن النسائي كتاب الزكاة رقم {٢٤٩٩} وكتاب البيوع رقم {٤٥٧٣} .

وفي الوقت ذاته يعول ويكفل ناساً هم أقرباؤه الأدنون ، نعم ، ولكنهم فريق من الأمة ، إن لم يعطوا احتاجوا وأخذهم من القريب أكرم لهم من أخذهم من البعيد وفيه في الوقت ذاته إشاعة للحب والسلام في المحضن الأول ، وتوثيق لروابط الأسرة التي شاء الله أن تكون اللبنة الأولى في بناء الإنسانية الكبير .

ولقد علم الله أن الإنسان يمد حبه وحميته بعد ذلك إلى أهله كافة - بدرجاته منه وصلتهم به - ولا ضير في هذا ، فهم أفراد من جسم الأمة وأعضاء في المجتمع فسار به خطوة في الإنفاق وراء أهله الأقربين ، تسائر عواطفه وميوله الفطرية ، وتقضي حاجة هؤلاء ، وتقوي أواصر الأسرة البعيدة وتضمن وحدة قوية من وحدات الجماعة المسلمة ، مترابطة العرى وثيقة الصلات .

وعندما يفيض ما في يده عن هؤلاء وهؤلاء - بعد ذاته - فإن الإنسان يأخذ بيده لينفق على طوائف من المجموع البشري ، يثيرون بضعفهم أو حرج موقفهم عاطفة النخوة وعاطفة الرحمة وعاطفة المشاركة وفي أولهم اليتامى الصغار الضعاف ، ثم المساكين الذين لا يجدون ما ينفقون ، ولكنهم يسكتون فلا يسألون الناس كرامة وتجبلاً ، ثم أبناء السبيل الذين قد يكون لهم مال ، ولكنهم انقطعوا عنه وحالت بينهم وبينه الحوائل ^(١) .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝ ﴾ (النساء: ٣٦) ، فالتقديم هنا للأهمية أيضاً ومن هذا القبيل آية الصدقات في سورة التوبة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾ (التوبة: ٦٠) .

فالتقديم هنا للاهتمام بالمستحقين للصدقات فبدأ الآية بالأهم فالأهم ، وهذا ما ذهب إليه الرازي أيضاً حيث قال : [الوجه الأول] أنه تعالى أثبت الصدقات

(١) الظلال ج ٢ ص ١١٥ .

لهؤلاء الأصناف دفعاً لحاجتهم وتحصيلاً لمصلحتهم ، وهذا يدل على أن الذي وقع الابتداء بذكره يكون أشد حاجة لأن الظاهر وجوب تقديم الأهم على المهم ، ألا ترى أنه يقال أبو بكر وعمر ومن فضل عثمان على علي - عليهما السلام - قال في ذكرهما عثمان وعلي ، ومن فضل علياً على عثمان يقول علي وعثمان وأنشد عمر قول الشاعر :

كفى الشيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهياً

فقال : هلا قدم الإسلام على الشيب ؟ فلما وقع الابتداء بذكر الفقراء وجب أن تكون حاجتهم شد من حاجة المساكين .^(١)

وذكر القاسمي عن الراغب : « إن قيل كيف أعتبر الترتيب المذكور في قوله تعالى ﴿ وَآتَى الْمَالَ ﴾ الآية ؟ قيل : لما كان أولى ما يتفقد الإنسان بمعرفه أقاربه ، كان تقديمها أولى ثم عقبه باليتامى لأن مواساتهم بعد الأقارب أولى ، ثم ذكر المساكين الذين لا مال لهم حاضراً ولا غائباً ، ثم ذكر ابن السبيل الذين منهم صادق ، وكاذب ، ثم ذكر الرقاب الذين لهم أرباب يعولونهم فكل واحد ممن أخرج ذكره أقل فقراً ممن ذكره » .^(٢)

﴿ الْحَجُّ أَشْهَرُ مَعْلُومَةٍ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِمْ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ﴾ (البقرة: ١٩٧) .

بدأ بقوله : ﴿ فَلَا رَفَثَ ﴾ من باب تقديم الداعي لما بعده إذ إن الرفث هو مقدمات النكاح من نظر بالعين وسماع بالأذن ولمس باليد وفكر بالقلب ، فإذا حدث ذلك كان داعياً إلى الجماع في حالة الإحرام وهو الفسق المذكور بعده ﴿ وَلَا فُسُوقَ ﴾ .

﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (البقرة ٢٠٣) .

في هذه الآية تأخير عن الآيات السابقة عليها في التلاوة والتي تتحدث عن الحج وأعماله ومناسكه ، وكان السياق يقتضي أن تكون هذه الآية سابقة ومتقدمة إلا أن

(١) مفاتيح الغيب ج ١٦ ص ١٠٩ ، ١١٠ .

(٢) محاسن التأويل ج ١ ص ٤٨٣

التأخير هنا جاء لعلة بلاغية وضرب من ضروب البديع الذي لم يوافق عليه أبو حيان ولسنا معه في ذلك ، قال : « قال بعض الناس : في هذه الآيات نوع من البديع وهو التقديم والتأخير ، وهو من ضروب البيان في النثر والنظم دليل على قوة الملكة في ضروب من الكلام وذلك قوله : ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾ متقدم على قوله : ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ﴾ لأن قوله : ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾ معطوف عليه قوله : ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ﴾ لأن قوله ﴿ وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ﴾ معطوف عليه قوله : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ ﴾ وقوله : ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ﴾ وقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ﴾ معطوف على قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ ﴾ وعلى قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي ﴾ فيصير الكلام معطوفاً على الذكر لأنه مناسب لما قبله في المعنى ، ويصير التقسيم معطوفاً بعضه على بعض ، لأن التقسيم الأول في معنى الثاني فيتحد المعنى ويتسق اللفظ ، ثم قال : ومثل هذا في القرآن كثير ، يعني التقديم والتأخير ثم قال : ومثل هذا فذكر قصة البقرة وقتل النفس وقصة المتوفى عنها زوجها في الآيتين قال : ومثل هذا في القرآن كثير ، يعني التقديم والتأخير ، يعلق أبو حيان على ما أورده قائلاً : « ولا يذهب إلى ما ذكره ولا تقديم ولا تأخير في القرآن لأن التقديم والتأخير عندنا من باب الضرورات ونزله كتاب الله تعالى عنه » .^(١)

أقول : وما ذكره أبو حيان قول عجيب من عالم مثله كيف أنكر أسلوباً من أساليب البلاغة عرف في الأدب العربي كله جاهلية وإسلاماً وما بعد الإسلام وحتى يومنا هذا وباب الضرورات فيه نذر يسير لما عده ، وقد سبق بيان ذلك في الفصل الأول من الرسالة ففيه الكفاية .

نعم نحن معه في أن البعض تكلف وتحكم غير الصواب وإخراج الكلام عن سياقه بدعوى التقديم والتأخير دون سبب مبرر لذلك فنحن معه في تعليقه على

(١) البحر المحيط ج ٢ ص ١٢٩ .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ ﴾ (البقرة: ٢١٤) وقالت طائفة : « في الكلام تقديم وتأخير التقدير ، حتى يقول الذين ءامنوا متى نصر الله ، فيقول الرسول : ﴿ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ ، فقدم الرسول في الرتبة لمكانته ، وقدم قول المؤمنين لتقدمه في الزمان » قال ابن عطية : « وأكثر المتأولين على أن الكلام إلى آخر الآية من قول الرسول والمؤمنين ، ويكون ذلك من قول الرسول على طلب استعجال النصر لا على شك وارتياب ، والرسول اسم الجنس ، وذكره الله تعظيماً لتلك النازلة التي دعت الرسول إلى هذا القول^(١) . ويؤيد أبو حيان قول ابن عطية ويميل أيضاً إلى أن الرسول اسم جنس لا واحد بعينه . وأقول : حتى لو كان واحداً بعينه فإن ذلك لا ينقص قدره ليس من عدم الشك والارتياب ، بل لكون الاستعجال من أجل أمته وأتباعه رحمة بهم وليس من أجله نفسه

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَكْمِلِينَ ﴾ (البقرة: ٢١٤) .

ادعى البعض أن في هذه الآية تقديم وتأخير وأن أصل الترتيب كالتالي { أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء حتى يقول الذين ءامنوا متى نصر الله فيقول الرسول ألا إن نصر الله قريب } ، وقالوا بأن الرسول ﷺ قد قدم في الرتبة لمكانته .

أقول : ولا يخلو هذا الادعاء من تكلف وإخراج الكلام عن ترتبه بغير قرينة لفظية أو معنوية ، وقد حملهم على ذلك تنزيه الرسول عن الاستعجال لطلب النصر ، ونقول إن استعجال طلب النصر من الرسول ﷺ إنما كان للمؤمنين خوفاً على إيمانهم وسلامة لدينهم وليس لشخصه ، فشأن الأنبياء الفناء في البلاء مواصلة الصبر عند مر القضاء فما بالك بالمرسلين وهم أعظم إيماناً وأرسخ في اليقين ، وقد دعا سيد المرسلين في غزوة بدر سائلاً ربه النصر من أجل ظهور الدين وعدم استعلاء دين المشركين وفي السيرة النبوية : وبعد أن اتخذ الرسول ﷺ

(١) المحرر الوجيز ج ١ ص ٢٤١ .

كل الوسائل المادية الممكنة للنصر في حدود الطاقة البشرية ، بات ليلته تلك يتضرع إلى الله تعالى أن ينصره ومن دعائه كما جاء في رواية عند مسلم {اللهم انجز لي ما وعدتني ، اللهم آت ما وعدتني ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض} وتقول الرواية فما زال يهتف بربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (الأنفال: ٩) ومما رواه البخاري من دعائه في ذلك اليوم {اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم} .^(١)

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ (البقرة: ٢١٧).

قال صاحب التحرير والتنوير : « واعلم أن مقتضى ظاهر ترتيب نظم الكلام أن يقال : وصد عن سبيل الله وكفر به وصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله ، فخولف مقتضى هذا النظم إلى الصورة التي جاءت عليها الآية والداعي إلى هذا الترتيب هو أن يكون نظم الكلام على أسلوب أدق من الظاهر وهو الاهتمام بتقديم ما هو أفظع من جرائمهم ، فإن الكفر بالله أفظع من الصد عن المسجد الحرام ، فكان ترتيب النظم على تقديم الأهم فالأهم ، فإن الصد عن سبيل الله يجمع مظالم كثيرة ، لأنه اعتداء على الناس فيما يختارونه لأنفسهم ، وجحد لرسالة رسول الله ، والباعث عليه انتصارهم لأصنامهم ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ (ص: ٥) فليس الكفر بالله إلا ركنًا من أركان الصد عن الإسلام ، فلذلك قدم الصد عن سبيل الله ثم ثنى بالكفر بالله ليفاد بدلالة المطابقة بعد أن دل عليه الصد عن سبيل الله بدلالة التضمن ، ثم عد عليهم الصد عن المسجد الحرام ثم إخراج أهله منه .^(٢)

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ٣٤٧ .

(٢) التحرير والتنوير ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا ﴾ (البقرة: ٢١٨) تقدم الإيمان على كل من الهجرة والجهاد لتقدم وقوعه من ناحية ولتعلق قبولهما به من ناحية أخرى ، وكذلك تقدمت الهجرة على الجهاد لتقدم وقوعها عليه .

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (البقرة: ٢٢١) قال أبو حيان : « وتقدم هنا الجنة على المغفرة وتأخر عنها في قوله : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ (آل عمران: ١٣٣) وفي قوله : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ ﴾ (الحديد : ٢١) والأصل فهي تقدم المغفرة على الجنة ، لأن دخول الجنة متسبب عن حصول المغفرة في تلك الآيتين جاء على هذا الأصل ، وأما هنا فتقدم ذكر الجنة على المغفرة لتحسن المقابلة ، فإن قبله ﴿ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ فجاء ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ ﴾ وليبدأ بما تشوف إليه النفس حين ذكر دعاء الله ، فأتى بالأشرف للأشرف ثم أتبع بالمغفرة على سبيل التتمة في الإحسان وتهئية سبب دخول الجنة » .^(١)

أقول : وقد يكون من باب تقديم الغايات على الوسائل ، فإن الجنة هي الغاية والمغفرة سبب للوصول إليها فبدأ الله تعالى بها لأنها المقصودة بذاتها والمغفرة سبيل إليها .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٢٢) قدم التوابين على المتطهرين ، لأن التوبة سبب للطهارة فإذا تاب العبد طهره الله من درن المعاصي وكفر عنه سيئاته ، قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَرَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان: ٧٠) . وقد شبه النبي ﷺ الصلاة بالنهر الذي يغتسل الإنسان فيه خمس مرات فلا يبقى من درنه شيئاً وكذلك الزكاة طهرة للنفوس ﴿ خُذْ مِّنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ (التوبة: ١٠٣) ﴿ وَقَدْ مُوا لَأَنفُسِكُمْ وَآتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَمُتَّقُونَ وَكَثِيرٍ أَلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة: ٢٢٣) .

وقد رتبت الجمل الثلاث الأول على عكس ترتيب حصول مضامينها في الخارج ، فإن الظاهر أن يكون الإعلام بملاقاة الله هو الحاصل أولاً ثم يعقبه الأمر

(١) البحر المحيط ج ٢ ص ١٧٦ .

بالتقوى ثم الأمر بأن يقدموا لأنفسهم ، فخولف الظاهر للمبادرة بالأمر بالاستعداد ليوم الجزاء ، وأعقب بالأمر بالتقوى إشعاراً بأنها هي الاستعداد ثم ذكروا بأنهم ملاقوا الله فجاء ذلك بمنزلة التعليل .

﴿ أَلْطَلُقَ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ ﴾ (البقرة: ٢٢٩) .

تقدم قوله : ﴿ فَإِمْسَاكَ بِمَعْرُوفٍ ﴾ على قوله : ﴿ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنٍ ﴾ وهذا التقديم للاستحباب حيث إن الإمساك أفضل من التسريح ولهذا بدأ به ، فالطلاق وإن كان مباحاً فإنه مكروه بأصل التشريع ، روى الإمام أبو داود في سننه بإسناده عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال { أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق } ^(١)

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ (البقرة: ٢٣٩) هذه الآية تتحدث عن أحوال المصلين صلاة الخوف فبدأ بذكر الرجال قبل الركبان لأن صلاة الرجل أمكن من صلاة الراكب ، أو أن الترتيب من باب الجبر للراجلين في باب الرخصة إذ إنهم أشدّ تعباً من الراكبين في الجهاد ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَرْجِ يَأْتُواكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ (الحج: ٢٧) لأن الرجل أشدّ تعباً من الراكب ويحتمل لأن الرجل هو أسرع تلبية بحكم قربه فهو الذي يأتي من مكان قريب من البيت ذكر الوجه الأخير الزركشي بعد حديثه عن النوع الرابع - المرتبة - ^(٢)

﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (البقرة: ٢٤٥) لماذا تقدم القبض على البسط مع أن البسط من معانيه الرحمة والكرم والجود بخلاف القبض ؟ فيه احتمالات ذكر الزركشي منها أن تأخير القبض وتقديم البسط لا يناسب التلاوة قبله لأن الآية تقول : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَمْضَاعًا كَثِيرَةً ﴾ أو للترغيب في الإنفاق لأن الممتع منع سببه خوف القلة ، فبين أن هذا لا ينجيه ، فإن القبض مقدر ولا بد . ^(٣)

(١) سنن أبي داود باب الطلاق { في كراهية الطلاق } حديث رقم ١٨٦٢ ، ١٨٦٣ .

(٢) البرهان ج ٣ ص ٢٩١ .

(٣) البرهان ج ٣ ص ٣٠٦ .

بينما يرى صاحب غرائب القرآن كما يفهم من كلامه أنه للترهيب من الإقتار ، يقول في الآية ﴿ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ ﴾ : « يقتر على عباده ويوسع فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم لا يبدلكم الضيقة بالسعة وأيضاً من كتب له الفقر فليس له إلا ذلك سواء أنفق أو لم ينفق ومن كتب له الغنى فليس له إلا ذلك فعلى التقديرين يكون إنفاق المال في سبيل الله أولى . . ويحتمل أن يكون المعنى : والله يقبض بعض القلوب حتى لا يقدم على هذه الطاعة ، ويبسط بعضها حتى يسهل عليه البذل وصرف المال » . . (١)

وأرى هناك وجهاً آخر : وهو أن ﴿ يَقْبِضُ ﴾ هنا بمعنى القبول والأخذ وهذا ذخّر في الآخرة ﴿ وَيَبْصُطُ ﴾ وهذا بركة في المال وخلف في الدنيا بالحلال قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ أَتَوَاتِبُ الرَّحِيمُ ﴾ (التوبة: ١٠٤) روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ {من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب وإن الله يقبلها بيمينه ثم يريها لصاحبها كما يري أحدكم فلوله حتى تكون مثل الجبل} يصدق الصدقة بيمينه فيريها لأحدكم . . وعند مسلم {ما تصدق أحد بصدقة من طيب ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يري أحدكم فلوله أو فصيله} . ورواه أيضاً أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه . (٢) فالقبول سبب للثواب وهذا تقديم للشرف ، كما أنه سبب لحصول البسط في الرزق ، وهذا تقديم للسببية ، ومن هنا كان التقديم لسببين الشرف والسببية .

﴿ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجَسْمِ ۖ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٤٧) .

(١) غرائب القرآن و رغائب الفرقان ج ٢ ص ٦٦٣ .

(٢) صحيح البخاري كتاب الزكاة رقم {١٣٢١} وكتاب التوحيد رقم {٦٨٧٨} ومسلم كتاب الزكاة رقم {١٦٨٤} و{١٦٨٥} وسنن الترمذي كتاب الزكاة رقم {٥٩٧} . ورقم {٥٩٨} والنسائي كتاب الزكاة رقم {٢٤٧٨} ابن ماجه كتاب الزكاة {١٨٣٢} ومسند أحمد من كتاب باقي مسند المكثرين {٧٣١٤} {٨٠٣} {٨٦٠٤} {٨٨٧٧} {٩٠٦٤} {٩٧٠٧} {١٠٥٢٣} .

قال الألوسي : « وفي تقديم البسطة في العلم على البسطة في الجسم إيماءً إلى أن الفضائل النفسانية أعلى وأشرف من الفضائل الجسمانية . بل يكاد لا يكون بينهما نسبة ، وفي اختيار ﴿ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ في الإخبار عنه تعالى هنا من حسن المناسبة لبسطة الجسم وكثرة العلم ما تهتش له الخواطر لا سيما على ما يتبادر من بسطة الجسم ، وقدم الوصف الأول مع أن ما يناسبه ظاهراً مؤخر لأن له مناسبة معنى لأول الإخبار إذ الاصطفاء من سعة الفضل أيضاً ولأن عليم أوفق بالفواصل وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة » .^(١)

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾ (البقرة: ٢٤٩) .
بدأ بقوله : ﴿ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ على قوله : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي ﴾ لأن المقصود بالإخبار هو عدم الشرب فبدأ بالتحذير أولاً لأنه هو المراد من السياق ، إذ إن طلب السلامة والنجاة أولى من طلب الغنيمة ، ودرء المفاسد مقدم على جلب المنافع .

﴿ وَلَمَّا بَرَرُوا لِحَالُوْتِ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٠) قال البيضاوي : « وفيه ترتيب بليغ إذ سألوا أولاً إفراغ الصبر في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر ، ثم ثبات القدم في مداحض الحرب المسبب عنه ، ثم النصر على العدو المترتب عليهما غالباً » .^(٢)
وما ذكره البيضاوي ظاهر المعنى ، فالترتيب هنا ترتيب تسلسلي لأحداث متعلق بعضها على بعض آخذ بعضها بعنق بعض ، فلا ثبات إلا بصبر ولا نصر إلا بثبات .

﴿ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (البقرة: ٢٥١) .

تقدم الملك على الحكمة مع كونها أشرف منه ، لأنها كانت بعده وقوعاً ، فهي من باب الترقي أي من ذكر الأدنى إلى ذكر الأعلى ، فالتدرج في مثل هذا المقام من الأدنى إلى الأشرف هو الترتيب الطبيعي .

(١) روح المعاني ج ١ ص ١٦٧ .

(٢) البيضاوي ج ١ ص ٥٤٨ .

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٥) .

لماذا تقدم اسم الحي على اسم القيوم ؟

أقول : لأن ﴿الْحَيُّ﴾ صفة الذات التي تترتب عليها سائر الصفات كلها ، فإذا عدت هذه الصفة عدت سائر الصفات ، ولذا تقدمت على صفة القيومية والتي هي قيومية ذات فهو لا يفتقر إلى غيره سبحانه ، غيره يفتقر في قوامه إليه سبحانه وكلاهما لا يكونان بدون حياة .

وهنا تقدمت السنة على النوم لأن السنة هي مقدمات النوم ، فهي ما يتقدم النوم من الفتور الذي يسمى النعاس .

ومنه قول ابن الرقاع العاملي : ^(١)

وسنانُ أقصدَه النُّعاسُ فرُقْتُ في عينيه سنةً وليس بنائم

وقدم نفي الأخص على نفي الأعم ليفيد المبالغة من حيث لزوم نفي النوم أولاً ، ثم نفي الأعم ليفيد المبالغة من حيث لزوم نفي النوم أولاً ضمناً ثم ثانياً تصريحاً . ولو اقتصر على نفي الأخص لم يلزم منه نفي الأعم .

وهذا ما ذهب إليه الألوسي أيضاً إذ يرى أن تقديم السنة على النوم مراعاة للترتيب الوجودي فلتقدمها إلى النوم في الخارج قدمت عليه في اللفظ ، وقيل : إنه على طريق التتميم وهو أبلغ لما فيه من التأكيد إذ نفي السنة يقتضي نفي النوم ضمناً فإذا نفي ثانياً كان أبلغ ، ورد بأنه إنما هو على أسلوب الإحاطة والإحصاء وهو متعين ففيه مراعاة الترتيب الوجودي والابتداء من الأخف فالأخف كما في قوله : ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ (الكهف: ٤٩) ولهذا توسطت كلمة {لا} تنصيهاً على الإحاطة ونفي الشمول لكل منهما ، وقيل إن تأخير النوم رعاية للفواصل ولا يخفى أنه من ضيق العطن ، وقال بعض المحققين : «هذا كله إنما يحتاج إليه إذا أخذ الآخذ بمعنى العروض والاعتراء ، وأما لو أخذ بمعنى القهر والغلبة ، كما ذكره الراغب ، وغيره من أئمة اللغة ومنه قوله تعالى : ﴿أَخَذَ عَرْشَ مُقْتَدِرٍ﴾ (القمر: ٤٢) ، فالترتيب على مقتضى الظاهر إذ يكون المعنى لا تغلبه السنة ولا النوم الذي هو أكثر غلبة منها . ^(٢)

(١) الغرائب ج ١ ص ١٤ .

(٢) غرائب القرآن و رغائب الفرقان ج ٢ ص ٨ .

أقول : وهناك احتمال آخر للتقديم والتأخير في قوله : ﴿ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ ولعله أظهر من القول بأن التقديم لسبق الوجود ، وهو أن التقديم والتأخير من باب كمال القيومية ، حيث بدأ بالصغير قبل الكبير إثباتاً لانتفاء النقص عنه سبحانه فلا يلحقه نوم ولا مقدمات النوم كقوله تعالى : ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ .

ويعجبني ما قاله صاحب التحرير بعد تعريفه للسنة بقوله : « والسنة أول النوم » ثم ذكر بيت عدي بن الرقاع والنوم معروف . . ونفي استيلاء السنة والنوم على الله تعالى تحقيق لكمال الحياة ودوام التدبير ، وإثبات لكمال العلم ، فإن السنة والنوم يشبهان الموت فحياة النائم في حالهم حياة ضعيفة ، وهما يعوقان عن التدبير وعن العلم بما يحصل في وقت استيلائهما على الإحساس . ونفي السنة عن الله تعالى لا يغني عن نفي النوم عنه لأن من الأحياء من لا تعتريه السنة فإذا نام نام نوماً عميقاً ومن الناس من تأخذه السنة في غير وقت النوم غلبة ، وقد تماذحت العرب بالقدرة على السهر ، . . والمقصود أن الله لا يحجب علمه شيء حجباً ضعيفاً ولا طويلاً ولا غلبة ولا اكتساباً ، فلا حاجة إلى ما تطلبه الفخر والبيضاي من أن تقديم السنة على النوم مراعى فيه ترتيب الوجود ، وأن ذكر النوم من قبل الاحتراس وقد أخذ هذا المعنى بشار وصاغه بما يناسب صناعة الشعر فقال :
وليل دجوجي تنامُ بنائهُ وأبناؤه من طولهِ وربائبه ^(١)

فإنه أراد من بنات الليل وأبنائه الساهرين والساهرات بمواظبة وأراد برائب الليل من هم أضعف منهم سهرأ لليل لأن الريب أضعف نسبة من الولد والبت ^(٢) .
﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّبْعَاتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٥٦)
وتقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان ، من باب تقديم التخلية على التحلية ، فلا يستقيم إيمان عبد إلا إذا نزع كل عقائد الباطل وشبهات الوثنية والشرك من قلبه ، حينئذ يستقر الإيمان ويثبت ، وإلا كان إيماناً مهزوزاً مريضاً ، لا يؤتي ثمرأ

(١) ديوان بشارين برد ص ١٤٢ .

(٢) التحرير ج ٣ ص ٤ ، ٥ .

ولا يورق فيفيد ظلاً ، كشجرة نبتت في أرض غير نقية قد امتلأت بالحشائش والمتعلقات والمتسلقات والطفيليات التي تضعفها أو تتلفها ، فهذا الإيمان حاله كحال تلك الشجرة لا يثبت عند أدنى شبهة ، أو يصمد عند أدنى محنة سرعان ما تنكسر أصوله وتيبس غصونه ، ولو أورق لتساقطت أوراقه .

قال ابن عطية : « وقدم ذكر الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ، ليظهر الاهتمام بوجوب الكفر بالطاغوت »^(١)

ويضيف أبو حيان : وناسب ذلك أيضاً اتصاله بلفظ الغي ، ولأن الكفر بالطاغوت متقدم على الإيمان بالله ، لأن الكفر بها هو رفضها ، ورفض عبادتها^(٢)

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة: ٢٥٧) قدم اسمه سبحانه للاهتمام وآخر الطاغوت للاحتقار ، فالترتيب الطبيعي أن يقال والطاغوت ولي الذين كفروا . ونظير تقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله قوله تعالى في سورة الزمر : ﴿ وَالَّذِينَ آجْتَنَّبُوا الظُّلُمَاتِ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴾ (الزمر: ١٧) وسوف نتعرض لها بمزيد من التفصيل في سورة الزمر .

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٥٩) تقدم قوله : ﴿ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ ﴾ على قوله : ﴿ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ ﴾ مع أن سبب القصة هو التعجب من أمر إحياء الموتى ، وأقول : إن القصة إنما سبقت لبيان التعجب من قدرة الله تعالى في كيفية إحياء الموتى ، ولما

(١) المحرر الوجيز ج ٢ ص ٢٩٢ .

(٢) تفسير البحر المحيط ج ٢ ص ٢٩٢ .

كان الأمر كذلك قدم ما هو أدل على القدرة وأبلغ في العظة وذلك لأن الطعام والشراب أسرع إلى الفساد والتحلل وأظهر في القدرة ، ولهذا بدأ به ثم ثنى بإحياء الموتى .

﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ (البقرة: ٢٦٧) تقدم الجار والمجرور على الجملة الفعلية وعن سبب التقديم يقول نظام الدين : « وقدم { منه } ليعلم أن المنهي عنه هو تخصيص الخبيث بالإنفاق منه أي إذا كان في المال طيب وخبيث . ويحتمل أن يتم الكلام عند قوله : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ ﴾ ثم ابتداء مستفهماً بطريق الإنكار فقال : ﴿ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم إلا بالإغماض وهو غرض البصر وإطباق جفن على جفن وأصله من الغموض وهو الخفاء ^(١) .

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٨) بدئ بجملة ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾ على لفظ الجلالة لأنه سبقها قوله : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ وكان حاملهم على ذلك هو البخل والشح بالطيب الذي مثيره الشيطان ، فلذلك بدئ بقوله ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ ﴾ وأن ما تصدقتم به من الخبيث إنما هم من نزغات الشيطان ، ثم ذكر تعالى في مقابلة وعد الشيطان وعد الله بشيئين أحدهما : الستر لما اجتروحه من الذنوب : والثاني : الفضل وهو زيادة الرزق والتوسعة في الدنيا والآخرة .

هذه الآية التي جاء بها ابن أبي الأصبع في باب صحة المقابلات ، قال : « قدم في صدر الكلام أمران : الوعد بالفقر والأمر بالفحشاء ، ثم قابل الشيئين في الظاهر بشيء واحد وهو الوعد فأوهم أنه أدخل بذكر الأمر وليس كذلك وإنما كان الفضل مقابلاً للفقر والمغفرة مقابلة للأمر بالفحشاء ، لأن الفحشاء توجب العقوبة والمغفرة تقابل العقوبة ، استغنى بذكر المقابل ذكر مقابله لأن ذكر أحدهم ملزم لذكر الآخر ^(٢) »

قال صاحب التحرير : « وقدم اسم الشيطان مسنداً إليه لأن تقديمه مؤذن بدم الحكم الذي سيق له الكلام وشؤمه لتحذير المسلمين من هذا الحكم ، كما يقال في

(١) الغرائب ج ٣ ص ٤٥ .

(٢) تحرير التجبير ص ١٨٣ و التحرير والتنوير ج ٣ ص ٥٩ .

مثال علم المعاني [السفاح في دار صديقك] ولأن في تقديم المسند إليه على الخبر
الفعلي تقوي الحكم وتحقيقه .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدُنُهُمْ ﴾ (البقرة: ٢٧٢)

تقدم المسند هنا على المسند إليه، لتخفيف العناء الذي كان يشعر به رسول الله ﷺ
من عدم إيمانهم ، وقد أفاد هذا التقديم بيان الاهتمام بالنبي ومراعاة شأنه بإذهاب
سبب غمه وألمه .

قال صاحب التحرير والتنوير : « تقديم الظرف وهو عليك على المسند إليه
وهو ﴿ هُدُنُهُمْ ﴾ إذا أُجري على ما تقرر في علم المعاني من أن تقديم المسند
الذي حقه التأخير يفيد قصر المسند إليه على المسند وكان ذلك في الإثبات بيناً
لا غبار عليه نحو قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون: ٦) ^(١) ﴿ الَّذِينَ
يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يُخْزَوْنَ ﴾ (البقرة: ٢٧٤) تقدم القول في تقدم الليل على النهار في
الآية وأن تقديم الليل ليس في فضله على النهار وإنما قدم هنا باعتبار ما يحدث في
وقته الذي هو مظنة إخفاء الصدقة والتي هي أقرب للإخلاص وأبعد عن الرياء ،
وقد جاءت الآية على أسلوب اللف والنشر فجاء النشر فيها على ترتيب اللف فقابل
الليل السر وقابل النهار العلانية .

قال أبو حيان : « وقد يقال : إن تقديم الليل على النهار والسر على العلانية يدل
على تلك الأفضلية » . ^(٢)

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ
مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾
(البقرة: ٢٧٥)، ليس في الآية تقديم ولا تأخير وإنما هي حكاية قولهم الفاسد ،
فبدلاً من أن يقولوا إنما الربا - المجمع على تحريمه - مثل البيع - المجمع على
حله - جعلوا الربا بمنزلة الأصل المماثل له البيع وهذا من عكس التشبيه ، كقول
ذي الرمة : ورملي كأروال العذارى قطعته .

(١) التحرير ج ٣ ص ٦٠ .

(٢) التحرير والتنوير ج ٢ ص ٣٤٤ .

وكما قال أبو القاسم بن هانئ :

كَانَ ضِيَاءُ الشَّمْسِ غُرَّةَ جَعْفَرٍ رَأَى الْقُرْنَ فَازْدَادَتْ طَلَاقَتُهُ ضَعْفًا^(١)

ويرى الأستاذ عبد الكريم الخطيب : أن هناك تقديمًا وتأخيرًا آخر ناشئ من النظر في معنى ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا ﴾ ، حيث يرى كما يقول : « إن الضمير في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِينَ يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ يراد به المقترضون بالربا ، وهم - كما قلنا - الذين يأكلون هذا المال المقرض ويستهلكونه في الأمر أو الأمور التي اقترضوا من أجلها ، ويسند هذا الرأي أن المقرض - وهو المرابي - لا يأكل المال الذي أقرضه بالربا ، ولا يستهلكه ، وهذا ما ينطق به ظاهر اللفظ ﴿ يَأْكُلُونَ ﴾ والحمل على الظاهر أولى ، ولا يصار إلى غيره إلا عندما يكون للظاهر وجه مقبول ، هكذا في الطبع والأصوب - غير مقبول .

هذا من جهة ومن جهة أخرى ، فإننا لو نظرنا في الصورة كلها على هذا الوجه ، لبدا لنا أن آكلي الربا ، وهم المقرضون - على ما ذهبنا إليه - قد رهقهم الدين وأثقلهم حملة وأنهم أصبحوا في يد المرابي كالسمكة في شبكة الصياد ، كلما ضربت برأسها وذنبها في الشبكة لتجد طريقاً إلى الخلاص كلما اشتد ضغط الشبكة عليها وإمساكها بها . . فالمقرض بالربا قد علقت به حبال المرابي وكلما أراد أن يفلت من يده ويتخفف من الدين الذي أثقله به كلما ازداد إحكام يده عليه وتضاعف الدين الذي كان ينوء به . . . والحق أنه لو امتنع المقرضون بالربا عن طرق أبواب المرابين لما وجد هؤلاء المرابون من يتعاملون معه ولما تمت هذه الجريمة المنكرة . .

وأما تقديم المقرضين بالربا على المقرضين به في مجال التشنيع على الربا والتهديد للمتعاملين به فذلك لأن المقرض - كما قلنا - هو الذي بيده مفتاح هذه العملية ، وأنه هو الذي يطرق باب المرابي وتلك الطرقات يفتح الباب وتم الجريمة ولو أمسك المقرضون عن التعامل بالربا لما وجد المرابون سوقاً رائجة

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦٧ .

يتعاملون معها فكان تقديم الحديث إليهم في هذا الموقف هو من مقتضيات الحكمة والبلاغة معاً»^(١).

﴿ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بَيِّنْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رَجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجْلِهِ ﴾ (البقرة: ٢٨٢) تقدمت الكتابة على التولية مع أنها متأخرة عنها واقعاً فإنما تكون الكتابة بعد الإملاء وذلك للاهتمام بها وعدم التفريط فيها ، فإن كثيراً من المنازعات والخلافات المالية إنما تنشأ بسبب النسيان الذي هو مظنة ضياع الحقوق وما يترتب عليه من فساد العلاقات .

قال الثعالبي : « ولما كانت النفوس مستشرفة إلى معرفة أسباب الحوادث ، قدم في هذه العبارة ذكر سبب الأمر المقصود إلى أن يخبر به ، وهذا من أبرع الفصاحة إذ لو قال لك رجل : أعددت هذه الخشبة أن أدعم بها هذا الحائط لقال السامع : ولم تدعم حائطاً قائماً ؟ فيجيب ذكر السبب فيقال : إذا مال ، فجاء في كلامهم تقديم السبب أخصر من هذه المحاورة »^(٢).

قدم الصغير على الكبير ، وإن كان الكبير أهم والكتابة به أغنى خيفة التساهل ولمزيد الاعتناء . أو كما قال الألوسي : « الانتقال من الأدنى إلى الأعلى »^(٣)

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرُ ﴾ (النساء: ٧) وقوله تعالى : ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ (الكهف: ٤٩) ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٨٤) تقدم الجار والمجرور - به -

(١) التفسير القرآني ج ٣ ص ٣٥٤، ٣٥٢

(٢) الجواهر الحسان ج ١ ص ٢٢٢ .

(٣) روح المعاني ج ٢ ص ٦٠ .

على الفاعل - الله - للاعتناء به فلا يحدث التساهل من قبل المكلفين ، كما أن الآية سيقَّت في مجال الإخبار الذي يحمل معنى التهديد والوعيد لمن يعمل السوء ، ولذا قدم الضمير العائد على العمل الذي يجازى به الإنسان قبل من يجازي عليه ، ومعلوم أن الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة ، فلما أُمن الظلم كان الاهتمام بالعمل هو محط الفائدة وموضع الاهتمام ، قال الألوسي : «وأما تقديم الإبداء على الإخفاء على عكس ما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ تُخْشَوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٢٩) فلما قيل : إن المعلق - بما في أنفسهم - هنا المحاسبة والأصل فيها الأعمال البادية ، وأما العلم فتعلقه بها كتعلقه بالأعمال الخافية ولا يختلف الحال عليه تعالى بين الأشياء البارزة والكامنة ، بل لا كامن بالنسبة إليه سبحانه خلا أن مرتبة الإخفاء متقدمة على مرتبة الإبداء ما من شيء يبدو إلا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمَر في النفس فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلق علمه بحالته الثانية ... وتقديم المغفرة على التعذيب لتقدم رحمته على غضبه» .^(١)

أقول : أما تقدم العذاب على المغفرة في المائدة ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (المائدة: ٤٠) لأنها نزلت في حق السارق والسارقة وعذابهم يقع في الدنيا فقدَّم لفظ العذاب وفي غيرها قدَّم لفظ المغفرة رحمة منه سبحانه وترغيباً للعباد في المسارعة إلى موجبات المغفرة ، فالتقديم هنا تقديم وجودي لأن عذاب الحد واقع في الدنيا.

﴿ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (البقرة: ٢٨٥) تقدم السمع على الطاعة لأنه وسيلة التكليف وسببه ، فلا تكليف بلا علم ولا طاعة إلا بعد المعرفة وتقديمهما على طلب الغفران من باب تقدم الوسيلة على المستول حيث تكون أقرب للقبول كما سيأتي في سورة آل عمران

وقوله تعالى : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ (البقرة: ٢٨٦) تقدم المسند المجرور في الموضعين {لها} و{عليها} وقد أفاد هذا التقديم الانحصار ، أي أن

(١) روح المعاني ج ٢ ص ٦٥ .

كسب النفس من العمل الصالح لا يستفيد بها سواها ، وما كسبته من العمل السيئ لن يحمله سواها ، ولهذا المعنى تقدم المجروران .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ كُنَّا مُسِيئِينَ أَوْ أَخْطَاءُنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦) جاءت هذه الآية على طريقة اللف والنشر فقد قابل كل جملة من الجمل الثلاث جملة فقابل قوله : ﴿ لَا تُؤَاخِذْنَا ﴾ بقوله : ﴿ وَاعْفُ عَنَّا ﴾ وقابل قوله : ﴿ وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا ﴾ بقوله : ﴿ وَاعْفِرْ لَنَا ﴾ وقابل قوله : ﴿ وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ بقوله : ﴿ وَارْحَمْنَا ﴾ لأن من آثار عدم المؤاخذه بالنسيان والخطأ العفو ، ومن آثار عدم حمل الإصر عليهم بالمغفرة ، ومن آثار عدم تكليف ما لا يطاق الرحمة .

قال أبو حيان : « وبمعرفة معنى العفو والمغفرة والرحمة يتبين سر التقديم في الآية ، فالعفو هو إسقاط العقوبة ، والمغفرة هو ستر الذنب ومنه سمي المغفر الذي يوضع على رأس الفارس لأنه يستر رأسه من الضربات فجاء طلب المغفرة لعدم كشف الجريمة صوتاً له عن عذاب التخجيل والفضيحة فإن الخلاص من عذاب النار إنما يطيب إذا حصل عقبيه الخلاص من عذاب الفضيحة . فالأول هو العذاب الجسماني والثاني هو العذاب الروحاني ، وبعد التخلص منهما أقبل على طلب الثواب وهو أيضاً قسمان : جسماني وهو نعيم الجنة وطيباتها وهو قوله : ﴿ وَارْحَمْنَا ﴾ وروحاني وهو إقبال العبد بكليته على مولاه ففيه الاعتراف بأنه سبحانه هو المتولي لكل نعمة ينالونها » .^(١)

(١) البحر ج ٢ ص ٤٧٠ .

سورة آل عمران

تناسبت سورة آل عمران مع خاتمة سورة البقرة تناسباً شديداً ، فقد جاء في آخر البقرة آية الكرسي وما بعدها لتقرير أمر التوحيد وإثبات صفات الله تعالى ، وأنه هو الحي القيوم وذكر حال من جادل في الألوهية واستبعد قدرة الله والأمر بالإتفاق في سبيل الله والوعد بمضاعفة الجزاء للمنفقين والإخبار بإيمان الرسول والمؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله ودعاء الله سبحانه وتعالى الذي بيده النصر والتوجه إليه برفع الأصار وعدم التكليف بما يشق ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ﴾ (البقرة: ٢٨٦) ، جاءت سورة آل عمران مبتدئة بذكر لفظ الجلالة ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (آل عمران: ٢) الذي دعاه المؤمنون في آخر سورة البقرة ثم جاء الحديث عن التوراة والإنجيل وهما الكتابان المنزلان على الذين من قبلنا السابق ذكرهم في آخر البقرة ، ولما تحدثت سورة البقرة عن اليهود وأفعالهم جاءت سورة آل عمران لتتحدث عن المسيح - عليه السلام - وعائلته وعجيب خلقه وحال أتباعه وتقسيم أهل الكتاب إلى أمين وخائن ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّمَكَ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّمَكَ إِلَيْكَ ﴾ (آل عمران: ٧٥) وقد تشابه ختام البقرة وآل عمران في أن كلا منهما قد ختم بالدعاء .

وقد أوجب سبحانه الحج في آل عمران ، بعد أن ذكر أنه مشروع في البقرة وأمر بتمامه بعد الشروع فيه ولهذا ذكر البيت والصفة والمروة .

﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿١﴾ مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ﴾ (آل عمران: ٤٣) ذكر الخازن عن السدي قوله : « في الآية تقديم وتأخير تقديره وأنزل التوراة والإنجيل والفرقان هدى للناس » .^(١)

(١) الخازن ج ١ ص ٤١١ .

أقول : ولست أدري سبباً لهذا التكلف بالتقديم والتأخير إلا كونه أراد أن يدخل القرآن في قوله هدى للناس ، مع أن هذا المعنى مستفاد من قوله تعالى : ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي أنه مصدق لما في التوراة والإنجيل من الهدى ، هذا وقد يكون هناك محذوف ، تقديره كذلك أي : وأنزل الفرقان كذلك هدى للناس ، طلباً للإيجاز والاختصار وهما روح البلاغة .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (آل عمران: ٥) .

قدم الأرض ترقياً من الأدنى إلى الأعلى ، ولأن المقصود بالذكر ما اقترف فيها من أعمال العباد ، فالآية تهديد ووعد لأهل الأرض أولاً ، فهم المخاطبون بهذا الوعد الذي جاء في صورة الإخبار عن إحاطة علم الله بكل شيء بما في ذلك أعمالهم .

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾ (آل عمران: ١٤) ، قال أبو حيان : «وأتى بذكر الشهوات على سبيل الإجمال ثم أخذ في تفسيرها شهوة شهوة ليدل على أن المزين ما هو إلا شهوة دنيوية لا غير فيكون في ذلك تنفير عنها وذم لطالبها وللذي يختارها على ما عند الله ، وبدأ في تفصيلها الأهم فالأهم» .^(١)

وأقول : بدأ بالنساء لأن التعلق بهن أشد وأخطر ثم ثنى بالبنين وقدمهم على الأموال لأن حب الإنسان ولده أكثر من حبه لماله ، أما تقدم المال على البنين في قوله تعالى : ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (الكهف: ٤٦) ، فالتقديم هنا للسبية ، فبدون المال لا يكون زواجاً ولا أبناء ، وأما التقديم في قوله تعالى : ﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ فالتقديم هنا للداعي ، لأن الأموال غالباً هي التي يستعان بها على الفتن ، أو كما قال صاحب الطراز : «إنما قدم ذكر الأموال هنا لأنه في معرض ذكر الافتتان ، ولا شك أن الافتتان بالمال أدخل من الافتتان بالأولاد لما فيه من تعجيل اللذة والوصول إلى كل مسرة والتمكن من البسطة والقوة بخلاف آية القناطر ، فإنه إنما قدم البنين فيها لما ذكرها في معرض الشهوة

(١) البحر المحيط ج ٢ ص ٤١٤ .

وتمكين المحبة» .^(١) وكذلك قوله تعالى : ﴿ أُنْمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ (الحديد: ٢٠) .

قال الخازن : « إنما بدأ بذكر النساء لأن الالتذاذ بهن أكثر ، والاستئناس بهن أتم ﴿ مِنْ أَلْذَهَبٍ وَأَلْفِضَةٍ ﴾ قال : « إنما بدأ بهما من بين سائر الأصناف لأنهما قيم الأشياء » .^(٢)

قال الشعراوي : « وفي هذا القول نجد أن القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تأخرت هنا عن النساء والبنين ولم يأت بذكر الأموال أولاً ثم الأولاد كفتنة ، وهي تأتي بعد تحقيق الشهوة الأولى وهي النساء ، والزينة الثانية وهي الأبناء ونعلم أن من عنده مال يكفيه للزواج والإنجاب قد يطمع في المزيد من المال »^(٣)

أقول : وهناك احتمال آخر لتقديم البنين على المال هنا وتأخرها في مواضع آخر وهو أن البنين جاءت بصيغة الجمع وعندما جاءت بصيغة المفرد أخرت كما في قوله تعالى : ﴿ أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (الكهف: ٤٦) وقوله تعالى : ﴿ اُنْحَسِبُونَ أَنَّهَا مُدْهَرٌ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ﴾ ﴿ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥٦، ٥٥) ﴿ قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِمَنِ اَلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ (آل عمران: ١٥) إذا كان الكلام قد تم عند قوله : ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ فإن ﴿ جَنَّاتٌ ﴾ يرتفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو جنات ، وتكون الجملة بيان وتفسير للخيرية المذكورة في الآية ، وإذا تم الكلام عند قوله : ﴿ مِنْ ذَلِكَ ﴾ ، ففي الآية تقديم وتأخير فيكون قوله : ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ خبر مقدم والمبتدأ المؤخر هو قوله : ﴿ جَنَّاتٌ ﴾ ويكون التقديم هنا مفيداً للاختصاص أي أن الجنات للمتقين ليست لغيرهم .

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

(آل عمران: ١٦)

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ص ٢٣٣ .

(٢) الخازن ج ١ ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

(٣) الشعراوي ج ١ ص ٤٦١ .

تقدم قولهم : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامِنَّا ﴾ على قولهم : ﴿ فَاعْفِرْ لَنَا ﴾ لأن إيمانهم هو الوسيلة لطلب مغفرة الذنوب ونظيره قوله تعالى في ذات السورة : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامِنَّا رَبَّنَا فَاعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران: ١٩٣) وقد أمر تعالى عباده بتقديم الوسيلة إليه ابتغاء فقال : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامِنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة: ٣٥) .

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ١٨)، قال أبو حيان : « قدم الملائكة على أولي العلم من البشر لأنهم الملائكة الأعلى وعلمهم كله ضروري بخلاف البشر فإن علمهم ضروري واكتسابي . »^(١)

وأقول : وربما كان التقديم لسبق الوجود إذ إن خلق الملائكة أسبق من البشر ، أو لسبق الشهادة إذ إن الملائكة أسبق بشهادتهم من أولي العلم ، فقد شهدوا بذلك منذ خلقهم ، لأنهم فطروا على الطاعة وأما أولو العلم فليسوا سواءً ، فمنهم من لم يدخل في شهادتهم وقتاً ما لعدم وجود الإيمان ، أو العلم من قبل . وليس تقديم الملائكة للتفضيل ، وإن كان قد ذهب إلى ذلك فريق من أهل العلم .

ونقل القاسمي عن الشعراني قال : « سألت أخي أفضل الدين : لم شهد الحق تعالى لنفسه بأنه لا إله إلا هو ؟ فقال ﷺ : لينبه عباده على غناه عن توحيدهم له ، وأنه هو الموحد نفسه بنفسه فقلت له : فلم عطف الملائكة على نفسه دون غيرهم ؟ فقال : لأن علمهم بالتوحيد لم يكن حاصلًا من النظر في الأدلة كالبشر ، وإنما كان علمهم بذلك حاصلًا من التجلي الإلهي وذلك أقوى العلوم وأصدقها ، فلذلك قدموا في الذكر على أولي العلم وأيضاً فإن الملائكة واسطة بين الحق وبين رسله فناسب ذكرهم في الوسط فاعلم ذلك »^(٢) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِقَائِمَةِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (آل عمران: ٢١)

(١) تفسير البحر المحيط ج ٢ ص ٤٢٠ .

(٢) تفسير القاسمي ج ٢ ص ٢٩٦ .

التقديم هنا للأهمية حيث ذكر الله تعالى ضياع الحقوق مبتدئاً بالأهم فالهم ، ومن الممكن أن يقال البداء بأعظم الجرائم فالأقل ، وعلى كلتا الحالتين فالتقديم للترقي المتصاعد في الجريمة .

قال أبو حيان : « فهذه ثلاثة أوصاف بدئ فيها بالأعظم فالأعظم ، وبما هو مسبب للآخر ، فأولها : الكفر بآيات الله وهو أقوى الأسباب في عدم المبالاة بما يقع من الأفعال القبيحة ، وثانيها : قتل من أظهر آيات الله استدلل بها ، والثالث : قتل أتباعهم ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر » .^(١)

أقول : وقد جاء ترتيب الآية التي تليها مناسباً لها وهي قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِمَّنْ نَنْصِرِينَ ﴾ (آل عمران: ٢٢) . فلما كان الكفر بآيات الله أعظم كان التبشير بالعذاب الأليم أعظم ، وقابل قتل الأنبياء بحبوط العمل في الدنيا والآخرة ففي الدنيا بالقتل والسبي وأخذ المال والاسترقاق ، وفي الآخرة بالعقاب الدائم ، وقابل قتل الأمرين بالقسط بانتفاء الناصرين عنهم إذا حل بهم العذاب .

﴿ قُلْ إِنْ تَخْشَوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَرُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٢٩) .

قدم هنا الإخفاء على الإبداء ، وجعل محلها الصدور ، وجعل جواب الشرط العلم بخلاف ما في البقرة فإنه قدم فيها الإبداء على الإخفاء وجعل محلها النفس ، وجعل جواب الشرط المحاسبة وذلك لعلة بلاغية لم يذكرها السمين الحلبي حيث اكفى بقوله { وكل ذلك تفنن في البلاغة وتنوع في الفصاحة } .^(٢) وقد ذكرت قول الألوسي في علة التقديم والتأخير بين الآيتين في آخر سورة البقرة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَعَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٣٣) ، هذا الترتيب المذكور بين الأنبياء لسبق الوجود وليس للفضل ، فأدم نبي ونوح نبي ورسول بل من أولي العزم من الرسل وإبراهيم أفضل من نوح بدليل حديث النبي ﷺ الذي رواه مسلم عن أنس بن مالك ؓ قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا خير البرية فقال رسول الله ﷺ : { ذاك إبراهيم عليه السلام } .^(٣)

(١) تفسير البحر المحيط ج ٢ ص ٤٢٩ .

(٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ج ٢ ص ٢٦ .

(٣) صحيح مسلم باب من فضائل إبراهيم الخليل ؑ رقم ٢٣٩٦ .

﴿ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (آل عمران: ٣٦) أصل الترتيب في هذه الآية {وَإِنِّي أُعِيدُهَا وَذُرِّيَّتَهَا بِكَ} إلا أن الآية جاءت على خلاف هذا الترتيب ، فقدمت أم مريم المعاذ به وهو الله سبحانه وتعالى في قولها ﴿ بِلَكَ ﴾ على المعطوف ﴿ وَذُرِّيَّتَهَا ﴾ وذلك راجع إلى تعظيمها الله بتقديم اسمه ، كما يدل على شدة إيمانها وتعلق قلبها بحبائل التوحيد المتينة ، حيث إن استعاذتها لم تكن إلا بالله وحده ، ولهذا قدمته في الذكر ، وكأنها تقول : إني أعيدها وذريتها بك وحدك ليس بأحد سواك .

قال أبو حيان : « وقدمت ذكر المعاذ به على المعطوف على الضمير للاهتمام به ثم استدركت بعد ذلك ذكر ذريتها » .^(١)

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ (آل عمران: ٣٧).

تقدم الجار والمجرور - عليها - على الفاعل - زكريا - لإظهار كمال العناية بأمورها ولأن القصة في شأنها وليس في شأن زكريا .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (آل عمران: ٤٠)، قال أبو حيان : « وهنا قدم حال نفسه وأخر حال امرأته ، وفي مريم عكس فقال الماتريدي : لا تراعى الألفاظ في الحكاية إنما تراعى المعاني المدرجة في الألفاظ ، وقال غيره : صدر الآيات في مريم مطابق لهذا الترتيب هنا لأنه قدم أنه وهن العظم منه ، واشتعل الرأس شيباً وقال : ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا ﴾ فلما أعاد ذكرها في الاستعلام أخر ذكر الكبر ليوافق ﴿ عِتِيًّا ﴾ رؤوس الآي وهو باب مقصود في الفصاحة يترجح إذا لم يخل بالمعنى ، والعطف هنا بالواو فليس التقديم والتأخير مشعراً بتقدم زمان وإنما هذا من باب تقديم المناسب في فصاحة الكلام » .^(٢)

وقد ذهب الفيروزابادي إلى نحو مما سبق حيث قال : « فقدم ذكر المرأة لأن في مريم قد تقدم ذكر الكبر في قوله ﴿ وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ وتأخر ذكر المرأة في قوله :

(١) البحر المحيط ج ٢ ص ٤٥٨.

(٢) البحر المحيط ج ٢ ص ٤٧٠.

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأَىٰ وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا ﴾ ثم أعاد ذكرهما فأخر ذكر الكبير ليوافق ﴿ عِتْيًا ﴾ ما بعده من الآيات ﴿ سَوِيًّا ﴾ ﴿ وَعَشِيًّا ﴾ و﴿ صَبِيًّا ﴾^(١) أقول : وفيما ذكرناه نظر ، فالقول بالتأخير لموافقة رؤوس الآي ضرورة شعرية تستحيل على كلام القدير ، ولكن لا بد أن يكون هناك معنى آخر جاء لأجله هذا الترتيب مع ما فيه من حسن الوقف على هذه الفاصلة ، أما أن تكون الفاصلة هي الهدف من هذا الترتيب فهذا نظم يضعف به إبداع الشاعر فما بالك بالقرآن الكريم ، ومن يمعن النظر في السورتين يدرك أن الترتيب فيهما واحد لم يختلف ، وأن التقديم فيهما جاء على نسق واحد ففي سورة آل عمران تقدم ذكر الكبير في قوله : ﴿ وَقَدْ بَلَغْنِي الْكِبَرَ وَأَمْرَاتِي عَاقِرٌ ﴾ ، فبدأ بذكر تعجبه أولاً من حال نفسه ، وفي سورة مريم بدأ بذكر تعجبه من وجود الولد بحال امرأته ﴿ وَكَانَتْ أَمْرَاتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتْيًا ﴾ لأنه قد سبق ذلك الإشارة إلى حال كبره وشيخوخته ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ واقتربه من الرحيل بدنوه من خطوات الموت ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأَىٰ ﴾ أي من بعد موتي ، فلما سبق ذكر شأنه ناسب أن يبتدأ بذكر حال امرأته ويؤخر ذكر نفسه المذكور من قبل في دعائه .

أما قول الماتريدي : « لا تراعى الألفاظ في الحكاية إنما تراعى المعاني المدرجة في الألفاظ فغير مقبول لماذا ؟ لأنه إن لم يكن للترتيب معنى في إيراد الحكاية وكان كلا الأسلوبين في التقديم والتأخير سواء بسواء فلم خولف الترتيب ؟ لقصد أم لغير قصد ؟ إن كان لقصد فهو ما ذكرناه ، وإن كان لغير قصد فهذا عبث ننزه كلام الله تعالى عنه . »

﴿ يَمْزِيغُ آفَاتِي لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ ﴾ (آل عمران: ٤٣) ، تقدم السجود على الركوع راجع إلى أمور ذكرها أهل التفسير ، ولقد جمع أبو حيان جملة هذه الآراء فذكر أن السجود إذا كانت الهيئة التي هي أقرب ما يكون العبد فيها إلى الله قدم ، وإن كان متأخراً في الفعل على الركوع فيكون إذ ذاك التقديم

(١) بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٦٢ .

بالشرف ، أقول : ويشهد لهذا القول قوله تعالى في سورة الزمر : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ
ءَاتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ (الزمر: ٩) ، فتقدم
السجود على القيام مع كونه أسبق في الوجود منه من الركوع ومنه أيضاً قوله
تعالى في سورة الفرقان : ﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴾ (الفرقان: ٦٤) ،
وقد ذهب إلى ذلك الرأي البقاعي عند تفسيره لهذه الآية فقال ولما كان السجود
أشد أركان الصلاة تقريباً إلى الله ، لكونه أنهى الخضوع مع أنه الذي أباه الجاهلون ،
قدمه لذلك ويعلم بادئ بدء أن القيام في الصلاة فقال : ﴿ سُجَّدًا ﴾ وأتبعه ما هو
تلوه في المشقة تحقيقاً لأن السجود على حقيقته فيتمحص الفعلان في الصلاة .^(١)

وقيل كان السجود مقدماً على الركوع في شرع زكريا وغيره منهم ذكره
أبو موسى الدمشقي ، وقيل في كل ملة إلا ملة الإسلام فجاء التقديم من حيث
الوقوع في ذلك الشرع ، فيكون إذ ذاك التقديم زمانياً من حيث الوقوع ، وهذا
التقديم أحد الأنواع الخمسة التي ذكرها البيانون وكذلك التقديم الذي قبله ،
وتوافق الزمخشري وابن عطية على أنه لا يراد ظاهر الهيئات ، فقال الزمخشري :
« أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود لكونهما من هيئات الصلاة وأركانها ثم
قيل لها ﴿ وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ المعنى : ولتكن صلاتك مع المصلين أي في
جماعات وانظمي نفسك في جملة المصلين وكوني معهم وفي عدادهم ولا تكوني
في عداد غيرهم » .

وقال ابن عطية : « القول عندي في ذلك أن مريم أمرت بفعلين ومعلمين من
معالم الصلاة وهما طول القيام والسجود وخصا بالذكر لشرفهما في أركان الصلاة
وهذان يختصان بصلاتها منفردة وإلا فمن يصلي وراء إمام لا يقال له أطل
قيامك ، ثم أمرت بعد بالصلاة في الجماعة ف قيل لها ﴿ وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ ،
وقصد هنا معلم آخر من معالم الصلاة لثلا يتكرر لفظ ، ولم يرد بالآية السجود
والركوع الذي هو منتظم في ركعة واحدة » .^(٢) وذكر الزمخشري توجيهاً آخر في
تأخير الركوع عن السجود فقال : « ويحتمل أن يكون في زمانها من كان يقوم

(١) نظم الدرر ج ٥ ص ٣٣٥ .

(٢) المحرر الوجيز ج ١ ص ١١٤ ، ١١٥ .

ويسجد في صلاته ولا يركع ، وفيه من يركع فأمرت بأن تركع مع الراكعين ، ولا تكون مع من لا يركع انتهى . فكأنه قيل : لا تقتصري على القيام والسجود بل أضيفي إلى ذلك الركوع . وقيل المراد بـ ﴿ أَقْنَتِي ﴾ أطيعي وبـ ﴿ وَأَسْجُدِي ﴾ صلي ومنه ﴿ وَأَذْبَرَ السُّجُودِ ﴾ (ق: ٤٠) أي الصلوات وبـ ﴿ وَأَرْكَعِي ﴾ اشكري مع الشاكرين ومنه ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ (ص: ٢٤) ويقوي هذا المعنى ويرد على من زعم أنه لم تشرع صلاة إلا والركوع فيها مقدم على السجود ، فإن المشاهد من صلاة اليهود والنصارى خلوها من الركوع ، ويبعد أن يراد بالركوع الانحناء الذي يتوصل منه إلى السجود .

وأقول : هناك احتمال آخر في تقديم السجود على الركوع على اعتبار أنه سجود شكر بمناسبة تبشيرها بالاصطفاء وبولادتها كلمة الله وروحه عيسى ابن مريم ، وهذا السجود مشروع في شريعتنا ، قال سيد سابق : « ذهب جمهور العلماء إلى استحباب سجدة الشكر لمن تجددت له نعمة تسره ، أو صرفت عنه نقمة ، فعن أبي بكرة أن النبي ﷺ كان إذا أتاه أمر يسره أو بشر به خر ساجداً شكراً لله تعالى ، رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي وحسنه وروى البيهقي بإسناد على شرط البخاري أن علياً عليه السلام لما كتب إلى النبي ﷺ بإسلام همدان خر ساجداً ثم رفع رأسه فقال : { السلام على همدان ، السلام على همدان } وروى البخاري أن كعب بن مالك سجد لما جاءته البشرى بتوبة الله عليه » .^(٢)

وقد تقدم الركوع على السجود في مواضع أخر مراعاة للتسلسل الطبيعي من ذلك قوله تعالى في سورة التوبة : ﴿التَّائِبُونَ الْعَبْدُونَ الْحَمِيدُونَ﴾

السَّاجِدُونَ الرَّكَعُونَ السَّاجِدُونَ ﴿ (التوبة: ١١٢)، ففي هذه الآية قدم الراكعون على الساجدين ، ومنه قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الحج: ٧٧) ، حيث تقدم الركوع على السجود .

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يَبْشِرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ (آل عمران: ٤٥) .

قال السمين الحلبي : نقلاً عن ابن الأنباري : « وإنما قدم - بدئ بلقبه - لأن المسيح أشهر من عيسى لأنه قل أن يقع على سُمَى يشبه به ، وعيسى قد يقع على عدد كثير فقدمه لشهرته ، ألا ترى أن ألقاب الخلفاء أشهر من أسمائهم ، فهذا يدل على أن المسيح عند ابن الأنباري لقب لا اسم » .^(١)

أقول : وما ذكره ابن الأنباري هو ما رجحه القرطبي قال : « والمسيح لقب لعيسى ومعناه الصديق ، قاله إبراهيم النخعي » .^(٢)

وأقول : إن المسيح هنا صفة مدح وثناء على المسيح سواء في طيب جسده إذا قلنا بأن المسيح الممسوح من كل عيب ، أو ذكر معجزته لأنه كان يمسح على المرضى وأصحاب البلاء فيشفون بإذن الله ، أو صفة فعل لأنه كان يمسح الأرض يأكل من الشجر وبقل الأرض وينام حيثما ستره الليل ، ولذلك قدم ذكر صفة الجمال الدالة على عظيم قدره قبل ذكر الاسم الدال على ذاته وخلقه ، وهذا لا يناقض القول السابق بالتقديم للشهرة والذیوع ، فلا تعارض بينهما .

﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ (آل عمران: ٤٩) لما كانت الآيات الإلهية إنما هي من أجل أن يؤمن البشر فإن المسيح - عليه السلام - لكامل شفقته وعظيم رحمته بقومه رجاء أن يؤمنوا برسالته بدأ يذكر لهم الأعجب فالأعجب مبتدئاً بأعظم المعجزات

(١) الدر المصون ج ٢ ص ٩٥ .

(٢) القرطبي ج ٤ ص ٥٧ .

الداعيات إلى الإيمان به وتصديقه وعدم تكذيبه ، فالتقديم هنا من باب الترقى الذي يبدأ فيه بذكر الأعلى ثم الأدنى طمعاً في إيمانهم عند مشاهدة أول الآيات ولهذا بدأ بأعظمها .

قال أبو حيان : « بدأ بالخلق لأنه أعظم في الإعجاز وثنى بإبراء الأكمه والأبرص ، وأتى ثالثاً بإحياء الموتى وهو خارق شاركة فيه غيره بإذن الله تعالى » .^(١)
﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ ﴾ (آل عمران: ٥١) .

وفي سورة الزخرف في هذه القصة ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ ﴾ (الزخرف: ٦٤) بتقديم الضمير ﴿ هُوَ ﴾ وتقديم الضمير مفيد للاختصاص بأنه ليس له رب إلا الله فإذا قلنا مثلاً : {أحمد مسافر} فيحتمل أن هناك مسافر آخر فيحتمل أن يكون التقدير وعمر مسافر ، أما إذا قلنا : {أحمد هو المسافر} فقد خصصناه بالسفر وحده ، ونظير ذلك هذه الآية التي معنا ، حيث أفاد تقديم الضمير الحصر والاختصاص بين المبتدأ والخبر ، فكلاهما مخصص بالآخر ويأتي هنا السؤال فلماذا لم تخصص آية آل عمران أيضاً بتقديم الضمير {هو} ؟

أقول : لأنه قد سبق الآية عشر آيات تتحدث عن قضية التوحيد وأن الله عز وجل رب عيسى وخالقه ليس أباه ولا والده . وكذا جاءت الآيات في سورة مريم .
﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ ﴾ حيث سبقها عشرون آية عن قصة خلق المسيح من قوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ ، أما سورة الزخرف فليست كذلك لأنه ابتداء كلام فحسن أن يؤكد بقوله : {هو} المفيد للاختصاص .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقُوبَ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ﴾ (آل عمران: ٥٥) ، في هذه الآية سؤال وهو لماذا تقدم التوفي على الرفع ؟

أقول : هنا عدة إجابات :

الأول : أن يكون المراد بالتوفي النوم كقوله تعالى : ﴿ يَتَوَفَّنَا بِاللَّيْلِ ﴾

(الأنعام: ٦٠)

(١) البحر المحيط ج ١ ص ٤٨٩ .

الثاني : أن التاء زائدة في متوفيك أي موفيك عمالك ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَمُوفُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴾ (هود: ١٠٩) .

الثالث : أن المقصود بالتوفي هو الإمامة العادية كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ (الزمر: ٤٢) ، وأما الرفع فهو رفع الروح والمكانة ومنه قوله تعالى : ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (المجادلة: ١١) .

كما قال تعالى في إدريس - عليه السلام - : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (مريم: ٥٧) . وقال في شأن المؤمنين : ﴿ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (القمر: ٥٥) ، ويكون المعنى إني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان عال رفيع . ولست مع أي من هذه الأقوال ، بل ما أراه هو أن الآية جاءت على أسلوب التقديم والتأخير والواو لا توجب الرتبة والمعنى {إني رافعك إلي ومطهرك من الدين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء} وهذا هو الظاهر أنه - عليه السلام - رفع من غير نوم ولا موت حيث رفع حياً بجسمه وروحه وسينزل في آخر الزمان ليكون دليلاً على قرب القيامة كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ الْلِّسَانَةَ ﴾ (الزخرف: ٦١) ، وكما قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ١٥٩) ، ومثل هذا التقديم والتأخير قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ (طه: ١٢٩) ، وهذا الذي ذكرته هو ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة ، ففي صحيح مسلم قال رسول الله : {والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً...} ^(١) وعلى هذا الرأي أكثر العلماء . وقد ذكر صاحب التفسير المنير حديثاً لو صح لكان الفاصل في المسألة والقاطع في الجواب والرافع للخلاف قال : والصحيح لدى المحققين من العلماء أن الله رفع عيسى - عليه السلام - إلى السماء من غير وفاة ولا نوم وسينزل في آخر الزمان ، هذا ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وهو قول النبي ﷺ إن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة . ^(٢)

(١) صحيح مسلم باب نزول عيسى - عليه السلام - ١٥٥ .

(٢) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ج ٣ ص ٢٤١ - ٢٤٣ .

وعن ترتيب هذه الآية قال العلامة الشعراوي : « إن الواو لا تقتضي ترتيب الأحداث ، فعلى فرض أنك أخذت {متوفيك} أي {ميتك} فمن الذي قال إن {الواو} تقتضي الترتيب في الحدث ؟ بمعنى أن الحق يتوفى عيسى ثم يرفعه فإذا قال قائل ولماذا جاءت {متوفيك} أولاً ؟ نرد على ذلك : لأن البعض قد يظن أن الرفع تبرئة من الموت ولكن عيسى سيموت قطعاً فالموت ضربة لازب ومسألة يمر بها كل البشر »^(١)

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ (آل عمران: ٥٦، ٥٧)

بدأ أولاً بقسم الكفار لأن ما قبله من ذكر حكمه تعالى بينهم هو على سبيل التهديد والوعيد للكفار والإخبار بجزائهم ، فناسبت البداية بهم ، ولأنهم أقرب في الذكر بقوله : ﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ويكون الكلام مع اليهود الذين كفروا بعيسى وراموا قتله ، ثم أتى ثانياً بذكر المؤمنين .

قال السمين الحلبي : « وفي ترتيب هذه الأخبار الأربعة - أعني متوفيك ورافعك ومطهرك وجاعل - هذا الترتيب معنى حسن جداً ، وذلك أنه تعالى بشره أولاً بأنه متوفيه ومتولي أمره فليس للكفار المتوعدين له بالقتل عليه سلطان ولا سبيل ، ثم بشره ثانياً بأنه رافعه إليه أي : سمائه محل أنبيائه وملائكته ومحل عبادته ليسكن فيها ويعبد ربه مع عابديه ، ثم ثالثاً بتطهيره من أوضار الكفرة وأذاهم وما رموه به ، ثم رابعاً برفعة تابعيه على من خالفهم ليم بذلك سروره ، ويكمل فرحه ، وقدم البشارة بما يتعلق بنفسه على البشارة بما يتعلق بغيره ، لأن الإنسان بنفسه أهم وبشأنها أعنى ، ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ {ابدا بنفسك ثم بمن تعول} »^(٢)

﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ٦٢) ، بدأت قصة المسيح - عليه السلام - بالحق في بداية

(١) الشعراوي ج ١ ص ١٥٠٥ .

(٢) الدر المصون ج ٢ ص ١١٦ ، ١١٧ .

السورة في قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ (آل عمران: ٣) ، وختمت قصة المسيح - عليه السلام - بالحق أيضاً ، وهذا للتأكيد ودفع اللبس مع ما توحى من اطمئنان النفس بعدم الالتفات للمخالف ، وقريباً من ذلك المعنى إثبات التوحيد والتأكيد عليه في هذه السورة ، حيث بدأت بقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ (آل عمران: ٢) وختمت القصة بالتأكيد على قضية التوحيد ونفي الشريك في الآية التالية ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران: ٦٢)

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ٦٨) يرى البعض أن في الآية تقديم بسبق الزمان والإيجاد حيث تقدم قوله : ﴿ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ على قوله : ﴿ وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾ وأقول : إن التقديم في هذه الآية ليس راجعاً إلى سبق الوجود أو التقدم بالزمن ، وإن الآية ليس فيها تقديم ولا تأخير على هذا النحو ، بل ذكر النبي ﷺ للتخصيص بالذكر لعلو الرتبة والتبني بالفضل كقوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٩٨) ، فقد ذكر الملائكة على سبيل العموم ، ثم ذكر جبريل وميكال بعد ذلك مع أنهم من الملائكة لفضلهما وشرفهما على سائر الملائكة ، فالنبي خص بالذكر لأنه أفضل الأتباع وهذا نظير قولنا في الصلاة على النبي : { اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم } والسؤال المطروح هو إذا كان النبي ﷺ أفضل من إبراهيم ﷺ فكيف طلب له من الصلاة مثل ما لإبراهيم مع أن المشبه به أصله أن يكون فوق المشبه ؟ والجواب أن النبي من آل إبراهيم بل هو أفضل آل إبراهيم فيكون قولنا كما صليت على آل إبراهيم متناولاً الصلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم ويتناول إبراهيم نفسه كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٣٣) فإبراهيم وعمران دخلا في آل إبراهيم وآل عمران كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَيْنَاهُمْ نَسْرًا ﴾ (القمر: ٣٤) فإن لوطاً داخل في آل لوط كما في قوله

تعالى : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ (النقرة: ٤٩) وفوله تعالى : ﴿أَدْخَلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر: ٤٦) فإن فرعون داخل في آل فرعون ، وكذلك لما جاء أبوأوفى إلى النبي ﷺ دعا النبي له قائلاً : {اللهم صل على آل أبي أوفى} .
﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ٧٥) تقدم المسند إليه ﴿هُمْ﴾ على الجملة الفعلية ﴿يَعْلَمُونَ﴾ للتوكيد فهم يعلمون أنهم يكذبون وأنهم ينكرون الكذب ومعلوم أن الإنكار يقتضي توكيد الحكم ، ولهذا أضمر الضمير ثم فسر .

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ﴾ (آل عمران: ٧٥) قال صاحب التحرير : «وقد ذكر الله هنا أن في أهل الكتاب فريقين : فريقاً يؤدي الأمانة تعففاً عن الخيانة وفريقاً لا يؤدي الأمانة متعللين لإباحة الخيانة في دينهم ... والمقصود من الآية ذم الفريق الثاني إذ كان من دينهم في زعمهم إباحة الخون قال تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ﴾ ولذلك طول الكلام فيه .

وإنما قدم عليه قوله : ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ﴾ إنصافاً لحق هذا الفريق لأن الإنصاف مما اشتهر به الإسلام ... وتقديم المسند في قوله ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ في الموضوعين للتعجيب من مضمون صلة المسند إليهما : ففي الأول للتعجيب من قوة الأمانة ، مع إمكان الخيانة ووجود العذر له في عادة أهل دينه ، وفي الثاني للتعجيب من أن يكون الخون خلقاً لمتبع كتاب من كتب الله ثم يزيد التعجيب عند قوله : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ فيكسب المسند إليهما زيادة عجب حال ... وقدم المجرور على متعلقه في قوله : ﴿عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ للاهتمام بمعنى المجرور ، ففي تقديمه معنى الإلحاح ، أي إذا لم يكن قيامك عليه لا يرجع لك أمانتك»^(١).

أقول : هذه الآية فيها إشارات لطيفة لمعان شريفة ، توجه أصحاب النصح في نصحتهم وأهل الدعوة في دعوتهم وأهل الحكم والقضاء الذين يستشارون عند

(١) التحرير ج ٣ ص ٢٨٥-٢٨٧.

النوازل والمعضلات ، بأن يبدأ الواحد من هؤلاء بذكر ما عند المحكوم عليه أو المنصوح أو من يدعى لترك قبيح أو يؤمر بفعل صحيح أو ما كان فيه نوع من إظهار العيب والتجريح أن يبدأ الإنسان بذكر صفات الصحة والكمال قبل ذكر صفات المرض والاعتلال ، فهو أخرى لأن يقبل منه ويسمع لقوله ويستجاب لحكمه لا سيما وقد قدم ما يدل على الإنصاف وعدم الجور عند الخلاف ، ولهذا بدأ الله تعالى في هذه الآية بذكر صفات الأمينين أولاً ليكون أخرى بقبول الحكم على غير الأمينين ، ومن هذا القبيل ما ذكره الله تعالى في سورة يوسف عندما بدأ الشاهد بذكر أسباب براءة امرأة العزيز قبل ذكر أسباب اتهامها فقال : ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۖ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (يوسف ٢٦، ٢٧) ومثاله أيضاً ما جاء في الآية الثامنة والعشرين من سورة غافر على لسان مؤمن آل فرعون حيث ذكر احتمال كذب الرسول وهذا ما يدعيه فرعون وقومه على احتمال صدقه وهو ما يؤمن به سراً وذلك ليكون أقنع في قبول حكمه والأخذ برأيه ، حيث بدأ بما يوافقهم وإن كان غير الحق ليكون أدعى لقبول ما يقوله من الحق ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ۚ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۚ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ (غافر: ٢٨) ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (سبأ: ٢٤) فقدم نفسه عند احتمال وجود الضلال ولم يقدم من يحاوره لأن البداءة بنسبة الضلال إليهم إساءة في الجدل وأبعد عن التقريب في الحوار وكأنه قد أقيم بسببها بين المتحاورين جدال ، ومن ذلك أيضاً البداءة بنسبة الجريمة إلى الداعي أولاً قبل المدعو في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تُنْفَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (سبأ: ٢٥) وهذا كله باب عظيم من آداب الإسلام في الحوار .

وبالنظر في الآيات التالية نجد تقديم قوله تعالى : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ٧٦) على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ

وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ (آل عمران: ٧٧) .
 وذلك أنه لما مضى تقسيمهم إلى أمين وخائن استأنف بشاراة الأول ونذارة الثاني
 على غرار ترتيب ما سبق فبدأ بالأمين قبل الخائن .

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا
 عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران: ٧٩) .

التقديم للترقي فبدأ بالكتاب وهو العلم ثم ترقى إلى التمكين وهو الفصل بين
 الناس ثم ترقى إلى الرتبة العليا وهي النبوة .
 ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ ﴾ (آل عمران: ٨٣) .

قال أبو حيان : « وتقدمت الهمزة اعتناءً بالاستفهام والتقدير فأغبر وجوز هذا
 الوجه الزمخشري وهو قول جميع النحاة قبله... وانتصب غير على أنه مفعول
 يبتغون وقدم على فعله لأنه أهم من حيث إن الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه
 إلى المعبود بالباطل قاله الزمخشري » .^(١)

يقول الزمخشري : « وقدم المفعول الذي هو { غير دين الله } على فعله لأنه أهم
 من حيث الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل » .^(٢)

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
 وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ
 أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٨٤) .

تقدم الجار والمجرور في قوله : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ليعلم أن هذا الإذعان
 والإيمان والاستسلام لا غرض فيه إلا وجه الله دون شىء آخر من طلب المال
 والجاه .

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ
 عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٩٧) .

قدم الضمير المجرور في ﴿ إِلَيْهِ ﴾ على قوله : ﴿ سَبِيلًا ﴾ للاهتمام بشأنه .

(١) التحرير ج ١ ص ٥٣٨ .

(٢) الكشف ج ١ ص ٣٧٢ .

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ
إِيمَانِكُمْ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٦، ١٠٧) قال صاحب التحرير : «وقد
عند وصف اليوم ذكر البياض ، الذي هو شعار أهل النعيم ، تشریفاً لذلك اليوم بأنه
يوم ظهور رحمة الله ونعمته ، ولأن رحمة الله سبقت غضبه ، ولأن في ذكر سمة
أهل النعيم ، عقب وعيد غيرهم بالعذاب ، حسرة عليهم إذ يعلم السامع أن لهم
عذاباً عظيماً في يوم فيه نعيم عظيم ، ثم قدم في التفصيل ذكر سمة أهل العذاب
تعجيلاً بمساءلتهم» .^(١)

قال البيضاوي : «وكان حق التقديم أن يقدم ذكرهم - يقصد بيض الوجوه - لكن
قصد أن يكون مطلع الكلام وقطعه حلية للمؤمنين وثوابهم» .^(٢)

وعن سر التقديم والتأخير يقول صاحب المنار : «ومن مباحث اللفظ والنظم في
الآيات أنه جعل النشر في آية ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ إلخ على غير ترتيب اللف إذ
ذكر في اللف الابيضاض قبل الاسوداد وذكر في النشر حكم من اسودت وجوههم
قبل حكم من ابيضت وجوههم ، وليس اللف الذي يسمونه المرتب أبلغ مما
يسمونه المشوش وإنما يختلف ذلك باختلاف الكلام فلا يرجح أحدهما على
الآخر إلا بمرجح ، وقد قيل إن نكتة الترجيح هنا جعل مطلع الكلام ومقطعه في
بيان حال المؤمنين جزائهم فوافق ذلك استحسان البلغاء جعلهما مما يسر ويشرح
الصدر ، وقيل إن نكتة ذلك بيان أن المقصود من الخلق الرحمة دون العذاب ،
ولذلك بدأ بذكر أهل الرحمة وختم بذكر جزائهم وأدمج ذكر الآخرين في الأثناء ،
والقول الأول ترجيح بحسب اللفظ ، والثاني ترجيح بحسب المعنى» .^(٣)

أقول : وقد يكون تقديم حال أصحاب الوجوه السوداء عند الجزاء لأن المقام
مقام تحذير عن التشبه بحالهم فناسب البداء بهم تخويفاً وترهيباً من التشبه بهم
حتى لا يصار إلى مثل مآلهم ، كما أن فيه ختم الكلام بحسن حال المؤمنين كما
بدئ بهم .

(١) التحرير ج ٤ ص ٤٥ .

(٢) البيضاوي ج ٢ ص ٧٧ .

(٣) المنار ج ٤ ص ٥٦ ، ٥٧ .

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران: ١١٠) قال الرازي: «لم قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر مع أن الإيمان بالله لا بد أن يكون مقدماً على كل الطاعات؟ والجواب أن الإيمان بالله أمر مشترك فيه بين جميع الأمم المحقة، ثم إنه تعالى فضل هذه الأمة على سائر الأمم المحقة فيمتنع أن يكون المؤثر في حصول هذه الخيرية هو الإيمان الذي هو القدر المشترك بين الكل، بل المؤثر في حصول هذه الزيادة هو كون هذه الأمة أقوى حالاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما الإيمان بالله فهو شرط لتأثير هذا المؤثر في هذا الحكم لأنه ما لم يوجد الإيمان لم يصر شيء من الطاعات مؤثراً في صفة الخيرية، فثبت أن الموجب لهذه الخيرية هو كونهم أمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، وأما إيمانهم فذاك شرط التأثير: والمؤثر أُلصق بالآثر من شرط التأثير فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ذكر الإيمان»^(١).

وقد نقل صاحب المنار عن الشيخ محمد عبده قوله: «أما تقديم ذكر الأمر والنهي على الإيمان فالحكمة فيه أن هذه الصفة [الأمر والنهي] محمودة في عرف جميع الناس مؤمنهم وكافرهم يعترفون لصاحبها بالفضل، ولما كان الكلام في خيرية هذه الأمة على جميع الأمم مؤمنهم وكافرهم قدم الوصف المتفق على حسنه عند المؤمنين والكافرين»^(٢).

وهناك حكمة أخرى وهي أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سياق الإيمان وحفاظه [كما تقدم بيانه] فكان تقديمه في الذكر موافقاً للمعهود عند الناس في جعل سياق كل شيء مقدماً عليه. انتهى كلام الإمام. قال صاحب المنار: أقول: كل ذلك حسن والمتبادر عندي أن تقديم الأمر والنهي للتعريض بأهل الكتاب الذين كانوا يدعون الإيمان ولا يقدرّون على ادعاء القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنهم كانوا في مجموعهم لا يتناهون عن منكر فعلوه وادعاء ما تكذبه

(١) مفاتيح الغيب ج ٨ ص ١٩٧.

(٢) المنار ج ٤ ص ٦٣، ٦٤.

المشاهدة يفضح صاحبه ، فقدم ذكر الأمر والنهي لأنهم لا مجال لهم في دعوى مشاركة المؤمنين فيه وآخر ذكر الإيمان الذي يدعونه ليرتب عليه بيان أنه إيمان غير صحيح لأنه لم يأت بثمر الإيمان الصحيح ولذلك قال : ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ (آل عمران: ١١٠) .

قال صاحب الغرائب : « وإنما قدم الأمر بالمعروف على الإيمان بالله في الذكر مع أن الإيمان مقدم على كل الطاعات ، لأن الآية سيقّت لبيان فضل الأمر بالمعروف وتأكد القيام به ولهذا كرر بعد قوله :

﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ ﴾ (آل عمران: ١٠٤) فكانت العناية به أشد فكان تقديمه أهم^(١) .

قال الألوسي : « وإنما آخر الإيمان عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تقدمه عليهما وجوداً ورتبة كما هو الظاهر لأن الإيمان مشترك بين جميع الأمم دون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهما أظهر في الدلالة على الخيرية ، ويجوز أن يقال قدمهما عليه للاهتمام وكون سوق الكلام لأجلهما ، وأما ما ذكره فكالتميم ويجوز أيضاً أن يكون ذلك للتنبيه على أن جدوى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين أظهر مما اشتمل عليه الإيمان بالله تعالى لأنه من وظيفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - ولو قيل قدما - وآخر للاهتمام وليرتبط بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ (آل عمران: ١١٠)^(٢) وهذا الذي ذكره الألوسي ما يسمى بالمناسبة بين الآيات أي لمناسبة الآية لما بعدها .

﴿ لَنْ يَضُرُّوَكُمْ إِلَّا أَذًى ﴾ وَإِنْ يُقَتِّلُوكُمْ يُولُوكُمْ الْأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾ (آل عمران: ١١١) التقديم هنا للترقي في الوعد ، مما هو أدنى إلى ما هو أعلى ، لأنهم وعدوا ألا يضرّوهم إلا أذى ثم وعدوا بتولية عدوهم الأدبار عند المقابلة ثم ترقى الوعد إلى ما هو أتم في النجاح من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقاً ويزيد هذا الترقى دخول {ثم} دون الواو فإنها تستعار هنا للتراخي في الرتبة دون الوجود .

(١) غرائب القرآن و رغائب الفرقان ج ٣ ص ٢٥٣ .

(٢) روح المعاني ج ١ ص ١١٠ .

﴿ وَلَئِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١١٧) ﴿ أَنْفُسُهُمْ ﴾ مفعول مقدم ، قدم للاختصاص أي : لم يقع وبال ظلمهم إلا بأنفسهم خاصة لا يتخطاهم إلى غيرهم أقول وكذلك لأجل رعاية الفاصلة .

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (آل عمران: ١٢٢).

قدم لفظ الجلالة للاختصاص أي عليه لا على غيره يكون التوكل .
﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (آل عمران: ١٢٥) قال صاحب التحرير : «موقع قوله : ﴿ وَيَأْتُوكُم ﴾ موقع وعد ، فهو في المعنى معطوف على ﴿ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ ﴾ وكان حقه أن يرد بعده ، ولكنه قدم على المعطوف عليه ، تعجيلاً للطمأنينة إلى نفوس المؤمنين ، فيكون تقديمه من تقديم المعطوف على المعطوف عليه»^(١).

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۖ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (آل عمران: ١٢٦) .

وقال في سورة الأنفال : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۖ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (آل عمران: ١٢٦) هنا أسئلة يمكن أن تطرح فيقال : ما في الآية الأولى مما يوجب أن يأتي فيها بقوله ﴿ لَكُمْ ﴾ وليس في الآية الثانية ، وما بال قوله : ﴿ بِهِ ﴾ قد أخرج في الآية الأولى عن قوله : ﴿ قُلُوبُكُمْ ﴾ ، وقدم في الآية الأخرى عليه ؟ والجواب أن يقال : أما قوله : لكم في هذه الآية وحذفه من الثانية مع العلم بأن الله تعالى جعل إخباره بإنزال الملائكة إن نصرهم بشارة لهم ، وإن ﴿ لَكُمْ ﴾ مضمرة في سورة الأنفال كما هي مظهرة في هذه السورة ، فلأن الأولى جاءت على الأصل والثانية قد تقدمتها لكم فأغنت عن إعادتها بلفظها ومعناها ، وهي في قوله : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبُّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴾ (الأنفال: ٩) .

فلما قال استجاب لكم علم أنه جعل بشرى لهم فأغنت لكم الأولى بلفظها ومعناها على الثانية ، وفي الآية الأولى لم يتقدم ما يقوم هذا المقام فأتى بقوله لكم

على الأصل . وأما تأخيره بعد قوله : ﴿ قُلُوبُكُمْ ﴾ فلأنه لما أخر الجار والمجرور في الكلام الأول وهو قوله : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ ﴾ وعطف الكلام الثاني عليه وقد وقع فيه جار ومجرور وجب تأخيرها في اختيار الكلام ليكون الثاني كالأول في تقديم ما الكلام أحوج إليه وتأخير ما قد يستغني عنه ، وأما تقديم ﴿ بِهِ ﴾ في الآية الثانية فلأن الأصل في كل خبر يصدر بفعل أن يكون الفاعل بعده ثم المفعول ثم الجار والمجرور ، وقد يقدم المفعول على الفاعل إذا كان اللبس واقعاً فيه وأريد إزالته عنه كما تقول ضرب عمرأ زيد لا محمداً لأن المخاطب عنده أن المضروب محمد ولا خلاف بين المتخاطبين في أن الضارب زيد ، فهو يبدأ بما هو أهم وعنايته ببيانه أتم ، وكذلك الجار والمجرور بمنزلة المفعول به في التقديم والتأخير وشبههما .

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾ (١) لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿ (آل عمران: ١٢٧، ١٢٨) قال صاحب التحرير والتنوير : « فإن قلت : هلا جمع العقوبات متوالية : فقال ليقطع طرفاً من الذين كفروا ، أو يكبتهم فينقلبوا خائبين ، أو يتوب عليهم ، أو يعذبهم ، قلت : روعي قضاء حق جمع النظير أولاً ، وجمع الضدين ثانياً ، بجمع القطع والكبت ، ثم جمع التوبة والعذاب ، على نحو ما أجاب به أبو الطيب عن نقد من نقد قوله في سيف الدولة :

وقفت وما في الموت شكاً لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمرُّ بك الأبطالُ كلِّمى حزينَةً ووجهك وضاحٌ وثغرك باسم^(١)

إذ قدم من صفتيه تشبيهه بكونه في جفن الردى لمناسبة الموت ، وأخر الحال وهي ووجهك وضاح لمضادة قوله كلِّمى حزينَةً ، في قصة مذكورة في كتب الأدب .^(٢)

(١) العرف الطيب شرح ديوان أبي الطيب ج ٢ ص ٢٠٦ .

(٢) التحرير ج ٣ ص ١٣٤ .

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٣) تقدمت المغفرة على الجنة لأن التخلية مقدمة على التخلية أو للسببية .

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٤) .

قال صاحب المنار : « وقد بدأ وصف المتقين بالإنفاق لوجهين {أحدهما} مقابلته بالربا الذي نهى عنه في الآية السابقة فإن الربا هو استغلال الغني حاجة المعوز وأكل ماله بلا مقابل والصدقة إعانة له وإطعامه ما لا يستحقه فهي ضد الربا . ولم يرد في القرآن ذكر الربا إلا وقبح ومدحت معه الزكاة والصدقة كما قال في سورة الروم ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْغِفُونَ ﴾ (الروم: ٣٩) (ثانيهما) : أن الإنفاق في السراء والضراء أدل على التقوى وأشق على النفوس وأنفع للبشر من سائر الصفات والأعمال .^(١)

وأقول : ولأن الإنفاق صفة عطاء وإيصال خير عام ، أما الكظم والعفو فهو صفة منع أذى خاص فقدم النفع العام على منع الأذى الخاص ، وقد جاءت الآية في صفات هؤلاء المتقين على أسلوب الترقى الإيماني من الأدنى إلى الأعلى حتى نصل إلى أعلى مراتب الإيمان وهي مرتبة المحسنين المذكورة في الآية والتي جاءت في حديث جبريل المشهور ، فالكظم هو حبس الانفعال وعدم إخراجهِ لحيز التطبيق الانفعالي ، بينما العفو هو إخراجهِ ولكن من القلب ومن التطبيق أيضاً كأن الأمر لم يحدث ، بينما العفو هو أن يتجاوز الإنسان الكظم والعفو بأن يحسن إلى المسيء إليه .

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجِيئَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٣٥)

(١) المنار ج ٤ ص ١٣٢، ١٣٣ .

بدأ بالفاحشة وهي إن كان المقصود بها كبائر الذنوب ، فمن باب البدء بما هو أرجى في المغفرة وأدعى للرجوع والتوبة فالذي يغفر الكبائر لاشك يغفر الصغائر ، وإذا كان المقصود بالفاحشة هنا هي الزنى ، فلأنه أعظم ذنباً وأقبح أثراً لما فيه من تعدٍ على حق الغير من تلويت عرض امرأة وتدنيس شرف أهلها وإلحاق المعرة بهم وإدخال عليهم من ليس منهم إن كانت محصناً وأخذه الإرث بلا حق والاطلاع على العورات ، إلى غير ذلك من المفاسد ولهذا بدئ به أولاً لبيان عظيم رحمة الله وعدم اليأس من التوبة ثم ذكر ظلم النفس بعد ذلك لأنه أخف .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴾ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾

(آل عمران: ١٤٦، ١٤٧)

تقدم ذكر المحاسن الفعلية على المحاسن القولية للاهتمام بها وأنها كانت سبباً لأن يطمعوا بمحاسنهم القولية في طلب مغفرة الذنوب وتثبيت الأقدام والنصر ، وقد تقدم الدعاء بالاستغفار على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة وخضوع وأقرب إلى الاستجابة .

قال صاحب الغرائب : « قال المحققون : إنما قدموا الاستغفار لعلمهم بأنه تعالى ضمن نصر المؤمنين ، فإذا لم يحصل النصر وظهرت أمارات استيلاء الأعداء دل ذلك على صدور ذنب وتقصير من المؤمنين ، فيلزم تقديم التوبة والاستغفار على طلب النصر ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة أقرب إلى الاستجابة »^(١)

أقول : وقد جاء الأسلوب في هذه الآية على سبيل الترقي في الطلب ، حيث طلبوا مغفرة الصغائر . ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ ثم ارتقوا في الطلب طمعاً لمغفرة الكبائر ﴿ وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴾ فلما طمعوا في مغفرة السيئات وإقالة العثرات ارتقوا في استئزال النصر والرحمات ﴿ وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ .

(١) غرائب القرآن و رغائب الفرقان ج ٣ ص ٢٧٤ .

وتقدم في هذه الآية خبر كان على اسمها في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ﴾ لأنه خبر عن مبتدأ محصور ، لأن المقصود حصر أقوالهم حينئذ في مقالة ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ فالقصر حقيقي لأنه قصر لقولهم الصادر منهم ، حين حصول ما أصابهم في سبيل الله فذلك القيد ملاحظ من المقام ، نظير القصر في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ (النور: ٥١) .

قال العلامة الشعراوي عن سر الترتيب في الكلمات الثلاث ضعفوا - وهنوا - استكانوا - « هذه جاءت في موقعها الصحيح لأن الوهن بداية الضعف والوهن محله القلب وهو ينضج على الجوارح ضعفاً و﴿ أَسْتَكَانُوا ﴾ ماذا تعني ؟ إنها من {سكن} والسكون تقابله الحركة والحرب تحتاج إلى حركة والذي يأتي إلى الحرب يحتاج إلى كر وفر ، أما الذي لا يتحرك فهذا معناه أنه ليس لديه قدرة على أن يتحرك»^(١).

﴿ فَفَاتَنَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾
(آل عمران: ١٤٨)

تقدم ثواب الدنيا على الآخرة وإن كان ثوابها أشرف وذلك لسبقه في الوجود وهو النصر الذي وعد الله به عباده المؤمنين .

﴿ يَتَأَيَّمُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّئُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (آل عمران: ١٥٦) .

تقدم الموت على القتل عكس الآية التالية والتقديم هنا لمناسبة الترتيب في الآية لأن ﴿ إِذَا ضَرَبُوا ﴾ يقابله ﴿ مَاتُوا ﴾ و ﴿ أَوْ كَانُوا غُزًى ﴾ يقابله ﴿ وَمَا قُتِلُوا ﴾ .

السبب الثاني : هو بيان فساد عقائد المنافقين وعدم إيمانهم بوجود الآجال المضروبة والأعمار المحدودة فبدأ بما هو أبعد سبباً عن الموت وهو السفر ثم الأقرب سبباً لبيان شكهم في القضاء والقدر ، سواء في المواطن التي لا يغلب عليها

(١) الشعراوي ج ٣ ص ١٨٠٧ .

الهلاك ﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أو التي يغلب عليها الهلاك ﴿ أَوْ كَانُوا غُرًى ﴾ ويدل على ذلك ذيل الآية ﴿ وَاللَّهُ نَحِيءٌ وَنُصِيءٌ ﴾ .

﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (آل عمران: ١٥٧)، قدم القتل على الموت لأنه أكثر ثواباً وأعظم عند الله تعالى ، فترتب المغفرة والرحمة عليه أقوى وعكس في قوله سبحانه : ﴿ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تَحْشُرُونَ ﴾ (آل عمران: ١٥٨) لأن الموت أكثر من القتل وهما مستويان في الحشر . وليس كما ذهب صاحب المنار أن تقديم القتل لكثرة وقوعه ولهذا قدم على الموت .^(١)

قال الثعالبي : « وترتب الموت قبل القتل في قوله تعالى : ﴿ مَا تَوْأَمَا قُتِلُوا ﴾ (آل عمران ١٥٦) مراعاة لترتيب الضرب في الأرض والغزو - يقصد هنا أن النشر جاء على ترتيب اللف في الآية ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرًى لَوْ كَانُوا عِبَدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ - وقدم القتل هنا - في قوله : ﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (آل عمران: ١٥٧) - لأنه الأشرف الأهم ، ثم قدم الموت في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ ﴾ (آل عمران: ١٥٨) لأنها آية وعظ بالآخرة والحشر ، وآية ترهيد في الدنيا والحياة ، وفي الآية تحقير لأمر الدنيا وحض على طلب الشهادة ، والمعنى إذا كان الحشر لا بد منه في كلا الأمرين فالمضي إليه في حال شهادة أولى^(٢) .

قال صاحب التحرير والتنوير : « وقدم القتل في الأولى والموت في الثانية اعتباراً بما يظن أنه أبعد عن الحكم فإن كون القتل في سبيل الله سبباً للمغفرة أمر قريب ، ولكون الموت في غير السبيل مثل ذلك أمر خفي مستبعد ، وكذلك تقديم الموت في الثانية لأن القتل في سبيل الله قد يظن أنه بعيد عن أن يعقبه الحشر ، مع ما فيه من التفنن ، ومن رد العجز على الصدر وجعل القتل مبدأ الكلام وعوده^(٣) .

(١) المنار ج ٤ ص ١٩٧ .

(٢) الجواهر الحسان ج ١ ص ٣٠٧ .

(٣) التحرير ج ٤ ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

أقول : وهناك احتمال آخر ، أن الآية الأولى سقت لبيان فضل الجهاد والقتل في سبيله ، فقدم ما هو الأغلب من حال المجاهدين الذين يفارقون الدنيا وهو القتل ، والثانية سقت لبيان أن حشر الخلائق كلهم إليه بأي وجه يفارقون الدنيا . وفي قوله : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَحْشَرُونَ ﴾ تقديم الجار على المجرور لإفادة الحصر ، وأنهم لا يحشرون إلى غيره وأنه لا حكم لأحد في ذلك اليوم إلا له .

﴿ فِيمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّمْ يَنفِقُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩) تقدم العفو من النبي ﷺ على الاستغفار وكلاهما تقدم على المشاورة ، فالمعنى كالتالي : اعف عنهم فيما يتعلق بحقوقك ، لأنهم تركوه يوم أحد وما كان لهم ليركوه ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه وقد ذكر القرآن فرارهم عنه في قوله : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوِذُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَانِكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٥٣) ، وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٥٥) واستغفر لهم الله فيما يتعلق بحقوقه سبحانه فقدم عفو ﷺ أولاً لأنهم بعفوه عنهم صاروا أهلاً لمغفرة الله ، فسقطت التبعة فيما بينهم وبين النبي ثم بينهم وبين الله تعالى فعندئذ صاروا أهلاً للمشورة فقال : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ .

قال صاحب التحرير والتنوير : « وتقديم الجار والمجرور مفيد للحصر الإضافي أي برحمة من الله لا بغير ذلك من أحوالهم وهذا القصر مفيد التعريض بأن أحوالهم كانت مستوجبة الغلظ عليهم ، ولكن الله ألان خلق رسوله رحمة بهم ، لحكمة يعلمها الله في سياسة هذه الأمة . وزيدت ما بعد باء الجر لتأكيد الجملة بما فيها من القصر ، فتعين بزيادتها كون التقديم للحصر ، لا لمجرد الاهتمام^(١) .
﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (آل عمران: ١٨١) .

بدأ الله تعالى بذكر أفضح جرائمهم وأقبح ذنوبهم وهو اجتراؤهم على الخالق حيث قالوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ ثم أتبعه الاجتراء على أشرف الخلائق فقال : ﴿ وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ ﴾ .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ (آل عمران: ١٩٠، ١٩١)

إذا فسر الذكر هنا بالصلاة فالترتيب هنا يتعلق بحكم فقهي من أحكام الصلاة أي يصلون في حال القيام ، فإن عجزوا ففي حال القعود ، فإن لم يستطع فعلى جنب ، ويؤيد ذلك ما رواه البخاري والترمذي من حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه قال : كانت بي بواسير فسألت النبي ﷺ عن الصلاة فقال : قال له : { صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب } ^(١)

أقول : والآية تشمل أيضاً الذكر باللسان ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الرُّسُلُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا ﴾ (النساء: ١٠٣) وقد سبقت الإشارة في تقدم الليل على النهار في سورة البقرة .

﴿ فَأَلَّذِينَ هَارَجُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقَتْلُوا لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَاَدْخُلْنَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ (آل عمران: ١٩٥) .

تقدم قوله : ﴿ وَقَتَلُوا ﴾ على قوله : ﴿ وَقَتْلُوا ﴾ وهذا التقديم للسببية لأن القتال سبب للقتل .

أقول : ربما أن ذلك التقديم للتفضيل لأن ثواب المقتول في سبيل الله أعظم عند الله من ثواب القاتل وأما علي قراءة حمزة بعكس الترتيب في اللفظ {وقتلوا وقاتلوا} فهنا يكون التقديم زمانياً لأن المسلمين قوتلوا أولاً من الكفار في مكة قبل الهجرة في مرحلة الاستضعاف وقتل بعضهم في التعذيب ، ثم كان القتال من المسلمين في المدينة رداً على قتال الكفار من قبل ومما يؤيد رأينا هذا هو قوله تعالى : ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴾ (الحج: ٣٩)

(١) صحيح البخاري كتاب الجمعة رقم {١٠٥٠} ، سنن الترمذي ، كتاب الصلاة .

سورة النساء

لما جاءت سورة آل عمران داعية إلى التوحيد وأمرة المؤمنين بموالاته بعضهم بعضاً وتذكيرهم بنعمة الله عليهم ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران: ١٠٣) والتذكير بخيرية هذه الأمة ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠) والأمر بالنفقة مما يحب ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢) جاءت سورة النساء لبيان مقاطع الحقوق بين المسلمين وبيان تحريم الاعتداء على أموال الآخرين مبتدئة باليتامى ﴿وَأَتُوا الَّتِي نَمَسَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا تَبْدُلُوا الْخَيْصَ بِالْطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ﴾ (النساء: ٢) ثم الأمر بإعطاء النساء مهرهن وعدم أخذ شيء منه بغير طيب نفس منهن ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ (النساء: ٤) ثم آيات الموارث وإعطاء كل ذي حق حقه والأمر بتنفيذ الوصايا وإرجاع الدين لأصحابه ثم النهي عن الاعتداء على أموال الزوجة ، ثم بعد ذلك تحدثت السورة عن المنافقين فجاء ترتيب السورة على أحسن وجه حيث تحدثت البقرة عن المؤمنين ثم الكفار ثم اليهود وتحدثت آل عمران عن النصارى وتحدثت النساء عن المنافقين فجمعت السور الثلاث كل الطوائف .

﴿مَتْنِي وَتِلْكَ وَرَبِّع﴾ (النساء: ٣) التقدم هنا بالذات ومنه قوله تعالى : ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ (المجادلة: ٧)

قال صاحب الطراز : «وهكذا القول في مراتب الأعداد كلها ، فإن كل واحدة منها سابقة على ما بعدها من المراتب سبقاً ذاتياً» .^(١)

﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ٦) .
تقدم الأمر للأغنياء قبل الفقراء إما أنه يكون للكثرة لأن أكثر من يتكفل الأيتام منهم ، أو لأن ذنب أكل مال اليتيم من قبل الغني أعظم ذنباً من أكله من قبل الفقير .

(١) الطراز ص ٢٣١ .

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ أُولُو الْقَرْبَى وَالْيَتَامَى ر

المفعول به - القسمة على الفاعل - أولو القربى وما عطف ^(النساء: ٨) قدم
المبحوث عنه ومتعلق الحكم بها ، وقدم اليتامى على المساكين ^{تمة هي}
وحاجتهم .

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ
أَثْنَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثُ مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا
الْثُلُثُ شُءٌ مِّمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ
فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ شُءٌ مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ؕ أَبَاؤُكُمْ
وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٥﴾ * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ
لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ
وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ
الْثُمْنُ مِمَّا تَرَكَتُمُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ
كَتَلَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ
مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍ وَصِيَّةٌ
مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ (النساء: ١١، ١٢) .

قال الفخر الرازي : « المسألة الثانية : روي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال :
إنكم لتقرؤون الوصية قبل الدين ، وإن الرسول ﷺ قضى بالدين قبل الوصية .
واعلم أن مراده ﷺ التقديم في الذكر واللفظ ، وليس مراده أن الآية تقتضي تقديم
الوصية على الدين في الحكم لأن كلمة أو لا تفيد الترتيب البتة .

واعلم أن الحكمة في تقديم الوصية على الدين في اللفظ من وجهين :
الأول : أن الوصية مال يؤخذ بغير عوض فكان إخراجها شاقاً على الورثة ،
فكان أداؤها مظنة التفريط بخلاف الدين ، فإن نفوس الورثة مطمئنة إلى أدائه ،
فلهذا السبب قدم الله ذكر الوصية على ذكر الدين في اللفظ بعثاً على أدائها وترغيباً
في إخراجها .^(١)

(١) مفاتيح الغيب ج ٩ ص ٢٢٤ .

من عن التقديم والتأخير في هذه الآيات يقول : « ثم اعلم أن
وللآل - أقسام الورثة في هذه الآيات على أحسن الترتيبات ، وذلك أن
الله - إما أن يتصل بالميت بنفسه من غير واسطة أو يتصل به بواسطة فإن اتصل
بغير واسطة فسبب الاتصال إما أن يكون النسب أو الزوجية ، فحصل هنا ثلاثة
أقسام أشرفها وأعلاها : الاتصال الحاصل ابتداءً من جهة النسب ، وذلك هو قرابة
الولادة ويدخل فيها الأولاد والوالدان ، وثانيها : الاتصال الحاصل ابتداءً من جهة
الزوجية وهذا القسم متأخر في الشرف عن القسم الأول لأن الأول ذاتي والثاني
عرضي ، والثاني أشرف من العرضي ، وثالثها : الاتصال الحاصل بواسطة الغير
وهو المسمى بالكلالة ، وهذا القسم متأخر عن القسمين الأولين لوجوه : أحدها :
أن الأولاد والوالدين والأزواج والزوجات لا يعرض لهم السقوط بالكلية ، وأما
الكلالة فقد يعرض لها السقوط بالكلية ، وثانيها : أن القسمين الأولين ينتسب كل
واحد منهما إلى الميت بغير واسطة ، والثابت ابتداءً أشرف من الثابت بواسطة ،
وثالثها : أن مخالطة الإنسان بالوالدين والأولاد والأزواج والزوجات أكثر وأتم من
مخالطته بالكلالة وكثرة المخالطة مظنة الألفة والشفقة وذلك يوجب شدة الاهتمام
بأحوالهم ، فلهذه الأسباب وأشباهها أخر الله سبحانه ذكر ميراث الكلالة عن ذكر
القسمين الأولين فما أحسن هذا الترتيب » .^(١)

قال القرطبي : « إن قيل ما الحكمة في تقديم ذكر الوصية على ذكر الدين ،
والدين مقدم عليها بإجماع ، وقد روى الترمذي عن الحارث عن علي رضي الله عنه أن
النبي ﷺ قضى بالدين قبل الوصية وأنتم تقرأون الوصية قبل الدين قال : والعمل
على هذا عند عامة أهل العلم أنه يبدأ بالدين قبل الوصية ، وروى الدارقطني من
حديث عاصم بن ضمرة عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله : { الدين قبل الوصية
وليس لوارث وصية } رواه عنهما أبو إسحاق الهمداني .
فالجواب من أوجه خمسة :

• الأول : إنما قصد تقديم هذين الفصلين على الميراث ولم يقصد ترتيبهما
في أنفسهما ، فلذلك تقدمت الوصية في اللفظ .

(١) روح المعاني ج ٣ ص ٢٣٣ .

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةُ أُولُوا الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ ﴾

المفعول به - القسمة على الفاعل - أولو القربى وما عطف ^(النساء: ٨) قدم
المبحوث عنه ومتعلق الحكم بها ، وقدم اليتامى على المساكين لقسمة هي
وحاجتهم .

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كُر مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنْ نِسَاءً فَوْقَ
أُنثَيَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا
الْسُدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبُوَاهُ فَلِلْأُمِّهِ الثُّلُثُ
فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ءَابَاؤُكُمْ
وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ۝ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ
لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَنَّ بِهَا أَوْ دَيْنٍ
وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ
الْثُمْنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورِثُ
كَأَنَّهُ أَوْ أَمْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ
مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْر مُضَارٍّ وَصِيَّةُ
مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝ (النساء: ١١، ١٢) .

قال الفخر الرازي : « المسألة الثانية : روي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال :
إنكم لتقرؤون الوصية قبل الدين ، وإن الرسول ﷺ قضى بالدين قبل الوصية .
واعلم أن مراده ﷺ التقديم في الذكر واللفظ ، وليس مراده أن الآية تقتضي تقديم
الوصية على الدين في الحكم لأن كلمة أو لا تفيد الترتيب البتة .

واعلم أن الحكمة في تقديم الوصية على الدين في اللفظ من وجهين :
الأول : أن الوصية مال يؤخذ بغير عوض فكان إخراجها شاقاً على الورثة ،
فكان أدائها مظنة التفريط بخلاف الدين ، فإن نفوس الورثة مطمئنة إلى أدائه ،
فلهذا السبب قدم الله ذكر الوصية على ذكر الدين في اللفظ بعثاً على أدائها وترغيباً
في إخراجها» .^(١)

(١) مفاتيح الغيب ج ٩ ص ٢٢٤ .

من عن التقديم والتأخير في هذه الآيات يقول : « ثم اعلم أن
وللأثر - أقسام الورثة في هذه الآيات على أحسن الترتيبات ، وذلك أن
الله ، إما أن يتصل بالميت بنفسه من غير واسطة أو يتصل به بواسطة فإن اتصل
بغير واسطة فسبب الاتصال إما أن يكون النسب أو الزوجية ، فحصل هنا ثلاثة
أقسام أشرفها وأعلاها : الاتصال الحاصل ابتداءً من جهة النسب ، وذلك هو قرابة
الولادة ويدخل فيها الأولاد والوالدان ، وثانيها : الاتصال الحاصل ابتداءً من جهة
الزوجية وهذا القسم متأخر في الشرف عن القسم الأول لأن الأول ذاتي والثاني
عرضي ، والثاني أشرف من العرضي ، وثالثها : الاتصال الحاصل بواسطة الغير
وهو المسمى بالكلالة ، وهذا القسم متأخر عن القسمين الأولين لوجوه : أحدها :
أن الأولاد والوالدين والأزواج والزوجات لا يعرض لهم السقوط بالكلية ، وأما
الكلالة فقد يعرض لها السقوط بالكلية ، وثانيها : أن القسمين الأولين ينتسب كل
واحد منهما إلى الميت بغير واسطة ، والثابت ابتداءً أشرف من الثابت بواسطة ،
وثالثها : أن مخالطة الإنسان بالوالدين والأولاد والأزواج والزوجات أكثر وأتم من
مخالطته بالكلالة وكثرة المخالطة مظنة الألفة والشفقة وذلك يوجب شدة الاهتمام
بأحوالهم ، فلهذه الأسباب وأشباهاها أخر الله سبحانه ذكر ميراث الكلالة عن ذكر
القسمين الأولين فما أحسن هذا الترتيب .^(١)

قال القرطبي : « إن قيل ما الحكمة في تقديم ذكر الوصية على ذكر الدين ،
والدين مقدم عليها بإجماع ، وقد روى الترمذي عن الحارث عن علي عليه السلام أن
النبي ﷺ قضى بالدين قبل الوصية وأنتم تقرأون الوصية قبل الدين قال : والعمل
على هذا عند عامة أهل العلم أنه يبدأ بالدين قبل الوصية ، وروى الدارقطني من
حديث عاصم بن ضمرة عن علي عليه السلام قال : قال رسول الله : { الدين قبل الوصية
وليس لوارث وصية } رواه عنهما أبو إسحاق الهمداني .
فالجواب من أوجه خمسة :

• الأول : إنما قصد تقديم هذين الفصلين على الميراث ولم يقصد ترتيبهما
في أنفسهما ، فلذلك تقدمت الوصية في اللفظ .

(١) روح المعاني ج ٣ ص ٢٣٣ .

وقد نقل القاسمي عن الحافظ ابن كثير إجماع أهل العلم من السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية^(١)

وقد ذهب جماهير المفسرين والفقهاء وعلماء القرآن إلى أن الذكر أفضل من الأنثى لأن التقديم للترتيب ويستدلون أيضاً بقوله تعالى :

﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيٍّ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ﴾ (النساء: ٣٣) .

في الآية تقديم وتأخير والتقدير ولكل شيء مما ترك الوالدان والأقربون جعلنا موالي أي : ورثة ، وفائدة التقديم الاهتمام ببيان أحكام الموارث وأن إعطاءهم إنما هو بشرع الله الذي يجب أن يتبع فلا يتهاون فيه .

أقول : ما ذكره العلماء من أن تقديم الذكر على الأنثى في هذه الآية لأن الذكر أفضل غير مُسلم له على علته ، فهو تفضيل غير مطلق بل مقيد وأنا أنقل أولاً ما ذكره صاحب المنار نقلاً عن الشيخ محمد عبده في قوله تعالى : ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ قال الأستاذ الإمام : « جملة مفسرة لا محل لها من إعراب واختير لها هذا التعبير للإشعار بإبطال ما كانت عليه الجاهلية من منع توريث النساء كما تقدم ، فكانه جعل إرث الأنثى مقررأً معروفاً وأخبر أن للذكر مثله مرتين أو جعله هو الأصل في التشريع وجعل إرث الذكر محمولاً عليه ، يعرف بالإضافة إليه ، ولولا ذلك لقال للأنثيين مثل حظ الذكر ، وإذا لا يفيد هذا المعنى ولا يلتئم السياق بعده كما ترى ، أقول : - والكلام لصاحب المنار - ويؤيد هذا ما تلاه في بقية الفرائض في الآيتين من تقديم بيان ما للإناث بالمنطوق الصريح مطلقاً ، أو مع مقابلته بما للذكور كما ترى في فرائض الوالدين والأخوات والأخوة^(٢) .
بعض أحكام الميراث من خلال الأمثلة التالية :

١- إذا ترك الميت أولاداً وأباً وأماً ورث كل من أبويه سدس التركة دون تفريق بين ذكورة الأب وأنوثة الأم ودون وجود أي سلطان للدستور الوهمي المطلق :
﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ وذلك عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَلَا بَوَيْهَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ﴾ .

(١) القاسمي ج ٣ ص ٤١ .

(٢) المنار ج ٤ ص ٤٠٦ .

٢- إذا ترك الميت أخاً لأمه وأختاً لأمه ، ولم يكن ثمة من يحجبهما من الميراث ، فإن كلاً من الأخ والأخت يرث السدس ، دون أي فرق بين الذكر والأنثى ودون نظر إلى ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ وذلك عملاً بقوله تعالى : ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ﴾ .

٣- إذا ترك الميت عدداً من الإخوة للأُم ، اثنين فصاعداً ، وعدداً من الأخوات للأُم ، اثنتين فصاعداً ، فإن الإخوة يرثون الثلث مشاركة ، والأخوات أيضاً يرثن الثلث مشاركة ، دون تفريق بين الإناث والذكور ، ودون نظر إلى ما يظن بعضهم أنه دستور وقانون مطلق ، وهو ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ وذلك بموجب قوله عز وجل : ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرًا مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ﴾ .

٤- إذا تركت المرأة المتوفاة زوجها وابنتها ، فإن ابنتها ترث النصف ويرث والدها الذي هو زوج المتوفاة الربع . أي أن الأنثى هنا ترث ضعف ما يرثه الذكر .

٥- إذا ترك الميت زوجة وابنتين وأخاً له ، فإن الزوجة ترث ثمن المال وترث الابنتان الثلثين ، وما بقي فهو لعمهما ، وهو شقيق الميت وبذلك يرث كل من البنتين أكثر من عمهما .

مما سبق يظهر جلياً أن الذكورة والأنوثة لا مدخل لهما ، من حيث ذاتهما ، في تفاوت الأنصبة ، ولو كان الأمر كذلك لاطرد الحكم ، ولكان نصيب كل ذكر من الوارثين ضعف نصيب كل أنثى من الوارثات .

فالحكم يدور حول محور آخر ، وهو مدى حاجة الوارث ، ونوع العلاقة السارية بينه وبين مورثه .

وأرى أن سر التقديم في هذه الآية يرجع إلى ما قاله : صاحب التحرير والتوير عن قوله تعالى : ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ جعل حظ الأنثيين هو المقدار الذي يقدر به حظ الذكر ، ولم يكن قد تقدم تعيين حظ للأنثيين حتى يقدر به ، فعلم أن المراد تضعيف حظ الذكر من الأولاد على حظ الأنثى منهم ، وقد كان هذا المراد صالحاً لأن يؤدي بنحو : للأنثى نصف حظ ذكر أو للأنثيين مثل حظ ذكر ، إذ ليس المقصود إلا بيان المضاعفة . ولكن قد أوتر هذا التعبير لنكت لطيفة وهي الإيماء إلى أن حظ الأنثى صار في اعتبار الشرع أهم من حظ الذكر ، إذ

كانت مهزومة الجانب عند أهل الجاهلية فصار الإسلام ينادي بحظها في أول ما يقرع الأسماع قد علم أن قسمة المال تكون باعتبار عدد البنين والبنات»^(١) أما الاستدلال بأية القوامة فمن خير من تكلم فيها فيما قرأت الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي قال : « فالقوامة على الأسرة في نظام الإسلام وشرعه ، قوامة رعاية وإدارة ، وليست قوامة هيمنة وتسلط . . ثم هي ليست عنواناً على أفضلية ذاتية عند الله عز وجل ، يتميز بها الأمير أو المدير ، وإنما ينبغي أن تكون عنواناً على كفاءة يتمتع بها القائم بأعباء هذه المسؤولية .

ثانياً : لك أن تقول : فإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا جعل الشارع القوامة ، أي إدارة شئون الأسرة سلفاً بيد الرجال ، وهلا ترك الأمر إلى أعضاء الأسرة يتخيرون لهذه المهمة من يشاءون ؟ . . ثم لماذا برر هذا الاختيار بقوله : ﴿ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ وهو يكاد يكون نصاً على أفضلية الرجال على النساء من حيث الذات ، بقطع النظر عن العوارض ؟

والجواب : أن فهم الأفضلية الذاتية للرجال على النساء ، مما يتناقض بشكل حاد مع صريح كتاب الله تعالى في نصوص كثيرة منه فالله عز وجل يقرر ويؤكد أن النساء والرجال متساوون في ميزان القرب من الله ، وإنما يتفاوت بين ذلك في درجاتهم في ذلك تفاوت أعمالهم الصالحة التي يقومون بها ابتغاء مرضاة الله عز وجل .

فهو عز وجل يقول : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ ﴾ (آل عمران: ١٩٥) . ويقول أيضاً : ﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٧) أقول : وفي آية الميراث تقدم الإيضاء بالأولاد لضعفهم إذ كانوا صغاراً ، ولما كان الوالد أقرب الناس إلى الولد وأحقهم بصلته وأشدهم اتصالاً به أتبعه حكمه فقال ﴿ وَلَا بَوَيْهٖ ﴾ . ويقول عز وجل : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِّنَ الصَّالِحَاتِ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَّمُونَ فِيهَا شَيْئًا ﴾ (النساء: ١٢٤)، ويقول في تفصيل

(١) التحرير ج ٤ ص ٢٥٧ .

وبيان لا يقبل الريب : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَالْقَنَاطِيْنَ وَالْقَنَاطَتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ
وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّالِحِينَ وَالصَّالِحَاتِ وَالْحَفَظِينَ
فُرُوجَهُمْ وَالْحَفَظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً
وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٣٥) فقد أسقط قرار الله عز وجل فوارق الذكورة والأنوثة
واختلاف الأقوام والقبائل وتمايز ما بين الشعوب المتنوعة ، عن الاعتبار في ميزان
القرب إلى الله أو البعد عنه ، بعبارة محددة حاسمة ، بعد أن أثبت هذه الحقيقة
ذاتها بأساليب متنوعة شتى في الآيات السابقة .

مع الأشياء التي دون الإنسان ، والمرأة تعاملها الأساسي هو مع الإنسان ، وحين ننظر إلى طفولات الحيوانات نجد لها كلها قليلة ، وأطول طفولة هي الإنسان . . . الطفولة هذه هي ميدان عمل المرأة ، وما دامت الطفولة زادت فهي تزيد بقدر المهمة .

والحيوانات الأخرى مهمتها دون مهمة الإنسان ، وطفولة الإنسان تتناسب مع مهمته ، لأن همته عالية ، فهو أرفع الأجناس على الأرض ليستطيع أن يمد بكل المبادئ ، والقيم والأشياء التي تعينه على هذه المهمة ^(١) .

قال صاحب المنار في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ ﴾ (آل عمران: ١٩٥) ، وذكر أن الذكر والأنثى متساويان عند الله تعالى في الجزاء متى تساويا في العمل حتى لا يفتر الرجل بقوته ورياسته على المرأة فيظن أنه أقرب إلى الله منها ولا تسيء المرأة الظن بنفسها فتتوهم أن جعل الرجل رئيساً عليها يقتضي أن يكون أرفع منزلة عند الله منها ، وقد بين تعالى هذه المساواة بقوله : ﴿ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ فالرجل مولود من المرأة والمرأة مولودة من الرجل فلا فرق بينهما في البشرية ولا تفاضل بينهما إلا بالأعمال ، أي وما تترتب عليه الأعمال ويترتب عليها هو من العلوم والأخلاق أقول : - الكلام لصاحب المنار - وفيه وجه آخر ، وهو أن كلا منهما صنو وزوج وشقيق للآخر ، وفي معنى ذلك حديث {النساء شقائق الرجال} قالوا : أي مثلهم في الطباع والأخلاق كأنهن مشتقات منهم ، أو لأنهن معهم من أصل واحد ، ووجه ثالث أنه بمعنى حديث {سلمان منا} وحديث {ليس منا من دعا إلى عصبية} فمعنى {منا} على طريقتنا وما نحن عليه لا فرق بيننا وبينه ، وهذه الآية ترفع قدر النساء المسلمات في أنفسهن عند الرجال المسلمين . ^(٢)

وأقول لمن يقول بتفضيل الرجل على المرأة : ما قولكم في حديث النبي ﷺ الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة ؓ أن رجلاً سأل

(١) مكانة المرأة في الإسلام ، ص ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) المنار ج ٤ ص ٣٠٧ .

النبي ﷺ {من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أمك قال : ثم من ؟ قال : أبوك} ^(١)

وما قولهم في قياس الفقهاء أمر الممات على أمر الحياة في مسألة إيصال الخير للوالدين كالحج عنهما حيث يقولون يبدأ بالأب قبل الأب مستدلين بالحديث السابق ؟

وقد تقدم ذكر الإناث على الذكور في قوله تعالى : ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذَّكَورَ﴾ (الشورى: ٤٩) ولا يسلم لقول الزركشي في هذه الآية : بأنها لجبرهن ، إذ هن موضع الانكسار ، ولهذا جبر الذكر بالتعريف بالإشارة إلى ما فاتهم من فضيلة التقديم . وأي انكسار هذا الذي يعنيه ؟

وأقول : التقديم هنا قد يكون لكثرة الإناث عن الذكور ، إما بالولادة ، وإما لأن الموت أسبق وأكثر في الرجال من الإناث ، وقد يستدل لذلك بحديث النبي ﷺ عن أنس بن مالك ؓ قال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدثكم به أحد بعدي سمعته منه {إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويفشو الزنى ويشرب الخمر ويذهب الرجال ويبقى النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيم واحد} ^(٢)

وقريباً مما ذكرته قول العلامة الشعراوي : في قوله تعالى : ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء: ١) واكتفى بأن يقول {نساء} ولم يقل كثيرات لماذا؟ لأن المفروض في كل ذكورة أن تكون أقل في العدد من الأنوثة ، وأنت إذا نظرت مثلاً في حقل فيه نخل ، تجد كم ذكراً وكم أنثى ؟ ستجد ذكراً أو اثنين .

إذن القلة في الذكورة مقصودة ، لأن الذكر مخصب ويستطيع الذكر أن يخصب آلافاً فإذا قال الله : ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا﴾ فالذكورة هي العنصر الذي يفترض أن يكون أقل كثيراً ، فماذا عن العنصر الثاني وهو الأنوثة ؟ لا بد أن يكون أكثر. ^(٣)

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب رقم {٥٥١٤} صحيح مسلم كتاب البر والصلة رقم {٤٦٢١}.

(٢) سنن ابن ماجه ، باب الفتن حديث رقم ٤٠٤٥.

(٣) الشعراوي ج ٤ ص ١٩٨٩ ميلادية.

وأما قوله : ويحتمل أن تقديم الإنث لأن المقصود بيان أن الخلق كله بمشيئة الله تعالى لا على وفق أغراض العباد .

فأقول : هذا مما يستوي فيه التقديم والتأخير فليس لتقديمهم ميزة على هذا الاحتمال إذ يؤدي قوله : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ (الشورى: ٤٩) نفس المعنى .

وهناك احتمال آخر : أن الآية تخاطب هؤلاء الذين يكرهون البنات من الجاهليين الذين قال الله فيهم : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٠١ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَبِعَهُ ١٠٢ تُؤْمِسُكُمُ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ أَمْرٌ يُدْسُهُ فِي الْتَرَابِ ١٠٣ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ١٠٤ ﴾ (النحل: ٥٨، ٥٩) قال القاسمي : « وحكي أن عمرو بن العاص دخل على معاوية وعنده ابنته فقال : من هذه يا معاوية ؟ فقال : هذه تفاحة القلب وريحانة العين وشمامة الأنف فقال أمطها عنك ، قال : ولم ؟ قال : لأنهن يلدن الأعداء ويؤثرن الشحناء ويثرن البغضاء ، قال : لا تقل ذلك يا عمرو فوالله ما مرض المرضى ولا ندب الموتى ولا أعان على الزمان ولا أذهب جيش الأحزان مثلهن وإنك لو اجد خالاً قد نفعه بنو أخته وأباً قد رفعه نسل بنيه فقال : يا معاوية دخلت عليك وما على الأرض شيء أبغض إلي منهن وإني لأخرج من عندك وما عليها شيء أحب إلي منهن .

وفي رقعة للمصاحب بالتهنئة بالبنت : أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء وأم الأبناء وجالبة الأنهار والأولاد الأطهار والمبشرة بإخوة يتناسقون ونجباء يتلاحقون .

فلو كان النساء كمن ولدن لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيت لاسم الشمس عيباً وما التذكير فخرٌ للهلال

والله تعالى يعرفك البركة في مطلعها والسعادة بموقعها فادّرع اغتباطاً واستأنف نشاطاً ، فالدنيا مؤنثة والرجال يخمونها والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية وفيها كثرَت الذرية ، والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب وحيلت بالنجم الثاقب ، والنفس مؤنثة وهي قوام الأبدان وملاك الحيوان ، والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ولا عرف الأنام ، والجنة مؤنثة وبها وعد المتقون وفيها يتنعم المرسلون فهنيئاً لك هنيئاً بما أوتيت وأوزعك الله شكر ما أعطيت .

ونسخت رقة لأبي الفرج البيهقي : اتصل خبر المولودة المسعودة كرم الله عرقها وأنبثها نباتاً حسناً وما كان منك عند تغير الخبر وإنكارك ما اختاره الله لك في سابق القدر ، وقد علمت أنهن أقرب من القلوب ، وأن الله بدأ بهن في الترتيب فقال عز من قائل : ﴿ يَبِّ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتَأَى وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الْذُّكُورَ ﴾ وما سماه الله تعالى هبة فهو بالشكر أولى وبحسن التقبل أحرى فهناك الله بورود الكريمة عليك وثمرتها إعداد النسل الطيب لديك ^(١) .

﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبنَاتُ الْأَخِ وَبنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ (النساء: ٢٢-٢٤) التقديم والتأخير في هذه الآية جاء مرتباً على الأعظم حرمة من الرجل فبدأ بالأقرب فالأقرب .

قال البقاعي : « ولما ابتدأ بتعظيم الآباء واحترامهم في أن ينكح الأبناء أزواجهم على العموم ثنى بخصوص الأم بقوله : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ . . . ولما انقضى أمر النسب وهو سبعة أصناف أتبعه أمر السبب وهو ثمانية : أوله أزواج الآباء ، أفردتها وقدمها تعظيماً لحرمتها لما كانوا استهانوا من ذلك ، وآخره المحصنات ، وبدأ من هذا القسم بالأم من الرضاع ، كما بدأ بالنسب من الأم فقال : ﴿ وَأُمَّهَاتُكُمْ أَلَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ ﴾ تنزيلاً له منزلة النسب ، ولذلك سماها أمأ ولما انقضى ما هو كلحمة النسب أتبعه أمر ما بالمصاهرة فقال ﴿ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ ﴾ أي دخلتم بهن أو لا لما في ذلك من إفساد ذات البين غالباً ، ﴿ وَزَنَائِبُكُمْ ﴾ وذكر سبب الحرمة فقال : ﴿ أَلَّتِي فِي حُجُورِكُمْ ﴾ . . . ولما أشعر هذا القيد بحل بنت من عقد عليها

(١) القاسمي ج ٩ ص ٤١٩ ، والبيتان المذكوران للمتبني ، الجزء الثاني ص ٢٤ .

ولم يدخل بها أفصح به تنبيهاً على عظيم حرمة الإرضاع فقال : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ﴾ أي الأمهات ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي في نكاحهن ، ولما افتتح المحرمات على التأييد بزوجة الأب ختمها بزوجة الولد فقال : ﴿ وَحَلِيلُ آبَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾ أي وإن سفلوا . . ولما انقضى التحريم المؤبد أتبعه المؤقت فقال { وإن } أي وحرم عليكم أن ﴿ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ ﴾ ^(١) .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ (النساء: ٢٩)

تقدم النهي عن أكل الأموال على النهي عن قتل النفس ، مع أن الثاني أخطر ، إما لأن مناسبة ما قبله أفضت إلى النهي ، حيث الأمر بإتيان النساء مهورهن أحراراً كانوا أو إماء ، فاستحق التقديم لذلك ، وإما لأن المخاطبين كانوا قريبي عهد بالجاهلية ، وكان أكل الأموال أسهل عليهم ، وهم أشد استخفافاً به منهم بقتل الأنفس ، حيث كان يقع في مواقع الضعف حيث لا يدفع صاحبه عن نفسه كاليتم والمرأة والزوجة فأكل أموال هؤلاء في مأمن من التبعات بخلاف قتل النفس فإن تبعاته لا يسلم منها أحد ، وإن بلغ في الشجاعة والعزة في قومه كل مبلغ ، وكذلك أتبعه النهي عن قتل النفس من باب تقديم السبب على الفعل ، لأن أكل المال بالباطل سبب في إثارة النفس والحمية دفاعاً عن المال مما يؤدي للقتال .

﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَ مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِمُ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾ (النساء: ٣٢) تأخرت هذه الآية عن النهي عن أكل أموال الناس بالباطل مع أنها أسبق منها وجوداً فإن تمني مال الغير هو الدافع لأكل أموال الناس بالباطل ، وبدأ هنا بالنهي عن الفعل مع كونه متأخراً وجوداً لكونه أخطر وأقبح جرماً .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾ (النساء: ٤٣) .

(١) نظم الدرر ص ٢٢٣ .

قال الزمخشري : « فإن قلت : كيف نظم في سلك واحد بين المرضى والمسافرين والمحدثين والمجنبيين ، والمرض والسفر سببان من أسباب الرخصة والحدث سبب لوجوب الوضوء والجنابة سبب لوجوب الغسل ؟ قلت : أراد سبحانه أن يرخص للذين وجب عليهم التطهر وهم عادمون الماء في التيمم بالتراب فخص أول من بينهم مرضاهم وسفرهم لأنهم المتقدمون في بيان استحقاق الرخصة لهم بكثرة المرض والسفر وغلبتهما على سائر الأسباب الموجبة للرخصة ثم عم كل من وجب عليه التطهر وأعوزه الماء لخوف عدو أو سبع أو عدم آلة استقاء أو إرهاق في مكان لا ماء فيه وغير ذلك بما لا يكسر كثرة المرض والسفر » .^(١)

قال العلامة أبو السعود : « لعل تقديم الاستثناء على قوله ﴿ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ﴾ للإيذان من أول الأمر بأن حكم النهي في هذه الصورة ليس على الإطلاق ، كما في صورة السكر ، تشويقاً إلى البيان وروماً لزيادة تقررته في الأذهان » .^(٢)

وأقول : في هذه الآية أيضاً الترتيب بين الوجه واليدين في التيمم ، حيث قدم الوجه على اليدين وهذا ما فعله رسول الله ، ففي حديث عمار رضي الله عنه قال : أجنبتم فلم أصب الماء فتمعكت في الصعيد واصلت فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : { إنا كان يكفيك هكذا } وضرب النبي بكفيه الأرض { وتنفخ فيهما ثم مسح بهما وجهه وكفيه }^(٣)

هذا الترتيب في التيمم نظير الترتيب في آية الوضوء في سورة المائدة وسوف نذكره في موضعه .

﴿ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ (النساء: ٣٦) .

قال صاحب التحرير والتنوير : والخطاب للمؤمنين ، ولذلك قدم الأمر بالعبادة على النهي عن الإشراك ، لأنهم قد تقرر نفي الشرك بينهم وأريد منهم دوام العبادة

(١) الكشف ج ١ ص ٥٥٥

(٢) تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ، ج ١ ص ٥٢٤ .

(٣) فقه السنة ص ٧٩ .

الله ، والاستزادة منها ، ونهوا عن الشرك تحذيراً مما كانوا عليه في الجاهلية . ومجموع الجملتين في قوة صيغة حصر ، إذ مفاده : اعبدوا الله ولا تعبدوا غيره فاشتمل على معنى نفي وإثبات . كأنه قيل : لا تعبدوا إلا الله . والعدول عن طريق القصر في مثل هذا طريقة عربية جاء عليها قول السموأل أو عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي :

تسيل على حد الطُّبَات نفوسنا وليست على غير الطُّبَات تسيلُ

وإنما يصار إليها عندما يكون الغرض الأول هو طرف الإثبات ، ثم يقصد بعد ذلك نفي الحكم عما عدا المثبت له ، لأنه إذا جرى بالقصر ، كان المقصد الأول هو نفي الحكم عما عدا المذكور وذلك غير مقتضى المقام هنا . ولأجل ذلك لما خوطب بنو إسرائيل بنظير هذه الآية خوطبوا بطريقة القصر في قوله ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (البقرة: ٨٣) الآية لأن المقصود الأول إيقاظهم إلى إبطال عبادة غير الله لأنهم قالوا لموسى ﴿ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ (الأعراف: ١٣٨) ولأنهم عبدوا العجل في مدة مناجاة موسى ربه ، فأخذ عليهم الميثاق بالنهي عن عباد غير الله .^(١)

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوَلِّى الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (النساء: ٥٩) يقول الرازي : « اعلم أن هذه الآية آية شريفة مشتملة على أكثر علم أصول الفقه ، وذلك لأن الفقهاء زعموا أن أصول الشريعة أربع : الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وهذه الآية مشتملة على تقرير هذه الأصول الأربعة بهذا الترتيب . أما الكتاب والسنة فقد وقعت الإشارة إليهما بقوله : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ ... اعلم أن قوله : ﴿ فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ يدل عندنا على أن القياس حجة . .

المسألة الخامسة : هذه الآية دالة على أن الكتاب والسنة مقدمان على القياس مطلقاً فلا يجوز ترك العمل بهما بسبب القياس ، ... الثاني : أنه تعالى آخر ذكر القياس عن ذكر الأصول الثلاثة ، وهذا مشعر بأن العمل به مؤخر عن الأصول الثلاثة .

(١) التحرير والتنوير ج ٥ ص ٤٨ .

الثالث : أنه ﷺ اعتبر هذا الترتيب في قصة معاذ حيث أخرج الاجتهاد عن الكتاب ، وعلق جوازه على عدم وجدان الكتاب والسنة بقوله :

{ فإن لم تجد } والحديث الذي ذكره الرازي مختصراً أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن معاذ بن جبل ؓ حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن { بم تحكم؟ } قال بكتاب الله تعالى قال فإن لم تجد؟ قال بسنة رسول الله ﷺ قال فإن لم تجد؟ قال أجتهد رأيي فضرب في صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله ﷺ . (١)

وما ذكره الرازي في هذا الترتيب من حيث الحجية هو رأي العلماء كافة باستثناء النظامية والظاهرية في عدم اعترافهم بحجية القياس .

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء: ٦٩) التقديم في الآية للشرف ، فإن النبي أشرف من الصديق ، والشهيد أعلى درجة من غيره من أهل الصلاح .

﴿ وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ (النساء: ٨٦) هذا من باب تقديم الأفضل على المفضل ، فقد قدم رد التحية بأحسن منها على ردها بمثلها لأن الأول أفضل وأكرم وأولى بأهل الفضل والإحسان والثاني فعل أهل العدل والإنصاف .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهَا إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَّةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ٩٢) قال صاحب الغرائب : « وهاهنا سؤال وهو أنه لم قدم تحرير الرقبة على الدية في الآية الأولى وفي الأخيرة عكس الترتيب ؟ ويمكن أن يقال : الفائدة فيه أن يعلم أنه لا ترتيب بين التحرير والدية ، وأيضاً ليقع الافتتاح والاختتام بحق الله تعالى » (٢)

(١) مفاتيح الغيب ج ١٠ ص ١٤٨-١٥٢ .

(٢) غرائب القرآن ورجائب الفرقان ج ٣ ص ٤٧٤ .

وقال الأستاذ عبد الكريم الخطيب في قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَوْمٍ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ (النساء: ٩٢)
ذلك أن الوفاء بالعهد الذي بين المؤمنين ، ومن عقدوا العهد معهم ، أمر أوجبته
الإسلام على المسلمين ، ولم يحلهم منه لأي سبب حتى ولو كان العهد مع الذين
لم يدخلوا في دين الله ، ولهذا قدم تقديم الدية هنا على تحرير الرقبة ، لأن العهد
في ذمة المسلمين جميعاً لا تبرأ ذمتهم إلا بالوفاء به إن لم يسعه مال القاتل خرج
من بيت مال المسلمين . . أما تحرير الرقبة فهو في ذمة القاتل وحده له فيه فسحة
من الوقت ونظرة إلى ميسرة .^(١)

قال محمد رشيد رضا في قوله : ﴿ فَدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾
وقد قدم هنا ذكر الدية وآخر ذكر الكفارة وعكس في قتل المؤمن ولعل النكتة
في ذلك الإشعار بأن حق الله تعالى في معاملة المؤمنين مقدم على حقوق الناس ،
ولذلك استثنى هنالك في أمر الدية فقال : ﴿ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا ﴾ . . ومن محاسن
نظم الكلام وتأليفه أن يؤخر المعطوف الذي له متعلق على ما ليس له متعلق
وما متعلقاته أكثر على ما متعلقاته أقل وهذه نكتة لفظية لتأخير ذكر الدية في حق
المؤمن إذ تعلق بها الوصف وهو قوله : ﴿ مُسْلَمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِمْ ﴾ والاستثناء وهو
قوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا ﴾^(٢)

﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ
الْحُسْنَ ﴾ (النساء: ٩٥) تقدم المفعول به الأول ﴿ كُلًّا ﴾ لإفادة القصر وتأكيده للوعد.
﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا
يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ (النساء: ٩٨) .

بدأ بذكر الرجال ، وألحق بذكرهم النساء ثم الصبيان ، لبيان أن من الرجال
مستضعفين ، وأن وجود النساء والصبيان في العائلة عذر لوليهم إذا كان لا يجد
حيلة ، أو بيان عظيم عفو الله حيث بدأ بالضعفاء وهم الرجال ثم الأضعف منهم
وهن النساء ثم الأشد ضعفاً وهم الولدان .

(١) التفسير القرآني ج ٥ ص ٨٦٤ .

(٢) المنار ج ٥ ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ .

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (النساء: ١٢٤) قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « وفي تقديم دخولهم الجنة هنا على استيفاء حقهم كاملاً - في هذا تطمين لقلوب المؤمنين وأنهم سيدخلون الجنة على أي حال فضلاً وكرماً من الله عليهم . . أما مناقشتهم الحساب ، فإنه لكي يروا ما عملوا من خير وكيف نماء الله لهم وأجزل لهم الثواب عليه » .^(١)

أقول : ما قاله الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « هو مذهب العلماء » ، وقد بوب الإمام مسلم في صحيحه باباً بعنوان { باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً } ثم ذكر بإسناده عن عثمان قال : قال رسول الله ﷺ : { من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة } قال النووي : « واعلم أن مذهب أهل السنة وما عليه أهل الحق من السلف والخلف ، أن مات موحداً دخل الجنة قطعاً . على كل حال فإن كان سالماً من المعاصي ، كالصغير والمجنون والذي اتصل جنونه بالبلوغ ، والتائب توبة صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصي إذا لم يحدث معصية بعد توبته ، والموفق الذي لم يبتل بمعصية أصلاً فكل هذا الصنف يدخلون الجنة ولا يدخلون النار أصلاً لكنهم يردونها ، على الخلاف المعروف في الورد ، والصحيح أن المراد به المرور على الصراط ، وهو منصوب على ظهر جهنم أعاذنا الله منها ومن سائر المكروه ، وأما من كانت له معصية كبيرة ومن مات من غير توبة فهو في مشيئة الله تعالى فإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة ، أو لا ، وجعله كالقسم الأول وإن شاء عذبه القدر الذي يريده سبحانه وتعالى ، ثم يدخله الجنة ، فلا يخلد في النار أحد مات على التوحيد ولو عمل من المعاصي ، كما أنه لا يدخل الجنة أحد كان على الكفر ولو عمل من أعمال البر ما عمل ، هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق في هذه المسألة .

وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع من يعتد به من الأمة على هذه القاعدة وتواترت بذلك نصوص تحصيل العلم اليقيني » .^(٢)

(١) التفسير القرآني ج ٥ ص ٩١٠ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١ ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴾
 (النساء: ١٢٦) قال صاحب الغرائب : « وإنما قدم القدرة على العلم لأن الفعل بحدوثه يدل على القدرة وبما فيه من الإحكام والإتقان يدل على العلم ، ولا ريب أن الاعتبار الأول مقدم على الثاني » .^(١)

﴿ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُونًا بِأَلْقِسْطٍ شُهِدَ بِهِ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا هَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَرَضُوا وَإِنْ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء: ١٣٥).

وقال في سورة المائدة : ﴿ يَتَّيِبُهَا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا كُفُونًا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهِدَ بِهِ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة: ٨).

هنا سؤال : ما الفائدة في تقديم قوله : ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ على قوله : ﴿ شُهِدَ اللَّهُ ﴾ في الآية الأولى وتأخيرها عنها في الثانية ؟ الجواب أن يقال : إن الآية الأولى في الشهادة أمر عز وجل من عنده شهادة أن يقوم بالحق فيها ويشهد لله على كل من عنده حق لغيره يمنعه إياه حتى يصل إليه ، فقال قوموا بالقسط ، أي بالعدل في حال شهادتكم لله على كل ظالم حتى يؤخذ الحق منه ، فقدم القسط لأنه من تمام ﴿ قَوْمِينَ ﴾ إذ فعله يتعدى إلى مفعوله بالباء . . وأما شهداء فإنها إذا كانت حالاً من الضمير في قوامين فإن حقها أن تجيء بعد تمام قوامين ، وكذلك إذا كانت خبراً ثانياً وإن كانت صفة لقوامين فإن حقها أن تجيء بعده وأما قوله : ﴿ لِلَّهِ ﴾ بعد ﴿ شُهِدَ بِهِ ﴾ فلتعلقه بالشهادة كأنه قال كونوا شهداء لله لا للهوى والميل إلى ذوي القربى ، والدليل على ذلك أنه قال ولو على أنفسكم ، وشهادة الإنسان على نفسه أن يقر بالحق لخصمه ، أي افعلوا ذلك لله وإن كان عليكم أو على الوالدين وذوي القربى منكم .

قال صاحب الغرائب : « وإنما قدم الأمر بالقيام بالقسط على الأمر بالشهادة لله عكس قوله : ﴿ شُهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا ﴾

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج ٣ ص ٥٠٤ .

بِالْقِسْطِ ﴿آل عمران: ١٨﴾ لأن شهادة الله تعالى عبارة عن كونه خالقاً للمخلوقات ، وقيامه بالقسط عبارة عن رعاية قوانين العدل في تلك المخلوقات ، والأول مقدم على الثاني ، وأما في حق العباد فالعدالة مقدمة على الشهادة تقدم الشرط على المشروط .^(١)

أما الرازي فيقول تحت عنوان {المسألة الرابعة} : إنما قدم الأمر بالقيام بالقسط على الأمر بالشهادة لوجوه :

• الأول : إن أكثر الناس عادتهم أنهم يأمرّون غيرهم بالمعروف ، فإذا آل الأمر إلى أنفسهم تركوه حتى إن أقبح القبيح إذا صدر عنهم كان في محلّ المسامحة وأحسن الحسن ، وإذا صدر عن غيرهم كان في محلّ المنازعة فالله سبحانه نبه في هذه الآية على سوء هذه الطريقة ، وذلك أنه سبحانه أمرهم بالقيام بالقسط أولاً ، ثم أمرهم بالشهادة على الغير ثانياً تنبيهاً على أن الطريقة الحسنة أن تكون مضايقة الإنسان مع نفسه فوق مضايقته مع الغير .

• الثاني : إن القيام بالقسط عبارة عن دفع ضرر العقاب عن الغير ، وهو الذي عليه الحق ، ودفع الضرر عن النفس مقدم على دفع الضرر عن الغير .

• الثالث : إن القيام بالقسط فعل ، والشهادة قول ، والفعل أقوى من القول . فإن قيل : إنه تعالى قال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ ، فقدم الشهادة على القيام بالقسط ، وهما قدم القيام بالقسط فما الفرق؟ قلنا : « شهادة الله تعالى عبارة عن كونه تعالى خالقاً للمخلوقات ، وقيامه بالقسط عبارة عن رعاية القوامين بالعدل في تلك المخلوقات ، فيلزم هناك أن تكون الشهادة مقدمة على القيام بالقسط ، أما في حق العباد فالقيام بالقسط عبارة عن كونه مراعيّاً للعدل ومبايناً للجور ، ومعلوم أنه ما لم يكن الإنسان كذلك لم تكن شهادته على الغير مقبولة ، فثبت أن الواجب في قوله : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ ﴾ أن تكون تلك الشهادة مقدمة على القيام بالقسط والواجب هنا أن تكون الشهادة متأخرة عن القيام بالقسط » .^(٢)

(١) غرائب القرآن و رغائب الفرقان ج ٢ ص ٥١٢ .

(٢) مفاتيح الغيب ج ١ ص ٧٤ ، ٧٥ .

أقول : ولما كان أعظم مباني هذه انسورة العدل قدمه فقال : ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ بخلاف ما يأتي في المائدة فإن النظر فيها إلى الوفاء الذي إنما يكون بالنظر إلى الموفى له .

﴿ يَتْلُوهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (النساء: ١٣٦) وفي الآية سؤالات :

{السؤال الأول} لم قدم في مراتب الإيمان ذكر الرسول على ذكر الكتاب ، وفي مراتب الكفر قلب القضية؟

الجواب : لأن في مرتبة النزول من معرفة الخالق إلى الخلق كان الكتاب مقدماً على الرسول وفي مرتبة العروج من الخلق إلى الخالق يكون الرسول مقدماً على الكتاب . ﴿ قُلْ ءَالَّذِينَ كَفَرْنَا حَرَّمَ أَمْ ءَالَّذِينَ كَفَرْنَا أَمْ ءَالَّذِينَ كَفَرْنَا أَمْ ءَالَّذِينَ كَفَرْنَا أَمْ ءَالَّذِينَ كَفَرْنَا ﴾ (الأنعام: ١٤٣) ، هذه الآية جاءت في صورة الإنكار التكذيبي ، وهو إنكار المفعول فالمقصود هنا هو نفي الفعل ، - وهو التحريم لشيء مما ذكر - ولكن لم يقدم الفعل عقب الهمزة بل أخرج الكلام في صورة نفي المفعول دون الفعل ليكون أبلغ في نفي الفعل فإن نفيه حينئذ ، يكون بطريق الكناية واللزوم وذكر الدعوى مع دليلها كأنه قيل : لو كان هناك تحريم لكان متعلقاً بواحد من هذه الأمور ، لكن واحداً منه ليس بمحرم فليس هناك إذن تحريم ، وذلك أنهم كانوا تارة يحرمون ذكور الأنعام ، وتارة إناثها وتارة ما في بطون الإناث ذكوراً كانت أم إناثاً أم مختلفة ، وينسبون ذلك إلى الله فرد الله عليهم إفكهم بإنكار محل التحريم .

﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾

(النساء: ١٤٧)

قال الزمخشري : « لم قدم الشكر على الإيمان ؟

قلت : لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعم العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع فيشكر شكراً مبهماً فإذا انتهى به النظر إلى معرف المنعم آمن به ثم شكر شكراً متقدماً على الإيمان وكأنه أصل التكليف ومداره» .^(١)

(١) مفاتيح الغيب ج ١ ص ٥٦٩ .

أقول : والوقف على مقطع ءامنتم أجمل وأحسن لوجود الغنة في آخر الكلمة عكس كلمة شكرتم فيكون أجمل في الأداء على ءامنتم .

وقد ذكر الألوسي إشارة صوفية حسنة للعارف بالله أبي إسماعيل الأنصاري وهي أن الشكر في الأصل اسم لمعرفة النعمة لأنها السبيل إلى معرفة المنعم ، وله ثلاث درجات ، لأنه إذا نظر إلى النعمة كالرزق والخلق ينبعث منه شوق إلى معرفة المنعم وهذه الحركة تسمى باليقظة ، والشكر القلبي والشكر المبهم لأن منعمه لا يتضح له تعيينه ، وإنما عرف منعماً ما فهو منعم عليه فإذا تيقظ لهذا وفق لنعمة أكبر منها ، وهي المعرفة بأن المنعم عليه هو الصمد الواسع الرحمة الميثب المعاقب فتتحرك جوارحه لتعظيمه ، ويضيف إلى شكر الجنان شكر الأركان ، ثم ينادي على ذلك الجميل باللسان ، ويقول :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

فالمذكور في الآية هو الشكر المبهم وهو مقدم على الإيمان ، وقد يكون في الآية تقديم وتأخير على ما ذكره الإمام الرازي أي آمنتم وشكرتم ضمن أحد الوجوه التي ذكرها في تقديم الشكر على الإيمان ، وقد ذهب إلى ما ذهب إليه الزمخشري في سر تقدم الشكر على الإيمان وأظنه قد نقله عنه ^(١) ، أما البقاعي فيرى أن تقديم الشكر على الإيمان لأنه هو الحامل عليه ولما كان لا يقبل إلا به قال :

﴿وَأَمَّنْتُمْ﴾ أي أنه يرى أن التقديم هنا للسببية ^(٢)

وقال الخازن : « قال أهل المعاني : فيه تقديم وتأخير تقديره إن آمنتم وشكرتم لأن الإيمان مقدم على سائر الطاعات ولأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان ، ولأن الواو لا توجب الترتيب وقيل هو على أصله والمعنى أن العاقل ينظر بعين بصيرته أولاً إلى ما عليه من النعمة العظيمة في إيجاده وخلقه فيشكر على ذلك شكراً عظيماً مبهماً ، ثم إذا تم النظر ثانياً انتهى به النظر إلى معرفة المنعم عليه فأمن

(١) روح المعاني ج ٥ ص ١١٧٥ ، مفاتيح الغيب ج ١١ ص ٩٠ .

(٢) نظم الدرر ج ٢ ص ٢٤١ .

به فشكر شكراً مفصلاً فكان ذلك الشكر المبهم مقدماً على الإيمان فلذلك قدم الشكر على الإيمان في الذكر»^(١).

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: «وفي تقديم الشكر على الإيمان هنا . . . ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ إشعار بأن الإيمان لا يقوم إلا على مشاعر الولاء لله ذلك الولاء الذي يتخلق من النظر في ملكوت السموات والأرض، ومن التدبر في آيات الله الماثلة في كل ذرة من ذرات الوجود. وهنا يجد العبد نفسه وقد صار لساناً شاكراً لله مسبحاً بحمده.

فالشكر هو المدخل الذي يجد فيه الإنسان طريقه إلى الله والتعرف إليه، ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلى الله قائمة أولاً على النظر إلى هذا الوجود وإلى ما فيه من موجودات ينتظمها نظام وتمسك بها قدرة ويدبرها علم ثم نسبة هذا الوجود وما اشتمل عليه إلى الصانع الذي صنعه فأبدع صنعته وأحكم وجوده وبهذا تفتح الطرق إلى الله في خشوع وولاء وفي لهج بالحمد والثناء، ومن هنا قام الشكر مقام الإيمان، واعتبر في ذاته إيماناً كاملاً وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾^(٢).
﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ (النساء: ١٦٠).

تقدم قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾ وقوله: ﴿وَبِصَدِهِمْ﴾ من باب ذكر الأسباب على مسبباتها وليبين أن ما فعله الله بهم إنما هو من جهتهم وبسبب ما ارتكبوه للتأكيد على صفة العدل الإلهية وأنه سبحانه لا يعذب إلا بذنب، وتقديم هنا الظلم على الصد عن سبيل الله مع أن الصد عن سبيل الله أعظم جرماً، من باب تقديم العام على الخاص، إذ إن الظلم يشمل كل المعاصي من أصغرها إلى أكبرها.

﴿لَٰكِنَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يَمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ١٦٢)، تقدم في هذه الآية الإيمان بما أنزل

(١) الخازن ج ٢ ص ١٨٤.

(٢) التفسير القرآني ج ٥ ص ٩٤٦.

إلى النبي ﷺ وما أنزل من قبله على الإيمان بالله واليوم الآخر لأنه المقصود من هذه الآية أولاً ، وهو الإيمان بالأنبياء دون تفريق بينهم ولذا جاءت الآية التالية تؤكد على تلك القضية ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (النساء: ١٦٣)، الأمر الثاني : أن الآية تخاطب اليهود وهم يؤمنون جملة بالله واليوم الآخر .

قال صاحب المنار : « وقد يرد هنا سؤال وهو أن من سنة القرآن أن يذكر الإيمان بالله قبل العمل الصالح سواء ذكر الإيمان ذكراً مطلقاً أو ذكرت أركانه كلها أو بعضها كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ (الكهف: ١٠٧)، ومثلها كثير وكقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: ٦٢)، والجواب أن القاعدة الأساسية في التقديم والتأخير هي أن يقدم الأهم الذي يقتضيه السابق لا الأهم في ذاته ، ولذلك قال تعالى في سياق تخطيطه المفاهيم بدينهم بالأمانى ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (النساء: ١٢٤).

بعدما قال في الآية التي قبلها : ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ ﴾ فالسياق لبيان أن العبرة بالعمل بالدين لا بالانتماء إليه وإلى الرسول الذي جاء به والفخر بذلك ، فقدم ذكر العمل على الإيمان ، والسياق الذي نحن فيه هو بيان أحوال أهل الكتاب في عصر نبينا ﷺ فكان المهم أولاً بيان إيمان خيارهم بما أنزل إليه كإيمانهم بما أنزل إلى أنبيائهم من قبله ثم ختم الكلام ، بوصفهم بأول صفات الكمال ، أي بالإيمان بالله واليوم الآخر^(١)

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ (النساء: ١٧٣).

تقدم هذه الآية الحديث عن المتكبرين على عبادة الله غير الخاضعين له ، فلماذا جاءت الآية التالية مبتدئة بالحديث عن جزاء المؤمنين ولم تبدأ بالحديث عن جزاء المستكبرين ليكون الكلام موصولاً وأشد ترابطاً في ظاهره ؟ عن ذلك السؤال أجاب الشعراوي فقال : « ذلك أن الحق ساعة يتكلم عن جماعة خرجت عن المنهج فهو لا يمنحهم ثواب هؤلاء الذين لم يخرجوا عن المنهج ، فيأتي أولاً بثواب الطائعين ليستشرف إليه الخارجون عن طاعة الله ، ثم يحرمهم من هذا الثواب لتكون حسرة الخارجين عن المنهج أشد » والضحك يظهر حسنه الضد^(١).

وأقول : ويظهر لي أن هناك سرّاً آخر للتقديم ، وهو أن الآية السابقة على هذه الآية إنما كانت تتحدث عن المسيح والملائكة وكونهم ممن لا يستكبر عن عبادة الله فهذا في حقهم محال فكما هو معلوم أن الرسول عن المعصية معصوم ، والملك على الطاعة مفطور ، فلما استبعد منهم ذلك ناسب أن يبدأ بجزائهم ومن على شاكلتهم .

ثم ذكر بعد ذلك أحوال المستكبرين ، كما لا يخفى أن ذكر ثوابهم مقدماً ناسب تقدم ذكرهم في الآية نفسها ، ومن ثم جاء الجزاء على ترتيب الفريقين في الذكر .

(١) الشعراوي ج ٥ ص ٢٨٧٤ .

سورة المائدة

لما دارت سورة النساء حول الحقوق المتعلقة بين البشر بعضهم بعضاً وبين الله عز وجل بما تضمنته من أحكام اليتامى والموارث والزواج والتميم والجهاد وغيرها وكلها موثيق بين الله وبين عباده الذين ءامنوا به جاءت سورة المائدة لبيان الوفاء بهذه الحقوق المتعلقة بين الله وعباده ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ؕ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَةٌ ءَلَا تُعْلَمُ ؕ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ؕ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعْتِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ﴿(المائدة: ٢٤)﴾ ، ولما ذكر في سورة النساء حكاية الشيطان في تضليله نبي ءادم وأمرهم بتغيير أوامر الله ﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيُقَاتِئْكُمْ ءَإِذَا بَرَأْتُمُ الْبِلَادَ الْغَيْرَةَ﴾ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ ﴿(النساء: ١١٩)﴾ ، جاءت سورة المائدة بتفصيل هذا الإجمال ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ تَحِيْرَةٍ وَلَا سَابِيَةٍ وَلَا وَصِيْلَةٍ وَلَا حَامِرٍ﴾ (المائدة: ١٠٣) .

قال تعالى : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ؕ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْمَةٌ ءَلَا تُعْلَمُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ؕ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعْتِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَفِعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا تَجْرِمَنْكُمْ شَتَائِنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمِئَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ ؕ الْيَوْمَ يَيسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ ؕ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا

عَلَّمَكُمْ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٦١﴾ أَلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ۖ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ ۖ وَالْمَخْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمَخْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِيرِينَ ﴿٦٢﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِن كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴿٦٣﴾ (المائدة: ٦١-٦٣).

وللرازي كلام بديع عن ترتيب هذه الآيات السبع قال : « اعلم أنه افتتح السورة بقوله : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ وذلك لأنه حصل بين الرب وبين العبد عهد الربوبية وعهد العبودية فقوله : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ طلب تعالى من عباده أن يفوا بعهد العبودية ، فكأنه قيل : إلها العهد نوعان : عهد الربوبية منك ، وعهد العبودية منا فأنت أولى بأن تقدم الوفاء بعهد الربوبية والإحسان ، فقال تعالى نعم أنا أوفي أولاً بعهد الربوبية والكرم وعلم أن منافع الدنيا محصورة في نوعين : لذات المطعم ولذات المنكح ، فاستقصى سبحانه في بيان ما يحل ويحرم من المطاعم والمناكح ، ولما كانت الحاجة إلى المطعم فوق الحاجة إلى المنكوح ، لا جرم قدم بيان المطعم على المنكوح ، وعند تمام هذا البيان كأنه يقول : قد وفيت بعهد الربوبية فيما يطلب في الدنيا من المنافع واللذات ، فاشتغل أنت في الدنيا بالوفاء بعهد العبودية ولما كانت أعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة ، وكانت الصلاة لا يمكن إقامتها إلا بالطهارة ، لا جرم بدأ تعالى بذكر شرائط الوضوء فقال : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ . (١)

(١) مفاتيح الغيب ج ١١ ص ١٥٣.

وقد جاءت الآية الثانية على طريقة اللف والنشر فجاء البر في مقابلة الإثم والتقوى في مقابلة العدوان ، وقد جاء البر في مقابلة الإثم في حديث النواس ابن سمعان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : { البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس } ^(١).

قال صاحب الغرائب :

السادسة : قال مالك وأبو حنيفة : الترتيب غير مشروط في الوضوء لأن الواو لا تفيد الترتيب ، فلو قلنا بوجوده كان من الزيادة على النص وهو نسخ غير جائز . وقال الشافعي : إنه واجب لأن فاء التعقيب في قوله « فَأَغْسِلُوا » توجب تقديم غسل الوجه ثم سائر الأعضاء على الترتيب . وقال : ﷺ في حديث الصفا { ابدؤوا بما بدأ الله به } وأيضاً الترتيب المعتبر في الحس هو الابتداء من الرأس إلى القدم أو بالعكس ، والترتيب العقلي إفراد العضو المغسول عن الممسوح ، ثم إنه تعالى أدرج الممسوح في المغسول ، فدل هذا على أن الترتيب المذكور في الآية واجب لأن إهمال الترتيب في الكلام مستقبح فوجب تنزيه كلام الله تعالى عنه ... وقد أوجبنا رعاية الترتيب في الصلاة مع أن أركان الصلاة غير مذكورة في القرآن مرتبة ، فرعاية الترتيب في الوضوء مع أن القرآن ناطق به أولى ^(٢).

قال ابن قدامة : « ويأتي بالطهارة عضواً بعد عضو كما أمر الله تعالى : وجملة ذلك أن الترتيب في الوضوء على ما في الآية واجب عند أحمد لم أر عنه فيه اختلاف وهو مذهب الشافعي ، وأبي ثور وأبي عبيد ... ولنا أن في الآية قرينة تدل على أنه أريد بها الترتيب فإنه أدخل ممسوحاً بين مغسولين ، والعرب لا تقطع النظر عن نظيره إلا لفائدة والفائدة هاهنا الترتيب ، فإن قيل فائدته استحباب الترتيب قلنا : الآية ما سيقّت إلا لبيان الواجب ، ولهذا لم يذكر فيها شيئاً من السنن ، ولأنه متى اقتضى اللفظ الترتيب كان مأموراً به ، والأمر يقتضي الوجوب ، ولأن كل من حكى وضوء رسول الله ﷺ حكاه مرتباً وهو مفسر لما في كتاب الله تعالى ، وتوضأ مرتباً وقال :

(١) جامع العلوم والحكم ج ٢ ص ٧١ .

(٢) غرائب القرآن ورجائب الفرقان ج ٣ ص ٥٥٣ ، ٥٥٤ .

{هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به} أي بمثله . (١)

قال الخازن : « وذهب الشافعي ومالك وأحمد إلى وجوب الترتيب في الوضوء ، وهو أن يغسل الأعضاء في الوضوء على الولا ، كما ذكره الله في هذه الآية ، فيغسل أولاً وجهه ثم يده ثم يمسح رأسه ثم يغسل رجليه ، فصار الترتيب فرضاً سادساً ، وذهب أبو حنيفة إلى أن الترتيب في الوضوء غير واجب ، احتج الشافعي على وجوب الترتيب بهذه الآية ، وذلك أن الله تعالى أمر بغسل الوجه ثم اليدين ثم بمسح الرأس ثم بغسل الرجلين فوق أن يقع الفعل مرتباً كما أمر الله تعالى وقوله ﷺ في حجة الوداع {أبدأ بما بدأ الله به} وهذا الحديث وإن ورد في قصة السعي بين الصفا والمروة ، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ولأن أفعال النبي ﷺ في الوضوء ما وردت إلا مرتبة كما ورد في نص الآية ولم ينقل عنه ولا عن غيره من الصحابة أنه توضأ منكساً أو غير مرتب فثبت أن ترتيب أفعال الوضوء ، كما أمر الله تعالى ونص عليه في الآية واجب واحتج أبو حنيفة لمذهبه بهذه الآية ، وأن الواو لا توجب الترتيب ، فإذا قلنا بوجوب الترتيب صار ذلك زيادة على النص وذلك غير جائز وأجيب عنه بأنه لم ينقل عن النبي ﷺ أنه توضأ إلا مرتباً كما ذكر وبيان الكتاب إنما يؤخذ من السنة . (٢)

قال الشيخ سيد سابق: «الفرض السادس - من فرائض الوضوء - الترتيب ، لأن الله تعالى قد ذكر في الآية فرائض الوضوء مرتبة مع فصل الرجلين عن اليدين - وفريضة كل منهما الغسل - بالرأس الذي فريضته المسح ، والعرب لا تقطع النظير عن نظيره إلا لفائدة ، وهي هنا الترتيب ، فالآية ما سبقت إلا لبيان الواجب ولعموم قوله ﷺ في الحديث الصحيح : {أبدءوا بما بدأ الله به} ومضت السنة العملية على هذا الترتيب بين الأركان فلم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه توضأ إلا مرتباً . (٣)

وتقديم الوجه على سائر الأعضاء للشرف ، وهو محل ظهور أثر الإنعام والإكرام والإهانة والإذلال ، وفي سورة آل عمران ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ

(١) المغني ج ١ ص ١١٧ .

(٢) الخازن ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٣) فقه السنة ج ١ ص ٤٤ .

وَجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٧﴾ (آل عمران: ١٠٦، ١٠٧) وفي سورة عبس ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٦٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٦٩﴾ وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ غَافِرَةٌ ﴿٧٠﴾ تَرَهَقَهَا فَتْرَةٌ ﴿٧١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ ﴿٧٢﴾﴾ (عبس: ٣٨-٤٢) وإلى تفضيل الوجه وشرفه على بقية الأعضاء ذهب كل من الزركشي وصاحب الطراز قال: «فإن الوجه أشرف من اليد، والرأس أفضل من الرجل»^(١).

قال صاحب التحرير: «وقوله: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ قرأه نافع، وابن عامر، والكسائي وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، ويعقوب - بالنصب - عطفاً على ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾ وتكون جملة ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ معترضة بين المتعاطفين. وكان فائدة الاعتراض إشارة إلى ترتيب أعضاء الوضوء لأن الأصل في الترتيب الذكري أن يدل على الترتيب الوجودي، فالرجل يجب أن تكون مغسولة»^(٢).

وعن سر الترتيب في آية الوضوء قال الفخر الرازي: «والوجه الثاني: أن نقول وقعت البداية في الذكر بالوجه، فوجب أن تقع البداية به في العمل لقوله: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتُ﴾ ولقوله عليه الصلاة والسلام: {ابدؤوا بما بدأ الله به} وهذا الخبر وإن ورد في قصة الصفا والمروة إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب،... والثالث: أنه تعالى ذكر هذه الأعضاء لا على وفق الترتيب المعتبر في الحس، ولا على وفق الترتيب المعتبر في الشرع، وذلك يدل على أن الترتيب واجب، بيان المقدمة الأولى أن الترتيب المعتبر في الحس أن يبدأ من الرأس نازلاً إلى القدم، أو من القدم صاعداً إلى الرأس والترتيب المذكور في الآية ليس كذلك، وأما الترتيب المعتبر في الشرع فهو أن يجمع بين الأعضاء المغسولة، ويفرد الممسوحة عنها، والآية ليست كذلك، فإنه تعالى أدرج الممسوح في أثناء المغسولات، إذا ثبت هذا فنقول هذا يدل على أن الترتيب واجب، والدليل عليه أن إهمال الترتيب في الكلام مستقبح، فوجب تنزيه كلام الله تعالى عنه»^(٣).

(١) الطراز ص ٢٣٢، البرهان ج ٣ ص ٢٢٣.

(٢) التحرير ج ٦ ص ١٣٠.

(٣) مفاتيح الغيب ج ١١ ص ١٥٧.

قال صاحب المنار : « تلك فرائض الوضوء العملية المنصوصة ، وقد ذكرت مرتبة مع فصل الرجلين عن اليدين وفريضة كل منهما الغسل بالرأس الذي فريضة المسح ، ومضت السنة العملية في هذا الترتيب فدل ذلك على اشتراطه فيها ، وصح حديث {أبدأ — وفي رواية — ابدؤوا بما بدأ الله به} وهو عام وإن كان سببه خاصاً لوروده في السعي بين الصفا والمروة» .^(١)

أقول : لقد أشار صاحب المنار هنا إلى لفظة جميلة بحسن نظره في أسلوب القرآن ، حيث قال : إن البداية بما بدأ الله به في القرآن الكريم عام وإن كان سببه خاصاً .

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۖ اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨).

قال السمين الحلبي : « تقدم نظيرها في النساء إلا أنه هناك قدم لفظة ﴿الْقِسْطُ﴾ وهنا أخرت ، وكأن الغرض في ذلك - والله أعلم - أن آية النساء جىء بها في معرض الإقرار على نفسه والديه وأقاربه فبدئ فيها بالقسط الذي هو العدل من غير محاباة نفس ولا والد ولا قرابة ، والتي هنا جىء بها في معرض ترك العداوة فبدئ فيها بالأمر بالقيام لله ، لأنه أردع للمؤمنين ، ثم ثنى بالشهادة بالعدل ، فجىء في كل معرض بما يناسبه» .^(٢)

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ ۚ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمْوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (المائدة: ١٢).

قال صاحب الغرائب : « وهاهنا أسئلة : لم أخرج الإيمان بالرسول عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مع أن الإيمان مقدم على الأعمال ؟ وأجيب بعد تسليم أن الواو للترتيب بأن اليهود كانوا معترفين بأن النجاة مربوطة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إلا أنهم كانوا مصرين على تكذيب بعض الرسل ، فذكر أنه لا بد بعد الصلاة والزكاة

(١) المنار ج ٦ ص ٢٤٤.

(٢) الدر المصون ج ٢ ص ٤٩٨.

من الإيمان بجميع الرسل وإلا لم تكن لتلك الأعمال أثر . قلت : يحتمل أن يكون التقدير وقد آمنتم أو آخر الإيمان عن العمل تنبيهاً على أن الإيمان إنما يقع معتداً به إذا اقترن به العمل كقوله :

﴿ وَإِنِّي لَعَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (طه: ٨٢) ، وهو من القلب الذي يشجع عليه أمن الإلباس ، أو لعل اليهود كانوا مقصرين في الصلاة والزكاة فكان ذكرهما أهم^(١) .

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَىٰ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٣) .

قال الشعراوي : « وهل { أو } هنا تخيرية أو أن هنا - كما يقال - لف ونشر؟ واللف هو الطي والنشر هو أن تبسط الشيء وتفرقه .

فما اللف والنشر إذن ؟ مثل ذلك ما يقوله الشاعر :

قَلْبِي وَجَفَنِي وَاللِّسَانِ وَخَالَقِي . .

لقد ذكر متعدد ولكن الأحكام غير مذكورة ، هذا هو اللف ، فجمع المبتدئات دون أن يذكر لكل واحد منها خبره ، ثم جاء بالأحكام على وفق المحكوم عليه فأكمل بيت الشعر بقوله :

راضٍ وِبَاكِ شَاكِرٌ وَغَفُورٌ

ولنقرأ البيت كاملاً :

قَلْبِي وَجَفَنِي وَاللِّسَانِ وَخَالَقِي رَاضٍ وَبَاكِ شَاكِرٌ وَغَفُورٌ

والحق يقول :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (القصص: ٧٣) .

فقوله : ﴿ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ راجع إلى الليل وقوله : ﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ راجع إلى النهار ، وهنا جاء باللف ثم جاء بالنشر^(٢) .

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج ٣ ص ٥٦٨ .

(٢) الشعراوي ج ٥ ص ٣٠٩ .

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة: ٣٥).

قال صاحب الغرائب : « اتقوا الله إشارة إلى ترك المنهيات وقوله : ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ عبارة عن فعل المأمورات وإن كان ترك المناهي أيضاً من جملة الوسائل ، إلا أن هذا التقرير مناسب ، والفعل والترك يعتبران أيضاً في الأخلاق الفاضلة والذميمة وفي الأفكار الصائبة والخطئة ، وأهل التحقيق يسمون الترك والفعل بالتخلية والتحلية أو بالمحو والحضور أو بالنفي والإثبات أو بالفناء والبقاء ، والأول مقدم على الثاني ، فما لم ينف عما سوى الله لم يرزق البقاء بالله »^(١).

وفي الآية لفظة أخرى من الرازي يرشدنا من خلالها إلى أن التقديم والتأخير هو الذي حدد المعنى المراد في أنه تعالى أمر بابتغاء الوسيلة إليه بعد الإيمان به قال : « والإيمان به عبارة عن المعرفة به فكان هذا أمراً بابتغاء الوسيلة إليه بعد الإيمان وبعد معرفته ، فيمتنع أن يكون هذا أمراً بطلب الوسيلة إليه في معرفته فكان المراد طلب الوسيلة إليه في تحصيل مرضاته وذلك بالعبادات والطاعات »^(٢).

أقول : وقد يكون قوله تعالى : ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ ﴾ تفسير للأمر بتقوى الله في قوله : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ وتكون الوسيلة هنا هي الطريقة الموصلة إلى محبة الله بفعل مرضاته واجتناب مساخطه ، ثم ذكر الجهاد بعد وخصه الذكر لأنه ذروة سنام الإسلام ، أو لأنه لا يصل إليه إلا من تحلى بفعل الأوامر واجتناب المناهي وهو جهاد النفس الذي إن تحقق ارتقى بصاحبه إلى جهاد العدو .

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢٨) ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٩) ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ٣٨-٤٠).

(١) غرائب القرآن و رغائب الفرقان ج ٣ ص ٥٨٥.

(٢) مفاتيح الغيب ج ١١ ص ٢٢٦.

تقدم السارق على السارقة لأن السرقة في الرجال أغلب منها في النساء ، لما تحتاجه السرقة من جرأة نفسية وقوة بدنية وغلظة شعور وتبلد عاطفة ، وذلك في الرجال أكثر .

يقول الزمخشري : « فإن قلت : لم قدم التعذيب على المغفرة قلت : لأنه قوبل بذلك تقدم السرقة على التوبة » .^(١)

وأقول : ويضاف إلى ما ذكره الزمخشري هو أن السياق للوعيد لكل ممن سبق ذكرهم من قطاع الطريق ، والمحاريين ، والسراق فيناسب ذلك تقديم ما يليق به من الزواجر .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « وفي تقديم العذاب على المغفرة هنا نظر . . . إذ كانت رحمة الله تسبق غضبه وعذابه أبداً ، ولكن إذ كان الموقف هنا محاسبة للمذنبين ثم مغفرة ورحمة لمن تاب ورجع منهم ، كان ذكر العذاب مقدماً على ذكر المغفرة بالنسبة لهم ولو تقدمت المغفرة على العذاب هنا لما كان لعقاب المذنبين - مع سبق الرحمة - مكان ولشملتهم الرحمة قبل أن يؤخذوا بجرمهم ، ويقام الحد عليهم وإلا لسقطت الحدود واضطرب نظام المجتمع .

فكان تقديم العقاب أخذاً لحق الله وحق العباد أولاً ثم تجيء مغفرة الله ورحمته فتمحو آثار هذا العقاب وتعفي عليه لمن وجه وجهه إلى الله وطلب الصفح والمغفرة . وقدم السارق على السارقة لأن الرجل أجرأ من المرأة على السرقة وأكثر تمسكاً بها »^(٢)

﴿ فَلَا تَخْشَوْا النَّاسَ وَآخِشُوا وَلَا تَقْتَرُوا بِعَاقِبَتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ (المائدة: ٤٤).

بدأ بنهيهم عن خشية الناس فيتركوا الحكم بالتوراة لأنه أشد تأثيراً وأدعى لترك حكم الله ، ثم نهي بالطمع أي أكل الحرام من رشوة وسحت لترك الحكم بما أنزل الله أو تغييره .

﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ

(١) الكشف ج ١ ص ٦١٩ .

(٢) التفسير القرآني ج ٦ ص ١٠٩٧ .

كَفَّارَةٌ لَهُمْ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿المائدة: ٤٥﴾
 التقديم هنا للأهمية فالنفس أهم من العين والعين أهم من الأنف ...
 ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾
 (المائدة: ٥٠)

قدم المفعول به ﴿أَفَحُكْمَ﴾ على الفاعل ﴿يَبْتَغُونَ﴾ للإنكار
 ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: ٥٤) قدم حبه لهم على حبههم
 له لسبق علمه بهم واختياره لهم بهذه الأوصاف كقوله تعالى :
 ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ (التوبة: ١١٨) وكقوله تعالى : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
 عَنْهُ﴾ (المائدة: ١١٩) .

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾
 (المائدة: ٦١) . تقدم هنا المسند إليه على الفعل في قوله : ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾
 فأفاد تقوية الحكم وتوكيده ودفع الشك عنه ، لا قصره عليه ، ليثبت معنى
 خروجهم بالكفر وعدم استفادتهم شيئاً من سماع الوحي بسبب غلظ قلوبهم
 وقسوة أفئدتهم وتكذيبهم فيما ادعوه .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (المائدة: ٦٩) .
 قال الزمخشري : ﴿وَالصَّابِقُونَ﴾ رفع على الابتداء وخبره محذوف والنية به
 التأخير عما في حيز إن من اسمها وخبرها كأنه قيل : إن الذين ءامنوا والذين هادوا
 والنصارى حكمهم كذا والصابئون كذلك .
 وأنشد سيويه شاهداً له :

وإلا فاعلموا أيا وأنتم بغاة ما بقينا في شقاق

أي فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك ، فإن قلت هلا زعمت أن ارتفاعه للعطف على
 محل إن واسمها ؟ قلت : لا يصح ذلك قبل الفراغ من الخبر ، لا تقول : إن زيداً
 وعمراً منطلقان فإن قلت لم لا يصح والنية به التأخير ، فكأنك قلت : إن زيداً
 منطلق وعمراً ؟ قلت : لأنني إذا رفعت عطفاً على محل إن واسمها والعامل في

محلها هو الابتداء ، فيجب أن يكون هو العامل في الخبر لأن الابتداء ينتظم الجزأين في عمله كما تنتظمها [إن] في عملها فلو رفعت الصابئون المنوي به التأخير بالابتداء وقد رفعت الخبر بأن لأعملت فيها رافعين مختلفين فإن قلت : فقله والصابئون معطوف لا بد له من معطوف عليه فما هو؟ قلت : هو مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ (البقرة: ٦٢) ولا محل لها كما لا محل للتي عطفت عليه ، فإن قلت : ما التقديم والتأخير إلا لفائدة فما فائدة هذا التقديم؟ قلت : فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح ، فما الظن بغيرهم . وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالاً وأشدهم غياً وما سموا صابئين إلا لأنهم صبئوا عن الأديان كلها أي خرجوا ، كما أن الشاعر قدم قوله : {وأنتم} تنبيهاً على أن المخاطبين أوغل في الوصف بالبغيعة من قومه حيث عاجل به قبل الخبر الذي هو {بغاة} لئلا يدخل قومه في البغي قبلهم ، مع كونه أوغل فيه منهم وأثبت قدماً فإن قلت : فلو قيل والصابئين وإياكم لكان التقديم حاصلًا . قلت : لو قيل هكذا لم يكن من التقديم في شيء ، لا إزالة فيه عن موضعه ، وإنما يقال مقدم ومؤخر للمزال لا للقار في مكانه .^(١)

قال صاحب المنار : « وأما تقديم الصابئين هنا على النصارى فمن قال إن المراد بالذين آمنوا هنا المنافقون الذين ادعوا الإيمان بالسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ، يرى أن نكتة الترتيب بين هذه الأصناف بالترقي من الجدير بالقبول توبته إذا صح إيمانه ودعم بالعمل الصالح إلى الأجدر بذلك ، ويجعل النصارى أقربها إلى القبول ويليهما عنده الصابئون ، فاليهود فالمنافقون ، وأنت تعلم أن العطف بالواو لا يفيد الترتيب بل مطلق الجمع فلا حاجة إلى تكلف النكتة للتقديم والتأخير» .^(٢)

وأقول : إذا كان هناك نكتة تفيد معنى يستقيم والسياق لا يابأه فليس هذا من باب التكلف بل من باب الغوص في معاني القرآن الكريم واستخراج كنوزه بالفهم السليم

(١) الكشف ج ١ ص ٦٤٧ ، ٦٤٨ .

(٢) المنار ج ٦ ص ٤٧٩ .

قال الثعالبي : « ومذهب الخليل وسيبويه ونحاة البصرة أنه من المقدم الذي معناه التأخير ، كأنه قال الذين ءامنوا والذين هادوا من ءامن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والصابئون والنصارى كذلك » .^(١)

أقول : هذا قول جيد ومما يقويه معنى عدم الانفصال بين هذه الطوائف ليتم الحديث عنها جملة واحدة ، فإن الانفصال يخل بحلاوة الترتيب ونغم الاتصال ، ثم يذكر الجزاء عن الجميع بعد ذلك جملة واحدة فيعود على الجميع لفظاً بدلاً من أن يعود على بعضهم لفظاً والآخر تقديرأ .

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ (المائدة: ٧٠).

قال صاحب التحرير : « وتقديم ﴿ كَلَّمَا ﴾ على العامل استعمال شائع لا يكاد يتخلف لأنهم يريدون بتقديمه الاهتمام به ، ليظهر أنه محل الغرض المسوقة له جملته ، فإن استمرار صنيعهم ذلك مع جميع الرسل في جميع الأوقات دليل على أن التكذيب والقتل صارا سجتين لهم لا تتخلفان ، إذ لم ينظروا إلى حال رسول دون آخر ولا إلى زمان دون آخر ، وذلك أظهر في فظاعة حالهم ، وهي المقصود هنا ... وتقديم المفعول في قوله : ﴿ فَرِيقًا كَذَّبُوا ﴾ لمجرد الاهتمام بالتفصيل لأن الكلام مسوق مساق التفصيل لأحوال رسل بني إسرائيل باعتبار ما لاقوه من قومهم ، ولأن في تقديم مفعول ﴿ يَقْتُلُونَ ﴾ رعاية على فاصلة الآي ، فقدم مفعول ﴿ كَذَّبُوا ﴾ ليكون المفعولان على وتيرة واحدة » .^(٢)

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيكَ ذَٰلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قِسِيَّسِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المائدة: ٨٢) . تقدم ذكر اليهود في هذه الآية على الذين أشركوا لشدة عداوتهم إذ إنه لم يحارب الإسلام كما حارب من اليهود ، ولم يعاد الإسلام أحد كما عاداه اليهود ، وذلك من بداية الدعوة

(١) الجواهر الحسان ج ١ ص ٤٤٣ .

(٢) التحرير ج ٦ ص ٢٧٣ ، ٢٧٥ .

الإسلامية عندما ظهر أن النبي ﷺ من العرب وليس منهم ، كما كانوا يؤملون ، وفي سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق بسنده حيث ذكر سبب عداوة اليهود للنبي ﷺ . قالوا : إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن تقتلكم معه قتل عاد وإرم فكننا كثيراً ما نسمع ذلك منهم - أي من اليهود - فلما بعث الله رسوله أجنبناه حين دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدونا به فبادرناهم إليه فأمننا به ، وكفروا به ، ففيهم نزل هؤلاء الآيات ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٨٩) ^(١)

ومظاهر عداوة اليهود كثيرة جداً ، وفيها نزل كثير من آي القرآن الكريم ، وقد حفلت السيرة بالشيء الكثير عن مظاهر تلك العداوة ، أكتفي بذكر العناوين التي أوردها ابن هشام في سيرته ثم أتبعها بذكر أسباب غزوات النبي ﷺ ضد اليهود ، ولولا الخروج عن مضمون الرسالة بالإطالة لكتبت فصلاً خاصاً عن هذا الموضوع .

ذكر ابن هشام عن ابن إسحاق تحت عنوان « الأعداء من يهود » قال : ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله ﷺ العداوة بغياً وحسداً وضغناً لما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منهم .

ثم ذكر مواقفهم العدائية أكتفي منها بذكر العناوين :

إسلام عبد الله بن سلام - من أحبار اليهود - قومه يكذبونه ولا يتبعونه .

من اجتمع إلى اليهود من منافقي الأنصار .

من أسلم من أحبار اليهود نفاقاً من منافقي بني قينقاع .

ما نزل في البقرة في منافقين ويهود .

سؤال اليهود الرسول وإجابته لهم ﷺ .

إنكار اليهود نبوة داود ورد الله عليهم .

كتابه ﷺ إلى يهود خيبر .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٢١١ .

كفر اليهود به ﷺ بعد استفتاحهم به وما نزل في ذلك .
 ما نزل في نكران مالك بن الصيف العهد إليهم بالنبي ﷺ .
 ما نزل في قول أبي صلوياء : ما جئتنا بشيء نعرفه .
 ما نزل في قول ابن حريملة ووهب .
 ما نزل في صد حيي وأخيه الناس عن الإسلام .
 ما نزل في سؤال ابن صوريا للنبي ﷺ أن يتهود .
 مقالة اليهود عند صرف القبلة إلى الكعبة .
 كتمانهم ما في التوراة من الحق .
 جوابهم للنبي ﷺ حينما دعاهم للإسلام .
 فيما نزل فيما هم به بعضهم من الإيمان غدوة والكفر عشية .
 ما نزل في قول أبي رافع والنجراني أتريد أن نعبدك كما تعبد النصاري عيسى عليه السلام .
 ما نزل في أخذ الميثاق عليهم .
 سعيهم في الوقعة بين الأنصار .
 ما نزل في قولهم ما آمن إلا شرارنا .
 ما كان بين أبي بكر وفنحاص .
 جحدهم الحق .
 النفر الذين حزبوا الأحزاب .
 إنكارهم التنزيل .
 اجتماعهم على طرح الصخرة على رسول الله ﷺ .
 إدعاؤهم أنهم أحباء الله .
 إنكارهم نزول كتاب بعد موسى .
 ظلمهم في الدية .
 قصدهم الفتنة برسول الله ﷺ .
 جحودهم نبوة عيسى ﷺ .
 سؤالهم عن قيامة الساعة .

سؤالهم له ﷺ عن ذي القرنين . (١) .

وأقول : وهناك مظاهر عداوة أخرى لم يذكرها ابن هشام منها :

قولهم : إن دين المشركين - عبادة الأصنام والأوثان - خير من دين محمد . وقد نزل في ذلك قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكَتَبِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطُّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّؤَلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾

(النساء: ٥١)

استباحة فعل الحرام مع غير اليهود من أكل الأموال وخيانة العهد :

وفي ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّينَ سَبِيلٌ ﴾

(آل عمران: ٧٥)

دعائهم على النبي ﷺ والمؤمنين بالموت عند التسليم بقولهم : [السلام عليك]

وأرى إضافة لما سبق ذكر أسباب الغزوات التي قامت بين النبي ﷺ وبين يهود

لنقف على حقيقة عدائهم .

غزوة بني قينقاع :

عمد صائغ يهودي إلى طرف ثوب مسلمة في السوق فعقده إلى ظهرها وهي

لا تشعر به فلما قامت انكشفت سواتها فضحكوا بها فقتل المسلم اليهودي وقتل

اليهود المسلم وأعلنوا العداء والحرب .

بنو النضير :

خرج إليهم النبي ﷺ يستعين في دية العامريين فآتمروا بقتله على أن يعلو

رجل سطح بيت ويلقي بصخرة فوق رسول الله ﷺ .

خير :

أبدى يهود خيبر العداء سافراً بعدما لحق بهم زعماء بني النضير فألبوا القبائل

ضد المسلمين وسعوا في إقناع بني قريظة للانضمام إليهم والغدر بالمسلمين .

الأحزاب :

خرج أشراف اليهود سلام بن أبي الحقيق ، سلام بن مشكم ، كنانة بن الربيع إلى

قريش وقبائل العرب يحرضونهم على حرب المسلمين .

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٥١٣ .

بنو قريظة :

نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ وتحالفوا مع المشركين في غزوة الأحزاب ضد النبي ﷺ وجأهروا بالعداوة والسباب ونالوا من النبي ﷺ^(١) وعن سر تقديمهم قال الزمخشري : إن تقديم اليهود على الذين أشركوا في عداوتهم للمؤمنين لقدمهم فيها وهو نفس السبب الذي يراه في تقدمهم على الذين أشركوا في قوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ ﴾ (البقرة: ٩٦) .
أقول : وفي الآية تقديم الخبر ﴿ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً ﴾ على المبتدأ ﴿ الْيَهُودَ ﴾ إذ إن أصل الجملة لتجدن اليهود أشد الناس عداوة للذين ءامنوا ، فقدم الخبر للتشويق لما بعده إذ هو محط الفائدة .

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّيْتُهُمْ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾ (المائدة: ٨٩) ، بدأ بأقل ما يكفي في الكفارة من أجل التخفيف والرحمة بعباده ، ثم جاء العطف على سبيل الترفي .

﴿ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾ وليس التقديم للتفضيل كما ذهب إلى ذلك الكيسسي عندما قال عن هذه الآية : « وفيها أن الله تعالى رتب الكفارة على اليمين ، فجعل الإطعام أولاً ، والكسوة ثانياً وتحرير رقبة ثالثاً وصيام ثلاثة أيام رابعاً ، إذا تعذرت الثلاثة الأول ، فالذي يشعر به هذا السياق استحباب الإتيان بالكفارة وفق ترتيبها في الآية ، فقدم الأولى فالأولى ، فهذا الترتيب لبيان الأفضل ، والله أعلم وهو يشبه قوله ﷺ { نبدأ بما بدأ الله به } ويعني قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَابِرِ اللَّهِ ﴾ (البقرة: ١٥٨) فابتداء السعي يكون من الصفا وانتهاءه بالمروة كما جاء ذكرها في الآية ، وهكذا أفادنا السياق بيان ترتيب الأفعال ومعرفة الأولى بالتقديم^(٢) .

(١) غزوات الرسول ص ١٦١-١٦٥ ، ومن ص ١٩٥-٢٢٨ ومن ص ٢٧١-٢٨٤ .

(٢) مجلة الحكمة ، ص ٧٩ .

أقول : وليس الأمر كما ذهب إليه الكبيسي من أن التقديم للفضل حيث إنه من المعلوم أن تحرير الرقبة أفضل عند الله عز وجل ثواباً وأعظم نفعاً للبشر من إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ، ففيه تحرير لإنسان من رق العبودية ، وهل يستوي إطعام عشرة بطون يقوم لهم الكثيرون بالإطعام أو بالكساء مع تحرير إنسان من رق العبودية طوال حياته ؟ فتفضيل العتق ثابت فضله بالنقل وبالعقل ، ولعظم ثواب العتق في تكفير الذنوب كان العتق تكفيراً لكبائر الذنوب ، وليس الإطعام ، من ذلك الآية الثانية والتسعون من سورة النساء ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطْئًا وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطْئًا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهَا إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدْيَةٌ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ﴾ (النساء: ٩٢).

وقد جاءت الكفارة بالعتق على سبيل الترتيب في الفضل واضحاً وجلياً في سورة المجادلة في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تَوَعَّظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ (المجادلة: ٤٣) . ويبقى الأمر كما زعمنا والله أعلم بالصواب ، وأما القياس على الصفا والمروة فليس منه في شيء ، فإن البداءة بالصفا مشروع لكون أم إسماعيل بدأت بها حيث كانت عندها قبل المروة فكان ذلك تأسيماً بها في فعلها ، فالترتيب في الآية لسبق الوجود والله أعلم .

وهناك رأي وجيه للرازي مال إليه القاسمي فذكره قال : « حكمة تقديم الإطعام على العتق - مع أنه أفضل - من وجوه : { أحدها } : التنبيه من أول الأمر على أن هذه الكفارة وجبت على التخيير لا على الترتيب وإلا لبدئ بالأعلاظ { ثانيها } : كون الطعام أسهل لأنه أعم وجوداً والمقصود منه التنبيه على أنه تعالى يراعي التخفيف والتسهيل في التكاليف { وثالثها } : كون الإطعام أفضل ، لأن الحر الفقير قد لا يجد الطعام ولا يكون هناك من يعطيه الطعام فيقع في الضر ، أما العبد فإنه يجب على

مولاه إطعامه وكسوته»^(١) والرازي هنا وإن ذهب كما ذكرت بأن الإعتاق أفضل بوجه عام إلا أنه يرى أنه هنا أفضل في هذا المقام .
﴿ يَتَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَّا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَأَجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ ﴾ (المائدة: ٩٠).

صدرت الآية الكريمة بـ ﴿ إِنَّمَا ﴾ وذلك لأن هذه الكلمة للحصر فكأنه تعالى قال : لا رِجس ولا شيء من عمل الشيطان إلا الخمر والميسر وما ذكر معهما .
لماذا تقدم الخمر في هذه الآية على الميسر والأنصاب والأزلام ومعلوم أن الأنصاب أشد إثماً فلا إثم أعظم من الشرك ؟

يجيب الرازي قائلًا : « لأن الخطاب مع المؤمنين وإنما نهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر واللعب بالميسر وذكر الأنصاب والأزلام لتأكيد تحريم الخمر والميسر . وإظهار أن ذلك جميعاً من أعمال الجاهلية وأهل الشرك ، فوجب اجتنابه بأسره ، وكأنه لا مبالغة بين من عبد صنماً وأشرك بالله في علم الغيب وبين من شرب خمرًا أو قامر ، ثم أفردهما بالذكر ليرى أن المقصود بالذكر الخمر والميسر »^(٢).

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ مُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة: ٩٣).

لقد ذكر الفيروزآبادي في هذه الآية معان ثلاث للتقوى ، والذي يرجح ما بينها فيما نرى القول بالتقديم والتأخير ، قال : « ومنازل التقوى ثلاثة على ما ذكره الشيوخ الأجلة تقوى عن الشرك ، وتقوى عن البدعة ، وتقوى عن المعاصي الفرعية ، وقد ذكرها الله في آية واحدة ﴿ لَيْسَ ... ﴾ التقوى الأولى تقوى عن الشرك والإيمان في مقابلة التوحيد ، والتقوى الثانية عن البدعة ، والإيمان المذكور معها إقرار السنة والجماعة ، والتقوى الثالثة عن المعاصي الفرعية والإقرار في هذه المنزلة قابلها بالإحسان وهو الطاعة والاستقامة عليها »^(٣).

(١) القاسمي ج ٤ ص ٢٤٢.

(٢) مفاتيح الغيب ج ص ٦٦١.

(٣) بصائر ذوي التمييز ج ٥ ص ٢٥٨.

وفيما ذكره الفيروزابادي يكون التقديم هنا للأهمية مبتدئاً من الأهم فالأهم من الأعظم ضرراً إلى الأقل .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾

(المائدة: ٩٤)

تقدمت الأيدي على الرماح ، لأن ما يؤخذ بالأيدي أيسر ، لأنه في العادة يكون أصغر وأقرب ، والصائد عليه أقدر ، فبدئ به ، لأن التلبس به أكثر وصيده أسرع من الذي تناله الرماح ، فيكون التقديم للتحذير حتى لا يتهاون به ظناً أن المحرم هو ما ينال بالرماح فقط .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ سَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكُمْ صِيَامًا ﴾ (المائدة: ٩٥).

اختلف الفقهاء في حكم الكفارة في هذه الآية هل هو على الترتيب المذكور في الآية وهو ذبح المثل من النعم أولاً فإن لم يجد أخرج القيمة فإن لم يجد صام عن كل مد من الطعام وهذا الاختلاف راجع إلى معنى الواو فمن قال إنها للترتيب كأحمد وزفر من أصحاب أبي حنيفة أوجب الترتيب في الكفارة كما ذكر في الآية ومن ذهب أنها للتخيير لم يلزم أحد بكفارة بعينها بل يختار ما يشاء .^(١)

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَ ذَلِكُمْ لِيَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٧) ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة: ٩٧، ٩٨)

تقدم قوله : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ على قوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لمناسبة ما قبله وهو التذكير بعقابه فلا ينتهكون محارمه السابق ذكرها وهي البيت الحرام والشهر الحرام والتعرض لما يهدى للبيت الحرام ، فناسب أن تبدأ الآية بهذا تخويفاً وتهديداً لمن أراد أن ينتهك حرمة البيت أو حرمة الشهر أو حرمة ما يهدى للبيت الحرام .

(١) الخازن ج ٢ ص ٣٢٤.

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهِدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ صَرَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْوَلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهِدَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الْآثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عَصَىٰ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَءَاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلَيْنِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهِدْتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهِدَتَيْهِمَا وَمَا آَعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾
(المائدة: ١٠٦، ١٠٧)

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « والملاحظ في هذه الآيات أنها جاءت على نظم خاص وأسلوب يكاد يكون فريداً في القرآن الكريم ، فقد كثر فيها الخروج على مألوف النظم القرآني خروجاً متعمداً ، فهناك تقديم وتأخير بحيث تبدو الجمل وكأنما يدفع بعضها بعضاً ليزيله عن موضعه قسراً . . . إلى أن قال فقوله تعالى : ﴿ شَهِدَةُ بَيْنِكُمْ ﴾ مبتدأ خبره ﴿ اثْنَانِ ﴾ والجملة خبرية هنا مراد بها الأمر والإلزام : والتقدير إذا حضر أحدكم الموت فشهادة قائمة بينكم لهذا المحتضر يشهد اثنان ذوا عدل منكم . . . أي من المؤمنين ﴿ أَوْ ءَاخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ ﴾ أي غير المؤمنين عند الضرورة» .^(١)

وأنا أتناول هذه الآية بمزيد من الإيضاح حول أسلوب التقديم والتأخير فيها فأقول : أولاً تقدم الأمر بالشهادة على ما يشهد عليه مع أن حقه التقدم إذ هو السابق في الوجود ، وأصل الترتيب هو ما سبق ذكره ، والسبب في ذلك تعظيم أمر الشهادة للاهتمام بها والاعتناء بأمرها حتى تؤدي ولا تكتم تهاوناً بها ولا سيما الشهادة عندما تتعين . ثم تأخر الخبر ﴿ اثْنَانِ ﴾ بالجملة الاعتراضية ﴿ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾ لتعظيم الشهادة وإدخال الهيبة عليها ، تلك الهيبة المستمدة من تقديم ذكر الموت الذي لا مفر لأحد منه ، وقد تقدم المفعول به ﴿ أَحَدَكُم ﴾ على فاعله ﴿ الْمَوْتُ ﴾ للاهتمام باستشعار نازلة الموت التي خصته بالمجيء ، ثم تقدم الضمير على المسند الفعلي ﴿ إِنْ أَنْتُمْ صَرَرْتُمْ ﴾ وذلك للاهتمام ، وقد تقدم أيضاً القسم في قوله : ﴿ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا

(١) التفسير القرآني ج ٧ ص ٦٥-٦٧.

وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴿١١٤﴾ مع أن القسم متأخر وجوداً بعد وجود الريبة وذلك لتعظيم أمر القسم وعدم النكول عنه .

وعلى قراءة ﴿ شَهَادَةُ اللَّهِ ﴾ بالإضافة ليس هنا تقديم ولا تأخير ، وعلى القراءة بتووين { شهادة } يكون في الآية تقديم وتأخير إذ الترتيب { ولا نكتم الله شهادة } فقدمت الشهادة على لفظ الجلالة للاهتمام بها فإنها المحدث عنها .

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (١١٤) إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٥﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اأَلْهَمُ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَآخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَآرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٧﴾ (المائدة: ١١١-١١٤).

قدم ذكر الإيمان على الإسلام ، لأن الإيمان من أعمال القلوب والإسلام هو الانقياد والخضوع في الظاهر ، والإيمان أسبق في وجوده والإسلام أثره الناتج عنه ، ولهذا قدم الإيمان على الإسلام .

قال الفخر الرازي : « المسألة الثانية : تأمل في هذا الترتيب فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا في طلبها أغراضاً ، فقدموا ذكر الأكل فقالوا : ﴿ نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا ﴾ وأخروا الأغراض الدينية الروحانية ، فأما عيسى فإنه لما طلب المائدة وذكر أغراضه فيها قدم الأغراض الدينية الروحانية وأخر غرض الأكل حيث قال : ﴿ وَآرْزُقْنَا ﴾ وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح في كون بعضها روحانية وبعضها جسمانية ، ثم إن عيسى عليه السلام لشدة صفاء دينه وإشراق روحه لما ذكر الرزق بقوله : ﴿ وَآرْزُقْنَا ﴾ لم يقف عليه بل انتقل من الرزق إلى الرزاق فقال :

﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ فقوله : ﴿ رَبَّنَا ﴾ ابتداء منه بذكر الحق سبحانه وتعالى ، وقوله : { وأنزل علينا } انتقال من الذات إلى الصفات ، وقوله : ﴿ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَءَآخِرِنَا ﴾ إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث إنها نعمة ، بل من حيث إنها صادرة عن المنعم وقوله : ﴿ وَءَايَةً مِنْكَ ﴾ إشارة إلى كون هذه المائدة

دليلاً لأصحاب النظر والاستدلال وقوله : ﴿ وَأَرْزُقْنَا ﴾ إشارة إلى حصّة النفس وكل ذلك نزول من حضرة الجلال . فانظر كيف ابتداء بالأشرف فالأشرف نازلاً إلى الأدون فالأدون ثم قال : ﴿ وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرّٰزِقِينَ ﴾ وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلى الخالق ومن غير الله إلى الله ومن الأخس إلى الأشرف ، وعن ذلك تلوح لك شمة من كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية الإلهية ونزولها ، اللهم اجعلنا من أهله .^(١)

وحول هذا المعنى قال العلامة الشعراوي : « لقد قال عيسى ابن مريم داعياً الله : ﴿ اَللّٰهُمَّ رِنَّا اَنْزِلْ عَلَيْنَا مَا يَدُّهُ مِنْ السَّمَاءِ ﴾ وألزم عيسى نفسه ببدء الألوهية أولاً معترفاً بالعبودية لله ملتزماً بالتكليف القادم منه ثم جاء ببدء الربوبية ، فيا من أنزلت علينا التكليف ، ويا من تتولى تربيتنا ، نحن ندعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء ، وأخذ نداء زاوية القيم ثم زاوية المادية وهي الرزق ، لكن الحواريين قدموا بشرتهم فطلبوا من المائدة الأكل والطعام فقالوا : ﴿ نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَتَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشّٰهِدِينَ ﴾ أما عيسى ابن مريم بصفائية اختياره رسولاً فقد أخرج الطعام عن القيم فقال : ﴿ اَللّٰهُمَّ رِنَّا اَنْزِلْ عَلَيْنَا مَا يَدُّهُ مِنْ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيْدًا لِأَوْلٰنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَأَنْتَ خَيْرُ الرّٰزِقِينَ ﴾ .^(٢)

﴿ وَإِذْ قَالَ اَللّٰهُ يٰعِيسٰى ابْنُ مَرْيَمَ ءَاَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اَتَّخِذُوْنِيْ وَاُتْمٰى اِلٰهَيْنِ مِنْ دُوْنِ اَللّٰهِ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُوْنُ لِيْ اَنْ اَقُوْلَ مَا لَيْسَ لِيْ بِحَقٍّ اِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِيْ نَفْسِيْ وَلَا اَعْلَمُ مَا فِيْ نَفْسِكَ اِنَّكَ اَنْتَ عَلٰمُ الْغُيُوْبِ ﴾ (المائدة: ١١٦) تقدم الضمير {أنت} لإظهار التأكيد على براءة عيسى - عليه السلام - مما نسب إليه ، وفي تقديم قوله : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِيْ نَفْسِيْ ﴾ على قوله : ﴿ وَلَا اَعْلَمُ مَا فِيْ نَفْسِكَ ﴾ إظهار أدب عيسى - عليه السلام - في خطابه مع ربه سبحانه وتعالى وكذلك لمناسبة الجواب في إثبات علم الله ببراءته مما نسب إليه .

(١) مفاتيح الغيب ج ١٢ ص ١٤٠ .

(٢) الشعراوي ج ٦ ص ٣٤٦٤ .

سور الأنعام

لما ختم سبحانه سورة المائدة بتحميد عيسى - عليه السلام - لجلال الله وثنائه عليه يوم القيامة ، ثم حمد سبحانه نفسه بشمول الملك والقدرة افتتح سبحانه هذه السورة بالإخبار أن ذلك الحمد وغيره من المحامد مستحق له استحقاقاً ثابتاً دائماً قبل إيجاد الخلق وبعد إيجاده سواء شكره العباد أم كفروه لما له من صفات الجلال والكمال ، ولما فصلت سورة النساء شيئاً عن محرمات الأنعام التي اخترعها الشيطان وأمر بها أوليائه جاءت سورة الأنعام ببيان مزيد من التفصيل حول هذه الافتراءات من الآية ١٣٥ وحتى الآية ١٤٠ والآيتان ١٤٣ و ١٤٤ ، ولما ذكرت سورة المائدة العقائد الباطلة ومقالات أصحابها جاءت سورة الأنعام لتتحدث عن التوحيد وعقيدة التوحيد وضرب المثل له بخليل الله إبراهيم - عليه السلام - .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأنعام: ١) .

إذا فسرت الظلمة والنور على حقيقتيهما كما ذهب جمهور المفسرين فإن تقدم ذكر الظلمات على النور مع أن النور أشرف مراعاة للترتيب الوجودي ، لأن الظلمة أسبق في الخلق من النور ، ويؤيد ما ذهب إليه من أن الترتيب للوجود ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال : { أخذ رسول الله بيدي فقال : خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل }^(١) ، وقد ذهب البعض إلى أن هذا الحديث موقوف على كعب وليس مرفوعاً إلى النبي ﷺ . وقد ذكر ذلك البقاعي وتابعه محقق الكتاب بشيء من التفصيل .^(٢)

(١) مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار رقم {٤٩٩٧} .

(٢) نظم الدرر ج ١ ص ٩٦ .

وقد أحسن الزمخشري في تعريفه النور بما قد أثبتته العلم الحديث اليوم ، بينما أخطأ في تعريفه الظلمة حيث قال : « ليست الظلمة كيفية وجودية مضادة للنور ، والدليل عليه ، أنه إذا جلس اثنان بقرب السراج ، وآخر بالبعد منه ، فالبعيد يرى القريب ، ويرى ذلك الهواء صافياً مضيئاً ، والقريب لا يرى البعيد ، ويرى ذلك الهواء مظلماً فلو كانت الظلمة كيفية وجودية لكانت حاصلة بالنسبة إلى هذين الشخصين المذكورين ، وحيث لم يكن الأمر كذلك ، علمنا أن الظلمة ليست كيفية وجودية ، وإذا ثبت ذلك ، فنقول : عدم المحدثات متقدم على وجودها فالظلمة متقدمة في التحقيق على النور ، فوجب تقديمها عليها في اللفظ ، ومما يقوي ذلك ما روي في الأخبار الإلهية { أنه تعالى خلق الخلق في ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره } . وروى ابن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال : إن الله خلق الخلق في ظلمة ، ثم ألقى عليهم النور ، فمن أصابه يومئذ من ذلك النور فقد اهتدى ، ومن أخطأه ضل » .^(١)

فقوله في الظلمة غير مسلم له فهي كيفية وجودية ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ والعدم لا يقال فيه جعل . وإلى مراعاة الترتيب الوجودي ذهب أيضاً الطاهر بن عاشور كذلك » .^(٢)

ومما يؤيد كلامنا ما ذكره البغوي عن قتادة أنه قال : « خلق الله السموات قبل الأرض وخلق الظلمة قبل خلق النور ، والجنة قبل النار ثم ذكر حديث عبد الله ابن عمرو السابق » .^(٣) وإلى إثبات كون الظلمة مخلوقة ذهب الخازن والبغوي حيث قالوا : « إن الجعل بمعنى الخلق »^(٤) .

وإلى ما ذهبنا إليه ذهب الثعالبي واعتبره هو الوجه الوحيد الصحيح ، حيث قال : « وجعل » هاهنا بمعنى خلق ، ولا يجوز غير ذلك » .^(٥)

(١) مفاتيح الغيب { ١ } سورة الأنعام.

(٢) التحرير والتنوير { ١ } الأنعام.

(٣) معالم التنزيل في التفسير والتأويل ج ٧ ص ١٢٧ ، الكشف ج ٤ ص ٧٣.

(٤) الخازن ج ٢ ص ٣٥٤ ، معالم التنزيل ج ٢ ص ٣٥٤.

(٥) الجواهر الحسان ج ١ ص ٤٦٦.

أما صاحب المنار فقال : « وأما جعل الظلمات والنور فهو في الحسيات بمعنى إيجادهما لأن هذا هو معنى الجعل المتعدي إلى مفعول واحد » .^(١) أما على تفسير الظلمة بأنها ظلمة معنوية فالمقصود بها هنا ظلمة الجهل فقط وليس ظلمة الجهل والكفر كما ادعى صاحب الطراز حيث قال : « فإن الظلمة سابقة على النور لأن الحق أن الظلمة هي عدم النور ، وليست أمراً ثبوتياً ، فإذا كان الأمر فيها كما قلناه فلا شك أن عدم الشيء سابق على وجوده لأن عدم بلا أول والوجود يتلوه فلهذا كان تقدم الظلم على الأنوار من باب تقدم الأزمنة وهكذا القول في الظلمة المعنوية لأنها إذا أريد بها الجهل والكفر فإنها تكون سابقة على النور المعنوي وهو العلم والإسلام .

ويؤيد ما قلناه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨) . فانتفاء العلم ظلمة معنوية مجازية فهي متقدمة بالزمان على نور الإدراكات الخمسة كلها .^(٢)

أقول : لقد أخطأ صاحب الطراز في جمعه بين الجهل والكفر في قوله : « لأنها إذا أريد بها الجهل والكفر » وجعل ذلك هو الظلمة المعنوية التي تقدمت زماناً على النور ، فالآية التي أوردها إنما هي دليل على تقدم ظلمة الجهل على نور العلم وليس فيها ما يشير إلى الكفر إطلاقاً بل العكس هو الصحيح فنصوص القرآن والسنة تثبت تقدم نور الإيمان على ظلمة الكفر قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿٢٧﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٢، ١٧٣) . وقوله تعالى : ﴿ فِطَرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾

(الروم: ٣٠)

(١) المنار ج ٧ ص ٢٩٢ .

(٢) الطراز المتضمن لأسرار وعلوم حقائق الإعجاز ص ٢٣١-٢٣٤ .

روى الإمام أحمد في مسنده من رواية جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ
 {كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه ، فإذا أعرب عنه لسانه إما شاكراً
 وإما كفوراً} ^(١)

قال السمين الحلبي : في قوله : ﴿ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ (الأنعام: ١)
 ﴿ ثُمَّ ﴾ هذه ليست للترتيب الزمني وإنما هي للتراخي بين الرتبين والمراد
 استبعاد أن يعدلوا به غيره مع ما أوضح من الدلالات ^(٢).
 ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ
 تَمْتَرُونَ ﴾ (الأنعام: ٢). خولف الاستعمال الغالب من تقديم الخبر الظرف على كل
 مبتدأ نكرة موصوفة نحو قوله تعالى : ﴿ وَلِي نَعْبُدْهُ وَاحِدَةً ﴾ (ص: ٢٣) وذلك
 لإظهار الاهتمام بالمسند إليه لأن تقديمه منكراً أفاد معنى التعظيم ، أي : وأجل
 عظيم مسمى عنده . ﴿ ثُمَّ قَضَىٰ ﴾

قال السمين الحلبي في قوله : ﴿ ثُمَّ قَضَىٰ ﴾ « إن كان قضى بمعنى أظهر ، فثم
 للترتيب الزمني على أصلها ، لأن ذلك متأخر عن خلقنا وهي صفة فعل ، وإن
 كان بمعنى كتب وقدر فهي للترتيب في الذكر ، لأنها صفة ذات ، وذلك مقدم على
 خلقنا » ^(٣).

﴿ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرُّكُمْ وَجَهْرُكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾

(الأنعام: ٣)

قال الخازن نقلاً عن الزجاج : « فيه تقديم وتأخير ، تقديره وهو الله يعلم سركم
 وجهركم في السموات وفي الأرض » ^(٤).

أقول : وهنا احتمال آخر للتقديم والتأخير وهو أن يكون الجار والمجرور في
 « قوله : ﴿ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ متقدم على متعلقه وهو الفعل ﴿ وَيَعْلَمُ
 مَا تَكْسِبُونَ ﴾ وقد راجعت رواية ورش عن نافع . هل هناك فيها وقف عند لفظ

(١) مسند الإمام أحمد باقي مسند المكثرين رقم ١٤٢٧٧.

(٢) الدر المصون ج ٣ ص ٤.

(٣) الدر المصون ج ٣ ص ٥.

(٤) تفسير الخازن ج ٢ ص ٣٥٦.

الجلالة {الله} فوجدت فيها وفقاً لتكون الجملة من بعد قوله : {هو الله} جملة مستأنفة . ^(١) ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ (٥٤: الأنعام) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَتُؤْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٥٤: الأنعام).

قال الرازي : «علم أنه تعالى : رتب أحوال هؤلاء الكفار على ثلاث مراتب :

• فالمرتبة الأولى : كونهم معرضين عن التأمل في الدلائل والتفكر في البينات .

• والمرتبة الثانية : كونهم مكذبين بها وهذه المرتبة أزيد مما قبلها ، لأن المعرض عن الشيء قد لا يكون مكذباً به بل يكون غافلاً عنه غير متعرض له ، فإذا صار مكذباً به فقد زاد على الإعراض .

• والمرتبة الثالثة : كونهم مستهزئين بها لأن المكذب بالشيء قد لا يبلغ تكذيبه به إلى حد الاستهزاء ، فإذا بلغ إلى هذا الحد فقد بلغ الغاية القصوى في الإنكار ، فبين تعالى أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب الثلاثة على هذا الترتيب ^(٢) وما ذكره الرازي هو التقديم والتأخير الوجودي .

﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (الأنعام: ١٠).

الأصل ما كانوا يستهزئون به ، فقدم الجار والمجرور للاهتمام بما كذبوا به وتعظيم أمره مع ما فيه من جمال الفاصلة .

﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنعام: ١٣).

تقديم الجار والمجرور ﴿وَلَهُ﴾ للدلالة على الحصر ، وهو حصر الساكنين في كونها له لا لغيره ، أي في كون ملكها التام له ، كما تقدم في قوله : ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ (الأنعام: ١٢) .

وتقدم الليل على النهار لأن السكون في الليل أغلب منه في النهار ، قال الرازي في معرض حديثه عن الآيتين السابقتين وأقول : «هاهنا دقيقة أخرى وهو أن الابتداء وقع بذكر المكان والمكانيات ، ثم ذكر عقيبه الزمان والزمانيات ، وذلك لأن المكان والمكانيات أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان والزمانيات لدقائق

(١) القرآن الكريم رواية ورش عن نافع مؤسسة الحسن الثاني.

(٢) مفاتيح الغيب ج ١٢ ص ١٦٦.

مذكورة في العقلية الصرفة ، والتعليم الكامل هو الذي يبدأ فيه بالأظهر ، فالأظهر مترقياً إلى الأخفى فالأخفى»^(١).

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ اتَّخِذْ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾

(الأنعام: ١٤)

تقدم المفعول الأول لـ ﴿ اتَّخِذْ ﴾ وهو قوله : ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ ﴾ للاهتمام به ، إذ هو محط الإنكار وهو ما يسمى بالاستفهام الإنكاري حيث حصر المفعول هنا فتوجه الإنكار إليه ومثاله قوله تعالى في الآية الأربعين ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْنَاكُمْ أَوْ أَمْسَكْنَا السَّاعَةَ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ ﴾ (الأنعام: ٤٠) فتقديم المفعول هنا أفاد من الحسن والمزية والفخامة ما لو أخر فقيل : { قل اتخذ غير الله ولياً } و { تدعون غير الله } وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك : أو يكون غير الله بمثابة أن يتخذ ولياً ؟ أيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ؟ وأو يكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك ؟ ولا يكون شيء من ذلك إذا قيل : أأتخذ غير الله ولياً ، وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط ولا يزيد على ذلك . ومن ذلك الحكم في قوله تعالى : ﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّ إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ (القمر: ٢٤) وذلك لأنهم بنوا كفرهم على أنه من كان مثلهم بشراً لم يكن بمثابة أن يتبع ويطاع وينتهي إلى ما يأمر ويصدق أنه مبعوث من الله تعالى ، وأنهم مأمورون بطاعته كما جاء في قوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا ﴾ (إبراهيم: ١٠) وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَقَالَ أَلَمَلُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴾ (المؤمنون: ٢٤).

وقد بسط صاحب التحرير القول في هذه الآية قال : « وشأن همزة الاستفهام بجميع استعمالاته أن يليها جزء الجملة المستفهم عنه كالمنكر هنا ، فالتقديم للاهتمام به ، وهو من جزئيات العناية التي قال فيها عبد القادر أن لا بد من بيان وجه العناية وليس مفيداً للتخصيص في مثل هذا لظهور أن داعي التقديم هو تعيين المراد بالاستفهام فلا يتعين أن يكون لغرض غير ذلك . فمن جعل هنا التقديم

(١) مفاتيح الغيب ج ١٢ ص ١٧٧.

مفيداً للاختصاص ، أي انحصار إنكار اتخاذ الولي في غير الله كما مال إليه بعض شرّاح الكشف فقد تكلف ما يشهد الاستعمال والذوق بخلافه ، وكلام الكشف برىء منه بل الحق أن التقديم هنا ليس إلا للاهتمام بشأن المقدم - ليلي أداة الاستفهام فيعلم أن محل الإنكار هو اتخاذ غير الله ولياً ، وأما ما زاد على ذلك فلا التفات إليه من المتكلم ، ... ثم إن كان المشركون قد سألوا من النبي ﷺ أن يتخذ أصنامهم أولياء ، كان لتقديم المفعول نكتة اهتمام ثانية ، وهي كونه جواباً لكلام هو المقصود منه كما في قوله : ﴿ قُلْ أَغْيَرِ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ (الزمر: ٦٤) وقوله : ﴿ قَالُوا يَمْيُوسَىٰ أَجْعَلْ لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ (٣٨) ﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم بِفَاعِلُونَ ﴾ (٣٩) ﴿ قَالِ أَغْيَرِ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ ﴾ (الأعراف: ١٣٨-١٤٠) ، وأشار الزمخشري في قوله : ﴿ أَغْيَرِ اللَّهُ أَبْغِي رَبًّا ﴾ (الأنعام: ١٦٤) الآتي في آخر السورة إلى أن تقديم ﴿ غَيْرِ اللَّهِ ﴾ على ﴿ أَبْغِي ﴾ لكونه جواباً عن ندائهم له إلى عبادة آلهتهم^(١).

﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأنعام: ١٥).

تقدم هنا ذكر الخوف على شرطه الذي من شأنه أن يتقدمه ، وهذا التقديم مسوغه الاهتمام به ، لأنه المقصود بالذكر .

﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بَخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الأنعام: ١٧).

تقدم هنا ذكر الضر على الخير ، وذلك راجع إلى وقت نزول السورة ، فسورة الأنعام سورة مكية نزلت آياتها مخبرة عن حال الكفار من معارضتهم وتكذيبهم للرسالة وصاحبها وما تعرض له ﷺ من الاستهزاء به والسخرية منه كما في الآية العاشرة ﴿ وَلَقَدْ أَسْتَفْزَىٰ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (الأنعام: ١٠) وكذلك الأمر له أن يخبرهم بأثر المعصية وعقوبة الشرك في الآيتين السابقتين على هذه الآية ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٣٩) مَن يُصْرِفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَجِمَهُ ۖ وَذَٰلِكَ

(١) التحرير ج ٧ ص ١٥٧ ، الكشف ج ٢ ص ٩.

الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ (الأنعام: ١٥، ١٦) ولما كان ذلك كله ضرر في الدنيا حاصل من المشركين وضرر في الآخرة لمن تنكب الصراط المستقيم ، ولما كان الله تعالى وحده هو القادر على كشف ذلك ، وكانت التخلية مقدمة على التحلية تقدم الضرر على الخير في هذه الآية .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « وفي تقديم الشر هنا على الخير ما يملأ مشاعر الإنسان خوفاً من الله وتعلقاً به واتجاراً إليه فإن الإنسان في الخير كثيراً ما يذهل عن الله ويغفل عن ذكره ، ولكنه في حالة الشدة والضرر يذكر الله . ويهتف به ويمد يده إليه كما يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حُوِّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ (الزمر: ٨) .
وكما يقول : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى نِعْمَتَنَا إِنجَابِهِمْ ﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَفُوسًا ﴾ (الإسراء: ٨٣) . فما أقل أولئك الذين يجدون في نعم الله طريقاً يصلهم إلى الله ويقربهم منه والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ (سبأ: ١٣)

أما في البلاء وأما في الشدة فإن الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم يذكرون الله ويهتمون به حتى فرعون فإنه حين أدركه الغرق قال آمنت . . وهكذا الناس تدنيهم الشدائد من الله وتقربهم منه . . وإنها لنعمة تلك الشدائد التي توجه الإنسان إلى الله لو أنه استقام على طريقه إلى الله ولم يكن من الخائنين لنفسه الذين يمكرون بآيات الله .^(١)

قال صاحب المنار : « وقد بدأ بذكر الضرر لأن كشفه مقدم على نيل مقابله كما أن صرف العذاب في الآخرة مقدم على النعيم فيها .^(٢) »
﴿ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ (الأنعام: ٣٢) .
تقدم اللعب على اللهو في الأنعام في موضعين في هذه الآية وفي قوله تعالى :

(١) التفسير القرآني ج ٧ ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٢) المنار ج ٧ ص ٣٣٥ .

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ (الأنعام: ٧٠) وكذلك في سورة محمد ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ (محمد: ٣٦) وفي سورة الحديد ﴿ أَلَمْ نَأْتِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةً وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ (الحديد: ٢٠) ،
وقدم اللهو على اللعب في الأنعام ﴿ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ (الأنعام: ٧٠) . وفي العنكبوت ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌ وَلَعِبٌ ﴾ (العنكبوت: ٦٤) .

يرى الفيروزابادي أن التقديم هنا تقديم وجودي حيث قال : « وإنما قدم اللعب في الأكثر لأن اللعب زمانه الصبا واللهو زمانه الشباب ، وزمانه الصبا مقدم على زمان الشباب يبينه ما ذكر في الحديد ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ ﴾ كلعب الصبيان ﴿ وَلَهُوٌ ﴾ كلهو الشبان ﴿ وَزِينَةٌ ﴾ كزينة النسوان ﴿ وَتَفَاخُرٌ ﴾ كتفاخر الإخوان ﴿ وَتَكَاثُرٌ ﴾ كتكاثر السلطان ، وقريب من هذا في تقديم لفظ اللعب على اللهو قوله : ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبِينَ ﴾ ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُوًا لَأَتَّخِذْنَاهُ مِنْ دُونِهَا ﴾ (الأنبياء: ١٦، ١٧) وقدم اللهو في الأعراف لأن ذلك في القيامة ، فذكر على ترتيب ما انقضى ، وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحالتين ، وأما العنكبوت فالمراد بذكرها زمان الدنيا ، وأنه سريع الانقضاء قبل البقاء ، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان أي الحياة التي لا بداية لها ، ولا نهاية لها فبدأ بذكر اللهو لأنه في زمن الشباب وهو أكثر من زمان اللعب وهو زمان الصبا» .^(١)

وكلام الفيروزابادي مقبول إلا قوله عن حياة الآخرة : « أي الحياة التي لا بداية لها كيف ؟ وهي مخلوقة ، وكل مخلوق بالعدم مسبوق ، والله تعالى وحده هو الذي لا بداية له فهو الأول والآخر والظاهر والباطن ، روى مسلم في صحيحه عن سهل قال : « كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول : اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس

(١) بصائر ذوي الأبواب ج ١ ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن ، فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر وكان يروي ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء .^(١)

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّوا وَكُمُّوا فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشِئِ اللَّهُ يَضِلَّهُ وَمَنْ يَشِئِ اللَّهُ يَهْدِهِ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (الأنعام: ٣٩). تقدم هنا الصمم على البكم بينما تأخر في قوله تعالى : ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَكُمَا وَصُمَا مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ (الإسراء: ٩٧).

فأقول : أما الآية الأولى فهي تبين حالة هؤلاء المعرضين عن الحق في الدنيا ، فإن أول ما يفعلونه هو الصدود والإعراض بعدم السماع كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (فصلت: ٢٦)، وفي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تَنَادَىٰ عَلَيْهِ إِيَّتُنَا وَلِيَ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ (لقمان: ٧)

وكما قال تعالى : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ (نوح: ٧) ويترتب على صدودهم وإعراضهم عدم الدعوة للخير أو الشاء عليه وعلى أهله ، فهم بكم عن كل خير ، أما في آية سورة الإسراء فهي تتحدث عن أحوالهم في الآخرة في أوقات مختلفة في يوم الحشر فيكونون تارة عمياً هائمين على وجوههم في الظلمات على عكس المؤمنين وذلك عند دخول الجنة حيث قال الله فيهم : ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ ثَوْرُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ (الحديد: ١٢) ، ويكونون بكماً في موطن آخر قال الله فيه : ﴿ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ (٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴾ (المرسلات: ٣٥، ٣٦)، ويكونون صماً في موطن آخر ، وهو عندما يبشر المؤمنون بمغفرة الله ورضوانه والفوز بدار كرمه وإحسانه ، وقد يكون البكم والصمم هنا عندما يوضعون في الجحيم فيطلبون من الله التخفيف ثم يطلبون الموت فيختم على أفواههم ثم على سمعهم كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَحْسَسُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٠٨)

(١) صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء رقم {٤٨٨٨}.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الأنعام: ٤٠، ٤١) وتقديم المفعول في قوله : ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ للقصر قصر إفراد للرد على المشركين في زعمهم أنهم يدعون الله ويدعون أصنامهم .

وقد رأى أبو حيان أن التقديم للاعتناء وأن الحصر فهم من سياق الكلام . وأقول : إن رأي أبي حيان لا يستقيم إلا على ربط الآية السابقة وهي قوله تعالى : ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ ﴾ وقد تقدم فيها ﴿ أَغَيْرَ اللَّهِ ﴾ على عامله وهو قوله : ﴿ تَدْعُونَ ﴾ لتكون الجملة المستفهم عنها جملة قصر ، لحكاية حالهم في دعائهم غير الله . والآيتان مستقلتان إعراباً وإن كان المعنى مترابطاً ، وحينئذ كان الأولى بأبي حيان أن يقول بقول الرازي والزمخشري مع ما ذكره من إفادة الحصر من المفهوم أيضاً كما ذكر .^(١)

﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنعام: ٥٢) قال أبو حيان : « وانظر إلى حسن اعتنائه تعالى بنبیه ، وتشريفه بخطابه ، حيث بدأ به في الجملتين معاً فقال : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ ثم قال : ﴿ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فقدم خطابه في الجملتين ، وكان مقتضى التركيب الأول لو لوحظ ، أن يكون التركيب الثاني وما عليهم من حسابك من شيء لكنه قدم خطاب الرسول وأمره تشريفاً له عليهم ، واعتناء بمخاطبته . »^(٢)

وقد ذهب إلى ذلك السمين الحلبي أيضاً قال : « وقدم خطابه ﷺ في الجملتين تشريفاً له ، ولو جاءت الجملة الثانية على نمط الأولى لكان التركيب : وما عليهم من حسابك من شيء ، فتقدم المجرور بـ {على} ، كما قدمته في الأولى ، لكنه عدل عن ذلك لما تقدم ، وفي هاتين الجملتين ما يسميه أهل البديع رد الأعجاز على الصدور كقولهم : « عادات السادات سادات العادات » ومثله في المعنى قول الشاعر :

(١) البحر المحيط ج ٤ ص ١٣٢ .

(٢) البحر المحيط ج ٤ ص ١٤١ .

وليس الذي حللته بمُحلَّل وليس الذي حرَّمته بحرام^(١)

قال صاحب التحرير : « وتقديم المسندين على المسند إليهما في قوله : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ تقديم غير واجب لأن للابتداء بالنكرة هنا مسوغاً ، وهو وقوعهما في سياق النفي ، فكان تقديم المجرورين هنا اختيارياً فلا بد له من غرض والغرض يحتمل مجرد الاهتمام ويحتمل الاختصاص ، وحيث تأتي معنى الاختصاص هنا فاعتباره أليق بأبلغ كلام ولذلك جرى عليه كلام الكشاف ، وعليه فمعنى الكلام قصر نفي حسابهم على النبي ﷺ ليفيد أن حسابهم على غيره وهو الله تعالى وذلك هو مفاد القصر الحاصل بالتقديم إذا وقع في سياق النفي ، وهو مفاد خفي على كثير لقلة وقوع القصر بواسطة التقديم في سياق النفي ومثاله المشهور قوله تعالى : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾^(٢)

قال الألوسي : « وتقديم خطابه ﷺ في الموضعين قيل للتشريف له - عليه أفضل الصلاة وأفضل السلام - وإلا كان الظاهر وما عليهم من حسابك من شيء بتقديم على ومجرورها كما في الأول ، وقيل إن تقديم عليك في الجملة الأولى للقصد إلى إيراد النفي على اختصاص حسابهم به ﷺ »^(٣)

وقد ذهب صاحب المنار إلى أن التقديم في الموضعين جاء على الأصل العام في اللغة وهو تقديم الأهم بحسب سياق الكلام ، والأهم في الأول النفي ، وفي الثاني المنفي ، أي : الهم في كل موضع ما يتعلق به ﷺ لأنه تعليل لانتفاء عمل له وهو الطرد مترتب على ذلك النفي ، ولو كان الثاني تعليلاً لعمل لهم لقال : { وما من حسابك عليهم من شيء فيطردوك }^(٤)

أقول : وفي الآية تقديم آخر وهو تقديم الغدو على العشي ، وهو تقديم لسبق الوجود سواء فسر الغدو بصلاة الصبح والعشي بصلاة العصر أو المغرب أو العشاء ، أو فسر الغدو والعشي بطرفي النهار .

(١) الدر المصون ج ٣ ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) التحرير ج ٨ ص ٢٥٠ .

(٣) روح المعاني ج ٧ ص ١٦٠ .

(٤) المنار ج ٧ ص ٤٤٢ .

﴿ قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبِدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (الأنعام: ٥٦).

تقدم جواب {إذن} وهو قوله : ﴿ قَدْ ضَلَلْتُ ﴾ وذلك للاهتمام بالجواب وهو تبيينهم أن يتبع النبي ﷺ أهواءهم .

﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ أَحْكَمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْصُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِيلِينَ ﴾ (الأنعام: ٥٧).

تقدم الظرف ﴿ عِنْدِي ﴾ فأفاد القصر لأنهم توهموا من توعد النبي ﷺ لهم بالعذاب أن ذلك في قدرته هو أو من عنده فجعلوا تأخر الوعيد إخلاف فرد عليهم أن الوعيد بيد الله وحده مقصوراً عليه ، ولذا تقدم الظرف .

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَاسِرٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (الأنعام: ٥٩) . تقدم الظرف ﴿ عِنْدَهُ ﴾ لإفادة الاختصاص أي عنده لا عند غيره ، أيضاً في هذه الآية تقدم العلم بما في البر على العلم بما في البحر ، وإن كان البحر أعظم وأوسع لأن الناس إنما يعيشون في البر وليس البحر ، أو لأن مخلوقات البر أكثر وعجائبه أعظم ، أو لأن ظهور معجزات البر أقرب ظهوراً من معجزات البحر ومن هذا الباب جاء قوله تعالى في نفس السورة ﴿ قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (الأنعام: ٦٣).

قال الخازن : « تقدم ذكر البر والبحر لما فيهما من العجائب والغرائب من المدن والقرى والمفاوز والجبال وكثرة ما فيها من المعادن والحيوان ، وأصناف الخلق مما يعجز الوصف عن إدراكها ، ثم ذكر بعد ذلك ما هو أقل من ذلك وهو مشاهد لكل أحد لأن الورقة الساقطة والثابتة يراها كل أحد لكن لا يعلم عددها وكيفية خلقها إلا الله تعالى ثم ذكر بعد ذلك ما هو أصغر من الورقة وهي الحبة ثم ذكر بعد ذلك مثلاً يجمع الكل وهو الرطب واليابس » .^(١)

(١) الخازن ج ٢ ص ٣٨٨ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (٦٠) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿ (الأنعام: ٦٠، ٦١)، تقدم الجار والمجرور ﴿ إِلَيْهِ ﴾ على متعلقه المبتدأ المؤخر ﴿ مَرْجِعُكُمْ ﴾ للحصر والاختصاص ، وكذا تقدم المفعول به ﴿ أَحَدُكُمْ ﴾ على فاعله ﴿ الْمَوْتُ ﴾ للتخويف لتستعد النفس لهذا الموت الذي سوف يأتيها ولا محيد لها عنه .

قال السمين الحلبي : « وقدم التوفي بالليل ، لأنه أبلغ في المنّة عليهم ، ولا سيما عند من يخصُّ الجرح بكسب الشر دون الخير » .^(١)

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ (الأنعام: ٧٠) . قال صاحب درة التزليل : ، وقال في سورة الأعراف : ﴿ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴿ (الأعراف: ٥٠، ٥١)

وقال في سورة العنكبوت : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ ﴾ (العنكبوت: ٦٤) . فقدم اللعب على اللهو كما قدمه في سورة الأنعام .

للسائل أن يسأل فيقول : إذا كانت الواو للجمع بين الشيئين والأشياء بلا ترتيب ، فهل لتقديم أحد الاسمين على الآخر في موضع دون موضع ، وتقديم الآخر عليه في غير ذلك الموضع فائدة تختصه أم كان جائز في كل مكان تقديم أيهما شاء المتكلم لا لغرض يختصه ؟

الجواب ، أن يقال : أما الآية الأولى التي في السورة فإنها في قوم من الكفار كانوا إذا سمعوا آيات الله هزلوا عندها واستهزؤا بها ، فهذا اتخاذهم دين الله لعباً ولهواً ، وهو كما قال في آية أخرى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَفْعَلُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ تَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِمْ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ ﴾ (النساء: ١٤٠) فقوله عز وجل ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا

(١) الدر المصون ج ٣ ص ٨١ .

وَلَهُوَ ﴿ كَقَوْلِهِ : ﴿ فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ ﴾ فَهَؤُلَاءِ قَوْمٌ حَضَرُوا النَّبِيَّ ﷺ وَاسْمَعُوا الْقُرْآنَ وَعَبَثُوا عِنْدَ سَمَاعِهِ وَتَلَاعَبُوا بِآيَاتِهِ وَأَجْرُهَا مَجْرَى أَفْعَالٍ يَسْتَرْوِحُ إِلَيْهَا وَلَا نَفْعَ فِي عَقْبَاهَا ، ثُمَّ شَغَلُوا بِدُنْيَاهُمْ عَنْ تَدَبُّرِهَا وَأَلْهَتَهُمْ بِحَلَاوَتِهَا عَنِ الْفِكْرِ فِي صَحَّتِهَا ، فَأُولَ الْأَفْعَالِ لَهَا لَعِبٌ وَثَانِيهَا لَهْوٌ ، وَاللَّعِبُ فِعْلٌ فِي طَاعَةِ الْجَهْلِ تَتَعَجَّلُ مِنْهُ مَسْرَةٌ ، وَاللهْوُ قَالَ فِيهِ صَاحِبُ الْعَيْنِ { مَا شَغَلَ الْإِنْسَانَ مِنْ هَوًى وَطَرَبٍ } فَهَؤُلَاءِ لَمَّا فَعَلُوا عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ مِنَ الْاسْتِهْزَاءِ وَالْعِبْثِ أَطْلَقَ عَلَى فِعْلِهِمْ اسْمَ اللَّعِبِ ، ثُمَّ لَمَّا شَغَلُوا عَنْهَا بِاسْتِحْلَاءِ الدُّنْيَا كَانَ هَذَا لَهَوًا مِنْهُمْ بَعْدَ اللَّعِبِ ، وَكَانَ أَوَّلَ دِينِهِمْ لَعِبًا وَمَا بَعْدَهُ لَهَوًا ، فَلِذَلِكَ قَدِمَ لَعِبٌ عَلَى لَهْوٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ : ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لَهَوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴿ (الأعراف: ٥٠، ٥١) .

وَتَقْدِيمُ اللَّهْوِ عَلَى اللَّعِبِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَلِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْكَافِرِينَ هُنَا عَامَةُ الْكُفَّارِ غَيْرِ مُخْتَصٍ لِمَنْ سَمِعَ الْآيَاتِ ، فَقَدِمَ فِعْلُ أَكْثَرِهِمْ عَلَى فِعْلِ أَقَلِّهِمْ وَهُمْ الَّذِينَ شَغَلَتْهُمْ الدُّنْيَا وَحَلَاوَتُهَا وَالْوَلَادَةُ وَعَادَتُهَا وَاسْتِحْلَاءُ مَا مَرَّتْ عَلَيْهِ طِبَاعُهَا وَهَذَا هُوَ اللَّهْوُ ، ثُمَّ كَانَتْ أَفْعَالُهُمُ الَّتِي اقْتَدَوْا فِيهَا بِآبَائِهِمْ لَمَّا طَابَتْ لَهُمْ وَلَمْ يَجِدُوا فِي الْعَاقِبَةِ نَفْعًا عَلَيْهِمْ كَاللَّعِبِ الَّذِي يَنْطَوِي عَلَى أَفْعَالٍ تَبْطُلُ فِي الْأَجْلِ وَإِنْ سَرَتْ فِي الْعَاجِلِ وَهَذَا بَعْدَ الْأَوَّلِ ، وَأَكْثَرُ الْكُفَّارِ دَاوَهُمُ اللَّهْوُ وَإِنْ شَغَلَهُمُ الْحَالُ الَّتِي اسْتَصْحَبُوهَا عَنِ الْفِكْرِ فِيمَا يَطْرَأُ عَلَيْهَا ، فَوَجِبَ هُنَا تَقْدِيمُ ذِكْرِ اللَّهْوِ لَوَجْهِينِ لِتَقْدِيمِهِ عَلَى مَا هُوَ كَاللَّعِبِ ، وَلِأَنَّهُ فِعْلُ أَكْثَرِهِمْ ، وَاللَّعِبُ الَّذِي أُرِيدَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى فِعْلُ أَقَلِّهِمْ ، وَهُوَ هُنَاكَ أَوَّلُ وَهُوَ مَا رَدَّ بِهِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ (الحديد: ٢٠) . وَتَقْدِيمُ اللَّعِبِ فِيهِ عَلَى اللَّهْوِ فَلِأَنَّ مَعْنَاهُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لِمَنْ اشْتَغَلَ بِهَا وَلَمْ يَتَعَبَ لغيرِهَا مِنْ أَعْمَالِ الْآخِرَةِ مَقْسُومَةٌ مِنَ الصَّبَا وَهُوَ وَقْتُ اللَّعِبِ ، وَبَعْدَهُ اللَّهْوُ وَهُوَ التَّرْوِيحُ عَنِ النَّفْسِ بِمَلَاعِبَةِ النِّسَاءِ وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ أَخْذَ الزَّيْنَةِ لِهِنَّ وَلِغَيْرِهِنَّ ، وَمِنْ أَجْلِ الزَّيْنَةِ نَشَأَتْ مَبَاهَاةُ الْأَكْفَاءِ وَمُفَاخَرَةُ

الأشكال والنظراء ، ثم بعده المكاثرة بالأموال والأولاد ، فترتبت الحياة على هذه الأحوال ، فوجب تقديم حال اللعب على حال اللهو^(١) . ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ اتَّخِذْ أُصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ (الأنعام: ٧٤) . تقدم قوله : ﴿ أُصْنَامًا ﴾ على قوله : ﴿ ءَالِهَةً ﴾ لأنها المقصودة بالإنكار والاستغراب .

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۝ (٦٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۝ (٦٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفُورُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۝ (الأنعام: ٧٦-٧٨) . تقدم الجار والمجرور ﴿ عَلَيْهِ ﴾ على متعلقه ﴿ أَلَيْلُ ﴾ للاهتمام به لأنه هو المقصود ببيان حاله وليس الليل ، ثم إن الترتيب المذكور في نظر إبراهيم - عليه السلام - في ملكوت السموات إنما هو ترتيب وجودي حيث نظر أولاً في الكوكب ثم في القمر ثم في الشمس وعن سر هذا الترتيب قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « وسؤال آخر : لماذا كان أول ما نظر إليه إبراهيم من ملكوت الله هو الكوكب أي النجم ثم القمر ثم الشمس ؟ ولم لم يتجه نظره أولاً إلى الشمس إذ كانت أعظم ما يوجه الإنسان في هذه المخلوقات؟

والجواب . . أن وحشة الليل ، ورهبة ظلامه تجعل لأي لمعة من لمعات الأنوار وقعاً على النفس وتأثيراً على المشاعر ، وليست كذلك النظرة إلى الشمس التي تكاد سطوة أضوائها تذهب بكل إحساس وجودها .

وهنا ما نراه في نظر إبراهيم إلى هذا الكوكب أولاً ثم إلى القمر ثانياً ذلك أن هذا الكوكب وهو نجم من تلك النجوم التي يتلأأ ضوءها كلما اشتد ظلام الليل وأطبقت حلكته ، هو في تلك الحال أفعل في النفس وأكثر إلفاتاً للنظر من القمر الذي يغمر نوره ما احتواه الليل كله ، وإذ لم ير إبراهيم في ملكوت الله وما يبرز فيه من نجم أو قمر إذ لم ير في هذا الملكوت إلهه الذي ينشده شخص يبصره إلى

(١) درة التنزيل ص ٦٥ ، ٦٦ .

ملكوت النهار فرأى الشمس تبسط سلطانها فعلق بها نظره واحتواها عقله وقلبه وقال : ﴿ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ ﴾ . (١)

﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٨٢) تقدم الجار والمجرور ﴿ لَهُمْ ﴾ على متعلقه ﴿ الْأَمْنُ ﴾ لإفادة اختصاصه بغير العصاة .
﴿ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَخِيذُ وَلِيًّا ﴾ (الأنعام: ١٤) .

في هذا الاستفهام الإنكاري تقدم المفعول ﴿ غَيَّرَ ﴾ فليس الإنكار موجهاً إلى اتخاذ الولي أو إلى الدعاء ، وإنما هو موجه إلى أن يكون غير الله بمثابة أن يتخذ ولياً ، أو يدعى فإن ذلك لا يرضى به عاقل ولو قدّم الفعل في ذلك لتوجه الإنكار إليه ، وكان المعنى نفي حصوله ، ، ولم يفد في المفعول ذلك المعنى الذي أفاده تقديم المفعول .

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا كُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام: ٨٤-٨٦) .
وفي هاتين الآيتين لم يراع الترتيب الزمني ولا الترتيب بحسب الفضل وعلو الدرجة فما هو السر في هذا الترتيب ؟ يجيب عن ذلك الفخر الرازي بتوجيه حسن لسر الترتيب في هاتين الآيتين فيقول :

فإن قيل : رعاية الترتيب واجبة ، والترتيب إما أن يعتبر بحسب الفضل والدرجة ، وإما أن يعتبر بحسب الزمان والمدة ، والترتيب بحسب هذين النوعين غير معتبر في هذه الآية فما السبب فيه ؟

قلنا : الحق أن حرف الواو لا يوجب الترتيب ، وأحد الدلائل على صحة هذا المطلوب هذه الآية ، فإن حرف الواو حاصل هنا مع أنه لا يفيد الترتيب البتة ، لا بحسب الشرف ولا بحسب الزمان وأقول عندي فيه وجه من وجوه الترتيب ، وذلك لأنه تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء بنوع من الإكرام والفضل .

(١) التفسير القرآني ج ٧ ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

فمن المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق : الملك والسلطان والقدرة ، والله تعالى قد أعطى داود وسليمان من هذا الباب نصيباً عظيماً .

والمرتبة الثانية البلاء الشديد والمحنة العظيمة ، وقد خص الله أيوب بهذه المرتبة والخاصية .

والمرتبة الثالثة من كان مستجمعاً لهاتين الحالتين ، وهو يوسف - عليه السلام - فإنه نال البلاء الشديد الكثير في أول الأمر ، ثم وصل إلى الملك في آخر الأمر .

المرتبة الرابعة من فضائل الأنبياء - عليهم السلام - وخواصهم قوة المعجزات وكثرة البراهين والمهابة العظيمة والصولة الشديدة وتخصيص الله تعالى إياهم بالتقريب العظيم والتكريم التام ، وذلك كان في حق موسى وهارون .

المرتبة الخامسة الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا ، ترك مخالطة الخلق ، وذلك كما في حق زكريا ويحيى وعيسى وإلياس ، ولهذا السبب وصفهم الله بأنه من الصالحين .

والمرتبة السادسة الأنبياء الذين لهم فيما بين الخلق أتباع وأشياع ، وهم إسماعيل واليسع ، ويونس ، ولوط ، فإذا اعتبرنا هذا الوجه الذي راعيناه ظهر أن الترتيب حاصل في ذكر هؤلاء الأنبياء - عليهم السلام - بحسب هذا الوجه الذي شرحناه»^(١).

قال البقاعي : « ولما كانا مع ذلك ملكين - يقصد داود وسليمان - تلاهما بمن شابههما في الملك أو الحكم علة الملوك فقال : ﴿ وَأَيُّوبَ ﴾ وقدمه لمناسبة ما بينه وبين سليمان في أن كلا منهما ابتلي بأخذ كل ما في يده ثم رده الله إليه ﴿ وَيُوسُفَ ﴾ ، وكل من هؤلاء الأربعة ابتلي فصبر واغتنى فشكر . . ولما كان يوسف - عليه السلام - ممن أعلى الله كلمته على كلمة ملك مصر وأعز ملكها وأهلها وأحياهم به أتبعه من أعلى الله كلمتهما على كلمة ملك مصر وأهلها وأهلكهم بهما ، فكان بعض قصصهم وفاق وبعضها تقابل وطباق فقال : ﴿ وَمُوسَى وَهَارُونَ ﴾ . . ولما كان المذكوران قبله ممن سلطهما على الملوك ، أتبعهما من

(١) مفاتيح الغيب ج ٣ ص ٦٨ ، ٦٩ .

سلط الملوك عليهما بالقتل فقال : ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى ﴾ ثم أتبعهما من سلط الملوك عليهما بالقتل وأدام الله سبحانه حياتهما إلى أن يريد سبحانه فقال : ﴿ وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ ﴾ ولما كان هؤلاء الأربعة من الصابرين قال مادحاً لهم على وجه يعم من قبلهم ﴿ كُلُّ ﴾ أي من المذكورين ﴿ مِنْ الصَّالِحِينَ ﴾ ثم أتبعهم من لم يكن بينهما وبين الملوك أمر وهدى بهما من كان بين ظهرائيه فقال : ﴿ وَاسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ ﴾ . . . ولما كان إسماعيل واليسع ممن هدى الله قومهما من غير عذاب أتبعهما من هدى الله قومه بالعذاب وأنجاهم بعد إتيان مخايله فقال ﴿ وَيُونُسَ ﴾ أي هديناه ولما انقضت ذرية إبراهيم - عليه السلام - ، ختم بابن أخيه الذي ضل قومه فهلكوا بغتة فبين قصة هذين الآخرين طباق من جهة الهلاك والنجاة ، ووافق من حيث إن كلا منهما أرسل إلى غير قومه فقال : ﴿ وَلُوطًا ﴾ .^(١)

وقد ذهب الخازن إلى نحو ما ذهب إليه الرازي قال : « واعلم أن الله تعالى ذكر هنا ثمانية عشر نبياً من الأنبياء - عليهم السلام - من غير ترتيب لا بحسب الزمان ولا بحسب الفضل ، لأن الواو لا تقتضي الترتيب ، ولكن هنا لطيفة أوجبت هذا الترتيب ، وهي أن الله تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء - عليهم السلام - بنوع من الكرامة والفضل ، فذكر أولاً نوحاً وإبراهيم وإسحق ويعقوب لأنهم أصول الأنبياء وإليهم ترجع أنسابهم جميعاً ثم إن المراتب المعتبرة بعد النبوة الملك والقدرة والسلطان قد أعطى الله داود وسليمان من ذلك حظاً وافراً من المراتب : الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد وقد خص الله بهذه أيوب - عليه السلام - ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينهما وهو يوسف - عليه السلام - فإنه صبر على البلاء والشدة إلى أن أعطاه الله ملك مصر مع النبوة ثم من المراتب المعتبرة في تفضيل الأنبياء عليهم السلام كثرة المعجزات وقوة البراهين ، وقد خص الله موسى وهارون من ذلك بالحظ الوافر ثم من المراتب المعتبرة الزهد في الدنيا والإعراض عنها ، وقد خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس - عليهم السلام - ولهذا السبب وصفهم بأنهم من الصالحين ثم ذكر الله من بعد هؤلاء

(١) نظم الدرر ج ٢ ص ٦٦٧ ، ٦٦٨ .

الأنبياء من لم يبق له أتباع ولا شريعة وهو إسماعيل واليسع ويونس ولوط ، فإذا اعتبرنا هذه اللطيفة على هذا الوجه كان هذا الترتيب من أحسن شئ يذكر ، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه» .^(١)

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « وأمر هنا نحب أن نقف عنده ونلتفت إليه وهو أن الترتيب الزمني لم يكن هو الأساس الذي قام عليه النظم القرآني في ذكر هؤلاء الأنبياء ، من ذرية نوح وإبراهيم والملحظ الذي نود أن نشير إليه ، هو أن إسماعيل لم يذكر مع إسحاق ، مع أنهما ولدا إبراهيم ، لم يكن له ولد غيرهما ومنهما كانت جميع ذريته وإسماعيل هو البكر وولد له بعده إسحاق . هذه حقيقة لا خلاف عليها عند أهل الكتاب من يهود ونصارى ، كما أنها حقيقة مقررة في القرآن الكريم فلم لم يجئ النظم القرآني هكذا [ووهبنا له إسماعيل وإسحاق ويعقوب] ؟ ولا جواب لهذا إلا أنه كلام رب العالمين وأنه لو كان من عمل بشر لما جاء هكذا في النظم القرآني بل لالتزم فيه واضعه الترتيب الزمني . أما {محمد} فلو أن هذا الكلام كان وضعه ، لكان أول ما يعمل به هو أن يبدأ بإسماعيل لأنه أبوه أولاً ولأنه أسبق من إسحاق ثانياً أليس في هذا عبرة لمعتبر ؟ أليس في هذا إخراس لكل مقولة تقال في القرآن الكريم ، إنه من قول بشر؟ ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده» .^(٢) وقد تقدم في الآية المفعول به ﴿ هَدَيْنَا ﴾ على فاعله ﴿ هَدَيْنَا ﴾ وقد أفاد هذا التقديم القصر لا بالنسبة إلى غيرهما بل بالنسبة إلى أحدهما أي كل واحد منهما ﴿ هَدَيْنَا ﴾ لا أحدهما دون الآخر .

وقد ادعى صاحب المنار سبق إلى معنى لم يسبق إليه عن سر الترتيب في هذه الآية عندما ذهب إلى أن الترتيب إما على أساس فضيلة دنيوية أو أخروية . وأقول : وأنى له ادعاء سبق ؟ وقد سبقه إلى ذلك من ذكرنا آنفاً الخازن والرازي^(٣)

(١) الخازن ج ٢ ص ٤٠٧ ، ٤٠٨ .

(٢) التفسير القرآني ج ٧ ص ٢٣٠ .

(٣) المنار ج ٧ ص ٥٨٧ ، ٥٨٨ .

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُكُمْ مَا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٤).

قال صاحب التحرير : « وتقديم المجرور في قوله : ﴿ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ﴾ للاهتمام الذي وجهه التعجب من هذا المزعم إذ جعلوا الأصنام شركاء لله في أنفسهم ، وقد علموا أن الخالق هو الله تعالى فهو المستحق للعبادة وحده فمن أين كانت شركة الأصنام لله في استحقاق العبادة ، يعني لو ادعوا للأصنام شيئاً مغيباً لا يعرف أصل تكوينه لكان العجب أقل ، لكن العجب كل العجب من ادعائهم لهم الشركة في أنفسهم ، لأنهم لما عبدوا الأصنام وكانت العبادة حقاً لأجل الخالقية ، كان لزمهم من العبادة أن يزعموا أن الأصنام شركاء لله في أنفس خلقه ، أي في خلقهم » .^(١)

أقول : وهنا تقدم أيضاً الجار والمجرور ﴿ مَعَكُمْ ﴾ على قوله : ﴿ شُفَعَاءَكُم ﴾ لأن المقصود هنا تبكيته وتوبيخهم بعدم نفع الشفعاء لهم ولإعظام الحسرة في قلوبهم حيث لا ناصر ولا شفيع ، وتقدم الجار والمجرور في الآية التالية في عدة مواضع ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ ﴾ (الأنعام: ٩٩) أيضاً لإظهار الالتفات إلى عجب القدرة بالنظر إلى الشيء المخلوق منه .

﴿ فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ (الأنعام: ٩٦، ٩٧)

ذكر أولاً خلق الليل ثم ذكر في الآية التالية جعل النجوم للاهتمام لمناسبة الترتيب الوجودي والتذكير بمنة خلق النجوم وبيان رحمة الله بعباده والتي منها خلق النجوم التي يحتاج إليها علم الجغرافية الفلكية بكل تخصصاته . وقد أشار إلى ذلك المراغي في معرض تفسيره لسورة البقرة .^(٢)

(١) التحرير والتوير ج ٧ ص ٣٨٤ .

(٢) المراغي ج ٢ ص ٣٥ .

أقول : وقد تقدم ظلمات البر على ظلمات البحر لأن السير في البر أكثر من السير في البحر فكانت حاجة المسافرين إلى الاهتداء بالنجرام أكثر منها في البر .
﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نَخْرُجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ أَنْظِرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٩) هذه الآية تقدمت في الذكر على الآية الواحدة والأربعين بعد المائة ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرَهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤١) .

وأقول : إن السر في تقديم الآية الأولى أنها سيقت للاستدلال بها على الصانع الحكيم لإثبات قضية الربوبية ، والآية الثانية سيقت لبيان الإذن في الانتفاع بها فتقدم الاستدلال بالسعادة الروحية الناشئة من النظر على السعادة الجسمية المترتبة على الانتفاع بهذه المطعومات .

قال الخازن : « في هذه الآية السابقة : واعلم أن الله تعالى ذكر في هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع ، وإنما قدم الزرع على سائر الأشجار لأن الزرع غذاء وثمار الأشجار فواكه والغذاء مقدم على الفواكه ، وإنما قدم النخلة على غيرها أن ثمرتها تجري مجرى الغذاء ، وفيها من المنافع والخواص ما ليس في غيرها من الأشجار وإنما ذكر العنب عقب النخلة ، لأنها من أشرف أنواع الفواكه ثم ذكر عقبه الزيتون لما فيه من البركة والمنافع الكثيرة في الكل وسائر وجوه الاستعمال ثم ذكر عقيبه الرمان لما فيه من المنافع أيضاً لأنه فاكهة ودواء. »^(١)

أقول : وقد أثبتت الدراسات الحديثة ما في ثمرات النخيل من فوائد عظام وألفت فيه المؤلفات التي كشفت عن أهمية هذه الثمرة العظيمة وما فيها من منافع غذائية وعلاجية من هذه الكتب [كتاب الأسودان التمر والماء بين القرآن والسنة

(١) الخازن ج ٢ ص ٤١٩ ، ٤٢٠ .

والطب الحديث] تأليف الدكتور حسان شمسي باشا تحدث فيه عن التمر عبر التاريخ وأطوار ثمرة النخيل ، تركيب التمور ، الرطب والولادة ، نظرات في آيات الرطب.^(١)

وقال صاحب المنار « وعطف عليه - يقصد الحب المتراكب - ما يخرجته تعالى من طلع النخل ، من القنوان المشابه لسنابل القمح ، في نضد ثمره وتركبها ، ومنافعها وغرائبها ، فإن في كل منهما أفضل غذاء للناس ، وعلف للدواب والأنعام ، وذكر بعده جنات الأعناب لأنها أشبه بالنخيل في هذه الأبواب ، فالعناقيد تشبه العناقيد في تكوينها ، وتراكب حبها وألوان ثمرها كما تشبهها في درجات تطورها ، فالحصرم كالبسرة والعنب كالرطب والزبيب كالتمر ويخرج من كل منهما عسل وخل وخمر ، ثم ذكر الزيتون والرمان معطوفاً على نبات كل شيء أو منصوباً على الاختصاص لا على قبله من النخيل والأعناب ، لأن ما بينهما من التشابه في الصورة ، محصور في الورق دون الثمرة ، وأما مكانهما من المنفعة والفائدة ، فالأول في الدرجة الثالثة والآخر في الدرجة الرابعة ، ذلك بأن الزيتون وزيته غذاء فقط ولكنه تابع للطعام غير مستقل بالتغذية ، والرمان فاكهة وشراب فقط ولكنهما دون فواكه النخيل والأعناب وأشربتهما في المرتبة ، فناسب جعله بعدهما والإشارة باختلاف الإعراب إلى رتبة كل منهما ، وبناء على اختلاف المراتب قدم نبات الحب على الجميع لأنه الغذاء الأعظم الأعم لأكثر الناس وأكثر أنواع الحيوان الأهلية التي تقوم أكثر مرافقهم ومنافعهم بها فسيحان من هذا كلامه».^(٢)

وأقول : ما أجمل هذه اللفتة التي تنم عن ذوق راق رائع لهذا العلامة الذي فتح لنا باباً جديداً في أسلوب التقديم والتأخير يعتمد على التمعن في الصور الجمالية التي تحلل هذا التركيب ، وكأننا أمام لوحة طبيعية يقوم فنان عظيم بتحليل عناصرها والله المثل الأعلى ولكلامه المقام الأسنى والأعلى الذي لا يقايسه كلام ولا يدانيه تصور أو يرقى إليه مرام .

(١) الأسودان التمر والماء بين القرآن والسنة والطب الحديث ينظر الفصل الأول.

(٢) المنار ج ٧ ص ٦٤٤ ، ٦٤٥ .

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ (الأنعام: ١٠٠)

على إعراب ﴿ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ مفعولي جعل قلنا بالتقديم كما ذكره الزمخشري وفائدة التقديم كما قال : « استعظام أن يتخذ الله شريك من كان ملكاً أو جنياً أو إنسياً أو غير ذلك ولذلك قدم اسم الله على الشركاء » .^(١)

وهذه الآية التي استدل بها ابن أبي الأصبع على قوله : « ولقد ينتقل بالتقديم والتأخير المعنى إلى ضده ومن أغفل مراعاة ذلك أغفل أصلاً عظيماً من علم البيان وجهل جملاً من آي القرآن »^(٢)

﴿ ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ (الأنعام: ١٠٢).

قال صاحب درة التنزيل : وقال في سورة المؤمن : ﴿ ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ (غافر: ٦٢).

لماذا قدم في سورة الأنعام لا إله إلا هو على خالق كل شيء ؟ وقدم في سورة المؤمن خالق كل شيء على قوله لا إله إلا هو ؟

والجواب أن يقال : لأن ما في هذه السورة جاء بعد قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُمُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (الأنعام: ١٠٠) فلما قال : ﴿ ذَالِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ ، أتى بعده بما يدفع قول من جعل له شريكاً فقال : لا إله إلا هو ، ثم قال خالق كل شيء ، وفي سورة المؤمن جاء هذا بعد قوله لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فكان الكلام على تثبيت خلق الإنسان لا على نفي الشريك عنه كما كان في الآية الأولى ، فكان تقديم خالق كل شيء هاهنا أولى وإلى مثل هذا القول ذهب الفيروزبادي ولعله استفاده من الإسكافي^(٣) .

قال الشعراوي : « انظر التقديم بكلمة رب قبل ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ كلمة {رب} هذه هي حيثية ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ لأن إلهاً تعني معبوداً ومعبوداً يعني مطاعاً ومطاعاً يعني له أوامر ونواه ولماذا ولأي سبب؟ السبب أنه الرب المتولي الإيجاد

(١) الكشف ج ٢ ص ٥٠.

(٢) تحرير التحرير ص ٢٢٩.

(٣) درة التنزيل ص ٦٧ ، بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ١٩٧.

والتربية ، ومن الواجب والمعقول أن نسمع كلامه لأنه هو الرب والخالق وهو الذي يرزق»^(١)

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ (الأنعام: ١٠٤)، وقد أحسن صاحب التحرير في التفاتته عن سبب التقديم في هذه الآية ، إذ يقول : « وإنما نسج نظم الآية على هذا النسج لإيذان بأن ﴿ لِنَفْسِهِ ﴾ مقدم في التقدير على متعلقه المحذوف ، والتقدير : فلنفسه أبصر ، ولولا قصد الإيذان بهذا التقديم لقال : فمن أبصر أبصر لنفسه كما قال : ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أُحْسِنْتُمْ ۖ لَأُنْفِسِكُمْ ﴾ (الإسراء: ٧) والمقام يقتضي تقديم المعمول هنا ليفيد القصر ، أي فلنفسه أبصر لا لفائدة غيره»^(٢).

﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴾ (الأنعام: ١٠٧)

أقول : وقد تقدم الجار والمجرور ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على الخبر ﴿ بِوَكِيلٍ ﴾ ، وهذا التقديم هنا للاهتمام والاعتناء بنفي الوكالة عنهم خاصة سواء أكانت الوكالة هنا بمعنى وكالته بهدايتهم أو بمعنى الوكالة بحفظهم ، إذ كل ذلك من خصائص الله عز وجل دون من سواه .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (الأنعام: ١١٢) تقدم شياطين الإنس على شياطين الجن هنا مع أن شياطين الجن أسبق في العداوة زماناً حيث ابتدأت من زمن خلق آدم وعدم سجود إبليس له ، والتقديم هنا راجع في نظري إلى أمرين :

الأول : أن يكون تقديم شياطين الإنس هنا لأنهم الأظهر في العداوة ، أو أنهم الأعظم خطراً والأشد أثراً ، وقد ذكر الرازي حديثاً بغير أن يسنده ، فلو صح هذا الحديث لكان قاطعاً في أن التقديم للثاني لا للأول وهو ما روي عن النبي ﷺ أنه قال لأبي ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الجن والإنس ؟ قال قلت : وهل للإنس من شياطين ؟ قال : { نعم هم شر من شياطين الجن }^(٣) وقد ذكر الخازن أن

(١) الشعراوي ج ٦ ص ٣٨٣٨.

(٢) التحرير ج ٧ ص ٤٢٠.

(٣) مفاتيح الغيب ج ١٣ ص ١٦١ ، ١٦٢ .

الطبري قد أسنده وإلى ما ذهبت إليه من سر التقديم ذهب إليه الخازن حيث قال : « قالوا : وشياطين الإنس أشد تمرداً من شياطين الجن لأن شيطان الجن إذا عجز عن إغواء المؤمن الصالح وأعياء ذلك استعان على إغوائه بشيطان الإنس ليفتنه ، ويدل على صحة هذا القول ما روي عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ { هل تعوذت بالله من شيطان الجن والإنس قلت يا رسول الله وهل للإنس من شيطان ؟ قال نعم هم شر من شياطين الجن } ذكره البغوي بغير سند وأسنده الطبري . وقال مالك ابن دينار : إن شيطان الإنس أشد عليّ من شيطان الجن وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن وشيطان الإنس يجيئني فيجبرني إلى المعاصي » .^(١)

وقد عكس هذا التقديم في الآية الثلاثين بعد المائة في قوله تعالى : ﴿ يَمْعَشَرِ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُذَرِّوْنَكُمُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾ (الأنعام: ١٣٠)

وهذا التقديم للجن راجع إلى أن الحديث كان معهم وليس مع الإنس لأن استمتاع الإنس بالجن إنما كان بسبب الجن الذين تقدموا في الخطاب وكان الاستمتاع والاستكثار منهم أولاً كما ورد في الآية الثامنة والعشرين بعد المائة في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشَرِ الْجِنُّ قَدْ أَتَتْكُمْ مِّنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا الَّذِي أَجَلْتَنَا ﴾ (الأنعام: ١٢٨) وسوف ألقى عليه مزيداً من الضوء في سورة الناس .

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكْمًا ﴾ (الأنعام: ١١٤) وتقديم ﴿ أَفَغَيْرَ ﴾ على ﴿ أَبْتَغِي ﴾ لأن المفعول هو محل الإنكار فهو أحق بموالة همزة الاستفهام الإنكاري ، فالتقديم لكونه مصب الإنكار فكان أولى بالتقديم وأهم .

﴿ وَذَرَوْا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٠) لماذا قدم ظاهر الإثم على باطنه ؟ السر في التقديم هنا يترتب على معنى ظاهر الإثم وباطنه وما المقصود بهما ؟ فإذا كان المقصود بالظاهر هو ما أعلن به والباطن ما أسر به فيكون التقديم هنا للاهتمام ، لأن

(١) الخازن ج ٢ ص ٤٣١ .

الإعلان بالمحرمات أعظم ذنباً وأقبح فعلاً قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النور: ١٩) ، روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ { كل أمي معافى إلا المجاهرين وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملاً ثم يصبح قد ستره الله فيقول يا فلان قد عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه فيبيت يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه } ^(١) ، وقد يكون ظاهر الإثم هو المحرمات ، وباطنه هو الدافع إلى ارتكابها من عمل الباطن فيما يتصل بالقلب والفكر من إرادة هم وعزم فيكون التقديم من باب الترقى من الأعلى إلى الأدنى للتأكيد على الترك كما تقول : لا تضرب فلاناً ولا تقترب منه بأذى . أما إذا فسر الظاهر بالمحرمات الظاهرة من أفعال الجوارح ، والباطن بالمحرمات الباطنة من أعمال القلب والعقل من اعتقاد وظن ونظر وتمني وحقد ورياء وحسد . . فتقديم الظاهر هنا من باب تقديم الأعراف فالأعراف إذ لا يخفى على أحد المحرمات الظاهرة ، بينما يخفى على الكثيرين المحرمات الباطنة .

﴿ هُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام: ١٢٧) .
تقدم الجار والمجرور ﴿ هُمْ ﴾ على متعلقه المبتدأ المؤخر ﴿ دَارُ السَّلَامِ ﴾ لإفادة الاختصاص بأنها لهم وحدهم لا يشاركها فيها غيرهم ، فالجنة حرام دخولها على المشركين كما في الآية الثانية والسيعة من سورة المائدة ﴿ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَغَيَّبُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ (المائدة: ٧٢) .

قال الشعراوي : « وهو أسلوب مكون - كما يقال من مبتدأ وخبر - إلا أن المبتدأ آخر هنا والخبر تقدم وكان المنطق أن يقال : { دار السلام هؤلاء } ولكن الأسلوب القرآني جاء ليقدم الخبر المكون من الجار والمجرور ومتعلقه ويؤخر المبتدأ وذلك لخصوصية أَرَادَهَا الْحَقُّ ، وهي أن هذه الدار لهم وحدهم دون غيرهم فهي خالصة لهم يوم القيامة » . ^(٢)

(١) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق رقم ٥٣٠٦ .

(٢) تفسير الشعراوي ج ٧ ص ٣٩٣٧ .

﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْذَوْهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

(الأنعام: ١٣٧)

﴿ شُرَكَاؤُهُمْ ﴾ فاعل ﴿ زَيَّنَ ﴾ أخر عن المفعول به اعتناء بالمقدم واهتماماً به ، لأنه موضع التعجب ، فالتعجب هنا ليس في أمر الشركاء بقتل الأبناء ، ولكن التعجب كيف استجاب الآباء لأمر الشركاء فقتلوا أبناءهم بما ليس عليهم من هذا الدين الباطل مع أن غريزة الأبوة وعاطفة الوالدية تدفع الآباء إلى افتداء الأبناء بكل ما يملكون ولو كان بذواتهم فيستعذبون موت أنفسهم في سبيل حياة أبنائهم فهذا هو موطن التعجب ولهذا تقدم في الذكر .

﴿ وَمِنَ الْآتَعِمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (الأنعام: ١٤٢).

تقدم الجار والمجرور ﴿ وَمِنَ الْآتَعِمِ ﴾ على المفعول الذي هو أولى بالتقديم لقصد الاهتمام بأمر الأنعام لأنها المقصود الأصلي من سياق الكلام ، وهو إبطال تحريم بعضها وإبطال جعل نصيب منها للأصنام .

﴿ ثَمَنِيَّةٌ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ ﴾ (الأنعام: ١٤٣).

قال أبو حيان : « قدم الضأن على المعز لغلاء ثمنه ، وطيب لحمه وعظم الانتفاع بصوفه » .^(١)

أقول : والتقديم هنا على ما ذكر أبو حيان وهو صحيح للاهتمام حيث بدأ بالأهم بالنسبة لهم .

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ (الأنعام: ١٤٥) بدأ بالمحرم لعينه - الميتة والدم والخنزير - على المحرم لعارض وهو ما أهل به لغير الله لأن التحريم فيه عارض بينما التحريم فيما تقدم ذاتي .

(١) تفسير البحر المحيط ج ٤ ص ٢٤٢.

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (الأنعام: ١٤٦).

تقدم المجرور ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا ﴾ على متعلقه ﴿ حَرَّمْنَا ﴾ لإفادة الاختصاص ، أي عليهم وحدهم ليس على أحد آخر من الأمم . وكذلك هي نفس علة التقديم في قوله تعالى : ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِيغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (الأنعام: ١٤٩) ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَنَا ذَا حَرَمٍ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَالِ الَّذِينَ إِحْسَنَّا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَقْنَا نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥١-١٥٣).

بدأ سبحانه وتعالى في هذه الآيات بالنهي عن أكبر المحرمات وأشدّها إفساداً للدنيا والآخرة ومخالفة للعقل والنقل ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ ، ثم بدأ بأعظم الحقوق للخلق ، وهو حق الوالدين ، حيث إن عقوقهما من أكبر المحرمات بعد حق الله ، وقد تكرر في القرآن كثيراً النهي عن الشرك بالله مقروناً بالنهي عن عقوق الوالدين .

قال صاحب الدرة : « وقال في سورة بني إسرائيل ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَقْنَا نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ (الإسراء: ٣١) للسائل أن يسأل فيقول قوله عز وجل : نحن نرزقكم وإياهم هو ما عليه الاختيار في كلام العرب من تقديم ضمير المخاطب على ضمير الغائب بناء على قولك : أعطيتك ، والآية في سورة بني إسرائيل قدم فيها ضمير الغائب على ضمير المخاطب فكأنها بنيت على قوله : أعطيتهم ، وهذا ليس بمختار ، فمال الذي أوجب اختصاص الأول بتقديم ضمير

المخاطب وأوجب اختصاص الثاني بتقديم ضمير الغائب ؟ والجواب أن يقال : ليس الضمير إذا اتصلا بالفعل كالضميرين إذا انفصل أحدهما وعطف على الآخر ، لأن قولهم أكرمته وإياك ، مثل قولهم أكرمته وإياه ، في أن كل واحد منهما مختار في مكانه الذي يوجب تقديم ما قُدِّم وتأخير ما أُخِّر بخلاف ما يختار إذا اتصلا بالفعل في مثال أعطيتكه ، فأما قوله في سورة الأنعام ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ فلأن قبله ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ (الأنعام: ١٥١) أي من أجل إملاق وانقطاع مال وزاد ، وهذا نهى عن قتلهم مع فقرهم وخوفهم على أنفسهم إذا لزمتهم مئونة غيرهم ، فكأنه قال الذي يدعو إليه من حالكم في أنفسكم ثم في غيركم لا يجب أن تشفقوا منه فإنني أرزقكم وإياهم ، وأما الآية الثانية فإنه قال فيها خشية إملاق - والإملاق - غير واقع ، فكأنه قال : خوف الفقر على الأولاد ، وكان عقيب هذا إزالة الخوف عنهم ، ثم عن القاتلين ، أي لا تقتلوهما لما تخشون عليهم من الفقر فالله يرزقكم وإياهم ، فقدم في كل موضع من الموضعين ما اقتضى تقديمه وأخر ما اقتضى الموضوع تأخيرَه .^(١)

قال السمين الحلبي : « وفي هذه الآية الكريمة ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ فقدم المخاطبين وفي الإسراء قدم ضمير الأولاد عليهم ، فقال : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ فقليل للتفنن في البلاغة ، وأحسن منه أن يقال : الظاهر من قوله : ﴿ مِنْ إِمْلَاقٍ ﴾ حصول الإملاق للولد لا توقعه وخشيته فبدئ أولاً بالعدة برزق الآباء ، بشارة لهم بزوال ما هم فيه من الإملاق وأما في آية [سبحان] فظاهرها أنهم موسرون وإنما يخشون حصول الفقر ، ولذلك قال : ﴿ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ﴾ وإنما تخشى الأمور المتوقعة ، فبدئ فيها بضمأن رزقهم ، فلا معنى لقتلكم إياهم . فهذه الآية تفيد النهي للآباء عن قتل الأولاد ، وإن كانوا متلبسين بالفقر ، والأخرى عن قتلهم وإن كانوا موسرين ، ولكن يخافون وقوع الفقر . وإفادة معنى جديد أولى من ادعاء كون الآيتين بمعنى واحد للتأكيد .^(٢)

(١) درة التنزيل ص ٧٤ .

(٢) الدر المصون ج ٣ ص ٢١٦ .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ بِالْقِسْطِ ۚ لَا تَكِلُفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا ۚ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِمِيعَةٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٢).

وقد تقدم الأمر بحفظ حق اليتيم على سائر الحقوق في هذه الآية لأنه أضعفهم لا يستطيع الدفع عن حقه في ماله . وقد مر بنا من قبل في آيات الصدقات الأمر به قبل المساكين لنفس العلة ، وتقدم أيضاً في هذه الآية الجار والمجرور ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ على عامله ﴿ أَوْفُوا ﴾ للاهتمام بالعهد ، وكذلك للتشويق وصرف ذهن السامع إليه .

وللأستاذ عبد الكريم الخطيب كلمات ما أروعها عند تعرضه لتفسير هذه الآيات قال : « ونظر في الآيات الكريمة ففرى : أولاً قوله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ يمثل الرسول الكريم وقد جاء ، وبين يديه وعلى لسانه كتاب الله الذي معه يتلو منه ما حرم الله على عباده من منكرات ، ثم ها هو ذا رسول الله يتلو عليهم ما حرم الله من منكرات فيبدأ بقوله تعالى : ﴿ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ ، فهذا أول ما يجده الرسول الكريم من منكر نهى الله عنه في آيات كثيرة أنزلها الله عليه واستودعها قلبه . مثل قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ وَيَالِ الْوَالِدِينَ إِحْسَنًا ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ .

فهذا هو أول ما يتلوه الرسول من كتاب ربه ﴿ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ . . . وثانياً : قوله تعالى : ﴿ وَيَالِ الْوَالِدِينَ إِحْسَنًا ﴾ بالعطف على النهي قبله ﴿ أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ هو من لوازم هذا النهي ومن مقتضياته فإن النهي في حقيقته أمر سلبي يقتضي الوقوف من المنهي عنه موقفاً مجانباً له أو منسحباً منه ومن تمام الحكمة أن يعقب تجنب المنهي عنه الخروج به من هذا الموقف السلبي إلى ما يقابله من عمل إيجابي ، فإذا امتثل الإنسان النهي عن الشرك بالله وانخلع عن عبادة من عبدهم من دون الله وأن يتقبل أوامره ويعمل بها .

ومن إعجاز القرآن الكريم هنا أن يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين عقب النهي عن الشرك بالله ليملاً هذا الفراغ الذي وجد بإجلاء الشرك عن قلوب المشركين ، أو بغروب شخصه من آفاق المؤمنين . .

فالأمر بالإحسان إلى الوالدين هنا هو في المكان الذي كان من المنتظر أن يحل فيه الإيمان بالله . . أما الإيمان بالله هنا فهو واقع لا شك فيه بعد أن جلا الشرك الذي كان هو الحاجز الذي يحول بين المشركين وبين الإيمان بالله .
 ثالثاً : قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ هو استكمال لما حرمه الله من منكرات مما يتلو الرسول الكريم من كتاب ربه .

وفي النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر بعد أمر الأبناء ببر الآباء - في هذا ما يكشف عن تلك المفارقة البعيدة بين ما يكون من الأبناء من برهم بآبائهم ، وبين ما يأتيه هؤلاء الآباء من قتل أولئك الأبناء ، وفي هذا ما فيه ضلال وسفه وخروج على مألوف الطبيعة ، فيما بين الكائن الحي ومواليده من حيوان ونبات .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ قدم رزق الآباء على الأبناء لأن الآباء هنا في فقر واقع بهم وفي ضيق استولى عليهم فقتل فيهم مشاعر الإنسانية ، حتى طوعت لهم أنفسهم قتل أولادهم شفقة عليهم وإراحة لهم من آلام الجوع وقسوة المسغبة فجاء قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ ليشعر الآباء بأن الله متكفل برزقهم ورزق أبنائهم معاً ، وأن هذا الضيق الذي هم فيه فعلاً هو قسمة بينهم وبين أبنائهم فهم فيه سواء وأنه ليس للآباء أن يقتلوا أولادهم وهم شركاؤهم في هذا الرزق المحدود الذي في أيديهم . .

وقد جاء قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ بتقديم رزق الأبناء على الآباء لأن الآباء في تلك الحال ليسوا في حال ضيق وفقر وإنما هم على شعور الخوف من الفقر مستقبلاً فهم يقتلون أولادهم في تلك الحال لا لفقر وقع وإنما خشية الفقر المتوقع الذي قد يكون الأبناء سبباً في التعجيل به فجاء قوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ ليدفع هذا الشعور وليقيم مكانه شعوراً مضاداً له وهو أن الأبناء لهم رزقهم عند الله ، وأن هذا الرزق مقدم على رزق الآباء وأن قتلهم حينئذ يكون عدواناً عليهم ، وحسباً لهذا الرزق الذي سيرزقهم الله إياه .^(١)

(١) التفسير القرآني ج ٨ ص ٣٤٤ ، ٣٤٦ .

أقول : وفي الآية تقدم الجار والمجرور ﴿ وَبِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ الذي هو في معنى المفعول به على فاعله أوفوا ، للاعتناء بشأنه والاهتمام بأمره ولما له من شرف نسبة الإضافة إلى الله عز وجل ، روى البيهقي في شعب الإيمان عن ميمون ابن مهران قال « ثلاثة » ، المسلم والكافر فيهن سواء - من عاهدته فوف بعهده مسلماً كان أو كافراً فإنما العهد لله ومن كانت بينك وبينه رحم فصلها مسلماً كان أو كافراً ومن ائتمنك على أمانة فأدها إليه مسلماً كان أو كافراً» .

﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ امْتَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا تُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (الأنعام: ١٦٠).

تقدم ذكر المجازاة بالحسنة على المجازاة بالسبيئة لأن الحسنة أشرف من السبيئة ، فقدمت لشرف المجازاة ، وكذلك ما فيه من الترغيب بعمل الحسنات وذكر حسن جزائها إغراءً بفعلها وحضاً عليها .

﴿ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِي رَبِّي ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

تقدم المفعول ﴿ أَغَيَّرَ اللَّهُ ﴾ على فاعله ﴿ أَبْنِي ﴾ لأنه المقصود من الاستفهام الاستكاري إنكار ابتغاء رباً سوى الله لخلقه .

﴿ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُنِي لَوْ قُبِنَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْةٌ يُسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْفَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨٧، ١٨٨).

قال صاحب الدرة : « وقال في سورة يونس : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴾ (يونس: ٤٨، ٤٩).

للسائل أن يسأل عن الآيتين وتقديم النفع على الضرر في الأولى وتأخير عنه في الأخرى ، وهل لذلك فائدة أوجبت في الاختيار تقديم المقدم وتأخير المؤخر . والجواب أن يقال : إن الآية الأولى بعد قوله : ﴿ يُسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي ﴾ (الأعراف: ١٨٧) وبعده ﴿ قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُهَا عِنْدَ

اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ فكان معنى قوله : ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ لا أملك تعجيل ثواب ولا عقاب لها إلا ما ملكنيه الله ، فلا أملك إلا ما ملكت ولا أعلم إلا ما علمت والذي تسألون من أخفى الغيوب ، وأنا لا أعلم منها ما هو أقرب إلى رجم الظنون ، فكيف ما يخص به علام الغيوب ، ولو علمت الغيب لاستكثرت في السنة المخصبة ما يدفع كلب المجذبة وقيل لاستكثرت من العمل الصالح الذي أتحقق أنه أرفع عند الله تعالى درجة ، لأن من علم الغيب وعرف الأفضل عند الله لم يتركه إلى ما هو دونه وقوله : ﴿ وَمَا مَسْنِي السُّوءُ ﴾ أي ما بي جنون كما زعم المشركون ، وقيل الفقر لاستكثاري من الخير الذي يتدارك به الفقر عند شدة الزمان ، وأما الآية في سورة يونس فإنها فيما كان يستعجله الكفار من عذاب الله تعالى ، وقبلها ﴿ وَإِنَّمَا تَرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴾ (يونس: ٤٦)، أي إن أريناك بعض ما نتوعد به الكفار من العذاب في عاجل الدنيا حتى تراه نازلًا بهم في حياتك ، أو أخرنا ذلك عنهم إلى بعد وفاتك ووفاتهم ، فإن ذلك لا يفوتهم لأن مرجعهم إليّ حيث يجازى فيه العباد ولا يملك بعضهم أمر بعض ، ويقول الكفار ﴿ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قل لا أملك ما وعدكم الله من هذا العذاب ولا أن أدفع عنكم سوء العقاب ، كما ﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ أن يملكنيه منهما . فتقديم ضر على نفع في هذه الآية بخروجها على ذكر العذاب الذي قال الله تعالى فيه بعدها : ﴿ أَتُمِرُّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنُكُمْ بِمِءِءِ الْقَنِّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِمِءِءِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (يونس: ٥١)، ثم إن اللفظة التي تزواج لفظه الضر هي لفظه النفع ، ومعناه في أنه لا يملك إلا ما يملك الله منه عباده فلذلك أتبع ذكره.^(١)

﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنعام: ١٦٥).

تقدم ذكر العقاب على ذكر الرحمة لأن سورة الأنعام كلها مناظرة للكفار ووعيد لهم خصوصاً في أواخرها من الآية رقم ١٥٩ - ١٦٥ حيث أفسدوا دينهم وتفرقوا فكان المناسب تقديم ذكر العقاب ترهيباً للكفار وزجراً لهم عن الكفر والتفرق .

(١) درة التنزيل ص ١٠١.

سورة الأعراف

لما كانت سورة الأنعام في مجملها تتحدث عن التوحيد وحقوق الله على العبيد ووجوب شكره على نعمائه وبيان فساد عقائد المشركين وسوء صنيعهم في نعم الله عز وجل جاءت هذه السورة لتخبر عن حال أولئك المشركين وما صنع الله بهم في الدنيا وما توعدهم به في الآخرة وجاءت بداية الأعراف في تمام الموافقة مع خاتمة الأنعام وكأنهما سورة واحدة فأخر الأنعام قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الأنعام: ١٦٥) وفي بداية الأعراف ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٢) ونلاحظ هنا التناسب بين قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ في الأنعام وبين قوله : ﴿ لَتُنذِرَ بِهِ ﴾ في الأعراف وبين قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الأنعام وبين قوله : ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الأعراف .

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٢).

إن التقديم هنا هو في الجملة الاعتراضية ﴿ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ حيث اعترضت بين متصلين وهو قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ وقوله : ﴿ لَتُنذِرَ بِهِ ﴾ فأصل ترتيب الكلام { كتاب أنزل إليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين فلا يكن في صدرك حرج منه } ونرى أن التقديم هنا للأهمية - أي أهمية رفع الحرج .

وإلى التقديم والتأخير مال الرازي إلى قول الفراء أن ﴿ لَتُنذِرَ بِهِ ﴾ متعلق بقوله : ﴿ أَنْزَلَ إِلَيْكَ ﴾ على التقديم والتأخير ، والتقدير : كتاب أنزل إليك لتنذر به فلا يكن في صدرك حرج منه . فإن قيل فما فائدة هذا التقديم والتأخير ؟ قلنا : لأن الإقدام على الإنذار والتبليغ لا يتم ولا يكمل إلا عند زوال الحرج عن الصدر ، فلهذا السبب أمره تعالى بإزالة الحرج عن الصدر ، ثم أمره بعد ذلك بالإنذار والتبليغ .^(١)

(١) مفاتيح الغيب ج ١٤ ص ١٨ .

أقول : هذا قول له وجهته اتباعاً لذلك الوجه الإعرابي ، أما على عدم إعرابها كجملة اعتراضية أي أن المعنى قد تم عند قوله : ﴿ كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ ﴾ يكون قوله : ﴿ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ متصل بقوله : ﴿ لِنُنْذِرَ بِهِ ﴾ في المعنى ويكون رفع الحرج ليس من أجل الكتاب بل من أجل الإنذار به .^(١)

﴿ وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾ (الأعراف: ٤).

تقدمت هذه الآية في سورة الأعراف لبيان إجمال العذاب والعقوبات التي أهلك الله بها الأمم والذي سوف يأتي ذكره في السورة فيما بعد بالتفصيل عند ذكر هلاك كل أمة على حدة في قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وفرعون وجنوده والممسوخين من بني إسرائيل .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « كيف قدم الإهلاك على مجيء البأس

﴿ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا ﴾ مع أن البأس هو عامل الإهلاك وأداته؟

والجواب ، أن الإهلاك حكم واقع مقرر قبل مجيء البأس ، وأن هذه القرى الظالمة كانت تحت حكم الإهلاك قبل أن تهلك بزمن طويل لما كان عليه أهلها من ضلال وعناد وإفساد في الأرض وأن الله سبحانه وتعالى أمهلهم وبعث فيهم الرسل مبشرين ومنذرين فلم يلتفتوا إلى هدى الله ولم يقبلوا على دعوته بل صدوا عنه وازدادوا كفراً إلى كفر وضلالاً إلى ضلال . . حتى إذا بلغ الكتاب أجله جاءهم بأس الله ، فأخذهم العذاب وهم ظالمون » .^(٢)

قال الشعراوي : « وأيهما يأتي أولاً : الإهلاك أم يأتي البأس أولاً فيهلك؟ الذي يأتي أولاً هو البأس فيهلك ، فمظاهر الكونيات في الأحداث لا يأتي أمرها ارتجالاً ، وإنما أمرها مسبق أزلاً ، وكأن الحق يقول هنا : وكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ حَكَمْنَا أَنْ نَهْلِكَهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا لِيَتَحَقَّقَ مَا قُلْنَاهُ أَزْلاً ، أي أن تأتي الأحداث على وفق المرادات ، حتى ولو كان هناك اختيار للذي يتكلم عنه الحق » .^(٣)

(١) التحرير ج ٨ ص ٣١ .

(٢) التفسير القرآني ج ٨ ص ٣٦٧ .

(٣) الشعراوي ج ٧ ص ٤٤٤٠ .

﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأعراف: ٦).

تقدم هنا سؤال المرسل إليهم على سؤال المرسلين وهذا التقديم تقديم وجودي لأن الأمم تسأل أولاً عن إرسال الرسل إليهم فيكذبوا فعندئذ يسأل الله الرسل ليقيم على الأمم الكافرة الحجة ويظهر عدله في تعذيبهم ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ (النساء: ٤١) ، ﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ (المائدة: ١٠٩) وقوله : ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴾.

يرى صاحب التحرير أن التقديم للاهتمام فيقول : « ولما كان المقصود الأهم من السؤال هو الأمم لإقامة الحجة عليهم في استحقاق العقاب قدم ذكرهم على ذكر الرسل » .^(١)

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف: ٩)

تقدم الجار والمجرور ﴿ بِآيَاتِنَا ﴾ على متعلقه ﴿ يَظْلِمُونَ ﴾ للاهتمام مع ما فيه من حسن الفاصلة ، وليس كما ذكر صاحب التحرير بالشك بين الاهتمام أو مراعاة للفاصلة .^(٢)

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾

(الأعراف: ١٠)

تقدم الظرفان هنا ﴿ لَكُمْ فِيهَا ﴾ على المفعول به للاعتناء بشأن المقدم والتشويق إلى المؤخر ، فإن النفس عند تأخير ما حقه التقديم تبقى مترقبة لورود المؤخر فيتمكن في النفس أفضل تمكن ، وقد تقدم الظرف الأول ﴿ لَكُمْ ﴾ على الظرف الثاني ﴿ فِيهَا ﴾ للاهتمام حيث إنهم هم المقصودون بهذا الجعل ، ويؤيد ما ذكرته قوله تعالى : ﴿ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ أَلْسَبَاءُ بَنَيْنَاهَا ^(١) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّلْنَاهَا ^(٢) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ^(٣) وَالْأَرْضِ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنَهَا ^(٤) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا

(١) التحرير ، الآية السابقة .

(٢) التحرير ، ج ٣ ص ٣٢ .

وَمَرَعْنَهَا ﴿١٢﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَنَهَا ﴿١٣﴾ مَتَّعًا لَكُمْ وَلَا تَعْمِكُمْ ﴿١٤﴾ (النازعات: ٢٧-٣٣). ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (الجاثية: ١٣) وقد تقدم هنا الظرف على المفعول {ما} الاسم الموصول.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾

(الأعراف: ١١)

قال السمين الحلبي: «اختلف الناس في ﴿ثُمَّ﴾ في هذين الموضعين، فمنهم من لم يلتزم فيها ترتيباً، وجعلها بمنزلة الواو فإن خلقنا وتصويرنا بعد قوله تعالى للملائكة: ﴿اسْجُدُوا﴾ ومنهم من قال: هي للترتيب لا في الزمان، بل للترتيب في الإخبار ولا طائل في هذا، ومنهم من قال: هي للترتيب الزماني، وهذا موضوعها الأصلي».^(١)

أقول: والترتيب هنا ترتيب وجودي إذ خلق الإنسان يكون سابقاً وتصويره لاحقاً كما سوف نبينه بشيء من التفصيل فيما بعد.

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ١٦).

قدم الجار والمجرور ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ على متعلقه ﴿لَأَقْعُدَنَّ﴾، أما من جهة التركيب فهو قريب من معنى الشرط لأنه تعليل لإرادة الشيطان إضلال البشر فذكر إبليس السبب أولاً الذي دفعه لذلك الفعل.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ٣٠) تقدم مفعول ﴿هَدَىٰ﴾ وهو ﴿فَرِيقًا﴾ للدلالة على الاختصاص كما في الآية الثانية والسبعين بعد المائتين من سورة البقرة ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ (الأعراف: ٥٦). تقدم الخوف على الطمع وهو مذهب أكثر العلماء، لأن الإنسان ينبغي أن يغلب خوفه رجاءه طول الحياة فإنه إذا جاء الموت غلب الرجاء.

(١) الدر المصون ج ٣ ص ٢٣٨.

﴿ أَوْعِظَيْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٦٣) التقديم في هذه الآية تقديم وجودي ، فإن الإنذار مقدم ، لأنه حمل لهم على الإقلاع عن الشرك أو الوثنية ، وهو التقوى المرادة من الإنذار ثم تأتي بعد ذلك ثمرة التقوى ، وهي الرحمة التي ترجى للمتقين .

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِّ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ (الأعراف: ٦٤) تقدم الإخبار بإنجائه على الإخبار بالإغراق مع أن مقتضى مقام الاعتبار أن يقدم ذكر الإغراق ، فقدم أمر الإنجاء للتعجيل بالمسرة والاهتمام بإنجاء المؤمنين ، بالإضافة إلى كونه مفهماً أيضاً إهلاكهم ، إذ إن الإنجاء لا يكون إلا من هلاك . وهو نفس التقديم في الآيتين الثالثة والثمانين والرابعة والثمانين في قصة لوط - عليه السلام - في قوله تعالى : ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَذَابَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٣، ٨٤) .

﴿ وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ (الأعراف: ٦٥) تقديم الجار والمجرور لإفادة الاختصاص إذ إنه لم يرسل إلا إلى قومه ، وكذلك تقدم هنا ذكر قرابته على ذكر اسمه ، فقال : ﴿ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ ولم يقل : هوداً أخاهم ، وهذا فيه نوع من التقريب واستمالة قلوبهم للإيمان بذكر العلاقة التي تربطهم به من إخوة الإنسانية ، وكذا ذكر الاهتمام بأمر هدايتهم والاعتناء بأمر دعوتهم حيث أرسل إليهم رسولٌ منهم ليس بغريب عنهم ، ويكون التقديم هنا للاهتمام والاعتناء بهم ، وقد جاء هذا التقديم في الآية الثالثة والسبعين في قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ والآية الخامسة والثمانين في قوله تعالى : ﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾ وكذا في سورة الشعراء الآية السادسة بعد المائة ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴾ والآية الرابعة والعشرون بعد المائة ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴾ والآية الثانية والأربعين بعد المائة ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴾ والآية الواحدة والستون بعد المائة من سورة الشعراء ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾

﴿ قَالَ أَلَمْ لَا الَّذِينَ آسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ
أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٦﴾
قَالَ الَّذِينَ آسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٧﴾ (الأعراف: ٧٥، ٧٦).

قال صاحب التحرير : « ثم إن تقديم المجرورين في قوله : ﴿ بِمَا أُرْسِلَ بِهِ ﴾
و﴿ بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ ﴾ على عامليهما يجوز أن يكون من نظم حكاية كلامهم
وليس له معادل في كلامهم المحكي ، وإنما هو لتتقوم الفاصلتان ، ويجوز أن
يكون من المحكي : بأن يكون في كلامهم ما دل على الاهتمام بمدلول الموصولين
فجاء في نظم الآية مدلولاً عليه بتقديم المعمولين » .^(١)

أقول : وهذا الأخير هو أرجح لأن سؤالهم المستضعفين إنما كان عن الرسالة
ولهذا قدمت في السؤال وفي الجواب .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۖ قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ
قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ
أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ
ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۖ وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكُتِرْكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف: ٨٥، ٨٦).

قال صاحب التحرير : « وإنما آخر النهي عن الصد عن سبيل الله بعد جملة
﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ولم يجعله في نسق الأوامر والنواهي
الماضية ثم يعقبه بقوله : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ لأنه رتب الكلام على الابتداء
بالدعوة إلى التوحيد ، ثم إلى الأعمال الصالحة لمناسبة أن الجميع فيه صلاح
المخاطبين ، فأعقبها ببيان أنها خير لهم ، إن كانوا مؤمنين ، فأعاد تنبيههم إلى
الإيمان ، وإلى أنه شرط في صلاح الأعمال وبمناسبة ذكر الإيمان عاد إلى النهي
عن صد الراغبين فيه فهذا مثل الترتيب في قول امرئ القيس :^(٢)

(١) التحرير ج ٨ ص ٢٢٤.

(٢) ديوان امرئ القيس قصيد رقم ٥٣ ص ١٢٧.

كأنني لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسأ الراح الكُميت ولم أقل لخلي لي كُري كَرَّةً بعد إجفال^(١)

روى الواحدي في شرح ديوان المتنبي أن المتنبي لما أنشد سيف الدولة قوله فيه:

وقفت وما في الموت شكٌ لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائمٌ
تمرُّ بك الأبطالُ كَلَمَى حزينَةً ووجهك وضاحٌ وثمرُك باسمٌ

أنكر عليه سيف الدولة تطبيق عجز البيتين على صدريهما ، وقال له كان ينبغي أن تجعل العجز الثاني عجزاً للأول والعكس وأنت في هذا مثل امرئ القيس في قوله : كأنني لم أركب جواداً للذة ، البيتين ووجه الكلام على ما قاله العلماء بالشعر : أن يكون عجز البيت الأول للثاني وعجز البيت الثاني للأول ليكون ركوب الخيل مع الأمر للخيال بالكر ، ويكون سباء الخمر مع تبطن الكاعب ، فقال أبو الطيب : « إن صح أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا أعلم منه بالشعر ، فقد أخطأ امرئ القيس وأخطأت أنا ، ومولانا أمير المؤمنين يعلم أن الشوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك لأن البزاز لا يعرف إلا جملته ، والحائك يعرف جملته وتفصيله ، لأنه أخرجه من الغزلية إلى الثوبية وإنما قرن امرئ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد وقرن السماحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء ، وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت أتبعته بذكر الردى لتجانسه ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً وعينه من أن تكون باكية قلت « ووجهك وضاح وثمرُك باسم » لأجمع بين الأضداد في المعنى » .^(٢)

﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا ﴾

(الأعراف: ٨٩)

تقدم جواب الشرط ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ على فعل الشرط ﴿ إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ ﴾ لاستبعاد حدوث رجوع المؤمنين إلى ملة الكفر حيث بدؤوهم بهذا الجواب لإظهار عظم الجرم المترتب على الفعل الذي يريدونه منهم .

(١) المتنبي سبق الإشارة إليه .

(٢) التحرير ج ٨ ص ٢٤٧ ، ٢٤٨ .

﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْتَوْا فِيهَا ﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ
الْخَسِرِينَ ﴿ (الأعراف: ٩٢).

قال الزمخشري : « وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص ، كأنه قيل : الذين كذبوا
شُعَيْبًا هم المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا ، كأن لم يقيموا في دارهم ، لأن
الذين اتبعوا شُعَيْبًا قد أنجاهم الله ، الذين كذبوا شُعَيْبًا المخصوصون بالخسران
العظيم دون أتباعه فإنهم الراحون »^(١)

أقول : ولا يخفى ما في التقديم أيضاً من التشويق والإثارة فعندما يقرأ القارئ
﴿ الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا ﴾ يرد على خاطره تواء ما لهم ؟ وما شأنهم ؟ فيأتي الجواب
في الأولى ﴿ كَأَن لَّمْ يَغْتَوْا فِيهَا ﴾ وفي الثانية ﴿ كَانُوا هُمُ الْخَسِرِينَ ﴾ .
﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴾ ﴿ وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ
أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴾ ﴿ (الأعراف: ٩٧، ٩٨). تقدم التهديد بمجيء
البأس بيئاتاً على الضحى لأنه يكون أشد وفي غاية الصعوبة ، لأنه أتى وقت الغفلة
والنوم وفيه هول المفاجأة عند السكون وشدة الخوف عند حلول الظلام .

تقدم قوله : ﴿ قَدْ أَفْتَرْنَا ﴾ مع كونه متأخراً حدوثه في المعنى ، وذلك لتثيس
قومه من العودة في ملتهم حيث علق ذلك على حدوث المستحيل وهو صدور
الافتراء منهم على الله لاسيما والأنبياء معصومون من المعصية فصدور الكفر منهم
أبعد .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ؕ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ
فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ ﴿ (الأعراف: ١٣٣) ، ابتدأ الله عز وجل بالطوفان
الذي يفسد الزرع ويهدم المساكن ، ولما كان ذلك ربما أخصبت به الأرض بعد
ذلك فينمو زرعهم من جديد أحسن من ذي قبل أو أنه يبقى من الزرع بعد الطوفان
مالم يفسد به أرسل عليهم عذاباً آخر يفسد ذلك كله فقال : ﴿ وَالْجَرَادَ ﴾ وربما طار
الجراد وقد أبقى شيئاً على وجه الأرض أو كان عندهم ما يخزنونه على ظهرها

(١) الكشف ج ٢ ص ١٢٦.

أتبع عذاب السماء بعذاب الأرض فقال : ﴿ وَالْقُعْلَلُ ﴾ وهي الدواب الصغيرة التي تلتصق بالأرض وبالإنسان وبالحيوان وتأكل ما دق وما صغر من الطعام فلا يبقى ما ينتفعون به من كبير أو صغير ، ثم أتبع ذلك العذاب بما يعيش في الماء وفي البر لإفادة عموم العذاب في كل مكان وإمكان سقوط الضفدع فيما بقي من طعام ومشاركتهم لهم في معاشهم وجميع أماكنهم ، ولما تم ما يضر بالمأكل أتبعه ما يفسد المشرب فقال : ﴿ وَالْأَدَمُ ﴾ حيث انقلبت مياههم كلها دماً عبيطاً منتناً .

﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرُّ مَا هُمْ فِيهِ وَيَنْطِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٣٩) ، قال الزمخشري : « وفي إيقاع هؤلاء اسماً لـ ﴿ إِنَّ ﴾ وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها - يقصد الزمخشري تقديم الخبر ﴿ مُتَّبَرُّ ﴾ على مبتدأه ﴿ مَا ﴾ الموصول والجملة خبر ﴿ إِنَّ ﴾ - وسم لعبادة الأصنام بأنهم هم المعرضون للتبار ، وأنه لا يعدوهم البتة ، وأنه لهم ضربة لازب ، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا ويبغض إليهم ما أحبوا. ^(١) »

أقول : وفي تقديم ﴿ مُتَّبَرُّ ﴾ هنا ربط لفظي بين التبار وبين أصحابه ﴿ هَؤُلَاءِ ﴾ وإن كان المقصود الأساسي هو الربط المعنوي الذي أفاده الحكم الإعرابي ، وذلك ليكون التبار لاحقاً بأصحابه لفظاً وبأعمالهم معنى .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾

(الأعراف: ١٤٣)

لم يقل موسى أرب يارب أنظر إليك ، وإنما قال : رب ، وهذا من باب الأدب في التخاطب ، حيث بدأ بذكر ربه بصفات الربوبية الناظرة إلى العطف والتربية والإصلاح والرحمة ، كما أن تقديم الثناء بين يدي الدعاء أخرى بالقبول ، وبهذا قد صح الحديث عن النبي ﷺ ، روى النسائي بإسناده عن فضالة بن عبيد يقول : سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجد الله ولم يصل على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ : « عجلت أيها المصلي ثم علمهم رسول الله ﷺ ، وسمع رسول الله ﷺ

(١) الكشف ج ٢ ص ١٤٥ .

رجلاً يصلي فمجد الله وحمده وصلى على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ أدع تجب
وسل تعط^(١)

﴿ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَىٰ ﴾ (الأعراف: ١٤٤).
قال السمين الحلبي : «وقدم الرسالة على الكلام ، لأنها أسبق ، أو للترقى إلى
الأشرف»^(٢).

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ ۖ وَفِي نُفُسِهِمُ هُذًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ
هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٤) تقدم المفعول هنا للاختصاص أي لا يرهبون
إلا الله .

قال الشعراوي : «ولفائل أن يقول : ألا يمكن لأحد أن يدعي الرهبة ظاهراً وأنه
ممثل لأمر الله رياء أو سمعة ، حتى يقول الناس : إن فلاناً حسن الإسلام ويأخذون
في الثناء عليه ؟ ولكن هنا نجد التخصيص الذي يدل على أن العبد لا يرهب أحداً
غير الله ، وأن الرهبة خالصة لله وليست رياء ولا سمعة ولا لقصد الثناء»^(٣).

﴿ وَأَخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ
شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتْلُكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ۖ إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ
تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ۖ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۖ وَأَنْتَ خَيْرُ
الْغَافِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٥٥) ، وفي هذه الآية تقديم وتأخير . فاختيار موسى لمن
اختارهم من بني إسرائيل لميقاته مع ربه كان قبل أن تقع الأحداث التي وقعت في
بني إسرائيل ، من عبادة العجل وما كان بين موسى وهارون من لوم ومواخذه ،
وفي هذا إلفات إلى ما ينبغي الالتفات إليه من أمر القوم على حسب ما يقع
للناظر إليهم ، وما يطلع على منكراتهم وآثامهم .

قال الشعراوي : «ونعلم من هذا أنه يطلب درء المفسدة أولاً ، لأن درءها مقدم
على جلب المصلحة ، - فقدم موسى - عليه السلام - طلب غفر الذنب ، ثم طلب

(١) النسائي كتاب السهو رقم ١٢٦٧.

(٢) الدر المصون ج ٣ ص ٣٤٠.

(٣) الشعراوي ج ٧ ص ٤٣٧٢.

ودعا ربه أن يرحمهم ، وهذه جلب منفعة ، وقد قال ربنا في مجال درء المفسدة : ﴿ فَمَنْ رُحِّزَ عَنِ النَّارِ ﴾ وهذا درء مفسدة وهو البعد عن النار : ﴿ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ ﴾ : وهذا جلب منفعة ومصلحة . إذن فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، وعلى سبيل المثال - إنك ترى تفاحة على شجرة ، وتريد أن تمد يديك لتأخذها ثم التفت فوجدت شاباً يريد أن يقذفك بطوبة فماذا تصنع ؟ أنت في مثل هذه الحالة الانفعالية تدفع الطوبة أولاً : ثم تأخذ التفاحة من بعد ذلك : وهذا هو درء المفسدة المقدم على جلب المصلحة : وهنا درء المفسدة متمثل في قول موسى : ﴿ فَأَغْفِرْ لَنَا ﴾ ثم قال بعد ذلك ﴿ وَارْحَمْنَا ﴾ وهذا جلب مصلحة ، والقرآن يقول : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ﴾ (الإسراء: ٨٢) لأن الداء يقع أولاً وحين تذهب لمنهج القرآن يشفيك من هذا الداء. ^(١)

﴿ وَرَحِمْتِي وَسَعَتْ كُلُّ شَيْءٍ ﴾ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِإِيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٦) ، تقدم الجار والمجرور ﴿ بِإِيَاتِنَا ﴾ على متعلقه ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ لإفادة القصر أي أنهم يؤمنون بجميع آياتنا لا ببعضها دون بعض ، أو للتعريض بقوم موسى لأنهم كانوا أكثر الناس إعطاء للآيات وأسرع الناس كفرًا بها .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾ (الأعراف: ١٥٧) التقديم هنا للشرف حيث تقدم وصف الرسالة على وصف النبوة وكلاهما على كونه أمياً .
﴿ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ﴾ (الأعراف: ١٥٨) تقدم الإيمان بالله على الإيمان بالرسول لأن الإيمان بالله أصل والنبوة فرع عليه .

﴿ وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنْبِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف: ١٦٠) ، بدأ بذكر الأهم ، وهو تبريد الأكباد بالماء ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ

(١) الشعراوي ج ٧ ص ٤٣٧٧ .

أَسْتَسْقِنُهُ قَوْمُهُ رَبِّ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ أَتْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴿١٦٠﴾
ثم أتبعه بالتالي في الأهمية وهو الظل الذي يحميهم من حرارة الشمس القائلة في
هذه الصحراء ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ ولما أتم تبريد الأكباد ، ثم تبريد الأجساد ،
جاء تسكين جوع الباطن وقوام الأجساد بما أنزل لهم من غذاء ، ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ
الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ .

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾

(الأعراف: ١٦١)

قال الشعراوي : « وقال الحق هنا في سورة الأعراف : ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا
الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي أنه قدم قولهم ﴿حِطَّةٌ﴾ على السجود ، وفي آية سورة البقرة
قدم السجود فقال : ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ جاء الحق بهذا
الاختلاف لأنه علم أن انفعالات السامعين تختلف ساعة الدخول ، فهناك من يفعل
للقول ، فيقول أول دخوله ما أمر به من طلب الحطة وغفران الذنب من الله ، وهناك
آخر يفعل للفعل فيسجد من فور الدخول تنفيذاً لأمر الله ^(١) »

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا
قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٤) لماذا تقدم قولهم : ﴿مَعذِرَةٌ
إِلَى رَبِّكُمْ﴾ على قولهم : ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ مع أن الثانية أشرف من الأولى .
أقول : هنا احتمالان :

الأول : أن اهتمام الإنسان بنفسه ونجاتها مقدم على اهتمامه بغيره ومنه قوله
تعالى : ﴿وَكَذَّبَ بِرَبِّهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ (الأنعام: ٦٦)
لهذا بدأوا بتقديم العذر لأنفسهم .

الثاني : أن يكون قد غلب على ظنهم استبعاد حصول الهداية لقومهم فأخروها
من أجل ذلك .

(١) الشعراوي ج ٧ ص ٤٤٠١ .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الأعراف: ١٦٧) تقدم العقاب هنا على نحو ما تقدم في آخر الأنعام ، لأن هذه الآية في سياق ذكر معصية أصحاب السبت وتعذيبه إياهم ، فتقديم العذاب مناسب .
﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَائِنَتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

(الأعراف: ١٧٧)

قال الشعراوي : « وحين تجد معمولاً قد تقدم على عامله - قاعدة نحوية - فاعلم أن هناك ما يسمى بالقصر في علم البلاغة ، وقد نقول : { يظلمون أنفسهم } ويصح أن تعطف قائلاً : ويظلمون الناس ولكن حين نقول : أنفسهم يظلمون فمعنى ذلك أنه لا يتعدى ظلمهم أنفسهم ، ويكون الكلام فيه قصر وتخصيص ، مثلما نقول ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ﴾ أي أن الأمر لا يتعدى إلى غيره أبداً. ^(١)
﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾ ^(٢)

تقدم ذكر الجن على الإنس في دخول النار لأن عصاة الجن أكثر من عصاة الإنس والكفر منهم أعظم وأكثر ، فإذا كان من الإنس مسلمون وكافرون وكان لكل واحد من عصاة الإنس قرين كافر من الجن هنا عدا بقية من كفر منهم علمنا يقيناً أن أهل النار من الجن أكثر من الإنس قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ ثَقِيَضَ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (الزخرف: ٣٦) روى مسلم وأحمد والدارمي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ { ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن قالوا وإياك يا رسول الله قال وإياي إلا أن الله أعاني عليه فاسلم فلا يأمرني إلا بخير } . ^(٣)

يرى الألوسي أن تقديم الجار والمجرور ﴿ لِجَهَنَّمَ ﴾ على المفعول الصريح ﴿ كَثِيرًا ﴾ لما في توابعه من نوع طول يؤدي توسطه بما بينهما وتأخيرهما عنهما

(١) الشعراوي ج ٧ ص ٤٤٦٩ .

(٢) صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة رقم { ٥٠٣٤ } ومسند أحمد كتاب مسند المكثرين من الصحابة رقم { ٣٤٦٦ } { ٣٦١١ } { ٤١٦٠ } سنن الدارمي كتاب الرقاق رقم { ٢٦١٨ } .

(٣) روح المعاني ج ٩ ص ١١٩ .

إلى الإخلال بجزالة النظم الجليل . . وتقديم الجن لأنهم أعرف من الإنس في الاتصاف بما ذكر من الصفات وأكثر عدداً وأقدم خلقاً .

﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٣)،
قدم موسى تسبيح الله وتنزيهه عن الرؤية في الدنيا على قوله : ﴿ تُبْتُ إِلَيْكَ ﴾
لما فيه من البداية بتعظيم الله وهذا منه أدب واعتراف يمهد لطلب المغفرة وقبول
التوبة .

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (الأعراف: ١٨٠) .

تقدم الجار والمجرور لإفادة الحصر أي أن الأسماء الحسنى ليست إلا الله تعالى .
قال الرازي : « والبرهان العقلي يدل على صحة هذا المعنى وذلك لأن الموجود
إما واجب الوجود لذاته ، وإما ممكن لذاته والواجب لذاته ليس إلا الواحد وهو الله
سبحانه ، وأما ما سوى ذلك الواحد ، فهو ممكن لذاته ، وكل ممكن لذاته فهو
محتاج في ماهيته وفي وجوده وفي جميع صفاته الحقيقية والإضافية والسلبية إلى
تكوين الواجب لذاته وكمال كل ما سواه فهو حاصل بوجوده وإحسانه ، فكل كمال
وجلال وشرف ، فهو له سبحانه بذاته ولذاته وفي ذاته ولغيره على سبيل
العارية »^(١) .

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ
لَا سَتَكُنَّ ثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَ السُّوءُ ۚ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَكَثِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾
(الأعراف: ١٨٨)

أكثر الآيات التي وردت في القرآن الكريم من لفظ الضر والنفع تقدم فيها الضر
على النفع ، لأن العابد يعبد معبوده خوفاً من عقابه أولاً ، ثم طمعاً في ثوابه ثانياً
ويؤيد ذلك قوله سبحانه :

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ (السجدة: ١٦) ، ومن هنا جاء قول أهل العلم :
بأن العبد ينبغي أن يغلب خوفه رجاءه في حال الحياة ، ويغلب رجاءه خوفه عند
الممات ، وعندما يتقدم النفع نجد أنه تقدم لمناسبة ما قبله ، وقد جاءت في ثمانية
مواضع ثلاثة منها بلفظ الاسم هذا الموضع وقوله سبحانه :

(١) مفاتيح الغيب ج ١٥ ص ٧٢ .

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ (الرعد: ١٦).

وقوله : ﴿ قَالَتِ يَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ (سبا: ٤٢) وخمسة بلفظ الفعل وهي قوله سبحانه : ﴿ قُلْ أُنذِعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ (الأنعام: ٧١)، وقوله : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ (يونس: ١٠٦) وقوله : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ (الأنبياء: ٦٦)، وقوله : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٥) وقوله : ﴿ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ (الشعراء: ٧٣) في سورة الأعراف هذه تقدمت الهداية على الضلال في قوله : ﴿ مَنْ يَتَّبِعِ اللَّهَ فَهُوَ الْغَالِبُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْإِنْسَانَ فَهُوَ الْخَاسِرُ ﴾ (الأعراف: ١٧٨) قدم الخير على السوء ولذلك قدم النفع على الضر وقوله : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ (الرعد: ١٥)، قدم الطوع وقدم بسط الرزق على تقديره فقال : ﴿ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (سبا: ٣٦) وفي يونس قدم الضر على الأصل ولأن قبله قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَكَّانٍ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (يونس: ١٢) أما في تقديم النفع على الضر فتبعاً لما قبلها ففي سورة الأنعام ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا ﴾ (الأنعام: ٧٠) هذا كله في نفي النفع فلا نفع عند ولي ولا شفيع ولا فدية ولهذا وصلها بقوله : ﴿ قُلْ أُنذِعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾

(الأنعام: ٧١)

أما في سورة يونس فقد تقدم قوله : ﴿ ثُمَّ نُتِجِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ١٠٣) ثم قال : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ (يونس: ١٠٦) ، وفي سورة الأنبياء تقدم قول الكفار لإبراهيم في مجادلتهم الله : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ (الأنبياء: ٦٥، ٦٦) ،

وفي سورة الفرقان تقدم قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ (الفرقان: ٤٥) وعد نعماً جمّة من الآيات ثم قال : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۚ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٥) .

قال أبوحيان : «وقدم هنا النفع على الضر ، لأنه تقدم ﴿ مَنْ يَدْعُ اللَّهَ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ ۚ وَمَنْ يُضِلَّ ﴾ (الأعراف: ١٧٨) قدم الهداية على الضلال . وبعده ﴿ لَا سَتَكُنَّ تِلْكَ مِنْ الْخَيْرِ وَمَا مَسْنِيَّ السَّوْءِ ﴾ (الأعراف: ١٨٨) فناسب تقديم النفع ، وقدم الضر في يونس ، لأن العبادة لله تكون خوفاً من عقابه أولاً ، ثم طمعاً في ثوابه ، ولذلك قال :

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ (السجدة: ١٦) ، فإذا تقدم النفع فلسابقة لفظ تضمنه . وأيضاً في يونس موافقة ما قبلها ففيها ﴿ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ لأنه موصول بقوله : ﴿ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذَ مِنْهَا ﴾ (الأنعام: ٧٠) وفي يونس ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ (يونس: ١٠٦) وتقدمه ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ١٠٣) ، وفي الأنبياء قال : ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ (الأنبياء: ٦٦) وتقدمه قول الكفار لإبراهيم في المحاجة ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ (الأنبياء: ٦٥) ، وفي الفرقان : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ (الفرقان: ٥٥) . وتقدمه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ (الفرقان: ٤٥) .

وقال صاحب التحرير : «وقدم النفع في الذكر هنا على الضر : لأن النفع أحب إلى الإنسان ، وعكس في آية المائدة لأن المقصود تهوين أمر معبوداتهم وأنها لا يخشى غضبها» .^(١)

أقول : وناسب تقديم ﴿ لَا سَتَكُنَّ تِلْكَ مِنْ الْخَيْرِ ﴾ على ﴿ وَمَا مَسْنِيَّ السَّوْءِ ﴾ لمناسبة ما قبله من تقديم النفع على الضر .

(١) البحر المحيط ج ٤ ص ٤٣٤ .

وقد ذهب الكرمانى إلى ما ذكرناه آنفاً من علة اختلاف تقديم النفع والضرر نظراً لسوابق الآيات التي تدعو إلى هذا التركيب حيث قال : اختلفت هذه المواضع الثمانية فتقدم النفع على الضرر ، لأن السوابق من الآيات تدعو إلى هذا التركيب ، حرصاً على النظام القرآني البديع المعجز من حيث لا يمكن بأي حال أن يستمر الناس في كتاباتهم على مراعاة هذا النظام بل تعمهم الغفلة غالباً ، ففي سورة الأنعام جاءت الآية بعد قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ هَآ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلُّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا ﴾ ^(١) فالولاية والشفاعة تناسب النفع وعدم أخذ العدل يناسب الضرر فجاءت الآية على هذا النسق : ﴿ قُلْ أُنذِعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا ﴾ (الأنعام: ٧١) وفي يونس ﴿ ثُمَّ نُتْجَىٰ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ (يونس: ١٠٣) فناسب تقديم النفع رعاية للنجاة ، وهي نفع ، وفي الأنبياء جادل الكفار إبراهيم في أصنامهم فقالوا ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ (الأنبياء: ٦٥) حرصاً على بقائهم لمنفعتهم في زعمهم فقال تعالى : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾ (الأنبياء: ٦٦) وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ﴾ (الفرقان: ٤٥) ، واستمرت الآيات في سياق يعدد نعم الله الجليلة في عشر آيات ، ثم قال : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ (الفرقان: ٥٥) ^(٢).

﴿ أَلْهَمَ أَزْجُلٌ يَمْشُونَ ﴾ ﴿ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ ﴾ ﴿ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ ﴾ ﴿ (الأعراف: ١٩٥) تقدم الحديث عن هذه الآية في سورة البقرة الآية ^(٣). وأضيف هنا ما ذكره الألوسي عن سبب هذا الترتيب نقلاً عن شيخ الإسلام : « وتأخير هذا عما قبله لما أن المشي حالهم في أنفسهم ، والبطش حالهم بالنسبة إلى غيرهم وأما تقديم ذلك على قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ ﴾ الآية مع أن الكل سواء في أنها من أحوالهم بالنسبة إلى الغير ، فلمراعاة المقابلة

(١) التحرير ج ٩ ص ٢٠٧.

(٢) أسرار التكرار في القرآن ص ٥٠ ، ٤٩.

(٣) روح المعاني ج ٩ ص ٥١٢.

بين الأيدي والرجل ولأن انتفاء المشي والبطش أظهر ، والتبكيك به أقوى ، وأما تقديم الأعين على الأذان فلأنها أشهر منها وأظهر عيناً وأثراً» .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِمْ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾
(الأعراف: ٢٠٦)

وفي تقديم قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ على قوله : ﴿ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ أمور :

الأول : لبيان العلة المانعة من الخضوع لله رب العالمين في شأن أولئك المشركين الذين سبقت الإشارة إليهم من الآية الثالثة والتسعين بعد المائة إلى الآية الثامنة والتسعين بعد المائة ، وأنهم ما منعهم من الإيمان إلا الكبر .

الثاني : من باب تقديم أعمال الباطن على الظاهر ، أو المعارف على الأعمال إذ إن الأصل في العبادة أعمال القلوب ، فلا تقبل العبادة من قلب غير سليم ، إذا شابه كفر أو شرك أو رياء أو كبر أو فخر أو عجب إلى غير ذلك من أمراض القلوب التي تحبط العبادة أو تنقص ثوابها ، وسوف يأتي ذلك أيضاً بمزيد بيان في صدر سورة الأنفال التالية .

ولصاحب المنار رأي عن سبب التقديم هنا يقول : « ومن نكت البلاغة في القرآن بتقديم اللفظ على ما يقابله في آية وتأخيرها في أخرى تقديم النفع على الضر في هذه الآية وتأخيرها وتقديم الضر عليه في آية سورة يونس المذكورة آنفاً ، والفرق المحسن لذلك أن آية الأعراف جاءت بعد السؤال عن الساعة أيان مرساها؟ وأكبر فوائد العلم بالساعة وهو من علم الغيب الاستعداد لها بالعمل الصالح واتقاء أسباب العقاب فيها ، فافتضى ذلك البدء بنفي ملك النفع لنفسه بمثل هذا الاستعداد وتأخير ملك الضر المراد به ملك دفعه واتقاء وقوعه ، وأن يستدل على ذلك بما ذكر من أنه لو كان يعلم الغيب حتى فيما دون الساعة زمناً وعظماً شأن لاستكثر من الخير الذي يتعلق بالاستعداد للمستقبل واتقى أسباب ما يمسه من سوء فيه كالأمثلة التي ذكرناها .

وأما سورة يونس فقد وردت في سياق تماري الكفار فيما أوعدهم الله من العقاب على التكذيب بما جاءهم به رسوله من البينات والهدى واستعجالهم إياه تهكماً ومبالغة في الجحود ، فناسب أن يذكر في جوابهم أنه لا يملك لنفسه ولا لهم ضرراً كتعجيل العذاب الذي يكذبون به ولا نفعاً كالنصر الذي يترتب على تعجيل العذاب لهم في الدنيا». ^(١)

(١) تفسير المنار ج ٩ ص ٥١٢.

سورة الأنفال

وفي مناسبة الأنفال مع ما قبلها أن سورة الأعراف لما كان حديثها عن قصص الأنبياء السابقين مع أمهم ناسب أن تأتي سورة الأنفال لتذكر قصة النبي ﷺ وقد تناسب آخر الأعراف مع أول الأنفال تناسباً شديداً ، ففي أواخر الأعراف بين الله تعالى السبل الكفيلة لسد باب الخلاف وبيان ما يحدث به الائتلاف ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأنفال: ١٩٩، ٢٠٠)، وفي بداية الأنفال الأمر بإصلاح ذات البين إذا ما حدث الشقاق والخلاف .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ۖ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ١)، وفي نهاية الأعراف الأمر بالإصصات للقرآن ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠٤)، ثم الأمر بذكره ﴿ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (الأعراف: ٢٠٥)، وفي بداية الأنفال الشاء على أهل الذكر وأهل الاستماع للذكر أيضاً كما في الأعراف ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال: ٢)، وفي نهاية الأعراف الشاء على أهل العبادة والسجود ﴿ إِنْ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠٦) وقوله : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ۖ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال: ١) .

تقدم الأمر بتقوى الله لأنها أصل الطاعات وغايتها ، ثم أمر بإصلاح ذات البين ، فهي الثمرة المطلوبة من التقوى في ذلك الوقت الذي تشاجر فيه الصحابة ﷺ ثم جاء الأمر بطاعة الله ورسوله فيما أمروا فيه من التقوى والإصلاح .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (الأنفال: ٢).

قال أبو حيان : « لما تقدمت ثلاث صفات ، قلبية ، وبدنية ، ومالية ، - يقصد أبو حيان بالصفة القلبية الآية السابقة وفيها صفة وجل القلب ، وزيادة الإيمان عند سماع القرآن ، وصفة التوكل ، ويقصد بالبدنية قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾ وبالمالية قوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ - ترتب عليها ثلاثة أشياء ، فقوبلت الأعمال القلبية بالدرجات ، والبدنية بالغفران ، وفي الحديث { إن رجلاً أتى من امرأة أجنبية ما يأتيه الرجل من أهله غير الوطاء فسأله الرسول ﷺ لما أخبر بذلك أصليت معنا فقال نعم فقال له غفر الله لك } وقوبلت المالية بالرزق الكريم^(١).

أقول : وتقديم الجار والمجرور للاختصاص ، أي يتوكلون عليه وحده لا على غيره ، وكذلك مع ما فيه من فائدة الاهتمام والتعريض بالمشركين الذين يتوكلون على غير الله .

قال الشعراوي : « ومتعلق الجار والمجرور دائماً يكون متأخراً ، بينما هنا يتقدم الجار والمجرور ، لذلك ففي الأسلوب حصر وقصر مثلما نقول { لزيد المال } أي أن المال ليس لغيره وقول الحق : ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أي لا يتوكلون على غيره بل قصروا توكلهم على الله سبحانه وتعالى^(٢).

أقول : فيما أشرت إليه في خاتمة الأعراف أن الله تعالى وصفهم بالإيمان أولاً ثم بخوف القلب ثانياً ثم بالتوكل ثالثاً ، وفي هذا الترتيب سر ، وهو أن الإيمان أصل كل الأعمال أعمال القلب والجوارح ، ثم بدأ من أعمال القلب بذكر الخوف عند سماع القرآن ، هذا الخوف الناشئ عن معرفة الله رب العالمين والذي طرد معه كل خوف من دون الله وحينئذ صح منهم التوكل على الله ولذا ثلث به ، ثم بعد ذكر أعمال الباطن شرع في ذكر أعمال الظاهر التي تبنى على عمل الباطن فقال : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الأنفال: ٣).

(١) البخاري كتاب التفسير ٢٠٦/٨ ، البحر ج ٤ ص ٤٥٥.

(٢) الشعراوي ج ٥ ص ٤٥٧٣.

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ١٠) تقدم الجار والمجرور ﴿ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ بينما تأخر في سورة آل عمران في قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٢٦)، بالنظر في السورتين يتبين لنا سر التقديم والتأخير في آل عمران ، نجد أن بشرى النبي ﷺ بإنزال الله ثلاثة آلاف من الملائكة قد سقت وتقدمت ، ومن ثم اطمأنت القلوب ، وذهب الخوف عنها فتقدمت في الذكر ، بينما في الأنفال نجد السياق يذكر حال خوف الصحابة ﷺ واستغاثتهم بربهم في قوله : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾ (الأنفال: ٩) ، فلما تعلق قلبهم بالنصر وانتظروا المدد والغوث من الله تقدم الضمير ﴿ بِهِ ﴾ لأنهم كانوا في انتظاره .

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾

(الأنفال: ١١)

تقدم قوله : ﴿ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ ﴾ مع أنه متأخر زمانياً عن نزول الغيث حيث كان النعاس وهم صفوف للقتال وذلك لأهميته ، إذ هم أشد حاجة لتثبيت قلوبهم وإذهاب الخوف عند ملاقات العدو ، فالرعب هو سلاح المعركة النافذ إلى القلب قبل نفوذ الطعان والحراب فصاحبه مهزوم قبل أن يقتل ، ولهذا قال تعالى في الآية التالية لها ، ﴿ سَأَلِيقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ (الأنفال: ١٢) والدليل على أن النعاس كان متأخراً في الوجود ما رواه الإمام أحمد بسنده إلى أنس بن مالك أن أبا طلحة ، قال : غشنا النعاس ونحن في مصافنا يوم بدر ، فكنت فيمن غشيه النعاس يومئذ فجعل سيفي يسقط من يدي وأخذه ويسقط وأخذه .^(١)

ثم يمضي الترتيب في الآيات ترتيباً وجودياً فينزل الغيث فيحدث أولاً التطهير به جسدياً ، لأن معظمهم قد أصابته الجنابة ومعنوياً لأن الشيطان وسوس لهم كيف تقتلون على غير طهارة ، ليوهن عزائمهم فجاء قوله : ﴿ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ٣٤٤ .

الشَّيْطَانِ ، فإذا ما تطهروا وذهب رجز الشيطان ، جاء تثبيت القلب وطمأنينته ، فعندئذ يثبت في الصف ويقدم للقتال ولذا جاءت الآية على هذا الترتيب ﴿ وَلَيَرِيطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ (الأنفال: ١١) .

وفي تقديم الجار والمجرور في قوله : ﴿ وَلَيَرِيطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ دليل العناية الإلهية بهم ، مع إفادة التخصيص لهم حيث لم يتعد الغيث مكان معسكر المؤمنين .

قال الشعراوي : « وهنا النعاس مفعول به ، وهو أمانة من الله ، وسبحانه يقول في آية أخرى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُّعَاسًا ﴾ (آل عمران: ١٥٤) . هنا في آية الأنفال نعاس وأمانة ، وهناك في آية آل عمران أمانة ونعاس لأن الحالتين مختلفتان - فتوضح آية آل عمران أن النعاس قد غشى طائفة واحدة من المقاتلين في غزوة أحد بعد أن أصابهم الغم في هذه الغزوة وهؤلاء هم المؤمنون الصادقون الملتفون حول رسول الله ﷺ ، أما في سورة الأنفال فتبين الآية أن النعاس قد غشى الجيش كله حيث كان الجميع على قلب رجل واحد والإيمان يملأ قلوبهم جميعاً ولا يوجد بينهم منافق أو مراتب فغشيتهم جميعاً هذه الأمانة بالنعاس ، لأنه يزيل الخوف ، ومن دلائل الأمن والطمأنينة والثقة بنصر الله »^(١).

﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

(الأنفال: ٢٤)

تقدم قوله : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ على قوله : ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ من باب تقديم التخويف بالحال قبل المآل وأن ذلك الحال قد يفضي إلى شر مآل .

والمجرور ﴿ إِلَيْهِ ﴾ على متعلقه ﴿ تُحْشَرُونَ ﴾ ليفيد الاختصاص في أن الحشر ليس إلا الله وحده .

ويرى صاحب التحرير أن الاختصاص يفيد الكناية عن انعدام ملجأ أو مخبأ يلجئون إليه من الحشر ، وهذا رأي وجيه لا يمنع القول من أن الاختصاص قد

(١) الشعراوي ج ٨ ص ٤٥٩٧ .

لا يكون للقصر على المكان بل على المحاسب الحكم العدل في ذلك اليوم فلا مجازي إلا الله .^(١)

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (الأنفال: ٢٨) تقدم ذكر المال على الولد ، لأن الآية السابقة تنهاهم عن الخيانة في قوله : ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنفال: ٢٧) . وأكثر ما يحمل على الخيانة إنما هو المال ، ثم الولد ، ولذا جاءت هذه الآية من باب بيان السبب المفضي للمنهى عنه في الآية السابقة .

وللشعراوي لفظة جميلة عن التقديم والتأخير في هذه الآية حيث قال : «والمتبعون لأسرار الأداء القرآني يعرفون أن لكل حرف حكمة ، وكل كلمة بحكمة ، وكل جملة بحكمة ، لذلك نجد من يتساءل لماذا قدم الحق تبارك وتعالى الأموال على الأولاد ؟ ونقول : لأن لكل واحد مال ولو لم يكن له إلا ملبسه وبطيعة الحال ليس لكل واحد أولاد ثم إن الأبناء ينشئون من الزواج ، ومجيء الزواج يحتاج إلى المال ، لذلك كان من المنطق أن يأتي الحق بالأموال أولاً ثم يأتي بذكر الأولاد» .^(٢)

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (الأنفال: ٧٢) .

قال صاحب الدرة : «وقال في سورة براءة : ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٢٠) .

للسائل أن يسأل فيقول : ما الذي قدم له في الآية الأولى ذكر أموالهم وأنفسهم على قوله في سبيل الله ، ثم ما له قدم ذكر في سبيل الله في سورة براءة على ذكر أموالهم وأنفسهم ؟

والجواب أن يقال : إن آية الأولى في سورة الأنفال عقيب ما أنكره الله تعالى على من قال لهم : ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَكِيمٌ﴾

(١) التحرير ج ٩ ص ٣١٦ .

(٢) الشعراوي ج ٨ ص ٤٦٠ .

وهم أصحاب النبي ﷺ لما أسروا المشركين ولم يقتلوهم طمعاً في الفداء ، فقال الله تعالى : ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي فيما أخذتم من هؤلاء الأسرى من الفداء ، ثم قال الله تعالى لما غفر لهم ما كان منهم من ترك القتل إلى الأسر : ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي استمتعوا بما نلتهم من أموال المشركين وبما أخذتم من فدائهم ، فعقب ذلك بهذه الآية والتي مدح فيها من أنفق أمواله في سبيل الله لا من يجاهد طلباً للنفع العاجل فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فقدم بأموالهم وأنفسهم على في سبيل الله ليعلموا أن ذلك يجب أن يكون أهم لهم وأولى بتقديمه عندهم صرفاً لهم عما حرصوا عليه من فائدة الفداء ، ولم تكن كذلك الآية التي في سورة براءة لأنها بعد ما يوجب تقديم قوله في سبيل الله على ذكر المال لأنه قال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ ثم قال في إبطال ما أتى به المشركون من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج مع المقام على الكفر : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فكان المندوب إليه في هذه الآية بعد الإيمان بالله الجهاد في سبيله ، فقال بعده مادحاً لمن تلقى بالطاعة أمره ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ثم ذكر بأموالهم وأنفسهم لما قدم ذكر ما اقتضى الموضع تقديمه ، وأن يجعل أهم إليهم من غيره فخالف هذا المكان قوله في سورة الأنفال فقدم فيه ما أخر هناك « وهذا القول عينه الذي ذهب إليه الكرمانى في {أسرار التكرار} ولعله أخذه من الإسكافي .^(١)

قال أبوحيان : « قسم الله المؤمنين إلى المهاجرين ، والأنصار ، والذين لم يهاجروا ، فبدأ بالمهاجرين ، لأنهم أصل الإسلام ، وأول من استجاب لله ، فهاجر قوم إلى المدينة ، وقوم إلى الحبشة ، وقوم إلى ابن ذي يزن ، ثم هاجروا إلى المدينة ، وكانوا قدوة لغيرهم في الإيمان ، وسبب تقوية الدين {من سن سنة

(١) درة التنزيل ص ١٠٤ ، أسرار التكرار في القرآن ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها} وثنى بالأنصار لأنهم ساووهم في الإيمان ، وفي الجهاد بالنفس ، والمال لكنه عادل الهجرة الإيواء والنصر وانفرد المهاجرون بالسبق . وذكر ثالثاً من ءامن ولم يهاجر ولم ينصر ففاتهم هاتان الفضيلتان ، وحرموه الولاية حتى يهاجروا»^(١).

أقول : وهذا التفسير من أبي حيان جيد إلا قوله : « لكنه عادل الهجرة الإيواء والنصر وانفرد المهاجرون بالسبق »

فليس هناك دليل على أن الإيواء والنصر عادل الهجرة ، وكيف يعادل الإيواء الهجرة والبون بينهما بعيد ؛ هذا أخرج من بلده وأهله وماله وإذا سالم ءامن في أهله وماله وبلده ، هل يستطيع الإيواء أن يعوض المهاجرين هذا الحرمان أو أن يبدلهم أهلاً بأهل ، الجواب عند كل ذي فطرة سوية مستحيل ، ولهذا قرن الله تعالى بين قتل الإنسان نفسه وبين إخراجهم من بلده في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ (النساء: ٦٦).

وفي تقديم قوله : ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ على ﴿ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ على عكس التقديم من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (الأنفال: ٧٢) .

قال البقاعي : « وأيضاً ففي هذا الوقت كان المال قد كثر ، ومواضع الجهاد قد بعدت فناسب الاهتمام بالسبيل فلنا قدم ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾^(٢).

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنفال: ٥٥).

تقدم المسند إليه وهو الضمير {هم} على الجملة الفعلية ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لتأكيد نفي الإيمان عنهم وتقوية الحكم ودفع الشك عن ثبوته لمن هذه صفته وهذا ما أفاده التقديم الذي لو أخر فيه الضمير عن الفعل ما أفاد هذا الحكم .

(١) البحر المحيط ج ٤ ص ٥١٧.

(٢) نظم الدرر ج ٣ ص ٢٩٠.

سورة التوبة

من أنسب سور القرآن الكريم في الترتيب سورتا التوبة والأنفال ، فقد تشابهتا في كثير من الأمور فقد تضمنت الأنفال الأمر بقتال الكافرين المعتدين ، وتضمنت التوبة الحث على قتالهم وفضح المنافقين ، وبينت الأنفال أحكام الفرار من الزحف وحكم النسبة المطلوب فيها بالثبوت ولحوق الإثم بالفار وحكم الأسرى وحكم ولاية المؤمنين ، ثم ذكر في سورة التوبة حكم العهود مع المشركين وبيان مدة العهد وحكم الموفين والناكثين والخائنين ، وحكم من تخشى خيانتهم وحكم المستجيرين ، وقد تطابقت أواخر الأنفال مع بداية التوبة تطابقاً شديداً ، فلما ذكر سبحانه في آخر الأنفال العهد تارة بنبذه لمن خيفت خيانتة ﴿ فَأَنْذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴾ (الأنفال: ٥٨) ، وتارة بالتمسك به عند الأمن من ذلك ﴿ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيِّنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ (الأنفال: ٧٢) ، وبين من يصلح للموالة ومن لا يصلح ثم ختمت بالإخبار بشمول علمه سبحانه وإحاطته ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٧٥) ، ابتدأت سورة التوبة بالأمر بالنبذ إلى ناس بأعيانهم نقضوا العهد أو خيف منهم ذلك وهو شرح لآيات الموالة في سورة الأنفال . لقد بلغ من اشتباه سورة الأنفال بالتوبة أن ظن بعض الصحابة أنهما سورة واحدة ، وأن التوبة هي تكملة لسورة الأنفال ، قال البقاعي : « قدمت الأنفال مع قصرها على براءة - التوبة - مع طولها واشتباه أمرها على الصحابة في كونها سورة مستقلة أو بعض سورة ، كما قدمت آل عمران مع قصرها على النساء لمثل ذلك من المناسبة ، فكان ما ذكر في براءة من البراءة والتولي شرحاً لآخر الأنفال ، روى الإمام أحمد في المسند وأبو داود في السنن والترمذي في الجامع وحسنه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه وإسحق بن راهويه وأبو يعلى والبزار والبيهقي والإمام أبو محمد إسحق بن إبراهيم البستي القاضي في تفسيره بسند الترمذي والبيهقي - والإمام أبو جعفر النحاس بغير سند عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قلت لعثمان بن عفان رضي الله عنه : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين

فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ مما - وقال البستي - ربما - يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنها منها فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين أنها منها»^(١)

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾ (التوبة: ٦) تقدم ﴿أَحَدٌ﴾ على استجارك لتشويق السامع إلى المسند فيقع موقع التمكن.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (التوبة: ١٧). تقديم الجار والمجرور ﴿وَفِي النَّارِ﴾ لإفادة الحصر وأنهم لا يخلدون إلا في النار، وكذلك ما يفيد التقديم بذكرها من التهديد والتخويف الذي يباشر نفس المتلقي بالبداء به.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿

(التوبة: ٢٠-٢٢)

تقدم هنا ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ على ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ وهذا التقديم لمناسبة ما قبله وهو قوله: ﴿وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا﴾ إذ لا عبرة بالأعمال كلها إلا ما كان في سبيل الله، فعلى النية مدار قبول كل الأعمال، فصلاح العمل وفساده بحسب النية المقتضية لإيجاده، والآيات في الموضوع كثيرة، وكذلك الأحاديث أكتفي من الآيات بقوله تعالى في الآية الخامسة من سورة البينة: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ (البينة: ٥)، أما الأحاديث فأقتصر منها على موضوع الآية في الهجرة والجهاد، فأذكر الحديث المشهور الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

(١) نظم الدرر ج ٣ ص ٢٥٨.

قال رسول الله ﷺ {إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه} رواه البخاري ومسلم^(١) وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال النبي ﷺ {لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا}^(٢) البخاري ومسلم وعن أبي موسى رضي الله عنه أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ﷺ الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن هو في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ {من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله}^(٣) البخاري ومسلم .

وقد جاءت آيات أخر على غير هذا الترتيب حيث تارة يتقدم قوله : ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ على المجاهدة بالمال والنفس وتارة يتقدم ذكر المال والنفس فما هو السر في ذلك ؟

أقول : السر في ذلك يرجع إلى السياق أو الموضوع الذي في شأنه الآية فبحسب الموضوع ومناسبة النزول يكون التقديم والتأخير ، أذكر من ذلك الآية الواحدة والأربعين من سورة التوبة ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (التوبة: ٤١) تقدم هنا ذكر النفس والمال على قوله : ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لأن السياق يتحدث في بداية الآية عن وجوب الخروج مع اختلاف الظروف والأحوال ، ثم ذكر النفس والأموال وأياً كان المعنى في قوله خفافاً وثقلاً فكلها تدور حول المجاهدين وأحوالهم .

وقد بسط القرطبي في معناها عشرة أقوال منها : {انفروا ثبات} سرايا متفرقين نشاطاً وغير نشاط ، الغني والفقير ، الشاب والشيخ ، مشاغيل وغير مشاغيل ، الذي له عيال والذي ليس له عيال ، الذي له ضيعة والذي ليس له ضيعة ، الرجال والفرسان المقدمة وسائر الجيش ، الشجاع والجبان ، ثم قال القرطبي بعد استعراضه لتلك الأقوال :

(١) البخاري رقم ٢١١٨ مسلم رقم ٢٨٨٤ .

(٢) البخاري رقم ٣٩٠٠ مسلم رقم ١٨٦٤ .

(٣) البخاري رقم ٢٨١٠ مسلم رقم ١٩٠٤ .

« وهذه الأقوال إنما هي على معنى المثال في الثقل والخفة ».^(١)

ومن هنا كان من المناسبة جداً أن يأتي ذكر النفس والمال اتباعاً لذكر العدد بذكر العدة ثم جاء قوله : ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ليشمل ذلك كله وأنه ينبغي أن يكون خالصاً لوجه الله . وقد تقدم قوله : ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ على ذكر المال والنفس في سورة النساء الآية الخامسة والتسعين ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ (النساء: ٩٥) . أقول : إن تقديم ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ إنما هو تزكية لهؤلاء الذين خرجوا لا يريدون من الحياة الدنيا عرضاً وإنما خرجوا طالبين من ربهم ثواباً وأجرأ ، وإنما قلت ذلك لأنه في مقام المقابلة مع الذين خرجوا لعرض الدنيا والحصول على الغنيمة في الآية السابقة عليها في قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَرْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقَبَّلُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ فَتَقَبَّلُوا إِنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا ﴾ (النساء: ٩٤) .

ومنه قوله تعالى في سورة الصف في الآية الحادية عشرة ﴿ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الصف: ١١) .

فقد حسن تقديم في سبيل الله هنا مجاورتها لقوله : ﴿ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فمن لوازم الإيمان بالله الإخلاص له ومن لوازم الإيمان برسوله ملازمته في الجهاد والدفاع عنه وعن دعوته ، كما أن الآية تقدمها قوله : ﴿ هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تَحْرِقِ تَنْجِيكُمْ ﴾ والإنسان إنما يطلب الربح المضمون ما أمكن ويبعد عن المخاطرة ما أمكن ، ولما كان البيع ثميناً تتقاصر عنه همم غير المؤمنين قدم قوله في سبيل الله لتبث الطمأنينة والثقة ويحدث الإقبال بيقينهم في عظيم النوال عند ذي الجلال . قال أبو حيان : « ولما كانت الأوصاف التي تحلو بها ، وصاروا بها عبيده حقيقة هي ثلاثة ، الإيمان والهجرة والجهاد بالمال والنفس ، وقبلوا في التبشير

(١) تفسير القرطبي ، الجزء الثامن ص ٩٨ .

بثلاثة الرحمة والرضوان والجنات ، فبدأ بالرحمة لأنها الوصف الأعم الناشئ عنها تيسير الإيمان لهم ، وثنى بالإحسان لأنه الغاية من إحسان الرب لعبده ، وهو مقابل الجهاد ، إذ هو بذل النفس والمال ، وقُدِّم على الجنات لأن رضا الله عن العبد أفضل من إسكانهم الجنة ، وفي الحديث الصحيح إن الله تعالى يقول : « يا أهل الجنة هل رضيتم ؟ فيقولون يا ربنا كيف لا نرضى وقد باعدتنا عن نارك ، وأدخلتنا جنتك ، فيقول لكم عندي أفضل من ذلك فيقولون : وما أفضل من ذلك ؟ قال أحل عليكم رضائي فلا أسخط عليكم بعده »^(١) وأتى ثالثاً بقوله : ﴿ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي دائم لا ينقطع ، وهذا مقابل لقوله : ﴿ وَهَاجَرُوا ﴾ ، لأنهم تركوا أوطانهم التي نشئوا فيها ، وكانوا فيها منعمين ، فأثروا الهجرة على دار الكفر أي مستقر الإيمان والرسالة ، فقبلوا على ذلك بالجنات ذوات النعيم المقيم ، فجاء الترتيب في أوصافهم على حسب الواقع ، الإيمان ثم الهجرة ثم الجهاد ، وجاء الترتيب في المقابل على حسب الأعم ، ثم الأشرف ثم التكميل^(٢) .

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَلِكُنْ تَرْضَوْنَهَا ﴾ (التوبة: ٢٤).

قال أبو حيان : « وقدّم الآباء لأنهم الذين يجب برهم وإكرامهم وحبهم ، وثنى بالأبناء لكونهم أعلق بالقلوب ، ولما ذكر الأصل والفرع ذكر الحاشية ، وهي الإخوان ، ثم ذكر الأزواج ، وهن في المحبة والإيثار كالأبناء ، ثم الأبعد بعد الأقرب في القرابة فقال : ﴿ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ . . ثم ذكر ﴿ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا ﴾ أي اكتسبتموها ، لأن الأموال يعادل حبها حب القرابة بل حبها أشد ، وكانت الأموال في ذلك الوقت عزيزة وأكثر الناس كانوا فقراء ، ثم ذكر ﴿ وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا ﴾ .

(١) البخاري في الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ، حديث رقم ٢٤٥٨ ، مسلم ، باب الجنة وصفة

نعيمها حديث رقم ٩.

(٢) البحر المحيط ج ٥ ص ٢٣.

والتجارة لا تنهياً إلا بالأموال وجعل تعالى التجارة سبباً لزيادة الأموال ونماؤها .
ثم ذكر ﴿ وَمَسْلِكُنْ تَرَضُّوْنَهَا ﴾ . ولم يذكر أبو حيان سبب مجيء ﴿ وَمَسْلِكُنْ تَرَضُّوْنَهَا ﴾ متأخراً بعد الأموال والتجارة ، وأقول : إن السبب في ذلك أن الأموال والتجارة سبب لشراء المساكن ووجودها مترتب على وجود الأموال والتجارة .
وقد أحسن الرازي وأجاد في تعرضه لسر الترتيب في هذه الآية حيث قال :
« واعلم أنه تعالى ذكر الأمور الداعية إلى مخالطة الكفار ، وهي أمور أربعة :
أولها : مخالطة الأقارب ، وذكر منهم أربعة أصناف على التفصيل وهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج ، ثم ذكر البقية بلفظ واحد يتناول الكل ، وهي لفظ العشيرة .

وثانيها : الميل إلى إمساك الأموال المكتسبة .

وثالثها : الرغبة في تحصيل الأموال بالتجارة .

ورابعها : الرغبة في المساكن ، ولا شك أن هذا الترتيب ترتيب حسن ، فإن أعظم الأسباب الداعية إلى المخالطة القرابة ثم إنه يتوصل بتلك المخالطة إلى إبقاء الأموال الحاصلة ، ثم إنه يتوصل بالمخالطة إلى اكتساب الأموال التي هي غير حاصلة ، وفي آخر المراتب الرغبة في البناء في الأوطان والدور التي بنيت لأجل السكنى فذكر تعالى هذه الأشياء على هذا الترتيب الواجب^(١) .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّذَبِّحِينَ ۖ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ۖ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (التوبة: ٢٥-٢٧) .

جاء الترتيب في هذه الآيات على حسب الترتيب الزمني للقصة بأسلوب بلاغي أعطى القصة بعداً زمنياً وشعورياً غير ما يجري عادة في الأسلوب القصصي الذي ينتهجه الكتاب ، فقد جاء الحرف - ثم - والذي هو حرف عطف للترتيب والتراخي مكرراً ثلاث مرات في الحديث عن غزوة حنين .

(١) مفاتيح الغيب ج ١٦ ص ٢٠ .

﴿ وَضَاعَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ (التوبة: ٢٥)

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة: ٢٦)

﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ (التوبة: ٢٧)

والعطف بشم هنا في هذه المواضع الثلاثة أفاد أمرين :

أولهما : الترتيب الزمني في وقوع هذه الأحداث . . فقد وقع المسلمون أولاً في اضطراب وذعر والتمسوا الخلاص مما هم فيه من بلاء ، ولم يكن ذلك باليسور لهم . . ثم كان الفرار وتولية الدبر هما طريق النجاة ثم كان من الله توبة ومغفرة لمن فر منهم .

ثانيهما : التباين بين وجوه هذه الأحداث المتعاطفة بحيث يبدو أن عنصر الزمن لا بد أن يكون عاملاً هنا في تحريك الأحداث حتى تتغير وتبلغ الصورة التي جاءت عليها .

فالناظر للمعركة من الظاهر يحسبها معركة واحدة متلاحقة الأحداث ، بينما يجد الناظر في أسلوب ترتيبها وعرضها أنها معارك متعددة وأحداث شبه منفصلة ، فالمسلمون وقعوا في ضيق وركبهم الركب ثم جاء قوله : ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ معطوفاً على الحدث السابق عليه بما يشعر أنه حدث مستقل من باب عطف حدث على حدث أو قصة على قصة ، من ذلك قوله : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ من باب عطف قصة على قصة وكذلك جاء قوله : ﴿ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ﴾ ليوحي إلى المستمع والقارئ أن هذا ليس من قبيل ترتيب السبب على مسببه أو العلة على معلولها ، وإنما هو من قبيل قراءة حدث أو قصة جديدة وناهيك ما أعطته من إحساس بأن تلك المغفرة ليست متعلقة بما فعلوا ولكنها جاءت بعلم الله وحكمته في إعطاء المغفرة والرحمة التي هي عادة بعيدة عن الفارين والمدبرين كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُؤْلِهِمْ يَوْمَئِذٍ ذُرِّيَّهُ إِلَّا مُخَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (الأنفال: ١٦)

﴿ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ كَثُرَ مِنْ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ﴾

(التوبة: ٣٤)

لماذا بدأ بأكلهم أموال الناس بالباطل مع أن جريمة الصد عن سبيل الله أشنع وأعظم جرماً ؟

أقول : هذا من باب تقديم السبب على النتيجة ، فإن الإقبال على الدنيا وحب جمع المال كان من نتيجته الصد عن سبيل الله .

﴿ يَوْمَ تُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ (التوبة: ٣٥). هذا الترتيب في الكي على حسب الترتيب الوجودي في الدنيا ، لأن الغني صاحب المال إذا أتاه السائل يطلب تبدو منه آثار الكراهة والمنع ، فعند ذلك يقطب وجهه ويكلح ، وتجتمع أسارير وجهه ، فيتجمع جبينه ، ثم إن كرر السائل الطلب ، وألح في السؤال ، مال عن جهته ، وتركه جانباً ، ثم إن كرر الطلب وألح في السؤال ولاه ظهره ، وأعرض عنه ، واستقبل جهة أخرى ، وهي النهاية في الرد ، والغاية في المنع الدال على كراهية الإعطاء والبذل ، وهذا دأب مانعي البر والإحسان ، وعادة البخلاء ، فلذلك خص هذه الأعضاء الثلاثة بالكي يوم القيامة ، وذكرها على هذا الترتيب .

﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة: ٤١) .

قال أبو حيان : «وقدمت الأموال لأنها أول مصرف وقت التجهيز» .^(١)

بينما يرى صاحب التحرير أن الإبداء بالأموال للاعتناء أو التنبيه حيث يقول : وتقديم الأموال على الأنفس هنا : لأن الجهاد بالأموال أقل حضوراً بالذهن عند سماع الأمر بالجهاد ، فكان ذكره أهم بعد ذكر الجهاد مجملًا .^(٢)

أقول : وهذا التقديم يشبه تقديم الوصية على الدين كما مر بنا في سورة النساء ، ويحتمل أيضاً أنها من باب البداءة بالأسهل ثم الأصعب على النفس عند التكليف ولا سيما وقد بدأت الآية بالأخف عند طلب النفرة في سبيل الله فبدأت بقوله :

﴿ خِفَافًا ﴾ ثم جاء قوله : ﴿ وَثِقَالًا ﴾ كما في قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

(١) البحر المحيط ج ٥ ص ٤٧ .

(٢) مفاتيح الغيب ج ١١ ص ٨ .

بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ^٤ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجْتَهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ﴿ (النساء: ٩٥). فقد أجاب الرازي بقوله : « لقائل أن يقول : إنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ فقدم ذكر النفس على المال ، وفي الآية التي نحن فيها وهي قوله : { واجتاهدون بأموالهم وأنفسهم } قدم ذكر المال على النفس ، فما السبب؟

وجوابه : أن النفس أشرف من المال ، فالمشتري قدم ذكر النفس تنبيهاً على أن الرغبة فيها أشد ، والبائع أخر ذكرها تنبيهاً على أن المضايقة فيها أشد ، فلا يرضى ببذلها إلا في آخر المراتب^(١).

أقول : وقد عكس هذا التقديم في نفس السورة في قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ (التوبة: ١١١). وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (الحجرات: ١٥). في الآية الحادية عشرة بعد المائة تقدم شراء النفس على المال في سياق ذكر الثواب والجزاء ، فقدم أعظم الأمرين وأنفسهما في مقابل أعظم الثواب وهو الجنة ، بينما نجد أن الآيات الأخريات إما أمرة بالجهاد أو مخبرة عن حال المؤمنين في جهادهم وتضحياتهم ، وفي ضوء ذلك إما أن يكون التقديم للمال على النفس تقديماً وجودياً لأنه لا يتم الجهاد بالنفس إلا بالجهاد بالمال لأنه موقوف عليه ومترب حدوده بعده لأن الجهاد يحتاج إلى الأموال والنفقات من عتاد وسلاح ... فيكون الذكر للترتيب الوجودي .

الاحتمال الثاني : هو أنه بدأ بأخف الأمرين في التكليف من باب الترتيبي من الصعب إلى الأصعب .

الاحتمال الثالث : وهو يتعلق بمناسبة النزول حيث يتقدم ذكر المال على النفس عندما يكون الجهاد يحتاج إلى المال أكثر وتتقدم النفس على المال إذا كان الاحتياج إلى النفس أشد وأعظم ، وآية التوبة ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ نزلت في البيعة الثانية لما كان الإسلام يحتاج إلى النفوس

(١) التحرير والتنوير ج ١٠ ص ٢٠٧.

المؤمنة التي تدافع عنه وتحمل رايته وتضحى بدمائها من أجله فلم تكن الحاجة إلى المال بقدر ما كانت بحاجة إلى الرجال ، وتفصيل ذلك في كتب السيرة فإذا رجعنا إلى بيعة العقبة الثانية نجد أنها تمت في موسم الحج من العام الثالث عشر من البعثة ، حيث قدم مكة لأداء مناسك الحج مجموعة كبيرة من مسلمي المدينة وكان زعيمهم البراء بن معرور ، وقد تساءل مسلمو الأنصار فيما بينهم حتى متى يتركون رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف ، وجرت بينهم وبين الرسول ﷺ اتصالات سرية أدت إلى إبرام أهم اتفاق في تاريخ الإسلام ، وعن نتائج هذا الاتفاق يقول الدكتور مهدي رزق الله : « كانت بيعة العقبة الثانية شاملة للمبادئ التي ستم مشروعيتها بعد الهجرة إلى المدينة ، وفي مقدمتها الجهاد والدفاع عن الدعوة »^(١)

قال القرطبي : « ونزلت الآية في البيعة الثانية ، وهي بيعة العقبة الكبرى وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين وكان أصغرهم سنًا عقبة بن عمرو ، وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ عند العقبة فقال عبد الله بن رواحة للنبي ﷺ : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال النبي ﷺ : { اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم } قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : { الجنة } قالوا : ربح البيع ، لا نُقِيل ولا نستقيل فنزلت ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ »^(٢)

وللأستاذ عبد الكريم الخطيب رأي آخر وجيه أشبه بما نسميه التقديم للسببية أو لأنه علة لما بعده قال : « وقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس ، لأن المال عند من يحرص على المال أحب إليه من نفسه ، وهو القوة الغالبة التي تثقل الإنسان وتبطئه عن الجهاد ، فإذا سخا بالمال وبذله في سبيل الله خفت نفسه إلى الجهاد وانطلق من القيد الذي كان يمسك به عن أن يكون في المجاهدين »^(٣).

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية من ص ٢٤٨-٢٥٥.

(٢) تفسير القرطبي ج ٨ ص ١٦٩.

(٣) التفسير القرآني ج ١٠ ص ٧٧٨.

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (التوبة: ٤٣). تقدم العفو على العتاب لإدخال البشرى والسرور على قلب النبي ﷺ لعظيم مكانته عنده سبحانه ، فتقدم العفو من أجل تخفيف العتاب .
 بدأ بقوله : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ قبل قوله : ﴿ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ ﴾ لبيان لطف الله بنبيه وبيان عظيم شرفه ومكانته عند الله مع ما فيه من إدخال البشر والسرور على قلبه قبل العتاب .

قال الخازن : « وقال سفيان بن عيينة : انظروا إلى هذا اللطف بدؤه بالعفو قبل أن يعيره بالذنوب قال الخازن : استدل بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنوب من الأنبياء وبيانهم من وجهين : أحدهما : أنه سبحانه وتعالى قال : عفا الله عنك والعفو يستدعي سابقة الذنب ، الوجه الثاني : أنه سبحانه وتعالى قال لم أذنت لهم وهذا استفهام معناه الإنكار .

والجواب عن الأول : إنا لا نسلم أن قوله تعالى عفا الله عنك يوجب صدور الذنب بل نقول إن ذلك يدل على المبالغة في التعظيم والتوقير ، فهو كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظماً له عفا الله عنك ما صنعت في أمري رضي الله عنك ما جوابك عن كلامي وعافاك الله وغفر الله لك كل هذه الألفاظ في ابتداء الكلام وافتتاحه تدل على تعظيم المخاطب به قال علي بن الجهم يخاطب المتوكل :
 عفا الله عنك ألا حُرمةٌ تعود بفضلِكَ أن أبعدا .^(١)

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التوبة: ٥١) . تقدم الجار والمجرور ﴿ عَلَى اللَّهِ ﴾ على متعلقه ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ ﴾ ليفيد الحصر .

﴿ فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (التوبة: ٥٥) .

قال الرازي تحت {المسألة الثانية} : « قال مجاهد والسدي وقتادة : في الآية تقديم وتأخير ، والتقدير ، فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا ، إنما

(١) الخازن ج ٣ ص ١٣٠ .

يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة ، وقال القاضي : وهاهنا سؤالان : الأول : وهو أن يقال : المال والولد لا يكونان عذاباً ، بل هما من جملة النعم التي من الله بها على عباده ، فعند هذا التزم هؤلاء التقديم والتأخير ، فكيف يكون المال والولد عذاباً ؟ فلا بد لهم من تقدير حذف في الكلام بأن يقولوا أراد التعذيب بها من حيث كانت سبباً للعذاب ، وأيضاً فلو أنه قال : { فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا } لم يكن لهذه الزيادة كثير فائدة ، لأن من المعلوم أن الإعجاب بالمال والولد لا يكون إلا في الدنيا وليس كذلك حال العذاب ، فإنها قد تكون في الدنيا كما تكون في الآخرة ، فثبت بهذا القول أن التقديم والتأخير ليس بشيء^(١) .

قال الخازن : « قال مجاهد وقتادة : في الآية تقديم وتأخير ، وتقديرها فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة ، وقد مال إلى وجود التقديم والتأخير السمين الحلبي ، ولم يوافق أبداً حيان في اعتراضه حيث قال :

« إلا أن تقييد الإعجاب المنهي عنه الذي يكون في الدنيا كما يكون في الآخرة ، وممن رأى أن هذا التقديم فيه نوع من التكلف ولا حاجة إلى القول به الخازن ، حيث قال : « وقيل : إن سبب كون المال والولد عذاباً في الدنيا هو ما يحصل من المتاعب والمشاق في تحصيلهما فإذا حصل ازداد التعب وتحمل المشاق في حفظهما ويزداد الحزن والغم بسبب المصائب الواقعة فيهما ، فعلى هذا القول لا حاجة إلى التقديم والتأخير في نظم الآية وأورد على هذا القول بأن هذا التعذيب حاصل لكل أحد من بني آدم مؤمنهم وكافرهم فما فائدة تخصيص المنافقين بهذا التعذيب في الدنيا ؟ وأجيب عن هذا الإيراد بأن المنافقين مخصوصون بزيادة من هذا العذاب وهو أن المؤمن علم أنه مخلوق للآخرة وأنه يثاب بالمصائب الحاصلة له في الدنيا فلم يكن المال والولد في حقه عذاباً في الدنيا ، وأما المنافق فإنه لا يعتقد كون الآخرة له وإنه ليس فيها ثواب فبقي ما يحصل له في الدنيا فثبت بهذا الاعتبار أن المال والولد عذاب على المنافقين في الدنيا دون المؤمنين^(٢) . »

(١) مفاتيح الغيب ج ١٦ ص ٩٥ .

(٢) الخازن ج ٣ ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

﴿لَوْ يَخْتَدُونَ مَلَجًا أَوْ مَغْرَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾

(التوبة: ٥٧)

بدأ بالملجأ ، إذ هو أول مطلوب لمن أراد الاحتماء ، فيبدأ بالبحث عن حصن أو جبل أو قوم يمنعونه ، فإن تعسر ، ذهب يبحث عن المغارات ، وهي النقوب الواسعة في الجبال حيث الوصول إليها سهل ، وفرص العيش فيها أحسن ، ثم بعد ذلك إن لم يجد إلا المدخل أي المكان الذي يدخلونه بغاية العسر والصعوبة لضيقه أو لمانع في طريقه لفعلوا ذلك ، وفي هذا التدرج بيان حال هؤلاء المنافقين في طلبهم الاحتماء لإظهار كفرهم وعداوتهم .

قال السمين الحلبي : « وهذا من أبرع العلم ذكر أولاً الأمر الأعم وهو الملجأ من أي نوع كان ، ثم ذكر الغيران التي يختفي فيها في أعلى الأماكن وفي الجبال ، ثم الأماكن التي يختفي فيها في الأماكن السافلة وهي السروب التي عبر عنها بالمدخل »^(١)

قال أبو حيان : « بدئ أولاً بالأعم وهو الملجأ ، إذ ينطلق على كل ما يلجأ إليه الإنسان ثم ثنى بالمغارات وهي الغيران في الجبال ، ثم أتى ثالثاً بالمدخل وهو النفق باطن الأرض ».^(٢)

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْنَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الزَّقَابِ وَالْغَرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٦٠)، والترتيب هنا على حسب الأهمية وبيان الأحق بأخذ الصدقة من المذكور بعده ولهذا أرى أن الفقير هو أشد فقراً من المسكين لأنه ذكر قبله في نص التنزيل ، وكان النبي ﷺ يستعيز منه في الصباح والمساء ، قارئاً إياه مع الكفر بالله قائلاً : { اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وأعوذ بك من عذاب القبر } فالفقير أسوأ حالاً من المسكين والدليل على ذلك الآية التاسعة والسبعين من سورة الكهف ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ فأثبت لهم

(١) الدر المصون ج ٣ ص ١٧٤.

(٢) البحر المحيط ج ٥ ص ٥٦.

صفة المسكنة مع ملك السفينة وهي تساوي جملة من المال ، وأما قول القرطبي : {لأنه يحتمل أن تكون مستاجرة لهم} فغير مسلم له ، لأن الأصل أن اللام للملك إلا بدليل من السياق يصرفها عن الملك لغيره كما في الآية التاسعة والأربعين من سورة الشورى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ تَخَلُّقُ مَا يَشَاءُ﴾ ، وكما في الآية السادسة والخمسين بعد المائة من سورة البقرة ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ أي إنا ملك لله رب العالمين نقر بأنه يفعل في ملكه ما يشاء ، والقرطبي نفسه قد قال في هذه الآية في قوله : ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ توحيد وإقرار بالعبودية والملك .^(١) وقد استحسّن القرطبي قول أصحاب مالك والشافعي أنهما سواء ، مع أن ظاهر الأدلة التي ذكرها ترجح أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين ، قال القرطبي : «قالوا : والفقير معناه في كلام العرب المفقور الذي نزعت فقره من ظهره من شدة الفقر فلا حال أشد من هذه . وقد أخبر الله عنهم بقوله : ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ (البقرة: ٢٧٣) ، واستشهدوا بقول الشاعر :
لما رأى لبدة النور تطايرت رفع القوادم كالفقير الأعزل

أي لم يطق الطيران فصار بمنزلة من انقطع صلبه ولصق بالأرض ثم قال : وأما قوله تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ فلا يمتنع أن يكون لهم شيء .^(٢)

وأقول : ليس كل شيء بشيء ، وقد ورد الكثير من أن الفقراء لم يكونوا يملكون شيئاً أيام النبي ﷺ ومن أشهر هؤلاء أهل الصفة الذين لم يكن لهم سكن ولا مال ولا حرفة ولا طعام ، وإنما كانوا يأكلون من الصدقات ، ولو كان الفقير والمسكين سواء لما كان للتكرار معنى ، وإنما القول في مسألة الفقير والمسكين كالقول في الإسلام والإيمان والتوبة والاستغفار : إذا اجتماعا افترقا وإذا افترقا اجتماعا ، ولذا أرى أن الترتيب هنا في هذه الآية بحسب الأولوية في الإعطاء .

وكما قال صاحب المنار : «الفقراء والمساكين أحق من غيرهم بهذه الصدقات لأنهم المقصودون بها أولاً وبالذات ، بدليل الحديث المتقدم {تؤخذ من أغنيائهم

(١) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١١٩ .

(٢) تفسير القرطبي ج ٨ ص ١٠٧-١٠٩ .

فترد في فقرائهم} ويليهام العاملون عليها ، لأنهم هم الذين يقومون بجمعها وحفظها ويليهام المؤلفة قلوبهم عند الحاجة إليهم ، وهم يعطون من الغنائم أيضاً ، فالحاجة إليهم عارضة لا كالعاملين على الصدقات ويليهام مصلحة فك الرقاب والعنق وهي من المصالح الاجتماعية الكمالية لا الضرورية ، فإن تأخيرها لا يرهق معوزاً كالفقير ولا يضيع مصلحة تشتد الحاجة إليها كتأليف القلوب ، ويليهام مساعدة الغارم على الخروج من غمره فهو دون مساعدة الرقيق على الخروج من رقه ، ويليهام المصلحة العامة المعبر عنها بسبيل الله ، وأما ابن السبيل فهو دون جميع ما قبله لندرة وجوده .

ولولا إرادة الترتيب لذكر المستحقون من الأفراد بأوصافهم التي اشتقت منها ألقابهم نسقاً وهم {الفقراء والمساكين والعاملون والمؤلفة قلوبهم والغارمون وفي سبيل الله} ثم ذكرت بعدهم المصالح التي أدخل عليها {في} وهي الرقاب وسبيل الله^(١)

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٧٢). جاء هذا الوصف للجنة أولاً بما يستميل به القلوب ، حيث ذكر أولاً الجنة وأنها من جنس أبهى الأماكن التي تعرفونها ، ثم ارتقى في الوصف بأن هذه الجنات ليست كجنات الدنيا بل جنات تجري من تحتها الأنهار مخلصة صافية من شوائب الأكدار ، ولما كانت الجنة لا تصلح بلا سكن ، ذكر أن هذا السكن سكن طيب خالص من الكدر ، ولما كان الساكن في مثل هذا المكان المريح يخشى منه التحول ، ذكر أنهم فيها مقيمون ، لا ينتقلون ، فهي جنات عدن أي جنات الإقامة ، ولما ذكر النعيم ، تدرج ليصل إلى ما هو أعظم من النعيم نفسه ، إذ إن النعيم صنعة المنعم ومحض فضله ، ولم يوصل إليها إلا برضاه عنهم أن يدخلوها ولا بقاء لهم ، ولا تحول عنها إلا برضاه عنهم أن يخلدوها ، ثم إذا كان هذا كله أثر من المنعم وفيض من عطائه وكرمه فليس من شك أن تجليات صفات رحمته وكرمه ورضاه أعظم وأجمل وأحسن وأكبر ، ولهذا ختم هذا النعيم بقوله :

(١) المنار ج ١٠ ص ٥٠٦ ، ٥٠٧ .

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وهذا ما جاءت به السنة : فقد روى الإمام مالك والشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : {إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون وما لنا لا نرضى وقد أعطينا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً } .^(١)

﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ جَهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (التوبة: ٧٣).

قال أبو حيان : « ولما ذكر أمر الجهاد وكان الكفار غير المنافقين أشد شكيمة وأقوى أسباباً في القتال ، وإنكاء - هزيمة - بتصديهم للقتال قال ﴿جَهْدُ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ فبدأ بهم » .^(٢)

تقدم ذكر الكفار على المنافقين في أمر جهادهم مع كون المنافقين أعظم كفراً وأخبث عقيدة ، لهذا تقدم ذكرهم على الكفار في الوعيد بعذاب جهنم كما في قوله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (التوبة: ٦٨).

بينما تأخر ذكرهم هنا عند الأمر بالجهاد ، لأنهم لم يكونوا يحاربون الإسلام علانية ولا يظهرون عداوة ولا يحملون على أهله سلاحاً .

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَعِذُّونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ﴾ (التوبة: ٩٣).

تقدمت ﴿إِنَّمَا﴾ هنا على الجملة الاسمية ، حيث حكمها كحكم تقدمها على الفاعل والمفعول حيث يقع الاختصاص على المتأخر منهما ، فالاختصاص هنا وقع على قوله : ﴿عَلَى الَّذِينَ﴾ حيث هم المخصوصون بالعقوبة والمأثم .

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة: ١٠٠). تقدم ذكر المهاجرين على الأنصار

(١) سبق تخريجه .

(٢) البحر ج ٥ ص ٧٣ .

وذكر المهاجرين والأنصار على التابعين ، وذلك التقديم تقديم للشرف فإن المهاجرين أفضل بالهجرة والأنصار أفضل من التابعين وتقدم ذكر المهاجرين على الأنصار في قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ (التوبة: ١١٧) . وهذا هو عين الترتيب المذكور في سورة الحشر في قوله تعالى :

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (الحشر: ٨) ثم قال في الأنصار : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخَيِّبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر: ٩)، ثم قال في التابعين ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (الحشر: ١٠)، أما الدليل من السنة فقول النبي ﷺ {لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار} ^(١).

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال: لما توفي رسول الله ﷺ قام خطباء الأنصار فجعل منهم من يقول يا معشر المهاجرين إن رسول الله ﷺ كان إذا استعمل رجلاً منكم قرن معه رجلاً منا فنرى أن يلي هذا الأمر رجلان أحدهما منكم والآخر منا قال فتتابعت خطباء الأنصار على ذلك فقام زيد بن ثابت فقال: {إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين وإنما الإمام يكون من المهاجرين ونحن أنصاره كما كنا أنصار رسول الله ﷺ فقام أبو بكر فقال جزاكم الله خيراً من حي يا معشر الأنصار وثبت قائلكم ثم قال والله لو فعلتم غير ذلك لما صالحناكم} ^(٢).

وقد استدل أبو بكر الصديق ﷺ بآية سورة التوبة على تقديم المهاجرين على الأنصار عندما قال في خطبة يوم السقيفة مخاطباً الأنصار {أسلمنا قبلكم وقدمنا في الكتاب عليكم فقال تعالى : ﴿ وَالسَّيِّقُوتَ الْأُولَىٰ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية ص ٥٩٨ .

(٢) مسند أحمد كتاب مسند الأنصار رقم {٢٠٦٣١} .

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ﴾
(التوبة: ١١٧)

لقد أفاد تقديم ذكر النبي ﷺ قبل المهاجرين والأنصار في تحقيق توبة الله على المهاجرين والأنصار حيث إنه ﷺ مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فدل ذلك التقديم على عظم شأن هذه التوبة وإتيانها على كل الذنوب .

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (التوبة: ١١٨).

قال أبو حيان : « وجاءت هذه الجملة في كنف إذا في غاية الحسن والترتيب ، فذكر أولاً : ضيق الأرض عليهم ، وهو كناية عن استيحاشهم ونبوة الناس عن كلامهم ، وثانياً : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ (التوبة: ١١٨) وهو كناية عن تواتر الهم والغم على قلوبهم ، حتى لم يكن فيها شيء من الانشراح والاتساع ، فذكر أولاً ضيق المحل ، ثم ثانياً ضيق الحال فيه ، لأنه قد يضيق المحل وتكون النفس منشرجة : سَمُ الْخِيَاطِ مع المحبوب ميدان . ثم ثالثاً : لما يشوا من الخلق علقوا أمورهم بالله وانقطعوا إليه ، وعلموا أنه لا يخلص من الشدة إلا هو تعالى .^(١) ﴿ أُولَٰئِكَ يَرْوُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٦).

تقدم الاستفهام على حرف العطف للإنكار والتعجب من عدم رؤيتهم فتنتهم فلا تعقبها توبة ولا يتذكرون أمر الله .
﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨).

تقدم الجار والمجرور ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ على متعلقه ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ للاهتمام بالمؤمنين في توجيه صفتي الرأفة والرحمة بهم ، وليس ذلك للاختصاص بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)

سورة يونس

لما ختمت سورة التوبة بوصف النبي ﷺ وما حازه من كريم السجايا وعظيم الأخلاق ، جاءت الآيات في سورة يونس موصولة بآخر التوبة ، ففي آخر التوبة الحديث عن أن هذا الرسول من أنفسهم حريص على ما ينفعهم حزين على ما يضرهم ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨) ، وفي أول يونس بيان تعجب الكفار من كون هذا النبي بشراً منهم ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ (يونس: ٢) ، ولما ختمت سورة التوبة بالحديث عن المنافقين الذين في قلوبهم مرض ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٥) ، ثم جاءت الآية الأخيرة للحديث عن المعرضين ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (التوبة: ١٢٩) ، أتبع آية سورة يونس التي ذكرت عجبهم من كونه بشراً منهم بالحديث عن مصير هؤلاء المعرضين ، وبدأت بالإنذار قبل التبشير مراعاة لسبق الحديث عن هؤلاء المعرضين في خاتمة التوبة ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ (يونس: ٢) .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « فناسب لذلك أن تجيء سورة يونس بعد سورة التوبة إذ كانت خاتمة التوبة أشبه بسؤال وكان بدء يونس أشبه بجواب لهذا السؤال . أو كانت خاتمة التوبة تقريراً لحكم وكان بدء يونس تعقيباً على هذا الحكم »^(١)

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ (يونس: ٢) ، تقدم هنا خبر كان ﴿ عَجَبًا ﴾ على اسمها ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾ لكون التعجب هو مصب الإنكار والتعجب كما فيه

(١) التفسير القرآني ج ١١ ص ٩٢٩.

التشويق إلى المتأخر ، وتقدمت النذارة على البشارة لأن الحديث موجه إلى أولئك المنكرين لنبو النبي ﷺ ، فهم المقصودون بالخطاب ابتداءً .

وقد تقدم الخبر ﴿ لَهُمْ ﴾ على اسم إن ﴿ قَدْ م ﴾ ، وهذا التقديم للاختصاص بالمؤمنين دون من سواهم ، فهم الذين لهم تقدم شرف وعزة عند الله دون من سواهم .

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (يونس: ٤)، تقديم الجار والمجرور لإفادة القصر ، أي أن المرجع إلى الله وحده لقطع مطامع المشركين الذين يزعمون بأن هناك وسائط أو شفعاء مع الله. ثم ابتداء عند ذكر الجزاء بالمؤمنين لشرفهم وفضلهم.

﴿ دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (يونس: ١٠).

قال الألوسي : « وظاهر الآية أنهم يقدمون نعته تعالى بنعوت الجلال ، ويختمون دعاءهم بوصفه بصفات الإكرام لأن الأولى متقدمة على الثانية لتقدم التخلية على التحلية ، ويرشد إلى ذلك قوله سبحانه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ والمختار عندي كون فاعل التحية هو الله تعالى أو الملائكة - عليهم السلام - وحينئذ لا يبعد أن يكون الترتيب الذكري حسب الترتيب الوقوعي ، وذلك بأن يقال : إنهم حين يشرعون بالدعاء يسبحون الله تعالى وينزهونه فيقابلون بالسلام وهو دعاء بالسلامة عن كل مكروه ، فإن كان من الله سبحانه فهو مجاز لا محالة لاستحالة حقيقة الدعاء عليه تعالى ، وإن كان من الملائكة - عليهم السلام - فلا مانع من بقاءه على حقيقته لكن يوجه الطلب فيه إلى الدوام لأن أصل السلامة حاصل لهم وإن قلنا : إنها تقبل الزيادة فلا بعد في أن يوجه إلى طلبها ، وما أُلطف بمقابلة التسبيح والتنزيه بالسلامة عن المكر لقربها من ذلك معنى كما لا يخفى على المنصف ثم يختمون دعاءهم بالحمد لله رب العالمين » .^(١)

(١) روح المعاني ج ١١ ص ٧٦ .

أقول : وما ذكره الألوسي توجيه سليم في معنى التقديم والتأخير إلا قوله : « فإن كان من الله سبحانه فهو مجاز لا محالة ». ولو أنه عفا الله عنه نظر في معنى السلام على أنه من باب التحية والإكرام ، وليس من باب الدعاء لكان أولى ، وهذا ما يشهد له نص التنزيل بقول ربنا الجليل في سورة يس : ﴿ سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ۝ ﴾ .

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ (يونس: ١٢)، هذا الترتيب المذكور على عكس الترتيب المذكور في سورة آل عمران في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ (آل عمران: ١٩١)، وقد سبق القول في هذه الآية وأنه باعتبار حال قدرة المصلين من القيام ، فإن لم يستطع فالقعود ، فإن لم يستطع فعلى جنب ، أما هذه الآية فقد بدأت بهذا الترتيب لأنها تذكر حال الإنسان في دعائه إلى الله لرفع وكشف الضر ، ومن المعلوم أنه كلما كان البلاء أشد والضر أعظم كلما كان دعاء الإنسان وتضرعه أكثر ، ولهذا بدأت الآية بهذا الترتيب تبعاً لشدة البلاء والضر فأشدهم حالاً صاحب الفراش وهو المقصود بقوله : ﴿ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ ﴾ ، ومنهم من هو أخف وهو القادر على القعود ، وهو المقصود بقوله : ﴿ أَوْ قَاعِدًا ﴾ ، ومنهم من هو أخف وهو المستطيع على القيام وهو المقصود بقوله : ﴿ أَوْ قَائِمًا ﴾ فالترتيب هنا لمراعاة الحال .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ (يونس: ١٨).

قال صاحب الدرر : « وقال في سورة الفرقان ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾ (الفرقان: ٥٥).

للسائل أن يسأل عن تقديم ﴿ يَضُرُّهُمْ ﴾ على ﴿ يَنْفَعُهُمْ ﴾ في الآية الأولى ، وتقديم ﴿ يَنْفَعُهُمْ ﴾ على ﴿ يَضُرُّهُمْ ﴾ في الآية الثانية ، وهل صلح أحدهما مكان الآخر ؟

والجواب أن يقال : إنما قدم يضرهم على ينفعهم في الآية الأولى ، لأن العبادة تُقام للمعبود خوفاً من العقاب أولاً ، ثم رجاء للثواب ثانياً ، وقد تقدم في هذا المكان ما أوجب تقديم يضرهم على ينفعهم في الآية الأولى ، وهو قوله : ﴿ قُلْ

إِنِّي أَخَافُ إِنَّ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾ فكأنه قال : ويعبدون من دون الله ما لا يخافون ضرراً في معصيته ولا يرجون نفعاً في عبادته ، وقدم ما لا يضرهم على ما لا ينفعهم في هذا المكان لهذا المعنى ولهذا اللفظ ، وأما في سورة الفرقان فقد تقدمت قبلها آيات قدم فيها الأفضل على الأدون ، كقوله عز وجل ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ﴾ (الفرقان: ٥٣). وقوله بعده : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ ﴾ أي يتكلفون المشقة بعبادة ما لا يرجونه لنفع ولا يخشونه لضر ، فقدم الأفضل على الأدون لهذا المعنى وللبناء على ما تقدم من الآيات ، فجاء في كل موضع على ما اقتضاه ما تقدمه وصح في المعنى الذي اعتمد له ^(١)

أقول : وقد فات صاحب الدرة قوله تعالى في نفس السورة ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنَّ يُرْدِّكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (يونس: ١٠٦، ١٠٧).

وتقدم النفع على الضر في هذه الآية لأنه تقدمه قوله تعالى حكاية عن قوم يونس : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَتَنْفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُنْسُوا لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (يونس: ٩٨).

قال أبوحيان في الآيتين السابقتين : « ولما تقدم قوله ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ فأخر الضر ناسب أن تكون البداء بجملة الشرط المتعلقة بالضر ، وأيضاً فإنه لما كان الكفار يتوقع منهم الضر للمؤمنين ، والنفع لا يرجى منهم ، كان تقديم جملة الضر أكد في الإخبار فبدأ بها. ^(٢)

ولصاحب التحرير رأي آخر يقول : « وقدم ذكر نفي الضر على نفي النفع » لأن المطلوب من المشركين الإقلاع عن عبادة الأصنام ، وقد كان سديتها يخوفون عبدتها بأنها تلحق بهم وبصبيانهم الضر ، كما قالت امرأة طفيل بن عمرو

(١) درة التنزيل ١٠٦٥.

(٢) البحر المحيط ج ٥ ص ١٩٦.

الدوسي حين أخبرها أنه أسلم ودعاها إلى أن تسلم فقالت : {أما تخشى على الصبية من ذي الشرى} - صنم كان يعبد ابن دوس - فأريد الابتداء بنفي الضر لإزالة أوهام المشركين في ذلك الصادة لكثير منهم عن نبذ عبادة الأصنام^(١) وقد تقدم الضر على النفع في قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ (يونس: ٤٨، ٤٩).

وتقدم الضر على النفع لأنه أنسب بالغرض ، إذ قبلها استعجال الكفار لعذاب الله تعالى ، كما يفيد التقديم نوع من الترقى المفيد للتبري من الحول والقوة ، حيث بدأ بالأخف وهو استطاعته إضرار نفسه ، ثم ارتقى نافعياً جلب النفع لها .
﴿ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتْ بِكُمْ بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ وَفَرِحْتُمْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ (يونس: ٢٢) . بدأ بذكر البر لأن سير الإنسان فيه أكثر وأسبق ، وإن كان سير البحر أعجب ، ولهذا جاء التفصيل بالسير للبحر دون البر .

﴿ فَلَمَّا أَغْتَتَهُمْ إِذَا هُمْ يَنْفُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَقَاتِبُ النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس: ٢٣)، تقديم الجار والمجرور في قوله : ﴿ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ﴾ لإفادة الاختصاص ، وأن الرجوع لن يكون إلا لله رب العالمين .

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (يونس: ٤٢)، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ ﴾ (الزحرف: ٤٠)، وقد مر الحديث عن تقدم الاستفهام على الاسم في الباب الرابع {أثر التقديم والتأخير في علم المعاني} حيث ذكرت في هذه الآية : ليس إسماع الصم مما يدعيه كل أحد فيكون ذلك للإنكار وإنما المعنى في هذا التمثيل والتشبيه هو أن ينزل الذي يظن بهم أنهم يسمعون ، أو أنه يستطيع إسماعهم منزلة من يرى أنه يسمع الصم ، أو يهدي العمي والمعنى في تقديم الاسم وإن لم يقل

(١) التحرير والتنوير ج ١١ ص ١٢٥ .

{إسمع الصم} هو أن يقال للنبي ﷺ : أأنت خصوصاً أوتيت أن تسمع الصم وأن يجعل في ظنه أنه يستطيع إسماعهم بمثابة من يظن أنه قد أوتي قدرة على إسماع الصم ومن ذلك قول ابن أبي عيينة السابق ذكره :

فَدَعَ الْوَعِيدَ فَمَا وَعِيدُكَ ضَائِرِي أَطْنِي أَجْنَحَةَ الذُّبَابِ يَضِيرُ
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (يونس: ٤٤).
تقدم المفعول به ﴿ أَنْفُسَهُمْ ﴾ على الفعل والفاعل ﴿ يَظْلِمُونَ ﴾ لإفادة الاختصاص بأن ضرر كفرهم وظلمهم لا يعود إلا عليهم ، ونظيره قوله تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ ﴾ (٣٥، ٣٤) ، ابتداءً الله سبحانه وتعالى في الاستدلال على وجوده بتقديم دليل الخلق أولاً ثم دليل الهداية ثانياً ، وهذه عادة مطردة في القرآن في قوله تعالى على لسان الخليل إبراهيم - عليه السلام - : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ (الشعراء: ٧٨) وعلى لسان موسى - عليه السلام - ﴿ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ (طه: ٥٠) وأمر محمداً ﷺ بذلك فقال : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾ (الأعلى: ١-٣)

قال الرازي : « فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق ، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية فهانذا أيضاً لما ذكر دليل الخلق في الآية الأولى ﴿ أَمِنْ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ (النمل: ٦٤) أتبعه بدليل الهداية في هذه الآية . واعلم أن المقصود من خلق الجسد حصول الهداية ، للروح ، كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨) وهذا كالتصريح بأنه تعالى إنما خلق الجسد وإنما أعطى الحواس لتكون آلة في اكتساب المعارف والعلوم ، وأيضاً فالأحوال الجسدية خسيصة يرجع حاصلها إلى الالتذاذ بذوق شيء من الطعوم أو لمس شيء من الكيفيات الملموسة .

أما الأحوال الروحانية والمعارف الإلهية ، فإنها كمالات باقية أبد الأباد مصونة عن الكون والفساد ، فعلمنا أن الخلق تبع للهداية ، والمقصود الأشرف الأعلى حصول الهداية ^(١).

﴿ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس: ٤١).

قال أبوحيان : « يبدأ في المأمور بقوله : ﴿ لِي عَمَلِي ﴾ لأنه أكد في الانتفاء منهم وفي البراءة بقوله : ﴿ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ ﴾ لأن هذه الجملة جاءت كالتوكيد ، والتميم لما قبلها ، فناسب أن تلي قوله : ﴿ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ ولمراعاة الفواصل ، إذ لو تقدم ذكر براءة كما تقدم ذكر ﴿ لِي عَمَلِي ﴾ لم تقع الجملة فاصلة ، إذ كان يكون التركيب وأنتم بريثون مما أعمل ^(٢).

أقول : وفي تقديم قوله : ﴿ أَنْتُمْ بَرِيثُونَ مِمَّا أَعْمَلُ ﴾ على قوله : ﴿ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ أدب من آداب الدعوة الإسلامية عند مخاطبة المخالفين ، وهو نفي مسؤوليتهم عن غير أعمالهم وتطمينهم بعدم مجازاتهم بجرم غيرهم ، فمن أجل ذلك بدأ بنفي براءتهم أولاً لأنهم هم المعنيون هنا بالخطاب ، ولذا تقدم نسبة العمل إليه ﷺ في قوله ﴿ لِي عَمَلِي ﴾ على قوله ﴿ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ﴾ لنفس الغرض .
﴿ وَلَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴾ (يونس: ٤٦) تقدم الجار والمجرور ﴿ إِلَيْنَا ﴾ على المبتدأ ﴿ مَرْجِعُهُمْ ﴾ للحصر والاختصاص أما ﴿ ثُمَّ ﴾ فليست هنا للترتيب الزمني ، بل هي للترتيب الإخباري لا لترتيب القصص نفسها

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٥٧) ، وصف القرآن في هذه الآية بأربع صفات ، جاءت على هذا الترتيب موعظة ، شفاء ، هدى ، رحمة للمؤمنين ، هذا الترتيب جاء في غاية الإبداع لتأثير القرآن الكريم في قلوب المؤمنين فبدأ بذكر الموعظة أولاً لماذا ؟

(١) مفاتيح الغيب ج ١٧ ص ٩٤.

(٢) البحر المحيط ج ٥ ص ١٦١.

أقول : إن الموعظة هي الكلمات الموجهة إلى القلب بهدف التأثير عليه واستمالته لما يلقي عليه ، ولهذا فرق القرآن الكريم بينها وبين الحكمة وبين الجدال في الآية الخامسة والعشرين بعد المائة من سورة النحل في قوله تعالى : ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ثلاث وسائل أمر النبي ﷺ وكل من قام بدعوته أن يلتزمها عند دعوة الآخرين أولها : الحكمة. وثانيها : الموعظة. وثالثها : الجدال بالتي هي أحسن ، فالحكمة وهي موافقة المقال لمقتضى الحال ، وذلك يكون قبل الشروع ابتداءً في الدعوة من اختيار المقال وكيف يقال ومتى يقال ، أما عند الدعوة والقيام بها فتأتي الموعظة وهي الكلمات الموجهة للقلب للتأثير عليه من أجل أن يقبل الحق ، فكم من أناس علموا وفهموا وعقلوا وتبين لهم الحق من الباطل والخير من الشر إلا أنهم لم ينقادوا ولم يهتدوا بسبب حجب قلوبهم وآفات نفوسهم وأغلال عواطفهم ، والآيات في القرآن كثيرة تدل على أن سبب الإعراض إنما هو ناشئ من أمراض القلوب وشهوات النفوس ، من ذلك الآية الرابعة عشرة من سورة النمل ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ ، والآية التاسعة بعد المائة من سورة البقرة ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ ، والآية السبعون بعد المائة من سورة البقرة ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلَىٰ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا ﴾ ، والآية الرابعة عشرة من سورة المطففين . ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ، وقد ورد في السنة ما يؤيد قولنا ففي حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون .. { رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح ، فهذا يؤيد ما ذكرناه من أن الموعظة ميدان عملها القلوب ، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الجدال وهو صراع الأدلة ومقارعة البراهين وإزالة الشبهات ودمغ الباطل بقذائف الحق لتزال الغشاوة من الأبصار وتنجلي شمس الحقيقة في ضوء النهار ، ومن هنا بدأت الآية بالموعظة والتي هي بمثابة الدواء الناجع والعلاج النافع حتى إذا ما قبله البدن وتأثر به واستقبله الجسد استقبالا جيدا وهو هنا القلب حدث الشفاء ثم يحدث الاهتداء بعد ذلك ، حيث

يسير البدن سيراً طبيعياً في عمل وظائفه ، وهكذا المؤمن المهتدي الذي طاب عمله وقوله وصلح باطنه وظاهره ، فتأتي أنوار الهداية بطيب عمل وحسن سعاية فحينئذ يكون مؤهلاً للرحمة من الله عز وجل .

وقد وجدت كلام الرازي عن السر في هذا الترتيب شبيهاً مما قلته ، وأنا أذكره باختصار حيث قال : « إن محمداً كان كالطبيب الحاذق ، وهذا القرآن عبارة عن مجموع أدويته التي بتركيبها تعالج القلوب المريضة ، ثم إن الطبيب إذا وصل إلى المريض فله معه مراتب أربعة .

● المرتبة الأولى : أن ينهاء عن تناول ما لا ينبغي ويأمره بالاحتراز عن تلك الأشياء التي بسببها وقع في ذلك المرض ، وهذا هو الموعظة..

● المرتبة الثانية : الشفاء وهو أن يسقيه أدوية تزيل عن باطنه تلك الأخلاط الفاسدة الموجبة للمرض ، فكذلك الأنبياء - عليهم السلام - إذا منعوا الخلق عن فعل المحظورات صارت ظواهرهم مطهرة عن فعل ما لا ينبغي ، فحينئذ يأمرهم بطهارة الباطن وذلك بالمجاهدة في إزالة الأخلاق الذميمة وتحصيل الأخلاق الحميدة ، وأوائلها ما ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النحل: ٩٠).

● المرتبة الثالثة : حصول الهدى ، وهذه المرتبة لا يمكن حصولها إلا بعد المرتبة الثانية ، وقد أفاض الرازي بعباراته الصوفية في هذه المرتبة والتي تليها حيث ذكر أن حصول الهدى إنما يكون بانقشاع ظلمة المعصية التي إن زالت فقد زال العائق عن وصول نور الهدى .

● المرتبة الرابعة : ورحمة للمؤمنين فقد أكد على أن هذه الرحمة الخاصة بالمؤمنين إنما يتفاوتون فيها على حسب قبول وقرب هذه النفوس من الوحي ، وأعطى على ذلك مثلاً بقرب الأجسام وتباعدها من أشعة الشمس ، ثم قال : فهذه درجات عقلية ومراتب برهانية مدلول عليها بهذه الألفاظ القرآنية لا يمكن تأخير ما تقدم ذكره ، ولا تقديم ما تأخر ذكره^(١).

(١) مفاتيح الغيب ج ١٧ ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ
أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (يونس: ٥٩). تقدم الحديث عن هذه الآية في
الفصل الرابع بعنوان « صورة الاستفهام الدال على الإنكار »

وقلنا : إن إنكار الفعل إنكارا تكديبيا له صورتان :

الأولى أن يقع الفعل عقب الاستفهام .

الثانية : أن ينحصر الفعل ، أو مفعوله ، أو غيرهما من متعلقاته عقب الهمزة
ويعطف عليه غيره بـ { أم } إن وجد وحينئذ يتوجه الإنكار إلى الاسم المقدم ،
بحسب الظاهر فيلزم من إنكاره إنكار الفعل لأن الفعل إذا نفي فاعله ، الذي
لا فاعل له غيره ، أو مفعوله الذي لا مفعول له غيره ، أو ظرفه الذي لا ظرف له
غيره لزم انتفاؤه حتماً ، ومن أمثلة ذلك هذه الآية الكريمة فالمقصود هنا هو نفي
الإذن من أصله ، فإنه لا آذن في التحليل والتحريم إلا الله ، فإذا نفى أن يكون الله
آذناً ، فقد انتفى الإذن وأتى الكلام في صورة نفي الفعل لا الفاعل ليكون أبلغ .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ
شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي
السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (يونس: ٦١) .

قال الزمخشري : « فإن قلت : لم قدمت الأرض على السماء ، بخلاف قوله في
سورة سبأ ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾
(سبأ: ٣) ، قلت : حق السماء أن تقدم على الأرض ، ولكنه لما ذكر شهادته على
شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ، ووصل بذلك قوله : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ ﴾
لأن ذلك لأن قدم الأرض على السماء .^(١) وقد نقل الرازي هذا القول عن
الزمخشري ولم ينسبه إليه .^(٢)

ولصاحب الطراز توجيه جميل في شأن هذا التقديم قال : « والتفرقة بينهما هو
أنه أراد في الثانية ذكر إحاطة علمه وشموله لكل المعلومات الجزئية والكلية ،
فلا جرم صدر بالسموات قبل الأرض لاشتمالها على لطائف الحكمة وعجائب
الصنعة ومحكم التأليف وكثرة المعلومات كما قال تعالى :

(١) الكشف ج ٢ ص ٣٤٢ .

(٢) مفاتيح الغيب ج ١٧ ص ١٢٩ .

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ ﴾ (الأنعام: ٧٥)، وأما الأولى فإنها كانت مسوقة من شأن أهل الأرض كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَعْمَلُونَ مِمَّنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْهِمْ شُهودًا ﴾ فقدم ذكر الأرض تنبيهاً على ذلك لما كان له اختصاص به^(١).

﴿ فَيَكْذِبُوهُ فَنَجِّنِيهِ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْقًا وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَائِلَتِنَا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ (يونس: ٧٣).

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « وقد هنا نجاة نوح ومن معه ووراثتهم الأرض بعد قومهم الهالكين - قدم ذلك على هلاك القوم ، خلافاً للظاهر الذي يقضي به قوله تعالى : ﴿ فَيَكْذِبُوهُ ﴾ إذ المتوقع هنا الإجابة عن هذا السؤال : ماذا كان جزاؤهم إذ كذبوه ؟ وهنا سؤال يسأله المؤمنون الذين ينتظرون ما يحل بالمكذبين فكان الجواب المنتظر هو ﴿ فَأَعْرَفْنَاهُمْ ﴾ ولكن الإجابة جاءت عن سؤال يسأله الذين يكذبون بآيات الله ويحادون رسل الله فيقولون وماذا جرى لنوح والمؤمنين بعد أن كذبه قومه وأبعدوه من بينهم ؟ فجاء الجواب لقد نصره الله ومن معه ونجاهم وأورثهم أرض القوم المكذبين وديارهم فموتوا بغيطكم أيها المكذبون ، فإن رسل الله وأوليائهم هم المنصورون ، وهم الفائزون المفلحون .. أما المكذبون فلهم الويل والخزي في الدنيا والآخرة^(٢) . »

وأقول : إن لفظة النجاة تعني أن هناك مكروهاً قد تم السلامة والنجاة منه ، فلا تكون النجاة إلا من المكروه ، بينما ذكر الإهلاك لا يتضمن معنى النجاة ولهذا بدأ بالمؤمنين لشرفهم مع ما فيه من تضمن معنى هلاك المكذبين ، وقد سبق الإشارة إلى ذلك في الفصل الثالث { دوافع التقديم والتأخير } فتحت عنوان الدافع الأول : تعجيل المسرة ذكرت قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾

وقول ابن الدميني :

أبيني أفي يميني يديك جعلتني أم صيرتني في شمالك
وقول أبي الحسن الجياني :
عدوك مقهور وحزبك غالب وأمرك منصور وسهمك صائب

(١) الطراز ص ٢٣٩.

(٢) التفسير القرآني ج ١١ ص ١٠٥٢.

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ (يونس: ٧٥).

تقدم الجار والمجرور ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ (يونس: ٧٥) على المفعول الصريح ﴿ مُوسَىٰ ﴾ للتشويق إلى المؤخر ، ولمناسبة ما قبله حيث كان الحديث عن أمم الأنبياء السابقين .

﴿ قَالَ مُوسَىٰ أَتُقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۖ أُسْحِرُوا هَٰذَا وَلَا يُفْلِحِ السَّحَرُونَ ﴾ (يونس: ٧٧)، تقدم الخبر ﴿ أُسْحِرُوا ﴾ على المبتدأ ﴿ هَٰذَا ﴾ للإيدان بأنه مصب الإنكار حيث أنكر عليهم ادعاءهم أن معجزات الله سحر .

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْلَمَ مَا جِئْتَنَا وَعَدْتَنَا عَلَيْهٖءَآبَاءُنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبَرِيَّاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا خَشِئْنَا لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٧٨) تقدم ﴿ لَكُمْ ﴾ على متعلقه ﴿ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ للتشويش والإلباس بإيهام الناس أن عدم الإيمان سببه موسى وهارون .

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَاقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُتُمْ بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ ﴾ ﴿ فَقَالُوا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (يونس: ٨٤، ٨٥).

هذا الآية تدخل ضمن آيات القرآن الكريم التي يتعلق فيها التقديم والتأخير بفقه وآداب الدعوة الإسلامية ، حيث بدأ المسلمون في دعائهم إلى الله عز وجل ألا يكونوا فتنة للكافرين ، ويظهر لي فيها معنيان الأول منهما : حرص المؤمنين على إيمان الكافرين كان أقوى وأولى وأهم عندهم من أمر نجاتهم ، فبدءوا بذكره أولاً طمعاً منهم ألا يكونوا فتنة في عدم إيمان الكافرين .

ثانياً : خوفهم على أنفسهم واتهامها بالتقصير من أن يكونوا حجر عثرة وموضع شبهة في عدم إيمان الكافرين طلباً للبراءة والسلامة من التهمة.

كما أن البدء منهم بقولهم : ﴿ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ كان من أشد المناسبة في استحقاق الصدارة لأنه جاء رداً على أمر متعلق بشرط الغرض منه بعث الغيرة الإيمانية والتحلي بالمحاسن الأخلاقية في اختبار صفة الصبر والتوكل في مقام العبودية عند نزول الرزية والبلية ، فبدءوا بإثبات صفات الإيمان وما فيه من البدار إلى الطاعة والامتثال بدون مانع أو اعتلال .

قال الرازي : « واعلم أن هذا الترتيب يدل على أنه كان اهتمام هؤلاء بأمر دينهم فوق اهتمامهم بأمر دنياهم ، وذلك لأننا إن حملنا قولهم : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ على أنهم سلطوا على المسلمين صار ذلك شبهة لهم في أن هذا الدين باطل ، فتضرعوا إليه تعالى في أن يصون أولئك الكفار عن هذه الشبهة ، وقدموا هذا الدعاء على طلب النجاة لأنفسهم ، وذلك يدل على أن عنايتهم بمصالح دينهم فوق عنايتهم بمصالح أنفسهم ، وإن حملناه على أن لا يمكن الله تعالى أولئك الكفار من أن يحملوهم على ترك هذا الدين كان ذلك أيضاً دليلاً على أن اهتمامهم بمصالح أديانهم فوق اهتمامهم بمصالح أبدانهم ، وعلى جميع التقديرات فهذه لطيفة شريفة .^(١) »

أقول : ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَآغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (المتحنة: ٥) ﴿ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتَكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ (هود: ٩١) .

في هذه الآية تقدم النفي على الفاعل المعنوي ﴿ أَنْتَ ﴾ وإن كان الخبر {عزيز} ليس فعلاً بل هو صفة مشبهة ، والقصد بتقديم هذا الضمير الحصر والاختصاص أي اختصاص النفي بمعنى أن عدم العزة مقصور عليك لا يتجاوزك إلى رهطك لا بمعنى نفي الاختصاص بمعنى لست منفرداً بالعزة ، والدليل على ذلك من الآية هو جوابه - عليه السلام ﴿ قَالَ يَقَوْمِ أَرْهَطِيْ أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ ﴾ (هود: ٩٢) ، فدل جوابه على أن المراد من قولهم هو اختصاصه بنفي العزة عنه ، وقد سبق الحديث عن التقديم والتأخير في الباب الرابع تحت عنوان التقديم والتأخير في النفي ، الصورة الثانية : نفي فعل ثبت أنه مفعول ، ومنه قول المتنبي :

وما أنا أسقمتُ جِسمي به ولا أنا أضرمْتُ في القلب نارا^(٢)

وقوله :

وما أنا وحدي قلتُ ذا الشعرَ كلّه ولكنْ شعري فيه من نفسك شعر^(٣)

(١) مفاتيح الغيب ج ١٧ ص ١٥٣ .

(٢) سبق تخريجه من ديوان المتنبي .

(٣) سبق تخريجه من ديوان المتنبي .

سورة هود

لقد تشابه صدر سورتي يونس وهود تشابها كبيرا ، فقد وصف الكتب في يونس بالحكمة وكذلك في هود مع زيادة وصفه بتفصيل آياته ، ووصف النبي بأنه بشير ونذير مع تقدم النذارة على البشارة وكذلك الأمر في هود ثم ذكر الوعد الحسن للمؤمنين قال تعالى في سورة يونس : ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَنَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝﴾ (يونس: ٢٠١)، وفي سورة هود ذكر نعيم الآخرة مع زيادة ذكر المتاع الحسن لهم في الدنيا قبل الآخرة ﴿الرَّ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ ۝ وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبِّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتْنَعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۚ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝﴾ (هود: ١-٣). ثم ذكرت سورة يونس أن ذلك الإله الموصوف بهذا الصفات مرجع الخلق كله إليه ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا ۝﴾ (يونس: ٤)، وفي هود في نفس رقم الآية ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ (هود: ٤).

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ ۝﴾ (هود: ٢) تقدمت صفة النذارة على البشارة لأن الخطاب موجه إلى الكفار فناسب تقديم الوعيد والتهديد لأنهم على شفا حفرة من النار فإن أعرضوا وقعوا فيها.

قال الثعالبي : « وقدّم النذير لأن التحذير من النار هو الأهم »^(١)

وأقول : وليته أكمل فقال بأنه الأهم في شأن هؤلاء المعرضين والتقديم إنما يكون بحسب السياق .

﴿وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبِّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتْنَعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۚ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝﴾ (هود: ٣).

(١) الجواهر الحسان ج ٢ ص ١١٦.

تقدم الاستغفار على التوبة في هذه الآية وفي مواضع أخر من القرآن الكريم منها قوله تعالى : ﴿ وَيَقُومِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ (هود: ٥٢)، وقوله تعالى : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (هود: ٦١).

وقوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (هود: ٩٠)

وقد قرنت في الآيات السابقات مع الاستغفار فدل على أنهما معنيان مختلفان وأنهما كما أشرت سابقاً إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا ، فالاستغفار المفرد كالنوبة بل هو التوبة بعينها مع تضمنه طلب المغفرة من الله وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره ، أما عند اقتران الاستغفار بالتوبة فالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى والتوبة طلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل ، فهنا أمران مفارقة الشيء والرجوع إلى غيره ، وكما يقول صاحب المدارج : « فخصت التوبة بالرجوع والاستغفار بالمفارقة ولهذا جاء - والله أعلم - الأمر بهما مرتباً بقوله : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل وأيضاً فالاستغفار من باب إزالة الضرر والتوبة طلب جلب للمنفعة فالمغفرة أن يقيه شر الذنب والتوبة أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه »^(١).

وأقول : إن تقديم الاستغفار هنا على التوبة ظاهر بين أنه من باب تقديم المتحقق على المتعلق ، فإذا تحقق من العبد صدق الرجوع والندم على زلات الوقوع مد له ربه أسباب التوفيق وفتح له باب الاستقامة والتوبة وملازمة الخضوع ، فلا يرجى لعاص استقامة ما لم يسبقها استغفار وندامة ، هذا الترتيب بين الاستغفار والتوبة هو الذي جاءت به السنة النبوية في كيفية استغفار النبي ﷺ فقد كان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد {رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور مائة مرة}.

(١) تهذيب مدارج السالكين ، ابن قيم الجوزية ، هذب عبد المنعم صالح العلي العزي ، دار المطبوعات الحديثة جدة المملكة العربية السعودية ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

وعن سر هذا الترتيب يقول الرازي : «الوجه الأول : أن معنى قوله : ﴿ وَأَنْ أَسْتَغْفِرُوا ﴾ اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ، ثم بين الشيء الذي يطلب به ذلك وهو التوبة ، فقال ﴿ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ﴾ لأن الداعي إلى التوبة والمحرض عليها هو الاستغفار الذي هو عبارة عن طلب المغفرة ، وهذا يدل على أنه لا سبيل إلى طلب المغفرة من عند الله إلا بإظهار التوبة ، والأمر في الحقيقة كذلك ، لأن المذنب معرض عن طريق الحق ، والمعرض المتماذي في التباعد ما لم يرجع عن ذلك الإعراض لا يمكنه التوجه إلى المقصود بالذات ، فالمقصود بالذات هو التوجه إلى المطلوب إلا أن ذلك لا يمكن إلا بالإعراض عما يضاده فثبت أن الاستغفار مطلوب بالذات ، وأن التوبة مطلوبة لكونها من متممات الاستغفار وما كان آخراً في الحصول كان أولاً في الطلب ، فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على ذكر التوبة.

الوجه الثاني : في فائدة هذا الترتيب أن المراد : استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا إليه في المستأنف .

الوجه الثالث : وأن استغفروا من الشرك والمعاصي ، ثم توبوا من الأعمال الباطلة.

الوجه الرابع : الاستغفار طلب من الله لإزالة ما لا ينبغي ، فقدم الاستغفار ليدل على أن المرء يجب أن لا يطلب الشيء إلا من مولاه فإنه هو الذي يقدر على تحصيله ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لأنها عمل يأتي به الإنسان ويتوسل به إلى دفع المكروه والاستعانة بفضل الله مقدمة على الاستعانة بسعي النفس ، واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاثة ^(١) ذكر بعدها ما يترتب عليها من الآثار النافعة والنتائج المطلوبة ^(٢)

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (هود: ٦)، تقديم ﴿ عَلَى اللَّهِ ﴾ على متعلقه وهو ﴿ رِزْقُهَا ﴾ لإفادة القصر أي أن رزقها على الله ، لا غيره ، ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى في نفس السورة : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾ (هود: ١٢٣)، حيث قصر علم الغيب ورجوع الأمر كله إليه وحده سبحانه .

(١) والأصوب الثلاث ولعله خطأ مطبعي.

(٢) مفاتيح الغيب ج ١٧ ص ١٨٨ ، ١٨٩.

﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (هود: ٢٤)، شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع ، والسؤال المطروح هنا لم قدم ذكر الكافرين على المؤمنين؟ أقول : تبعاً للسياق ، فالآيات السابقة بدأت بذكر الكافرين وأحوالهم ثم ثنت بالمؤمنين ولهذا جاءت الآية على الترتيب السابق ، في هذا الأسلوب البلاغي المعروف باللف والطباق .

قال أبوحيان : « ولما تقدم ذكر الكفار ، وأعقب بذكر المؤمنين ، جاء التمثيل هنا مبتدأ بالكافر ، فقال : كالأعمى والأصم ولم يجئ التركيب : كالأعمى والبصير والأصم والسميع ، فيكون مقابلة في لفظ الأعمى وضده ، وفي لفظة الأصم وضده ، لأنه تعالى لما ذكر انسداد العين أتبعه بانسداد السمع ، ولما ذكر انفتاح البصر أتبعه بانفتاح السمع ، وذلك هو الأسلوب في المقابلة والأتم في الإعجاز»^(١).

قال السمين الحلبي : « فإن قلت : لم قدم تشبيه الكافر على المؤمن؟ أجيب : بأن المتقدم ذكر الكفار ، فلذلك قدم تمثيلهم فإن قيل : ما الحكمة في العدول عن هذا التركيب ، فلو قيل : كالأعمى والبصير والأصم والسميع لتقابلت كل لفظة مع ضدها ويظهر بذلك التضاد؟ أجيب بأنه تعالى لما ذكر انسداد العين أتبعه بانسداد الأذن ، ولما ذكر انفتاح العين أتبعه انفتاح الأذن وهذا التشبيه أحد الأقسام وهو تشبيه أمر معقول بأمر محسوس ، وذلك أنه شبه عمى البصيرة بعمى البصر ، وصم السمع ذاك متردد في ظلم الضلالات ، كما أن هذا متحير في الطرقات ، وهذه فوائد علم البيان»^(٢).

﴿ قَالَ يَنْقُومِرَ أَرْءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمْوهَا وَأَنْتُمْ هَاهُنَا كَاذِبُونَ ﴾ (هود: ٢٨) قال صاحب الدرة : وقال في قصة صالح - عليه السلام - في هذه السورة ﴿ قَالَ يَنْقُومِرَ أَرْءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَءَاتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ (هود: ٦٣) ، للسائل أن يسأل عن مخاطبة النبيين نوح

(١) البحر المحيط ج ٥ ص ٢١٤ .

(٢) الدر المصون ج ٤ ص ٩٠ .

وصالح - عليهما السلام - قوميهما باللفظين اللذين تساويا إلا فيما اختلفا فيه من تقديم المفعول الثاني في الآية الأولى على الجار والمجرور وتأخيرهما عنهما في الآية الثانية .

والجواب : أن يقال إن المعنيين واحد في الموضعين ، وقولاهما سواء للأمتين ، وإنما اختلفا باختيار الله في موضع خبراً قدم فيه المفعول الثاني على الجار والمجرور لإجراء هذا الفعل ومفعوليه على ما جرى عليه الفعل الذي قبله وهو ﴿ مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا ﴾ فبشراً مفعول ثان من نراك ، وقوله : ﴿ وَمَا نَرْنَكَ أَتْبَعَكَ ﴾ في موضع المفعول الثاني من نراك ، ثم بعده ﴿ بَلْ نَقُضُّكَ كَذِيبِينَ ﴾ فلما تقدمت أفعال ثلاثة كل منها يتعدى إلى مفعولين ، والمفعول الثاني منها لا يحجزه عن الأول مفعول فيه ، كان إجراء هذا الفعل الذي هو ﴿ وَءَاتَيْنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ ﴾ مجرى تلك الأفعال التي وقعت آتاني في جوابها ، وجاءت من كلام نوح - عليه السلام - في مقابلتها أولى . وأما في قصة صالح - عليه السلام - ، فإنه بإزاء قول قومه له : ﴿ يَصْلَحْ قَدْ كُنْتَ فِيْنَا مَرْجُوءًا قَبْلَ هَذَا ﴾ فوقع خبر كان الذي هو كالمفعول لكان وقد تقدمه الجار والمجرور ، فجرى جواب صالح - عليه السلام - فيما صار منه بالعربية مجرى الابتداء في هذا المعنى ، فترجح في هذا المكان تقديم الجار والمجرور في قوله : ﴿ وَءَاتَيْنِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ على المفعول الثاني ، كما ترجح هناك تقديم المفعول الثاني على الجار والمجرور^(١).

وقد تقدم أيضاً المجرور ﴿ هَا ﴾ على قوله : ﴿ كَرِهُونَ ﴾ للاهتمام بأمر الرسالة فهي لب الحوار وصلب القضية ، مع ما فيه من حسن الوقف وتناسب الفواصل . وفي هذه الآية استفهام إنكاري ، ولما كان الغرض هو إنكار فعل الإلزام قُدم الفعل على الاسم ، وللكرماني رأي عن سر هذا التقديم لا يخلو من وجهة قال : قوله : ﴿ وَءَاتَيْنِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ ﴾ وبعده ﴿ وَءَاتَيْنِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ وبعدهما ﴿ وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ﴾ لأن ﴿ عِنْدِهِ ﴾ وإن كان ظرفاً فهو اسم ، فذكر الأولى بالصريح والثانية والثالثة بالكناية ، لتقدم ذكره ، فلما كنى عنه قدمه ، لأن الكناية يتقدم عليها الظاهر ، نحو : ضرب زيد عمراً فإن كنى عن عمر قدمته ، نحو :

(١) درة التنزيل ص ١٢٠ .

عمرو ضربه زيد ، وكذلك : زيد أعطاني درهماً من ماله ، فإن كنت عن المال قلت : المال زيد أعطاني منه درهماً^(١)

﴿ وَقِيلَ يَتَّارِضْ أَبْلَعِي مَاءَكَ وَيَسْمَأْ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (هود: ٤٤).

قال القاسمي : « وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل : فذلك أنه قدم النداء على الأمر فقال : ﴿ يَتَّارِضْ أَبْلَعِي مَاءَكَ وَيَسْمَأْ أَقْلَعِي ﴾ دون أن يقال : ابلعي يا أرض وأقلعي يا سماء ، جرياً على مقتضى اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنبيه ليتمكن الأمر الوارد عقبيه في نفس المنادى ، قصداً بذلك لترشيح المعنى ، ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء ، وابتدئ به لابتداء الطوفان منها وبنزولها لذلك في القصة منزلة الأصل والأصل بالتقديم أولى ، ثم أتبعها بقوله : ﴿ وَغِيضَ الْمَاءِ ﴾ لاتصاله بقصة الماء ، وأخذه بحجزتها ، ألا ترى أصل الكلام { قيل يا أرض ابلعي ماءك ، فبلعت ماءها ويا سماء أقلعي عن إرسال الماء فأقلعت عن إرساله وغيض الماء النازل من السماء ففاض } ثم أتبعه ما مقصود من القصة وهو قوله : ﴿ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أي أنجز الموعود من إهلاك الكفرة ، وإنجاء نوح ومن معه في السفينة ، ثم أتبعه حديث السفينة ، وهو قوله : ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾ ثم ختمت القصة بما ختمت. وما ذكره القاسمي ذكره صاحب المنار ويبدو النقل عنه واضحاً^(٢)

﴿ قِيلَ يَنْبُوحُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾ (هود: ٤٨) تقدم السلام على البركة ، لأن طلب السلامة من الآفات مقدم على حصول البركات ، فالنفس تطلب إزالة الخوف والاعتماد ، وهو عندها أهم من حصول النعم والإكرام ونظير هذا التقديم قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَرَكَةٌ طَيِّبَةٌ ﴾ (النور: ٦١)، وقد ترجم النبي ﷺ الآية بتعليمه أمته كيفية السلام {السلام عليكم ورحمة الله وبركاته}.

(١) أسرار التكرار في القرآن ص ١٤٤.

(٢) القاسمي ج ٦ ص ١٠٠ ، المنار ج ١٢ ص ٩٧ ، ٩٨.

وهناك تفسير آخر ذكره الرازي حيث قال : « المسألة الثانية : أنه تعالى وعده عند الخروج بالسلامة أولاً ، ثم بالبركة ثانياً ، أما الوعد بالسلامة فيحتمل وجهين : الأول : أنه تعالى أخبر في الآية المتقدمة أن نوحاً - عليه السلام - تاب عن زلته وتضرع إلى الله تعالى بقوله : ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ ، وهذا التضرع هو عين التضرع الذي حكاه الله تعالى عن آدم - عليه السلام - عند توبته من زلته وهو قوله : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴾ ، فكان نوح - عليه السلام - محتاجاً إلى أن بشره الله تعالى بالسلامة من التهديد والوعيد فلما قيل له : ﴿ يَنْتُحِ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾ حصل له الأمن من جميع المكاهرة المتعلقة بالدين ، والثاني : أن ذلك الغرق لما كان عاماً في جميع الأرض فعندما خرج نوح - عليه السلام - من السفينة علم أنه ليس في الأرض شيء مما ينتفع به من النبات والحيوان ، فكان كالخائف في أنه كيف يعيش وكيف يدفع جميع الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب ، فلما قال الله تعالى ﴿ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴾ زال عنه ذلك الخوف ، لأن ذلك يدل على حصول السلامة من الآفات ولا يكون ذلك إلا مع الأمن وسعة الرزق ، ثم إنه تعالى لما وعده بالسلامة أرفده بأن وعده بالبركة وهي عبارة عن الدوام والبقاء والثبات ونيل الأمل ومنه بروت الإبل ، ومنه البركة لثبوت الماء فيها. ^(١)

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَنْفِقُمْ أَبْعَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۚ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ (هود: ٨٤)، بدأ بدعوتهم أولاً إلى التوحيد كشأن جميع الأنبياء ، حيث يبتدئون الأهم فالأهم ، ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس في المكيال والميزان دعاهم إلى ترك هذه العادة ، فالتقديم هنا للاهتمام.

قال الزمخشري : « فإن قلت : النهي عن النقصان أمر بالإيفاء فما فائدة قوله : ﴿ أَوْفُوا ﴾ ؟

(١) مفاتيح الغيب ج ١٨ ص ٧.

قلت : نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ، لأن في التصريح بالقبيح بغياً على المنهي ، وتعبيراً له ثم ورد الأمر بالإيفاء ، الذي هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه ، وبعث عليه .^(١)

﴿ بَقِيتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ ﴾ (هود: ٨٦)
تقدم جواب الشرط ﴿ بَقِيتُ اللَّهُ ﴾ على فعل الشرط ﴿ إِنْ كُنْتُمْ ﴾ ، وهذا التقديم للترغيب ولإطماعهم فيما عند الله .

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ (هود: ٨٨) ، تقديم المجرورين { عليه وإليه } لإفادة الاختصاص .

﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾

(هود: ١٠٢)

تقدم الخبر ﴿ وَكَذَلِكَ ﴾ على المبتدأ ﴿ أَخْذُ رَبِّكَ ﴾ إذ أصل الترتيب وأخذ ربك كذلك ، وإنما قدم الخبر للفت الأذهان إلى ما تقدم من قصص الأمم السابقة لتكون حاضرة في الذهن .

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۖ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ (هود: ١١٨، ١١٩) .

تقدم المعمول هنا على عامله في قوله : ﴿ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ ، والتقديم هنا للاهتمام وليس للقصر ، فلا يمنع من وجود علل أخرى لخلقهم كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦) .

﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُوَثِّقُ بِهِ فَوَادِكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (هود: ١٢٠) . تقدم المفعول به ﴿ كُلًّا ﴾ على الجملة الفعلية للاهتمام بما تقدم ذكره من قصص الأنبياء أجمعين وأنها جميعاً إنما سيقت من أجل تثبيت فؤاد النبي ﷺ .

(١) الكشاف الجزء الثاني ص ٤٠١ .

سورة يوسف

لما أخبر سبحانه في أول سورة هود عن القرآن بأنه محكم الآيات ومفصلة في قوله : ﴿الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

ابتدأت سورة يوسف بوصف الكتاب بوصف مما سبق وهو البيان ، وأنه بلسان العرب حتى يعقلوا معانيه فقال تعالى : ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢، ١)، ولما ختم آخر سورة هود بتمام علمه وشمول قدرته وخاصة علم الغيب ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَاَعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (هود: ١٢٣) جاءت سورة يوسف لتخبر عن بعض هذا الغيب بما حدث من قصة يوسف التي قال الله بعد تمام حكايتها : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف: ١٠٢). ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (يوسف: ٢، ٣).

لقد حلل صاحب المنار قصة يوسف - عليه السلام - تحليلاً أدبياً وبلاغياً رائعاً حيث قال عند تفسيره للآية الثامنة : «هذا شروع في القصة بعد مقدمتين أولاهما : في صفة القرآن وكونه تنزيلاً من الله دالاً على رسالة من أنزل عليه وكونه عربياً تقوم به الحجة على العرب الذين يعقلونه وكان النبي ﷺ كان من قبله غافلاً عما جاءه فيه لا يدري منه شيئاً ، ونتيجة هاتين القضيتين تأتي بعد تمام القصة في قوله تعالى : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ (يوسف: ١٠٢).

والمقدمة الثانية: رؤيا يوسف وما فهمه منها أبوه إجمالياً كلياً كما بيناه آنفاً وبنى عليه أن حذره وأنذره ما يستهدف له قبله من كيد إخوته ، وبشره بحسن عاقبته ، ونتيجة هاتين القضيتين ما قال لأبيه بعد دخولهم عليه وسجودهم له ﴿يَتَابَعَتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ (يوسف: ١٠٠)، فمثل هذا الترتيب المنطقي البديع يتوقف نظمه وسرده على سبق العلم بالقصة وتتبع حوادثها

والإحاطة بدقائقها ، ثم على وضع ترتيب ينسق عليه الكلام كالقصص الفنية المتكلفة ، ثم توضع له المقدمة والخاتمة في الغاية التي ألفت القصة لأجلها ، فتجعل الأولى براعة مطلع ، والآخره براعة مقطع^(١).

اقول : تقدم الضمير ﴿ نَحْنُ ﴾ على الخبر ﴿ نَقْصُ ﴾ ليفيد الاختصاص أي أن الذي يقص هو الله وحده لا غيره رداً على افتراءات المشركين في قولهم إنما يعلمه بشر أو أنها أساطير الأولين تملى عليه.

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَايَهُمَا لِي سَجْدِينَ ﴾ (يوسف: ٤)، إذا كان الشمس والقمر ليسا مندرجين في الأحد عشر كوكباً فإن تأخيرهما إثباتاً لفضلهما واستبدادهما بالميزة على غيرهما من الكواكب ، كما أخر جبريل وميكال عن الملائكة في سورة البقرة ثم عطفهما عليهما بعد ذلك .

قال أبو حيان : « ويظهر أن التأخير من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، ويرى أن اجتماع الشمس مع القمر في القرآن الكريم وتقديم الشمس على القمر لسطوع نورها وكبر جرمها ، وغرابة سيرها ، واستمداده منها وعلو مكانها ، وذكر الآيات الدالة على ذلك نحو قوله تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ (الرحمن: ٥) ﴿ وَجَمِيعَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ﴾ (القيامة: ٩) ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا ﴾ (يونس: ٥) ^(٢).

اقول : وهناك تقدم آخر للشمس على القمر في آيات أخر منها قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ ^(٣) وَالْقَمَرُ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (يس: ٣٨، ٣٩)، وقوله تعالى : ﴿ أَلَعَدَّتْ رَأْسُ اللَّهِ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (الحج: ١٨) وقوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي

(١) المنار ج ١٢ ص ٢٥٨.

(٢) البحر المحيط ج ٥ ص ٢٨١.

السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿ (الفرقان: ٦١)، وقوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِى إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (لقمان: ٢٩) ، وقد وجدت قول الرازي قريباً مما ذكرت ، حيث قال :

السؤال الثالث : لم أخرج الشمس والقمر ؟ قلنا : أخرهما لفضلهما على الكواكب ، لأن التخصيص بالذكر يدل على مزيد الشرف كما في قوله : ﴿ وَمَلَائِكَتِهِمْ وَرُسُلِهِمْ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ .^(١)

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْجِبِلَكَ رُبُّكَ وَنُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَنُبَيِّنُ بِنِعْمَتِهِ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رُبُّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (يوسف: ٦) ، تقدم قوله ﴿ عَلِيمٌ ﴾ على قوله ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لأن اختياره على علم بمن يستحق الاجتهاد حكيم في إعطائه من يستحقه .

﴿ قَالُوا يَتَّبِعُنَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَنصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَزْتَعِ وَيَلْعَبَ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفِظُونُ ﴾ (يوسف: ١١، ١٢) .

قال صاحب التحرير : « وتقديم له في ﴿ لَهُ لَنَنصِحُونَ ﴾ و ﴿ لَهُ لَنَحْفِظُونَ ﴾ يجوز أن يكون لأجل الرعاية للفاصلة والاهتمام بشأن يوسف - عليه السلام - في ظاهر الأمر ، ويجوز أن يكون للقصر الادعائي ، جعلوا أنفسهم لفرط عنايتهم به بمنزلة من لا يحفظ غيره ولا ينصح غيره »^(٢)

أقول : والقصر الادعائي هو المناسب في هذه الحالة ، فقد ظهر من حرصهم على قتله ما يجعلهم يستميلون قلب أبيهم ببيان شدة خوفهم عليه وحفظهم له ، مع ما فيه من تحسين الفاصلة التي جاءت للمعنى تابعا .

﴿ وَرَوَدَتْهُ الْمَلَأَىٰ هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ (يوسف: ٢٣) .

قال الرازي : « هذا الترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى وتكليفه أهم الأشياء لكثرة إنعامه وألطافه في حق العبد فقوله : ﴿ مَعَاذَ اللَّهِ ﴾ إشارة

(١) مفاتيح الغيب : ج ١٨ ص ٨٩ .

(٢) التحرير ج ١٢ ص ٢٢٩ .

إلى أن حق الله تعالى يمنع عن هذا العمل ، وأيضاً حقوق الخلق واجبة الرعاية ، فلما كان هذا الرجل قد أنعم في حقي يقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالإساءة ، وأيضاً صون النفس عن الضرر واجب ، وهذه اللذة قليلة لذة قليلة يتبعها خزي في الدنيا وعذاب شديد في الآخرة واللذة القليلة إذا لزمها ضرر شديد ، فالعقل يقتضي تركها والاحتراز عنها فقوله : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ إشارة إليه فثبت أن هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب^(١)

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِنَّ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِنَّ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (يوسف: ٢٤).

في هذه الآية الكريمة نزاع بين أهل العلم ، من قائل بتقديم جواب الشرط ، ومخالف لهذا الرأي .

قال الزمخشري : « فإن قلت : لم جعلت جواب لولا محذوفاً يدل عليه هم بها ، وهلا جعلته هو الجواب مقدماً ؟ قلت : لأن لولا لا يتقدم عليها جوابها ، من قبل أنه في حكم الشرط ، وللشرط صدر الكلام وهو مع ما في حيزه من الجملتين مثل كلمة واحدة ، ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض »^(٢).

وما ذكره الزمخشري من عدم تقدم الجواب متنازع فيها فليس هناك دليل على امتناع ذلك ، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري وأبو العباس المبرد^(٣).

وإلى ذلك مال صاحب التحرير والتنوير حيث قال : « قدم الجواب على شرطه للاهتمام به ولم يقرن الجواب باللام التي يكثر اقتران جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ بها لأنه ليس لازماً ولأنه لما قدم على ﴿ لَوْلَا ﴾ كره قرنه باللام قبل ذكر حرف الشرط ، فيحسن الوقف على قوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِنَّ ﴾ ليظهر معنى الابتداء بجملة ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ واضحاً وبذلك يظهر أن يوسف - عليه السلام - لم يخالطه هم بامرأة العزيز لأن الله عصمه من الهم بما أراه من البرهان . قال أبو حاتم : كنت أقرأ غريب القرآن على

(١) مفاتيح الغيب ج ١٨ ص ١١٧.

(٢) الكشف ج ٢ ص ٤٣٩.

(٣) إعراب القرآن وبيانه ج ١٢ ص ٤٧١.

أبي عبيدة فلما أثبت على قوله : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا ﴾ ، قال أبو عبيدة هذا على التقديم والتأخير ، أي تقديم الجواب وتأخير الشرط ، كأنه قال : ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها .

وطعن في هذا التأويل الطبري بأن جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ لا يتقدم عليها . ويدفع هذا الطعن أن أبا عبيدة لما قال ذلك علمنا أنه لا يرى منع تقديم جواب لولا ، على أنه قد يجعل المذكور قبل ﴿ لَوْلَا ﴾ دليلاً للجواب والجواب محذوفاً لدلالة ما قبل ﴿ لَوْلَا ﴾ عليه^(١)

ويؤكد ما ذهب إليه أبو عبيدة علماء القراءات في الوقوف على قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ في قراءة ورش عن نافع مصحف المدينة النبوية مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف حيث وضعت اللجنة العلمية المكونة من ثمانية علماء سبعة منهم من علماء القراءات بكلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية وثامنهم من هيئة مراقبة النص بالمجمع ، قالت اللجنة في بيان عملها في نهاية المصحف الشريف : وأخذ بيان وقوفه مما قرره اللجنة المشرفة على مراجعة هذا المصحف على حسب ما اقتضته المعاني مسترشدة في ذلك بأقوال المفسرين وعلماء الوقف والابتداء كالداني في كتابه [المكتفى في الوقف والابتداء] وأبي جعفر النحاس في كتابه [القطع والائتلاف]^(٢) .

ولتقدم السوء على الفحشاء هنا فائدة عظيمة تؤكد ما ذهب إليه من قال بتقديم جواب ﴿ لَوْلَا ﴾ وينبغي أن نعرف ما هو المقصود بالسوء والفحشاء أولاً قبل الحديث عن التقديم والتأخير فيها ، فالمقصود بالفحشة هو الزنى ، وكذلك سماء الله تعالى بالفاحشة في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَى إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء: ٣٢).

والمقصود بالسوء هنا مقدماته ، من قبلة ونظر بشهوة ، ولمس وسعي وغير ذلك من سائر مقدماته الفعلية والقولية والفكرية ، وهو السبيل إليه والمذكور قبله في قوله تعالى : ﴿ وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ أي الطريق الموصل إليه هو طريق السوء ، إذا

(١) التحرير والتويرج ١٢ ص ٢٥٣ .

(٢) القرآن الكريم برواية ورش عن نافع ، طبعة الملك فهد.

ثبت هذا فتقديم كلمة السوء على الفحشاء أفادت تبرئة نبي الله يوسف من الزنى ومقدماته .

أقول : والناظر في الآية متدبراً يقطع يقيناً ببراءة يوسف - عليه السلام - من الزنى ومقدماته ، وهذا بين واضح في قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ ، فهناك فرق كبير بين هذا السياق الذي ذكر الله فيه حفظه لنيه وعصمته له من السوء والفحشاء فصرفهما عنه ، وفي هذا دليل على أنه ما أرادهما ولا خطر بباله شيء منهما وهو ما يصار إليه لو أن الآية جاءت على هذا النحو : { كذلك لنصرفه عن السوء والفحشاء } ، ففي الثانية هو مريد ولكنه صرف عنهما ، أما الأولى فالله صرفهما عنه فلما يتلبس بهما ابتداءً ، كذلك التقديم في هذه الآية له مدلول عظيم حيث تقدم الظرف ﴿ عَنْهُ ﴾ على المفعول والمعطوف ﴿ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ ، وهذا التقديم للاعتناء والاهتمام بأمره هو عليه السلام إذ هو محور القصة وصاحب الحدث فبدأ الله به اهتماماً بأمر براءته وإظهاراً لعفته وتنويعاً بمنزلته وكرامته .

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(يوسف: ٢٥)

وفي هذه الآية لطيفة في تقديم السجن على العذاب الأليم ، وذلك لأن حب امرأة العزيز الشديد ليوسف والذي قد وصل شغاف قلبها حملها في هذا الموضع أن تبدأ بذكر السجن وتؤخر ذكر العذاب ، لأن المحب لا يسعى في إيلاام المحبوب .

﴿ يَنَاقِبُهَا أَلَمًا أَفْثُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (يوسف: ٤٣).

تقديم ﴿ لِلرُّءْيَا ﴾ على عامله ﴿ تَعْبُرُونَ ﴾ للاهتمام بشأنها فهي محل اهتمام الملك ومصدر قلقه .

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَأَوْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلُوبَ حَشٍ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (يوسف: ٥١).

تقدم الضمير أنا وهو المسند إليه على المسند الفعلي راودته في جملة ﴿ أَنَا رَاودْتُهُ ﴾ للقصر لتثبيت وتأكيده براءته وقصر المراودة عليها لا على أحد سواها.
﴿ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا ﴾ (يوسف: ٥٥).

تقدمت هنا صفة الحفظ على صفة العلم لأنها الأهم في إسناد الوظائف والأعمال ، فالأعمال إنما تسند إلى الأكفاء ، والكفاءة يشترط لها أمران : أولاهما : الأمانة . وثانيهما : العلم . فإذا عدمت الأمانة وحلت مكانها الخيانة فليس من شك أن العلم بلا أمانة لا يرجى منه نوال بل هو وبال ونكال فإنه يستخدم في غير مصلحة المستأمن ، أما الأمانة مع عدم العلم أو قلته فليس فيها من الخسارة ما هو في حالة فقدها ، ولذا قدم الحفظ على العلم .

وأقول : هنا سؤال إذا كان الأمر ما ذكرت فلم قدمت صفة القوة على صفة الأمانة في قوله تعالى : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ (النمل: ٣٩).

والجواب : أن سليمان - عليه السلام - قد أوتي من الملك والعلم بأمور مملكته وتسخير كل شيء فيه صلاح ملكه والقيام بشئون مملكته ومراقبة رعيته ما لا يستطيع أحد أن يخونه ولو حدث فإنه لن يفلت من عقابه والمجيء به والتمكن منه بما أعطاه الله من أسباب التمكن وهو المبين في قوله تعالى : ﴿ وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾ ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ (النمل: ١٦، ١٧) .

وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِيظِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٢) ، وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ ﴿ فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ ﴿ وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴾ ﴿ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴾ (ص: ٣٥-٣٨) ، وقد كان - عليه السلام - يتفقد أمور مملكته ويتعاهدها وهذا بين من تفقده للطير في قوله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ هَذَا أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ (النمل: ٢٠) ، كل ذلك مع ما عرف من

عقابه للعصاة والمخالفين لأمره كما في قوله : ﴿لَأَعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا
أَوْ لَا أَذْنَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ (النمل: ٢١).

وأخيراً إن السؤال من نبي الله سليمان - عليه السلام - إنما كان دائراً حول القوة
والقدرة على المجيء بالعرش ، ولهذا كان من المناسبة أن يجيء الجواب لمضمون
السؤال أولاً وهذا كاف في الإجابة ، لو اقتصر العفريت عليه ، ولكنه جاء بما لم
يسأل عنه طمعاً في نيل رضا نبي الله سليمان - عليه السلام - .

يرى الأستاذ عبد الكريم الخطيب أن تقديم الحفظ هنا على العلم للاهتمام به ،
لأنه أهم من العلم في هذا الموضع ، قال : « فالصفتان وإن كانتا مطلوبتين لمواجهة
هذا الأمر هنا ، إلا أن الحفظ أولى وأهم من العلم .. إذ قد يستغني الحفظ هنا عن
العلم ويتحقق للناس بعض الخير ، أو كثير منه .. على حين أنه لو استغنى العلم عن
الحفظ لما تحقق للناس في هذه الحالة خير أبداً ، ولكان العلم مجرد حقائق
مرسومة في كلمات أو مودعة في كتاب ، فإذا اجتمع الحفظ والعلم اجتمع الخير
كله ، وفي القرآن الكريم موقف شبيه بهذا الموقف فيما كان بين موسى وشعيب
- عليهما السلام - حين دعت ابنة شعيب أباهما إلى أن يستأجر موسى ويستعمله في
تدبير شئونه إذ قالت : ﴿يَتَأْتِي أَسْتَفْجِرُهُ إِنْ خَيْرٌ مِّنْ أَسْتَفْجَرْتُ الْقَوِيَ الْأَمِينُ﴾ .
فوصفت موسى بالصفتين المطلوبتين في الأمر الذي هو مطلوب له ، وهو القيام
على رعي أغنام شعيب ورعايتها وتسميرها ، وهذا أمر يحتاج إلى يد قوية عاملة
ترتاد مواقع العشب والماء دون أن يدفعها عنها أحد ، كما أنه يحتاج إلى الأمين
الذي يرفع هذه الأمانة في يديه ، وأن يعطيها من جهده وإخلاصه ما يعطيه لما هو
في ملكه وخاصة شئونه»^(١).

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الْفُتُورَ وَجَعَلْنَا بِيضَنَّا مُزْجَلًا
فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (يوسف: ٨٨).

قال القاسمي : « في الآية إرشاد إلى أدب جليل وهو تقديم الوسائل أمام
المأرب ، لأنها أنجح لها ، وهكذا فعل هؤلاء : قدموا من رقة الحال ، والتمسكن ،
وتصغير العوض ولم يفجؤوه بحاجتهم ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم يبعث

(١) التفسير القرآني ج ١٣ ص ٦ ، ٧ .

الشفقة ، وهز العطف والرأفة وتحريك سلسلة الرحمة - كما قدمنا - ومن ثم رق لهم ، وملكته الرحمة عليهم ، فلم يتمالك أن عرفهم بنفسه»^(١).

وأقول : وهذا أمر طبيعي فطري أن الإنسان يقدم بين يدي حاجته ما يستعطف به استجابة من يطلب منه ، ومن ذلك أيضاً تقديم الثناء بين يدي الدعاء ، وقد مر في سورة الأعراف ، وكذلك ما درج عليه الشعراء من ذكر النسيب وألم الفراق وطول السهر وما يكابدونه من لوعة وحرقة على فراق الحبيب أو صدوده من أجل استمالة قلب المحبوب والنيل بالوصال المطلوب .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ ﴾
(يوسف: ٩٩)

إن تقدم الجار والمجرور ﴿ إِلَيْهِ ﴾ على المفعول به ﴿ أَبْوِيهِ ﴾ ليحمل هنا معان عظيمة تتدفق من ذلك الإحساس الفياض الممتزج بالشوق الشديد الذي أحدثه فراق السنين والحب الأكيد الذي يحمله قلب ولد بار لأب من فرط حبه لولده اتهم بالتفنيذ ، ورحمة وعطف بإسناد الإيواء إليه هو دون من سواه ليعوض أباه كل حرمان وألم ومعاناة لازمت في سلم الشدائد كل تصعيد ، فيقابل ذلك كله بعطف وإكرام ، لا يدانيه أحد وليس فوقه من مزيد ، ومن ثم قدم قوله : ﴿ إِلَيْهِ ﴾ حيث يفهم منه أن هذا هو الركن الشديد .

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مَا تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ الْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ تَوْفَّنِي مُسْلِمًا ۖ وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾

(يوسف: ١٠١)

تقدم قوله : ﴿ رَبِّ ﴾ بين يدي الدعاء وفي تقديم الثناء على الله أدب عظيم يقتضيه المقام .

(١) القاسمي ج ٦ ص ٢١٢ .

سورة الرعد

لما ختمت سورة يوسف بالحديث عن آيات الله عز وجل في قوله تعالى :
﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٥، ١٠٦)، جاءت سورة
الرعد لبيان هذه الآيات في بيان أي السموات في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ
ٱلسَّمٰوٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَّرَوٰهَا ثُمَّ أَسْتَوٰى عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلُّ
مِجْرَىٰ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيٰتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾
(الرعد: ٢)، وبيان أي الأرض في قوله : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ
وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ﴾ (الرعد: ٣)، ثم جاء البيان فيما
يكون من الآيات بينهن ﴿ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ﴾ (الأعراف: ٥٤)، ثم زاد بيان آيات
الأرض ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجٰوِرٰتٌ وَجَنَّتٌ ﴾ (الرعد: ٤)، ثم نبه تعالى على
أعظم الآيات وهو القرآن الكريم ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِيعَتْ بِهِ
ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلُّمٌ بِهِ ٱلْمَوْتُ ﴾ (الرعد: ٣١)، والمراد لكان هذا القرآن ، وأما قوله تعالى :
﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ ﴾ (يوسف: ١٠٦)، فقد أشار إليه قوله
تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ﴾

(الرعد: ٢٨)

﴿ وَإِن تَعِجَّبْ فَعِجْبٌ قَوْلُهُمْ ءِذَا كُنَّا تُرَابًا ءَإِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُو۟لَٔئِكَ ٱلْأَغْلٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُو۟لَٔئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خٰلِدُونَ
﴿ وَنَسْتَعِجِّلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَلِيلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثَلٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الرعد: ٥، ٦).

قال أبو السعود : «والأنسب بقوله : ﴿ وَنَسْتَعِجِّلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ ﴾ هو الأول و {عجب} خبر مقدم على المبتدأ للقصر ، والتسجيل من أول الأمر بكون قولهم ذاك أمر عجيب» (١).

(١) تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ج ٣ ص ١٤٨.

وأقول : إن في تقديم الخبر ﴿فَعَجَبٌ﴾ على المبتدأ ﴿قَوْلُهُمْ﴾ فائدة ما كان لها أن تكون لو جاءت الجملة على حسب ترتيبها الطبيعي ، وذلك أننا إذا نظرنا في كلمة عجب نجد أنها جاءت لتحدث لنا اتصالين ، اتصال بما قبلها من حدوث ذلك التناغم بين ﴿تَعَجَّبَ﴾ و﴿عجب﴾ ومجيئها خلف الفعل مباشرة أعطى إحساساً عميقاً بأن ذلك هو العجب الذي ليس بعده عجب ليقطع الجواب التفكير عن المتلقي والسامع أنه بدون أدنى شك ما سيلقى عليه سوف يتعجب منه لا محالة ، الأمر الثاني : هو اتصال كلمة قولهم بجملة القول بحيث لو اختلف الترتيب وجاءت الجملة هكذا

{فقولهم عجب إذا كنا تراباً إنا لفي خلق جديد} لكان هناك انفصال بين ﴿قَوْلُهُمْ﴾ وجملة القول بسبب البعد بينهما أما وقد جاء الخبر مؤخراً فقد أحدث اتصالاً مباشراً بينهما فجاءت الجملة كلها متماسكة كلحمة واحدة.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾

(الرعد: ١٢)

تقدم الخوف على الطمع ، لأنه أول ما يعتري الإنسان عند رؤية البرق ، ثم بعد ذلك يرجو سقوط الغيث ، فالتقديم لسبق الوجود وعلى هذا المعنى جاء كلام الزمخشري حيث قال : «ومعنى الخوف والطمع : أن وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق ويطمع في الغيث» .
قال أبو الطيب :

فَتَى كَالسَّحَابِ الْجَوْنُ تُخْشَى وَتُرْتَجَى يُرْجَى الْحَيَا مِنْهَا وَيُخْشَى الصَّوَاعِقُ^(١)

وعلى ترتيب القرآن جاء بيت المتنبي في تقديم الخوف على الطمع .
﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا
وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ^٢ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ
كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (الرعد: ١٧).

(١) العرف الطيب ج ١ ص ١٩٦.

قبل التحدث عن التقديم والتأخير ، لابد من تفسير هذه الآية وبيان المراد من هذه الأمثال حتى يتبين وجه التقديم والتأخير منها .

قال الرمخشري : « هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه ، كما ضرب ﴿ الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴾ و ﴿ الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ مثلاً لهما ، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزل من السماء ، فتسيل به أودية للناس فيحيون به ، وينفعهم أنواع المنافع وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه ، واتخاذ الأواني والآلات المختلفة ولولم يكن إلا الحديد الذي فيه البأس الشديد لكفى فيه ، وأن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهراً يثبت الماء في منافعه ، وتبقى آثاره في العيون والآبار والحبوب والثمار التي تنبت به ما يدخر ويكثر ، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة ، وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل الذي يرمى به وبزبد الفلز الذي يرمى به إذا أذيب » ^(١)

قال أبو حيان : « فبدأ بالزبد إذ هو المتأخر في قوله : ﴿ زَبَدًا رَابِيًا ﴾ وفي قوله : ﴿ زَبَدٌ مِثْلُهُ ﴾ ولكون الباطل كناية عنه وصف متأخر ، وهي طريقة فصيحة يبدأ في التقسيم بما ذكر آخرأ كقوله : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٠٦) ، والبداة بالسابق فصيحة مثل قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ (١٠٥، ١٠٦) ، وكأنه - والله أعلم - يبدأ في التفصيل بالأهم في الذكر » ^(٢)

هذا الاهتمام الذي لم يفسره أبو حيان أوضحه البقاعي بقوله : « ولما نبه بهذا الفصل على علو رتبة هذا المثل ، شرع في شرحه فقال مبتدئاً بما هو الأهم في هذا المقام ، وهو إبطال الباطل الذي أضلهم » ^(٣)

قال القاسمي : « بدأ بالزبد في البيان في قوله : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ ، لأن في التقسيم يبدأ بالمؤخر كما في قوله : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ (آل عمران: ١٠٦) ، وقد راعى الترتيب

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٥٠٣ .

(٢) البحر المحيط ج ٥ ص ٣٥٣ .

(٣) نظم الدرر ج ٤ ص ١٦١ .

فيه ، ولك أن تقول النكتة فيه أن الزبد هو المنظور أولاً ، وغيره باق متأخر في الوجود لاستمراره»^(١).

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ (الرعد: ٢٦).

تقدم بسط الرزق ، إذ هو محض النعمة والإكرام المستوجبة للشكر على أمر التقدير الذي هو محض الابتلاء المستوجب للصبر ، وهذا نظير قوله تعالى في سورة الفجر : ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴾ (الفجر: ١٥، ١٦).

وقدم الصبر على الشكر في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِقَائِنَتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيُّمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (إبراهيم: ٥)، فناسب تقديم الصبر في سورة إبراهيم لمناسبة حال المخاطبين وهم قوم موسى الذين عانوا من فرعون عظيم البلاء .

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِيَ بِهِ الْمَوْتُ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْنِسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَّوِ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(الرعد: ٣٠، ٣١)

قال القرطبي : « وفي الآية تقديم وتأخير ، أي وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بهم ما اقترحوا »^(٢).

أقول : وفيما ذكره القرطبي - رحمه الله - تكلف واضح لا يصار إليه حيث إن المعنى على الترتيب المذكور واضح وجلي ومستقيم غير خفي فقوله تعالى : ﴿ لِّتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يتناسب مع ما بعده تناسبا شديداً إذ المقصود بيان حال صدودهم وكفرهم أثناء تنزل الوحي ، وهذا يستقيم مع الإعراب فجملة ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ حال من الضمير هم في قوله : ﴿ عَلَيْهِمُ ﴾.

(١) القاسمي ج ٦ ص ٢٧٧.

(٢) القرطبي ج ٩ ص ٢٠٩.

وقد تقدم الجار والمجرور في قوله : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ وقوله : ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴾ لإفادة الاختصاص .

﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۖ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (الرعد: ٣٩).

تقدم المحو على الإثبات مع أن الكتابة وهي الإثبات أسبق فلا محو إلا لمكتوب ، وذلك لأن قبلها قوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ، فالكتابة متقدمة في الآية السابقة.

﴿ وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (الرعد: ٤٠) ، تقدم ﴿ إِنَّمَا ﴾ هنا على الجملة الاسمية ، وهو كحكم تقدمها على الفاعل والمفعول ، حيث يقع الاختصاص على المتأخر منهما ، حيث إن ما أوعده الله به الكفار ليس من شأن النبي ﷺ حيث إن اختصاص رسالته هو في البلاغ وفي تقديم الجار والمجرور ﴿ عَلَيْنَا ﴾ على متعلقه ﴿ الْحِسَابُ ﴾ إفادة الحصر والاختصاص بأن الحساب على الله تعالى دون غيره .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (الرعد: ٤٣) ، تقدم الظرف هنا ﴿ عِنْدَهُ ﴾ على قوله : ﴿ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ لإفادة الاختصاص بأن ذلك العلم محصور في هاتين الطائفتين دون من سواهما ، وقد ذكر ذلك التأويل الألوسي .

أقول : ويؤيد صحة هذا التوجيه قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ ﴾ (الأنعام: ١٥٦) فقد حصرت الآية صفة أهل الكتاب في اليهود والنصارى فقط. ويؤيد ذلك أيضاً ما رواه ابن جرير الطبري من طريق العوفي عن ابن عباس أن المقصود بمن عنده علم الكتاب اليهود والنصارى .^(١)

(١) جامع البيان عن تأويل القرآن ، ج ٨ ص ١٧٦ .

سورة إبراهيم

لما سبق ذكر الآيات والبراهين السماوية والأرضية وما بينهما من آيات ثم أعظم آية وهي القرآن الكريم في سورة الرعد جاءت سورة إبراهيم لتبين أن هذه الآيات إنما تنفع المتبصرين بها من أجل إخراجهم من الظلمات إلى النور ﴿الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ (إبراهيم: ١)، ولما سبق قوله في سورة الرعد: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ (الرعد: ٧)، جاء التذكير بذلك في سورة إبراهيم بقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ ثم ذكر سبحانه أن كل الآيات المذكورة في سورة الرعد إنما هي لله رب العالمين وفي ملكه فقال في سورة إبراهيم: ﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ٢) ولما قال تعالى في سورة الرعد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ (الرعد: ٣٨)، جاءت سورة إبراهيم لإتمام ذلك المعنى بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رُّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ﴾ (إبراهيم: ٤).
﴿الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

(إبراهيم: ٢، ١)

قال أبو حيان: « ولما تقدم شيان أحدهما : إسناد إنزال هذا الكتاب إليه ، والثاني : إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربه ، ناسب ذكر هاتين الصفتين صفة العزة المتضمنة للقدرة والغلبة ، وذلك من حيث إنزال الكتاب ، وصفة الحمد المتضمنة استحقاقه الحمد من حيث الإخراج من الظلمات إلى النور ، إذ الهداية إلى الإيمان هي النعمة التي يجب على العبد الحمد عليها ، والشكر ، وتقدمت صفة العزيز لتقدم ما دل عليها »^(١).

(١) البحر المحيط ج ٥ ص ٣٩٣.

وتقدم الجار والمجرور ﴿ لَهُ ﴾ لإفادة الاختصاص ، أي أن ما في السموات وما في الأرض له لا لغيره .

أقول : وفي الآية تقديم وتأخير آخرلم يذكره أبوحيان ، وهو تقدم النعت على المنعوت ، حيث تقدمت صفة العزيز الحميد على لفظ الجلالة ﴿ اللَّهُ ﴾ ، وكما ذكرنا فإن كل الأسماء الحسنى إنما ترجع إلى لفظ الجلالة ، ولهذا التقديم سر في أن أمر العزة والحمد إنما هما لله رب العالمين لا يعرف غير الله بهما ، كما إذا اشتهر إنسان بالظرف مثلاً ، فتبدأ بذكر صفته قبل ذكر اسمه لما فيه من شيوع الصفة واشتهاره بها ، فنقول مثلاً : مررنا بالظريف زيد وبالشجاع عنتره وبالعاشق جميل وهكذا ، وأما تقدم صفة العزيز على الحميد فقد ناسب تقدمها نوع المخاطبين فسورة إبراهيم سورة مكية ، تخاطب هؤلاء المعاندين المستكبرين حال إعراضهم وصدودهم ، فناسب تقدم صفة العزيز لأمرين :

أولهما : أن الأمر بالإيمان نفعه لهم عائد عليهم ، فالله تعالى ما طلب منهم الإيمان ليقوى من ضعف أو يعز من ذل - سبحانه وتعالى - بل هو العزيز في ربوبيته وألوهيته .

ثانيهما : يتعلق بالكافرين المكذبين الذين غلب عليهم الكفر وفرحوا بنعمة الأمن ونعمة المال ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ ، فكان ذلك سبب الإعراض والجحود والنكران اغتراراً بما حباهم الله من نعم فجاءت صفة العزيز التي تبين لهم أنهم غير ممتنعين عن الله ، وأن ذلك كله لا يغني عنهم من الله شيئاً إذ إنهم تحت قهره وقدرته ، ويؤيد ما ذهب إليه أن الآية التي تلتها جاءت مهددة ومخوفة ﴿ اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ ، ثم جاءت الآيات التاليات تتحدث عن إهلاك الله لفرعون الذي اعتز بسلطانه وجنوده وأخذته العزة بالإثم ، فكان ذلك سبب هلاكه وسلب الله منه ملكه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (إبراهيم: ٥).

بالنظر والتمعن في تفسير المقصود بقوله : ﴿ أَيَّامَ اللَّهِ ﴾ ندرك سر تقديم ﴿ صَبَارٍ ﴾ على ﴿ شُكُورٍ ﴾ ، وأيام الله على القول المختار هي ما فعل الله بهم من النعمة والنعمة فهذا المعنى جاء الحديث الذي ذكره القرطبي ، حيث قال : وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ﴿ إِنَّا مَوْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْمِهِ يَذْكُرُهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ وَأَيَّامَ اللَّهِ بَلَاؤُهُ وَنِعْمَاؤُهُ ﴾ ^(١) ، وهنا قد تقدم ذكر البلاء على النعماء ، ومن المعلوم أنه من أعظم النعماء إزالة البلاء ، ومنها تقدم صبار أي على البلاء على شكور أي في النعماء التي اتبعت هذا البلاء ، ومما يؤيد أن هذا التقديم للترتيب الوجودي ، هو أن الآية التالية لهذه الآية جاءت مفصلة لمجملها مبينة لمبهمها ، حيث قال تعالى مبيناً قيام موسى بالاستجابة لأمر الله بالتذكير بأيام الله ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَخْرَجَكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ (إبراهيم: ٦).

ثم أعقب التذكير بالبلاء التذكير بشكر النعماء في الآية التالية : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّرَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (إبراهيم: ٧).
بدأ سبحانه بذكر الشكر قبل الكفر وما يتبعه من ذكر زيادة النعمة قبل المؤاخذة بالنقمة ، وذلك من باب البداية بالترغيب قبل الترهيب ولسبق رحمته عذابه وحب الخير وإرادته من عباده .

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۚ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ (إبراهيم: ٢٤-٢٦).

قال أبوحيان : « ولما تقدم تشبيه الكلمة الطيبة على الكلمة الخبيثة تقدم في هذا الكلام من نسبت إليه الكلمة الطيبة ، وتلاه من نسبت إليه الكلمة الخبيثة » ^(٢).

(١) القرطبي ج ٩ ص ٢٤٤.

(٢) البحر المحيط ج ٥ ص ٤١٢.

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾
(إبراهيم: ٣٥)، ابتداء إبراهيم في دعائه بطلب نعمة الأمن ، لأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلا به.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ﴾ (إبراهيم: ٤٧).

قال الزمخشري : « فإن قلت : هلا قيل : مخلف رسله وعده؟ ولم قدم المفعول الثاني على الأول ؟ قلت : قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً ، كقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْلِفُ الْوَعْدَ ﴾ (الرعد: ٣١)، ثم قال : ﴿ رُسُلَهُ ﴾ ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً - وليس من شأنه إخلاف المواعيد - كيف يخلف رسله الذين هم خيرته وصفوته^(١) . »

أقول : وهذا التقديم للاعتناء وكونه المقصود بالإفادة .

﴿ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ (إبراهيم: ٥٠).

تقدم المفعول به ﴿ وُجُوهَهُمْ ﴾ على الفاعل ﴿ النَّارُ ﴾ لمناسبة ما بعده وهو قوله تعالى : ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ ، فالنار هي جزاء كفرهم ، ولهذا أخرت لتناسب ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ ﴾ في بداية الآية التي تليها. كما فيها حسن الفاصلة وعكس هذا الترتيب في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِِهِمْ ﴾ (القمر: ٤٨).

(١) الكشف ج ٢ ص ٥٤٤.

سورة الحجر

لما سبق ذكر أحوال الكفار في جهنم ووصف عذابهم فيها في سورة إبراهيم من قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (إبراهيم: ٤٢) إلى قوله تعالى في آخر السورة : ﴿ هَذَا بَلَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِمْ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا أَنَّهُمْ الْأَوَّلُونَ ﴾ (إبراهيم: ٥٢) أعقب ذلك بقوله تعالى في سورة الحجر :

﴿ زُيِّنَا يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴾ (الحجر: ٢) أي عند معاينة العذاب ومشاهدة تلك الأحوال ثم أكد سبحانه ذلك بقوله : ﴿ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الحجر: ٣)، ثم أعقب سبحانه وتعالى أن ثواب الناس وعقابهم له أجل مسمى لا يحيد عنه ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنَةٍ إِلَّا وَهَذَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴾ (الحجر: ٤)، وقد زادت هذه الآية المعنى إيضاحاً في سورة إبراهيم ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴾ (إبراهيم: ٤٢)، وقوله : ﴿ وَأُنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ ﴾ (إبراهيم: ٤٤) وقوله : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ (إبراهيم: ٤٨). وهناك مناسبة أخرى أشار إليها الأستاذ عبد الكريم الخطيب بقوله : « مناسبة هذه السورة لما قبلها ، هي أن ختام السورة السابقة كان قوله تعالى : ﴿ هَذَا بَلَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِمْ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرُوا أَنَّهُمْ الْأَوَّلُونَ ﴾ (إبراهيم: ٥٢) وهذا الختام يحدث عن القرآن الكريم بأنه بيان مبين للناس وبلاغ يبلغ بهم طريق الحق والإيمان فكان مفتتح هذه السورة - سورة الحجر حديثاً آخر عن القرآن الكريم بأنه كتاب وقرآن كريم ، فكان هذا البدء مؤكداً لهذا الختام »^(١)

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ أَلْسَمَهُ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿٣﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا

(١) التفسير القرآني ج ١٤ ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأُنْبِئْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُؤْتُونَ ﴿١٦﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ
وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُمْ يُرْزِقِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ
مَعْلُومٍ ﴿١٨﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاُنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ
بِخَيْرِينَ ﴿١٩﴾ (الحجر: ١٦-٢٢).

بدأ بالآيات السماوية لأنها أكثر وأعجب ، ثم ثنى بالأرض لأنها أقرب ، وذكر
قابليتها للمعيشة قبل وجود أسباب المعيشة إذ بدون استقرارها تستحيل الحياة
ولييان حسن التدبير من الخلاق العليم الحكيم الذي أحسن كل شيء صنعا وإتقاناً
ولذا قال : ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ ﴾ قبل ذكر الرياح المحملة بالماء ثم إنزال الماء
﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاُنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُمْ بِخَيْرِينَ ﴾
﴿ فَلَمَّا جَاءَ ءَالُ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴾ ﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ ﴿ قَالُوا بَلْ
جِئْتَنَا بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ ﴿ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ ﴿ فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ
﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ ﴿ وَجَاءَ أَهْلُ
الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ﴿ قَالَ إِنَّ هَتُولَاءِ ضَيِّفَى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴾ ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ ﴿ قَالُوا أَوْلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ﴿ قَالَ هَتُولَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ
فَاعِلِينَ ﴾ (الحجر: ٦١-٧١).

جاء أسلوب التقديم والتأخير في هذه الآيات على غير ما جاء به في سورة هود
فبينما تقدم المفعول به هنا ﴿ ءَالُ لُوطٍ ﴾ على فاعله ﴿ الْمُرْسَلُونَ ﴾ نجد الفاعل
قد جاء على وفق ترتيبه الطبيعي في سورة هود في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ
رُسُلُنَا لُوطًا ﴾ فما السر في ذلك ؟

أقول : بالنظر في أحداث القصتين ندرك ذلك حيث إن تقدم المفعول به ﴿ ءَالُ
لُوطٍ ﴾ على فاعله ﴿ الْمُرْسَلُونَ ﴾ لأنه هو المقصود بالذكر والمعني بالحديث عنه
حيث كان الحديث عن نبي الله لوط ومقابلته للرسل وتصرفه معهم وردة عليهم
﴿ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴾ فردوا عليه ﴿ قَالُوا بَلْ جِئْتَنَا بِمَا كَانُوا فِيهِ

يَعْتَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٦﴾ ، بينما نجد في سورة هود أن الفاعل ﴿رُسُلُنَا﴾ جاء على وفق ترتيبه الطبيعي ، لأنهم كانوا عقدة القصة ومحورها وسبب ما حصل له في قوله تعالى : ﴿سَيِّءَ يَوْمٍ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ ثم ﴿وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُمْ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ إنما كان بسببهم أيضاً ثم الحوار بينه وبين قومه إنما كان في شأنهم إلى آخر القصة ، ولذا لم يكن من ريب أن تصدر الفاعل لموقعه إنما كان من أجل ذلك والله أعلم.

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : «وقد جاء النظم القرآني لقصة لوط هنا مخالفاً لما جاء عليه في مواضع أخرى .. وذلك أن الملائكة هنا أخبروه بهلاك القوم وبما ينبغي أن يفعله هو وأهله حتى لا ينزل بهم ما ينزل بأهل القرية من دمار وهلاك .. قبل أن يعلم أهل القرية بهم ، وقبل أن يجيئوا إلى لوط يريدون الفاحشة في هؤلاء الضيوف .. هكذا تحدث الآيات هنا ..

وفي مواضع أخرى جاء النظم القرآني على غير هذا كما يقول الله تعالى في سورة هود مثلاً :

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سَيِّئَ يَوْمٍ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُمْ قَوْمُهُمْ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَنْقُومُ هَؤُلَاءِ بِنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ فِي ضَيْفَى أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى زُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود: ٧٧-٨١) .

وترتيب الأحداث هنا غير ترتيبها في النظام السابق .. كما ترى .. فما جواب هذا؟ قال : والجواب - والله أعلم - هو أن الملائكة في هذه الآيات قد ألقوا بالبشرى إلى لوط حين التقوا به ورأوا ما دخل عليه منهم من خوف وفزع فقالوا له : ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرَاتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾

ثم جاءه قومه بعد ذلك وكان ما كان منهم معه ومع الملائكة فكان من لوط كرب وضيق مما حل بالملائكة وتشبث قومه بهم ومحاولة الاعتداء عليهم فكان حديث الملائكة له بقولهم : ﴿ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ﴾ (هود: ٨١) توكيداً لما حدثوه به من قبل وأنهم إذا كانوا على تلك الصفة فلن ينالهم أحد بمكروه.. ثم كان من تمام ذلك أن أعادوا تذكيره بما حدثوه من قبل ، وهو أن يسري بأهله بقطع من الليل ولا يلتفت منهم أحد إلى هؤلاء القوم الذين خلفوهم وراءهم ليلاقوا مصيرهم»^(١).

(١) التفسير القرآني ج ١٤ ص ٢٥٥، ٢٥٦.

سورة النحل

هذه السورة بيان لما تقدم في خاتمة سورة الحجر ، فلما ذكر سبحانه ﴿ فَوَيْلٌ لَّكَ لِنَسْتَلْتَنَّهُمُ الْجُمُوعَ ﴾ ﴿ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الحجر: ٩٢، ٩٣) ثم أعقب ذلك بذكر وعيد المستهزئين ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ افتتحت سورة النحل ببيان هذا الوعيد ﴿ أَمَّا أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾ (النحل: ١) ونزه سبحانه نفسه عن شركهم هذا الشرك المذكور في آخر سورة الحجر ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الحجر: ٩٥، ٩٦).
قال تعالى : ﴿ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ (النحل: ٢).

تقدم الأمر بتوحيد الله على الأمر بالتقوى إذ هو أساس المعرفة بالله وأول مطالب العلم كما قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُوا لِذُنُوبِكُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (محمد: ١٩). وكذلك هو شرط قبول العمل وما بعده فرع عليه لا يقبل إلا به ، وسوف يأتي مزيد من البيان حول هذا المعنى في سورة محمد.

قال الرازي في هذه الآية : « ولما كانت القوة النظرية أشرف من القوة العملية لا جرم قدم الله تعالى كمالات القوة النظرية ، وهي قوله : ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ على كمالات القوة العملية وهي قوله : ﴿ فَاتَّقُونِ ﴾ ^(١) »

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴾ (النحل: ٤٣)، وعند تفسيره لهذه الآية يتناول الرازي طريقة القرآن في دلائل الإلهيات وأن الطريق المذكور في كتب الله المنزلة هو التمسك بطريقة حدوث الصفات وتغير الأحوال قال : ثم هذا الطريق يقع على وجهين : أحدهما : أن يتمسك بالأظهر فالأظهر مترقياً إلى الأخفى فالأخفى ، وهذا الطريق هو المذكور في أول سورة البقرة فإنه تعالى قال : ﴿ أَعْبُدُوا

(١) مفاتيح الغيب ج ١٩ ص ٢٢٧.

رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴿١﴾ ، فجعل تعالى تغير أحوال النفس كل واحد دليلاً على احتياجه للخالق ثم ذكر عقيبه الاستدلال بأحوال الآباء والأمهات وإليه الإشارة بقوله : ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ ثم ذكر عقيبه الاستدلال بأحوال الأرض وهي قوله : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ لأن الأرض أقرب إلينا من السماء ، ثم ذكر في المرتبة الرابعة قوله : ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ ثم ذكر في المرتبة الخامسة الأحوال المتولدة من تركيب السماء بالأرض فقال : ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ .

الثاني : من الدلائل القرآنية : أن يحتج الله تعالى بالأشرف فالأشرف نازلاً إلى الأدنى فالأدنى ، وهذا الطريق هو المذكور في هذه السورة ، وذلك لأنه تعالى ابتداء في الاستدلال على وجود الإله المختار بذكر الأجرام العالية الفلكية ثم ثنى بذكر الاستدلال بأحوال النبات ، ثم ثلث بذكر الاستدلال بأحوال العناصر الأربعة وهذا الترتيب في غاية الحسن ^(١) .

أقول : وقد تقدم ذكر خلق السموات والأرض على خلق الإنسان مع كونه أشرف منهما لسبقهما في الوجود ، وذكر الإمام البقاعي أن خلق السموات والأرض غيباً لتقدمه وكان خلق الإنسان على هذه الصفة شهادة ، وكأنه يقول هذا من قبيل تقديم الغيب على الشهادة ^(٢) .

﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْتَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل: ٦٥) .

لماذا تقدم المفعول ﴿وَالْأَنْعَمَ﴾ على فاعله ﴿خَلَقَهَا﴾ أقول : لمناسبة ما بعده فإن بعدها الجار والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ فأفادت معنى زائداً وهو إشعارهم بمدى العناية والمنة ، كأنه قال : خلقتها لكم لا لغيركم ، وهذا ما لا يكون إن أخرت فقيل : {خلق الأنعام لكم} أو يكون الابتداء بالمفعول به للتشويق ، كأن القارئ والسامع عندما يقرأ الآية ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا﴾ يتبادر إلى ذهنه سؤالاً فيقول لماذا؟ فيأتيه الجواب. وقد تقدم ذكر الأنعام في هذه السورة على سائر الحيوانات .

(١) مفاتيح الغيب ج ١٩ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٢) نظم الدرر ج ٤ ص ٢٥٤ .

ويرى الرازي أن التقديم هنا للشرف ، حيث إن الإنسان أكمل وأشرف المخلوقات فما كان انتفاع الإنسان به أكمل وأكثر كان أكمل وأشرف والحيوان الذي ينتفع به الإنسان إما أن ينتفع به في ضروريات معيشته مثل الأكل واللبس أو لا يكون كذلك ، وإنما ينتفع به في أمور غير ضرورية مثل الزينة وغيرها ، والقسم الأول أشرف من الثاني ، وهذا القسم هو الأنعام ، فلهذا السبب بدأ الله بذكره في هذه الآية ، فقال : ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾

المسألة الثانية : أنه تعالى لما ذكر أنه خلق الأنعام للمكلفين أتبعه بتعديد تلك المنافع ، واعلم أن منافع النعم منها ضرورية ومنها غير ضرورية والله تعالى بدأ بذكر المنافع الضرورية .

فالمنفعة الأولى : قوله : ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْعَةٌ﴾ وقد ذكر هذا المعنى في آية أخرى فقال : ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا﴾ (النحل: ٨٠) ..

المنفعة الثانية : قوله : ﴿وَمَنْفَعٌ﴾ قالوا : المراد نسلها ودرها ، وإنما عبر الله تعالى عن نسلها ودرها بلفظ المنفعة وهو اللفظ الدال على الوصف الأعم ، لأن النسل والدر قد ينتفع به في الأكل وقد ينتفع به في البيع بالنقود ، وقد ينتفع به بأن يبدل الثياب وسائر الضروريات فعبر عن جملة هذه الأقسام بلفظ المنافع ليتناول الكل .

المنفعة الثالثة : قوله : ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ يفيد الحصر وليس الأمر كذلك ، فإنه قد يؤكل من غيرها ، وأيضاً منفعة الأكل مقدمة على منفعة اللبس ، فلم أذكر منفعته في الذكر؟

قلنا : الجواب عن الأول : إن الأكل منها هو الأصل الذي يعتمد عليه الناس في معاشهم ، وأما الأكل من غيرها كالدجاج والبط وصيد البر والبحر ، فيشبه غير المعتاد وكالجاري مجرى التفكه ، ويحتمل أيضاً أن غالب أطعمتكم منها لأنكم تحرثون بالبقر ، والحب والثمار التي تأكلون منها ، وأيضاً تكتسبون بإكراء الإبل وتنتفعون بألبانها ونتاجها وجلودها ، وتشترى بها جميع أطعمتكم .

والجواب عن السؤال الثاني : أن الملبوس أكثر بقاء من المعلوم فلهذا قدمه عليه في الذكر»^(١)

(١) مفاتيح الغيب ج ١٩ ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

وقد وجدت أن الرازي قد نقل قول الزمخشري بعينه حول سر التقديم ولم ينسبه إليه أيضاً ، وقد أثرت أن أذكر ما سطره هنا فقط في هذه الآية كمثال على ذلك .

قال الزمخشري : « فَإِنْ قُلْتَ : تقديم الظرف في قوله : ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ مؤذن بالاختصاص ، وقد يؤكل من غيرها قلت : الأكل منها هو الأصل الذي يعتمد عليه الناس في معاشهم ، وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتد به وكالجارى مجرى التفكه ، ويحتمل أن طعمتكم منها ، لأنكم تحرثون بالبقر فالحب والثمار التي تأكلون منها ياكراء الإبل وتبيعون نتاجها وألبانها وجلودها . وإلى هنا ذهب الألوسي أيضاً وأشار إلى ما في الآية من حسن الفاصلة » .^(١)

أقول : ومن المحتمل أن الخطاب خاص بالعرب الذين كانوا يعيشون في هذه البيئة فقد كانت الأنعام هي مصدر غذائهم ، بينما هناك شعوب كثيرة مصدر غذائها ليس من الأنعام كاليابانيين مثلاً جل طعامهم من البحر .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (النحل: ٦).

قال الزمخشري : « فَإِنْ قُلْتَ : لم قدمت الإراحة على التسريح ؟ قلت : لأن الجمال في الإراحة أظهر ، إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع ، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها » .^(٢)

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ (النحل: ١٠) ، تقدم الجار والمجرور ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ على المفعول به الصريح ﴿ مَاءً ﴾ لبيان عجب القدرة وإلفات الذهن إلى حكمة الصنعة ليتمكن في النفس حسن التفكير وعظيم التبصر بأحوال هذا الماء ، كيف أنشئ في السماء ، ثم حمل على الريح ، ثم صرف إلى حيث أراد الله ، ثم أسقطه ، وأنزله بحساب معلوم وميزان محكوم ، كما فيه ذكر بيان النعمة حيث النظر في هذه القدرة التي أنزلت

(١) الكشف ج ٢ ص ٥٧٠ .

(٢) الكشف ج ٢ ص ٥٧١ .

الماء من مكان لا يستطيع أحد أن ينزله منه مهما أوتي من قدرة ، فيتولد في النفس شعور تقابلي بمدى العجز والضعف الذي يمليه أيضاً المد المتصل الذي في كلمة السماء والذي يضيف بعداً زمانياً آخر إضافة إلى البعد النفسي .

وقد ذكر الألوسي معنى آخر وهو الشوق إلى المتأخر من أجل التمكن الذهني قال : « وتأخير المفعول الصريح عنه ليظماً الذهن إليه فيتمكن أتم تمكن عند وروده عليه » .^(١)

أقول : وفي الآية تقديم الخبر ﴿ لَكُمْ ﴾ على المبتدأ ﴿ شَرَابٌ ﴾ قد يكون للاهتمام والعناية ولا يبعد قول من قال أنه للحصر باعتبار أن أصل كل ماء في الأرض إنما هو من ماء السماء بنص قوله تعالى : ﴿ فَسَلَكُهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ فَأَسْكَنْهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾
(النحل: ١٤)

قال صاحب درة التنزيل : وقال في سورة الملائكة - فاطر - ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لِبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (فاطر: ١٢).

للسائل أن يسأل فيقول : أية فائدة خصت في الآية الأولى أن تقدم فيه مواخر على قوله فيه ، وأن تدخل فيه الواو على ولتبتغوا ؟ وأية فائدة خصت في الآية الثانية من سورة الملائكة أن يقدم فيها قوله فيه على مواخر وأن تحذف الواو من قوله لتبتغوا ؟ ... وأما تقديم مواخر في هذا المكان على قوله فيه ، فلقوة حكم الفعل الذي اعتد الله بذكره على عباده في هذه الآية لأنها مصدرية بقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ ﴾ ، وإذا قوي حكم الفعل في مكان وجب أن يرتب ما يتعدى إليه على ما يقتضيه في الأصل ، وهو أن يقدم في الفعل المتعدي إلى مفعولين :

(١) روح المعاني ج ١٤ ص ١٠٥ .

مفعوله الأول الذي أصله أن يكون معرفة ، ثم أصله الثاني الذي أصله أن يكون نكرة ، ثم الظرف الذي هو كالفضلة فجاء على هذا الأصل .

فأما تقديم فيه في الآية الأخرى على مواخر فلأن الفعل الذي قدم فيها وعطف هذا عليه بولغ في تقديم الجار والمجرور فيه مبالغة لا مدى وراءها ولا زيادة عليها ، ألا ترى أنهما قدما على الفعل نفسه وهو : ومن كل تأكلون لحماً طرياً فلما عرض قوله : وترى الفلك بعد فعل هذه صفته وقد حصل فيه مفعولان وجار ومجرور قوي تقديم الجار والمجرور فيه على أحد مفعوليه ليعلم أنه من جملة كلام بني الفعل فيه على تقديم الجار والمجرور عليه.^(١)

وقد أفاد الفيروزابادي بنحو ما ذهب إليه الإسكافي والنقل فيه ظاهر حيث قال عن آية سورة النحل : « ما في هذه السورة جاء على القياس فإن ﴿ أَلْفَلْكَ ﴾ المفعول الأول لترى ، و ﴿ مَوَآخِرَ ﴾ المفعول الثاني ، و ﴿ فِيهِ ﴾ ظرف ، وحقها لتأخر والواو في ﴿ وَلِتَبْتَغُوا ﴾ للعطف على لام العلة في قوله : ﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ ﴾ وأما في الملائكة فقدم ﴿ فِيهِ ﴾ موافقة لما قبله ، وهو ﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً ﴾ فقدم الجار والمجرور ، على الفعل والفاعل .^(٢)

أقول : ولي هنا رأي في تقديم مواخر وتأخيرها ، ففي تقديمها كما في سورة النحل ﴿ مَوَآخِرَ فِيهِ ﴾ لفت الأنظار إلى قدرة الله في الفعل وكيفية شق الفلك عباب الماء فكان القرآن يستدعي منا النظر في الآلة وكيفية جريانها ، أما تقديم ﴿ فِيهِ مَوَآخِرَ ﴾ فالنظر هنا في المحل وهو الماء السائل وقدرة الله الذي سخر هذا الماء وجعله صالحاً لأن يسار فيه .

﴿ وَعَلَّمْتِ بِالنَّجْمِ هُمْ يَتَذَوَّنَ ﴾ (النحل: ١٦).

تقديم الجار والمجرور ﴿ وَبِالنَّجْمِ ﴾ للاهتمام ببيان عظيم هذه النعمة وليس للفاصلة كما ادعى القاسمي وقد تكلمنا عن ذلك ، ورددنا على من ادعى بأن الترتيب لمراعاة الفواصل ، ولسنا مع القاسمي في رفض دعوى الزمنخشي أن

(١) درة التنزيل ص ١٣٦ ، ١٤٥ .

(٢) بصائر ذوي التمييز ج ١ ص ٢٨١ .

تقديم الضمير ﴿ هُمْ ﴾ للتخصيص بقوم هم قريش لكونهم أصحاب رحلة سفر لأن الخطاب في الآيات السابقة عاماً فكذا يكون في لاحقها . ^(١) فهذا الخصوص بهم في الخطاب لا يفيد الحصر كما فهمه القاسمي ، بل كما قال الزمخشري : « وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً ، فغيرهم داخل معهم في الاهتداء بالنجوم ولكن ليس كمثلهم في كثرة الاعتماد عليه والاهتداء به ، وقد ذهب إلى ما ذكره الزمخشري السمين الحلبي حيث قال : {وتقديم كل من الجار والمبتدأ مفيد للاختصاص} . ^(٢)

﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهِبُونَ ﴾ (النحل: ٥١) ، تقديم الضمير {إياي} وهو المفعول به للاختصاص أي لا ترهبوا غيري ، وقد مضى ذلك في سورة البقرة .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نَسْقِكُمْ مِنْهَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (النحل: ٦٦، ٦٧) .

قال أبوحيان : « ولما كانت المشروبات من اللبن وغيره هو الغالب في الناس أكثر من العسل ، قدم اللبن وغيره عليه ، وقدم اللبن على ما بعده ، لأنه المحتاج إليه كثيراً ، وهو الدليل على الفطرة ، ولذلك اختاره الرسول ﷺ حين أسري به وعرض عليه اللبن والخمر والعسل ، وجاء ترتيبها في الجنة لهذه الآية قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ (محمد: ١٥) ^(٣) تقدم قوله : ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ ﴾ على قوله : ﴿ لَبَنًا ﴾ وإنما قدم لأنه موضع العبارة فهو أحرى بالتقديم فهذا التقديم للالتفات .

(١) القاسمي ج ٦ ص ٣٦٠ .

(٢) الدر المصون ج ٤ ص ٣١٨ .

(٣) البحر المحيط ج ٥ ص ٥٩٥ .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: «وفي تقديم قوله تعالى: ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَذَمْرٍ ﴾ على قوله سبحانه: ﴿ لَبَنًا ﴾ الذي هو مطلوب للفعل ﴿ نَسْقِيكُمْ ﴾ - في هذا التفات إلى الفرث والدم ، وما يخرج من بينهما ، وهو اللبن الخالص السائغ للشاربين ، فإنه قبل أن يقع لنظر الناظر هذا اللبن يلتقي نظره أولاً بالفرث والدم الذي لا يتصور أن يخرج منهما إلا ما يشاكلهما ، فإذا رأى بعد هذا أن ذلك اللبن الخالص السائغ يخرج من بين هذين الشئين : الفرث والدم ، عجب لذلك كل العجب وحمله ذلك أن يقف عند هذه الظاهرة وقوفاً طويلاً ، يشهد فيها لمحات من قدرة الله وعلمه وحكمته» .^(١)

وقد فات أبا حيان أن يذكر علة تقدم السكر على الرزق الحسن .
وأقول : وقد تقدم السكر على الرزق الحسن للاهتمام حيث كانوا يصنعون منه الخمر ، والخمر فيها منافع لهم يبيعها وشرائها وشربها كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ (البقرة: ٢١٩) ﴿ وَأَوْحَىٰ رُبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (النحل: ٦٨)، تقدم ذكر بيوت النحل في الجبال على ما بعدها وكذلك بيوتها في الشجر على البيوت التي ابتناها الإنسان ، وهذا الترتيب للأفضلية إذ إن عسل النحل القاطن في الجبال أحسن من اللذين من بعده ، كما أن عسل النحل القاطن في الشجر أفضل من القاطن في البيوت .

وتحت عنوان {كيف يجمع النحل الرحيق} النحل هو الحشرة الوحيدة التي أوحى الله تعالى إليها وأرسلها إلى إقامة بيوتها وأماكن سكنها فأمرها أن تتخذ من الجبال بيوتاً وهو أفضل أنواع سكنها وفيه ينتج أجود أنواع عسلها ، النوع الثاني : إقامة سكنها في الأشجار وهو مرتبة ثانية في نوع السكن وجودة العسل .
النوع الثالث : إقامة سكنها في ما يعرشه الإنسان وهو المرتبة الثالثة من أنواع السكن وجودة العسل أيضاً نظراً لتدخل يد الإنسان ثم أمرها سبحانه أن تأكل من الثمرات ولم يقيد بها بنوع معين» .^(٢)

(١) التفسير القرآني ج ١٤ ص ٣٢١.

(٢) عسل النحل غذاء وشفاء ص ١٤.

وللقاسمي رأي آخر وجهه قال : « وأكثر بيوتها ما كان في الجبال ، وهو المتقدم في الآية ، ثم في الشجر دون ذلك ثم في الثالث أقل ، وقد التفت القاسمي إلى التقديم اللطيف في تقديم السكن على الأكل حيث قال : فالتحل إذا نوعان : جبلية تسكن في الجبال والفيافي التي لا يتعهدها أحد من الناس ، وأهلية تأوي إلى البيوت ، وتتعهدها في الخلايا ومن بديع الإلهام فيها اتخاذها البيوت قبل المرعى فهي تتخذها أولاً فإذا استقر لها بيت خرجت منه ، فرعت ، وأكلت من الثمرات ، ثم أوت إلى بيوتها وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ ﴾ ^(١) . »

« ولقد ذكر الشعراوي عن أحد العلماء الأمريكيان الذي رصد حياته في دراسة النحل وأطواره وأجناسه وبيئاته قوله : أول إنتاج للنحل كان في الجبال وأقدم عسل وجده الإنسان للنحل كان في الخلايا التي عثر عليها في الجبال وبعد ذلك وجد الإنسان النحل وعسله في الشجر العالي الذي لا يملكه ، ثم استأنس الإنسان النحل وأقام له البساتين والبيوت والخلايا ومما يعرشون ، ولم يقرأ هذا العالم القرآن ليعرف المراحل الثلاث التي جاءت به لكنه درس بصدق البحث التجريبي وخرج بالنتيجة نفسها التي جاء بها القرآن ^(٢) . »

﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٢) ، قدم الجار والمجرور ﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ ﴾ على متعلقه ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ لإفادة الحصر في كون هؤلاء لا يؤمنون إلا بالباطل وكذا التقديم في قوله : ﴿ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ ، ويجوز أن يكون التقديم للاهتمام لأن المقصود بالإنكار الذي سبق الكلام لأجله تعلق كفرانهم بنعمة الله تعالى واعتقادهم الباطل لا مطلق الإيمان والكفران مع ما فيه من حسن الفاصلة .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ ٧٨ ﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ

(١) القاسمي ج ٦ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

(٢) الشعراوي ج ٥ ص ٢٨٢٢ .

السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٩٠﴾ (النحل: ٧٨-٨١).

لما ذكرهم سبحانه بنعمه في هذه السورة ابتداءً بذكر نعمة الخلق والإيجاد ، إذ هي أول نعمة ظهرت في الوجود - ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ ثم ذكرهم بنعمة الإدراك التي بها تم الخلق وحسن ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُم السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ ثم ثلث بنعمة الاستقرار والشعور بالأمان والمأوى لكل ما هو من جنس الحيوان ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا ﴾ وهي الأعم والأغلب ثم ذكر البيوت السريعة التبدل والتحول والتي يكون فيها الاستقرار أقل ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا ﴾ ثم ذكر ما يصلح هذا البيت ويكمله ويجمله ﴿ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارُهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾ ولما ذكر ما يخصهم لشرفهم أتبعه ما يشترك فيه الإنسان وسائر الحيوان ، ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا ﴾.

وفي تقديم ﴿ لَكُمْ ﴾ على ما بعدها ، للاعتناء والاهتمام بأن هذا الجعل من أجلهم ومن أجل مصلحتهم والعناية بهم ، مع ما فيه من التشوق إلى المتأخر وتقدم الظعن على الإقامة مع أن الإقامة هي الأصل في اتخاذها وهي الأطول زمناً لأن الامتنان هنا في خفتها لأن المنة فيها في السفر أتم وأقوى إذ لا يهتم المقيم أمرها .

وتقدم ذكر الصوف على الوبر والوبر على الشعر من باب تقديم الأفضل ، وقد استدلل بعض الصوفية بهذه الآية على تفضيل لبس الصوف .

﴿ وَصَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعِمِ اللَّهُ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا

يَصْنَعُونَ ﴿ (النحل: ١١٢) قال أبو حيان : ولما تقدم ذكر الأمن وإتيان الرزق قابلهم بالجوع الناشئ عن انقطاع الرزق وبالخوف ، وقدم الجوع ليلي المتأخر ، وهو إتيان الرزق ، كقوله : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ (آل عمران: ١٠٦).^(١)

وأقول : إن تقديم الجوع على الخوف في هذه الآية قد يكون لمناسبة الاستعمال في لفظة {أذاق} إذ إنها حقيقة في التذوق الطعمي مجازاً في التذوق الأمني ، فلهذا قدم ما كون تذوقه حقيقياً على ما كان تذوقه مجازياً ، أما تقديم نعمة الإطعام من الجوع على الأمن من الخوف في سورة قريش في قوله تعالى : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ ، فقد يكون بسبب أن الجوع في هذه البيئة الصحراوية التي ليس عندهم من أسباب الحياة ما يدفعون به عن أنفسهم ، فكان هو الأعظم خطراً والأشد أثراً على عكس الخوف الذي قد يدفعونه بشيء من أسباب الحيلة والقوة ، سبب آخر أراه وهو أن الجوع أشد أثراً وأعظم فتكاً ، فمعه الموت والهلاك ، بينما الخوف لا تذهب به الحياة كلية فقد تستمر ولكنها لا تستقيم ولا تستقر ، سبب آخر هو أن الجوع قدم لأنه الأظهر والأبين ، وهو المحسوس الملموس ، كما أن الخوف قد يندارى عن الصغير ، ويعمى عليهم أمره بينما الجوع ساكن معه ملتصق به لا بد من دفعه دفعاً وإخراجه قسراً ، وقد عكس هذا التقديم في سورة إبراهيم في قوله تعالى : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ فإن إبراهيم - عليه السلام - إنما دعا قبل أن تسكن البلد أو يحل بها أحد وأول ما يبحث عنه الإنسان في السكنى والمقام ، إنما هو الأمن والسلام قبل الغذاء والطعام ، فإذا ما آمن على نفسه ومن معه فلا خوف يزيله ولا هم يفزعه طاب المقام ، وحسن الاستقرار على العكس من ذلك أن يجد الطعام ويحرم الاستقرار ، فإنه يعيش بغير قرار ، ويبدأ في التحول كما الليل والنهار ، وهذه البلدة قد أسكنها إبراهيم أهله بوحي من ربه لتكون هذه البلدة موطن أفئدة ومهوى الأنفس ومقصد العالمين وقبلة الناسكين العابدين فلهذا كله قدم الدعاء بالأمن على الدعاء بالطعام لتكون مقراً لأهلها ومنزلاً لقاصديها الذين

(١) البحر المحيط ج ٥ ص ٥٢٥.

لو هددوا في المجيء إليه لما قصدوا أحد ولا أصبحت مهجوراً كعشيرة بلا سند
وبيت بلا عمد .

وفي الآية تقديم وتأخير التفت إليه أبو السعود في تقديم المفعول الأول ﴿قَرِيَةً﴾
على المفعول الثاني ﴿مَثَلًا﴾ قال : « وتأخير ﴿قَرِيَةً﴾ مع كونها مفعولاً أولاً لثلاث
يحول المفعول الثاني بينها وبين صفتها وما يترتب عليها إذ التأخير عن الكل محل
بتجاذب أطراف النظم وتجاوبها ، ولأن تأخير ما حقه التقديم مما يورث النفس
ترقباً لوروده وتشوقاً إليه ، لا سيما إذا كان في المقدم ما يدعو إليه فإن المثل مما
يدعو إلى المحافظة على تفاصيل أحوال ما هو مثل فيتمكن المؤخر عند وروده
لديها فضل تمكن » .^(١)

﴿إِنَّ رَيْكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (النحل: ١٢٥).
قدم العلم بمن ضل عن سبيله لأنهم المقصودون بالدعوة ، والصبر عليهم أوكد ،
وقد يكون التقديم لكونهم أكثر .

﴿وَأِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾
(النحل: ١٢٦). تقدم هنا الإخبار عن العقاب على الأمر بالصبر مع أن الصبر مرتبته
أفضل والتحلي به أجمل وقد ذكره الله في هذه الآية بأنه الأفضل .

وأقول : إن تقديم العقاب هنا مع كونه مفضولاً راجع إلى ثلاثة أمور :

الأول : كون الآية إنما نزلت لبيان المماثلة في العقاب ، قال القرطبي : «أطبق
أهل التفسير أن هذه الآية مكية ، نزلت في شأن التمثيل بحمزة يوم أحد ، ووقع
ذلك في صحيح البخاري وفي كتاب السير .. روى الدارقطني عن ابن عباس قال :
لما انصرف المشركون عن قتلى أحد انصرف رسول الله ﷺ فرأى منظراً ساءه رأى
حمزة قد شق بطنه ، واصطلم أنفه وجذعت أذناه فقال : {لولا أن يحزن النساء
أو تكون سنة بعدي لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثلن مكانه بسبعين
رجلاً} ، ثم دعا ببردة غطى بها وجهه ، فخرجت رجلاه فغطى رسول ﷺ وجهه
وجعل على رجله من الإذخر ، ثم قدمه فكبر عليه عشراً ، ثم جعل يجاء بالرجل

(١) تفسير أبي السعود ج ٣ ص ٢٩٧ .

فيوضع وحمزة مكانه حتى صلى عليه سبعين صلاة وكان القتلى سبعين ، فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت هذه الآية ﴿ أَذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ - إلى قوله - ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾^(١).

الثاني : أن الأمر بالصبر قد اقترن بلام التأكيد ﴿ وَلَيْنَ صَبْرُكُمْ ﴾ ، بينما اقترن الإخبار عن العقاب بـ ﴿ إِنَّ ﴾ التي هي بمعنى الشك ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ ﴾ .

الثالث : أن الآية التالية فيها الأمر بالصبر وعدم الحزن عليهم وعدم الضيق من مكرهم .

﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۖ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (النحل: ١٢٧) ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (النحل: ١٢٨)

تقدم ذكر صفة التقوى قبل صفة الإحسان مع أن رتبة الإحسان أعلى مراتب الإيمان كما جاء في حديث جبريل ، وأقول : بأن التقدم هنا للترقي من المفضول إلى الأفضل ومن الحسن إلى الأحسن .

(١) القرطبي ج ١٠ ص ١٣٢ .

سورة الإسراء

تتصل سورة الإسراء بسورة النحل اتصالاً شديداً لما ختمت سورة النحل بذكر إبراهيم - عليه السلام - والثناء عليه ثم جاء الأمر للنبي ﷺ باتباع ملة إبراهيم - عليه السلام - وكان ظاهر ذلك تفضيل إبراهيم على محمد ﷺ وعلى سائر الأنبياء - عليهم السلام - أعقب ذلك بسورة الإسراء التي تضمنت من خصائص نبينا ﷺ وعظيم منزلته وشرف مقامه الذي لم يصل إليه سابق ولن يدركه لاحق ، ويكفي لإثبات ذلك قصة الإسراء والمعراج وإمامته بكل الأنبياء . وقد ناسب ذكر الإسراء بعد خاتمة النحل مناسبة شديدة ، فخاتمة النحل تأمر النبي ﷺ بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وتأمر بالعدل عند المعاقبة بمثل ما يعاقب به وتحثه على الأفضل بعدم مجازاة العقوبة بمثلها ، وأن الصبر دائماً عاقبته إلى خير في الدنيا والآخرة ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ (النحل: ١٢٦) تأمره بالصبر وتنهيه عن الحزن وعدم الضيق من مكرهم وصدودهم ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (النحل: ١٢٧) . ثم تختم بإثبات معية الله ونصره له ولكل محسن اتبع سبيل المحسنين ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (النحل: ١٢٨) .

ثم تأتي سورة الإسراء ببيان تحقيق الله لهذا الخير الموعود به في سورة النحل حيث جاء الإسراء كما هو معلوم من القصة في كل كتب السير بعدما خرج النبي ﷺ من مكة وقد لاقى منهم كل شر وصدود وإعراض وتكذيب وسخرية واستهزاء فيذهب إلى الطائف ليجدهم شراً حالاً من أهل مكة فسلطوا عليه السفهاء وضربوه بالحجارة حتى أدموه ونالوه بالأذى وأسمعوه كل قبيح ، ثم يرجع إلى مكة فينزل عليه جبريل صحبة ملك الجبال ويعرض عليه أن يطبق على الكفار الأخشبين فيقول : { بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبدوه ولا يشرك به شيئاً } فلم يقابل العقوبة بمثلها بل صبر وتحمل فساق الله إليه الخير بهذه الرحلة العظيمة.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَيَالِ الْوَالِدِينَ إِحْسَنًا ﴾ (الإسراء: ٢٣)، تقدم الأمر بإفراد الله بالعبادة ، لأنه حق الله وحق المعبود مقدم على حق العابد فالوالد والولد كل مأمور بعبادة الله ، وإذا كان البر بالوالدين من أجل أنهما أصل الإيجاد ولعظيم نعمتهما على الأبناء فحق الله أولى ، إذ هو خالق الجميع من العدم وما بأحد من نعمة إلا من الله ، كذلك من أسرار التقدير أن عبادة غير الله خلل في التفكير ، وعقوق الوالدين خلل في العمل ، وإصلاح الخلل في التفكير مقدم على إصلاح الخلل في العمل ، وقدم المجرور ﴿ وَيَالِ الْوَالِدِينَ ﴾ على متعلقه ﴿ إِحْسَنًا ﴾ اهتماماً بشأنهما .

وقد تقدم الأمر ببر الوالدين على الأقارب والمحتاجين الذين ذكروا في الآية السادسة والعشرين من نفس السورة ، ﴿ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذِرْ تَبْذِيرًا ﴾ (الإسراء: ٢٦).

قال الرازي : « وليس لأحد من الخلائق نعمة على الإنسان مثل ما للوالدين وتقديره من وجوه :

أحدها : أن الولد قطعة من الوالدين قال عليه السلام {فاطمة بضعة مني} .
 وثانيها : أن شفقة الوالدين على الولد عظيمة ، وجدهما في إيصال الخير إلى الولد كالأمر الطبيعي واحترازهما عن إيصال الضرر إليه كالأمر الطبيعي ، ومتى كانت الدواعي إلى إيصال الخير متوفرة ، والصوارف عنه زائلة لا جرم كثر إيصال الخير فوجب أن تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة أكثر من كل نعمة تصل من إنسان إلى إنسان .

وثالثها : أن الإنسان حال ما يكون في غاية الضعف ونهاية العجز ، يكون في إنعام الوالدين في ذلك الوقت ، ومن المعلوم لأن الإنعام إذا كان واقعاً على هذا الوجه كان موقعه عظيماً .

ورابعها : أن إيصال الخير إلى الغير قد يكون بداعية إيصال الخير إليه وقد يمتزج بهذا الغرض سائر الأغراض ، وإيصال الخير إلى الولد ليس لهذا الغرض فقط فكان الإنعام فيه أتم وأكمل فثبت أنه ليس لأحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد فبدأ الله تعالى بشكر نعمة الخالق وهو قوله :

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله :
﴿ وَيَالِ الْوَالِدَيْنِ إِحْسِنَا ﴾ والسبب فيه ما بينا أن أعظم النعم بعد إنعام الإله الخالق
نعمة الوالدين^(١).

أقول : وهناك تقديم آخر في الآية وهو تقديم معمول المصدر ﴿ وَيَالِ الْوَالِدَيْنِ ﴾
على المصدر ﴿ إِحْسِنَا ﴾ وهذا التقديم للاهتمام لأنه هو المطلوب الإحسان وغايته
وأصل النظم وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وإحساناً بالوالدين .
﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمَّا يَكُنْ خَيْرٌ نَّرِزْقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِئًا
كَبِيرًا ﴾ (الإسراء: ٣١) تقدم هنا رزق الأبناء على الآباء إشارة إلى أنهم جميعاً في
الرزق سواء عند الله لا يملك هؤلاء ولا هؤلاء رزقاً لأنفسهم وإنما يرزقون جميعاً
من فضل الله .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَ الَّتِي
حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي
الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴾ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا ﴾ ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا
بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ (الإسراء: ٣٢-٣٥).

لقد تقدم الزنى على القتل مع أن القتل أعظم ذنباً عند الله بعد الكفر والشرك ،
وقد ورد من الوعيد في ذنب القتل في القرآن والسنة ما لم يرد في أي معصية
أخرى ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا
وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٩٣) ، وقال تعالى :
﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي
الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾
(المائدة: ٣٢) ، وقد قدم القتل على الزنى في سورة الفرقان في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ
لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ أَنْفُسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ
وَلَا يَزْنُونَ ﴾ (الفرقان: ٦٨).

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٠ ص ١٨٦.

أقول : السبب في ذلك راجع لأمرين : الأول : الحث عليه خيفة التهاون به كما مر بنا من قبل في تقديم الأمر بالوصية على الدين في سورة النساء فلم يكن الكثير من العرب في الجاهلية يستقبحه أو يخشى منه عقاباً بينما القاتل يتربص القتل من أولياء المقتول.

الثاني : وهو الذي ذكره الرازي في جوابه على السؤال الذي افترضه حيث قال : « لقائل أن يقول : إن أكبر الكبائر بعد الكفر بالله القتل ، فما السبب بأن الله تعالى بدأ أولاً بذكر النهي عن الزنى وثانياً بذكر النهي عن القتل ؟

وجوابه : أنا بينا أن فتح باب الزنى يمنع من دخول الإنسان في الوجود ، والقتل عبارة عن إبطال الإنسان بعد دخوله في الوجود ، ودخوله في الوجود مقدم على إبطاله وإعدامه بعد وجوده ، فلهذا السبب ذكر الله تعالى الزنى أولاً ثم ذكر القتل ثانياً » .^(١)

ولما نهى سبحانه عن الإغارة على الألباع والأرواح ، أتبعه بالنهي عن نهب ما هو عديلهما لأن به قوامها ، وهو الأموال ، وبدأ بأحق ذلك بالنهي لشدة الطمع فيه لضعف مالكة وهو مال اليتيم ولما كانت الوصية نوع من أنواع العهد أمر بالوفاء بما هو أعم منها وتكون هي داخلة فيه فقال : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ﴾ ولما كان التقدير بالكيل أو الوزن من جملة الأمانات الخفية كالتصرف لليتيم أتبع بقوله : ﴿ وَأَوْفُوا أَلْكَيْلِ إِذَا كَلَّمْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ (الإسراء: ٣٥).

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْغُولٌ ﴾ (الإسراء: ٣٦).

قدم السمع هنا لعله ترتبط مع بداية الآية ، وهي النهي عن القول بلا علم ، لأنه أكثر ما ينسب للناس أقوالهم إليه ، كما قدم الجار والمجرور ﴿ عَنْهُ ﴾ للاهتمام به .

﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ (الإسراء: ٣٨).

﴿ أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُم بِالْبَيْنِ وَأَتَّخِذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْسَاءً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴾ (الإسراء: ٤٠).

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٠ ص ٢٠٠، ٢٠١

تقدم الفعل هنا على الاسم في الاستفهام الإنكاري ، لأن الغرض هنا هو إنكار الفعل وليس إنكار الاسم ، فقد أنكر عليهم سبحانه هو ادعاء اصطفاءهم بالبنين ، ولذا ولي المراد إنكاره الهمزة كما بينا في الرابع .

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ (الإسراء: ٨٩).

وقال في سورة الكهف : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ (الكهف: ٥٤). تقدم قوله ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ في الآية الأولى على ﴿ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ بعكس الثانية والسبب في ذلك كما يرى صاحب الدرة أن الآيات التي سبقتها تخويف وتحذير للنبي ﷺ كتحذير الناس كلهم إذ يقول : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِذَا لَأَذْنُكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٧٥)، فقال بعده وقدم الناس : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ تنبيهاً للناس وليهتموا بفهمه ويعنوا بتدبره ويقفوا عند أوامره وينتهوا عن زواجه ، فكان موضع الآية يقتضي تقديم الناس على عادة العرب في تقديم ما عنايتهم بذكره أتم .. وأما الثانية فإنها وقعت في السورة التي تقدم فيها ذكر أصحاب الكهف وما سئل النبي ﷺ عن الإخبار به مما لم يقدر عليه إلا بأن يوحى إليه ، وكان جميع ذلك من خبر موسى - عليه السلام ... وقصة ذي القرنين بعدهما مما أودع القرآن وتضمنه الكتاب ، فقال في هذا المكان : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ للدلالة على ما طلبوه من النبي ﷺ وما قد أوحى الله به إليه في كتابه ، فكان تقديم ذلك في هذا المكان أولى ^(١).

قال الكرمانى : « وقدمه على قوله : ﴿ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ كما قدمه في قوله : ﴿ قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٨)، ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ (الإسراء: ٨٩).

وأما في الكهف فقدم ﴿ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ لأن ذكره جل الغرض ، وذلك أن اليهود سألته عن قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين فأوحى الله إليه في القرآن ، فكان تقديمه في هذا الموضع أجدر ، والعناية بذكره أخرى ^(١) ﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾ ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَزَفَنًا إِيَّانَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ (الإسراء: ٤٨، ٤٩).

تقدم الأمر بالنظر إلى الأمثال التي ضربوها على الأمثال نفسها ، وهذا التقديم من أجل تهيين الناظر إليها ، ويخلي نفسه من كل نظر إلى غيرها ، وذلك لما فيها من فتنه وضلال الأمر الذي يدعو إلى إمعان النظر فيها حتى يتوقى الناظر ما فيها من مكر وكيد ، كما أنها أفادت هذا التشويق لمعرفة ما أمر بالنظر إليه .

قال صاحب التحرير : « وتقديم الظرف من قوله : ﴿ إِذَا كُنَّا عِظْمًا ﴾ للاهتمام به ، لأن مضمونه هو دليل الاستحالة في ظنهم ، فالإنكار متسلط على جملة ﴿ إِيَّانَا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ وقوة إنكار ذلك مقيد بحالة الكون عظماً ورفاتاً ، وأصل تركيب الجملة : إنا لمبعوثون إذا كنا عظماً ورفاتاً ^(٢) »

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴾ ﴿ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴾ (الإسراء: ٥٠، ٥١).

التقديم هنا من باب الترقي من الصلب إلى الأصلب لإثبات القدرة على الإعادة ، فبدأ بالحجارة ثم بما هو أصلب منها وهو الحديد ، ثم تركهم وأفكارهم ، لتجول فيما هو أصلب من الحديد .

﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ ۚ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (الإسراء: ٧٨).

ابتدأت الآية عند ذكر مواقيت الصلاة بذكر ميقات صلاة الظهر ، ويدخل فيه صلاة العصر ، ثم ذكرت صلاة المغرب والعشاء ثم الفجر ، وهذا الترتيب المذكور في هذه الآية هو الذي نزل به جبريل عملاً ، كما أخبر به النبي ﷺ به قولاً ، ففي

(١) أسرار التكرار في القرآن ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) التحرير والتنوير ج ١٥ ص ١٢٣ .

حديث إمامة جبريل بالنبي ﷺ ونزوله عند مواقيت الصلاة نزل أولاً حين زالت الشمس ، ثم جاءه عند العصر ثم عند المغرب ثم عند العشاء ثم عند الفجر وهو نفس الترتيب المذكور في هذه الآية وعلى هذا فالترتيب في الآية ترتيب وجودي ، ففي حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ « أمني جبريل - عليه السلام - عند البيت مرتين فصلّى الظهر في الأولى منهما حين كان الفياء مثل الشراك ثم صلى العصر .. »^(١) أما السنة القولية في بيان مواقيت الصلاة فقد جاء الحديث عن النبي ﷺ مرتباً أيضاً كما في هذه الآية فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : { وقت الظهر إذا زالت الشمس وكان ظل الرجل كطوله ما لم يحضر العصر ووقت العصر ما لم تصفر الشمس ووقت المغرب ما لم يغب الشفق ووقت العشاء إلى نصف الليل الأوسط ، ووقت صلاة الصبح من طلوع الفجر وما لم تطلع الشمس فإذا طلعت الشمس فأمسك عن الصلاة فإنها تطلع بين قرني شيطان } رواه مسلم ، وهذا الترتيب هو الترتيب المعتمد عند ذكر مواقيت الصلاة في كل كتب الفقه فيبدأ العلماء بذكر وقت صلاة الظهر ثم العصر ثم المغرب ثم العشاء ثم الفجر .

وفيما ذهبت إليه قال القرطبي : « ولم يختلفوا في أن جبريل - عليه السلام - هبط صبيحة ليلة الإسراء عند الزوال فعلم النبي ﷺ الصلاة ومواقيتها »^(٢).

قال الشعراوي : « ولماذا بدأ بدلوك الشمس ؟ وهل النهار يبدأ بالظهر أو يبدأ بالصبح ؟ إن الإسراء والمعراج كان ليلاً ورسول الله جاء صباحاً إلى مكة ، وقد فرضت الصلاة في المعراج ، فكانت أول فريضة هي الظهر ، وكأن الحق يعني خذ الغاية وخذ البداية ، وكانت البداية هي صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء وبقي الفجر وجاء فيه ﴿ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَآبَ مَشْهُودًا ﴾^(٣) ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطٰنًا نَصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٠).

(١) الترمذي كتاب الصلاة حديث رقم { ١٣٨ } ومسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم { ١٧٣ } .

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٣٨ .

(٣) الشعراوي ج ٧ ص ٤٣٤٠

لماذا تقدم قوله : ﴿ أَذْخِلْنِي ﴾ على قوله : ﴿ أَخْرِجْنِي ﴾ أقول : بالنظر في معنى الدخول والخروج ندرك سر هذا الترتيب ، فإذا كان الدخول والخروج لمعنى واحد ، فالترتيب هنا ترتيب وجودي ، كما فسر البعض الدخول والخروج بقوله : أي أدخلني في أمرك الذي أرسلتني به من النبوة مدخل صدق ، وأخرجني من الدنيا ، وقد قمت بما وجب عليّ من حق النبوة مخرج صدق ، وإذا كان أمر الخروج والدخول بين أمرين مختلفين في عموم الخروج والدخول فإن تقديم الدخول وإن كان متأخراً زماناً لأنه لا بد أن يسبق الدخول خروج كما فسر الخروج بخروجه ﷺ من مكة مهاجراً ودخوله إلى المدينة ، فتقديم الدخول هنا للاهتمام لأنه يتعلق بالغير وهم المدخول عليهم ودخول الصدق والكذب عائد عليهم ، أما الخروج فعائده على الخارج فحسب لا على المخرج منه.

﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيُّمَا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾

(الإسراء: ١١٠)

تقدم لفظ الجلالة ﴿ اللَّهُ ﴾ على اسم ﴿ الرَّحْمَنَ ﴾ لأن مرجع الأسماء الحسنى كلها إلى اسم الله ، فهو الاسم الجامع لجميع صفات الكمال ، وقد مر بنا ذلك في تفسير سورة الفاتحة وفي تقديم الجار والمجرور الخبر ﴿ فَلَهُ ﴾ على المبتدأ ﴿ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ للحصر والاختصاص به سبحانه ، حيث لا يشاركه في هذه الصفات أحد ، وأقول : ليس هنا سبيل لمعتراض في قوله أن من الأسماء الحسنى أسماء قد شاركه فيها غيره سبحانه من مثل قوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ وقوله : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَارْتَ الْكَوْثَى الْأَمِينُ ﴾ إلى غير ذلك من الصفات التي أطلقها الله تعالى على عباده ، فنقول : إن الاشتراك هنا ليس في حقيقة الاسم والصفة وما يتعلق بهما وإنما هو اشتراك لفظي لا يدل على حقيقة الاسم والصفة وكيفيتهما ، ولنا في صفات المخلوقات كالحوانات مثلاً دليل على ذلك ، فالإنسان والفيل كلاهما له أذن وله قدم وله سمع وله بصر دون أن يكونا متساويين في شيء من ذلك وهكذا والله المثل الأعلى فصفاة الحسنى خاصة به محصورة فيه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾.

سورة الكهف

من المعلوم أن التسبيح مقدم على التحميد فيقال سبحان الله والحمد لله في الذكر المطلق أو المقيد بأدبار الصلوات ، وهنا تقدم التسبيح في سورة الإسراء فجاء بها أولاً ثم جاء بالكهف المبدوء بالحمد ثانياً ، وكما قيل التخلية مقدمة على التحلية .

ثانياً : لقد تضمنت سورة الإسراء صفات التسبيح والتنزيه لله رب العالمين عن كل المعائب والنقائص ، وجاءت سورة الكهف بالحمد على صفات كماله وإنعامه ، فقد ختمت سورة الإسراء بإثبات الحمد لله رب العالمين لتنزهه عن كل صفات النقص ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرٌ ﴾ (الإسراء: ١١١) . بدأت سورة الكهف بالحمد لله رب العالمين على صفات الكمال والبراءة من كل نقص وعيب ، ومن هذه الصفات رعايته لعباده بإنزاله الكتب التي فيها خير عاجلهم وآجلهم ، ولما ختمت الإسراء بتنزيهه عن اتخاذ الولد جاءت سورة الكهف لإنذارهم وبيان أن ذلك القول لا دليل عليه ولا برهان.

﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ

(الكهف: ٤، ٥)

المدقق هنا يلاحظ تناسقاً عجيباً في الترتيب بين هاتين السورتين من حيث التسبيح والتحميد وكيف أن الابتداء بسورة الإسراء وبعدها الكهف كان وراء سر عجيب لمن تأمله .

﴿ اتَّخَذَ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۚ ۝ قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۚ ﴾ (الكهف: ٢٠، ٢١).

تقدم قوله : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۚ ﴾ على قوله : ﴿ قَيِّمًا ۚ ﴾ وهذا التقديم من باب الأمر بالاتفات إليه بحسن التفكير فيه والتدبر إليه وإمعان النظر فيه والتدقيق في نظمه هل فيه من عوج ، وكأنه تحد لهؤلاء المشركين الذين لم يؤمنوا به ،

وصارخاً في وجوههم فتشوا فيه ما استطعتم لن تجدوا فيه خللاً ، ويؤيد ما ذكرناه هو أن سورة الكهف سورة مكية ، وقد نزلت جواباً لأسئلة تحدى بها الكفار النبي ﷺ فأجابت عن أصحاب الكهف ، وذكرت قصتهم ، ثم ذكرت قصة ذي القرنين ، فناسب أن تبدأ السورة بنفي العوج والاختلاف عن هذا الكتاب الذي لم يؤمن به الكفار استكباراً وعناداً .

قال الألوسي : « وروي القول بالتقديم والتأخير عن ابن عباس ومجاهد وذكر السمين أن ابن عباس حيث وقعت جملة معترضة في النظم يجعلها مقدمة من تأخير ، ووجه ذلك أنها وقعت في لفظين مرتبطين فهي في قوة الخروج من بينهما ولما كان ﴿ قَيْمًا ﴾ يفيد استقامة ذاتية أو ثابتة لكونه صفة مشبهة وصيغة مبالغة ، وما من شيء كذلك إلا وقد يتوهم فيه أدنى عوج ذكر قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْ ﴾ إلخ. للاحتراس وقدم للاهتمام كما في قوله :

ألا يا اسلمي يا دارَ مَيَّ على السبلا ولا زال منهلاً بجرعائك القطرُ

وقد اعترض الزمخشري على ادعاء التقديم والتأخير في الآية دون تفنيد علمي لما ذهب إليه اللهم قوله : وأن ما ذكره من التقديم والتأخير فاسد يمتنع العقل من الذهاب إليه .

وما قيل في التقديم والتأخير لا يمتنع عقلاً بل هو منسجم والعقل السليم والمعنى الصحيح وما كان له على جلالة قدره أن يذهب إلى التجريح ولو بالإشارة والتلميح.

قال الألوسي رداً على الزمخشري : « ولعمري أن هذا الكلام لا ينبغي من الإمام إن صح عنده أن القول المذكور مروي عن ابن عباس ومجاهد ، فإن الأول ترجمان القرآن وناهيك به جلالة ومعرفة بدقائق اللسان ، وقد قيل في الثاني إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك »^(١).

وفيما ذكره الألوسي عن السمين إيهام بأنه يذهب إلى القول بالتقديم والتأخير في هذه الآية ، وهنا عكس ما ذكره السمين في هذه الآية حيث قال : « وقال الأهوازي : ليس هو وفقاً مختاراً لأن في الكلام تقديماً وتأخيراً معناه : أنزل على

(١) روح المعاني ج ١٤ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

عبد الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً قلت : - والكلام هنا للسمين - دعوى التقديم والتأخير ، وإن كان قال بها غيره إلا أنها مردودة بأنها على خلاف الأصل»^(١)
﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٢﴾ أُولَئِكَ هُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُخَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾

(الكهف: ٢٩-٣١)

لما تقدم الإيمان والكفر ، ذكر بعدهم الجزاء وبيان ما أعد الله للفريقين المؤمنين والكافرين ، وقد أعقب ذكر ما أعد للكافرين أولاً مخالفة لتقدم ذكر الإيمان على الكفر في الآية السابقة ليلي جزاء الكافرين قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ﴾ ، فكان الكلام عن الكفار وفي سياق ما طلبوا من الرسول ﷺ ولذلك كانت البداءة بهم أهم وأكد .

قال السمين الحلبي : « وقدّم التحلي على اللباس لأنه أشهى للنفس »^(٢)
واقول : لا يكون التحلي أشهى للنفس إلا بعد اللبس ، فما فائدة التحلي مع التعري !

ولكن إذا ثبت التحلي وبدئ به ، أفاد وجود اللبس ضمناً وإن لم يذكر ، وقد قدّم هاهنا من باب إدخال البشارة والسرور بذكر فائق الإكرام وعظيم الإنعام ، وهما تقديم آخر وهو تقديم السندس على الإستربق ، وهو من بيان تقديم الأشرف في اللباسين ، على المعنى الذي ذكره الفيروزابادي حيث قال : « السندس بالضم ، ضرب من البزبون أو ضرب من رقيق الديباج »^(٣) والإستربق للغليظ من الديباج^(٤) ، وذكر القرطبي ذلك نقلاً عن الكسائي .

(١) الدر المصون ج ٤ ص ٤٣١ .

(٢) الدر المصون ج ٤ ص ٤٥٣ .

(٣) القاموس المحيط ج ٢ ص ٣٥٠ .

(٤) القاموس المحيط ج ٣ ص ٣٣٢ .

قال : « السندس : الرقيق النحيف واحدا سندسة قاله الكسائي والإستبرق : ما ثخن منه - عن عكرمة - وهو الحرير »^(١) ويؤيد ما ذكرته من سبب التقديم قوله تعالى : ﴿ مُتَكِينِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَاطِيهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ (الرحمن: ٥٤). حيث إنه من المعلوم أن كساء الفرش ظاهراً أفخم منه باطناً ، والبطانة المذكورة هنا من الإستبرق وليس من السندس .

﴿ كَلِمَاتٍ الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴾

(الكهف: ٣٣)

قال الألوسي : « ولعل تأخير ذكر التفجير عن ذكر الإيتاء مع أن الترتيب الخارجي على العكس للإيدان باستقلال كل من إيتاء الأكل وتفجير النهر في تكميل محاسن الجنتين كما في قصة البقرة ونحوها ، ولو عكس لانفهم أن المجموع خصلة واحدة بعضها مترتب على بعض ، فإن إيتاء الأكل متفرع على السقي عادة ، وفيه إيماء إلى أن إيتاء الأكل لا يتوقف على السقي كقوله تعالى : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضَيُّءُ ﴾ قاله شيخ الإسلام »^(٢).

﴿ أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (الكهف: ٤٦).

قال القاسمي : « تقديم المال على البنين لعراقته فيما نيظ به من الزينة والإمداد ، ولكون الحاجة إليه أمس ولأنه زينة بدونهم من غير عكس »^(٣).

أقول : نعم كما ذكر أن تقديم المال لأنه أعرق في الزينة ، أما لكونه زينة بدونهم من غير عكس فغير مسلم له في ذلك ، فالمشاهدة والواقع يخبران غير ذلك فكم من أصحاب أموال ودوا لو رزقوا البنين بكل ما يملكون وآخرون تزينوا بصالح أولادهم وافتخروا بهم بما حازوه من علم وفضل وحسن ذكر بما لم يزين المال من ابتلي بنسل سوء ولم يدفع عنه مقالة السوء .

(١) روح المعاني : ج ١٤ ص ٢٧٤.

(٢) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٥٨.

(٣) القاسمي ج ٧ ص ٣٩.

﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ (الكهف: ٦٥).

تقدم قوله : ﴿ مِنْ لَدُنَّا ﴾ على المفعول به ﴿ عِلْمًا ﴾ هذا التقديم يفيد أمرين أولهما : أنه تقديم بشرف النسبة حيث أضيف إلى الله سبحانه وتعالى ولهذا بدئ بـ ﴿ مِنْ لَدُنَّا ﴾ الثاني : أن يكون للاختصاص أي أن هذا العلم يختص بالله تعالى ويتعلم منه وفقاً عليه سبحانه .

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ (الكهف: ٦٦).

تقدم قول موسى - عليه السلام - ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ ﴾ على طلبه ﴿ أَنْ تُعَلِّمَنِي ﴾ ، ليثبت كونه تابعاً له أولاً ، وهذا منه ابتداء بالتواضع والخدمة وتعظيمه لأرباب العلم ، وهذا منه غاية في الأدب ، وخير شفيع لإجابة طلبته ونواله حاجته .

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ (الكهف: ٧٩).

قال الزمخشري : « فإن قلت : قوله : ﴿ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا ﴾ مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب ، فلم قدم عليه ؟ قلت : النية به التأخير ، وإنما قدم للناية ، ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده ، ولكن مع كونها للمساكين وقد علق بعض شراح الزمخشري بقوله : « وكأنه جعل السبب في إعابتها كونها لمساكين ثم بين مناسبة هذا السبب للمسبب بذكر عادة الملك في غصب السفن وهذا هو حد الترتيب في التعليل أن يرتب الحكم على السبب ثم يوضح المناسبة فيما بعد ، فلا يحتاج إلى جعله مقدماً والنية تأخيرها »^(١).

أقول : إن التفاتة الزمخشري لا تخلو من وجه حسن من وجوه البلاغة لايتعارض مع ما ذكره الشارح ، نعم نحن في حياتنا عندما يلام الإنسان على أمر من الأمور فإنه لتمكنه من براءته فيما نسب إليه ، يقر بفعله أولاً ، ثم يبدأ بعد ذلك في ذكر السبب والدافع فيقول مثلاً : نعم أنا هاجمت فلاناً ، أو لم أجيب دعوة فلان

(١) الكشف ج ٢ ص ٧١٢.

لسبب كذا وكذا وهذا فيما يبدو لي ، يؤيد القول بالتقديم والتأخير الذي ذهب إليه الزمخشري ، لما فيه من الإثارة والتشويق لمعرفة سبب الفعل ، ولهذا قدم قوله : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أُعْيِيَهَا ﴾ ليشير الفضول ، ويشوق المستمع لمعرفة السبب .

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾ فَأَرْدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (الكهف: ٨٠-٨٢).

جاء الترتيب في هذه الآيات ترتيباً زمنياً حسب الوقائع والأحداث التي مرت مع موسى والخضر ، فبدأ أولاً بقصة ما وقع له أولاً وهو ذكر السفينة ثم الغلام ثم الجدار .

﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ (الكهف: ٩٥)، تقدم هنا إضافة الظرف إلى ضمير المخاطبين في قوله : ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ على إضافته إلى ضمير يأجوج ومأجوج ﴿ بَيْنَهُمْ ﴾ لإظهار كمال العناية بمصالحهم كما في قولهم : ﴿ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ (الكهف: ٩٤) .

سورة مريم

لما ذكر الله سبحانه تعالى في سورة الكهف قوله : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ (الكهف: ٩)، ثم أورد خبرهم ثم قصة الرجلين صاحب الجنة وصاحبه ، ثم قصة موسى والخضر ، ثم قصة ذي القرنين أتبع سبحانه في سورة مريم قصصاً أخرى تضمنت من العجائب ما هو أشد عجباً، فافتتح سورة مريم ببيحيى وزكريا وبشارة زكريا به بعد الشيخوخة وانقطاع الرجاء حتى أنه سأل متعجباً ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (مريم: ٨) فجاء الجواب ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ (مريم: ٩)، ثم ذكر ما هو أعجب وهو قصة عيسى - عليه السلام - في خلقه بغير أب وهذا أشد إعجازاً .

﴿ ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ (مريم: ٢)، تقدمت هنا الصفة على ﴿ عَبْدَهُ ﴾ على المسمى ﴿ زَكَرِيَّا ﴾ وهذا التقدم للثناء عليه وتشريفه بالإضافة إلى ربه إضافة العبودية والتسليم والطاعة وما تثمره من موالاته الرب لمن هذه صفته من عباده .

﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴾ (مريم: ٥) .

تقدم الجاران ﴿ لِي ﴾ و ﴿ مِنْ لَدُنْكَ ﴾ على المفعول به ﴿ وَلِيًّا ﴾، أما تقديم الأول ﴿ لِي ﴾ لكون مدلوله أهم عند زكريا - عليه السلام - وأما قوله من ﴿ لَدُنْكَ ﴾ فإن تقدمه هنا للاستعطف والتعرض لكرمه سبحانه بما فيه من طمع في رحمته وحسن ظن بربه وإيمان بأنه سبحانه وحده هو القادر على ذلك الإعطاء لا غيره كما فيه نوع من التشويق لمعرفة المستوهاب المتأخر .

﴿ فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ (مريم: ٢٦) .

تقدم الأكل على الشرب كما هو متبع في عادة الناس من تقديم الأكل على الشرب وخاصة بالنسبة للنساء التي هي أحوج للغذاء منها للشراب ، وكذلك لمجاورة قوله تعالى : ﴿ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴾ .

قال الرازي في المسألة السادسة: «قدم الأكل على الشرب لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها لشرب الماء لكثرة ما سال منها من الدماء ثم قال : ﴿ وَقَرِّ عَيْنًا ﴾ وههنا سؤال وهو أن مضرة الخوف أشد من مضرة الجوع والعطش والدليل عليه أمران :

أحدهما : أن الخوف ألم الروح ، والجوع ألم البدن وألم الروح أقوى من ألم البدن.

الثاني : ما روي أنه أجيعت شاة ثم قدم العلف إليها وربط عنده ذئب فبقيت الشاة مدة مديدة لا تتناول العلف مع جوعها الشديد خوفاً من الذئب ، ثم كسرت رجلها وقدم العلف إليها فتناولت العلف مع ألم البدن ، فدللت هذه الحكاية على أن ألم الخوف أشد من ألم البدن.

إذا ثبت هذا فنقول : فلم قدم الله في الحكاية دفع ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف؟ والجواب أن هذا الخوف كان قليلاً لأن بشارة جبريل - عليه السلام - كانت قد تقدمت فما كانت تحتاج إلى التذكير مرة أخرى»^(١).

وأقول : ما كان أغنى الرازي عن ذكر هذه الحكاية التي رواها بصيغة التمرريض ليثبت من خلالها أن ألم الروح أشد من ألم الجوع ، فما ذكره عن الحيوان معروف مشهور عند بني الإنسان من ذهاب الشهية وعدم الرغبة في الطعام والشراب عند الخوف وذهاب الأمن.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (مریم: ٤٠).

تقديم الجار والمجرور ﴿ إِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ لإفادة القصر : أي لا يرجعون إلا إلى الله وحمله التهديد لغير المسلمين والتذكير والاهتمام للمسلمين .

﴿ يَتَأْتَبَرُ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴾ (مریم: ٤٤).

تقدم الجار والمجرور ﴿ لِلرَّحْمَنِ ﴾ على خبر كان ﴿ عَصِيًّا ﴾ وهذا التقديم فيه من الجمال ما يأتي ، البداء بذكر من عصي لتعظيم الجرم فعظمة الجرم والذنب تكون بعظمة من يعصى ، الإنكار والاستغراب أن يعصى الرحمن ولهذا قدم في

(١) مفاتيح الغيب ج ٢١ ص ٢٠٧.

الذكر ، فكأنه يقول له : إن معصية غير الله قد يكون لها ما يبررها ، أما معصية الله فهذا ما لا يتصور ، كما أن فيه حسن فاصلة تناغمت بها السورة من أولها إلى آخرها.

﴿ يَتَأْتِيَنِي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ (مريم: ٤٥)، يرتبط التقديم والتأخير في هذه الآية بتفسير كلمة ﴿ وَلِيًّا ﴾ وما هو المعنى المقصود بها فإذا قلنا بأن ﴿ وَلِيًّا ﴾ هنا معنى بمعنى متابعاً ومصادقاً وناصرراً ، ومنه قوله تعالى في الآية الواحدة والخمسين من سورة المائدة : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ ﴾ ففي الآية تقديم وتأخير تقديره [إني أخاف أن تكون ولياً للشيطان بمعنى فيمسك عذاب من الرحمن] ، وإذا فسر ﴿ وَلِيًّا ﴾ هنا بمعنى قريباً تليه ويليك في العذاب ، وهذا إنما يكون في الآخرة ، فليس في الآية تقديم ولا تأخير . وفي الآية تقديم وتأخير آخر سواء قلنا بالمعنى الأول أو الثاني لكلمة ﴿ وَلِيًّا ﴾ وهو تقديم قوله : ﴿ لِلشَّيْطَانِ ﴾ على خبر تكون ﴿ وَلِيًّا ﴾ ، وهذا التقديم للتفسير والاستقبح بتقديم ذكر الشيطان الذي ينبغي أن يطلب الفرار منه كل مؤمن وأن يعاديه كل أحد قال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ (٧٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿ (المؤمنون: ٩٧، ٩٨).

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتَى يَتْلَوْنَ هَٰؤُلَاءِ ﴾ (مريم: ٤٦).

قدم الخبر ﴿ أَرَأَيْتَ ﴾ على المبتدأ ﴿ أَنْتَ ﴾ لأنه الأهم والأعنى عند أبي إبراهيم ، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته ، وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد .

﴿ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ (مريم: ٤٧).

لم تقدم قول إبراهيم : ﴿ سَلِّمْ عَلَيْكَ ﴾ على قوله : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ مع أن سلام الآخرة وهو الاستغفار أهم من سلام الدنيا ؟

وأقول : بأن إبراهيم - عليه السلام - إنما بدأ بالعاجل القريب استعجالاً لتطمين أبيه ، وثانياً : لأن أباه كان كافراً لا يؤمن بنبوة إبراهيم ولا بإله إبراهيم ومن هنا أخر الاستغفار لكونه غير مقدم في الاهتمام بالنسبة إلى أبيه .

وقد تقدم في الآية الجار والمجرور ﴿لَكَ﴾ على المفعول به ﴿رَبِّي﴾ لبيان شدة اعتناؤه بأبيه واهتمامه به ، ولهذا قدم ذكره إذ إنه من المعلوم أن إبراهيم - عليه السلام - لا يستغفر إلا ربه .

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ۖ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَنُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ (مرم: ٦٦، ٦٧).

توسط همزة الإنكار هنا بين العاطف ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَنُ﴾ وبين المعطوف عليه ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ﴾ مع أن الأصل أن يتقدم الإنكار المعطوف والمعطوف عليه وإنما توسط الإنكار هنا للدلالة على أن المنكر هنا هو المعطوف وأن المعطوف عليه إنما نشأ منه .

سورة طه

لما ذكر سبحانه قصة إبراهيم - عليه السلام - وما منحه وأعطاه ثم عقب بعده
بذكر قصص الأنبياء وما جباهم به من التكريم والتشريف وأعقب ذلك بقوله :
﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ ﴾ (مریم: ٥٨)، ثم جاء قوله
تعالى : ﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ
عَذَابًا ﴾ (مریم: ٥٩)، وكان هذا مظنة إشفاق وخوف فجاءت سورة طه بياناً لرحمة الله
بالنبي - عليه السلام - وبيان شرف منزلته عند الله سبحانه وتعالى ، ولما ختمت
سورة مريم بقوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ نُحِيسُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ
لَهُمْ رِكْرًا ﴾ (مریم: ٩٨).

﴿ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ (مریم: ٩٧) فقد أشفق النبي ﷺ من تأخر قریش عن
الإسلام أن يدرکهم الهلاك واعتراه لذلك القلق والخوف فجاءت سورة {طه} مصدرة
بتطمينه ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أَنْ لَتَسْقَى ﴾ (طه: ٢).

وفي ختام سورة مريم بقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ بِلسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ
الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ (١٧) ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ نُحِيسُ مِنْهُمْ مِنْ
أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا ﴾ (مریم: ٩٧، ٩٨)، وبدئت سورة طه بـ ﴿ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ
الْقُرْآنَ أَنْ لَتَسْقَى ﴾ (٢) إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴾ (طه: ٢، ٣).

والختام والبدء هنا على سواء في تذكير النبي - صلوات الله وسلامه عليه - بأنه
ليس مسؤولاً عن هداية الناس وحملهم على الإيمان قسراً وإنما دعوته هي تبليغ
رسالة ربه.

﴿ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴾ (طه: ٤).

تقدم ذكر الأرض على السماء هنا لأنها سيقَّت في مجال ذكر الرحمة بتنزيل
الكتاب لأهل الأرض وما فيه من الترفق بأهلها ، ثم أتبعها بذكر السماء على سبيل
الترقي ، ولذلك قدمت السموات على الأرض عند نسبة ملكها إلى الله عز وجل من
باب تقديم الأشرف ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ
الْأَرْتِى ﴾ (طه: ٦).

وللبعضاوي رأي آخر قال : فبدأ بخلق الأرض والسموات التي هي أصول العالم ،
وقدم الأرض لأنها أقرب إلى الحس وأظهر عنده من السموات العلى.^(١)
﴿ وَاجْعَلْ لِي وَاِزِيْرًا مِّنْ اَهْلِيْ ﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿ (طه: ٣٠، ٣١) .

وعلى وجه إعراب - وزيراً وهارون - مفعولين لجعل ، فقد قدم الثاني اعتناء
بأمر الوزارة .

﴿ كَيْ تَسْبِيْحَكَ كَثِيْرًا ﴾ وَتَذْكُرَكَ كَثِيْرًا ﴿ (طه: ٣٣، ٣٤) .

قال الألوسي : « وتقديم التسييح على الذكر من باب تقديم التخلية على التحلية ،
قال : وقيل : لأن التسييح تنزيه عما لا يليق ومحله القلب والذكر ثناء بما يليق
ومحله اللسان والقلب مقدم على اللسان » .

وأقول : لا يستقيم القول بأن هذا من باب تقديم القلب على اللسان لأن التسييح
محله القلب والذكر محله اللسان ، لأن حقيقة الذكر إنما هو الذكر النابع من القلب
والذي يترجم عنه اللسان فالذكر محله القلب أيضاً ، ثم إن التسييح نوع من الذكر
أيضاً ورد في فضله الكثير من الأحاديث ، إذن لماذا تقدم التسييح على الذكر وإن
كان من جملته؟

أقول : إن التسييح له معنيان معنى الذكر ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا
يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ (الإسراء: ٤٤) ﴿ وَسَبِّحُوْهُ بُكْرَةً وَأَصِيْلًا ﴾ (الأحزاب: ٤٢) وقوله
تعالى : ﴿ وَتَسَبِّحُوْهُ بُكْرَةً وَأَصِيْلًا ﴾ (الفتح: ٩) وصدر سورة الحديد والحشر
والصف والجمعة والتغابن ومعنى تنزيه الله عن كل ما لا يليق به سبحانه ، تنزيهه
عن كل عيب ونقص ، هذا التنزيه يكون بالفعل والقول والاعتقاد ، وقد جاء بذلك
كثير من آي القرآن التي تنزه الله عما اعتقده أو قاله أو فعله الجاهلون ، فمنه قوله
تعالى : ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُوْلًا ﴾ (الإسراء: ٩٣) ، ﴿ سُبْحٰنَ
رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُوْنَ ﴾ (الصفات: ١٨٠) ويجمع الأصناف الثلاثة :

قوله تعالى : ﴿ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالٰى عَمَّا يُشْرِكُوْنَ ﴾ (الزمر: ٦٧) ، فالشرك يتضمن
القول والاعتقاد والعمل ، ولما كان موسى وهارون - عليهما السلام - في زمان

(١) البيضاءوي ج ٤ ص ٤١ .

ومكان غلب على أهله الشرك والغفلة فلا جرم أن قُدِّمَ التسبيح لما له من مزية الاختصاص أو ندرة المشاركة معهما في هذا المقام وهو تنزيه الله عن الشرك الذي وقع فيه معظم أهل هذا الزمان .^(١)

﴿ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِقَائِلَيْهِ وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴾ (طه: ٤٢).

تقدم الضمير ﴿ أَنْتَ ﴾ العائد على موسى على قوله : ﴿ أَخُوكَ ﴾ العائد على هارون وذلك من باب تقديم الفاضل على المفضول .

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (طه: ٥٥).

قال صاحب التحرير : « وتقديم المجرورات الثلاثة على متعلقاتها ، فأما المجرور الأول والمجرور الثالث فللاهتمام بكون الأرض مبدأ الخلق الأول والخلق الثاني وأما تقديم ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ فللمزاوجة مع نظيره » .^(٢)

وأقول : وقد يكون التقديم لمناسبة ما قبله وهو قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴾ (طه: ٥٣).

﴿ قَالُوا يَمْوَسَّىٰ إِمَّا أَنْ تُتْلَىٰ وَإِمَّا أَنْ نُكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ ﴿ ٦٥ ٦٦ ﴾

(طه: ٦٥، ٦٦)

قال الرازي : « لم قدمهم في الإلقاء على نفسه مع أن تقديم استماع الشبهة على استماع الحجة غير جائز ، فكلنا تقديم إيراد الشبهة على إيراد الحجة وجب ألا يجوز ، لاحتمال أنه بما أدرك الشبهة ثم لا يتفرغ إدراك الحجة بعده فيبقى حينئذ في الكفر والضلال ، وليس لأحد أن يقول : إن ذلك كان بسبب أنهم لما قدموه على أنفسهم ، فهو عليه السلام قابل ذلك بأن قدمهم على نفسه لأن أمثال ذلك إنما يحسن فيما يرجع إلى حظ النفس ، فأما ما يرجع إلى الدليل والشبهة فغير جائز والجواب : أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزة مرة واحدة والقوم إنما جاءوا لمعارضته فقال عليه السلام : لو أنني بدأت بإظهار المعجزة أولاً فكنت كالسبب في

(١) روح المعاني ج ١٦ ص ١٨٦.

(٢) التحرير ج ١٦ ص ٢٤٠.

إقدامهم على إظهار السحر وقصد إبطال المعجزة ، وذلك غير جائز ، ولكنني أفوض الأمر إليهم حتى أنهم باختيارهم يظهرون ذلك السحر ، ثم أنا أظهر المعجز الذي يبطل سحرهم ، فيكون على ذلك التقدير سبباً لإزالة الشبهة ، وأما على التقدير الأول فإنه يكون سبباً لوقوع الشبهة فكان ذلك أولى ^(١).

﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ (طه: ٦٧).

لما كان المقام هنا لإظهار الخوارق على يديه هو فربما أفهم أنه وقع الخوف في نفس أحد غيره ، فكان المقام للاهتمام بالمتعلق فلذا قال : ﴿ فِي نَفْسِهِ ﴾ فقدم ما المقام له والاهتمام به .

ويرى الزركشي أن للتأخير حكمة أخرى ، وهي أن النفس تتشوق لفاعل ﴿ أَوْجَسَ ﴾ فإذا جاء بعد أن أخر وقع بموقع ^(٢).

﴿ فَأَلْقَى السَّحْرَ سُجْداً قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ (طه: ٧٠).

ليس التقديم هنا لمراعاة الفواصل كما ادعاه الزركشي في برهانه ووافقه السيوطي وذهب إليه الألوسي والسمين الحلبي حيث أوغلا في هذا الباب كثيراً وذلك لجملة من الأسباب :

إن القرآن في أسلوبه ونظمه خارج عن كونه شعراً وقد نفى القرآن عن نفسه ذلك في كثير من آي القرآن الكريم ومنه قوله تعالى في سورة يس : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ﴾ (يس: ٦٩).

ومنه قوله تعالى في سورة الطور : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرْنُصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴾ (الطور: ٣٠) ، وقوله تعالى في سورة الحاقة : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾ (الحاقة: ٤١)، وهذا لا خلاف فيه لا من جهة النقل ولا من جهة النظر ، ثانياً : إن القول بمراعاة الفاصلة حيث تقديم كلمة وتأخير أخرى من أجل ذلك فحسب يعني ببساطة شديدة الاهتمام بالأسلوب على حساب المعنى ، وهو دليل عدم تمكن ونقص إبداع من ناحية أخرى ، وهذا إن جاز في الشعر ضرورة فلا

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٠ ص ٨٢.

(٢) البرهان ج ١ ص ٩٣.

يجوز على من هذا كلامه وهو الله سبحانه وتعالى الذي لا يعجزه شيء ، فهل يليق به سبحانه أن نقول عنه إنما قدم هذه وآخر تلك من أجل السجع كيف؟ هل أعوزته الكلمات أو صعب عليه التركيب؟ حاشاه تعالى عن ذلك كله كيف؟ وهو القائل عن نفسه في سورة لقمان: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْهَارٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (لقمان: ٢٧)، ولا يفهم من كلامنا أن الفاصلة ليس لها اعتبار كيف وإنما حسن الشعر بالفاصلة وهو الذي أعطاه مع الوزن جمال الموسيقى ، وكذلك نجد طعم الفاصلة في القرآن الكريم حلو المذاق عذب الاستماع بما توحى به مع أحكام التلاوة ومراعاة الوقف والابتداء لتتكاتف كل تلك العوامل في إعطاء الجمال الصوتي والمعنوي أبعاداً تأثيرية مضافة إلى إعجاز القرآن الكريم ، ومن هنا نجد أن القرآن كله في معظمه إنما جاء على الفاصلة ولكنها لم تكن أبداً كفاصلة الشعراء من حيث التكلف والاحتياج أو الحشو والزيادة أو التقديم والتأخير على حساب المعنى .

إن القول بمراعاة الفصل - كما أرى - مع عظيم احترامنا لجلالة وقدر بعض القائلين به لهو ضرب من الخروج عن الفهم الحقيقي لقضية الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم والذي عبر عنها الخطابي - رحمه الله - بهذا التعريف الدقيق حيث قال: « فتفهم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصبح المعاني .. ثم يشير الخطابي بعد ذلك إلى سر الإعجاز وأساس البلاغة الذي يكمن في ترتيب الكلام حيث قال: « ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة »^(١).

وقد حاول مثبتو السجع القائلون بمراعاة الفاصلة إثبات صحة مذهبهم بهذه الآية فهي أقوى ما يستدلون به على صحة مذهبهم حيث إن الجميع متفق على أن

(١) بيان إعجاز القرآن الكريم ، ص ٢٤-٢٦ .

موسى أفضل من هارون ولأجل السجع قيل في هذه الآية التي معنا ﴿ هَارُونُ وَمُوسَى ﴾، ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل ﴿ وَمُوسَى وَهَارُونُ ﴾ (الأنعام: ٨٤)، وقد ذكروا بما أشرت إليه من أن القرآن فيه من السجع الكثير فلا بد أن يكون مقصوداً .

وقد عقد الرّماني باباً في رسالته {النكت في إعجاز القرآن} بعنوان باب الفواصل، وقد أبان وأجاد وشرح فأفاد كاشفاً عن ضعف مذهب القائلين بالسجع في القرآن الكريم. والناظر في كلام الرّماني يدرك للوهلة الأولى أنه فرق بين الفاصلة وبين السجع ليظهر لنا بوضوح من كلامه أن القائلين بمراعاة الفواصل الذين يرون أن ختام الآية إنما جيء به من أجل الفاصلة هم القائلون بالسجع، وإن قالوا بالفاصلة حيث إن تعريف الفاصلة عند الرّماني يتفق تماماً مع ما ذكرناه من أن الفاصلة ما جاءت إلا لمعنى جيء مختوماً به ختاماً حسن شكله ومبناه كما حسن مضمونه ومحتواه. ولمثل هذا الذي ذهبت إليه وجدت قول ابن الأثير في حديثه عن السجع حيث عرفه بأنه [تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد]، ثم يفرق ابن الأثير بين السجع المذموم والمحمود رداً على الذين أنكروه وذمموه مستشهداً بما ورد في القرآن الكريم بالآيتين ٦٤، ٦٥ من سورة الأحزاب والآيات من ١-٨ من سورة طه والآيات من ٥-٧ سورة ق، والآيات من ١-٥ سورة العاديات، ثم يقول - وهو معنى ما ذكرته سابقاً - :

« فإذا صفي الكلام المسجوع من الغثائفة والبرد فإن وراء ذلك مطلوباً آخر ، وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى ، لا أن يكون فيه المعنى تابعاً لللفظ ، فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموه ، على باطن مشوه ، ويكون مثله كغمد من ذهب على نصل من خشب ، وكذلك يجري الحكم في الأنواع الباقية الآتي ذكرها من التجنيس والترصيع ، وغيرهما »^(١)

ومع أن ابن الأثير قد أحسن في تعريف السجع ، وأجاد في بيان المحمود فيه من المذموم إلا أنه عند تطبيق ذلك في القرآن نجده لم يخرج عن مذهب القائلين

(١) النكت في إعجاز القرآن ص ٨٩-٩١.

بالسجع فعند حديثه عن النوع التاسع - التقديم والتأخير - نجده يعترض على الزمخشري في دعوى الاختصاص ما في الآيات ٦٤، ٦٥، ٦٦ من سورة الزمر والآيتان ٦٨، ٦٧ من سورة طه والآيات ٣٠، ٣١، ٣٢ من سورة الحاقة وما كان جوابه عند اعتراضه إلا القول بمراعاة نظم الكلام وتحسينه بالتقديم والتأخير ، فجاء بالإعادة والتكرير لقول سابقه من علماء البلاغة والتفسير .

وكذا يقول الرماني : « الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني والفواصل بلاغة والأسجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني ، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها » .

يتبين لنا من خلال قول الرماني مدى الخلط الذي وقع فيه القائلون بالفواصل وهم في الحقيقة إنما يقولون بالسجع ، يتابع الرماني حديثه عن الأسجاع قائلاً : وهو قلب ما توجبه الحكمة في الدلالة ، إذ كان الغرض الذي هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعاني التي الحاجة إليها ماسة ، فإذا كانت المشاكلة وصلة إليه فهو بلاغة ، وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولُكنة ، لأنه تكلف من غير الوجه الذي توجبه الحكمة ومثله مثل من رصع تاجاً ثم ألبسه زنجياً ساقطاً أو نظم قلادة در ثم ألبسها كلباً وقبح ذلك وعيبه يبين لمن له أدنى فهم ... وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة لأنها الطريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها. ثم يعرف الرماني السجع بقوله : « وإنما أخذ السجع في الكلام من سجع الحمامة ، وذلك أنه ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة ، كما ليس في سجع الحمامة إلا الأصوات المتشاكلة » .^(١)

وقد عقد أبو بكر الباقلاني فصلاً في كتابه - إعجاز القرآن - للرد على القائلين بذلك ، وقد اختصرت ما ذكره في هذه النقاط التي وجدتني قد ذكرت طرفاً منها آنفاً :

- لو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلياً فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقولوا سجع معجز لجاز أن يقولوا شعر معجز .

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ج ١ ص ٢١٠ ، ٢١٣ ، وينظر في النوع التاسع من ص ٢١٠ - ٢١٩ .

نفى القرآن عن كونه شعراً ومن باب أولى أن نفى السجع الذي كان يتعاطاه الكهان .

- إنكار النبي ﷺ السجع لمن كلموه به في شأن الجنين كيف ندي من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل أليس دمه قد يُطَلَّ ؟ فقال {أسجاعة كسجاعة الجاهلية؟} وفي بعضها {أسجعا كسجع الكهان؟}.

- السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ وليس ذلك مما هو في تقدير السجع في القرآن .

متى ارتبط المعنى بالسجع ، كانت لإفادة السجع كإفادة غيره ومتى انتظم المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلباً لتحسين الكلام دون تصحيح المعنى .

- على افتراض وقوع شيء من ذلك في القرآن فإنه لا يعد سجعاً كالبيت الواحد من الشعر والبيتين من الرجز وكذلك حال ما يزعّمونه من السجع .

- لو كان ما في القرآن سجع لكان من السجع المرذول لأن السجع له منهج مرتب والخروج عنه خروج عن الفصاحة وهذا مما ينزه عنه القرآن الكريم .

وتقديم موسى على هارون ثابت في القرآن في مواضع عديدة لما له من الأفضلية ، فهو رسول الله من أولي العزم من الرسل بعث معه هارون مصداقاً ومعيناً ، وقد سبق الإشارة إلى ذلك في الآية الثانية والأربعين ومنه أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام بعدما ذكر إبراهيم - عليه السلام - :

﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأنعام: ٨٤)، ومنه قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ قَالُوا أَرْجَاةٌ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١١١)، ومنه قوله تعالى في الآية ١٢٢ من نفس السورة ﴿ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴾ حيث قدم ذكر موسى على هارون .

وقد ذكر السيوطي أن جمهور أهل العلم لا يقولون بالسجع حيث قال : « وهل يجوز استعمال السجع في القرآن ؟ خلاف : الجمهور على المنع لأن أصله من سجع الطير ، فشرف القرآن أن يستعار لشيء منه لفظ أصله مهمل ، ولأجل تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام لحادث في وصفه بذلك ، ولأن القرآن من صفاته تعالى ، فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن بها»^(١).

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن ، ج ١ ص ٢٥.

وقد ذهب صاحب المنار إلى ما ذهبنا إليه ، فقد نقل قول الباقلاني عن وجوه إعجاز القرآن الكريم حيث قال : « وبقي علينا أن نبين أنه - يقصد القرآن الكريم - ليس من باب السجع ولا فيه شيء منه ، وكذلك ليس من قبيل الشعر لأن من الناس من زعم أنه كلام مسجع » .^(١)

وعن التقديم والتأخير في هذه الآية قال البيضاوي : « قدم هارون لكبر سنه أو لروي الآي ، أو لأن فرعون ربي موسى في صغره فلو اقتصر على موسى أو قدم ذكره لربما توهم أن المراد فرعون وذكر هارون على الاستبعا » .^(٢)

﴿ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴾ (طه : ٨٠) .

قال أبوحيان : « وبدأ بإزالة ما كانوا فيه من الضرر من الإذلال والخراج والذبح وهي أكد أن تكون مقدمة على المنفعة الدنيوية ، لأن إزالة الضرر أعظم من النعمة بإيصال تلك المنفعة ، ثم أعقب ذلك بذكر المنفعة الدنيوية وهو قوله : ﴿ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ { إذ أنزل على نبيهم موسى كتاباً فيه بيان دينهم وشرح شريعتهم } » .^(٣)

﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ (طه : ١٢٩) .

قال ابن عطية : « فإن قوله : ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ معطوف على ﴿ كَلِمَةٌ ﴾ ولهذا رفع والمعنى ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴾ في التأخير ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ لكان العذاب لازماً لكنه قدم وأخر لتشتبك رءوس الآي » .^(٤)

(١) المنار ج ٥ ص ٢٩١ .

(٢) البيضاوي ج ٤ ص ٦١ .

(٣) البحر المحيط ج ٦ ص ٢٤٦ .

(٤) المحرر الوجيز ج ١٠ ص ١١١ .

سورة الأنبياء

لما ختمت سورة {طه} بإنذارهم بأنهم سيعلمون الشقي من السعيد ﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ (طه: ١٣٥)، وهذا العلم قد يكون في الدنيا بكشف الغشاوة عن العين والظلمة عن القلب فيدركون بالإيمان صدق ذلك ، وقد يكون بمعينة ظهور الدين وأخرى عند معاناة الموت ليعلم كل فريق حقيقة ما يؤول إليه ، وتارة أخرى ببعثها يوم الدين ، افتتحت هذه السورة بأبين ذلك وهو يوم الدين الذي يكشف فيه الغطاء عن كل شيء ويصير الخبر حقيقة مرئية ولهذا بدأت سورة الأنبياء بقوله : ﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء: ١)، قال تعالى : ﴿ لَا يَسْئَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ ٢٧ ﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿

(الأنبياء: ٢٧، ٢٨)

تقديم الجار والمجرور ﴿ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ لإفادة القصر أي لا يعملون عملاً إلا عن أمر الله تعالى ، وكذلك الجار والمجرور ﴿ مِنَ خَشْيَتِهِ ﴾ على خبر المبتدأ ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ لإفادة القصر مع ما فيه من تحسين الفواصل ، ونظيره قوله تعالى في نفس السورة : ﴿ كُلُّ إِلَهِنَا رَاغِبُونَ ﴾ (الأنبياء: ٩٣) ، وقوله : ﴿ وَإِنَّا لَهُدْ كَاتِبُونَ ﴾ (الأنبياء: ٩٤) ، ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (الأنبياء: ٣١).

قدم فجاجاً وهو وصف حيث إن أصل التركيب {سبلاً فجاجاً} أي واسعة فلما قدم صار حالاً ليدل على أنه حين خلقها خلقها كذلك .

أما قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُّعْرِضُونَ ﴾

(الأنبياء: ٣٢)

تقديم الجار والمجرور ﴿ عَنْ آيَاتِنَا ﴾ على خبر المبتدأ ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ ليس لإفادة القصر فقد ثبت إعراضهم عن غيرها من الآيات ، فالتقديم هنا لمراعاة الفواصل ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ (الأنبياء: ٩٦).

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ (الأنبياء: ٣٣).

تقدم ذكر الشمس على ذكر القمر في أغلب المواضع في القرآن في هذا الموضع وفي قوله تعالى في الأعراف : ﴿ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِىءِ ﴾ (الأعراف: ٥٤)، وفي سورة إبراهيم ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ﴾ (إبراهيم: ٣٣)، وفي سورة فصلت ﴿ وَمِنْ ءَايَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾ (فصلت: ٣٧)، وفي سورة الرحمن ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ (الرحمن: ٥)، وسبب هذا التقديم والله أعلم أن الشمس ظهورها أكثر من ظهور القمر الذي يخفي محاقاً ثم يظهر هلالاً غير مرئي بينما الشمس ظاهرة على الدوام ، كما أن الشمس ترى أكثر للناظرين حيث الناس في اليقظة ، بينما في الليل لا يرى القمر في الغالب الأعم إلا للقليل من الناس حيث إن أكثرهم نائمون ، وقد يكون التقديم لأن الشمس أكبر من القمر وضياؤها أقوى أو أن خلقها أسبق ، أو أن ارتفاع الناس بالشمس أكثر أو كما يقول علماء الفلك إن صح قولهم : إن القمر إنما يستمد نوره من نور الشمس ، فإن قيل فما السبب في مخالفة هذا الترتيب في سورة نوح في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴾ (نوح: ١٦).

أقول : إن مخالفة هذا الترتيب بتقديم القمر على الشمس إنما جاء لعدة اعتبارات ، أولاً : إن الليل كان أسبق من النهار في الذكر في الآية الخامسة ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴾ (نوح: ٥) ، ومن أجل ذلك ناسب تقديم القمر على الشمس ليكون على طريقة اللف والنشر ، وفي هذا التقديم مناسبة شديدة لحال نوح الذي أرسله الله وقد أطبق الكفر وأظلم على وجه الأرض كلها ، ولم يكن هناك مؤمن غيره ، فكان هو كالقمر المنير في ظلام هذا الليل المستطير فناسب تقديم أولى الأمرين شبهاً به . ولسنا مع الكبيسي من أن التقديم من أجل موافقة السجع وأيد كلامه بأن الآية الثامنة عشرة وهي قوله : ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴾ والآية العشرين ﴿ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ تنتهي بنفس قافية كلمة سراجاً. ^(١)

(١) مجلة الحكمة ص ٩٣.

أقول : ولو عكس التقديم فتقدمت الشمس على القمر وانتهت الآية بكلمة ﴿نُورًا﴾ وليس ﴿سِرَاجًا﴾ كما هي لوجدنا سجعاً آخر يستقيم مع كلمة ﴿نُورًا﴾ حيث انتهت كثير من الآيات بنفس حرف الراء {الراء المفتوحة} وهي من الآية الخامسة وحتى الآية الثالثة عشرة ومن الآية الواحدة والعشرين وحتى الثالثة والعشرين ومن الخامسة والعشرين وحتى الثامنة والعشرين .

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ (الأنبياء: ٥٠).

تقدمت هنا الصفة المفرد ﴿مُبَارَكٌ﴾ على الصفة الجمع ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ ، وقد أفاد ذلك التقديم أيضاً أن البركة ثابتة له قبل النزول وبعده فهي ذاتية فيه .

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُسْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ (٥٢، ٥١) تقدم ذكر أبي إبراهيم عليه السلام - على قومه في قوله : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ وهذا التقديم يرتبط بفقه الدعوة الإسلامية حيث يبدأ الداعي بالأقرب فالقريب ، ومن ذلك الآية السادسة من سورة التحريم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَانفُسَكُمْ ءَوَٰهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَٱلْحَجَارَةُ﴾ (التحريم: ٦) ولنا بدأ النبي ﷺ دعوته بأهل بيته أولاً ، ثم أقاربه وأصدقائه ثم أهل مكة ثم سائر العرب ثم إلى كافة الناس ، وقد ذكر ابن القيم خمس مراتب للدعوة : الأولى : النبوة ، الثانية : إنذار عشيرته الأقربين ، الثالثة : إنذار قومه ، الرابعة : إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله وهم العرب قاطبة ، والخامسة : إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر. ^(١)

﴿ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِٱهْلَيْتِنَا يٰٓإِبْرَاهِيمُ﴾ (الأنبياء: ٦٢).

سبق أن ذكرت في الفصل الرابع من الباب الأول أن الاستفهام يدخل على الاسم والفعل ، ويكون المبدوء به هو المشكوك فيه فإذا قلت أفعلت كذا؟ فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده وإذا قلت أأنت فعلت؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو وكان التردد فيه ، وفي هذه الآية لا شبهة في أنهم لم يقولوا له ذلك عليه السلام وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان ولكن أن يقر بأنه منه كان ، كيف ؟ وقد أشاروا إلى الفعل

في قولهم : ﴿ ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا ﴾ (الأنبياء: ٦٢) فقال عليه السلام نفيًا لما طلبوه من نسبة الفعل إليه دون غيره فدل ذلك أن المطلوب التقرير بالفاعل لا الفعل .
﴿ فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (الأنبياء: ٧٩)، قدّم هنا الحكم على العلم مع أنه لا بد من سبق العلم على الحكم ، ولكن لما كان السياق في الحكم قدمه فإن قبلها ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَنَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْخَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَدَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ (الأنبياء: ٧٨).

قال الرمخشري : « فإن قلت : لم قدمت الجبال على الطير ؟ قلت : لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل في القدرة وأدخل في الإعجاز لأنها جماد والطير حيوان » .^(١)

﴿ وَيُؤَيِّبُ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَءَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ ﴿ وَاسْمِعِلْ وَأَذْرِسْ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾

(الأنبياء: ٨٣-٨٥)

وقدم أيوب على إسماعيل مع أنه فرع من إبراهيم وإسماعيل أصل ، لأن أيوب طالت محنته ، وطال انتظاره في موقف البلاء سنين ، وهو صابر ، لم يضجر ، أما إسماعيل فقد كان ابتلاؤه ساعة من الزمن ، ثم انجلى الكرب ، وزالت المحنة .
﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

وفي تقديم ذكر الهبة على إصلاح الزوج بيان بأنها كانت المطلوب الأعظم لنبي الله زكريا - عليه السلام - فقدمت للاهتمام والاعتناء بمطلوبه ، هذا على تفسير إصلاح الزوج بأنه إصلاحها للإنجاب ، ويكون هنا من باب تقديم الغايات على الوسائل ، أو أن الإصلاح هو إصلاح خلقها فيكون قد أخرج من باب تقديم الأهم على المهم .

(١) الكشف ج ٣ ص ١٢٧.

﴿ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩١).

تقدم هنا ذكر مريم مع أن المسيح أفضل منها لأن السياق في ذكرها في قوله :
﴿ وَالَّتِي أَحْصَيْنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ ولذلك قدّم ابنها عليها في غير
هذا الموضع في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رَحْمَةٍ
ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ (المؤمنون: ٥٠).

﴿ وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقُولُونَ لَكُنَّا
فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (٧) إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴾ (الأنبياء: ٩٧، ٩٨).

تقدم الخبر على المبتدأ فلم يقل : أبصار الذين كفروا شاخصة ، وهذا التقديم
راجع لأمرين :

أولاً : لأنه قدم الضمير ﴿ هِيَ ﴾ ليدل به على أنهم مختصون بالشخص دون
غيرهم من سائر أهل المحشر .

وأما ثانياً : فلأنه إذا قدم الخبر أفاد أن الأبصار مختصة بالشخص من بين سائر
صفاتهما من كونها حائرة أو مطموسة أو مزورة إلى غير ذلك من صفات العذاب.

تقدم الجار والمجرور ﴿ لَهَا ﴾ على متعلقه ﴿ وَرِدُونَ ﴾ لبيان الاختصاص أي
أنهم لا ورود لهم إلا إلى النار ، وليس كما قال السمين : « لتواخي رؤوس
الآي » .^(١)

﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ
وَعَدًا عَلَيْنَا ۖ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٤).

قال صاحب التحرير : « وقد رتب نظم الجملة على التقديم والتأخير لأغراض
بليغة وأصل الجملة : نعيد الخلق كما بدأنا أول خلق يوم نطوي السماء كطي
السجل للكتاب وعدا علينا ، فحول النظم فقدم الظرف بادئ ذي بدء للتشويق إلى

(١) الدر المصون ج ٥ ص ١١١.

متعلقه ، ولما في الجملة التي أضيف إليها الظرف من الغرابة والطباق إذ جعل ابتداء خلق جديد وهو البعث مؤقتاً بوقت نقض خلق قديم وهو طي السماء .

وقدم ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ ﴾ وهو حال من الضمير المنصوب في ﴿ نُعِيدُهُ ﴾ للتعجيل بإيراد الدليل قبل الدعوى لتتمكن في النفس فضل تمكن . وكل ذلك وجوه للاهتمام بتحقيق وقوع البعث ، فليس قوله : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ ﴾ متعلقاً بما قبله من قوله تعالى : ﴿ وَتَتَلَقَّيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ﴾ .

وعقب ذلك بما يفيد تحقق حصول البعث من كونه وعداً على الله بتضمين الوعد معنى الإيجاب فعدي بحرف {على} في قوله تعالى : ﴿ وَعَدْنَا عَلَيْنَا ﴾ أي حقاً واجباً^(١)

(١) التحرير ج ١٧ ص ١٥٨ ٢٢:٣٤.

سورة الحج

لما ختمت سورة الأنبياء بالحديث عن يوم القيامة والترهيب من حدوثه ووصفه بالفرع من الآية السادسة والتسعين وحتى الآية الرابعة بعد المائة. ابتدأت هذه السورة بالحديث عن يوم القيامة ووصف هوله وأحداثه الجسام العظام وبيان حجم هذا الفرع وشدته في قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ٢٠ يَوْمَ تَرْوِيهَا تَدْلُهَا كُلُّ مُرْضِعَةٌ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ٢١ ﴾ (الحج: ٢٠، ٢١) ^(١) وابتدأت الأمر بالتقوى المترتبة على حدوث ذلك الخوف من أهوال ذلك اليوم .

قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ وَنُقَرِّفَ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْتَبَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ٢٢ ﴾ (الحج: ٥) .

الترتيب في هذه الآية ترتيب وجودي لابتداء خلق الإنسان وتطوره في سبع مراحل وهي التراب ، والنطفة ، والعلقة ، والمضغة ، والإخراج طفلاً ، وبلوغ الأشد والتوفي أو الرد إلى الهرم . وفيها تقدم قوله : ﴿ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ ﴾ على قوله : ﴿ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ﴾ لأن القليل هو الذي يرد إلى أَرذل العمر وأغلبهم يموت قبل أن يدركه ، وبدأ بذكر المخلقة لأنها أدل على القدرة وأبين في الاستدلال على القدرة .

﴿ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴾

(الحج: ١٢)

تقدم الضرر على النفع إشارة إلى أنه أبقى الإيمان توهماً أن سبب الضرر الذي لحقه من الأصنام بسبب تركه لها وإقباله على الإسلام .

﴿ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴾ (٢٠، ١٩) ، وفي تقديم البطون على الجلود هنا عدة اعتبارات ، منها أن يكون الحميم من شدة حرارته قد اخترق الباطن أولاً عندما صب فوق رؤوسهم مع أن ملابستها على العكس ، أو لأن خراب الباطن من كفر وشرك ومعاصي كان هو الدافع لخراب الظاهر ومن ثم بدئ به .

أو كما ذكر الألوسي : أن التأثير في الظاهر غني عن البيان وإنما ذكر للإشارة إلى تساويهما ولذا قدم الباطن لأنه المقصود الأهم .

﴿ شَيْئًا وَطَهَّرَ بَنِيَّ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (الحج: ٢٦) ، قدم الطائفين لأن سياق الآية في عظم العناية بالبيت والطائفون أقرب ما يكونون إليه فلهذا قدمهم ، ثم ثنى بالقائمين لأنه يلي الطواف في الرتبة لأن القيام يشملهما جميعاً .

﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحج: ٢٧) .

تقدم الرجال على الركبان في هذه الآية وذلك راجع إلى أن أجر الراجل أعظم من أجر الراكب لما في حجه من عظم المشقة .

قال صاحب الطراز : « فتقديم رجالاً فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون مقدماً بالرتبة فإن الغالب أن الرجال إنما يأتون من الأمكنة القريبة والركبان يأتون من الأمكنة البعيدة فلهذا قدم الرجال . وثانيهما : أن يكون تقديم الرجال لأجل الفضل فإن من حج راجلاً أفضل ممن حج ركباً فلهذا قال ابن عباس ؓ وددت لو حججت راجلاً فإن الله قدم الرجال على الركبان في القرآن ، فدل ذلك على أنه فهم من التقديم في الآية الفضل والمعنيان محتملان في الآية كما ترى . »

قال الثعالبي: «وفي تقديم رجالاً تفضيل للمشاة في الحج ، وإليه نحا ابن عباس ﴿لَيْشْهَدُوا مَنِّفَع لَّهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَابَ الْأَفْقَارِ﴾ (الحج: ٢٨)، تقدم الأمر بالأكل منها على أمر إطعام الفقير وذلك لإدخال السرور على نفس المنفق ولحثة على الذبيح روى مسلم في صحيحه {أيام التشريق أيام أكل وشرب} وعند النسائي من حديث عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إن يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام وهي أيام أكل وشرب» .

وكان من فقه العلماء أنهم قدموا الأكل على الإهداء والتصدق إما استحباباً وإما وجوباً حتى إنهم بدءوا في متون الفقه بذكر الأكل مقدماً على الإهداء والتصدق تأسيساً بالتقديم والتأخير في القرآن الكريم ، من ذلك قول الحجاوي المقدسي : «ويسن أن يأكل ويهدي ويتصدق» قال الشارح : «وقدم الأكل لأن الله تعالى قدمه فقال الله تعالى : ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَابَ الْأَفْقَارِ﴾ وقوله : «ويسن أن يأكل» .

ظاهره : أنه لو تصدق بها كلها فلا شيء عليه ولا إثم عليه ، وهذا بناء على أن الأكل من الأضحية سنة كما هو قول جمهور أهل العلم .

وقال بعض أهل العلم : بل الأكل منها واجب يأثم بتركه ، لأن الله أمر به وقدمه على الصدقة ، ولأن النبي ﷺ في حجة الوداع «أمر أن يؤخذ من مائة بعير مائة قطعة فجعلت في قدر ، فطبخت فأكل من لحمها وشرب من مرقها»

قالوا : وتكلف هذا الأمر أن يأخذ من مائة بعير مائة قطعة تطبخ في قدر ويأكل منها يدل على أن الأمر في الآية الكريمة للوجوب ، ولأن هذا من باب التمتع بنعم الله عز وجل فيدخل في قوله ﷺ {أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله عز وجل} .

أقول : وهذا الترتيب المذكور في هذه الآية هو الترتيب الذي فعله النبي ﷺ ، وهو السنة المستحبة في الحج ، وقد بوب النووي في كتاب الحج أبواباً في هذا الترتيب المذكور .

[بيان أن السنة يوم النحر أن يرمي ثم ينحر ثم يحلق والابتداء في الحلق بالجانب الأيمن من رأس المخلوق]

[باب من حلق قبل النحر ، أو نحر قبل الرمي] باب [جواز تقديم الذبح على الرمي والخلق على الذبح وعلى الرمي وتقديم الطواف عليها كلها] [باب استحباب طواف الإفاضة يوم النحر] .^(١)

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ﴾ (الحج: ٣٤) تقديم الجار والمجرور للاختصاص وهذا اختيار الزمخشري على ما رواه عن مجاهد أي أنه سبحانه شرع لأهل كل دين أن يذبحوا له تعالى على وجه التقرب لا لبعض منهم .

﴿ وَأَلْبَدْتَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ ﴾ (الحج: ٣٦) .

تقدم المفعول به الثاني ﴿ أَلْبَدْتَ ﴾ على عامله ﴿ جَعَلْنَاهَا ﴾ للاهتمام بها تنوياً بشأنها .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ (الحج: ٣٨) تقدم قوله : ﴿ خَوَّانٍ ﴾ على قوله : ﴿ كَفُورٍ ﴾ مع أن أعظم الذنوب وأبغضها إلى الله تعالى هو الكفر وهذا التقديم من باب تقديم العام على الخاص ، إذ يندرج تحت ﴿ خَوَّانٍ ﴾ كل أنواع الخيانة ، فالدين بكل ما فيه أمانة ، والإعراض عنه خيانة ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب: ٧٢) ، وقد سمي الله عز وجل كفر زوجتي نوح ولوط - عليهما السلام - بخيانة في قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتِ نُوحٍ وَامْرَأَتِ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ (التحریم: ١٠) وكذلك الكفر خيانة للميثاق الأول الذي أخذه الله تعالى على عباده في ظهر أبيهم آدم وهو المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (٣) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ ءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٢، ١٧٣) ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَلَكْتُمْ سَوْمِيعٌ وَبِيعَ وَصَلَوْتُ وَمَسَجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ (الحج: ٤٠) .

(١) البحر المحيط ج ٦ ص ٣٦ .

تقدم ذكر أماكن عبادة اليهود والنصارى على ذكر المساجد - أماكن عبادة المسلمين - والتقديم هنا راعى الترتيب الزمني لأنها أقدم بناءً وأسبق زماناً. وقد يكون التقديم هنا لأجل حمايتها وعدم التعرض لها خيفة التهاون بأمرها كما قدمت الوصية على الدين وإن كان أهم.

وقد تقدم أيضاً الجار والمجرور ﴿فِيهَا﴾ على لفظ الجلالة ﴿أَسْمُ اللَّهِ﴾ فلم يقل - يذكر اسم الله فيها كثيراً - مع أنه أولى بالتقديم لشرف الذات ومن باب تقديم الغايات على الوسائل فالمساجد وسيلة للغاية التي هي ذكر الله.

وأقول : إن التقديم هنا للمكان هو الأولى في السياق حيث الحديث عن المكان وحرمة فناسب تقديمه في الذكر من أجل ذلك.

﴿فَلِئْهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦).

تقدم المسند إليه ﴿فَلِئْهَا﴾ على الجملة الفعلية ، وذلك جار مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام ، ولذا قال البلاغيون : إن الشيء إذا أضمر ثم فسر كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير مقدمة إضمار .

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ أَمَلَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا إِلَيْهَا الْمَصِيرُ﴾ (الحج: ٤٨)
تقدم الجار والمجرور ﴿وَالِئْهَا﴾ على متعلقه لإفادة القصر بأن المصير إلى الله لا غيره .

﴿قُلْ يَتَّقُوا النَّاسَ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الحج: ٤٩).

تقدم الجار والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ على متعلقه ﴿نَذِيرٌ﴾ للتهديد والتخويف بأن العذاب متوجه إليهم على سبيل الخصوص.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُخَصِّمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحج: ٥٢)

تقدم الرسول على النبي من باب تقديم الفضل وذلك لشرف الرسالة على النبوة ومنه قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وقوله تعالى : ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ (مريم: ٥٤) .

﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ ﴾ (الحج: ٦٠).

تقدمت صفة العفو على صفة المغفرة في قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ ﴾ وذلك من باب تقديم العام على الخاص ، فالتقديم هنا لشرف عمومه ، فالعفو هنا أي عما لم يؤخذنا به مما نستحقه من ذنوبنا ، غفور لما أخذنا به في الدنيا فتقدم العفو على الغفور فإنه أعم وأخرت المغفرة لأنه أخص.

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الحج: ٦٥).

تقدم الجار والمجرور ﴿ بِالنَّاسِ ﴾ على متعلقه ﴿ رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ من باب العناية والاهتمام بهم ، وإذا كانت الرأفة بمعنى درء المضار والرحمة جلب المصالح ، فإن تقديم الرأفة على الرحمة من باب تقديم درء المفسد على جلب المصالح .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا آزْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الحج: ٧٧).

بدأ سبحانه في هذه الآية بأمر الصلاة لأنها أهم العبادات بعد التوحيد ، فهي الركن الثاني من أركان الإسلام ، وأول ما يحاسب عليه العبد من الأعمال ، فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت فسد سائر عمله ، وقد ذكرت الصلاة مرتبة ترتيباً وجوذاً الركوع فالسجود على حسب ترتيبها في الأداء فتقدمت للاهتمام والشرف ، ثم ذكرت سائر العبادات إجمالاً في قوله : ﴿ وَعَبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ أي فيما أمرتم به ﴿ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ ﴾ نافلة منكم تتقربون بها إلى الله عز وجل ، فيكون تقديم قوله : ﴿ وَعَبُدُوا رَبَّكُمْ ﴾ من باب تقديم الفرائض على النوافل .

قال أبو حيان : « ويظهر في هذا الترتيب أنهم أمروا أولاً بالصلاة وهي نوع من العبادة وثانياً بالعبادة وهي نوع من فعل الخير ، وثالثاً بفعل الخير وهو أعم من العبادة فبدأ بخاص ، ثم بعام ، ثم بأعم »^(١).

(١) البحر المحيط ج ٦ ص ٣٦.

﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (الحج: ٧٨).

قال صاحب التحرير : «وقدمت شهادة الرسول للأمة هنا ، وقدمت شهادة الأمة في آية البقرة ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (البقرة: ١٤٣) لأن آية هذه السورة في مقام التنويه بالدين الذي جاء به الرسول ، فالرسول هنا أسبق إلى الحضور فكان ذكر شهادته أهم ، وآية البقرة صُدرت بالثناء على الأمة فكان ذكر شهادة الأمة أهم»^(١).

سورة المؤمنون

لما ختمت الحج بأمر المؤمنين بأمر الدين من عبادات مثل الصلاة والزكاة وكذلك أمور المعاملات وكذلك الأمر بالاعتصام به سبحانه افتتحت هذه السورة بذكر هذه الأمور السابقة وتعليق الفلاح على فعلها ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿ (المؤمنون: ١-٤).

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ (المؤمنون: ٢-٤) .

وتقديم ﴿ فِي صَلَاتِهِمْ ﴾ على ﴿ خَاشِعُونَ ﴾ للاهتمام بالصلاة للإيدان بأن لهم تعلقاً شديداً بالصلاة لأن شأن الإضافة أن تفيد شدة الاتصال بين المضاف والمضاف إليه لأنها على معنى لام الاختصاص . فلو قيل : الذين إذا صلوا خشعوا ، فات هذا المعنى وأيضاً لم يأت وصفهم بكونهم خاشعين إلا بواسطة كلمة أخرى نحو : كانوا خاشعين ، وإلا يفت ما تدل عليه الجملة الاسمية من ثبات الخشوع لهم ودوامه أي كون الخشوع خلقاً لهم بخلاف نحو : الذين خشعوا ، فحصل الإيجاز ، ولم يفت الإعجاز . ونظير هذا قوله تعالى في سورة هود : ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ (الذاريات: ٢٥) ، فسلاماً مفعول به لفعل محذوف تقديره نسلم ومن صفة الأفعال الحركة والانتقال ، أما سلام التي هي جواب إبراهيم فهي اسم مبتدأ أو خبر وعلى كلا الإعرابين يفيد الثبوت والاستمرار .

وقد ذكر الألوسي : عن بعض أهل العلم : من أن تقديم المفعول مع ضعف عامله لا للتخصيص بل لكونه مصب الفائدة ، ويجوز اعتبار التخصيص الإضافي أيضاً بالنسبة إلى الإنفاق فيما لا يليق ، ووصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة للدلالة على أنهم لم يألوا جهداً بالعبادة البدنية والمالية ، وتوسيط حديث

الإعراض بينهما لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة وإلا فأكثر ما تذكر هاتان العبادتان في القرآن معاً بلا فاصل. (١)

﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (المؤمنون: ١٨) تقديم الجار والمجرور ﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ على المفعول به الصريح ﴿ السَّمَاءِ ﴾ لإظهار القدرة وتعظيم النعمة والعناية بالمقدم والتشويق للمتأخر.

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿ (المؤمنون: ٢١، ٢٢).

تقدم الجار والمجرور ﴿ لَكُمْ ﴾ لبيان كمال الاعتناء واختصاصهم بالنعمة والفضل وتقدم الجار والمجرور ﴿ مِنْهَا ﴾ ليس للحصر فهم يأكلون منها ومن غيرها وإنما هي للحصر الإضافي لأن غالبية أكلهم منها ، وتقديم الحمل عليها أولاً قبل الفلك ، راجع إلى مناسبة ما قبلها وهو حسن التجاور بين الأكل منها والحمل عليها بلا فاصل أجنبي.

الثاني : أن غالبية الركوب إنما هو على الأنعام وليس على السفن لاسيما في السابق وعلى وجه الخصوص في البيئة الصحراوية التي أنزل فيها القرآن الكريم. ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (المؤمنون: ٢٣).

تقدمت قصة نوح - عليه السلام - على سائر القصص المذكورة بعد ، وذلك باعتبار الزمان حيث كانت أسبق في الوجود ، كما أن إيرادها بعد قوله تعالى : ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ (المؤمنون: ٢٢) فيه من حسن الموقع والتلاحم والارتباط ما حسن معه هذا الترتيب ، كما أن تصديرها بالقسم لبيان كمال الاعتناء بمضمونها .

﴿ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾ (المؤمنون: ٢٤).

(١) روح المعاني ج ١٨ ص ٥.

وفي الآية الثالثة والثلاثين من نفس السورة ﴿ وَقَالَ أَلَمَلًا مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ .

قال صاحب درة التنزيل : « للسائل أن يسأل عن تقديم ﴿ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ في الآية الأخيرة وتأخيره في الآية الأولى ، وهل كان يصلح أحدهما مكان الآخر ؟ .

الجواب أن يقال : لما انقطعت صفة الملأ في الآية الأولى إلى المحكي من قولهم قرن الوصف بالذين إلى الموصوف ، ثم جرى بالجار والمجرور فكان منتهى بيان فاعل قال ولم يكن كذلك القصد في الآية الأخرى ، لأنه عدت أفعال عطفت على الفعل الذي هو صلة الذي ، فقدم الجار والمجرور لئلا يحال بين الصفة وما عطف عليها ، فقال : ﴿ وَقَالَ أَلَمَلًا مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ فكان كل ذلك مما أتبع قوله كفروا ، ولو قال : ﴿ وَقَالَ أَلَمَلًا مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ ﴾ لم يكن على النظم المرتضي فيما يستفصح من الكلام وإن كان جائزاً ، فلذلك قدم الجار والمجرور في الأخيرة وأخر في الأولى .

قال الكرماني : « فقدم الجار والمجرور ، ولأن تأخيره ملتبس وتوسطه ركيك ، فخص بالتقديم » ووجه الالتباس كما قال محقق الكتاب أنه لو قال : ﴿ وَأَتَرَفْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ لاحتمل أنه من قول الذين آمنوا وكانوا مترفين في معيشتهم كما هو مقول الكفار من هذا النوع ، وهذا التقديم في هذه الآية من براهين الإعجاز المبني على دقة مراعاة الملابسات » .^(١)

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (المؤمنون: ٣٧) ، قد يكون في الآية تقديم وتأخير حيث إن الحياة أسبق في الحدوث من الموت ، فالموت هنا بلا شك المقصود به خروج الروح ، وهو ما يحدث بعد الحياة ، فلماذا قدم هؤلاء ذكر الموت على الحياة ؟ أقول : لأن الاعتراض منهم كان على قضية البعث بعد الموت فلما بدؤوا بذكره أولاً لأنه المقصود بنفي حدوث الحياة من بعده وقد لا يكون هناك تقديم ولا تأخير كما تأول السمين فقال : « إن الظاهر

(١) درة التنزيل ص ١٧٥ ، أسرار التكرار في القرآن ص ١٨٤ .

من معناها تموت النفس منّا ويحيى آخرون هلم جرا ، يشيرون إلى انقراض العصر وخلف غيره مكانه ، وقيل نموت نحن ويحيا أبناؤنا ، وقيل القوم يعتقدون الرجعة أي نموت ثم نحيا بعد ذلك الموت ^(١) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِعِبَادَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥٧-٥٩).

تقدم هنا المسند إليه ﴿ هُمْ ﴾ على الجملتين الفعليتين ﴿ يُؤْمِنُونَ ، يُشْرِكُونَ ﴾ وهذا التقديم غرضه تقوية الحكم ، وتوكيده على خلاف ما لو تقدم الفعل على المسند إليه فإنه لا يفيد ذلك ، كما تقدمت المجزورات الثلاثة على عواملها لإفادة الاهتمام مع ما فيه من حسن الفواصل .

﴿ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ هَا سَبِقُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦١).

تقدم الجار والمجرور ﴿ هَا ﴾ على متعلقه ﴿ سَبِقُونَ ﴾ لإفادة الحصر والاختصاص في كون تسابقهم لم يكن إلا للخيرات .

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَةٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَعْتَلُّ مِنْ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ﴾

(المؤمنون: ٦٣)

تقدم هنا الجار والمجرور ﴿ لَهَا ﴾ على متعلقه ﴿ عَمِلُونَ ﴾ لبيان الاهتمام ببيان حفظ الله عز وجل لأعمالهم كبيرها وصغيرها فإن سيئة الكفر والاهتمام بذكرها ، لا يعني أن الله تعالى نسي ما ارتكبه من سيئات أخر أدون من الكفر ، ولهذا عند ذكر كتاب الأعمال في الآخرة بدأ ذكر الصغيرة قبل الكبيرة ﴿ مَالِ هَذَا آلِ كِتَابٍ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ (الكهف: ٤٩)، كذلك ناسب تقدم الجار هو كون الأعمال أقرب لفظاً من الضمير العائد عليها .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

(المؤمنون: ٧٨)

قدم الإنشاء أولاً وهو الخلق العام للإنسان ، على إيجاد السمع والبصر والفؤاد إذ إن الوجود الإنساني مقدم على ظهور هذه الحواس فيه ، كما قدم السمع على

(١) الدر المصون ج ٥ ص ١٨٦.

البصر وقد مر القول فيه من قبل ، ولعل التقديم الوجودي هنا للسمع على البصر واضح بما تفيدته كلمة ﴿ أَنْشَأَ ﴾ فحاسة السمع تسبق حاسة البصر عند مولد الطفل كما ثبت ذلك بالملاحظة ، وقد يكون أيضاً هذا السبق في مرحلة ما قبل الميلاد ، وقدم السمع والبصر على الفؤاد لأنه لا يكون للإنسان إدراك أو تمييز إلا بعد أن تعمل حواس الإنسان كلها ، وتتوثق الصلات بينها وبين خلايا المخ ، ومن هنا يبدأ الإدراك والتمييز حيث دور الفؤاد أو العقل .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

(المؤمنون: ٨٠)

تقدم المجرور ﴿ لَهُ ﴾ لإفادة القصر أي أن اختلاف الليل والنهار له لا لغيره ، فغيره لا يستحق أن يكون إلهاً .

﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴾ (٨١) قَالُوا أَوَدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿ ٨٢ ﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَعَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ الْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٨١-٨٣).

وقال في سورة النمل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوَدَا كُنَّا تُرَابًا وَعَآبَاؤُنَا أَنبَا مُخْرَجُونَ ﴾ (٦٧، ٦٨). للسائل أن يسأل عن تقديم تأكيد المضمر المرفوع بقوله : ﴿ نَحْنُ ﴾ وتأخير المفعول وهو - هذا - في الآية الأولى وعكس ذلك في الآية الثانية ، وهل لذلك فائدة تقتضي لكل مكان ما خص به ؟

الجواب أن يقال : لما كان الأول في حكاية تظاهرت فيها أفعال أسندت إلى فاعليها متصلة بها ، وهي ﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴾ فهذان فعلان تعلق بهما هذا المحكي وكل واحد منهما جاء بعده فاعله مواصلاً له غير منفصل عنه ، ثم بعده ﴿ قَالُوا أَوَدَا مِتْنَا ﴾ فكل هذه الأفعال قصد بها حكاية ما جاء بعدها ، فلما قال : ﴿ لَقَدْ وَعِدْنَا ﴾ وجب في البناء على الأفعال المتقدمة أن يتم حكم الفاعل وهو توكيده والعطف عليه فقدم ﴿ نَحْنُ وَعَآبَاؤُنَا ﴾ على المفعول الثاني وهو - هذا - لذلك ، ولأن الأصل إذا جرى عليه الشيء أولى من غيره .. وأما الآية الثانية من

سورة النمل فإن الذي تقدمها ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا ﴾ فأخر المعطوف على اسم كان الذي هو كالفاعل لها وهو قوله - وءاباؤنا - عن المنصوب الذي هو كالمفعول لها وهو قوله - تراباً - فصار ما هو كالـمفعول مقدماً على ما هو معطوف على الفاعل فاقترضى البناء عليه تقدم المفعول ثم العطف على الفاعل المضمّر فجاء ﴿ لَقَدْ وَعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ﴾ لذلك .^(١)

﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ قُلْ مَنْ يَدِيرُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٤-٨٩)

جاء ترتيب نهاية هذه الآيات على النحو التالي : ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ .

والسر في هذا الترتيب فيما أراه والله أعلم بمراه أن الآية الأولى تستدعي لفت الانتباه إلى ما في الأرض من مخلوقات الله الدالة على عظمته ، والتفكر في عطايا ربوبيته والتي يتقلب فيها الإنسان بين نومه ويقظته وسكونه وحركته ، فهو محاط بكل ما يعرفه بربه ويذكره بفضل ، ومع ذلك يرى الكافر مشغولاً بالنعمة عن المنعم منطرحاً قلبه في الأسباب لا يخرج عنها فأمر بالتذكر ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ ، فإذا ما أتته من الله البصيرة وتذكر نعم الله كان حرياً به ألا يعصي الله بنعمه فيورث قلبه الخوف والوجل من هذا الرب العظيم الذي هو رب السموات ورب العرش العظيم بما تحمله ربوبيته الخاصة للخلق العظيم بعظمته وقهره ، ومن هنا جاء قوله : ﴿ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ لأن العلم بعظمة الله يستدعي الخوف من الله ومحاولة اتقاء عذابه وأسباب غضبه ، فإذا ما طمست البصيرة وضاق الصدر وأظلمت النفس عن نور التوحيد وهداية الحميد المجيد مع كل ما نصبه الله من دلائل لهداية العبيد فحينئذ يأتي التعجب ﴿ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ .

(١) درة التنزيل ص ١٧٧ .

قال صاحب التحرير : « وقد سلكت في ترتيب هذه الأدلة طريقة الترتيبي ، فابتدئ بالسؤال عن مالك الأرض ومن فيها لأنها أقرب العوالم لإدراك المخاطبين ، ثم ارتقى إلى الاستدلال بربوبية السموات والعرش ، ثم ارتقى إلى ما هو أعم وأشمل وهو تصرفه المطلق في الأشياء كلها ولذلك اجتلبت فيه أداة العموم وهي ﴿ كُلِّ ﴾^(١) .

﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١٧).

تقدم هنا المسند إليه ﴿ إِنَّهُ ﴾ على الجملة الفعلية في قوله : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ ، وهذا التقديم جار مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام ، والشيء إذا أضمر ثم فسر كان أفخم له من أن يذكر من غير مقدمة لإضمار .

(١) التحرير ج ١٨ ص ١١٣ .

سورة النور

لما دار الحديث في سورة [المؤمنون] عن الأمر بحفظ الفروج وعدم الاعتداء فيها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ (المؤمنون: ٥) ﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (المؤمنون: ٧) جاءت سورة النور لبيان حكم هؤلاء العادين ، فأبان حكم الزناة ، ثم أتبعه بحكم اللعان والقذف ، ثم قصة الإفك ، ثم الوعيد لمحبي إشاعة الفاحشة ، ثم التحذير بدخول البيت إلا بعد الاستئذان من أجل العورات ، ثم النهي عن إبداء الزينة .

قال تعالى : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ (النور: ٢).

قال أبو حيان : «وقدمت الزانية على الزاني لأن داعيتها أقوى ، لقوة شهوتها ، ونقصان عقلها ، ولأن زناها أفحش وأكثر عاراً» .^(١)

أقول : ليس الأمر كما قال أبو حيان ، فلو افترضنا أن كل امرأة زانية تعرض لها رجل زان لتساوى عدد الرجال مع النساء ، وإذا ما تعرض لها أكثر من رجل لزداد عدد الرجال على عدد النساء ، أما إن زناها أفحش وأكثر عاراً فنعم ولكنه عادة أقوام وليست شريعة الإسلام ، فكلاهما عند الله مأمور بغض بصره وحفظ فرجه وهما في العار والفحش سواء بسواء ، والدليل على ذلك ما رواه مسلم من رواية عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ { لا أحد أغبر من الله ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه المدح من الله }^(٢) ثم هما في العقاب كذلك سواء بسواء لا فرق بين ذكورة أو أنوثة ، والمشاهد الملموس أن الرجال أجراً على طلب الحرام وأكثر تعرضاً لهتك حجاب النساء .

ولسنا مع الزمخشري أيضاً في قوله والذي يبدو واضحاً أنه نقله عن الرازي قال : «فإن قلت : كيف قدمت الزانية على الزاني أولاً ، ثم قدم عليها ثانياً ؟ ويقصد بذلك قوله تعالى : ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ

(١) البحر ج ٦ ص ٣٩٣ .

(٢) صحيح مسلم باب غير الله تعالى وتحريم الفواحش حديث رقم {٢٧٦٠} .

أَوْ مُشْرِكٌ^١ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿ (النور: ٣) ، قلت : سيقت لتلك الآية لعقوبتهما على ما جنيا ، والمرأة هي المادة التي نشأت منها الجناية لأنها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن ، فلما كانت أصلاً وأولاً في ذلك بدئاً بذكرها ، وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه ، لأنه هو الراغب والخابط ومنه يبدأ الطلب^(١) .

وليس الأمر كما ادعى الزمخشري من أن المرأة هي المادة التي نشأت منها الجناية فالجناية منشؤها من كليهما ، ولكن المرأة الزانية سمحت وأذنت لمريد الزنى ، فعنده الاستعداد كما هي سواء بسواء وإنما قدمت لأن الأمر يتوقف على إذنها وسماحها أولاً ، وأما الثانية فنحن معه في سبب التقديم لأن صفة الحياء أغلب على المرأة من الرجل وعادة الرجل هو الذي يبدأ بطلب المرأة للنكاح .

وإلى مثل ما ذكرت قال البيضاوي : « وإنما قدم { الزانية } لأن الزنى في الأغلب يكون بتعرضها للرجل وعرض نفسها عليه ولأن مفسدته تتحقق بالإضافة إليها^(٢) » وقد ذكر صاحب التحرير : أن التقديم لمناسبة النزول في قصة الرجل الذي رغب في تزوج امرأة تعودت الزنى فكان المقام مقتضياً الاهتمام بما يترتب على هذا السؤال من مذمة الرجل الذي يزوج مثل تلك المرأة .^(٣)

أقول : والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب : فتكون عامة في كل من هذه صفتها من الرجال والنساء . وقد وجدت كلام الأستاذ عبد الكريم الخطيب متطابقاً مع ما ذكرته حيث قال في تفسيره لسورة المائدة : « كما قدمت المرأة على الرجل في جريمة الزنى في قول الله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ لأن هذه الجريمة لا تتم إلا بالرجل والمرأة معاً والمرأة هي صاحبة الموقف هنا ويبيدها الأمر فيه لأن الرجل طالب وهي مطلوبة فإذا لم تعطه نفسها ولم تمكنه منها فاته مطلوبه ولم تقع الجريمة^(٤) »

(١) الكشف ج ٣ ص ٢٠٨ ، مفاتيح الغيب ج ٢٣ ص ١٥٢ .

(٢) البيضاوي ج ٤ ص ١٧٢ .

(٣) التحرير ج ١٨ ص ١٥٧ .

(٤) التفسير القرآني ج ٦ ص ١٠٩٧ .

وقد وجدت قول السيد محمد رشيد رضا يتطابق أيضاً مع ما ذكرنا حيث قال : « وقد أحسن البقاعي في توجيه الاهتمام بتقديم ذكر النساء هنا بعلاقته بالإرث على رأي الجمهور في تفسير الفاحشة بالزنى الذي يفضي إلى توريث ولد الزنى ، ولكننا لا نسلم له أن الفساد في النساء أكثر منه في الرجال بل الرجال أكثر جرأة على الفواحش وإتيانها بها ولو أمكن إحصاء الزناة والزواني لعرف ذلك كل أحد » ويرى الدكتور عبد الوهاب التازي : أن المسؤولية الأولى في عملية الزنى إنما تقع على الرجال وإن كان النساء شركاء في الجريمة فهو يراهم السبب الأول في الوقوع في هذه الفاحشة قال : وإذا نحن أمعنا النظر واستعرضنا الحال ، نجد أن المسؤول عن هذه الجناية هم أولئك الذئاب - ذئاب الطرق ولصوص الأعراض الذين لا شغل لهم إلا العمل على هدم كيان الأسرة الصالحة ، ولست أقصر الأمر على هؤلاء بل كذلك الأخريات اللاتي يتسكنن في سيرهن .^(١)

قال المواردي : « قدم ذكر الزانية على الزاني لأمرين :

الأول : أن الزنى فيها أعر ، وهو لأجل الحبل أضر .

الثاني : أن الشهوة فيها أكثر وعليها أغلب .»

أقول : وما ذكره المواردي من أن الزنى فيها أعر عادة أقوام وليس شريعة إسلام فكلاهما في الخطأ أمام الله سواء بسواء ، والعار لازم لهما لا فرق بين المرأة والرجل إما لكونه لأجل الحبل أضر فهذا معنى نفيس أولى بحروف النور أن يسطر فإن زنى الرجل خاف مستتر وزنى المرأة بالحبل مظهر ويبقى العار وعدم النسب في الولد ملصق ومستمر .^(٢)

وهنا تقديم آخر ، وهو تقديم الزانية على المشتركة ، وذلك التقديم للتنفير والتحذير من الزنى .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٠﴾ وَالْخَمِيسَةُ أَنْ لَعَنَتِ اللَّهُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ

(١) تفسير سورة النور ، عبد الوهاب التازي ، ص ١٨ .

(٢) النكت والعيون تفسير المواردي ج ٤ ص ٧١ .

مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٦٠﴾ وَيَذَرُوا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَنْزَعَ شَهِدَاتِ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٦١﴾ وَالْحَنَمَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٢﴾ (النور: ٦-٩).

ظاهر الآية يشعر بوجود تقديم لعان الزوج وهو المأثور في السنة .

قال الألوسي : « فلو بدأ القاضي بها فلاعت قبله فقد أخطأ السنة ولا يجب كما في الغاية أن تعيد لعانها بعد وبه قال مالك . وفي البدائع ينبغي أن تعيد لأن اللعان شهادة المرأة وشهادتها تقدر في شهادة الزوج فلا تصح إلا بعد وجود شهادته ولهذا يبدأ بشهادة المدعي في باب الدعوى ثم بشهادة المدعى عليه بطريق الدفع له ونقل ذلك عن الشافعي وأحمد - عليهما الرحمة - وأشهب من المالكية . وقد ذهب الألوسي إلى خلاف ما ذكر وأنه ليس في الآية ما يدل على الترتيب »^(١).

وتحت عنوان : من يبدأ الملاءنة ؟ قال الشيخ سيد سابق : « اتفق العلماء على أن السنة في اللعان تقديم الرجل فيشهد قبل المرأة .

فقال الشافعي وغيره : هو واجب فإذا لاعت المرأة قبله فإن لعانها لا يعتد به . وحجتهم أن اللعان يشرع لدفع الحد فلو بدئ بالمرأة لكان دفعاً لأمر لم يثبت . وذهب أبو حنيفة ومالك إلى أنه لو وقع الابتداء بالمرأة صح واعتد به وحجتهم أن الله سبحانه عطف في القرآن بالواو والواو لا تقتضي الترتيب بل هي لمطلق الجمع »^(٢).

وأقول : أياً كان أمر التقديم للوجوب على قول الشافعي ومن وافقه أو ليس للوجوب كما عند مالك وأبي حنيفة فإن التقديم يدور بين الوجوب أو الاستحباب لأنه هو الذي بدئ به في القرآن الكريم وكذا في السنة المطهرة ، فعند أحمد عن ابن عباس رضي الله عنه إن رسول الله ﷺ لاعتن بين العجلاني وامرأته وكانت حبلى فقال : والله ما قربتها منذ عفرنا والعفر أن يسقي النخل بعد أن يترك من السقي بعد الإبار شهرين .

(١) روح المعاني ج ١٨ ص ١٠٩.

(٢) فقه السنة ج ٢ ص ٣٢١ مسند أحمد حديث رقم {٢٩٤١}.

وقد أشار محمد المكي الناصري إلى معنى حسن في تقديم لعان الرجل على المرأة بغض النظر عن الخلاف الفقهي في المسألة بين العلماء ، حيث قال : « وفي الخامسة يشهد أنه يستحق لعنة الله إن كان كاذباً ، وبذلك يبرأ من حد القذف ، ولا ينسب إليه الولد ، ثم تشهد الزوجة بالله أربع مرات على كذبه فيما رماها به ، وفي الخامسة تشهد أنها تستحق غضب الله إن كان زوجها صادقاً وبذلك تبرأ من حد الزنى ويفرق بينهما»^(١)

﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (النور: ١٢) تقدم الظرف ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ على عامله وهو ﴿قُلْتُمْ﴾ للاهتمام بمدلول ذلك الظرف تنبيها على أنه كان الواجب عليهم أن يطرق ظن الخير قلوبهم بمجرد سماع الخير وأن يبرءوا من الخوض فيه فور سماعه ، وهو نظير قوله تعالى في الآية السادسة عشرة .

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَاطِلٌ عَظِيمٌ﴾ (النور: ١٦).

قال الزمخشري : « فإن قلت : فأى فائدة في تقديم الظرف حتى أوقع فاصلاً ؟ قلت : الفائدة فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به ، فلما كان الواجب عليهم أن يتفادوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به ، فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم»^(٢).

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النور: ٢٤).
التقدم هنا باعتبار كثرة الأعمال الأكثر فالأقل منه ولذا قدمت شهادة الألسن لأن عمل اللسان أكثر ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه ، أو أنه تنوع الذنب وعظمه أخطر ، ابتداء من الكفر والشرك القولي وانتهاء بكلمة أف للوالدين وما بينهما من كذب وغيبة ونميمة وفحش وسباب وشهادة زور . إلخ . روى أحمد في مسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : أقبلنا مع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك فلما

(١) التيسير في أحاديث التفسير ، ج ٤ ص ٢٥٠.

(٢) الكشف ج ٣ ص ٢١٤.

رأيت خلياً قلت : يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة قال : {بخ لقد سألت عن شيء عظيم وهو يسر على من يسره الله عليه تقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتلقى الله عز وجل لا تشرك به شيئاً أو لا أدلك على رأس الأمر وعموده وذروة سنامه ، أما رأس الأمر فالإسلام ، فمن أسلم سلم وأما عموده فالصلاة وأما ذروة سنامه فالجهاد في سبيل الله أولاً أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة والصدقة وقيام العبد في جوف الليل يكفر الخطايا وتلا هذه الآية ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (السجدة: ١٦) أولاً أدلك على أملك ذلك لك كله قال فأقبل نفر قال : فخشيت أن يشغلوا عني رسول الله ﷺ قال شعبته أو كلمة نحوها قال فقلت : يا رسول الله قولك أولاً أدلك على أملك ذلك كله قال فأشار رسول الله ﷺ بيده إلى لسانه قال قلت : يا رسول الله وإنا لنؤخذ بما نتكلم به؟ قال : ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم} ^(١) ثم الأيدي لأن عملها أقل من الألسن وأكثر من الأرجل ، وقد يكون التقديم لمناسبة النزول فإن الآيات نزلت في شأن حادثة الإفك التي كانت كلها بسبب اللسان ، ومن هنا قدم في الذكر لأن القصة كلها دائرة عليه .

﴿ الْحَبِيبَتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَتِ وَالْخَبِيثَتُ لِلْطَّيِّبِينَ وَالْطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (النور: ٢٦)

قدم ﴿ الْحَبِيبَتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَتِ ﴾ على ﴿ وَالطَّيِّبَتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَتِ ﴾ .

وذلك لأن الخطاب موجه أولاً إلى أولئك الذين خبثوا نفساً وديناً فأطلقوا ألسنتهم في الطيبات والطيبين من المؤمنين .

وقد قدمت المرأة هنا على الرجل في الحالين : الخبث والطيب وذلك لأن المرأة هي التي يطلب لها كفؤها من الرجال فلا يصح أن تتزوج بمن هو أنزل منها شرفاً وقدرأ .

(١) مسند الإمام أحمد مسند الأنصار رقم {٢١٠٥٤} .

﴿يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النور: ٢٧).

قال الرازي في جوابه عن تقدم الأمر بالاستئناس على الاستئذان مع كون الاستئذان أسبق في الوجود إذ إنه عبارة عن الأنس الحاصل من جهة المجالسة قال تعالى : ﴿وَلَا مُسْتَفْهِسِينَ لِلْحَدِيثِ﴾ وإنما يحدث ذلك بعد الدخول والسلام ، فكان الأولى تقديم السلام على الاستئناس ، فلم جاء العكس من ذلك؟... فذكر أجوبة منها ما ذكره عن الحسن البصري أنه قال : في الكلام تقديم وتأخير والمعنى حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا ، وذلك لأن السلام مقدم على الاستئناس ، وفي قراءة عبد الله حتى تسلموا على أهلها وتستأنسوا ، وهذا أيضاً ضعيف لأنه خلاف الظاهر ، وثالثها أن تجري الكلام على ظاهره ثم في تفسير الاستئناس وجوه .

الأول : حتى تستأنسوا بالإذن وذلك لأنهم إذا استأذنوا وسلموا أنس أهل البيت ولو دخلوا بغير إذن لاستوحشوا وشق عليهم .

الثاني : تفسير الاستئناس بالاستعلام والاستكشاف استفعال من أنس الشيء إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً ، والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال ، هل يراد دخولكم ، ومنه قولهم : استأنس هل ترى أحداً ، واستأنست فلم أر أحداً : أي تعرفت واستعلمت ، فإن قيل : وإذا حمل على الأنس ينبغي أن يتقدمه السلام ، كما روي أنه - عليه الصلاة والسلام - كان يقول {السلام عليكم أَدْخِلْ؟} قلنا : المستأذن ربما لا يعلم أن أحداً في المنزل فلا معنى لسلامه ، والحالة هذه والأقرب أن يستعلم بالاستئذان هل هناك من يأذن ، فإذا أذن ودخل صار مواجهاً له فيسلم عليه . والثالث : أن يكون اشتقاق الاستئناس من الإنس وهو أن يتعرف هل ثم إنسان ، ولاشك أن هذا مقدم على السلام .

والرابع : لو سلمنا أن الاستئناس إنما يقع بعد السلام ولكن الواو لا توجب الترتيب فتقديم الاستئناس على السلام في اللفظ لا يوجب تقديمه عليه في العمل^(١).

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٣ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

واقول : إن الرأي الأول وهو أن الاستئناس بمعنى الإذن يعارض الحديث حيث تقدم فيه الإذن على السلام {السلام عليكم أَدْخِلْ؟} وأما من جهة النظر فإن الاستئذان إنما يكون بعد الاستعلام والاستكشاف ومعرفة هل الدار مسكونة أم لا ، ومن ثم يأتي الإذن بعد العلم ، والرأي الثاني والثالث كلاهما بمعنى واحد سواء كان الاستئناس بمعنى الاستعلام من آنس أو بمعنى معرفة هل موجود إنسان من الإنس فكلاهما استعمال واستكشاف ، ومعلوم أن الإنسان لا يسلم إلا إذا آنس أحداً يسلم عليه .

إن لفظ الاستئناس يجمع بين أمرين لا تعارض بينهما وكلاهما بمعنى الاستعلام ليدخل فيه الأمران استعمال بوجود أهل البيت واستعلام بأنسهم أيضاً ، على أن الاستعلام بأنسهم إنما يكون قبل الاستعلام بوجودهم عن طريق معرفة أنسهم بطرائق الأحوال ودلائل الأقوال والفعال فلا يزورون من يكره منهم الزيارة ابتداء ، أما الرأي الرابع الذي ذكره الرازي من أن التقديم في اللفظ لا يوجب التقديم في العمل قلنا له نعم ولكن ما السر في التقديم ؟ ولماذا لم يأت على الترتيب الطبيعي ؟ فلا بد من علة وحيث لا علة ظاهرة ، قلنا بأنه لا تقديم ولا تأخير وإنما الآية على ترتيبها الطبيعي .

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَاءَهُنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوَاتِ النِّسَاءِ ﴾ (النور: ٣١، ٣٠).

بدأ بالأمر بغض البصر للرجال قبل النساء لأن نظر الرجل إلى المرأة أعظم فتنة من نظر المرأة للرجل ، وتقدم الأمر بغض البصر على حفظ الفرج لأن النظر بريد الزنى ورائد الفجور ، والبلوى فيه أشد وأكثر ، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الْكِبْرِيتِ بِحُجَّتِهِمْ يَحْسَبُهُ الظُّمُتَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَمَّ بِحُجَّتِهِمْ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابُهُمْ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤٠﴾ أَوْ كَظُلُمَتِ فِي سَحَابٍ لِّجَىٰ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلُمَتِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾

(النور: ٤٠، ٣٩)

بدأ بالتشبيه الأول قبل الثاني لأنه إخبار بما يصيرون إليه في الآخرة من عقاب أبدي وعذاب سرمدي ، أما الثاني بيان حالتهم في الدنيا فبدأ بأخطر التشبيهين وأعظمهما تأثيراً .

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور: ٤٥)، قدم الله تعالى ما هو أعرف للقدرة وأعجب في المشي وهو الماشي بغير آلة مشي وهو قوله : ﴿فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ ثم الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع .

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النور: ٥٤).

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب عن ترتيب هذه الآية : «وقد كان مقتضى النظم أن يرد فيه ختام الآية على مطلعها مراعى فيه الترتيب الذي جاء عليه المطلع بمعنى أن يكون نظم الكلام هكذا :

فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وما على الرسول إلا البلاغ المبين وما عليكم إلا أن تطيعوه . .

ولكن هذا كلام وذاك قرآن وشتان بين القرآن وبين الكلام ، فقد جاء القرآن على هذا النظم فقد حمل المنافقين الأمانة ثم دعاهم إلى الوفاء بها لأنهم هم المطلوبون ، المنادى عليهم بالخيانة على حين أن الرسول قد أدى أمانته وليس في حاجة إلى تنبيه أو طلب وعلى هذا يكون قوله تعالى : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ تأكيداً وشرحاً لقوله تعالى : ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ وليس دعوة

جديدة للنبي أن يبلغ البلاغ المبين ، على حين أن قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ هو أمر مطلوب من المنافقين أداؤه ^(١).

أقول : وما قاله الأستاذ عبد الكريم توجيه جميل ولكن حمل الكلام على أصل تربيته هو الأصل الأصيل طالما كان في السياق برهان ودليل وإلا كان نوعاً من التحميل والتثقيل الذي لا يحتمله نص التنزيل ، وإذا ما قرأنا الآية الكريمة مع سابقتها من الآيات الكريمات ابتداء من الآية السابعة والأربعين لوجدنا الآتي :

أولاً : ذكر ادعاء المنافقين الإيمان بالله والرسول والطاعة وتكذيبهم في ذلك ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَا رَسُولَ اللَّهِ اطعْنَا وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور: ٤٧).

ثانياً : مدح المؤمنين الصادقين بطاعتهم لله ورسوله والآية إخبار عن حال المهاجرين والأنصار في مقابلة المنافقين الفجار ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (النور: ٥١).

ثالثاً : ذكر ثواب المطيعين ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَخَشِيَ اللَّهَ فَاُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (النور: ٥٢).

رابعاً : بيان أن الطاعة إنما تكون بالفعال لا بالإيمان والأقوال ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أُمِّرُوا لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (النور: ٥٣) ثم تأتي الآية التي بين أيدينا في سياق الآيات الأخريات لتتم معنى الطاعة بالأمر بها ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ والتحذير من تركها ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ ﴾ ثم الترغيب فيها والحث عليها ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ فجاءت الآيات متناغمة متناسقة على هذا الترتيب البديع ، ونلاحظ هنا أيضاً في الحديث مع المنافقين أن القرآن بدأ بذكر حمل الرسول على حمل المنافقين ، لبيان أن معصيتهم لرسول الله ﷺ وعدم طاعتهم له لا تضره أو تنقص من رتبته ، ولذا بدئ به ﷺ لشرفه .

(١) التفسير القرآني ج ١٨ ص ١٣١٤.

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ
كَمَا أَسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾
(النور: ٥٥).

تقدم الجار والمجرور ﴿ هُمْ ﴾ على المفعول الصريح ﴿ دِينَهُمْ ﴾ لبيان الاهتمام
بهم ، وأن ذلك لمصلحتهم ولأجل منفعتهم ، وكذا فيه التشويق إلى المتأخر ، ولأن
في تأخيرها عن الوصف إخلال بجزالة النظم .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَفْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا
الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهْرِ
وَمِن بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوَرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ
طَوَافُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَفْذِنُوا كَمَا اسْتَفْذَنَ الَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ ﴾ (النور: ٥٨، ٥٩).

جاء ترتيب الأمر في هذه الآيات لبيان حكم الأطوع للأمر فجاء الأرقاء في
البداية ثم الأطفال قبل سن الاحتلام ثم البالغون بعد ذلك .

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ
أَنفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِمَّنْ بِيُوتِكُمْ أَوْ بِيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بِيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بِيُوتِ
إِخْوَانِكُمْ أَوْ بِيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بِيُوتِ أَعْمَمِكُمْ أَوْ بِيُوتِ عَمَتِكُمْ أَوْ بِيُوتِ
أَخَوَلِكُمْ أَوْ بِيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مِّفْتَاحُهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ
عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ
أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (النور: ٦١).

الترتيب الذي جاءت عليه الآية في ذكر هذه الأصناف هو ترتيب تنازلي في رفع
الحرَج حسب درجة القرابة الآباء أولاً ، فالأمهات ، فالإخوة ، فالأخوات ، فالأعمام ،
فالعمات فالأخوال ، فالخالات .

سورة الفرقان

لما ختمت سورة النور ببيان عظيم مكانة النبي ﷺ والتنبيه على عظمة علم الله سبحانه وتعالى وإحاطته بكل شيء ابتدأت سورة الفرقان بالحديث عن صفة الله عز وجل الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على هذه الأوامر العظيمة لا سيما تلك التي ذكرت في السورة من أولها لآخرها كحكم الزنى والقذف والاستئذان والحجاب ..

﴿ وَأَخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءِالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (الفرقان: ٣).

تقدم في هذه الآية الكريمة المسند إليه على الفعل في قوله : ﴿ هُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ هذا التقديم من أجل ثبوت الفعل للفاعل وتوكيده ودفع الشك عنه ، لا قصره عليه من أجل أن يتمكن في نفس السامع ، فجاء هذا التقديم لتكذيب المدعين ، فإنهم وإن كانوا لا ينكرون أنها مخلوقة ، فإن عبادتها تقتضي أنها غير مخلوقة ، لأن العقل يقتضي أن يكون المعبود خالقاً ، لا مخلوقاً .

قال صاحب درة التنزيل : « وقال قبله في سورة الرعد ، وكان حكم هذه الآية أن تذكر هناك ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ (الرعد: ١٦) ، للسائل أن يسأل عن تقديم نفع على ضرر في سورة الرعد ، وعكس ذلك في سورة الفرقان ، وما الذي أوجب هذا الاختلاف .

الجواب أن يقال : أما في سورة الرعد فإنه قدم فيه الأفضل على الأنقص لأن اجتلاب النفع أشرف من استدفاع الضرر ، وهو رتبة فوقه ، فمن فاته كمال ذلك طلب دفع الضرر ، فهو على وجهه في الترتيب . وأما في سورة الفرقان فإنه بنى على ما قبله وهو ﴿ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ وقوله : ﴿ لَا يَخْلُقُونَ ﴾ نفى ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ إثبات فقدم النفي على الإثبات ، وكان الضر نفيًا والنفع إثباتًا ، أي النفع إثبات المصالح وإيجادها والضرر نفيها ، فكما قدم قبله ما نفى على ما أثبت ، حمل المعطوف عليه ليكون مشاكلاً له .^(١)

(١) درة التنزيل ص ١٨١ .

أقول : وقد قدم الضر هنا أيضاً على النفع في قوله : ﴿ وَلَا يَمْلِكُونَ
لأنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ . لمناسبته وصف القرآن بالندير في الآية الأولى ﴿ تَبَارَكَ
الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ١).
﴿ وَكُلًّا ضَرَرْنَا لَهُ الْأَمْثَلَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا ﴾ (الفرقان: ٣٩).

تقدم المفعول به ﴿ كُلًّا ﴾ على فاعله ﴿ ضَرَرْنَا ﴾ و ﴿ تَبَرْنَا ﴾ والتقديم هنا
للعناية بذكرهم والاهتمام بما أخبر الله عن صنيعهم ، لأن الآيات السابقة على هذه
الآية تحدثت عما فعله الله بالأمم السابقة فذكرت قوم فرعون وقوم نوح وعاد
وهمود وأصحاب الرس من قوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا أَذْهَبْنَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا
بِرَّائِنَا فَذَمَرْنَاهُمْ تَذْمِيرًا ﴾ (الفرقان: ٣٦).

إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴾ (الفرقان: ٣٨)
﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ (الفرقان: ٤٣)، أصل
الترتيب في هذه الآية هو : أفرأيت من اتخذ هواه إلهه ، فهو هو المفعول الأول
وإلهه هو المفعول الثاني فما السبب في هذا التقديم ؟ هنا أقوال عدة لأهل العلم
ذكرها الألوسي الذي يرى أن التقديم للاعتناء به من حيث إنه الذي يدور عليه أمر
التعجب لا من حيث إن الإله يستحق التعظيم والتقديم كما قيل : أي أرايت الذي
جعل هواه إلهاً لنفسه بأن أطاعه وبنى عليه أمر دينه معرضاً عن استماع الحجة
الباهرة وملاحظة البرهان النير بالكلية على معنى انظر إليه وتعجب منه ، قال :
« وقال ابن المنير في تقديم المفعول الثاني هنا نكتة حسنة وهي إفادة الحصر فإن
الكلام قبل دخول { أَرَأَيْتَ ، وَاتَّخَذَ } الأصل فيه هواه إلهه على أن هواه مبتدأ خبره
إلهه فإذا قيل إلهه هواه كان من تقديم الخبر على المبتدأ وهو يفيد الحصر فيكون
معنى الآية حينئذ أرايت من لم يتخذ معبوده إلا هواه وذلك أبلغ في ذمه وتوبيخه .
ثم ذكر الألوسي قول صاحب الفرائد : تقديم المفعول الثاني يمكن حيث يمكن
تقديم الخبر على المبتدأ والمعرفتان إذا وقعتا مبتدأ وخبراً ، فالمقدم هو المبتدأ
فمن جعل ما هنا نظير قولك : علمت منطلقاً زيداً فقد غفل عن هذا ، ويمكن أن
يقال : المتقدم هاهنا يشعر بالثبات بخلاف المتأخر فتقدم ﴿ إِلَهَهُ ﴾ على ﴿ هَوَاهُ ﴾ .

وتعقب ذلك الطيبي فقال : لا يشك في أن مرتبة المبتدأ التقديم وأن المعرفتين أيهما قدم كان المبتدأ ، لكن صاحب المعاني لا يقطع نظره عن أصل المعنى فإذا قيل : زيد الأسد فالأسد هو المشبه به أصالة ومرتبته التأخير عن المشبه بلا نزاع ، فإذا جعلته مبتدأ في قولك الأسد زيد فقد أزلته عن مقره الأصلي للمبالغة ، وما نعني بالمقدم إلا المزال عن مكانه لا القار فيه فالمشبه به هنا الإله والمشبه الهوى لأنهم نزلوا أهواءهم في المتابعة منزلة الإله فقدم المشبه به الأصلي وأوقع مشبهها ليؤذن أن الهوى في استحقاق العبادة عندهم أقوى من الإله عز وجل كقوله تعالى : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا آتَيْنَا مِثْلَ الْمَرْبُورِ ﴾ . تعقب الألوسي على الطيبي بأن الأمر دائر مع القرينة والقرينة هنا قائمة على أن ﴿ إِلَهَهُ ﴾ الخبر وهي عقلية لأن المعنى على ذلك فلا حاجة إلى جعل ذلك من التقديم المعنوي ، ثم نقل عن شيخ الإسلام : من توهم أنهما على الترتيب بناء على تساويهما فقد زل عنه لأن المفعول الثاني في هذا الباب هو الملتبس بالحالة الحادثة ، وفي ذلك رد على أبي حيان حيث أوجب كونهما على الترتيب ^(١) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ (٢٠) لِنُخْضِيَ بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأَنْاسِي كَثِيرًا ﴿

(الفرقان: ٤٨، ٤٩)

قال أبو حيان : « وقدّم إحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الناس لأن حياتهم بحياة أرضهم ، وحياة أنعامهم فقدم ما هو السبب في ذلك ، ولأنهم إذا وجدوا ما يسقي أرضهم ومواشيهم وجدوا سقيهم » ^(٢) . وقد ذهب الرازي إلى ما ذهب إليه أبو حيان .

أقول : وقد يكون التقديم هنا من باب الأسبق بالانتفاع فإن أول ما يستفيد بالمطر هو الأرض ثم النبات ثم الأنعام ثم الإنسان .

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾ (٢١) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿ (٢٢) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا

(١) روح المعاني ج ١٩ ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٢) البحر المحيط ج ٦ ص ٣٦٣ ، مفاتيح الغيب ج ٢٤ ص ٩١ .

أَصْرَفَ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّا عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٥﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٦﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٧﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٦٩﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٠﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِقَايَةِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِزُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿الفرقان: ٦٣-٧٤﴾.

تقدمت في هذه الآيات الكريمات صفات الفعل على صفات الترك أو صفات التحلي على صفات التحلي ، وبدأت بذكر أول صفات عباد الرحمن وهي أنهم ﴿الَّذِينَ يَمْسُحُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونَ﴾ وهي صفة أهل التواضع وأصحاب النفوس الطيبة التي سلمت من الكبر وهو المانع الأول والحجاب الأعظم عن قبول الحق الذي صد الكثير عن الإيمان وكان سبباً في ملازمتهم الكفر والطغيان من الذين قال الله فيهم : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ ، فاهل التواضع هم أولى الناس بقبول الحق وعدم التكبر عليه ، فقادهم ذلك إلى قبول الحق والإذعان لهم فكانوا من الذين قال الله فيهم ﴿تِلْكَ الْأَازِيزَةُ الَّتِي جَعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعِزَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فإذا ما أودوا من قبل الجاهلين بسوء القول لم يلتفتوا إلى إيذاء الخلق لانشغالهم بصفات الحق ، فقالوا سلاماً ، هذا التواضع والذل ظهر في أعظم صوره بياناً عندما وضعوا جباههم خضعاناً وصفوا أقدامهم فرقاناً ، وهم مع ذلك لا يستطيعون بطاعة ولا يتيهون بعبادة ، فالتقصير وخوف عدم الوفاء بحق العبودية لازم لقلوبهم ومن ثم قالوا : ﴿رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ فإذا ما التفتوا لحاجة نفوسهم وحاجات حياتهم كان منهج الاعتدال الذي يجنبهم الاعتلال ولا يصل إلى الاختيال ، فليست الدنيا عندهم بمطلوب

وإنما وراءها محبوب ومرغوب لم يصرفهم عن الوصول إليه انشغال بمركوب ، وقد تقدم السجود على القيام مع أن القيام قبله وقد مر بنا من قبل في سورة آل عمران في قوله تعالى : ﴿يَمْرُؤُا أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ وأقرب الآراء أن التقديم لفضل السجود على القيام وفي الحديث {أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فاكثروا الدعاء} ^(١).

ولما كانت الصفات السابقة صفات تقبل الإشراك بين أهل الإيمان وأهل الإشراك فنجد من بعضهم تلك الخلال أخبر الله تعالى بأن كل ما سبق لا ينفع عند الله إلا إذا أفرد به وجه ذي الجلال ولم يشرك به في تلك أقوال والأعمال ومن ثم جاء قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ فيحبط كل ما صنعوا ، و ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ فيغلب سيئه أحسن ما عملوا ، فلما طابت نفوسهم وطابت أعمالهم وصفت عبادتهم فيما بينهم وبين الله ، ذكر الله تعالى أن كل ما سبق أورثهم حبا لله أقوى من كل حب لغيره مهما مال له القلب أو علق ومن ثم قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ ولما كان عباد الرحمن بشراً تعترهم صفات الغفلة والنسيان فقد يقصرون في حق أو يهملون في واجب ذكر الله تعالى أن ذلك صفة عارضة وسحابة عابرة سرعان ما تمر فيأتي ضوء الشمس المنتشر فقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ فلما عاشوا في ذلك النعيم وذاقوا حلاوة العبودية لربهم الكريم لم تسترح نفوسهم أو تقرر عيونهم حتى يروا أقرب الناس منهم حبا وألصقهم بهم في الحياة سيرا إلا وقد ذاقوا ما ذاقوه وعاشوا ما عرفوه حتى يكونوا لهم في طريق العبودية عوناً فقالوا : ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ في هذا القول منهم إشارة إلى أنه لما كمل نفعهم أحبوا أن يعود ذلك على أتباعهم وبدعوا بالزوجات للإشارة إلى أن في مدحهم صلاحاً للأبناء لأن من شأنهم أن يأتوا على نعت أبويهم ، ثم تافت القلوب إلى السبق في الفضائل بعد الأنس بالذرية والحلائل

(١) مسند أحمد كتاب باقي مسند المكثرين رقم {٩٠٨٣}.

فعرّفوا أن الريادة في ذلك هي منتهى الشرف وإمامة الناس في الخيرات إلا أصحاب الهمم العاليات دعوا ربهم ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

قال الرازي: «اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر أن من صفة عباد الرحمن الاحتراز عن الشرك والقتل والزنى، ثم ذكر بعد ذلك حكم من يفعل هذه الأشياء من العقاب، ثم استثنى من جملتهم التائب وهاهنا أسئلة:

السؤال الأول: أنه تعالى قبل ذكر هذه الصفة نزه عباد الرحمن عن الأمور الخفية فكيف يليق بعد ذلك أن يظهرهم عن الأمور العظيمة مثل الشرك والقتل والزنى، أليس أنه لو كان الترتيب بالعكس منه كان أولى؟ الجواب أن الموصوف بتلك الصفات السالفة قد يكون متمسكاً بالشرك تديناً ومقدماتاً على قتل الموءودة تديناً وعلى الزنى تديناً فبين تعالى أن المرء لا يصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن، حتى يضاف إلى ذلك كونه مجانباً لهذه الكبائر وأجاب الحسن - رحمه الله - من وجه آخر: فقال: المقصود من ذلك التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار كأنه قال وعباد الرحمن هم الذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر، وأنتم تدعون، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأنتم تقتلون الموءودة ولا يزنون وأنتم تزنون»^(١).

وقد جاء نفي القتل بعد الشرك إذ إن قتل النفس بغير حق أعظم الذنوب بعد الشرك قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٩٣).

روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الكبائر قال: {الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وشهادة الزور} وفي سنن أبي داود عن واثلة بن الأسقع قال: أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في صاحب لنا أوجب يعني النار بالقتل فقال: {اعتقوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار}^(٢).

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٤ ص ١١٠.

(٢) البخاري كتاب الشهادات حديث رقم {٢٤٥٩} سنن أبي داود كتاب العتق حديث رقم {٣٢٥١}.

وحول معنى الترتيب بين هذه الآيات قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « أكبر الكبائر ثلاث ، الكفر ، ثم قتل النفس بغير حق ، ثم الزنى ، كما رتبها الله في قوله : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود قال : « قلت : يا رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم ؟ قال : { أن تجعل لله نداً وهو خلقك قلت ثم أي ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أي ؟ قال : أن تزاني حليلة جارك } ولهذا الترتيب وجه معقول وهو أن قوى الإنسان ثلاث - قوة العقل وقوة الغضب وقوة الشهوة - فأعلاها القوة العقلية التي يختص بها الإنسان دون سائر الدواب... ثم القوة الغضبية التي فيها دفع المضرة ثم القوة الشهوية التي فيها جلب المنفعة . . فالكفر متعلق بالقوة العقلية الناطقة بالإيمانية ولهذا لا يوصف به من لا تميز له ، والقتل ناشئ عن القوة الغضبية وعدوان فيها ، والزنى عن القوة الشهوية ، فالكفر اعتداء وفساد في القوة العقلية الإنسانية ، وقتل النفس اعتداء وفساد في القوة الغضبية ، والزنى اعتداء وفساد في القوة الشهوية .

وفيه وجه آخر ظاهر أن الخلق خلقهم الله لعبادته وقوام الشخص بجسده وقوام النوع بالنكاح والنسل ، فالكفر فساد في المقصود الذي له خلقوا وقتل النفس فساد النفس الموجودة ، والزنى فساد في المنتظر من النوع فذلك إفساد الموجود وذاك إفساد لما لم يوجد بمنزلة من أفسد مالا موجوداً أو منع المنعقد أن يوجد وإعدام الموجود أعظم فساداً فلهذا كان الترتيب كذلك ، ومن وجه ثالث أن الكفر فساد القلب والروح الذي هو ملك الجسد ، والقتل إفساد للجسد الحامل له وإتلاف الموجود ، وأما الزنى فإفساد في صفة الوجود ولا في أصله ولكن هذا يختص بالزنى ومن هنا يتبين أن اللواط أعظم فساداً من الزنى^(١)

وقد تكلم الشيخ طنطاوي جوهرى عن علة التقديم والتأخير بين الخصلة السادسة وهي عدم الإشراك بالله والخصلة الحادية عشرة وهي أنهم إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ، ورأى أن التقديم هنا من باب تقديم

(١) التفسير الكبير لابن تيمية ج ٦ ص ٣-٥.

النتيجة على المقدمة ودافع عن رأيه وأطال وأسهب مفسراً الآيات هنا بأنها الآيات الكونية والعلوم الطبيعية ، وعاب وذم من قصر نظره وتفسيره ووعظه على كلمتي الإيمان والصلاح داعياً إلى فتح الأعين لعجائب قدرة الله في خلقه عن طريق العلوم الطبيعية والتجريبية يقول : « فملخص السورة إخراج علماء في الإسلام يقرءون نظام السموات والأرض ويكونون حكماء هادين لذرياتهم وزوجاتهم وأمتهم ، فلولاً ذكر التوحيد قبل التذكير بآيات الله وعدم الإعراض عنها ما تيسر لنا فهم هذه المعاني ، إن هذه المعاني استخرجت من تأخير وتقديم ، وكأن هذا كهرباء ومغناطيس بهما أشرق النور وبهر الفرقان ، ثم يعلق بعد ذلك على ما ذكر من معان ، وأن الباب الذي كشف له ذلك كله إنما هو باب التقديم والتأخير فيقول : فانظر إلى أمر التقديم والتأخير في جملتين قد أثاراً موضوعاً يتعلق بحياة أمتنا الإسلامية ويبين عيوبها ومخازيها ويفضح سر تأخيرها وينير السبيل لتقدمها وارثانها»^(١).

أقول : لقد بالغ الشيخ رحمه الله في أمرين الأول سبب للثاني : أما أولاهما : فحصره المعنى في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ بالآيات الكونية والعلوم الطبيعية والتجريبية ، أداه ذلك إلى الأمر الثاني وهو سحب الوصفين - الصمم والعمى - وهما الوصفان اللذان ضربهما الله مثلاً للكافر فقال : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ﴾ فالصقهما - غفر الله له - بأهل الإسلام بل أهل الدعوة والبيان ، وكأنه يطالب كل عالم ومفسر وواعظ ومحدث أن يكون عالماً متخصصاً وباحثاً مدققاً في هذه العلوم إذا ما تحدث عن القرآن ، ومع أن ما ذكره غوص في المعاني محمود غير أن ما رمى به غيره من الفهم المحدود غير سالم من الردود ، كيف وقد راجعت كتب أئمة أهل التفسير فوجدتهم قد ذهبوا إلى أن المقصود بالآيات هنا هو ما يفهم من ظاهر الآية أنها آيات القرآن الكريم ، منهم الطبري ، والزمخشري ، والرازي ، والقرطبي ، وابن كثير ، وأبو الفرج ابن الجوزي ،

(١) الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، المجلد السادس من ص ٢٤٦-٢٥٤ .

والسيوطي ، والصاوي ، ومحمد الأمين الشنقيطي ، والشوكاني ، ومحمد محمود حجازي ، والمراغي ، والقاسمي ، وابن عاشور ، وقد وجدت كلام الطبري والمراغي هنا متطابقاً مع ما ذكرته في كون الصمم والعمى في الآية المراد به الكفار .

قال الطبري : « فإن قال قائل وما معنى قوله : ﴿ لَمْ يَخْرُجُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ أو يخبر الكافرون صمًّا وعمياناً إذا ذكروا بآيات الله ؟ قيل : نعم الكافر إذا تليت عليه آيات الله خر عليها أصم وأعمى ، وخره عليها كذلك إقامته على الكفر »

قال القاسمي : « وإنما عبر بنفي الضد تعريضاً بما يفعله الكفرة والمنافقون من شدة الإباء والنفرة » .

قال المراغي : « هذا تعريض بما عليه الكفار والمنافقون إذا سمعوا كلام الله لم يتأثروا به ولم يتحولوا عما كانوا عليه بل يستمرون على كفرهم وعصيانهم وجهلهم وضلالهم وكأنهم صم لا يسمعون وعمي لا يبصرون » ^(١)

قال الألوسي : في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ ومن ابتدائية متعلقة بهب أي هب لنا من جهتهم ، وجوز أن تكون بيانية كأنه قيل : هب لنا قرّة أعين ثم بينت القرّة وفسرت بقوله سبحانه : ﴿ مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا ﴾ وهذا مبني على مجيء من للبيان وجواز تقدم المبين على المبين ^(٢)

(١) تفسير الطبري ، مجلد ١١ ص ٥١ ، مفاتيح الغيب ، ج ٢٤ ص ١١٤ ، الكشاف ، ج ٣ ص ٢٨٧ ، القرطبي ج ١٣ ص ٥٥ ، ابن كثير ج ٣ ص ٤٠٠ ، فتح القدير ج ٤ ص ١١١ ، التفسير الواضح مجلد ٢ ص ٧٤٠ ، حاشية الصاوي ، المجلد الرابع ص ٣٣٧ التحرير والتنوير ج ١٩ ص ٨١ ، زاد المسير في علم التفسير مجلد ٦ ص ٢٧ ، أضواء البيان ج ٦ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ، القاسمي ج ١٢ ص ٢٨٣ المراغي مجلد ٧ ص ٤١ .

(٢) تفسير الألوسي ، المجلد العاشر ص ٥٢ .

سورة الشعراء

لما ختمت سورة الفرقان بذكر الوعيد المترتب على كفر الكافرين ﴿ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴾ (الفرقان: ٧٧) كان ذلك سبباً في إشفاق النبي ﷺ عليهم مما هو حالُّ بهم فجاء افتتاح سورة الشعراء بتسليية النبي ﷺ وأنه سبحانه لو شاء لأنزل آية تبهرهم وتذل جبابرتهم ﴿ لَعَلَّكَ بِنِخَعِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ إِن كُشًّا نُنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ (الشعراء: ٤٣)

قال الأستاذ عبدالكريم الخطيب : « المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها واضحة بحيث يمكن أن تتصل السورتان في سورة واحدة فقد كانت سورة الفرقان معرضاً لمقولات المشركين الحمقاء الطائشة في رسول الله وفي القرآن الكريم ، ثم كانت مقولتهم حين دعوا إلى أن يسجدوا للرحمن فأنكروا الرحمن وقالوا : ﴿ وَمَا أَلْرَحْمَنُ ﴾ ثم كان ختام السورة كاشفاً عن الغاية التي خلق من أجلها الإنسان وهي عبادة الله والتسبيح بحمده ، وأن هؤلاء المشركين لم يستجيبوا لله ولم يؤمنوا به وكذبوا رسوله ، وإذن فهم في عداد السقط الذي لا يؤبه له ولا يحسب له حساب. وقد جاء بدء سورة الشعراء متلاقياً مع هذه المعاني التي ضمت عليها سورة الفرقان . .

فأولاً : في قوله تعالى : ﴿ طَسَّرَ ﴾ ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ هو رد على قول المشركين في سورة الفرقان ﴿ إِن هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ ﴾ .

وثانياً : قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بِنِخَعِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ هو نتيجة لازمة لما تضمنه قوله تعالى في ختام سورة الفرقان ﴿ قُلْ مَا يَعْبُودُوا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ ﴾ أي أنه لا وزن ولا حساب لمن لا يؤمن به ولا يقيم وجهه عليه ، إنه شيء تافه لا يحرص على الإمساك به ولا يحزن على فقدته وهؤلاء المشركون وقد رضوا لأنفسهم أن يكونوا على هذا الوصف فإنهم لا يستحقون منك أيها النبي هذا

الحرص الشديد على هدايتهم ولا هذا النبي المضنى على ما هم فيه من ضلال ، فإنك لو نظرت إليهم حسب وضعهم عند الله بين المخلوقات لوجدتهم في منزلة دون منزلة الهوام والحشرات فكيف تهلك نفسك أسى على هلاكهم وضياعهم . .
 وثالثاً : في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ تأكيد لتلك الصفة من صفات الله التي أنكرها المشركون حين قيل لهم اسجدوا للرحمن فقالوا : ﴿ وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ .^(١)
 ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (الشعراء: ٩).

تقدم ذكر العزيز على ذكر الرحيم ، لأنه لو لم يقدمه لكان ربما قيل إنه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم ، فأزال هذا الوهم بذكر العزيز ، وهو الغالب القاهر ومع ذلك فإنه رحيم بعباده ، فإن الرحمة إذا كانت عن القدرة الكاملة كانت أعظم وقعاً ، وكذلك في تقديم العزيز تناسب الجوار لما قبله فقد جاء قبلها في الآية المكررة في كل قصة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ .
 ﴿ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ۖ ﴿١٦﴾ قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ (الشعراء: ٤٦-٤٨)

قال الرازي في المسألة الثالثة : « أنه تعالى ذكر أولاً أنهم صاروا ساجدين ثم ذكر بعده أنهم قالوا : ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ فما الفائدة فيه مع أن الإيمان يجب أن يكون متقدماً على السجود ؟

وجوابه من وجوه : الأول : أنهم لما ظفروا بالمعرفة سجدوا لله تعالى في الحال ، وجعلوا ذلك السجود شكراً لله تعالى على الفوز بالمعرفة والإيمان ، وعلامة أيضاً على انقلابهم من الكفر إلى الإيمان وإظهار الخضوع والتذلل لله تعالى فكأنهم جعلوا ذلك السجود الواحد علامة على هذه الأمور الثلاثة على سبيل الجمع .^(٢)

وإلى ما ذهب إليه الرازي ذهب الخازن حيث قال : « فإن قلت كان يجب أن يأتوا بالإيمان قبل السجود ، فما فائدة تقديم السجود على الإيمان ؟ قلت : لما قذف الله عز وجل في قلوبهم الإيمان بالله وتصديق رسوله ، ثم أظهروا بعد ذلك

(١) التفسير القرآني ج ١٩ ص ٦٩-٧١.

(٢) مفاتيح الغيب ج ١٤ ص ٢١٥.

إيمانهم ، وقيل : لما رأوا عظيم قدرة الله تعالى وسلطانه في أمر العصا ، وأنه ليس يقدر على ذلك أحد من البشر وزالت كل شبهة كانت في قلوبهم بادروا إلى السجود لله تعظيماً لشأنه ، لما رأوا من عظيم قدرته ، ثم إنهم أظهروا الإيمان باللسان ، قال ابن عباس : ﷺ لما رأت السحرة ما رأت عرفت أن ذلك من أمر السماء وليس بسحر فخرروا سجداً وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون ^(١).

قال السمين الحلبي : « وقدموا موسى في الذكر على هارون وإن كان هارون أسن منه لكبره في الرتبة ، أو لأنه وقع فاصلة هنا ، ولذلك قال في سورة طه : ﴿ بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴾ لوقوع موسى فاصلة ، أو لكون كل طائفة منهم قالت إحدى المقالتين ، فنسب فعل البعض إلى المجموع في سورة وفعل بعض آخر إلى المجموع في أخرى ^(٢) . وسوف يأتي تفصيل ذلك وردنا عليه في سورة طه .

﴿ وَأَنْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ^(٣) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ^(٤) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا مِنْ سَمَوَاتِنَا عِمَكِيمَ ^(٥) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ^(٦) أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يُضُرُّونَ ^(٧) قَالُوا بَلَى وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ^(٨) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ^(٩) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ^(١٠) فَلَيْسَ بَعْدُ لِلَّهِ إِلَهٌ إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ ^(١١) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ^(١٢) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ^(١٣) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ^(١٤) وَالَّذِي يُعِيتُنِي ثُمَّ يُخِينِ ^(١٥) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ^(١٦) رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ^(١٧) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ^(١٨) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ^(١٩) وَأَغْفِرْ لَأَيِّئِهِ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ^(٢٠) وَلَا تَحْزَنْ يَوْمَ يُبْعَثُونَ ^(٢١) (الشعراء: ٦٩-٨٧).

جاء الترتيب في هذه الآيات وفق الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى حيث مناسبة المقال لمقتضى الحال فتعدد الأساليب بتعدد الأحوال ، وهنا نجد أن نبي الله إبراهيم - عليه السلام - يخاطب قوما وثنيين ورثوا عقائدهم عن طريق الآباء

(١) الخازن ج ٢ ص ٥٦٢.

(٢) الدر المصون ج ٣ ص ٣٢٣.

والأجداد ، وتغلغلت هذه العقيدة في نفوسهم ، وأشربوها في قلوبهم فكان المناسب أن يبدأهم أولاً بما يحطم هذه الحواجز والعوائق التي تعيق وصول الإيمان إلى قلوبهم ، ثم راح يذكرهم بما جبل عليه الإنسان من طلب النفع ودفع الضرر ممن يعبد ، وذلك منتف في هذه المعبودات الباطلة ، وذلك أمر ثان يساعده في إقناعهم بالتخلي عنها فإذا ما أقنعهم بذلك ولفت الأذهان إلى فهمه والاعتناع به راح يدعوهم إلى العقيدة الأخرى والتي فيها من الأسباب التي تدعو إلى الإيمان بها بينما هي منفية عن الأخرى فبدأ يعرفهم بالله عز وجل وذكر صفات الربوبية والإنعام والإكرام وجلب كل خير ودفع كل شر ، ونجد في هذه الآيات أن إبراهيم - عليه السلام - بدأ في دعوته بالأقرب فتقدم ذكر أبيه على ذكر قومه في قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ كما في ورد في الآية الرابعة عشرة بعد المائة الثانية من نفس السورة ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، وكما في الآية السادسة من سورة التحريم ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ .

وحول هذا المعنى قال الزمخشري : « وما أحسن ما رتب إبراهيم - عليه السلام - كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها بأنها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع ، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فكسره وأخرجه أن يكون شبهة ، فضلاً أن يكون حجة ثم صور المسألة في نفسه دونهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته ، ثم أتبع ذلك بأن دعاه دعاء المخلصين وابتهل إليه ابتهاج الأوابين ، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمني الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا » .^(١)

(١) الكشف ج ٧ ص ٢٣ .

قال أبو حيان : «وقدم إبراهيم - عليه السلام - الثناء على الله تعالى ، وذكره بالأوصاف الحسنة بين يدي طلبته ومسألته ، ثم سأله تعالى فقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ﴾ فدل على أن تقديم الثناء على المسألة من المهمات » ، وإلى ذلك ذهب الرازي أيضاً .^(١)

وهناك احتمال آخر وهو أن هذا الثناء لم يكن بقصد تقديمه بين يدي دعائه بل كان في معرض دعوة إبراهيم قومه إلى الله وتعريفهم به سبحانه وتعالى .
قال الزمخشري : « وإنما قدم قوله : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ﴾ على قوله : ﴿ وَالْحَقُّنِي ﴾ لأن القوة النظرية مقدمة على القوة العملية ، لأنه يمكنه أن يعلم الحق وإن لم يعمل به ، وعكسه غير ممكن ، لأن العلم صفة الروح والعمل صفة البدن^(٢) »
أقول : وكان ينبغي للرازي أن يقيد العلم الأفضل من الإصلاح بالعلم الذي يعمل به إذ إن كثيراً من آي القرآن قد ذمت الذين يعلمون ولا يعملون كما في قوله تعالى في نفس السورة : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الشعراء: ٢٢٥، ٢٢٦) ، وقوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (الصف: ٣) .

وفي صحيح البخاري عن أبي وائل قال : قيل لأسامة لو أتيت فلاناً فكلمته ، قال : إنكن لترون أنني لا أكلمه إلا أسمعكم أنني أكلمه في السر دون أن أفتح باباً لا أكون أول من فتحه ولا أقول لرجل إن كان عليّ أميراً إنه خير الناس بعد شيء سمعته من رسول الله ﷺ قالوا وما سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول : «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهاها عن المنكر؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنسهاكم عن المنكر وآتية»^(٣) ، روى الدارمي في سننه عن معاذ بن جبل ؓ قال : « لا يدع الله العباد يوم القيامة يوم يقوم الناس

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٤ ص ١٤٧ ، ١٤٨ ، البحر المحيط الشعراء ج ٧ الآية ٦٩-٨٧ .

(٢) الكشف ج ٣ ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

(٣) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق رقم {٣٠٢٧} .

لرب العالمين حتى يسألهم عن أربع عما أفنوا فيه أعمارهم وعما أبلوا فيه أجسادهم وعما كسبوا فيما أنفقوا وعما عملوا فيما علموا»^(١).

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ (٥) وَلَا صَديقٍ حَمِيمٍ ﴿ (الشعراء: ١٠٠، ١٠١).

لماذا تقدم الشفعاء على الأصدقاء ؟ أقول : الجواب لمناسبة ما قبله فإن قبلها ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (٦) إِذْ نَسَوْنَكُمْ رَبَّنا أَلْعَلَّيْمِينَ ﴿ (الشعراء: ٩٧، ٩٨).

حيث كان هؤلاء المشركين يتوجهون إلى معبوداتهم الباطلة باعتقادهم الفاسد فيها أنها تشفع عند الله ، وكذلك لاستبعاد وجود ولاية بين المؤمنين وبينهم في الدنيا فهي أشد استبعاداً في الآخرة ، فإذا كانت مودتهم بين بعضهم البعض في الدنيا سوف تنقلب إلى عداوة يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: ٦٧) فمن باب أولى أنه لن يكون هناك بينهم وبين المؤمنين ولاية في الآخرة . وقد عكس هذا الترتيب في سورة غافر في قوله تعالى : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ (غافر: ١٨) نفى الله عنهم وجود الحميم قبل الشفيع لأنهم يئسوا من الشفاعة وطمعوا في الصلة والقرابة والصداقة .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ (١٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿ (١٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴾ (١٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿

(الشعراء: ١٠٦-١٠٩)

قال أبوحيان : «وقدم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته لأن تقوى الله سبب لطاعة نوح - عليه السلام -»^(٢).

أقول : وأيضاً من باب تقديم الغايات على الوسائل فإن التقوى هي مقصود الطاعة وتقدم قوله : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ على قوله : ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ ﴾ ليثبت أمانته قبل نفي التهمة عنه ليكون أعظم في الإقناع وأدعى إلى طاعته وتصديقه وعدم تكذيبه .

(١) سنن النارمي من كتاب المقدمة رقم {٥٣٧}.

(٢) البحر المحيط ج ٧ ص ٣٠.

ومثل ذلك ما ورد في السيرة النبوية عندما أمر النبي ﷺ إنذار قومه بقوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤)، فقد روى البخاري ومسلم من رواية ابن عباس {خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف يا صباحاه فقالوا من هذا فاجتمعوا إليه فقال : أرايتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم} .^(١)

﴿ وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿ ٢١٠ ﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿ (الشعراء: ٢١٠-٢١٢) .

يرى أبو حيان أن التقديم في هذه الآيات للترقي في النفي قال : « وما أحسن ما ترتب نفي هذه الجمل ، نفي أولاً تنزل الشياطين به ، والنفي في الغالب يكون في الممكن ، وإن كان هنا لا يمكن من الشياطين التنزل بالقرآن ، ثم نفي ابتغاء ذلك والصلاحية ، أي ولو فرض الإمكان لم يكونوا أهلاً له ، ثم نفي قدرتهم على ذلك وأنه مستحيل في حقهم التنزل به ، فارتقى من نفي الإمكان إلى نفي الصلاحية إلى نفي القدرة والاستطاعة وذلك مبالغة مترتبة في نفي تنزيلهم به » .^(٢)

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿ ٢١٠ ﴾ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ ٢١١ ﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿ ٢١٢ ﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿ (الشعراء: ٢١٣-٢١٧) .

جاء الترتيب في هذه الآيات على حسب الأهمية حيث بدأت بالنبي ﷺ ثم بالأقرب فالأقرب ، حيث قال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ ثم ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ١٦٣ .

(٢) البحر المحيط ج ٧ ص ٤٣ .

سورة النمل

لما ختمت سورة الشعراء بإثبات أن القرآن من عند الله ونفي الشبه الباطلة عنه من وصفه بالشعر وأن الشياطين تنزل به ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (النمل: ٢١٠، ٢١١).

أتبع ذلك التنزيه في سورة الشعراء بالثناء والمدح في سورة النمل فقال تعالى : ﴿طسَّ ۚ تِلْكَ ءَايَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ۝ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝﴾ (النمل: ٢، ١). ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ (النمل: ٤، ٣).

لما كان الإيمان بالبعث هو السبب الأعظم للسعادة ، جاء في هذا الأسلوب الشبه بأسلوب الاختصاص ، فقدم أمر الآخرة لأهميتها ، ولما أفهم هذا الأسلوب أن ثم من يكذب بها وكان أمرها مركزاً في الطباع تشوقت نفس السامع على سبيل التعجب إلى حالهم فقال مجيباً له مؤكداً تعجباً ممن ينكر ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾.

وذكر القاسمي عن صاحب {الانتصاف} وجهاً آخر قال : «لما كان أصل الكلام {وهم يوقنون بالآخرة} ثم قدم المجرور عامله عناية به ، فوقع فاصلاً بين المبتدأ والخبر فأريد أن يلي المبتدأ خبره وقد حال المجرور بينهما فجري ذكره ليليه الخبر ، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور حيث بقي على حاله مقدماً»^(١)

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنَ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النمل: ٨)

تقدم النداء بالبركة على تسييح الله رب العالمين مع أنه أعظم ، وذلك لمناسبة الحال من أجل تطمين موسى وإذهاب الروح عن فؤاده .

﴿وَحِثْرَ لُسُلَيْمَنَ جُنُودَهُ مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (النمل: ١٧).

(١) القاسمي ج ٧ ص ٤٨٤.

ذكر في هذه الآية ما يعقل وبدأ به لشرفه وبدأ بالجن لعسر جمعهم ثم ثنى بالإنس لشرفهم .

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٤﴾ لَا أُغْدِبُكَ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْنَحُكَ أَوْ لِيَأْتِيَنِي بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٥﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَلٍ يَنْبَغِي ﴿٢٦﴾ إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطٰنُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ (النمل: ٢٠-٢٤).

قال أبو حيان : « وما أحسن انتقالات هذه الأخبار بعد تهديد الهدهد وعلمه بذلك : أخبر أولاً باطلاعه على ما لم يطلع عليه سليمان تحصناً من العقوبة بزيينة العلم الذي حصل له ، فتشوف السامع إلى علم ذلك ، ثم أخبر ثانياً بتعلق ذلك العلم وهو أنه من سبأ ، وأنه أمر متيقن لا شك فيه فزاد تشوف السامع إلى سماع ذلك النبأ ، ثم أخبر ثالثاً عن الملك الذي أوتيته امرأة ، وكان سليمان - عليه السلام - قد سأل الله أن يؤتیه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، ثم أخبر رابعاً ما ظاهره الاشتراك بينه وبين هذه المرأة التي ليس من شأنها ولا من شأن النساء أن تملك فحول الرجال وهو قوله : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ وكان سليمان له بساط قد صنع له ، وكان عظيماً ولما لم يتأثر سليمان للإخبار بهذا كله ، إذ هو أمر دنيوي ، أخبره خامساً بما يهزه لطلب هذه الملكة ودعائها للإيمان ، وإفراده بالعبادة فقال : ﴿ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ (١).

﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ (النمل: ٢٥).

قال الرازي : « فإن قيل إن إبراهيم وموسى - عليهما السلام - قدما دلالة النفس على دلالة الآفاق فإن إبراهيم قال : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُخَيِّرُ وَيُعَمِّتُ ﴾ ثم قال :

(١) البحر المحيط ج ٧ ص ٦٥.

﴿ فَارْتِ اللَّهُ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ ﴾ وموسى - عليه السلام - قال : ﴿ رَبِّكَ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ ﴾ ثم قال ﴿ رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ فلم كان الأمر هاهنا بالعكس فقدم خبء السموات على خبء الأرض ؟ جوابه أن إبراهيم وموسى - عليهما السلام - ناظرا مع من ادعى إلهية البشر ثم انتقلا إلى إبطال إلهية السموات ، وهاهنا المناظرة مع من ادعى إلهية الشمس لقوله :

﴿ وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ فلا جرم ابتداء بذكر السماويات ثم بالأرضيات ^(١).

﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (النمل: ٣٠).

قال أبو حيان : « والظاهر أن بداءة الكتاب من سليمان ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ إلى آخر ما قص الله منه خاصة فاحتمل أن يكون ﴿ مِنْ سُلَيْمَنَ ﴾ مقدماً على ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ وهو الظاهر ، وقدمه لاحتمال أن ينذر منها ما لا يليق إذ كانت كافرة ، فيكون اسمه وقاية لاسم الله تعالى ، أو كان عنواناً في ظاهر الكتاب وباطنه فيه ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ إلى آخره ، واحتمل أن يكون مؤخراً في الكتابة عن ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ وأن ابتداء الكتاب بسم الله ، وحين قرأته عليهم بعد قراءتها له في نفسها قدمته في الحكاية وإن لم يكن مقدماً في الكتابة ».

وقال أبو بكر بن العربي : « كانت رسل المتقدمين إذا كتبوا كتاباً بدأوا بأنفسهم : من فلان إلى فلان وكذلك جاءت الإشارة ، وعن أنس « ما كان أحد أعظم حرمة من رسول الله وكان أصحابه إذا كتبوا إليه كتاباً بدؤوا بأنفسهم » ^(٢).

وقد أحسن الرازي في قوله : « إذ كيف يغيب عن نبي كريم ابتداء الخطاب بذكر اسم الجليل وقد جاء الخبر الصحيح عن نبينا ﷺ { كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بسم الله فهو أبت } حيث ذكر تحت عنوان البحث الثاني : يقال : لم قدم سليمان اسمه على قوله : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ؟ وجوابه حاشاء من ذلك بل ابتداء هو

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٤ ص ١٩٣.

(٢) البحر المحيط ج ٧ ص ٦٩.

بسم الله الرحمن الرحيم ، وإنما ذكرت بلقيس أن هذا الكتاب من سليمان ثم حكى ما في الكتاب والله تعالى حكى ذلك فالتقديم واقع في الحكاية»^(١).

وفقد ذهب الخازن إلى ما ذهب إليه الرازي حيث قال : « فإن قلت لم قدم إنه من سليمان على بسم الله قلت : ليس هو كذلك بل ابتدأ سليمان بسم الله الرحمن الرحيم وإنما ذكرت بلقيس ، أن هذا الكتاب من سليمان ثم ذكرت ما في الكتاب فقالت : وإنه ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .^(٢)

﴿ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ۖ أَشْكُرْ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ (النمل: ٤٠)

بدأ كما هو عادة الصالحين بتقديم الأدب في الحديث عن الله سبحانه وتعالى ولذا قدم قوله : ﴿ أَشْكُرُ ﴾ على ﴿ أَكْفُرُ ﴾ .

﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ ﴿ بَلْ أَدْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا ۚ بَلْ هُمْ عَنْهَا غَمُونَ ﴾ (النمل: ٦٥، ٦٦).

قال صاحب التحرير : « وترتيب هذه الإضرابات الثلاثة ترتيب لتنزيل أحوالهم ، فوصفوا أولاً أنهم لا يشعرون بوقت البعث ، ثم بأنهم تلقفوا في شأن الآخرة التي البعث من شؤونها علماً مضطرباً أو جهلاً فخبطوا في شك ومرية ، فأعقبهم عمى وضلالة بحيث إن هذه الانتقالات مندرجة متصاعدة حتى لو قيل : بل ادرك علمهم في الآخرة فهم في شك منها فهم منها عمون لحصل المراد ، ولكن جاءت طريقة التدرج بالإضراب الانتقالي أجزل وأبهج وأروع وأدل على أن كلا من هذه الأحوال المترتبة جدير بأن يعتبر فيه المعتبر باستقلاله لا بكونه متفرعاً على ما قبله»^(٣).

وقدم الجار والمجورور ﴿ مِنْهَا ﴾ على متعلقه ﴿ غَمُونَ ﴾ للاهتمام مع ما فيه من حسن الفاصلة .

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٤ ص ١٩٤

(٢) الخازن ج ٤ ص ٥٣.

(٣) التحرير ج ٢٠ ص ٢٣ ، المنار ج ٢٠ ص ١٣.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَّءَابَاؤُنَا إِلَيْنَا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَّءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (النمل: ٦٧، ٦٨).

قال أبو حيان: « وجاء هنا تقديم الموعود به وهو ﴿ هَٰذَا ﴾ وتأخر في آية أخرى ، على حسب ما سيق الكلام لأجله ، فحيث تأكد الإخبار عنهم بإنكار البعث والآخرة عمدوا إليها بالتقديم على سبيل الاعتناء ، وحيث لم يكن ذلك معزواً إلى إنكار إيجاد المبعوث فقدموه وأخروا الموعود به »^(١)

والآية الأخرى التي لم يذكرها أبو حيان هي قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَّءَابَاؤُنَا هَٰذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٨٣).

وإلى ما ذهب أبو حيان ذهب الزمخشري حيث قال : « التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المتعمد بالذكر وإن الكلام إنما سبق لأجله ، ففي إحدى الآيتين دل على أن اتخاذ البعث هو الذي تعمد بالكلام ، وفي الأخرى على أن اتخاذ المبعوث بذلك الصدد ».^(٢)

(١) البحر المحيط ج ٧ ص ٨٩.

(٢) الكشف ج ٣ ص ٣٦٨.

سورة القصص

لما ختمت سورة النمل بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (النمل: ٩٣)، وقد سبقت الإشارة من قبل بإذلال الله تعالى للمشركين وقرب نصره لعباده المؤمنين والإشعار بقرب فتح مكة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (النمل: ٩١)، اتبع سبحانه وتعالى في هذه السورة قصة بني إسرائيل مع فرعون وما تعرضوا له من بلاء والذي كان آخرها إهلاك فرعون وتمكين بني إسرائيل ولهذا أشار تعالى في كلتا القصتين بقوله في الأولى: ﴿سِيرِكُمْ ءَايَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ (النمل: ٩٣)، وفي القصص بقوله ﴿وَنُرِيْ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَيْنِ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (القصص: ٦).

﴿إِنْ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَذِبحُ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٤).

ابتدأت القصة بذكر أسبابها ، لتكون عبرة للمؤمنين ، يتخذون منها عبراً ودروساً يعلمون بها سنن الله وكيف رتب الأشياء ، وأن الأحكام الجارية في سنن الله الكونية تجري وفق علل معروفة وسنن معلومة ، فلولا تجبر فرعون وهو من قبيح الخلال ما حل به وبقومه من الاستئصال ولما خرج بنو إسرائيل من ذل العبودية .

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَعْجَزَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦)، تقدم هنا صفة القوي على صفة الأمين ، وذلك راجع في نظري إلى ترتيب الأحداث في القصة ، حيث ظهرت صفة القوة أولاً ثم ظهرت فيما بعد صفة الأمانة وهذا يتفق وظاهر ورود القصة في القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ (٣١) فسقى

لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٣﴾ (القصص: ٢٤)، قال الحافظ ابن كثير: «قال المفسرون: وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده، ثم استقى لهما وسقى غنمهما ثم رد الحجر كما كان، قال أمير المؤمنين عمر: وكان لا يرفعه إلا عشرة وإنما استقى ذنوباً واحداً فكفاهما إلى أن قال: والمقصود أنه لما أضافه وأكرم مثواه وقص عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها: يا أبت استأجره أي لرعي غنمك ثم مدحته بأنه قوي أمين، قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن إسحق وغير واحد: لما قالت ذلك قال لها أبوها: وما علمك بهذا؟ فقالت: إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة وإنه لما جئت معه تقدمت أمامه فقال كوني من ورائي فإذا اختلف الطريق فاقتدي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق»^(١). قال الزمخشري: «فإن قلت: كيف جعل خير من استأجرت اسماً لأن، والقوي الأمين خبراً؟ قلت: هو مثل قوله:

أَلَا إِنَّ خَيْرَ النَّاسِ حَيًّا وَهَالِكًا أَسِيرُ ثَقِيفٍ عِنْدَهُمْ فِي السَّلَاسِلِ

وقد تكلمت بشيء من الإيجاز عن سبب التقديم في قوله تعالى: ﴿الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ في سورة يوسف في أن العناية هي سبب التقديم»^(٢). عند قوله تعالى: ﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ وأنا بحول الله تعالى أضيف شيئاً من التفصيل هنا عن سبب تقدم صفة القوي على صفة الأمين فأقول: جاء الترتيب هنا وفق أحداث القصة حيث كان العلم بقوته أسبق من العلم بأمانته.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقَدْ لِي يَنْهَمُنْ عَلَى الظِّلِّ فَأَجْعَلْ لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (القصص: ٣٨).

(١) البداية والنهاية ج ١ ص ٢٢٧، ٢٢٨.

(٢) الكشف ج ٣ ص ٣٩٠.

أراد فرعون أن يصرف قومه عن دعوة نبي الله موسى لفرعون وقومه بتوحيد الله تعالى وخلع ما يعبد من دونه ، فأمر ببناء الصرح الذي - على زعمه - سوف يطلع من خلاله إلى إله موسى هل هو موجود أم غير موجود ، ولأنها قضية غير عقلية فبدأ بصرف العقول عن التفكير فيها بالاهتمام بمشروع البناء ، ومن هنا ابتدأ أمره بأول أشغال البناء للدلالة على العناية بالشروع من أول أوقات الأمر ، لأن ابتداء البناء يتأخر إلى ما بعد إحضار مواده ، فلذلك أمره بالأخذ في إحضار تلك المواد التي أولها الإيقاد .

﴿ فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (القصص: ٦٦).

تقدم هنا المسند إليه الضمير ﴿ هُمْ ﴾ على الجملة الفعلية ﴿ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴾ ، وهذا التقديم إنما جاء لتقوية الحكم وتأكيد نفي التساؤل بينهم ، والضمير إذا أضمر ثم فسر كان أوكد للمعنى وأقوى للحكم ، ولو قدم الفعل ما استفيد هذا الحكم .

﴿ وَرَبُّكَ خَلَقَ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (القصص: ٦٨).

تقدم خبر كان ﴿ لَهُمُ ﴾ على اسمها ﴿ الْخِيَرَةُ ﴾ ليفيد القصر أي أن الله وحده هو الذي يختار لا أنتم .

﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص: ٧٠)

تقدم الجار والمجرور ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ على متعلقه ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ لإفادة الاختصاص .
﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ (القصص: ٧١، ٧٢).

قال صاحب الدرة : « للسائل أن يسأل عن تقديم الليل على النهار ، وأنه لو قدم النهار هل كان على مقتضى الحكمة . .

والجواب عن ذلك أن يقال : إن نسخ الليل بالنير الأعظم أبلغ في المنافع بما ضمن من المصالح من نسخ النهار بالليل ، ألا ترى أن الجنة نهارها دائم لا ليل معه لأن الليل في دار التكليف للاستراحة والاستعانة بالجمام والراحة على ما يلزم من الكلف المتعبة والمشاق المنصبة ، ودار النعيم يستغنى فيها عن ذلك لأنها مقصورة على نيل المشتهى وعلى ما تلتذ به النفس وتهوى .

فتقديم ذكر الليل لانكشافه عن النهار الذي يمكن من التصرف في المعاش والسعي في المصالح إلى ما لا يحصى كثرة من المنافع المتعلقة بالشمس أحق وأولى^(١).

﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (القصص: ٧٣).

قدم المجرور ﴿ وَمِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ على عامله ﴿ جَعَلَ ﴾ لإظهار المنة بالنعمة .
﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ (القصص: ٨٥).
قال صاحب التحرير : « وفي تقديم جملة ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ على جملة ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى ﴾ إعداد لصلاحية الجملة الثانية للمعنيين المذكورين . فهذا من الدلالة على معاني الكلام بمواقعه وترتيب نظامه وتقديم الجمل عن مواضع تأخيرها لتوفير المعاني^(٢).
﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص: ٨٨).

تقدم المجروران ﴿ لَهُ ﴾ و ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ لإفادة الاختصاص فلا حكم إلا له ولا رجوع إلا إليه ونظيره قوله : ﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ .

(١) درة التنزيل ص ١٩٢ .

(٢) التحرير ج ٢٠ ص ١٩٤ .

سورة العنكبوت

لما دارت سورة القصص عن امتحان الله عز وجل لبني إسرائيل بفرعون من تذيبح أبنائهم واستحياء نسائهم وصبرهم على ذلك ، ثم ذكر سبحانه وتعالى عاقبة أمرهم إلى الفرج والنجاة ثم التمكين في الأرض ، ثم ذكرت السورة ابتلاء نبي الله موسى - عليه السلام - بالقبطي وخروجه من مصر خائفاً ثم كانت عاقبة الخير ثم ابتلاء قارون بماله وافتتانه به وخسف الأرض به ، ثم ذكر أحوال أهل الكفر من معارضة النبي ﷺ وتبشيريه بفتح مكة ظافراً منتصراً ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ (القصص: ٨٥) .

فأعقب سبحانه وتعالى ذلك كله بقوله : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ (العنكبوت: ٢) .

﴿ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ (العنكبوت: ٢١) .

قدم التعذيب في الذكر على الرحمة مع أن رحمته سابقة غضبه كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : {إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه إن ربحني سبقت غضبي} .^(١)

وذلك راجع إلى أن ذكر الكفار هو السابق على هذه الآية فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقه بحكم الإيعاد وعقبه بعد ذلك بالرحمة .

﴿ وَقُرُونِ وَلَفَرَعُونَ وَهَمَنَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴾ (العنكبوت: ٣٩) .

قال الألوسي : « وتقديم قارون لأن المقصود تسلية النبي ﷺ فيما لقي من قومه لحسداهم له ، وقارون كان من قوم موسى - عليه السلام - وقد لقي منه ما لقي ، أو لأن حاله أوفق بحال عاد وثمود لأنه كان أبصر الناس وأعلمهم بالتوراة ولم يفده

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد رقم {٦٨٧٢} وبمعناه في نفس الكتاب برقم {٦٨٩٩} {٦٩٩٩} ومسند أحمد من كتاب باقي مسند المكثرين رقم {٧١٨٧} {٧٢١٥} .

الاستبصار شيئاً كما لم يفدهم كونهم مستبصرين شيئاً ، أو لأن هلاكه كان قبل هلاك فرعون وهامان فتقديمه على وفق الواقع ، أو لأنه أشرف من فرعون وهامان لإيمانه في الظاهر وعلمه بالتوراة وكونه ذا قرابة من موسى - عليه السلام - ، ويكون في تقديمه لذلك في مقام الغضب إشارة إلى أن نحو هذا الشرف لا يفيد شيئاً ولا ينقذ من غضب الله تعالى على الكفر»^(١).

﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّي تُرِيتُكُمْ عَلَى الْأَرْضِ وَاسِعَةٍ فَلْيُحْسِنُوا الْعَمَلُ﴾ (العنكبوت: ٥٦).
تقدم ضمير النصب ﴿إِنِّي﴾ على الجملة الفعلية ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ لإفادة الاختصاص ونظيره تقديم الجار والمجرور ﴿إِلَيْنَا﴾ على متعلقه ﴿تَرْجِعُونَ﴾ في قوله تعالى :
﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٧) ومنه تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى : ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (العنكبوت: ٥٩)

ومن التقديم للاختصاص أيضاً تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾ من قوله تعالى : ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (العنكبوت: ٦٠).

والمعنى أن الله وحده لا غيره هو الذي يرزقها . ونظير هذا التقديم تقديم اسم الجلالة على المسند الفعلي في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (الروم: ١١) ، وتقدم فيها أيضاً الجار والمجرور لإفادة الاختصاص .
﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَو كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٦٤).

تقدم اللهو على اللعب في هذه الآية وعكس هذا التقدم في سورة الأنعام فقال هناك : ﴿إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ (الأنعام: ٣٢) ، قال الرازي عن سر هذا التقديم : «لما كان المذكور هناك - يقصد - آية الأنعام - من قبل الآخرة وإظهارهم للحسرة ، ففي ذلك الوقت يبعد الاستغراق في الدنيا بل نفس الاشتغال بها فأخر الأبعد ، وأما هاهنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهي خداعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها

(١) روح المعاني ج ٢٠ ص ١٥٨ .

والاستغراق فيها اللهم إلا لمانع يمنعه من الاستغراق فيشتغل بها من غير استغراق فيها ، ولعاصم يعصمه فلا يشتغل بها أصلاً ، فكان هاهنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم الله» .^(١)

وقد تقدم اللعب على اللهو في الأنعام في موضعين ، وكذا تقدم في سورة {محمد} و{الحديد} ، وقدم اللهو على اللعب في الأعراف والعنكبوت ، وعن سر هذا التقديم قال الكرماني : « وإنما قدم اللعب في الأكثر ، لأن اللعب زمانه الصبا ، واللهو زمانه الشباب ، وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب ، يبينه ما ذكر في الحديد : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ ﴾ (الحديد: ٢٠) كلعب الصبيان ، {ولهو} كلهو الشبان {وزينة} كزينة النسوان {وتفاخر} كتفاخر الإخوان { وتكاثر} كتكاثر السلطان ..

وقدم اللهو في الأعراف ، لأن ذلك في القيامة ، فذكر على ترتيب ما انقضى ، وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحالتين ، أما العنكبوت فالمراد بذكرها زمان الدنيا ، وأنه سريع الانقضاء ، قليل البقاء : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت: ٦٤) أي : الحياة التي لا أمد لها ، ولا نهاية لأبدا ، بدأ بذكر اللهو لأنه في زمن الشباب ، وهو أكثر من زمان اللعب ، وهو : زمان الصبا» .^(٢)

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٥ ص ٩٢ .

(٢) أسرار التكرار في القرآن ص ١٠٧ ، ١٠٨ .

سورة الروم

لما ذكر الله عز وجل صنيع أهل مكة ومعارضتهم للنبي ﷺ وهم مع ذلك قليلو العدد قد أعطاهم الله الأمن ونفى عنهم طمع الناس ونهبهم وكف أيدي العتاة صوناً لحرمه حيث قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ (العنكبوت: ٦٧)، فلما ذكرهم بهذه النعمة أعقبها في سورة الروم بذكر طائفة هم أكثر قوة وأكثر عدداً وأوسع بلاداً فلم تغن عنهم قوتهم شيئاً ﴿ التَّمَّ ۝ غَلَبَتِ الرُّومُ ۝ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ (الروم: ١-٣).

﴿ فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ (الروم: ١٧).

قدم الإمساء على الإصباح هنا وأخره في قوله : ﴿ وَسَيَحُولُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (الأحزاب: ٤٢)، والجواب أن تقديم الليل على النهار كما هو عادة العرب في الاستعمال وقد مر ذكره، أو أن تقديم المساء هنا لأن قبله ذكر الحشر والإعادة من قوله ﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾ وآخر هذه الآية أيضاً ذكر الحشر والإعادة بقوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ والإمساء آخر فذكر الآخر ليذكر الآخرة .

﴿ تُخْرَجُ الْحَيُّ مِنَ الْمَمِيَّةِ وَيُخْرَجُ الْمَمِيَّةُ مِنَ الْحَيِّ وَفِي الْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (١) وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢) وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣) وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ الْأَلْسِنَتَكُمْ وَالْوَبَاطِخَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ (٤) وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَنَاطِكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٥) وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمُ الْفَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦)

(الروم: ١٩-٢٤)

بدأ أولاً بذكر إخراج الحي من الميت على إخراج الميت من الحي ، لأنه أدل على القدرة وأبين في الإعجاز وما في إعطاء الحياة من المنة والفضل ، ثم ثنى بإحياء الأرض بعد موتها ، لأنها أقل إعجازاً من إحياء الإنسان ، وبدأ أولاً من الآيات بالنشأة الأولى ، وهي خلق الإنسان من تراب ثم كونه بشراً منشراً وهو خلق حي من جماد ، ثم أتبعه أن خلق له من نفسه زوجاً وجعل بينهما تواداً وهذا خلق حي من حي ، فالترتيب هنا ترتيب وجودي ثم بدأ الترتيب في الاستدلال بخلق السموات والأرض المشاهدة للعالم كله وأتبعها بذكر اختلاف الألسن والألوان ، ثم أتبعه بذكر المنام بالليل والنهار ، وقدم الليل لأن أغلب المنام يكون فيه ، ثم ذكر البرق وأنه يرى خوفاً وطمعاً ، وقدم الخوف لأنه أول حالات الشعور التي تعتري الرائي عند رؤيته وقدم البرق على إنزال الماء من السماء لأنه كالمبشر يجيء بين يدي القادم .

وللرازي نكت لطيفة عن سر هذا التقديم قال : « لما ذكر العرضيات التي للأنفس اللازمة والمفارقة ذكر العرضيات التي للآفاق وقال : ﴿ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ وفي الآية مسائل .

إحداها : لما قدم دلائل النفس هاهنا ، قدم العرضيات التي للأنفس وأخر العرضيات التي للآفاق كما أخرج دلائل الآفاق بقوله : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

المسألة الثانية : قدم لوازم الأنفس على العوارض المفارقة حيث ذكر أولاً اختلاف الألسنة والألوان ثم المنام والابتغاء ، وقدم في الآفاق العوارض المفارقة على اللوازم حيث قال : ﴿ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ ﴾ وذلك لأن الإنسان متغير الحال والعوارض له غير بعيدة وأما اللوازم فيه فقريبة ، وأما السموات والأرض فقليلة التغير فالعوارض فيها أغرب من اللوازم ، فقدم ما هو أعجب لكونه أدخل في كونه آية ونزيده بياناً فنقول : الإنسان يتغير حاله بالكبر والصغر والصحة والسقم وله صوت يعرف به لا يتغير وله لون يتميز به عن غيره وهو يتغير في الأحوال وذلك لا يتغير وهو آية عجيبة والسماء والأرض ثابتان لا يتغيران ، ثم يرى في بعض

الأحوال أمطار هاطلة وبروق هائلة والسماء كما كانت والأرض كذلك ، فهو آية دالة على فاعل مختار يديم أمراً مع تغير المحل ويزيل أمراً مع ثبات المحل .

المسألة الثالثة : كما قدم السماء على الأرض قدم ما هو من السماء وهو البرق والمطر على ما هو من الأرض وهو الإنبات والإحياء»^(١).

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الروم: ٢٧)، وفي موضع آخر قال : ﴿ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ ۚ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ فقدم في سورة مريم كلمة ﴿ عَلَىٰ ﴾ التي تأخرت هنا في سورة الروم فما السر في هذا التقديم والتأخير ؟

أقول : الأمر يتعلق بالمعنى وذلك لأن المعنى الذي قاله هناك في سورة مريم أنه هين هو خلق الولد من العجوز وأنه صعب على غيره وليس بهين إلا عليه فقال : ﴿ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ ﴾ يعني لا على غيري ، وأما هاهنا المعنى الذي ذكر أنه هو الإعادة والإعادة على كل مبدئ أهون فقال : ﴿ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ لا على سبيل الحصر ، فالتقديم هناك كان للحصر والاختصاص ، أما هاهنا فكما يقول الألوسي :

« لا معنى للاختصاص كيف والأمر مبني على ما يعقلون من الإعادة أسهل من الابتداء فلو قدمت الصلة لتغير المعنى »^(٢).

﴿ مُبَيِّنَ إِلَيْهِ وَأَتَقْوُهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الروم: ٣١) قدم الأمر بالتقوى هنا على إقامة الصلاة ، لأن التقوى التي هي خوف الله هي التي تجعل للصلاة ثمرتها ، فالصلاة مثل أي عبادة من العبادات لا ثمرة منها إلا إذا كانت عن إيمان بالله وخشوع لعظمته ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة: ٢٧)، وقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَادِعُونَ ﴾ (المؤمنون: ٢٠).

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُبَيِّنِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ (الروم: ٣٣).

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٥ ص ١١٤.

(٢) روح المعاني ج ٢١ ص ٣٧.

تقدم ذكر الضر على ذكر الرحمة لمناسبة ما قبله وهو قوله : ﴿ مِنْ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (الروم: ٣٢).

فالفرقة عذاب وتستوجب العقاب ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ (الأنعام: ٦٥)، بينما تقدم ذكر الرحمة في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ (الروم: ٣٦) للاهتمام بحالتهم عند الرحمة والتي هي محل العبرة .

﴿ فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الروم: ٣٨)، سبقت الإشارة من قبل إلى أن حق ذوي القربى مقدم على غيرهم ، وقد تقدموا هنا للاهتمام ، فحقهم في الصدقة أولى من المسكين وابن السبيل .

قال الألوسي : « وهو السر في تقديم المفعول الثاني على العطف والعدول عن وآت ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم » .^(١)

﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسٍ يَمْلِكُ أَنْ يَمْلِكُهَا ﴾ (الروم: ٤٤، ٤٥).

وقد اعترض أبوحيان على الزمخشري - كما هي عادته دائماً - في دعوى الاختصاص ، حيث يرى أبوحيان أن تقديم الظرف ﴿ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ وتقديم المضاف والمضاف إليه ﴿ فَلَا نَفْسٍ يَمْلِكُ ﴾ إنما هو للاهتمام وأن التخصيص يفهم من آيات آخر ، وليس هناك ما يدعو لنفي الاختصاص ، كما أنه لا تعارض مع الذي ذكره الزمخشري من التقديم للاهتمام وأما قوله رداً على الزمخشري : وأما ما يدعيه من الاختصاص فمفهوم من آي كثيرة في القرآن منها ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

فذلك يؤيد ما ذهب إليه الزمخشري إذ خير ما يفسر به القرآن هو القرآن ولكن لابد من النظر في كل أسلوب بلاغي في ضوء التركيب الذي أوجد فيه .^(٢)

(١) روح المعاني ج ٢١ ص ٤٥.

(٢) البحر المحيط ج ٧ ص ١٧٢ ، الكشاف ج ٣ ص ٤٦٨.

وقد ذهب صاحب التحرير إلى ما ذهب إليه أبو حيان من أن التقديم للاهتمام وللرعاية على الفاصلة لأن قرينة عدم الاختصاص واضحة ، ولست أدري أين الوضوح الذي ادعاه ولماذا لم تخطه يده ؟ .^(١)

والرازي لله دره فما أعظم درره حيث قال عن هذه الآيات : وفيه لطيفة وهي أنه عندما أسند الكفر والإيمان إلى العبد قدم الكافر فقال : ﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴾ وعندما أسند الجزاء لنفسه قدم المؤمن فقال : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾ لأن قوله : ﴿ مَنْ كَفَرَ ﴾ في الحقيقة لمنع الكافر عن الكفر بالوعيد ونهيه عن فعله بالتهديد وقوله : ﴿ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا ﴾ لتحريض المؤمن والتحريض للتقرير والإيعاد مقدم عند الحكيم الرحيم ، وأما عندما ذكر الجزاء بدأ بالإحسان إظهاراً للكرم والرحمة ، فإن قال قائل هذا إنما يصح أن لو كان الذكر في كل موضع كذلك وليس كذلك ، فإن الله في كثير من المواضع قدم إيمان المؤمن على كفر الكافر ، وقدم التعذيب على الإثابة ، . . ونحن نقول : بأن كل كلمة وردت في القرآن فهي لمعنى ، وكل ترتيب وجد فهو لحكمة ، وما ذكر على خلافه لا يكون في درجة ما ورد به القرآن فلنبين من جملته مثلاً وهو قوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِنُونَ ﴾ ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ (الروم: ١٤، ١٥). قدم المؤمن على الكافر ، وهامنا ذكر مثل ذلك المعنى في قوله ﴿ يُومِنُونَ ﴾ يَصْدَعُونَ ﴿ أي يَتَفَرَّقُونَ فقدم الكافر على المؤمن فنقول هناك أيضاً قدم الكافر في الذكر لأنه قال من قبل : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ فذكر الكافر وإبلاسه ثم قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِنُونَ ﴾ فكان ذكر المؤمن وحده لا بد منه ليبين كيفية التفرق بجموع قوله : ﴿ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ وقوله في حق المؤمن : ﴿ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ لكن الله تعالى أعاد ذكر

(١) التحرير والتوير ج ٢١ ص ١١٧ .

المجرمين مرة أخرى للتفصيل فقال : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ (الروم: ١٦) ^(١)
وما ذكره الألوسي في هذه الآية من التقديم والتأخير منقول عن الزمخشري ^(٢) .
﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الروم: ٤٧).

تقدم خبر كان ﴿ حَقًّا ﴾ على اسمها ﴿ نَصْرُ ﴾ للاهتمام به ، ولتطمين قلوب
المؤمنين بإزالة الشك منها في أن الله لا ينصرهم فأفاد التقديم هنا أمرين : الاهتمام
والتطمين .

﴿ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدِيرِينَ ﴾ ﴿ وَمَا أَنْتَ
بِهَادٍ الْعُغْيَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِقَائِلَتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾
(الروم: ٥٢، ٥٣)، الترتيب هنا جاء على وجه البداءة من الأشد صعوبة إلى الأقل
فإرشاد الميت محال والمحال أبعد من الممكن ثم إرشاد الأصم صعب فإنه
لا يسمع الكلام وإنما يفهم ما يفهمه بالإشارة لا غير ، والإفهام بالإشارة صعب ، ثم
إرشاد الأعمى صعب ولكن الأصم أصعب منه .

(١) روح المعاني ج ٢٥ ص ١٣١ .

(٢) روح المعاني ج ٢١ ص ٥١ .

سورة لقمان

لما ختمت الروم بالحث على العلم وهو ما تضمنه هذا الكتاب العظيم ، والأمر بالتمسك بما فيه ومجانبة أهل الاستخفاف ، وكان ذلك هو الحكمة بدأت سورة لقمان بالإشارة إلى وصف الكتاب الحكمة ، ولما كان الإيمان بالبعث هو الحامل على وجوه الخير وأعمال الإيمان ، وكان قد ختم الروم بالإعراض عن الكافرين والمتشككين بقوله : ﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (الروم: ٦٠)، بدأت سورة لقمان بالثناء على أهل اليقين الذين وصفوا بكونهم محسنين بقوله : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ (لقمان: ٤)، ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (لقمان: ٦).

تقديم الجار والمجرور ﴿ مِنْ النَّاسِ ﴾ للتشويق إلى معرفة خبرهم .
﴿ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْ لَدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾ (لقمان: ١٤).

تقدم الجار والمجرور ﴿ إِلَيَّ ﴾ على مبتدئه ﴿ الْمَصِيرِ ﴾ لإفادة الاختصاص ، ونظيره تقدم الجار والمجرور ﴿ إِلَيَّ ﴾ في الآية التالية في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (لقمان: ١٥) ﴿ يَبْنِيْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (لقمان: ١٧).

بدأ نصيحته بالأمر بإقامة الصلاة لأنها أهم فرض بعد الإيمان ، ولما فيها من صلاح نفسه ، لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فإذا قام بحق إقامتها كان فاعلاً للمعروف منتهياً عن المنكر ، وحينئذ يصير أهلاً لأن يأمر غيره وينهاه وتأخر الأمر بالصبر عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لما يجرانه غالباً من الأذى والبلاء فجاء بالصبر متأخراً عنهما لأجل ذلك .

قال البقاعي : «ولما ذكر سبحانه وتعالى ما أوصى به ولده من شكر المنعم الأول الذي لم يشركه في إيجاده أحد ، وذكر ما عليه الشرك من الفطاعة والشناعة والبشاعة أتبعه سبحانه وصيته للولد بالوالد لكونه المنعم الثاني المتفرد سبحانه

بكونه جعله سبب وجود الولد اعترافاً بالحق وإن صغر لأهله وإيذاناً بأنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس ، وتفخيماً لحق الوالدين ، لكونه قرن عقوقهما بالشرك ، وإعلاماً بأن الوفاء شيء واحد متى نقص شيء منه تداعى سائرُه»^(١).

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُولُوا رَبِّكُمْ وَأَحْشَوْا يَوْمًا لَا يَخْزِي وَالِدَ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ (لقمان: ٣٣).

ابتدى بالوالد هنا لأنه أشد شفقة وأعظم رحمة بابه ، فحب الآباء فطري بينما حب الأبناء مكتسب ، أما عند الفرار من الأقرباء والاشتغال بالذات يوم القيامة فقد ذكر الولد ولم يذكر الوالد في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُفْرَأُ لِلرَّءِ مِنْ أَخِيهِ﴾ (٦) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿(عبس: ٣٤، ٣٥) أما في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُدْعَى الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ (١) وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيِّسُ ﴿٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ (المعارج: ١١-١٤).

فذلك لبيان شدة العذاب وأن الكافر يبتدأ بأعز وأغلى قريب له وهم بنوه . ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

(لقمان: ٣٤)

في هذه الآية سؤال بلاغي : أليس إذا قيل إن علم الساعة عند الله أخصر من قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ حيث حذف من الأولى الضمير المضاف إليه وزيد في الثانية ، والبلاغة مبناها على الاختصار؟

أقول : نعم ولكن ليس الأمر كما يبدو من أول وهلة أن الأولى أبلغ من الثانية ، وذلك راجع إلى جملة من الفوائد أثبتت في الآية الكريمة ومنها في هذا المثال المفترض ، من ذلك البداء باسم الله واسمه سبحانه أولى بالابتداء لما له من حق التعظيم والتبجيل وذلك منتف في الصورة الأخرى ، أفاد تقديم اسمه سبحانه وبناء الخبر عليه الحصر والاختصاص الذي أفاد أن علم الساعة وما ذكر بعدها لا يعلمه إلا الله وحده ، كما أفاد تقديم الظرف {عند} الاختصاص أيضاً .

(١) نظم الدرر ج ٦ ص ١٤ .

سورة السجدة

﴿ذَٰلِكَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (السجدة: ٦).

قدم علم الغيب لكونه أعلى ، وللإشارة إلى أن علم الله مطلق لا تحدّه حدود فيستوي لديه القريب والبعيد والظاهر والخفي ، إذ لا قرب ولا بعد ولا خفاء ولا ظهور لأن ذلك إنما يكون للعلم القاصر المحدود ، أما علم الله فهو العلم الكامل المطلق .

قال البقاعي : «ولما قدم علم الغيب لكونه أعلى ، وكان العالم به قد لا يعلم المشهود لكونه لا يبصر قال ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾^(١) .

﴿وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ (السجدة: ١٠)

تقديم الجار والمجرور ﴿بِلِقَاءِ﴾ على الخبر ﴿كَافِرُونَ﴾ للاهتمام والتعظيم والرعاية على الفاصلة .

﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ (السجدة: ١٢).

قال الشعراوي : «هنا قدم الحق مادة الإبصار على مادة السمع ، لأن هول القيامة ساعة يأتي سنرى تغيراً في الكون قبل أن نسمع شيئاً»^(٢) .
﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (السجدة: ٢٧).

قال أبوحيان : «وقدمت الأنعام لأن أول ما ينبت يأكله الأنعام قبل أن يسبل والبرسيم والفصفاصة ، وأمثال ذلك تبادره الأنعام بالأكل قبل أن يأكل بنو آدم حب الزرع ، أو لأنه غذاء الدواب والإنسان قد يتغذى بغيره من حيوان وغيره ، أو بدأ

(١) نظم الدرر ج ٦ ص ٥٢.

(٢) الشعراوي ج ٧ ص ٤٤١٥.

بالأدنى ثم ترقى إلى الأشرف وهو بنو آدم»^(١) وقد يكون التقديم كما أشار إليه الأستاذ عبد الكريم الخطيب بقوله: «وقدمت الأنعام على أصحاب الأنعام دلالة على أنه ليس للناس شيء في تقدير هذا الرزق الذي يسوقه الله إليهم وإلى أنعامهم وإنما هو من عند الله وأن الأنعام والناس سواء في الاحتياج إلى الله ، وأنهم إنما يرزقون كما ترزق الأنعام ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود: ٦٠)^(٢) وقد عكس هذا الترتيب في سورة عبس وسوف يأتي بيانه عند الحديث عنها .

(١) البحر المحيط ج ٧ ص ٢٠٠.

(٢) التفسير القرآني ج ٢١ ص ٦٢٩، ٦٣٠.

سورة الأحزاب

لما ختمت سورة السجدة بقوله : ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ وَأَنْتَظِرُ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿ (السجدة: ٣٠) افتتحت هذه السورة بالنهي عن طاعتهم والإعراض عن أذاهم وعدم الالتفات إليه الذي هو أساس الإعراض بقوله : ﴿ يَتَأَيُّمُ النَّبِيُّ آتِيَ اللَّهِ وَلَا تُلَاحِظْهُ ﴾ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الأحزاب: ١) ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ (الأحزاب: ٧).

ذكر ضمير محمد ﷺ قبل المذكورين من الرسل في هذه الآية إيماء إلى تفضيله عليهم جميعاً ، ثم جعل ترتيب ذكر البقية على ترتيبهم في الوجود .

﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَاحِبَيْهِمْ وَقَدْفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ (الأحزاب: ٢٦).

وعن سبب تقدم ﴿ فَرِيقًا ﴾ مع ﴿ تَقْتُلُونَ ﴾ وتأخرها مع ﴿ وَتَأْسِرُونَ ﴾ يقول الرازي : « والذي يظهر من هذا والله أعلم أن القائل يبدأ بالأهم فالأهم والأعز فالأعز والأقرب فالأقرب ، والرجال كانوا مشهورين فكان القتل وارداً عليهم والأسرى كانوا هم النساء والصغار ولم يكونوا مشهورين والسبي والأسر أظهر من القتل لأنه يبقى فيظهر لكل أحد أنه أسير فقدم من المحلين ما هو أشهر على الفعل القائم به وما هو أشهر من الفعلين قدمه على المحل الأخفى » .^(١)

أقول : وإذا نظرنا في النظم يتبين لنا وجه آخر من وجوه التقديم والتأخير جاء على خلاف ترتيب الأحداث ، حيث إنهم لم ينزلوا من حصونهم ويخرجوا منها مستسلمين إلا بعد أن وقع الرعب في قلوبهم أولاً ، هذا الرعب الذي أسلمهم إلى الهزيمة النفسية فالهزيمة العسكرية حيث خارت القوى الداخلية فخارت قواهم كلها بعد ذلك ، هذا الترتيب الطبيعي في سبب الهزيمة يقابله نفس الترتيب في

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٥ ص ٢٠٥.

سبب النصر الذي نشاهده في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا
 أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾
 (آل عمران: ١٤٧)، حيث تقدم قوله : ﴿ رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا ﴾ من
 باب التخلية عن عوائق الهزيمة والطهارة من أسبابها فإن الذنوب هي السبب
 الأعظم في الهزائم ثم بعد ذلك طلبوا ﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا ﴾ فإذا ثبتت الأقدام بعدم
 الخوف ولزوم القتال والاستبسال والشجاعة نزل النصر ، إذن فلماذا جاء السياق
 على خلاف الواقع مبتدئاً بالنتيجة قبل السبب الموصل إليها ؟

أقول : هذا من باب التقديم للبشارة وإدخال السرور على القلوب ، وكان هو
 الحدث الأهم فهو نتيجة المعركة بدئ بها ثم فصل الأسباب التي أدت إليها ، وقد
 أوجد هذا التقديم التناغم الناشئ عن التجاور بين الكلمتين تقتلون وتأسرون ، وقد
 يكون للترتيب الوجودي فإن الأسر إنما يقع بعد القتل والهزيمة حيث الفرار ومن
 ثم يأتي الأسر ولهذا آخر في الذكر .

ويرى الألوسي أن التقديم في قوله : ﴿ فَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾ للاعتناء بحالهم ولم
 يكن في المأسورين هذا الاعتناء بل الاعتناء هناك بالأسر أشد ، ولو قيل وفريقاً
 تأسرون لربما ظن قبل سماع تأسرون أنه يقال بعد تهزمون أو نحو ذلك .
 ﴿ يَنْبِسَاءُ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ
 وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ ﴿ ٣١ ﴾ * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا
 نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٣٠، ٣١).

بدأت الآية بالتخلية قبل التحلية وحسب القاعدة الأصولية {درء المفسد مقدم
 على جلب المصالح} ، ولذلك بدأت الآية بالنهي عن الفاحشة ثم أتبعها بالأمر
 بالقنوت والطاعة .

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاتِ وَالْقَنَاتِ
 وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ
 وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْخَافِضِينَ وَالْخَافِضَاتِ
 وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا
 عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٣٥).

قال البقاعي : « ولما كان الإسلام مع كونه أكمل الأوصاف وأعلاها يمكن أن يكون بالظاهر فقط ، أتبعه المحقق له وهو إسلام الباطن بالتصديق التام بغاية الإذعان ، فقال عاطفاً له ولما بعده من الأوصاف من كل وصف منها : ﴿ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ولما كان المؤمن المسلم قد لا يكون في أعماله مخلصاً : قال ﴿ وَالْقَنِينَ ﴾ أي المخلصين في إيمانهم وإسلامهم ﴿ وَالْقَنِينَ ﴾ ولما كان القنوت كما يطلق على الإخلاص المقتضي للمداومة قد يطلق على مطلق الطاعة قال : ﴿ وَالصَّادِقِينَ ﴾ في ذلك كله وذلك يقتضي الدوام ، ولما كان الصدق - هو إخلاص القول والعمل عن شوب يلحقه أو شيء يدنس - قد لا يكون دائماً ، قال مشيراً إلى أن ما لا يكون دائماً لا يكون صدقاً في الواقع ﴿ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ ﴾ ولما كان الصبر قد يكون سجية ، دل على صرفه إلى الله بقوله : ﴿ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ ﴾ ولما كان الخشوع - وهو الخضوع والإخبات والسكون - لا يصح مع توفير المال فإنه سيكون إليه ، قال معلماً إنه إذ ذاك لا يكون على حقيقته : ﴿ وَالْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ أي المنفقين أموالهم في رضا الله بغاية الجهد من نفوسهم بما أشار إليه إظهار التاء فرضاً وتطوعاً سراً وعلانية بما أرشد إليه الإظهار أيضاً تصديقاً لخشوعهم ﴿ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ ﴾ .

ولما كان بذل المال قد لا يكون مع الإيثار ، أتبعه ما يعين عليه فقال : ﴿ وَالصَّائِمِينَ ﴾ أي تطوعاً للإيثار بالقوت وغير ذلك ﴿ وَالصَّائِمَاتِ ﴾ ولما كان الصوم يكسر شهوة الفرج وقد يثيرها قال : ﴿ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ ﴾ أي عما لا يحل لهم بالصوم وما أثاره الصوم ﴿ وَالْحَافِظَاتِ ﴾ ولما كان حفظ الفروج وسائر العمال لا تكاد توجد إلا بالذكر وهو الذي فيه المراقبة الموصلة إلى المحاضرة المحققة للمشاهدة بالفناء قال : ﴿ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ ﴾ أي مع استحضار ما له من الكمال بصفات الجلال والجمال ، ﴿ كَثِيراً ﴾ بالقلب واللسان في كل حالة ﴿ وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ ومن علامات الإكثار من الذكر اللهج عند الاستيقاظ من النوم .^(١)

(١) نظم الدرر ج ٦ ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

﴿ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴾ ﴿٤١﴾ وَسَخِرُوهُ بُكَرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾

(الأحزاب: ٤١، ٤٢) التقديم هنا لسبق الوجود لأن ، البكرة أسبق من الأصيل .

قال صاحب التحرير : « وليس الأصيل جديراً بالتقديم في الذكر كما قدم لفظ ﴿ تُمْسُونَ ﴾ في قوله في سورة الروم : ﴿ فَسُبْحَنَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ (الروم: ١٧) ، لأن كلمة المساء تشمل أول الليل فقدم لفظ ﴿ تُمْسُونَ ﴾ هنالك رعيّاً لاعتبار الليل أسبق في حساب أيام الشهر عند العرب وفي الإسلام وليست كذلك كلمة الأصيل .^(١)

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي ءَابَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا أَسْرَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴾ (الأحزاب: ٥٥).

جاء التقديم والتأخير في هذه الآية على ترتيب الأقرب فالأبعد قرابة من النساء ، أي الأبعد عن مظنة الشهوة والافتتان .

قال الرازي : « قدم الآباء لأن اطلاعهم على بناتهم أكثر ، وكيف وهم قد رأوا جميع بدن البنات في حال صغرهن ، ثم الأبناء ثم الإخوة وذلك ظاهر إنما الكلام في بني الإخوة حيث قدمهم الله تعالى على بني الأخوات ، لأن بني الأخوات آبائهم ليسوا بمحارم إنما هم أزواج خالات آبائهم ، وبني الإخوة آبائهم محارم أيضاً ففي بني الأخوات مفسدة ما ، وهي أن الابن ربما يحكي خالته عند أبيه وهو ليس بمحرم ولا كذلك بنو الإخوة »^(٢)

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيٰ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٤٣) ، تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيٰ عَلَيْكُمْ ﴾ لإفادة التقوي وتحقيق الحكم ، والمقصود تحقيق ما تعلق بالفعل ﴿ يُصَلِّيٰ ﴾ من قوله : « ﴿ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ . ﴿ يَتَأْتِيهِمُ النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ (الأحزاب: ٥٥).

(١) التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٤٨.

(٢) مفاتيح الغيب ج ٢٥ ص ٢٢٧.

تقدمت البشارة على النذارة لأن النبي ﷺ غلب عليه التبشير لأنه رحمة للعالمين
ولكثرة عدد المؤمنين في أمته .

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلًا لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأحزاب: ٥٩).

ابتدئ بأزواج النبي ﷺ وبناته لأنهن أكمل النساء وابتدئ بالزوجات لأنهن
الأصل في وجود البنات ، ولا يشترط أن يكون التقديم للفضل .

وللبقاعي رأي آخر لا يخلو من وجاهة قال في قوله : ﴿ لِأَزْوَاجِكَ ﴾ : بدأ بهن
لما لهن من الوصلة بالنكاح ﴿ وَبَنَاتِكَ ﴾ ثنى بهن لما لهن من الوصلة ولهن في
أنفسهم من الشرف ، وأخرهن عن الأزواج لأن أزواجه يكفونه أمرهن^(١) .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا
وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ
وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (الأحزاب: ٧٢، ٧٣).

ذكر الله في الإنسان وصفين الظلم والجهل وذكر من أوصافه وصفين المغفرة
والرحمة فقال : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ أي غفوراً للظلم رحيماً بالجهول
فناسب ترتيب صفتيه سبحانه ما تقدم من صفتي الإنسان .

(١) نظم الدرر ج ٦ ص ١٣٥ .

سورة سبأ

لما ختمت سورة الأحزاب بقوله : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ تَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب: ٧٢).

ابتدأ هذه السورة بذكر أن السموات والأرض وما فيهما إنما هو ملك لله رب العالمين فابتدأ سورة سبأ بقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (سبأ: ١)، حتى لا يظن ظان أن رفض قبول السموات والأرض للأمانة نقص في تمام ملكه بما يفهم خطأ من عدم قبول السموات والأرض للأمانة أنه خارج عن نطاق الربوبية .

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ (سبأ: ٢).

تقدم ما يلج في الأرض على ما يخرج منها تقديماً وجودياً ، حيث إن الولوج هو السابق على الإخراج ، فينزل فيها الماء ، وتبذر فيها البذور ، وينزل فيها الحديد من الشهب المتساقطة ثم يخرج كل بعد ذلك ، وهذا الذي ينزل كله من آثار الرحمة وكذلك ينزل من السماء الوحي الذي هو رحمة ثم يصعد إليها أعمال العباد السيئة والتي تقابل من الله بالمغفرة ، ولذا جاءت الصفتان على ترتيب ذكر قبلهما من حيث الولوج والإخراج وتقدم الرحمة على المغفرة .

وهنا سبب آخر لتقدم الرحمة على المغفرة ، وهو التقديم للعموم ، فالرحمة تشمل الجميع والمغفرة تخص بعضاً ، والعموم قبل الخصوص بالترتبة ، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغُرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (سبأ: ٣) قال صاحب درة التنزيل : « و قال بعده في هذه السورة :

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْثِقَالِ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ (سبا: ٢٢)
 وقال في سورة يونس : ﴿ إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

(يونس: ٦١)

للسائل أن يسأل عن تقديم السموات على الأرض في الموضعين من سورة سبا ، وعن تقديم الأرض على السماء في سورة يونس ، . . . والجواب عنه أن يقال إنما قدم ذكر السموات على الأرض في سورة سبا لأن هذه الآية مبنية على مفتتح السورة وهو ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ (سبا: ١) ، فقدم ذكر السموات لأن ملكها أعظم شأنًا وأكبر سلطانًا ، وكذلك الآية التي بعدها في نفس السورة . . . وأما التي في سورة يونس فإنها جاءت عقيب قوله : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ فكان القصد إلى ذكر علمه بما يتصرف فيه العباد من خير أو شر وذلك في الأرض فأتبعه بقوله : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ واستوعب جميع ما في الأرض ثم أتبعه بذكر السماء لأن الابتداء وقع بما يتعلق بها ، وما يعمل العباد فيها ، فلذلك قدمت الأرض عليها. ^(١)

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ ﴾ (سبا: ١٣).

قال أبو حيان : «وقدمت المحاريب على التماثيل ، لأن النقوش تكون في الأبنية ، وقدم الجفان على القدور ، لأن القدور آلة الطبخ ، والجفان آلة الأكل والطبخ قبل الأكل . وقد ذهب الرازي والباقعي والألوسي إلى ما ذكره أبو حيان وزاد الرازي

(١) درة التنزيل ص ٢١٥ .

وأفاد قال: «لما بين الأبنية الملكية أراد بيان عظمة السماط الذي يمد في تلك الدور، وأشار إلى الجفان لأنها تكون فيه، وأما القدور فلا تكون فيه، ولا تحضر هناك، ولهذا قال: ﴿رَأْسَيْتَ﴾ أي غير منقولات، ثم لما بين حال الجفان العظيمة، كان يقع في النفس أن الطعام الذي يكون فيها في أي شيء يطبخ، فأشار إلى القدور المناسبة للجفان»^(١).

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سبأ: ١٣).

تقدم الخبر ﴿قَلِيلٌ﴾ على المبتدأ ﴿الشَّكُورُ﴾ للاهتمام ببيان الكم وليس النوع، مع ما فيه من مدح لهذا القليل.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ: ٢٨)، هنا تقدم الحال ﴿كَافَّةً﴾ على صاحبه ﴿لِّلنَّاسِ﴾ ذهب ابن عطية إلى أن التقديم هنا للاهتمام، وفي تقديم الحال على صاحبها خلاف معروف بين النحويين، فهذا الإعراب على قول من يجيز ذلك، وهذا الاهتمام الذي ذكره ابن عطية هو الاهتمام بوصول الهداية للناس جميعاً ومنه قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧) ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنُحْنُ صَدَدْتَنكُمْ عَنِ الْهَدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُّجْرِمِينَ﴾ (سبأ: ٣٢)، تقدم المسند إليه على المسند الفعلي في سياق الاستفهام الإنكاري الذي هو في قوة النفي بل أشد في قوله ﴿أَنُحْنُ صَدَدْتَنكُمْ﴾ ليفيد تخصيص المسند إليه بالخبر الفعلي.

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ (سبأ: ٣٥)، قدموا الأموال لأن الاعتزاز بها أكثر وقلوب الخلق بها أعظم فخراً، وقد يكون التقديم على ما ذكره البقاعي من أن التقديم للسببية لأن المال به يتزوج الرجال من النساء.^(٢)

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْتُولًا ۚ إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُونَ﴾

(سبأ: ٤٠)

(١) البحر المحيط ج ٧ ص ٢٥٥، مفاتيح الغيب ج ٢٥ ص ٢٤٩، روح المعاني ج ٢٢ ص ١٢٠.

(٢) نظم الدرر ج ٦ ص ١٨٥.

يرى أبو حيان أن تقديم المفعول ﴿إِيَّاكُمْ﴾ على الفعل ﴿يَعْبُدُونَ﴾ لأنه أبلغ في الخطاب ولكون يعبدون فاصلة . (١)

وأرى أن التقديم هنا للاعتناء والاهتمام ببراءة الملائكة التي جاء السؤال من أجلها وليس من أجل العبادة ذاتها ، ولذا كان الجواب بتقديم التنزيه لله رب العالمين أن يكونوا قد أشركوا أنفسهم مع عبادته بقولهم : ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْتَا مِنْ دُونِهِمْ﴾ برؤوا أنفسهم مما نسب إليهم بعد ذلك في قوله : ﴿قَالُوا سُبْحَنَكَ أَنْتَ وَلَيْتَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (سبا: ٤١)

﴿فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (سبا: ٤٢).

وقدم الظرف ﴿فَالْيَوْمَ﴾ على عامله لأن النفع والضرر يومئذ قد اختصا برب العالمين بخلاف ما كان عليه الخلق في الدنيا من نفع بعضهم بعضاً وإضرار بعضهم بعضاً كما في قوله تعالى : ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ لانتهاء الملك يومئذ إلا لله . وتقدم النفع على الضرر لأنه المقصود الأول حيث كان كل رجائهم في النجاة من العذاب بأن تنالهم شفاعة الشركاء فجاء التأيس من ذلك بتقديم نفي النفع ، وكذلك تقدم المجرور ﴿بِهَا﴾ على متعلقه ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ للتبكيك والاهتمام لتعظيم حسرتهم .

(١) البحر المحيط ج ٧ ص ٢٧٣.

سورة فاطر

قال صاحب نظم الدرر فيما نقله عن الإمام أبي جعفر بن الزبير : « لما أوضحت سورة سبأ أنه سبحانه مالك السموات والأرض ، ومستحق الحمد في الدنيا والآخرة ، أوضحت هذه السورة أن ذلك خلقه كما هو ملكه ، وأنه الأهل للحمد والمستحق إذ الكل خلقه وملكه ولأن السورة الأولى تجردت لتعريف العباد بأن الكل ملكه وخلقها دارت آياتها على تعريف عظيم ملكه ، فقد أعطي داود وسليمان - عليهما السلام - ما هو كالنقطة من البحار الزاخرة . . فتجردت سورة سبأ لتعريف العباد بعظيم ملكه سبحانه ، وتجردت هذه الأخرى للتعريف بالاختراع والخلق » .^(١)

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مِّثْنَىٰ وَتِلْكَ وَرُزْنٌ يُزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فاطر: ١)، وهذا الذي سماه الزركشي التقديم بالذات . أي ذات العدد الأقل لأن العدد الأقل أسبق بذاته من العدد الأكبر ﴿ مِثْنَىٰ وَتِلْكَ وَرُزْنٌ ﴾ (فاطر: ١).

وأقول : وقد يكون أيضاً التقديم للترقي إلى الأفضل ولذا كان جبريل وهو من أفضل الملائكة أكثر أجنحة فقد رآه النبي ﷺ في ليلة المعراج وله ستمائة جناح . ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ ﴾ (فاطر: ٦) وتقديم ﴿ لَكُفْرٌ ﴾ على متعلقه ﴿ عَدُوٌّ ﴾ للاهتمام بعداوته والانتباه له وعدم التغافل عن عداوته . ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (فاطر: ١٠).

تقديم الجار والمجرور ﴿ إِلَيْهِ ﴾ للاختصاص فلا ترفع الأعمال إلا إلى الله ليثيب عليها ويجازي بها ليفيد أن كل ما يقدم من عمل صالح وكلم طيب لغير الله فلا ثواب عليه ولا فائدة منه ، وليس تقدم الكلم على العمل لفضله عليه بل لأنه وسيلة إليه والدليل على ذلك تغيير المساق ، ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ حيث يتولى هو سبحانه رفع العمل لصاحبه .

(١) نظم الدرر ج ٦ ص ٢٠١.

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَاجِرَ لِيَتَبَتَّغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (فاطر: ١٢).

قال صاحب التحرير: «وتقديم الظرف في قوله: ﴿ فِيهِ مَوَاجِرَ ﴾ على عكس آية سورة النحل - يقصد قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِيَتَبَتَّغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ١٤)، لأن هذه الآية مسوقة مساق الاستدلال على دقيق صنع الله تعالى في المخلوقات وأدمج فيه الامتنان بقوله: ﴿ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً ﴾ وقوله: ﴿ وَلِيَتَبَتَّغُوا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فكان المقصد الأول من سياقها الاستدلال على عظيم الصنع: فهو الأهم هنا. ولما كان طفو الفلك على الماء حتى لا يغرق فيه أظهر في الاستدلال على عظيم الصنع من الذي ذكر من النعمة والامتنان قدم ما يدل عليه وهو الظرفية في البحر»^(١).

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ (فاطر: ١٩-٢٢).

قال أبوحيان: «وقدم الأشرف في مثلين وهو الظل والحر وآخر في مثلين وهما البصير والنور، ولا يقال لأجل السجع، لأن معجزة القرآن ليست في مجرد اللفظ بل فيه وفي المعنى، والشاعر قد يقدم ويؤخر لأجل السجع والقرآن المعنى صحيح واللفظ فصيح، وكانوا قبل المبعث في ضلالة فكانوا كالعمى وطريقهم الظلمة، فلما جاء الرسول واهتدى به قوم صاروا بصيرين وطريقهم النور، وقدم ما كان متقدما من المتصف بالكفر وطريقته على ما كان متأخرا من المتصف بالإيمان وطريقته، - وهو يعني هنا التقدم بسبق الوجود - ثم لما ذكر المآل والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب كما جاء {سبقت رحمتي غضبي} فقدم الظل على الحرور، ثم إن الكافر المصر بعد البعثة صار أضل من العمى وشابه الأموات في عدم إدراك الحق فقال: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ ﴾ الذين آمنوا بما أنزل الله ﴿ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ الذين تليت عليهم الآيات البينات ولم ينتفعوا

(١) التحرير والتوير ج ٢٢ ص ٢٨٠.

بها ، وهؤلاء كانوا بعد إيمان من آمن فأخروهم لوجود حياة المؤمنين قبل ممات الكافر . ومن يقرأ ما قاله الرازي في هذه الآية يبدو له نقل أبي حيان عنه واضحاً^(١).

بينما يرى صاحب التحرير : « أن الغرض الأهم من التقديم هو تفضيع حال الكافر ثم الانتقال إلى حسن حال ضده لأن هذا التشبيه جاء لإيضاح ما أفاده القصر في قوله : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴾ ويرى أن تقديم حال المؤمنين في قوله : ﴿ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿ لأجل الرعاية على الفاصلة^(٢) .

قال الألوسي : « وقدم الأعمى على البصير مع أن البصير أشرف لأنه إشارة إلى الكافر وهو موجود قبل البعثه والدعوة إلى الإيمان ، ولنحو هذا قدم الظلمات على النور فإن الباطل كان موجوداً فدمغه الحق ببعثته عليه الصلاة والسلام ، ولم يقدم الحرور على الظل ليكون على طراز ما سبق لمناسبته للعمى والظلمة من وجه أو لسبق الرحمة مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة ، وقدم الأحياء على الأموات ولم يعكس الأمر ليوافق الأولين في تقديم غير الشرف لأن الأحياء إشارة إلى المؤمنين بعد الدعوة والأموات إشارة إلى المصرين على الكفر بعدها ولذا قيل بعد ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴾ إلخ ، ووجود المصرين بوصف الإصرار بعد وجود المؤمنين وقيل قدم ما قدم فيما عدا الأخير لأنه عدم وله مرتبة السبق وفي الأخير لأن المراد بالأموات فاقدوا الحياة بعد الاتصاف بها كما يشعر به أراد بذلك بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴾ فيكون للحياة مع أنها وجودية رتبة السبق أيضاً ، وقيل : إن تقديم غير أشرف على الأشرف مع انفهام أنه غير أشرف للإشارة إلى أن التقديم صورة لا يخل بشرف الأشرف .

فَالنَّارُ يَعْلُوهَا الدُّخَانُ وَرَبَّمَا يعلو الغبارُ عمائمُ الفُرسان^(٣)

وللأستاذ عبد الكريم تعليق وجيه على ترتيب هذه الأمثلة قال : « وثانيهما : تقديم الظل على الحرور والأحياء على الأموات وكان النظم يقضي بتقديم الحرور

(١) البحر المحيط ج ٧ ص ٢٩٥ ، مفاتيح الغيب ج ٢٦ ص ١٧ .

(٢) التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ١٨٧ .

(٣) روح المعاني ج ٢٢ ص ١٨٧ .

على الظل والأموات على الأحياء لتتسق ألوان الصورة كلها فيكون الأسود المعتم {الاعمى والظلمات والحرور والأموات} في جانب والأبيض المشرق {البصير والنور والأحياء والظل} في جانب فما حكمة هذا ؟

نقول والله أعلم إن الجواب على هذا من وجهين :

أولاً : أن الظل هو نعمة في مقابلة الحرور وكذلك الحياة نعمة في مقابلة الموت . . فقدمت هنا نعمتان على حين قدمت قبلهما آفتان هما العمى والظلمات وفي هذا التوزيع توازن لألوان الصورة حيث جاءت هكذا :
آفتان تقابل نعمتين العمى والبصر والظلام والنور . ونعمتان تقابل آفتين الظل والحرور والحياة والموت .

وثانيا : أن الأصل في نفي الاستواء - وهو التوازن بين الشئين - أن يقع أولاً على الناقص منهما فيقدم المفضل على الفاضل كما في قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴾ (الحشر: ٢٠)، وقوله سبحانه : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَزَا أُولَى الْقَصْرِ وَالْجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ (النساء: ٩٥).

هذا هو الاستعمال في أصل اللغة فإذا خرج الاستعمال عن هذا الأصل كان ذلك لغاية يراد بها كما في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩)، وذلك حين لا يكون المراد هو تقوي حكم في المفاضلة بين أمرين ، وإنما المراد هو الإلفات إلى أن الأمور ليست على وجه واحد وإنما لكل أمر وجهان وجه وضد لهذا الوجه مثل : الوجود والعدم ، والحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والنور والظلام ، والظل والحر ، والعذب والملح ، وهكذا ، والمطلوب من الخصم أن يعترف به هنا هو أن الشيء الذي يمسك به ليس هو كل الشيء وإنما يقابله نقيضه الذي يجب أن ينظر فيه ويقابل الوجه الذي معه على الوجه الآخر لهذا الشيء . .

فإذا كان المشركون يمسكون بالشرك ولا يرون أن هناك معتقداً غيره فليعلموا أن هناك وجهاً آخر لا بد أن يقابل هذا الشرك دون التفات إلى أيهما الفاضل وأيهما المفضل ، إن الأمور لا تكون إلا على هذا الازدواج الشيء وضده ، وليس

الشرك الذي بين أيديهم بدءاً من الأشياء فليبحثوا عن الوجه الآخر المقابل له وهو الإيمان

وقد جاء الأمران الأولان على الأصل فقدم فيهما المفضل على الفاضل على حين جاء الأمران الآخران على غير الأصل فقدم فيهما الفاضل على المفضل ، وبهذا أخذ كل من الفاضل والمفضل مكانه في الصورة على قدم المساواة لأن الأمر - كما قلنا - لم يكن يراد منه المفاضلة وإنما المراد هو إثبات تلك الحقيقة التي لا خلاف عليها وهي الازدواج في الأشياء والتقابل بين الشيء وضده . .

وفي مجيء المقطع الأول من الصورة على أصل الوضع في اللغة الذي يتفق مع مجرى التفكير وذلك بتقديم المفضل على الفاضل في مقام المفاضلة والموازنة بينهما في هذا التقاء مع المشركين على أمر لا خلاف عليه بين مؤمن وغير مؤمن ، وهذا من شأنه ألا يصدم تفكيرهم ولا يخرج بهم عن مألفهم ، الأمر الذي يدعوهم إلى الاستماع إلى هذا الذي يعرض عليهم ، وإلى النظر فيه . .

فإذا وقع مقطع هذا الحديث من أنفسهم هذا الموقع واجههم المقطع الآخر من الصورة ، وهو ما قد انقلب فيه الوضع وانعكست فيه مواقع الأمور ، فقدم ما حقه التأخير وأخر ما حقه التأخير وفي هذا إشارة إلى أمرين :

أولهما : أن المشركين قد انعكست في أنفسهم حقائق الأشياء وأنهم إنما ينظرون إلى الأمور وهم في وضع منكوس ، وأنهم لو اعتدلوا في وضعهم لرأوا هذا المقطع من الصورة على حقيقته . وإنهم يعيشون في الحرور ويحسبون الظل وهم أموات ويحسبون أنهم أحياء ، هذا وضعهم فإذا شكوا في هذا فلينظروا في الصورة التي بين أيديهم وسيرون أن الحرور أفضل من الظل ، وأن الميت أكثر حياة من الحي وبهذا ينكشف لهم الوضع المقلوب الذي ينظرون فيه إلى الأشياء . .

وثانيهما : أنهم لو أرادوا أن يقيموا الصورة كلها على وضع سليم لكان عليهم أن يغيروا بأيديهم هذا الوضع الذي أخذه المقطع الثاني من الصورة وأن يجعلوه موافقاً للوضع الأول فيقدموا الحرور على الظل والأموات على الأحياء ، وبهذا يكون الحكم على المطلوب صادراً منهم فتجيء الصورة العامة هكذا {وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الحرور ولا الظل ولا الأموات ولا الأحياء} إنها عملية تدعو إلى تحريك العقل وإلى أن يعمل عملاً جاداً على تسوية هذه

المتناقضات فإذا اتجهت عقولهم إلى هذا الاتجاه ، كان من طبيعة الأمور ألا ترضى عقولهم بهذه المتناقضات التي تقوم في كيانهم حيث يؤثرون الضلال على الهدى والكفر على الإيمان . . وهكذا تجيء آيات الله بهذه الإيحاءات النفسية التي تدخل العقل في رفق ولطف إلى مواطن الهدى ومواقع الخير»^(١).

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۚ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْوَانٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ۚ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾

(فاطر: ٢٧، ٢٨)

سبق القول في الفصل الرابع : بأنه إذا دخلت [إنما] على الجملة الفعلية أفادت الاختصاص للمؤخر من الفاعل أو المفعول ، فتقديم اسم الله تعالى كما يقول الجرجاني : « إنما من أجل أن يبين الخاشون من هم ويخبر بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم ، ولو أخر ذكر اسمه الله وقدم العلماء فقليل إنما يخشى العلماء من الله لصار المعنى على ضد ما هو عليه الآن ، ولصار الغرض بيان المخشي من هو والإخبار بأنه تعالى دون غيره ، ولم يجب حينئذ أن تكون الخشية من الله تعالى مقصورة على العلماء ، وأن يكونوا مخصوصين بها كما هو الغرض في الآية ، ولا اللفظ بمحتمل له البتة ، ومن أجاز حملها عليه فقد أبطل فائدة التقديم ، وسوى بين قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ وبين أن يقال : إنما يخشى العلماء من الله .

قال صاحب التحرير : « وقدم الاعتبار باختلاف أحوال الثمرات لأن في اختلافها سعة تشبه سعة اختلاف الناس في المنافع والمدارك والعقائد . وفي الحديث { مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها }^(٢) ...

(١) التفسير القرآني ج ٢٢ ص ٨٧٢-٨٧٥.

(٢) البخاري كتاب فضائل القرآن حديث رقم {٤٦٣٢}.

فالغريب يدل على أشد من معنى أسود فكان مقتضى الظاهر أن يكون ﴿غَرَابِيبُ﴾ متأخراً عن ﴿سُودٌ﴾ لأن الغالب أنهم يقولون : أسود غريب ، كما يقولون : أبيض يقق وأصفر فاقع وأحمر قان ، ولا يقولون : غريب أسود وإنما خولف ذلك للرعاية على الفواصل المبنية على الواو والياء الساكنتين ابتداء من قوله : ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ .^(١)

قال الزمخشري في قوله ﴿إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ : فإن قلت : هل يختلف المعنى إذا قدم المفعول في هذا الكلام أو آخر ؟ قلت لا بد من ذلك فإنك إذا قدمت اسم الله وأخرت العلماء كان المعنى إن الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم ، وإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله كقوله تعالى : ﴿وَلَا تَخْشَوْنَ أَحَدًا﴾ (الأحزاب: ٣٩) وهما معنيان مختلفان^(٢).

وقال الرازي : «وكان الله تعالى قسم دلائل الخلق في العالم الذي نحن فيه وهو عالم المركبات قسمين : حيوان وغير حيوان ، وغير الحيوان إما نبات وإما معدن والنبات أشرف وأشار إليه بقوله : ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ ثَمَرَاتٍ﴾ ثم ذكر المعدن بقوله : ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ﴾ ثم ذكر الحيوان وبدأ بالأشرف منها وهو الإنسان ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ ثم ذكر الدواب» .^(٣)

أقول : وهنا تقديم آخر لم يذكره هاهنا وهو تقديم لفظ الجلالة الذي هو فاعل في الحقيقة على فعله في قوله : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ﴾ وذلك للفت الأذهان بالقول إلى الفاعل الأعظم والمدبر الحكيم الذي قدرته وراء تلك كل الأشياء .

قال البقاعي : «ولما ذكر تنوع ما عن الماء وقدمه لأنه في التلوين كما أنه الأصل في التكوين أتبعه التلوين عن التراب الذي هو أيضاً شيء واحد فقال ذاكرة ما هو أصلب الأرض وأبعدا عن قابلية التأثر وأبعدا عن قابلية التأثر وقطعه عن الأول لأن الماء لا تأثير له فيه ... ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ وهي من الأرض وهي واحدة ولما قدم ما كان مستغرباً في ألوان الأرض لأنه على غير لونه الأصلي ، أتبعه ما هو

(١) التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٠٢، ٣٠١.

(٢) الكشف ج ٣ ص ٥٩٣.

(٣) مفاتيح الغيب ج ٢٦ ص ٢١.

أقرب إلى الغبرة التي هي أصل لونها ، ولما كانت مادة {غرب} تدور على الخفاء الذي يلزمه الغموض أخذاً من غروب الشمس ، ويلزم منه السواد ، ولذلك يؤكد الأسود بغريب مبالغة الغرب كفرح أي السود للمبالغة في سواده ، وكان المقصود الوصف بغاية السواد مخالفة لغيره قال تعالى عاطفاً على بيض : ﴿ وَغَرَابِيبُ ﴾ أي من الجدد أيضاً ﴿ سُودٌ ﴾ فقدم التأكيد لدلالة السياق على أن أصل العبارة {وسود غرابيب سود} فأضمر الأول ليتقدم على المؤكد لأنه تابع ودل عليه بالثاني ليكون مبالغاً في تأكيده غاية المبالغة بالإظهار بعد الإضمار وهو معنى قول ابن عباس رضي الله عنه أشد سواد الغرابيب ^(١) . رواه عنه البخاري .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴾ (فاطر: ٢٩).

تقدم السر على العلانية إشارة لفضله لكونه أبعد عن الرياء وأقرب إلى الإخلاص .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا^١ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْذَنَ اللَّهُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (فاطر: ٣٢) .
قال الزمخشري : «فإن قلت لم قدم الظالم ؟ ثم المقتصد ثم السابق ؟ قلت : للإيدان بكثرة الفاسقين وغلبتهم ، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل» ^(٢) .

وهناك رأي وجيه لصاحب التحرير وهو أن تقديم الظالم لنفسه لدفع توهم حرمانه من الجنة وتعجيلاً لمسرته ^(٣) .

وفي تأخير السابقين معنى آخر جميل أشار إليه البقاعي بقوله : «وختم بالسابقين لأنه الخلاصة ، وليكونوا أقرب إلى الجنات وهو قوله تعالى : ^(٤) ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (فاطر: ٣٣)

(١) نظم الدرر ج ٦ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ .

(٢) الكشف ج ٣ ص ٥٩٥ .

(٣) التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣١٢ .

(٤) التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣١٢ .

قال الرازي : « تقديم الفاعل على الفعل وتأخير المفعول عنه موافق لترتيب المعنى إذا كان المفعول حقيقياً كقولنا : { الله خلق السموات } وقول القائل : زيد بنى الجدار فإن الله موجود قبل كل شيء ، ثم له فعل وهو الخلق ، ثم حصل به المفعول وهو السموات ، وكذلك قبل البناء ثم الجدار من بنائه ، وإذا لم يكن المفعول حقيقياً كقولنا : زيد دخل الدار وضرب عمراً فإن الدار في الحقيقة ليس مفعولاً للداخل وإنما فعل من أفعاله تحقق بالنسبة إلى الدار ، وكذلك عمرو فعل من أفعال زيد تعلق به فسمى مفعولاً لا يحصل هذا الترتيب ، ولكن الأصل تقديم الفاعل على المفعول ولهذا يعاد المفعول المقدم بالضمير تقول : عمراً ضربه زيد فتوقعه بعد الفعل بالهاء العائدة إليه وحينئذ يطول الكلام فلا يختاره الحكيم إلا لفائدة ، فما الفائدة في تقديم الجنات على الفعل الذي هو الدخول وإعادة ذكره بالهاء في يدخلونها وما الفرق بين هذا وقول القائل يدخلون جنات عدن ؟ نقول : السامع إذا علم أن له مدخلاً من المداخل وله دخول ولم يعلم عين المدخل فإذا قيل له أن تدخل فإلى أن يسمع الدار أو السوق يبقى متعلق القلب بأنه في أي المداخل يكون فإذا قيل له دار زيد تدخلها فبذكر الدار ، يعلم مدخله وبما عنده من العلم السابق بأن له دخولاً يعلم الدخول فلا يبقى له توقف ولا سيما الجنة والنار فإن بين المدخلين بوناً بعيداً^(١) .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ (فاطر: ٣٦).

تقدم الجار والمجرور هنا لعلتين : الأولى : هو التشويق لمعرفة ما لهم فيتمكن في النفوس ذكر المسند إليه . الثاني : هو تحقق كون العذاب لهم لا لغيرهم فيفيد التأكيد .

(١) نظم الدرر ج ٦ ص ٢٢٦ .

سورة يس

لما تقدم في سورة فاطر أنه سبحانه وتعالى الملك الأعلى لما ثبت له من تمام القدرة وشمول العلم ، وكان من أجل ثمرات الملك إرسال الرسل إلى الرعايا بأوامره ونواهييه جاءت سورة يس بإثبات تلك الرسالة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ ولما جاء في سورة فاطر من الآيات الباهرات الدالة على توحيد الله وعظيم ملكه جاءت سورة يس بذكر من اصطفاه الله لتبليغ تلك الآيات وإيضاح تلك البينات .

﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (يس:٧) تقدم المسند إليه ﴿ هُمُ ﴾ على الجملة الفعلية ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ من أجل تقوية الحكم وتوكيده والضمير إذا أضمر ثم فسر كان أفخم في الذكر وأحسن في إثبات التوكيد وأبعد عن التشكيك ، فتقديم الضمير هنا جاء من أجل تأكيد نفي الإيمان عنهم .

﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴾ (يس:١٤)، تقدم الجار والمجرور ﴿ إِلَيْكُم ﴾ على متعلقه ﴿ مُّرْسَلُونَ ﴾ لبيان الاعتناء بهم أي من أجلكم لا من أجل غيركم ، وفيه أيضاً معنى الاختصاص ويؤيد ذلك ما رواه البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : { أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً وأبما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعث إلى الناس وأعطيت الشفاعة عامة }^(١)

﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَنْقُومِ آتِيعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ (يس:٢٠). قال صاحب درة التنزيل : « وقال في سورة القصص : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّ أَلَمَاءًا يَأْتِمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (القصص:٢٠)، للسائل أن يسأل عن تقديم قوله :

(١) صحيح البخاري باب الصلاة حديث رقم {٤١٩}.

﴿ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ على ﴿ رَجُلٌ ﴾ الذي هو الفاعل في سورة يس وتأخيره في السورة التي قبلها .

الجواب أن يقال : إن الفاعل في الموضعين لما كان نكرة والمعنى جاء جاء ، وقد دل الفعل على جاء ، ولا يكون الجائي من أقصى المدينة في الأعم الأغلب إلا رجلاً ، وكان الذي يفيد المخاطب أن يعرف أنه جاء من مكان بعيد إلى مجتمع الناس في القرية وحيث لا يقرب من مجاري القصة ولا يحضر موضع الدعوة ومشهد المعجزة ، فقدم ما تبكىت القوم به أعظم والتعجب منه أكثر ، فقال : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ ينصح لهم ما لا ينصحون مثله لأنفسهم ولا ينصح لهم أقربهم مع أنه لم يحضر جميع ما يحضرونه ولم يشهد من كلام الأنبياء ما يشهدونه ، فحثهم على اتباع الرسل المبعوثين إليهم وقبول ما يأتون به من عند مرسلهم . . . وأما الآية الأولى من سورة القصص فإن المراد جاء من لا يعرفه موسى من مكان لم يكن مجاوراً لمكانه ، فأعلمه ما فيه الكفار من ائتمارهم به فاستوى حكم الفاعل والمكان الذي جاء منه ، فقدم ما أصله التقديم وهو الفاعل إذ لم يكن هنا تبكىت للقوم بكونه من أقصا المدينة كما كان ذلك في الآية المتقدمة»^(١).

وذكر الزركشي أن التقديم هنا للتبكي والتعجب ، قال : «توبيخ لأهل المدينة الكافرين والمعرضين مع قربهم من الرسالة والدعوة وحصول الإيمان من ساكني الأطراف»^(٢).

قال صاحب التحرير : «وفائدة ذكر أنه جاء من أقصا المدينة الإشارة إلى أن الإيمان بالله ظهر في أهل ربض المدينة قبل ظهوره في الإنصاف والنظر في صحة ما يدعوههم إليهم الرسل ، وعامة سكانها تبع لعظماؤها لتعلقهم بهم وخشيتهم بأسهم بخلاف سكان أطراف المدينة فهم أقرب إلى الاستقلال بالنظر وقلة اكتراث بالآخرين لأن سكان الأطراف غالبهم عملة أنفسهم لقربهم من البدو وبهذا يظهر

(١) درة التنزيل ص ٢١٩.

(٢) البرهان ج ٣ ص ٢٧٦.

وجه تقديم ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ على ﴿رَجُلٌ﴾ للاهتمام بالشاء على أهل أقصى المدينة ، وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط ، وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء لأنهم لا يصدّهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة .

قال أبو تمام :

كانت هي الوسط المحصّي فأتصلت بها الحوادث حتى أصبحت طرفاً^(١)
وأما قوله تعالى : في سورة القصص ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ فجاء النظم على الترتيب الأصلي إذ لا داعي إلى التقديم إذ كان ذلك الرجل ناصحاً ولم يكن داعياً للإيمان .^(٢)

﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (يس: ٢١).

قدم عدم سؤال الأجر على الاهتداء مع أن الاهتداء هو بغية المرسلين لحكمة الإقناع للوصول إلى الاهتداء بقطع العوارض الصارفة عنه وهي هنا ظن سوء بالمرسلين أنهم أرادوا بدعوتهم أجراً أو نفعاً دنيوياً .

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ (يس: ٤٠).

تقدم حرف النفي ﴿لَا﴾ على قوله ﴿الشَّمْسُ يَنْبَغِي﴾ لتمكين النفي وتقريره في ذهن السامع فيكون أقوى من قوله : الشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر .

﴿وَلَنْ نُفَرِّقَهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ﴾ (يس: ٤٣).

تقديم المسند إليه ﴿هُم﴾ على المسند الفعلي ﴿يُنْقَذُونَ﴾ لتأكيد نفي الإنقاذ عنهم مما سوى الله وكذلك ما فيه من رعاية الفاصلة .

﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

(يس: ٦٥). أثبت الكلام للأيدي أولاً لأنها كانت هي المباشرة للعمل وأثبت الشهادة للأرجل ثانياً والإقرار مقدم على الشهادة .

(١) ديوان أبي تمام ص ١٩٢ من قصيد يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي .

(٢) التحرير والتنوير ج ٢٢ ص ٣٦٦ .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ
نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾

(يس: ٦٦، ٦٧)

قال الرازي : « قدم الطمس والإعماء على المسخ والإعجاز ليكون الكلام مدرجاً
كأنه قال إن أعماهم لم ير الطريق الذي هم عليه وحينئذ لا يهتدون إليه ، فإن قال
قائل : الأعمى قد يهتدي إلى الطريق بأمارات عقلية أو حسية غير حس البصر
كالأصوات والمشى بحس اللمس ، فارتقى وقال : فلو مسخهم وسلب قوتهم
بالكلية لا يهتدون إلى الصراط بوجه من الوجوه .

الوجه الثالث : قدم المضي على الرجوع ، لأن الرجوع أهون من المضي لأن
المضي لا ينبئ عن سلوك الطريق من قبل ، وأما الرجوع فينبئ عنه ، ولا شك أن
سلوك طريق قد رؤي مرة أهون من سلوك طريق لم ير فقال : { لا يستطيعون
مضياً } ولا أقل من ذلك وهو الرجوع الذي أهون من المضي ^(١) »

﴿ أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴾

(يس: ٧١)

تقدم الجاران والمجروران ﴿ لَهُمْ ﴾ و ﴿ مِمَّا ﴾ على المفعول به ﴿ أَنْعَمًا ﴾
اعتناءً بمن خلق لهم ذلك وهم الناس ، مع ما فيه من التشويق للتأخر وكذلك
ما فيه من الجمع بين التأخر ﴿ أَنْعَمًا ﴾ والأحكام المتعلقة به والمذكورة بعده
﴿ فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴾ ﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ ﴿ وَهُمْ فِيهَا مَتَّفِعُونَ ﴾
﴿ وَمَشَارِبٌ أَفْلاَا يَشْكُرُونَ ﴾ (يس: ٧١-٧٣) . ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

(يس: ٧٦)

تكلمنا من قبل عن سبب تقديم السر على العلن ، وقد ذكر الألوسي جملة من
الفوائد غير ما ذكرنا قال : « وقيل : لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ
ما من شيء يعلن إلا وهو أو مباديه مضمّر في القلب قبل ذلك فتعلق علمه تعالى

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٦ ص ١٠٣ .

بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية حقيقة ، وقيل : للإشارة إلى الاهتمام بإصلاح الباطن فإنه ملاك الأمر ولأنه محل الاشتباه المحتاج للبيان»^(١) .

أقول : وفي تقديم السر على العلن في هذا السياق لطيفة أخرى ، فقد جاءت الآية لتطمين النبي ﷺ وأمره بعدم الحزن لسيئ قولهم ، فكان البدء بعلم السر هنا أحسن فإن أشد المكر وأعظمه ضرراً ما كان بالسر ، وخوف الناس من مكر السر أعظم مما يفعل بهم في الجهر ، فإذا كان النبي ﷺ في هذه الآية قد حزن مما يفعلونه في العلن فإن الله تعالى يقول له : إنا نكفيك أمر كيدهم لك سرّاً كما نكفيك أمرهم علناً حيث لا يغيب عنا علم سرهم ولا علم جهرهم .

﴿ فَسُبْحَنَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (يس: ٨٣) .

تقدم الجار والمجرور ﴿ بِيَدِهِ ﴾ للاختصاص فالملكوت بيده لا بيد غيره وكذلك الجار والمجرور ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ فلا رجوع إلا إليه .

(١) روح المعاني ج ٢٢ ص ٥٢ .

سورة الصافات

لما كان آخر سورة يس يدور حول نفي الكفار البعث بعد الإمامة ثم إثبات
الوحدانية لله واختصاصه بالملك والرجوع إليه ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ
كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (يس: ٨٣)، بدأت سورة الصافات بالقسم منه سبحانه
وتعالى في أول السورة وحتى الآية الثالثة لإثبات هاتين الصفتين الألوهية والملك
فقال: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۖ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ﴾
(الصافات: ٤، ٥) ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۖ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۖ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾

(الصافات: ١-٣)

نقل أبوحيان والسمين عن الزمخشري: «إن الفاء العاطفة في الصافات إما أن
تدل على ترتب معانيها في الوجود كقوله:

يا لهفَ زِيَاةٌ لِلْحَارِثِ الصَّـ بِحِ فَالْغَائِمِ فَالْآيِبِ

أي الذي صبح فغنم فآب ، وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه ،
كقولك : خذ الفضل فالأفضل ، واعمل الأحسن فالأجمل ، وإما على ترتب
موصوفاتها في ذلك ، كقولك : رحم الله المحلقين فالمقصرين ، فأما هنا فإن
وحدت الموصوف كانت للدلالة على ترتيب ﴿الصَّافَّاتِ﴾ في التفاضل فإذا كان
الموحد الملائكة فيكون الفضل للصف ، ثم للزجر ثم التلاوة ، وهما على العكس ،
وإن تليت الموصوف فترتب في الفضل فتكون ﴿الصَّافَّاتِ﴾ ذوات فضل
﴿وَالزَّاجِرَاتِ﴾ أفضل ﴿وَالتَّالِيَاتِ﴾ أبهر فضلاً ، أو على العكس . انتهى .

قال أبوحيان موضحاً: «ومعنى العكس في المكانين : أنك ترتقي من أفضل إلى
فاضل إلى مفضول ، أو تبدأ بالأدنى ، ثم بالفاضل ثم بالأفضل . وهذا ما ذكره
الألوسي والنقل فيه واضح عن الزمخشري»^(١).

(١) البحر المحيط ج ٧ ص ٣٣٧ ، الكشف ج ٤ ص ٣٣ ، روح المعاني ج ٢١ ص ٦٦ ، الدر
المصون ج ٥ ص ٤٩٥ .

﴿ بَيَضَاءٌ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ ﴾ (٤٦-٤٨)، تقدم قوله : ﴿ بَيَضَاءٌ لَذَّةٌ لِلشَّارِبِينَ ﴾ لإثبات صفات الكمال لها أولاً ثم جاء قوله : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُتْرَفُونَ ﴾ لنفي النقص عنها ثانياً ، وتقدم الجار والمجرور ﴿ لَا فِيهَا ﴾ على متعلقه ﴿ غَوْلٌ ﴾ وكذلك ﴿ عَنْهَا ﴾ على ﴿ يُتْرَفُونَ ﴾ لتفضيل المنفي عنه على ما عداه وقد مر هذا المثال في الفصل الأول من الباب الثاني .

﴿ أَيْفَكَا ۖ إِلَٰهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ (الصفات: ٨٦) تقدم الاستفهام بقوله : ﴿ أَيْفَكَا ﴾ لبيان شدة الإنكار .

﴿ وَإِنْ لَوْطَا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣٣) إِذْ خَبَّيْنَهُ وَأَهْلَهُ أَتَمَّعِينَ ﴾ (٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴾ (٣٥) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ (الصفات: ١٣٣-١٣٦)، تقدم الإخبار بأمر إنجائه أولاً ﴿ إِذْ خَبَّيْنَهُ وَأَهْلَهُ أَتَمَّعِينَ ﴾ على الأمر بإهلاكهم ﴿ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ للبدء بالتبشير وإدخال الطمأنينة على قلبه .

﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ (٣٦) وَسَلَّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٣٧) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الصفات: ١٨٠-١٨٢) .

تقدم أمر التسييح ﴿ سُبْحَنَ رَبِّكَ ﴾ على التحميد ﴿ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ لأن التسييح نفي للنقص وتنزيه عما لا يليق وهو تخلية والتحميد إثبات لصفات الحمد والاستحقاق وهو تحلية والتخلية مقدمة على التحلية ولهذا أخر الحمد ، وكذلك ختمت الآية بالسلام على المرسلين جميعاً على سبيل الإجمال بعد أن ذكرتهم على سبيل التفصيل ، فقدم سلام الله على إبراهيم في الآية ١٠٩ وموسى وهارون في الآية ١٢٠ وإلياس في الآية ٢٣٠ ولوط بذكر الإنجاء والذي هو في معنى السلامة في الآية ١٣٤ .

وحول معنى التقديم والتأخير قال الألوسي : « وقد يقال تقديم التنزيه لأهميته ذاتاً ومقاماً ولما كان التنزيه عما يصف المشركون وقد ذكر عز وجل إرشاد الرسل إياهم وتحذيرهم لهم من أن يصفوه سبحانه بما لا يليق به تعالى وضمن ذلك الإشارة إلى سوء حالهم وقطاعة منقلبهم أردف جل وعلا ذلك بالإشارة إلى حسن

حال المرسلين الداعي إلى تنزيهه تعالى عما يصفه به المشركون ، وفيه من الاهتمام بأمر التنزيه ما فيه ، وأتى عز وجل بالحمد للإشارة إلى أنه سبحانه متصف بالصفات الثبوتية ، كما أنه سبحانه متصف بالصفات السلبية ، وهذا وإن استدعى إيقاع الحمد بعد التسبيح بلا فصل كما في قولهم : سبحان الله والحمد لله وهو المذكور في الأخبار والمشهور في الأذكار إلا أن الفصل بينهما هنا بالسلام على المرسلين مما اقتضاه مقام ذكرهم فيما مر وجدد الالتفات إليهم تقديم التنزيه عما يصفه به من يرسلون إليه ، ولعل من يدقق النظر يرى أن السلام هنا أهم من الحمد نظراً للمقام وإن كان هو أهم منه ، ذاتاً والأهمية بالنظر للمقام أولى بالاعتبار عندهم ولذا تراهم يقدمون المفضول على الفاضل إذا اقتضى المقام الاعتناء به ، ولعله من تنمة جملة التسبيح ، وبها ينحل ما يقال من أن حمده أجل من السلام على الرسل - عليهم السلام - فكان ينبغي تقديمه عليهم على ما هو المنهج المعروف في الكتب والخطب ولا يحتاج إلى ما قيل : إن المراد بالحمد الشكر على النعم وهي الباعثة عليه ومن أجلها إرسال الرسل الذي هو وسيلة لخيري الدارين ، فقدم عليه لأن الباعث على الشيء يتقدم عليه في الوجود وإن كان هو متقدماً على الباعث في الرتبة فتدبر»^(١).

(١) روح المعاني ج ٢٣ ص ١٥٨.

سورة ص

المقصود منها بيان ما ذكر في آخر الصفات من أن جند الله هم الغالبون وإن رني أنهم ضعفاء وإن تأخر نصرهم لأنه سبحانه محيطاً بصفات الكمال كما أفهمه آخر الصفات ، ولما بين سبحانه حال الأمم السالفة مع أنبيائهم من العتو والتكذيب كان مظنة لتذكير حال مشركي العرب ليعلم أنه لا فرق بينهم وبين مكذبي الأمم السالفة في استحقاق العذاب ، وقد وقع ذلك التصريح في قوله تعالى : ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴾ (ص: ١٢) إلى قوله : ﴿ إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ (ص: ١٤).

﴿ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿ (ص: ٨) ، تقدم متعلق الفعل ﴿ عَلَيْهِ ﴾ على فاعله ﴿ الذِّكْرُ ﴾ إشارة إلى أن الإنكار للقرآن هنا ليس منظوراً إليه منهم بقدر إنكارهم لاختيار الرسول لهذا الأمر وترك ساداتهم ورجالاتهم ولهذا جاء قوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ﴾ إضراباً على إنكارهم لشخص الرسول فيهم فإن الأمر ليس أمر الرسول وإنما هو أمر ما أرسل به والذي كان أولى بالنظر فيه .

قال الكرماني : « قوله : ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ وفي القمر ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ (القمر: ٢٥) لأن ما في هذه السورة حكاية عن كفار قريش يجيبون محمداً ﷺ حين قرأ عليهم : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ فقالوا : ﴿ أُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴾ ومثله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾ (الكهف: ١) و ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾ (الفرقان: ١) وهو كثير ^(١).

(١) أسرار التكرار في القرآن ص ٢١٦.

وما في القمر حكاية عن قوم صالح ، وكان يأتي الأنبياء يومئذ صحف مكتوبة ،
والواح مسطورة ، كما جاء إبراهيم وموسى ، فلماذا قالوا : ﴿ أَهْلَيْكَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ ﴾ ،
مع أن لفظ الإلقاء يستعمل لما يستعمل له الإنزال .

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (ص: ٧٢) ، تقديم
التسوية على الخلق تقديماً وجودياً يدل على أن تخليق البشر لا يتم إلا بأمرين :
التسوية أولاً ثم نفخ الروح ثانياً ، سواء في بداية خلق آدم حيث خلق أولاً من
الطين وسوي على هيئة البشر ثم نفخت فيه الروح من بعد ، أو كان ذلك أمر خلق
ذريته ، حيث إن الجنين يتشكل أولاً في رحم أمه قبل نفخ الروح فيه ثم تنفخ
الروح بعد مائة وعشرين يوماً وبهذا صح الخبر عن النبي ﷺ ، روى البخاري
ومسلم عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود ؓ قال : حدثنا رسول الله ﷺ
وهو الصادق المصدوق - قال : { إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ،
ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يبعث الله ملكاً ، فيؤمر بأربع
كلمات ويقال له اكتب عمله ووزقه : وأجله ، وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح ،
فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب
فيعمل بعمل أهل النار ، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيعمل بعمل أهل
الجنة } .^(١)

﴿ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴾ (ص: ٨٤) ، تقدم المفعول ﴿ فَالْحَقُّ ﴾ على فاعله
{ أقول } لإفادة الاختصاص أي ولا أقول إلا الحق .

(١) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق رقم { ٢٩٦٩ } صحيح مسلم كتاب القدر { ٤٧٨١ } سنن
الترمذي كتاب القدر رقم { ٢٠٦٣ } مسند أحمد كتاب مسند المكثرين من الصحابة رقم { ٣٤٤١ }
و { ٣٨٨٢ } .

سورة الزمر

لما نفى الله عز وجل في سورة ص أن يكون القرآن من عند محمد ﷺ وأتبعه بالتهديد بقوله : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ (ص: ٨٨) جاء أول سورة الزمر ليثبت أن القرآن إنما هو من عند الله وأن تنزيله ليس إلى محمد وإنما ينزله الله وقت شاء فلا يستعجل المجرمون عذابه ، كذلك فإن سورة ص دار ذكرها حول المشركين وعنادهم واتخاذهم الأنداد والشركاء فناسب أن يأتي افتتاح سورة الزمر بالأمر بالإخلاص والنهي عن الإشراك الذي هو نقيض ما تقدم بقوله : ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (الزمر: ٣) ﴿ فَأَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ ﴿ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾ (الزمر: ٢، ٣) .

لم يتقدم هنا مفعول ﴿ أَعْبُدِ اللَّهَ ﴾ على عامله لأن الاختصاص قد استفيد من الحال في قوله : ﴿ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ وهذا لا ينفي دعوى الاختصاص في قوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾ ونظائرها ، والتي حاول أبو حيان أن ينفيها مدعياً أنها للاهتمام فحسب .

ويذكر أبو حيان رأي الزمخشري في هذه الآية بأن تقديم لفظ الجلالة للاختصاص وكعاداته يعترض على الزمخشري مدعياً أن التقديم للاهتمام .

وأقول : إن ما ذكره الزمخشري يؤيد دعوى الاختصاص قال : ﴿ وللدلالة على ذلك قدم المعبود على فعل العبادة وأخره في الأول فالكلام أولاً واقع في الفعل نفسه وإيجاده - ويقصد بذلك قوله تعالى : ﴿ قُلِ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ .

وثانياً : فيمن يفعل الفعل لأجله ولذلك رتب عليه قوله ﴿ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴾ (الزمر: ١٥) ، والمراد بهذا الأمر الوارد على وجه التخيير المبالغة في الخذلان والتخلية } .^(١)

(١) البحر المحيط ج ٧ ص ٤٠٣ ، الكشف ج ٤ ص ١١٥ .

اقول : ومما يؤيد رأي الزمخشري ولم يذكره هو تمة الآية نفسها وهو قوله تعالى : ﴿مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ فإن الإخلاص في الدين هو سلامته من الشرك الأصغر والأكبر في الأقوال والأفعال صغيرها وكبيرها فلا يراد بالطاعات إلا الله عز وجل ، ولا يلزم من وجود قرينة الحال نفي ما ثبت بالمقال ، وقد تعرض لذلك صاحب التحرير في تفسيره للآية الثانية والثالثة من هذه السورة قال «ولما أفاد قوله : ﴿مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ معنى إفراده بالعبادة لم يكن هنا مقتضى لتقديم مفعول ﴿أَعْبُدَ اللَّهَ﴾ على عامله لأن الاختصاص قد استفيد من الحال في قوله : ﴿مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ وبذلك يبطل استناد الشيخ ابن الحاجب لهذه الآية في توجيه رأيه بإنكار إفادة تقديم المفعول على فعله التخصيص ، وبتضعيفه لاستدلال أئمة المعاني بقوله تعالى : ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ آخر السورة بأنه تقديم لمجرد الاهتمام لورود ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ﴾ قال في إيضاح المفصل في شرح قول صاحب المفصل في الديباجة {الله أحمد} على أن جعلني من علماء العربية الله أحمد على طريقة ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ﴾ تقديماً للأهم ، وما قيل إنه للحصر لا دليل عليه والتمسك فيه بنحو ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ ضعيف لورود ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ﴾ .

قال صاحب التحرير معلقاً : «وهو ضغث على إباله فإنه لم يقتصر على منع دليل شهد به الذوق السليم عند أئمة الاستعمال وعلى سند منعه بتوهمه أن التقديم الذي لوحظ في مقام يجب أن يلاحظ في كل مقام ، كأن الكلام قد جعل قوالب يأتي بها في كل مقام ، وذلك ينبو عنه اختلاف المقامات البلاغية ، حتى جعل الاختصاص بالعبادة مستفاداً من القرينة لا من التقديم ، كأن القرينة لو سلم وجودها تمنع من التعويل على دلالة النطق»^(١).

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ (الزمر: ٦).

تقدم الجار والمجرور لإفادة الحصر أي أن الملك لله وحده دون نسبه لغيره ولو اسماً وصفة ولو حدث في الدنيا فملك الملوك في الدنيا ليس ملكاً حقيقياً لنقصه وزواله فهو بمنزلة العدم .

﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِتٌ ءَانَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا﴾ (الزمر: ٩).

(١) التحرير والتنوير ج ٢٣ ص ٣١٦ ، ٣١٧ .

تقدم السجود على القيام وإن كان متأخراً عنه في الوجود لشرفه وقد تقدم ذلك في آل عمران .

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ (الزمر: ١٠).

تقديم المسند إليه ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا ﴾ على المسند ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ للاهتمام بالمحسنين بالإضافة إلى التشويق بانتظار ما لهم .

﴿ يَنْعِبَادُ فَاتَّقُونَ ﴾ (الزمر: ١٦) قدم النداء ﴿ يَنْعِبَادُ ﴾ على الغرض منه ﴿ فَاتَّقُونَ ﴾ على عكس الترتيب في قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُونَ يَتَأُولَى الْأَلْبَسِ ﴾ في سورة البقرة من أجل إثارة الانتباه لأن المقام هنا مقام تحذير وترهيب ، وكذلك ما في جمال التعقيب والاتصال بين كلمة ﴿ عِبَادَهُ ﴾ التي قبلها و﴿ يَنْعِبَادُ ﴾ التي جاءت بعدها .
﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبِشْرَ عِبَادِ ﴾ (الزمر: ١٧)، وقد تقدم الكلام في سورة البقرة حول معنى تقديم الكفر بالطاغوت في الآية ٢٥٦ وفي تقديم المسند من قوله : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ لإفادة القصر على من هذا وصفهم فغيرهم ليس داخلاً معهم ، وهذا يفيد أنه لا بشارة لأحد إلا إذا اجتنب عبادة غير الله تعالى وأقبل على الله تعالى ، وفي تقديم المسند من قوله : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَى ﴾ إفادة القصر وهو مثل القصر في الآية التالية في قوله : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَسِ ﴾ (الزمر: ١٨)، ﴿ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴾ (الزمر: ١٩).

تقدم الضمير ﴿ أَفَأَنْتَ ﴾ على الخبر الفعلي ﴿ تُنْقِذُ ﴾ لتقوية الحكم وهو إنكار بأن يكون في مقدور النبي ﷺ هدايتهم وإنقاذهم من النار إذا لم يكن في تقدير الله ذلك ، ونظير هذا التقديم قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْخَبَرِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا ﴾ (الزمر: ٢٣)، والتقديم هنا للتقوي والاختصاص ، ومنه أيضاً تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله : ﴿ أَنْتَ تَحْكُمُ ﴾ من الآية السادسة والأربعين ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ (الزمر: ٤٦).

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَرِيزِي عَوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿ (الزمر: ٢٧، ٢٨).

قال الخازن: «فإن قلت ما الحكمة في تقديم التذکر في الآية الأولى على التقوى في هذه الآية . قلت : سبب تقديم التذکر أن الإنسان إذا تذكر وعرف ووقف على فحوى الشيء واختلط بمعناه اتقاه واحترز منه .^(١) فالتقديم هنا كما يراه الخازن لسبق الوجود .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان: ٢٩)، تقدم ذكر الليل على ذكر النهار لأن الليل موطن الظلمة التي هي متقدمة على النور وجوداً وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في سورة الأنعام ، وقدم الشمس على القمر في قوله : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ مع تقديم الليل الذي فيه سلطان القمر على النهار الذي فيه سلطان الشمس ، وذلك التقديم قد أشرنا إليه من قبل ، ومن جملة أسبابه أن نور القمر مستمد من نور الشمس فهي كالمبدأ له .

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿ (الزمر: ٣٦، ٣٧).

تقدم الجار والمجرور ﴿ لَهُ ﴾ في الآيتين للاهتمام بالضمير نفيًا للهدى عنهم إذا لم يرده الله وإثبات الهدى للمهتدين ولو عارضه كل ما سوي الله .

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿ (الزمر: ٤٢).

تقدم لفظ الجلالة {الله} وهو المسند إليه على المسند ﴿ يَتَوَفَّى ﴾ وذلك التقديم له عدة اعتبارات إما أن يكون للحصر والاختصاص حيث إنه سبحانه هو الذي يتوفى حقيقة لا غيره ، وأن إسناد الوفاة إلى الملائكة في قوله تعالى :

(١) الخازن ج ٥ ص ٣٠٩.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (الأنعام: ٦١)
 ليس إسناداً حقيقياً بل لكونهم يباشرون أسباب الوفاة ، كما أن اسمه سبحانه تقدم للاهتمام به فهو أولى بالتقديم لما له من كل صفات الكمال ونعوت الجلال ، وفي الآية تقديم النفس المتوفاة على المرسله ، وذلك اتباعاً للأصل لأن الآية سيقى للحديث عن الموت ، وكذلك بدأت الآية بذكر النفس المتوفاة مقدّمة على المرسله ولذا جاء الترتيب الثاني تابعاً للترتيب الأول .

﴿ بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (الزمر: ٦٦) تقدم المفعول به ﴿ اللَّهُ ﴾ على فاعله ﴿ أَعْبُدْ ﴾ وقد أفاد هذا التقديم الاختصاص ، رداً على ما طلبوه منه في الآية السابقة ﴿ قُلْ أَفَغَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾ (الزمر: ٦٤)

سورة غافر

مقصود هذه السورة هو الاستدلال على آخر التي قبلها من تصنيف الناس في الآخرة إلى فريقين أصحاب النار وأصحاب الجنة وتوفية كل صنف ما يستحقه من العذاب والرحمة على سبيل العدل الإلهي بأن فاعل ذلك له العزة الكاملة والعلم الشامل ، وقد بين ما يغضبه وما يرضيه غاية البيان على وجه الحكمة وذكر صفتي العزة والعلم والمغفرة والرحمة وشدة العقاب والقوة المطلقة لتناسب ذكر حال الفريقين السابقين في سورة الزمر .

﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ ﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿ (غافر: ٣) ، الكلام هنا على تقدم ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ ﴾ على ﴿ قَابِلِ التَّوْبِ ﴾ وتقدمهما على ﴿ شَدِيدِ الْعِقَابِ ﴾ وذلك لمناسبة ما قبله من إسناد نزول الكتاب إلى الله تعالى وما أنزله إلا رحمة للناس فذكر صفة المغفرة وقبول التوبة متقدمة على صفة شديد العقاب لأن نزول الكتاب إنما هو للرحمة ، وكذلك تقدمت صفة ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ ﴾ على صفة ﴿ قَابِلِ التَّوْبِ ﴾ ليس من باب تقديم التولية على التحلية فحسب كما ذكر الألوسي .^(١)

أقول : بل هناك معنى آخر وهو أن المغفرة رحمة عامة وقبول التوبة رحمة خاصة فقدمت الرحمة العامة على الرحمة الخاصة ، فغفران الذنوب عدا الشرك - كما هو معلوم - يرجع إلى مشيئة الله الذي قد يغفر الذنوب تكرماً ولو لم يكن هناك توبة ، بينما قبول التوبة إنما يتعلق بالتائبين فحسب ، وهذا لا ينافي ما ذكره الألوسي من باب تقديم التولية على التحلية .

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَتَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (غافر: ٧).

(١) روح المعاني : ج ٢٤ ص ٤٢ .

قال الرازي : « وفي الآية دقيقة أخرى ، وهي أن الملائكة قدموا ذكر الرحمة على ذكر العلم فقالوا : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ وذلك لأن مطلوبهم إيصال الرحمة وأن يتجاوز عما علمه منهم ، والمطلوب بالذات مقدم على المطلوب بالعرض ، ألا ترى أنه لما كان إبقاء الصحة مطلوباً بالذات وإزالة المرض مطلوباً بالعرض ، لا جرم لما ذكروا حد الطب قدموا فيه حفظ الصحة على إزالة المرض فقالوا : الطب علم يتعرف منه أحوال بدن الإنسان من جهة ما يصلح ويزول عن الصحة لتحفظ الصحة حاصلة وتسترد زائلة ، فكذا هاهنا المطلوب الذات هو الرحمة ، وأما التجاوز عما علمه منهم من أنواع العذاب فهو مطلوب بالعرض ، لأجل أن حصول الرحمة على سبيل الكمال لا يحصل إلا بالتجاوز عن الذنوب ، فلهذا السبب وقع ذكر الرحمة سابقاً على ذكر العلم» .^(١)

وللخازن وقفة مع تقديم وتأخير آخر لم يلتفت إليه أبو حيان قال : « فإن قلت قدم قوله : ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ على قوله : ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ ولا يكون التسبيح إلا بعد الإيمان فما فائدة قوله : ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ . قال البيضاوي : « وتقديم الرحمة لأنها المقصودة بالذات» .^(٢)

قلت : فائدته التنبية على شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه . ولما كان الله عز وجل محتجباً عنهم بحجب جلاله وجماله وكماله وصفهم بالإيمان به . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَّقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ (غافر : ١٠) .

قال الرازي : « المسألة الأولى في الآية حذف وفيها أيضاً تقديم وتأخير ، أما الحذف فتقديره لمقت الله إياكم ، وأما التقديم والتأخير فهو أن التقدير أن يقال لمقت الله لكم حال ما تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم» .^(٣) أقول : ولا يلزم وجود التقديم والتأخير كما ذكر الرازي إذا كان المعنى المقصود بقوله تعالى : ﴿ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ بيان سبب المقت الذي استحقوه حينئذ لا يكون في الآية تقديم ولا تأخير .

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٧ ص ٣٧ .

(٢) البيضاوي ج ٥ ص ٨٥ .

(٣) مفاتيح الغيب ج ٢٧ ص ٣٩ .

﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا ﴾ (غافر: ١٣).

تقديم الجار والمجرور ﴿ لَكُمْ ﴾ على مفعول ينزل وهو ﴿ رِزْقًا ﴾ لبيان كمال الامتتان وبيان الرعاية والإحسان ، فلو أن المجرور آخر فكان : ينزل رزقاً لكم من السماء ، لصار صفة لرزقاً فلا يفيد أن التنزيل لأجل المخاطبين بل يفيد أن الرزق صالح للمخاطبين ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَتَعَمَّ لَتَرْكَبُوا مَبْنًاءَ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (غافر: ٧٩).

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُضَيِّكُمُ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ (غافر: ٢٨).

تقدم قوله : ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ على قوله : ﴿ يَكْتُمُ ﴾ لبيان أن ذلك الرجل من آل فرعون ، ولو آخر لم يفهم ذلك ، ولذا فالتقديم هنا لعدم الإخلال ببيان المعنى .

وفي تقديم ﴿ كَذِبًا ﴾ على ﴿ صَادِقًا ﴾ اتباعاً لأسلوب المدارة ، حيث بدأ بما هو أقرب لتسليمهم وأدخل في تصديقهم ليسمعوا منه ولا يردوا عليه صحته وليريهام أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وأثنى عليه ، فضلاً عن أن يكون متعصباً له . وذكر القاسمي عن الناصر قوله : « ويناسب تقديم الكاذب على الصادق هنا قوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ قَبْلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدٌّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

(يوسف: ٢٦، ٢٧)

فقدم الشاهد أمانة صدقها على أمانة صدق يوسف ، وإن كان الصادق هو يوسف دونها لرفع التهمة وإبعاد الظن ، وإدلالاً بأن الحق معه ولا يضره التأخير لهذه الفائدة ، وقريب من هذا التصرف لإبعاد التهمة ما في قصة يوسف مع أخيه إذ بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه» .^(١)

﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ﴾ (غافر: ٣١).

(١) تفسير القاسمي ج ٨ ص ٣٠٧.

تقدم اسم ﴿الله﴾ على الخبر الفعلي لإفادة قصر مدلول المسند على المسند إليه ، وحينئذ يكون المعنى أن الله لا يريد ظلماً لعباده بل غيره يريد الظلم لهم .
﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَرَ يَنْقُومِ آتِيعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٢٨) يَنْقُومِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٢٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (غافر: ٣٨-٤٠).

وفي ترتيب هذه الموعظة قال صاحب التحرير : « فابتدأ موعظته بندايم ليلفت إليه أذهانهم ويستصغي أسماعهم ، ويعنوان أنهم قومه لتصغى إليه أفئدتهم ، ورتب خطبته على أسلوب تقديم الإجمال ثم تعقيقه بالتفصيل ، فبدأ بقوله : ﴿ آتِيعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ وسبيل الرشاد مجمل وهو على إجماله مما تتوق إليه النفوس ، فربط حصوله باتباعهم إياه مما يقبل بهم على تلقي ما يفسر هذا السبيل ، ويسترعي أسماعهم إلى ما يقوله إذ لعله سيأتيهم بما ترغبه أنفسهم إذ قد يظنون أنه نقح رأيه ونخل مقاله وأنه سيأتي بما هو الحق الملائم لهم . وتقدم ذكر سبيل الرشاد آنفاً .^(١)

﴿وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّقْنُونَ عَلَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ (غافر: ٤٧)

تقدم قولهم : ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ على طلب التخفيف عنهم من عذاب النار مع أنه هو الأهم لديهم لأنه مقدمة بين يدي طلبهم ليكون تعليلاً للطلب وشفيعاً لهم بتذكيرهم ما كان بين بعضهم البعض من ولاء في الدنيا .

﴿وَمَا يَسْتَوِ الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ (غافر: ٥٨)، بدأ بذكر الأعمى لمناسبة ما قبله كما يرى أبوحيان قال : « وقدم ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ المجاورة قوله : ﴿ وَالْبَصِيرُ ﴾ وهما طريقان ، أحدهما : أن يجاور المناسب هكذا ، والآخر : أن يتقدم ما يقابل الأول ويؤخر ما يقابل الآخر ، كقوله : ﴿ وَمَا يَسْتَوِ الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ وَلَا الظُّلُمَتُ

(١) التحرير والتنوير ج ٢٤ ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

وَلَا أَلْتَوُرُ ﴿٢٠﴾ وَلَا أَلْظِلُّ وَلَا أَلْخُرُورُ ﴿٢١﴾ (فاطر: ١٩-٢١). وقد يتأخر المتماثلان ، كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾ (هود: ٢٤)، وكل ذلك تفنن في البلاغة وأساليب الكلام ، ولما كان تقدم ﴿ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فكان ذلك صفة ذم ناسب أن يبدأ في ذكر التساوي بصفة الذم فبدأ بالأعمى .^(١) بينما يقول صاحب التحرير : « وإنما قدم ذكر العمى على ذكر البصير مع أن البصر أشرف من العمى بالنسبة لذات واحدة ، والمشبّه بالبصير أشرف من المشبّه بالأعمى إذ المشبه بالبصير المؤمنون ، فقدم ذكر تشبيه الكافرين مراعاة لكون الأهم في المقام بيان حال الذين يجادلون في الآيات إذ هم المقصود بالموعظة ، وأما قوله : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا أَلْمِيسِيءُ ﴾ فإنما رتب فيه ذكر الفريقين على عكس ترتيبه في التشبيه بالأعمى والبصير اهتماماً بشرف المؤمنين ».^(٢) وما ذكره صاحب التحرير هو المفهوم من سياق الكلام .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (غافر: ٦٧).

وهذه الآية نظير الآية الخامسة في سورة الحج وقد سبقت الإشارة إليها في السورة .

﴿ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرَبِّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (غافر: ٧٧).

تقدم الجار والمجرور ﴿ فَإِلَيْنَا ﴾ على متعلقه ﴿ يُرْجَعُونَ ﴾ لاختصاص الرجوع إلى الله تعالى وحده وما يتضمنه أيضاً من معنى الاهتمام وكذلك للرعاية على الفاصلة .

(١) البحر المحيط ج ٧ ص ٤٥٢.

(٢) التحرير والتويرج ٢٤ ص ١٨٧.

سورة فصلت

لما ختمت غافر بأن الكفرة جادلوا في آيات الله بالباطل ، وفرحوا بما عندهم من علم ظاهر الحياة الدنيا ، وأنهم عند نزول عذاب الله بهم آمنوا حيث لا يقبل الإيمان ، وتبين أن العلم الذي لا ينفع صاحبه عند الشدة لا فائدة فيه ، وخاف النبي ﷺ أن يكون آخر أمر أمته الهلاك وأن يكون أغلب أحواله في دعوته النذارة افتتح سبحانه هذه السورة بأن هذا القرآن رحمة لمن كان له علم وله عمل ينتفع بذلك العلم ، وكرر الرحمة في صفة العموم والخصوص فقال : ﴿ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (فصلت: ٢)، ثم كرر صفة البشارة قبل النذارة ﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (فصلت: ٤).

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۚ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ (فصلت: ٦).

قال الرازي : « فإن قيل المقصود من الاستغفار والتوبة إزالة ما لا ينبغي وذلك مقدم على فعل ما ينبغي فلم عكس هذا الترتيب هاهنا وقدم ما ينبغي على إزالة ما لا ينبغي ؟ قلنا : ليس المراد من هذا الاستغفار عن الكفر ، بل المراد منه أن يعمل ثم يستغفر بعده لأجل الخوف من وقوع التقصير في العمل الذي أتى به كما قال ﷺ { وإنه ليغان إلى قلبي وإنني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة } .^(١)

﴿ قُلْ أَهْبِطُوا لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (فصلت: ٩-١١).

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٧ : ص ١٠٠.

سبق الحديث عن هذه الآيات في الآية الواحدة والعشرين من سورة البقرة وهنا إضافة لأبي حيان يقول فيها : « والظاهر من هذه الآية أنه خلق الأرض وجعل فيها الرواسي وبارك فيها ، ثم أوجد السماء من الدخان فسواها سبع سموات فيكون خلق الأرض متقدماً على خلق السماء ، ودحو الأرض غير خلقها وقد تأخر عن خلق السماء ، ثم يذكر أبو حيان قول الرازي بأن الخلق هنا بمعنى التقدير من غير شريطة وجود الشيء حالاً من غير أن يرد عليه مكتفياً بذكر سبب التقديم كما يرى هو فيقول : والذي نقوله : إن الكفار وبخوا وقرعوا بقولهم بمن صدرت عنه هذه الأشياء كلها من غير ترتيب زمني وإن ﴿ ثُمَّ ﴾ لترتيب الأخبار لا ترتيب الزمان والمهلة ، كأنه قال : فالذي أخبركم أنه خلق الأرض وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك فيها ، وقدر فيها أقواتها ، ثم أخبركم أنه استوى إلى السماء فلا تعرض في الآية لترتيب أي ذلك وقع الترتيب الزمني له ، ولما كان خلق السماء أبداع في القدرة من خلق الأرض ألف الإخبار فيه بـ ﴿ ثُمَّ ﴾ فصار كقوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ (البلد: ١٧) بعد قوله فلا اقتحم العقبة ومن ترتيب الأخبار .

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ (الأنعام: ١٥٤) بعد قوله : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ ﴾ (الأنعام: ١٥١) ... ويدل على أنه المقصود الإخبار بوقوع هذه الأشياء من غير ترتيب زمني قوله تعالى في سورة الرعد : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّعَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَلٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (الرعد: ٢) ثم الآية ثم قال بعد ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴾ (الرعد: ٣) وظاهر الآية التي نحن فيها جعل الرواسي وتقدير الأقوات قبل الاستواء إلى السماء وخلقها ولكن المقصود في الآيتين الإخبار بصدور ذلك منه تعالى من غير تعرض لترتيب زمني^(١).

﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (فصلت: ٢٨).

(١) البحر المحيط ج ٧ ص ٤٦٦ ، ٤٦٧ .

تقدم قوله : ﴿ بِقَايَتِنَا ﴾ على متعلقه ﴿ تَجْحَدُونَ ﴾ وذلك للحصر الإضافي ،
أي بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا الحقّة دون الأمور التي ينبغي جحودها ، ولا
يخفى ما فيه من حسن الفاصلة أيضاً .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ
يَأْتِي ءَامِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (فصلت: ٤٠).

تقدم قوله : ﴿ أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ ﴾ على قوله : ﴿ أَمْ مَنْ يَأْتِي ءَامِنًا ﴾ من أجل
مناسبة ما قبله وهو قوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ ﴾ فجاء التقديم بحال أهل النار
للتخويف والتهديد .

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ (فصلت: ٤٧)

تقديم الجار والمجرور ﴿ إِلَيْهِ ﴾ على متعلقه ﴿ يُرَدُّ ﴾ لإفادة الحصر أي أن علم
الساعة عنده وحده لا عند غيره .

سورة الشورى

تناسب سورة الشورى مع سابقتها في وصف الكتاب العزيز وتأكيده نزول الوحي على قلب النبي ﷺ وإثبات الساعة ، مناقشة أدلة الكفار ، تهديدهم ووعدهم ، إثبات وجود الله ووحدانيته وحكمته وقدرته وتأيد ذلك بالأدلة والشواهد ، ترغيب المؤمنين في الاستقامة المؤدية إلى الجنة ونعيمها وتحذير الكافرين من الانحراف والإعراض عن هداية الله ، وتسلية النبي ﷺ عما لقيه .

﴿ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الشورى: ٣) .
تقدم المجرور ﴿ كَذَلِكَ ﴾ على ﴿ يُوحِي إِلَيْكَ ﴾ للتشويق وتبنيه الأذهان إليه ، وكذلك تأخر لفظ الجلالة ﴿ اللَّهُ ﴾ عن المجرورات التي قبله لنفس الغرض .
﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الشورى: ١٢) .

تقديم الجار والمجرور ﴿ لَهُ ﴾ لإفادة الاختصاص أي أن ملك السموات والأرض لله وحده لا شريك معه .

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ (الشورى: ١٣) .

عقب ذكر دين نوح جاء ذكر محمد - عليهما السلام - للإشارة إلى أن دين الإسلام هو الخاتم للأديان ، فعطف على أول الأديان جمعاً بين طرفي الأديان ، ثم ذكر بعدهما الأديان الثلاثة لأنها متوسطة بين الدينين المذكورين قبلها .

تقدم المسند إليه وهو لفظ الجلالة { الله } لإفادة القصر رداً على المشركين الذين أنكروا رسالة بشر من عند الله وتقديم المجرورين لشرف وفضل المجتبى إليه والمهدي إليه سبحانه .

﴿ فَلَذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمٍ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١٥) .

تقدم الجار والمجرور ﴿ فَلَذَلِكَ ﴾ على متعلقه ﴿ فَادْعُ ﴾ للاهتمام بما احتوى عليه اسم الإشارة إذ هو مجموع أسباب للأمر بالدوام على الدعوة ، وقد تقدم أيضاً

المسند إليه لفظ الجلالة {الله} على الخبر الفعلي ﴿ حَجْمَعُ بَيِّنَاتٍ ﴾ لتحقيق الخبر وتأكيده وقوعه ، كما تقدم الجار والمجرور ﴿ وَأَلَيْهِ ﴾ وهو الخبر على المسند إليه ﴿ أَلَمَصِيرُ ﴾ لإفادة الحصر مع مراعاة الفاصلة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ (الشورى: ٥٣) .

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارِئُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ (الشورى: ١٨) .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « وفي النظم القرآني ما يبدو في ظاهره أنه جاء على غير الترتيب الذي يقع في نفس المؤمن من مشاهد القيامة ، فالظاهر أن يؤمن المؤمن أولاً بأن الساعة حق ثم تكون خشيته ويكون إشفاقه من لقائها ، ولكن النظم القرآني قدم الخشية للقيامة والإشفاق منها على العلم بها وبأنها حق هذا ما يبدو في ظاهر الأمر ..

والذي ينظر في النظم القرآني يرى أن الإشفاق قد تقدمه الإيمان ، فالذين يشفقون من الساعة هم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر كما يقول سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ إذ لا يكون المؤمن مؤمناً إلا إذا كان مؤمناً باليوم الآخر ، أما العلم فهو مادة من المعرفة التي يؤيدها الدليل ويدعمها البرهان حيث يجيء إلى الإيمان الغيبي فيؤكدده ويثبت دعائمه في القلب^(١) .

﴿ مَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَتْ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ (الشورى: ٢٠) .

تقدم ذكر من أراد حَرْثَ الْآخِرَةِ على من أراد حَرْثَ الدُّنْيَا وهذا التقديم لفضل الطالب والمطلوب .

﴿ إِلَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ تَخَلَّقَ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنْتِثَا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ (الشورى: ٤٩) .

هذه الآية تؤيد صحة ما ذهبنا إليه من قبل في معرض الرد على من قال بأن الذكر أفضل من الأنثى في الآيتين الحادية عشرة والثانية عشرة من سورة النساء . قال أبو حيان : « وقدم تعالى هبة البنات تأنيثاً لهن ، وتشريفاً لهن ليهتم بصونهن والإحسان إليهن^(٢) .

(١) التفسير القرآني ج ٢٥ ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) البحر المحيط ج ٧ ص ٥٠٢ .

سورة الزخرف

تشابه المطلع والخاتمة لسورتي الشورى والزخرف في وصف القرآن وبيان مصدره والتشابه في إيراد الأدلة القاطعة ومقارنة عذاب الكفار بنعيم الأبرار ، وتشابه أيضا خاتمة الشورى التي تحدثت عن الوحي الذي أنزل على النبي ﷺ وأنه نور يهدي إليه من يشاء من عباده ابتدأت هذه السورة بالحديث عن هذا الوحي بالإقسام به وبيان كونه عربي اللسان وبيان علو منزلته في اللوح المحفوظ .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

(الزخرف: ١٠)

تقدم الجار والمجرور لـ ﴿ لَكُمْ ﴾ في الموضعين لبيان الاهتمام بهما وإظهار الفضل عليهما .

﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾

(الزخرف: ١٢)

قال صاحب التحرير : « وقدّم الفلك على الأنعام لأنها لم يشملها لفظ الأزواج ، فذكرها ذكر نعمة أخرى ، ولو ذكر الأنعام لكان ذكره عقب الأزواج بمنزلة الإعادة ، فلما ذكر الفلك بعنوان كونها مركوباً عطف عليها الأنعام فصار ذكر الأنعام مترقباً للنفس لمناسبة جديدة .

وهذا كقول امرئ القيس :

كأني لم أركب جواداً للذة ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسب الرّاح الكميّة ولم أقل لخليلي كروي كرة بعد إجفال^(١)

إذ أعقب ذكر ركوب الجواد بذكر تبطن الكاعب للمناسبة ولم يعقبه بقوله : ولم أقل لخليلي كروي كرة ، لاختلاف حال الركوبين ركوب اللذة وركوب الحرب^(٢) .

(١) ديوان امرئ القيس رقم {٥٣} ص ١٢٧ .

(٢) التحرير والتوير ج ٢٥ ص ١٧٣ .

وقد تقدم أيضاً هنا الجار والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ على المفعول به ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ لبيان الاهتمام بهم وإظهار الفضل عليهم .

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ (الزخرف: ١٥).

أصل الترتيب {وجعلوا جزءاً من عباده له} فتقدم الجاران والمجروران ﴿لَهُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ على المفعول الصريح ﴿جُزْءًا﴾ فتقديم ﴿لَهُ﴾ العائد على الله سبحانه وتعالى لبيان شدة الإنكار والتعجب أن يكون الله عز وجل ممن يجعل له ذلك وتقديم ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ لكونه أقبح في الاتخاذ وأوغل في الضلال وأبعد عن العقل والصواب .

﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا تَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَنَكُمْ بِالْبَيِّنِ﴾ (الزخرف: ١٦).

وقد عكس هذا الترتيب في سورة الإسراء في قوله تعالى : ﴿أَفَأَصْفَنكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيِّنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا﴾ (الإسراء: ٤٠).

فتقديم الإناث في سورة الزخرف لأن ذكرهن أهم ، إذ إن الآية سقت في الاحتجاج على هؤلاء المشركين الذين وصفوا الملائكة بالأنوثة ، وقد كانوا يكرهون الإناث لبين باطلهم وقبح رأيهم بعيداً عن كون ما اعتقدوه حقاً أم باطلاً ولكنه طريقة القرآن لإبطال قولهم . وأما التقديم في سورة الزخرف فللرد على أهل الجاهلية الذين كانوا يحتقرون البنات ، فأبان القرآن أن الذكور والبنات كلهم خلق الله متساوون وليس هناك اصطفاء للذكور ، فقول الذكور في هذا الاستفهام الإنكاري لنفي ما ادعوه من الاصطفاء .

﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الجن: ٣٦، ٣٧).

تقدم الجار والمجرور ﴿فَلِلَّهِ﴾ لإفادة الاختصاص بأن الحمد لله وحده دون من سواه وكذلك في قوله : ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ﴾ .

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

(الزخرف: ٤٠)

هذه هي الصورة الثانية من صور الاستفهام الدال على الإنكار وهنا قد انحصر فاعل الفعل حيث أتى به بعد الهمزة حيث يلزم من إنكار الفاعل إنكار الفعل ، ليس إسماع الصم مما يدعيه أحد فيكون ذلك الإنكار وإنما المعنى فيه التمثيل والتشبيه ، وأن ينزل الذين يظن بهم أنهم يسمعون أو أنه يستطيع إسماعهم منزلة من يرى أنه يسمع الصم ويهدي العمي ، والمعنى في تقديم الاسم وأنه لم يقل : {أتسمع الصم؟} هو أن يقال للنبي ﷺ أنت خصوصاً أوتيت أن تسمع الصم وأن يجعل في ظنه أنه يستطيع إسماعهم بمثابة من يظن أنه قد أوتي قدرة على إسماع الصم .

قال الرازي : «اعلم أنه تعالى لما وصفهم في الآية المتقدمة بالعشي - يقصد قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾ (الزخرف: ٣٦) وصفهم في هذه الآية بالصمم والعمى وما أحسن هذا الترتيب ، وذلك لأن الإنسان في أول اشتغاله بطلب الدنيا يكون كمن حصل بعينه رمد ضعيف ، ثم كلما كان اشتغاله بتلك الأعمال أكثر كان ميله إلى الجسمانيات أشد وإعراضه عن الروحانيات أكمل ، لما ثبت في علوم العقل أن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات الراسخة فينتقل الإنسان من الرمد إلى أن يصير أعشى ، فإذا واطب على تلك الحالة أياماً أخرى انتقل من كونه أعشى إلى كونه أعمى ، فهذا ترتيب حسن موافق لما ثبت بالبراهين اليقينية»^(١)

﴿ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (الزخرف: ٨٥).

تقدم الجار والمجرور ﴿ لَهُ ﴾ لإفادة الاختصاص بأن ملك السموات والأرض له لا لغيره وكذلك الظرف ﴿ وَعِنْدَهُ ﴾ على قوله : ﴿ عِلْمُ السَّاعَةِ ﴾ لإفادة اختصاصه بعلم الساعة دون غيره وكذلك الجار والمجرور ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ على متعلقه ﴿ تُرْجَعُونَ ﴾ لإفادة الحصر والاختصاص بالرجوع إليه دون من سواه .

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٧ ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

سورة الدخان

تشابه سورة الدخان مع سابقتها من وجوه ثلاثة : افتتاح كلتا السورتين بالقسم بالقرآن ، مع تشابه خاتمة السورة المتقدمة بمطلع هذه السورة حيث ختمت الزخرف بهذا التهديد ﴿ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الزخرف: ٨٩) وبدأت سورة الدخان في الآية العاشرة والحادية عشرة بتحديد صفة ذلك اليوم الذي هددوا به في قوله :

﴿ فَأَزْتَقَبَ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾
(الدخان: ١٠، ١١)

وقد تحدثت سورة الزخرف عن نبي الله موسى وكذلك سورة الدخان فالتشابه واضح بين السورتين .

وقد نقل الإمام البقاعي عن الإمام جعفر بن الزبير قوله : « لما تضمنت سورة حم السجدة وسورة الشورى من ذكر الكتاب العزيز ما قد أشير إليه مما لم تنطو سورة غافر على شيء منه ، وحصل من مجموع ذلك الإعلام بتنزيله من عند الله وتفصيله وكونه قرآناً عربياً إلى ما ذكر تعالى من خصائصه إلى قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (الزخرف: ٤٤) وتعلق الكلام بعد هذا بعضه ببعض إلى آخر السورة افتتح تعالى سورة الدخان بما يكمل ذلك الغرض ، وهو التعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا فقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَكَةٍ ﴾ ثم ذكر من فضلها فقال : ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ فحصل وصف الكتاب بخصائصه والتعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا وتقدم الأهم من ذلك في السورتين ، وتأخر التعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا إذ ليس في التأكيد كالمقدم ، ثم وقع إثر هذا تفصيل وعيد قد أجمل في قوله تعالى : ﴿ فَأَصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ وما تقدمه من قوله : ﴿ أَمْ أَتَرْمَوْا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ أَمْ تَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ وتنزيهه

سبحانه وتعالى نفسه عن عظيم افتراءهم في جعلهم الشريك والولد - إلى آخر السورة ، ففصل بعض ما أجملته هذه الآية في قوله تعالى في صدر سورة الدخان : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُبِينٍ ﴾^(١)

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١﴾ أَنْ أَذُوا إِلَىٰ إِيَّايَ عَبَادَ اللَّهِ إِنْ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٢﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنْئِيَّ ءَاتِيكُمْ بِسُلْطٰنٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ وَإِنْئِيَّ عَذْتُ رَبِّيَ وَرَبَّكُمْ أَنْ تَزْجُمُونِ ﴿٤﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ ﴾ (الدخان: ١٧-٢١).

قال صاحب التحرير : « وقد جاء ترتيب فواصل هذا الخطاب على مراعاة ما يبدو من فرعون وقومه عند إلقاء موسى دعوته عليهم إذ ابتدأ بإبلاغ ما أرسل به إليهم فأنس منهم التعجب والتردد فقال : ﴿ إِنْئِيَّ لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ فرأى منهم الصلف والأنفة فقال : ﴿ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ ﴾ فلم يراعوا فقال : ﴿ إِنْئِيَّ ءَاتِيكُمْ بِسُلْطٰنٍ مُبِينٍ ﴾ فلاحث عليهم علامات إضمار سوء فقال : ﴿ وَإِنْئِيَّ عَذْتُ رَبِّيَ وَرَبَّكُمْ أَنْ تَزْجُمُونِ ﴾ ﴿ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَرِلُونِ ﴾ (الدخان: ٢٠، ٢١) فكان هذا الترتيب بين الجمل مغنياً عن ذكر ما أجابوا به على أبدع إيجاز»^(٢)

وقد تقدم الجار والمجرور ﴿ لَكُمْ ﴾ على متعلقه ﴿ رَسُولٌ ﴾ لبيان الاهتمام والاعتناء بالمرسل إليهم ، وكذلك الاختصاص إذ كان كل نبي يرسل إلى قومه خاصة ومنه حديث النبي ﷺ أعطيت خمسا»^(٣).

(١) نظم الدرر ج ٧ ص ٦٣.

(٢) التحرير والتوير ج ٢٥ ص ٢٩٦-٢٩٨.

(٣) سبق تخريجه .

سورة الجاثية

لما تضمنت السورة المقدمة إيضاح أمر الكتاب وعظيم بيانه ووصفه بالشفاء والكفاية والهدى والنور وهى الآيات المقروءة ، ذكر في هذه السورة الآيات الكونية المنظورة فقال في بدايتها : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (١) إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ (الجاثية: ٢-٥)، وقد تشابهت السورتان في الغايات الكبرى وهى إثبات وحدانية الله وبيان قدرته في خلق السموات والأرض ومناقشة المشركين وضرب الأمثال .

﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ ءَايَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ (الجاثية: ٣-٥).
﴿ وَيَلِلْ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٌ ﴾ (الجاثية: ٧) التقدم هنا للسببية لأن الإفك سبب للإثم فلهذا قدم عليه .

في هذه الآيات عبارات ثلاث ، أولها ﴿ يُؤْمِنُونَ ﴾ وثانيها ﴿ يُوقِنُونَ ﴾ وثالثها ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ والمقصود بها إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين بل أنتم من طلاب الحق واليقين فافهموا هذه الدلائل ، وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل أن تكونوا من زمرة العاقلين ، فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل وقد يكون هذا الترتيب ترتيباً وجودياً ، وهذا ما ذكره المراغي حيث قال : « إن أول المراتب الإيمان بالله ، فإذا ازداد المرء علماً وحكمة وبحثاً في دقائق الأشياء وعظائمه أصبح موقناً به ، وكلما ازداد بحثاً ازداد عقله دراية وفهماً لأسرار هذا الكون ، فسخره لمنافعه ، واستفاد من نظمه التي وجد عليها وعرف أنه لم يخلق عبثاً بل خلق للانتفاع بما في ظاهره وباطنه علويه وسفليه أرضه وسمائه ، نوره وظلامه فكأنه يقول : إنا أمرناكم بالنظر في العالم

لتؤمنوا فإذا ازددتم علماً أيقنتم بي وذلك كله مما يربي عقولكم ويكملها إلى أقصى حدود طاقاتها البشرية»^(١).

﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُبْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (الجن: ٢٤)
في الكلام تقديم وتأخير ، وأصله نحيا ونموت ، وقدم الموت مع أنه متأخر في الوجود لإنكارهم البعث وقد أمن الالتباس في الفهم بتأخير {الحياة} وأنه قد يراد بها الحياة الآخرة بأسلوب الحصر المتقدم ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ ، وهناك رأي آخر وجدت صاحب التحرير قد سبق إليه

يقول : « وإنما قدم ﴿ نَمُوتُ ﴾ في الذكر على {نَحْيَا} في البيان مع أن المبين قولهم : ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ فكان الظاهر أن يبدأ في البيان بذكر اللفظ المبين فيقال : نحيا ونموت ، فقبل قدم ﴿ نَمُوتُ ﴾ لتأتى الفاصلة بلفظ ﴿ نَحْيَا ﴾ مع لفظ ﴿ الدُّنْيَا ﴾ وعندي - مازال الكلام له - أن تقديم فعل ﴿ نَمُوتُ ﴾ على ﴿ نَحْيَا ﴾ للاهتمام بالموت في هذا المقام لأنهم بصدد تقرير أن الموت لا حياة بعده ، ويتبع ذلك الاهتمام تأتي طباقين بين حياتنا الدنيا ، ونموت ، ثم بين نموت ونحيا ، وحصلت الفاصلة تبعاً ، وذلك أدخل في بلاغة الإعجاز ، ولذلك أعقبه بقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ فالإشارة ﴿ بِذَلِكَ ﴾ إلى قولهم : ﴿ وَمَا يُبْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ أي لا علم لهم بأن الدهر هو المميت إذ لا دليل^(٢) .
ولسنا مع العلامة الألوسي عندما قال في هذه الآية : « حكم على النوع بجملته من غير اعتبار تقديم وتأخير إلا أن تأخير نحيا في النظم الجليل للفاصلة »^(٣) .
أقول : إذا كانت حكاية قولهم ، فالقوم أيضاً إنما خالفوا الترتيب الوجودي ولا بد أن يكون لعل وهي ما قد سبق بيانه ، وأما القول بالفاصلة فقد سبق الرد عليه أيضاً .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (الجن: ٢٧)

تقديم الجار والمجرور {لِلَّهِ} للتخصيص ، وكذلك التخصيص في ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ ﴾ و﴿ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ ﴾ من قوله تعالى : ﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (الجن: ٣٦، ٣٧)

(١) المراغي ج ٢١ ص ١٤٢

(٢) التحرير ج ٢٥ ص ٣٦٢

(٣) روح المعاني ج ٢٥ ص ١٥٣ .

سورة الأحقاف

تطابق المطلع في كلتا السورتين ﴿ حَمَّ ﴾ ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (الأحقاف: ٢٠١) وقد تشابه موضوع السورتين وهو إثبات التوحيد والنبوة والبعث والمعاد ، ختمت السورة السابقة بتوبيخ آلهة المشركين على الشرك ومطالبهم بالدليل عليه وبيان عظمة الإله الذي يجيب من دعاه ومطالبتهم بالدليل ، بدأت هذه السورة بذكر خلق السموات والأرض وبيان حال إغراض المشركين ومطالبتهم أيضاً بالبرهان الثقلي والعقلي لما أشركوا بالله .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الأحقاف: ٤).

لما كان الدليل أحد شيئين سمعي أو عقلي وكان هؤلاء القوم لا ينكرون وجود الله وإنما يشركون به ، فقد بدأ طلبه منهم بالدليل السمعي - كتاب منزل ووحى صادق يأمرهم بشركهم ، ثم ثنى بعد ذلك بالدليل العقلي ، ولهذا تقدم قوله ﴿ أَتُتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ على قوله ﴿ أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الأحقاف: ١٣)

تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي هنا لتخصيص المسند إليه بالخبر أن الحزن منتف عنهم لا عن غيرهم ، وقد مر بنا الحديث عن ذلك في الفصل الخامس { أثر التقديم والتأخير في المعاني } من الباب الأول .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِمْ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَنَّ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأحقاف: ١٠)

في الآية تقديم وتأخير ، تقديره : قل أرايتم إن كان من عند الله وشهد شاهد من بني إسرائيل على ذلك فآمن هو وكفرتهم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين .

﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ (الأحقاف: ١٢).

تقدم للخبر ﴿ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ على المبتدأ ﴿ كَتَبَ مُوسَىٰ ﴾ ليس من قبيل

الاختصاص كما قال الألوسي : « وهذا بين حيث سبقه وسبق كتاب موسى كتب كثيرة ، وإنما جاء التقديم للعناية والاهتمام بذكره » .^(١)

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأحقاف: ١٥).

قال الرازي : « المسألة الخامسة : اعلم أنه تعالى حكى عن هذا الداعي أنه طلب من الله تعالى ثلاثة أشياء : أحدها : أن يوفقه على شكر نعمه والثاني : أن يوفقه للطاعة المرضية عند الله ، الثالث : أن يصلح له في ذريته ، وفي ترتيب هذه الأشياء الثلاثة على الوجه المذكور وجهان : الأول : أننا أن مراتب السعادة ثلاثة أكملها النفسانية ، وأوسطها البدنية ، وأدونها الخارجية ، والسعادات النفسانية هي اشتغال القلب بشكر آلاء الله ونعمائه ، والسعادات البدنية هي الاشتغال البدني بالطاعة والخدمة ، والسعادات الخارجية هي سعادة الأهل والولد ، فلما كانت المراتب محصورة في هذه الثلاثة لا جرم رتبها الله تعالى على هذا الوجه .

والسبب الثاني : لرعاية هذا الترتيب أنه تعالى قدم الشكر على العمل ، والعمل من أعمال الجوارح ، وعمل القلب ، أشرف من عمل الجارحة ، وأيضاً المقصود من الأعمال الظاهرة أحوال القلب قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ بين أن الصلاة مطلوبة لأجل أنها تفيد الذكر فثبت أن أعمال القلوب أشرف من أعمال الجوارح ، والأشرف يجب تقديمه في الذكر ، وأيضاً الاشتغال بالشكر اشتغال بقضاء حقوق النعم الماضية ، والاشتغال بالطاعة الظاهرة اشتغال بطلب النعم المستقبلية ، وقضاء الحقوق الماضية يجري مجرى قضاء الدين وطلب المنافع المستقبلية طلب للزوائد ، ومعلوم أن طلب قضاء الدين مقدم على سائر المهمات ، فلهذا السبب قدم الشكر على سائر الطاعات ، وأيضاً أنه طلب التوفيق على الشكر وطلب التوفيق على الطاعة على طلب أن يصلح له ذريته ، وذلك لأن المطلوبين اشتغال بالتعظيم لأمر الله والمطلوب الثالث اشتغال بالشفقة على خلق الله ، ومعلوم أن التعظيم لأمر الله يجب تقديمه على الشفقة على خلق الله »^(٢)

(١) روح المعاني ج ٢٦ ص ١٥ .

(٢) مفاتيح الغيب ج ٢٨ ص ٢٠ .

سورة محمد

يرتبط أول سورة محمد بآخر الأحقاف ارتباطاً قوياً ، ففي آخر سورة الأحقاف ﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ (الأحقاف: ٣٥) وفي بداية هذه ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَلُهُمْ ﴾ (محمد: ١).

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴾ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ (محمد: ١٠-١٢)

لما ذكر سبحانه وتعالى ما فعله بالكافرين أتبع ذلك بالإخبار عن علة ذلك فقال : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ (محمد: ١١) ولما تشوق السامع لمعرفة تمام آثار تلك الولاية قال شافياً عن سؤالهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ .

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ﴾ (محمد: ١٥) .

قال أبوحيان : « وبدئ من هذه الأنهار بالماء وهو الذي لا يستغنى عنه في المشروبات ، ثم باللبن الذي يجري مجيء الطعوم في كثير من أقوات العرب وغيرهم ، ثم بالخمير لأنه إذا حصل الري والمطعم تشوقت النفس إلى ما تلتذ به ، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعم فهو متأخر في الهيئة » .^(١)

﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ (محمد: ١٩).

(١) التحرير والتنوير ج ٨ ص ٧٩ .

يتعلق أمر التقديم والتأخير في هذه الآية بأمر العقيدة والتوحيد ، حيث تقدم الأمر بالعلم على القول والعمل ، وأن القول والعمل بلا علم ولا معرفة لا يفيد شيئاً ، فكل من قال لا إله إلا الله دون أن يكون عالماً بمعناها فاهماً لمحتواها فإنما ردد حروفاً وأصواتاً لا إدراك لها في عقله ولا أثر لها في نفسه ، ومن ثم فلا يصير بها من أهل الإيمان حتى يكون من الذين شهدوا بما علموا كما قال تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف: ٨٦) وقوله تعالى ﴿سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ (يوسف: ٨١) وقوله تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ (آل عمران: ١٨).

وقد تأخر طلب الاستغفار في الآية أيضاً عن شهادة التوحيد إشارة إلى أنه لا ينفع استغفار مع الشرك قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ (النساء: ٤٨) وقد بوب البخاري في صحيحه باباً بعنوان {باب العلم قبل القول والعمل} لقول الله تعالى : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ فبدأ بالعلم^(١).

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ : «لا بد في شهادة أن لا إله إلا الله من سبعة شروط ، لا تنفع قائلها إلا باجتماعها ، أحدها : العلم المنافي للجهل ، الثاني : اليقين المنافي للشك ، الثالث : القبول المنافي للرد ، الرابع : الانقياد المنافي للترك ، الخامس : الإخلاص المنافي للشرك ، السادس : الصدق المنافي للكذب ، السابع : المحبة المنافية لصددها»^(٢).

وتحت عنوان شروط الشهادة السبعة ذكر الشيخ حافظ بن أحمد حكمي الشروط السبعة السابقة ثم قال : «الأول ﴿الْعِلْمُ﴾ بمعناه المراد منه نفيًا وإثباتاً المنافي للجهل بذلك ، قال الله عز وجل : ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقال تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ أي بلا إله إلا الله ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بقلوبهم معنى ما نطقوا به

(١) صحيح البخاري باب العلم قبل القول والعمل ج ١ ص ٣٠.

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص ٩٤.

بَالْسُنْتِهِمْ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ وفي الصحيح عن عثمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ { من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة } ^{(١) (٢)}

قال الدكتور محمد بكر إسماعيل : « فمن شهد أنه لا إله إلا الله فقد وافق الله عز وجل في شهادته لنفسه ، ووافق الملائكة في شهادتهم لربهم بالوحدانية وكان من أولي العلم ، ولهذا قال الله لنبيه محمد ﷺ ﴿ فَأَعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ (محمد: ١٩) .

إن الإيمان بلا علم كشجرة بلا ثمر ، أو كجسد بلا روح .

ومن هنا سُمِّيَ أهل التوحيد العارفين بالله ، فهم قد وحدوه بعد أن عرفوه .

ولنا يجب علينا أن نتعلم أصول التوحيد وشروطه وأدابه وقواعده وضوابطه - حتى تكون شهادتنا له بالتوحيد شهادة صحيحة ، فالشهادة لا تصح إلا بعلم ، فكيف يشهد بالوحدانية من لم يعرف أن الله متصف بكل كمال ، ومنزه عن كل نقص ، وأنه ليس كمثله شيء ، وأنه الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله » ^(٣) .

(١) مسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على من مات على التوحيد ٢٤٩/١ { ٢٦/٤٣ } نووي .

(٢) معارج القبول ج ١ ص ٣٢٧ ، ٣٢٨ .

(٣) أسماء الله الحسنى ص ١٢ .

سورة الفتح

ارتبطت هذه السورة بما قبلها ، إذ إن السورة السابقة تتحدث عن أحكام القتال وهذه عن نتيجته وهو النصر والفتح ، في السورة السابقة أمر النبي ﷺ بالاستغفار له وللمؤمنين ﴿ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (حمد: ١٩) وفي هذه السورة بيان بحصول هذه المغفرة في الآية الثانية ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (الفتح: ٢) والخامسة ﴿ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح: ٥). ومن جهة أخرى فإن محمدا ﷺ الذي حملت السورة السابقة اسمه يناسبه أعظم المناسبة أن يجيء في أعقاب سورته سورة [الفتح] إذ كان هذا الفتح لمحمد عليه الصلاة والسلام .

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ (الفتح: ١).

قال الألوسي : « وتقديم ﴿ لَكَ ﴾ على المفعول المطلق أعني قوله تعالى ﴿ فَتَحْنَا مُبِينًا ﴾ مع أن الأصل تقديمه على سائر المفاعيل كما صرح به العلامة التفتازاني للاهتمام بكون ذلك لنفعه عليه الصلاة والسلام وقيل : لأنه مدار الفائدة^(١).
﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح: ٤).
تقدم المسند {لله} على المسند إليه ﴿ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ لإفادة الحصر .

﴿ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ (الفتح: ٥، ٦) .

بدأ بذكر ثواب المؤمنين تعجلاً للمسرة والبشارة لهم ، وفي العذاب بدأ بالمنافقين قبل الكافرين لأنهم أكثر ضرراً وأشد خطراً وأعظم كفراً ولهذا توعدهم

(١) روح المعاني : ج ٢٦ ص ٨٩ .

الله بعذاب أشد من عذاب الكافرين في سورة النساء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ (النساء: ١٤٥).

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الأحزاب : ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ (الأحزاب: ٧٣).

قال الرازي : « واعلم أنه قدم المنافقين على المشركين في الذكر في كثير من المواضع لأمر أحدها : أنهم كانوا أشد على المؤمنين من الكافر المجاهر لأن المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر وكان يخالط المنافق لظنه بإيمانه ، وهو كان يفشي أسرارهم ، وإلى هذا أشار النبي ﷺ بقوله : { أعدى عدوك نفسك التي بين جنبك } والمنافق على صورة الشيطان فإنه لا يأتي الإنسان على أنه عدوه ، وإنما يأتيه على أنه صديقه ، والمجاهر على خلاف الشيطان من وجه ، ولأن المنافق كان يظن أنه يتخلص للمخادعة والكافر لا يقطع بأن المؤمن إن غلب يفديه ، فأول ما أخبر الله أخبر عن المنافق »^(١).

قال المراغي : « وإنما قدم المنافقين على المشركين لأنهم كانوا أشد ضرراً على المؤمنين من الكافرين المجاهرين ، لأن المؤمن كان يتوقى المجاهر ، ويخالط المنافق لظنه إيمانه ، وكان يفشي سره إليه وفي هذا دلالة على أنهم أشد منهم عذاباً وأحق منهم بما أوعدهم الله به »^(٢).

وفي الآية تقديم وتأخير التفت إليه صاحب النظم القرآني فقال : « وفي تقديم إدخال المؤمنين والمؤمنات الجنة على تكفير السيئات ، وذلك على خلاف الظاهر الذي يقضي بأن يكون تكفير السيئات أولاً ، ثم دخول الجنة ثانياً إذ لا دخول للجنة إلا بعد تكفير السيئات ، وفي هذا إشارة إلى أن دخول الجنة أمر مقضي به لكل مؤمن ومؤمنة سواء كان ذلك من غير عذاب ، أو بعد أن يستوفي العصاة من المؤمنين عذابهم ، فهم جميعاً موعودون بالجنة ، وحسب المؤمن - أياً كان - أن يرحل عن النار ، ويدخل الجنة كما يقول سبحانه : ﴿ فَمَنْ رُحِزَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (آل عمران: ١٨٥)^(٣).

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٨ ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٢) تفسير المراغي ج ٢٦ ص ٨٧ .

(٣) التفسير القرآني ج ٢٦ ص ٤٠١ .

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾

(الفتح: ١٧)

قال الرازي في المسألة الثالثة : « قدم الآفة في الآلة على الآفة في القوة ، لأن الآفة في القوة تزول وتطراً والآفة في الآلة إذا طرأت لا تزول ، فإن الأعمى لا يعود بصيراً فالعذر في محل الآلة أتم .

المسألة الرابعة : قدم الأعمى على الأعرج لأن عذر الأعمى يستمر ولو حضر القتال والأعرج إن حضر ركباً أو بطريق آخر يقدر على القتال بالرمي وغيره»^(١)
وقال الخازن : « وإنما قدم الأعمى على الأعرج لأن عذر الأعمى مستمر لا يمكن الانتفاع به في حرس ولا غيره بخلاف الأعرج لأنه يمكن الانتفاع به في الحراسة ونحوها ، وقدم الأعرج على المريض لأن عذره أشد من عذر المريض لإمكان زوال المرض عن قريب»^(٢).

﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾

(الفتح: ٢٧)

تقدم التحليق هنا على التقصير وهذا التقديم للتفضيل إذ إن ثواب التحليق أعظم من التقصير في الحج والعمرة ، ودليل ذلك فعل النبي ﷺ وقوله ، روى مسلم في باب تفضيل الحلق على التقصير وجواز التقصير أن عبد الله قال : حلق رسول الله وحلق طائفة من أصحابه وقصّر بعضهم قال عبد الله إن رسول الله ﷺ قال : {رحم الله المحلقين مرة أو مرتين والمقصرين مرة} . وقد ساق مسلم بعد هذا الحديث ستة أحاديث تثبت فضل الحلق على التقصير حيث جاءت الأحاديث بالدعاء بالرحمة والمغفرة للمحلقين قبل المقصرين مرتين وثلاث مرات^(٣).

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٨ ص ٩٤.

(٢) تفسير الخازن ج ٥ ص ٤٨٨.

(٣) صحيح مسلم باب تفضيل الحلق على التقصير وجواز التقصير حديث رقم ١٣٠١ وينظر في

الجزء التاسع من ص ٧١ - ٧٤.

سورة الحجرات

هناك ارتباط قوي أيضاً بين هذه السورة والسورة المتقدمة ، ففي سورة الفتح بيان أحكام القتال الخارجي مع غير المسلمين ، وفي هذه السورة بيان أحكام القتال الداخلي ضد البغاة من المسلمين ، اختتمت السورة السابقة بذكر المؤمنين ووعد الله لهم ، ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(الفتح: ٢٩)

وافتح هذه السورة بذكر المؤمنين تذكيراً لهم بحرماتهم ومكانتهم عند الله ، في كلتا السورتين تشریف كريم للرسول ﷺ ، ففي الأولى بيان بالتكريم الدنيوي بعد التكريم الآخروي وما ينبغي أن يعامل به النبي ﴿ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُحْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ وفي هذه السورة بيان أيضاً بما ينبغي أن يعامل به النبي ﷺ في الخمس آيات الأول من عدم تقدمه بقول ولا فعل وعدم رفع الصوت عليه وبيان أن ذلك محبط للعمل ، بيان فضل من غض الصوت عنده ، بيان حكم من يناديه من وراء الحجرات ووصفه بعدم العقل .

قال البقاعي : « ولما نوه سبحانه في القتال - أي سورة محمد - بذكر النبي ﷺ وصرح في ابتدائها باسمه الشريف وسمى السورة به وملاً سورة محمد بتعظيمه ، وختمها باسمه ومدح أتباعه لأجله افتتح هذه باشتراط الأدب معه في القول والفعل للعد من حزبه والفوز بقربه ومدار ذلك معالي الأخلاق » .^(١)

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَأَتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الحجرات: ١)

قال صاحب التحرير : « وجعلت هذه الآية في صدر السورة مقدمة على توبيخ وفد بني تميم حين نادوا النبي ﷺ من وراء الحجرات ؛ لأن ما صدر من بني تميم هو من قبيل رفع الصوت عند النبي ﷺ ؛ لأن ممارسة أبي بكر وعمر وارتفاع صوتيهما كانت في قضية بني تميم فكانت هذه الآية تمهيداً لقوله : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ

(١) نظم الدرر ج ٧ ص ٢٢٠ .

ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ (الحجرات: ٢).

لأن من خصه الله بهذه الحظوة ، أي جعل إبرام العمل بدون أمره كإبرامه بدون أمر الله حقيق بالتهيب والإجلال أن يخفض الصوت لديه ، وإنما قدم هذا على توبيخ الذين نادوا النبي ﷺ لأن هذا أولى بالاعتناء إذ هو تأديب من هو أولى بالتهذيب»^(١).

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَلٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْهِبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (الحجرات: ٦).

تقدم المجرور ﴿ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ ﴾ على متعلقه ﴿ تَبَيَّنُوا ﴾ للاهتمام بالتفكير من الإصغاء الذي يفضي إلى هذا الفعل المتقدم عليه ، فالتقديم من أجل الاهتمام بالسبب المفضي إلى هذه النتيجة وهو الندم .

﴿ وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ (الحجرات: ٧).

تقدم الجار والمجرور ﴿ فِيكُمْ ﴾ وهو الخبر على المبتدأ ﴿ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ لبيان إظهار النعمة والفضل بتخصيص وجود النبي ﷺ بين أظهرهم ، وتبييناً على وجوب الاعتباط به والإخلاص له لأن كونه فيهم شرف ورحمة لهم جميعاً .
﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ (الحجرات: ٩).

قال الرازي : « ولم يقل وإن اقتتل طائفتان من المؤمنين مع أن كلمة {إن} اتصالها بالفعل أولى وذلك ليكون الابتداء بما يمنع الاقتتال فيؤكد معنى النكرة المدلول عليها بكلمة {إن} وذلك لأن كونهما طائفتين مؤمنتين تقتضي ألا يقع القتال منهما ، فإن قيل : فلم لم يقل يا أيها الذين ءامنوا إن فاسق جاءكم ، أو إن أحد من الفساق جاءكم ، ليكون الابتداء بما يمنعهم من الإصغاء إلى كلامه وهو كونه فاسقاً ؟ نقول : المجيء بالنبا الكاذب يورث كون الإنسان فاسقاً أو يزداد بسببه فسقه فالمجيء به سبب الفسق فقدمه ، وأما الاقتتال فلا يقع سبباً للإيمان أو الزيادة فقال : ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ ﴾ أي سواء كان فاسقاً أو لا أو جاءكم بالنبا

(١) تفسير التحرير والتنوير ج ٢٦ ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

فصار فاسقاً به ولو قال : وإن أحد من الفساق جاءكم كان لا يتناول إلا مشهور
الفسق قبل المجيء إذا جاءهم النبأ»^(١)

﴿يَتَأْتِي النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾

(الحجرات: ١٣)

تقدم قوله : ﴿خَلَقْنَكُمْ﴾ على قوله : ﴿وَجَعَلْنَكُمْ﴾ لأن الخلق أصل تفرع عليه
الجعل واعتبار الأصل مقدم على اعتبار الفرع ، وتقدمت الشعوب على القبائل من
باب ذكر الأعم لأنه أذهب للافتخار ؛ لأن الأمر الأعم منها يدخله فقراء وأغنياء
كثيرون غير محصورة وضعفاء وأقوياء كثيرون غير معدودة .

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا
بِمُؤْلِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٥).

قال الرازي : « هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ، وهي
إما مع الله تعالى أو مع الرسول ﷺ أو مع غيرهما من أبناء الجنس ، وهم على
صنفين : لأنهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين ، وداخلين في رتبة الطاعة ،
أو خارجين عنها ، وهو الفاسق والداخل في طائفتهم السالك لطريقتهم ، إما أن
يكون حاضراً عندهم ، أو غائباً عنهم فهذه خمسة أقسام :

أولها : يتعلق بجانب الله .

وثانيها : بجانب الرسول .

وثالثها : بجانب الفساق .

ورابعها : بالمؤمن الحاضر .

وخامسها : بالمؤمن الغائب .

فذكر الله تعالى في هذه السورة خمس مرات ﴿يَتَأْتِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وأرشد في
كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة .

فقال أولاً : ﴿يَتَأْتِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وذكر
الرسول كان لبيان طاعة الله لأنها لا تعلم إلا بقول رسول الله .

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٨ ص ١٢٧ .

وقال ثانياً : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ لبيان وجوب احترام النبي ﷺ .

وقال ثالثاً : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ ﴾ لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم ، فإنهم يريدون لقاء الفتنة بينكم ، وبين ذلك عند تفسير قوله : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾

وقال رابعاً : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ ﴾ وقال ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا ﴾ لبيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين في حضورهم ، والإزرار بحالهم ومنصبهم .

وقال خامساً : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبِئُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ وقال : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ وقال ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ لبيان وجوب الاحتراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته ، وذكر ما لو كان حاضراً لتأذى . وهو في غاية الحسن من الترتيب .

فإن قيل : لمَ لم يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة . الابتداء بالله ورسوله ثم بالمؤمن الحاضر ثم بالمؤمن الغائب ثم بالفاسق ؟

نقول : قدم الله ما هو الأهم على ما دونه ، فذكر جانب الله ، ثم جانب الرسول ، ثم ذكر ما يفضي إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق ، والاعتماد عليه ، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفاراً للصدور . وأما المؤمن الحاضر أو الغائب فلا يؤدي المؤمن إلى حد يفضي إلى القتال . ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقيب نبأ الفاسق آية الاقتتال فقال : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ ^(١) .

ذكر القاسمي عن الشهاب قوله : { ووقدم الأموال لحرص الإنسان عليها ، فإن ماله شقيق روحه } ^(٢) .

﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الحجرات: ١٧) .

وتقديم المسند إليه { الله } على المسند الفعلي ﴿ يَمُنُونَ ﴾ لتحقيق إثبات المن لله تعالى .

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٨ ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٢) تفسير القاسمي ج ٨ ص ٥٤٣ .

سورة ق

أخبر تعالى في سورة الحجرات بأن إيمان الأعراب لم يكن حقاً وذلك دليل على عدم تيقنهم في النبوة والبعث ، وافتتح الله هذه السورة بوصف إنكار المشركين نبوة النبي ﷺ وإنكار البعث والرد عليهم بالدليل القاطع .

﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَمْ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكْ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَمِئْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ (ق: ١-٥) .

قال الرازي : في قوله : ﴿ بَلْ عَجِبُوا ﴾ « يدل على أمر سابق أضرب عنه ، وقد ذكرنا أنه الشك ، وتقديره : والقرآن المجيد إنك لمنذر وإنهم شكوا فيك بل عجبوا ، بل كذبوا ، وهذه مراتب ثلاث ، الأولى : الشك وفوقها التعجب ، لأن الشاك يكون الأمر عنده سيان ، والمتعجب يترجح عنده اعتقاد عدم وقوع العجيب لكنه لا يقطع به ، والمكذب الذي يجزم بخلاف ذلك ، فكأنهم كانوا شاكين وصاروا ظانين جازمين فقال : ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾ مرتباً على ما تقدم وفيما ذكرناه لا يكون مرتباً فإن قيل المريج المختلط ، وهذه أمور مرتبة متميزة على مقتضى العقل لأن الشاك ينتهي إلى درجة الظان والظان ينتهي إلى درجة القطع وعند القطع لا يبقى الظن وعند الظن لا يبقى الشك ، وأما ما ذكرناه ففيه يحصل الاختلاط لأنهم لم يكن لهم في ذلك ترتيب بل تارة كانوا يقولون كاهن وأخرى مجنون ، ثم كانوا يعودون إلى نسبته إلى الكهانة بعد نسبته إلى الجنون ، وكذا إلى الشعر بعد السحر وإلى السحر بعد الشعر فهذا هو المريج ، نقول : كان من الواجب أن ينتقلوا من الشك إلى الظن بصدقه لعلمهم بأمانته واجتنابه الكذب طول

عمره بين أظهرهم ومن الظن إلى القطع بصدقه لظهور المعجزات القاهرة على يده
ولسانه فلما غيروا الترتيب حصل عليه المرج .^(١)

﴿ إِنَّا نَحْنُ مُخِيءٌ وَنُؤْمِتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ﴾ (ق: ٤٣).

تقدم الجار والمجرور ﴿ وَإِلَيْنَا ﴾ على المسند إليه ﴿ الْمَصِيرُ ﴾ لاختصاص
الرجوع إلى الله وحده ومراعاة الفاصلة .

﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ (ق: ٤٤).

وتقديم الظرف هنا للاختصاص قال الزمخشري : « يعني لا يتيسر مثل ذلك
الأمر العظيم إلا على القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن » .^(٢)

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٨ ص ١٥٤ .

(٢) الكشف ج ٤ ص ٣٨٤ .

سورة الذاريات

اختتمت سورة ق بقوله : ﴿ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۚ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ ۚ فَذَكِّرْ
بِالْقُرْآنِ ۚ إِنَّ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۚ ﴾ (ق: ٤٥) افتتح هذه السورة بالقسم على هذا الوعيد فقال :
﴿ وَالذَّارِيْنَ ذَرَوْا ۚ ۝ فَالْحَمِلَتِ ۖ وَفَرَّ ۝ فَالْجُرَيْتِ يُسْرًا ۝ ۚ فَالْمُقَسِّمَتِ أَمْرًا ۝ ۚ
إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ ۝ ۚ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ۝ ﴾ (الذاريات: ١-٦) .

﴿ وَالذَّارِيْنَ ذَرَوْا ۚ ۝ فَالْحَمِلَتِ ۖ وَفَرَّ ۝ فَالْجُرَيْتِ يُسْرًا ۝ ۚ فَالْمُقَسِّمَتِ أَمْرًا ۝ ۚ ﴾
(الذاريات: ١-٤) ، إذا كان المقسم به هو الرياح فإن الترتيب هنا ترتيب وجودي
فالرياح تتحرك أولاً مشيرة للسحاب ﴿ وَالذَّارِيْنَ ذَرَوْا ۚ ﴾ ومنه قوله تعالى : ﴿ تَذَرُوهُ
الرِّيحُ ﴾ (الكهف: ٤٥) ﴿ تَذَرُوهُ الرِّيحُ ﴾ ثم تحرك السحاب وتقله ﴿ فَالْحَمِلَتِ
وَفَرَّ ﴾ وتحرك كذلك الفلك ﴿ فَالْجُرَيْتِ يُسْرًا ﴾ ثم تنطلق حيث أمرت بتقسيم
الأمطار بتصرف السحاب حيث يريد الله ، ثم كانت هي السبب لعمل الملائكة في
حياة الناس ﴿ فَالْمُقَسِّمَتِ أَمْرًا ۝ ۚ ﴾ .

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝ ۚ ءَاخِذِينَ مَا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ
ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ۝ ۚ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ ۚ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ ۚ
وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (الذاريات: ١٥-١٩) .

تقدم ذكر حق الخالق هنا لأنه أولى بالتقديم ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ
وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الذاريات: ١٧-١٨) على حق المخلوقين .
﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (الذاريات: ١٩)

وتقديم الجار والمجرور ﴿ وَبِالْأَسْحَارِ ﴾ على متعلقه ﴿ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ لبيان أهمية
وفضل هذا الوقت على غيره من الأوقات في الاشتغال بالاستغفار .

﴿ وَفِي الْأَرْضِ ءَايَاتٌ لِّمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات: ٢٠)

تقدم الجار والمجرور ﴿ وَفِي الْأَرْضِ ﴾ للتشويق إلى معرفة ما فيها .

﴿ هَلْ أَتَتْكَ حَدِيثٌ ضَلَفَ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ (الذاريات: ٢٤)

تقدم الاستفهام التقريري في الآية تفخيماً لشأن الحديث ولفتاً للنظر والانتباه ،
مع تهديد العرب ووعيدهم ووعظهم .

سورة الطور

لما ختمت الذاريات بتحقيق الوعيد في قوله تعالى ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ (الذاريات: ٦٠) افتتحت سورة الطور بالقسم على تحقيق روح الوعيد الذي هو العذاب ﴿ وَالطُّورِ ﴾ ﴿ وَكِتَابٍ مُنشُورٍ ﴾ ﴿ فِي رَقٍّ مُنشُورٍ ﴾ ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ ﴿ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴾ (الطور: ١-٨).

﴿ وَالطُّورِ ﴾ ﴿ وَكِتَابٍ مُنشُورٍ ﴾ ﴿ فِي رَقٍّ مُنشُورٍ ﴾ ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ (الطور: ١-٧).

بدأ القسم بطور سيناء إشارة إلى رسالة موسى ، حيث كان الكثير من الآيات التي أنزلت على نبي الله موسى - عليه السلام - في هذا المكان فقد كانت فيه المناجاة وكتابة الألواح وإحياء بني إسرائيل بعد صعقتهم فيه إلى غير ذلك من الآيات التي حدثت في هذا المكان ، ثم ثنى بقوله : ﴿ وَكِتَابٍ مُنشُورٍ ﴾ إشارة إلى الصلة بين موسى ومحمد الذي ثلث به إشارة إليه عن طريق القسم بالبيت المعمور الذي هو الكعبة ، ثم ذكر السقف المرفوع ليرشدتهم إلى النظر في الآيات العلوية ، ثم ختم بما فيه التهديد والوعيد بذكر ﴿ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴾ الذي منعه من الطغيان على ظهر الأرض ولو خلاه لأهلك كل شيء من جبل وأرض وبيت ، ولهذا جاءت الآية التالية ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ .

﴿ أَفَسِحْرُ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ (الطور: ١٥).

أصل الترتيب أفعدا سحر وقد تقدم الخبر ﴿ أَفَسِحْرُ ﴾ على المبتدأ ﴿ هَذَا ﴾ لأن السحر هو المقصود بالإنكار والتوبيخ ولهذا بدأ به .

سورة النجم

لما ختمت الطور بأمر النبي ﷺ بالتسبيح والتحميد عند إدبار النجوم افتتحت هذه السورة بالقسم بالنجم .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى ﴾ (النجم: ٣٠).
تقدم العلم بمن ضل عن سبيله في غير هذا الموضع ، فمنه قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (الأنعام: ١١٧)

ومنه قوله تعالى في سورة {ن} ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (القلم: ٧)

في هذه المواضع كلها المذكور نبيه ﷺ والمعاندون ، فذكرهم أولاً تهديداً لهم وتسلياً لقلب نبيه ﷺ .

﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ (النجم: ٢٥).

قدمت الآخرة على الأولى هنا لأنها أشرف منها وأفضل ، كما أنها هي الأولى بابتغاء الخير والسعي لها وتعليق الأمانى بها .

﴿ الَّذِينَ يَحْتَبِرُونَ كَثِيرٌ أَكْثَرُ الْفَوَاحِشِ إِلَّا اللَّائِمُ ﴾ (النجم: ٣٢).

التقديم هنا للترقي من الكبير إلى الأكبر فالفواحش هي ما فحش من الكبائر .

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ (النجم: ٣٦، ٣٧).

قدم موسى - عليه السلام - في هذه الآية وآخر في سورة الأعلى في قوله تعالى :
﴿ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ (الأعلى: ١٩) وأقول : الترتيب في سورة الأعلى من وجهين الأول : أن إبراهيم أفضل من موسى ، والثاني : لسبقه في الوجود ، أما هنا فإن الكلام مع أهل الكتاب وهم اليهود فقدم كتابهم من أجل ذلك ، وإذا كان الخطاب ليس مع أهل الكتاب بل هو عام لكل المشركين ، فالتقديم هنا لكون صحف

موسى أقرب زماناً وأشهر ذكراً ولمخالطة المشركين اليهود فكانوا بها أعرف
وذكرها لديهم أشهر .

﴿وَأَنْ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ ٤٢ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ ٤٣ ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾

(النجم: ٤٢-٤٤)

تقدم الجار والمجرور فى ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ لإفادة الاختصاص فالمنتهى إليه وحده ،
أما لماذا تقدم الضحك على البكاء هنا؟ فأقول : الضحك هو آخر مراحل السرور
والسعادة فعندما يسر الإنسان يبدأ ذلك بارتياح فى قلبه ثم يبتسم ثم يضحك ، إذاً
الضحك هو نتيجة لتوالي السعادات والنعم السابقة التي أنعم الله بها على الإنسان ،
والبكاء هو آخر علامة تظهر على وجه الحزين مثل الضحك وهو أمر عارض
سبقه توالي الإحسان والرحمة والكرم ولهذا قدم عليه ، أما تقدم الموت على
الحياة فهو من باب التقدم الوجودي ومنه قوله تعالى فى سورة الملك : ﴿الَّذِي
خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٢).

سورة القمر

لما ختمت النجم بالحديث عن قرب حدوث القيامة ﴿ أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ ﴾ ١٧ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿ ١٨ ﴾ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿ ١٩ ﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَتَّبِعُونَ ﴿ ٢٠ ﴾ وَأَنْتُمْ سَامِعُونَ ﴿ ٢١ ﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿ (النجم: ٥٧-٦٢) .

افتتحت السورة هنا بجنس من أجناس المخلوقات السماوية الأخرى الأكبر حجماً وهو القمر الذي دل انشقاقه على قرب حدوث القيامة أيضاً .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴾ ٢٢ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴿ ٢٣ ﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴿ (القمر: ١٩-٢١) .

تقدم الوصف بالذات ﴿ صَرْصَرًا ﴾ على الوصف بالفعل ﴿ تَنْزِعُ ﴾ ليعلم شدة ما حل بهم من عذاب وتقدم ذكر العذاب على الإنذار مع كون العذاب لا يكون إلا متأخراً عنه كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (الإسراء: ١٥) وقد تقدم الإنذار أيضاً في هذه السورة على ذكر العذاب ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ ٢٤ حِكْمَةً بَلِغَةً فَمَا تُغْنِ الْنُذُرُ ﴿ (القمر: ٤، ٥) .

وعن سر هذا الترتيب أقول : تقدم ذكر العذاب للاهتمام به حيث كان هو المقصود بالإنذار به فبدأ بالسؤال عنه على سبيل التهكم بهم ولما فيه من الوعيد لكفار مكة أن يلحقهم مثله فبدأ به .

﴿ أَبَشِّرْهُمَا بِمَا وَاعِدَ تَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِئَ صُلَلٍ وَشُعْرٍ ﴾ (القمر: ٢٤)

تقدم المفعول في الاستفهام الإنكاري حيث أنكروا أن يكون البشر ممن يصح اتباعه وأن يكون مبعوثاً من عند الله ، فإنهم كانوا ينكرون ذلك ، ويرون أن الرسول يجب أن يكون ملكاً بدليل قولهم : ﴿ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ (إبراهيم: ١٠) . وقولهم : ﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ﴾ (المؤمنون: ٢٤)

سورة الرحمن

لما ختم سبحانه وتعالى القمر بعظيم الملك والقدرة ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿١﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِندَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٢﴾﴾ (القمر: ٥٤، ٥٥) وكان الملك القادر لا يكمل ملكه إلا بالرحمة وكانت رحمته لا تتم إلا بعمومها قصر هذه السورة على تعداد نعمه على خلقه في الدارين وذلك من آثار الملك ، وفصل فيها ما أجمل في القمر من مقر الأولياء والأعداء في الآخرة وصدرها بالاسم الدال على عموم الرحمة .

﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَكِيهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾ (الرحمن: ١-١٢).

بدأ تعالى عند تعدد النعم بالأعلى منها وهو تعليم القرآن ، والقرآن كلام الله وهو صفة من صفاته ولهذا قدم على خلق الإنسان ، كما أن خلق الإنسان إنما هو من أجل عبادة ربه ، تلك العبادة التي لا يستطيع العقل البشري أن يستقل بإدراكها ولا معرفة كيفيتها ولا ضوابطها فكان من رحمة الله بعباده أن أرسل إليهم كتاباً أبان لهم فيه ما أحب وما كره ، فلما كان الكتاب هو الهادي لتلك الغاية والوسيلة الموصلة إليها تقدمت على خلق الإنسان الذي لن يصل إلى تلك الغاية إلا بها ، هذه الغاية التي بها تتعلق سعادة الإنسان أو شقاؤه الأبدي ، وتقدم خلق الإنسان على التعليم تقديم وجود .

وعن سر هذا التقدم قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « وقد كان سياق المعنى يقضي - في ظاهر الأمر بأن يقدم خلق الإنسان على تعلمه القراءة مطلقاً أو قراءة القرآن بصفة خاصة ، ولكن النظم القرآني لا يوزن بميزان نظم البشر لكلامهم فهذا كلام الله وكلامه صفة من صفاته ، والفرق بين كلام الله وكلام البشر كالفرق بين صفات الله وصفات عباد الله ولا تصح المقايسة بحال أبداً بين الخالق والمخلوق ..

نقول - كان سياق النظم يقضي - في ظاهر الأمر - بأن يقدم خلق الإنسان على تعلم القرآن فيقال : الرحمن خلق الإنسان علم القرآن ، فماذا إذن وراء هذا النظم الذي جاء عليه القرآن ؟

والجواب : أن وراء هذا النظم كثيراً من الأسرار لا يحصيها العد ولا يحيط بها العقل . . وإنما هي أسرار تتكشف حالاً بعد حال على مسرح العقول وعلى امتداد الأزمان والأباد . . والذي يبدو لنا من هذا النظم - والله أعلم - أن القراءة وهي - كما قلنا - قراءة عامة في صحف الوجود ، وفي الكتب - هي التي تكشف للإنسان الطريق إلى الله وتدله على ما لله سبحانه من كمال وجلال ومن تفرد بالخلق والأمر ، والتعرف على الله هو الغاية من خلق الإنسان على تلك الصورة الفريدة التي امتاز بها عن عالم المخلوقات كلها ، والتي استقل بها وحده بحمل الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، والتي بها أيضاً استحق أن يكون أولى من الملائكة بخلافة الله على هذه الأرض . . فلمعرفة الله تلك المعرفة القائمة على وعي وإدراك وعلى حساب وتقدير - كان خلق الإنسان . .

فمعرفة الله هي العلة وخلق الإنسان ليقوم بوظيفة هذه المعرفة هو معلول لهذه العلة والعلة مقدمة على معلولها ولهذا قدم قوله تعالى : ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ على قوله : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ وقد ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ أي خلقه ذا عقل وإدراك . ^(١)

قال أبو حيان : « وبدأ بقوله ﴿ فَكَلَّمَهُ ﴾ إذ هو من باب الابتداء بالأدنى والترقي إلى الأعلى . . وبدأ بالفاكهة ، وختم بالمشموم وبينهما النخل والحب ليحصل ما به يتفكه وما به يتقوت وما به تقع اللذات من الرائحة الطيبة » . ^(٢)

وتقدمت الفاكهة على اللحم في قوله تعالى : ﴿ وَفَكَكَّهُ مِمَّا يَتَخَبَّروُنَ ﴾  وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ ﴾ (الواقعة: ٢٠، ٢١) .

قال الرازي : « وفي الترتيب وجوه :

أحدها : هو أن الله تعالى لما ثبت كونه رحمن ، وأشار إلى ما هو شفاء ورحمة وهو القرآن ذكر نعمه وبدأ بخلق الإنسان فإنه نعمة ، جميع النعم به تتم ، ولولا

(١) التفسير القرآني ج ٢٧ ص ٦٥٨ .

(٢) البحر المحيط ج ٨ ص ١٨٨ .

وجوده ما انتفع بشيء ثم بين نعمة الإدراك بقوله : ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ وهو كالوجود - إذ لولاه - لما حصل النفع والانتفاع ثم ذكر من المعلومات نعمتين ظاهرتين هما أظهر النعم السماوية ، وهما الشمس والقمر ، ولولا الشمس لما زالت الظلمة ، ولولا القمر لفات كثير من النعم الظاهرة بخلاف غيرهما من الكواكب فإن نعمها لا تظهر لكل أحد مثلما تظهر نعمتهما ، ثم بين كمال نفعهما في حركتهما بحساب لا يتغير ولو كانت الشمس ثابتة في موضع لما انتفع بها أحد ، ولو كان سيرها غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها وبناء الأمر على الفصول ، ثم بين في مقابلهما نعمتين ظاهرتين من الأرض وهما النبات الذي لا ساق له والذي له ساق فإن الرزق أصله منه ، ولولا النبات لما كان للآدمي رزق إلا ما شاء الله ، وأصل النعم على الرزق الدار ، وإنما قلنا النبات هو أصل الرزق لأن الرزق إما نباتي وإما حيواني كاللحم واللبن وغيرهما من أجزاء الحيوان ولولا النبات لما عاش الحيوان ، والنبات هو الأصل وهو قسمان قائم على ساق كالحنطة والشعير والأشجار الكبار وأصول الثمار وغير قائم كالبقول المنبسطة على الأرض والحشيش والعشب الذي هو غذاء الحيوان .

ثانيها : هو أنه تعالى لما ذكر القرآن وكان هو كافياً لا يحتاج معه إلى دليل آخر قال بعده ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانٌ ﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ ﴿ (الرحمن: ٥، ٦) وغيرها من الآيات إشارة إلى بعض الناس إن تكن النفس الزكية التي يغنيها الله بالدلائل التي في القرآن فله في الآفاق آيات منها الشمس والقمر ، وإنما اختارهما للذكر لأن حركتهما بحسبان تدل على فاعل مختار سخرهما على وجه مخصوص فإن قيل : ما الفائدة في تقديم السماء على الفعل حيث قال : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا ﴾ وتقديم الفعل على الميزان حيث قال : ﴿ وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴾ ؟ نقول : قد ذكرنا مراراً أن في كل كلمة من كلمات الله فوائد لا يحيط بها علم البشر إلا ما ظهر والظاهر هاهنا أنه تعالى لما عد النعم الثمانية كما بينا وكان بعضها أشد اختصاصاً بالإنسان من بعض ، فما كان شديد الاختصاص بالإنسان قدم فيه الفعل ، كما بينا أن الإنسان يقول أعطيتك الألوف وحصلت لك العشرات ، فلا يصرح في القليل بإسناد الفعل إلى نفسه ، وكذلك يقول في النعم المختصة ،

أعطيتك كذا فيصرح بالإعطاء عند الاختصاص ولا يسند الفعل إلى نفسه عند التشريك ، فكذلك هاهنا أمور أربعة بتقديم الفعل ، قال تعالى : ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ (٢٠٠) خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ (الرحمن: ٢-٤) ووضع الميزان وأمورا أربعة بتقديم الاسم قال تعالى : {والشمس والقمر ، والنجم والشجر ، والسماء رفعها ، والأرض وضعها} لما أن تعليم القرآن نفعه إلى الإنسان أعود ، وخلق الإنسان مختص به ، وتعليمه البيان كذلك ووضع الميزان ، كذلك لأنهم هم المنتفعون به الملائكة ، ولا غير الإنسان من الحيوانات ، وأما الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء والأرض فينتفع به كل حيوان على وجه الأرض وتحت أديم السماء . ثم قال تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ (الرحمن: ١٠) فيه مباحث :

الأول : هو أنه قد مر أن تقديم الاسم على الفعل كان في مواضع عدم الاختصاص وقوله تعالى : ﴿ لِلْأَنَامِ ﴾ يدل على الاختصاص ، فإن اللام لعود النفع نقول : الجواب عنه من وجهين أحدهما : ما قيل أن الأنام يجمع الإنسان وغيره من الحيوان ، فقوله للأنام لا يوجب الاختصاص بالإنسان ، ثانيهما : أن الأرض موضوعة لكل ما عليها وإنما خص الإنسان بالذكر لأن انتفاعه بها أكثر فإنه ينتفع بها وبما فيها وبما عليها ، فقال للأنام لكثرة انتفاع الأنام بها ، إذا قلنا إن الأنام هو الإنسان ، وإن قلنا إنه الخلق فالخلق يذكر ويراد به الإنسان في كثير من المواضع»^(١).

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ (٢٠١) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ ﴿ (الرحمن: ١٤، ١٥) تقدم هنا ذكر الإنسان على الجن وهذا التقديم لبيان مجمل ما ذكر عن الإنسان في الآية الثالثة وهذا التقديم يبين فضل وشرف الإنسان على الجن ، وقد تقدم ذكر الإنسان على الجن أيضاً في الآية التاسعة والثلاثين من نفس السورة في قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا ظَنُّنَا أَنَّ لَن تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ (الجن: ٥).

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٩ ص ٨٨-٩٣

والتقديم هنا للإنس والله أعلم لأنهم المخاطبون بهذا القرآن فناسب أن يقدموا في الوعيد لأنهم المخاطبون بهذا القرآن ابتداءً ، وليس كما قال الكبيسي : « أنه من أجل اتساق النظم والحفاظ على الجرس »^(١).

فالله تعالى نزه القرآن عن أن يكون شعراً ، وحاشاه أن يقدم أو يؤخر من أجل الحفاظ على الجرس ، فسبحانه من لا يعجزه شيء قادر على أن يأتي بهذا الجرس من غير هذا التقديم . قال تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَنْهَارٍ مَا نَفَذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (لقمان: ٢٧) ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَمِ ﴾ (الرحمن: ٢٤) .

تقدم الجار والمجرور ﴿ وَلَهُ ﴾ لإفادة الاختصاص أي له لا لغيره فلا يغتر أحد بالأسباب .

﴿ يَمْعَشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنْ اسْتِطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَنِ ﴾ (الرحمن: ٣٣) .

تقدم الجن على الإنس في هذا الموضع وتأخر عنه في سورة الإسراء في قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِّبِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (الإسراء: ٨٨)

أقول : إن تقديم الجن هنا أليق بهم ، لأنهم أقدر وأسرع كما قال تعالى في سورة النمل : ﴿ قَالَ يَأْتِيَنَّكَ الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِيَنِي بِعَرْشِي قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ ﴿ قَالَ عِيفَرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ (النمل: ٣٨، ٣٩) .

وأما في سورة الإسراء فالإتيان بمثل القرآن أليق بالإنس إن أمكن ، فهم المعروفون بالتمكن من اللغة وآدابها .

﴿ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ۖ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ۖ ﴿٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ۖ ﴿٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ۖ ﴿٩﴾ فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۖ ﴿١٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ۖ ﴿١١﴾ فِيهَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ۖ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانِ ۖ ﴿١٣﴾ ۚ ﴾

(١) مجلة الحكمة ص ٧٦.

﴿مُتَكِبِينَ عَلَى فُرْشٍ بَطَاطِيهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ ﴿فَبَإِيءَ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ﴿فِيهِنَّ قُنُصِرَاتُ الطَّرَفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ أَنْسُ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ﴾

(الرحمن: ٤٦-٥٦).

هذا الترتيب في هذه الآيات ترتيب في غاية الحسن لأنه في أول الأمر بين المسكن وهو الجن ، ثم بين ما يتنزه به فإن من يدخل بستاناً أولاً يتفرج فقال : ﴿ذَوَاتَا أَفْتَانٍ . فِيهِمَا عِثَانٍ﴾ ثم ذكر ما يتناول من المأكول فقال : ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ ثم ذكر موضع الراحة بعد التناول وهو الفراش ، ثم ذكر ما يكون في الفراش معه .

قال الألوسي : «ولعله إنما قدم سبحانه ذكر الانكاء أولاً على ذكر النساء لأنه عز وجل ذكر في صدر الآية الخوف حيث قال سبحانه : ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ فناسب التعجيل بذكر ما يشعر بزواله إشعاراً ظاهراً وهو الانكاء فإنه من شأن الأمنين ، وأخر سبحانه ذكره ثانياً عن ذكرهن لعدم ما يستدعي التقديم وكونه مما يكون للرجل بعد فراغ ذهنه عما يحتاجه المنزل من طعام وشراب وقينة تكون فيه .^(١)

﴿مُتَكِبِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضِرَ وَعَبَقَرِي حِسَانٍ﴾ (الرحمن: ٧٦)

قال الرازي : «ما الحكمة في تأخير ذكر اتكائهم عن ذكر نسائهم في هذا الموضع مع أنه تعالى قدم ذكر اتكائهم على ذكر اتكاء نسائهم في الجنتين المتقدمتين حيث قال ﴿مُتَكِبِينَ عَلَى فُرْشٍ﴾ ثم قال : ﴿قُنُصِرَاتُ الطَّرَفِ﴾ وقال هاهنا : ﴿خَيْرَاتُ حِسَانٍ﴾ ثم قال : ﴿مُتَكِبِينَ﴾ ؟ والجواب عنه من وجهين :

أحدهما : أن أهل الجنة ليس عليهم تعب ولا حركة ، فهم منعمون دائماً ، لكن الناس في الدنيا على أقسام منهم من يجتمع مع أهله اجتماعاً مستفيضاً وعند قضاء وطره يستعمل الاغتسال والانتشار في الأرض للكسب ، ومنهم من يكون متردداً في طلب الكسب وعند تحصيله يرجع إلى أهله ويريح قلبه من التعب قبل قضاء الوطر فيكون التعب لازماً قبل قضاء الوطر أو بعده ، فالله تعالى قال في بيان أهل الجنة متكبين قبل الاجتماع بأهلهم وبعد الاجتماع .

(١) روح المعاني ج ٢٧ ص ١٣٦.

وثانيهما : هو آنا بينا في الوجهين المتقدمين لأهل الجنة الذين جاهدوا والمتأخرين لذرياتهم الذين ألحقوا بهم فهم فيها وأهلهم في الخيام منتظرات قدوم أزواجهن ، فإذا دخل المؤمن جنته التي هي سكناه يتكئ على الفرش وتنتقل إليه أزواجه الحسان فكونهن في الجنتين المتقدمتين بعد اتكائهم على الفرش ، وأما كونهم في الجنتين المتأخرتين فذلك حاصل في يومنا واتكاء المؤمن غير حاصل في يومنا فقدم ذكر كونهن فيهن هنا وأخره هناك .^(١)

﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن: ٧٨).

لما ختم سبحانه نعم الدنيا بقوله تعالى : ﴿ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن: ٢٧)

ختم نعم الآخرة بهذه الآية ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾

(الرحمن: ٧٨)

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٩ ص ١٣٦.

سورة الواقعة

لما صنف سبحانه الناس في سورة الرحمن إلى ثلاثة أصناف مجرمين وسابقين ولاحقين ، وختم بعله ذلك أنه ذو الجلال والإكرام ، شرح أحوالهم في هذه السورة وبين الوقت الذي يظهر فيه إكرامه وانتقامه بما ذكر في سورة الرحمن غاية الظهور.

﴿ حَافِظَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ (الواقعة: ٣).

أي تخفض أقواماً وترفع آخرين وقدمه قوله ﴿ حَافِظَةٌ ﴾ لأن عدد من تخفضهم أكثر ممن ترفعهم ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يوسف: ١٠٣) ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ (الواقعة: ٨-١٠).

قال الرازي : « ما الحكمة في الابتداء بأصحاب اليمين والانتقال إلى أصحاب الشمال مع أنه في البيان بين حال السابقين ثم أصحاب الشمال على الترتيب والجواب : أن نقول : ذكر الواقعة وما يكون عند وقوعها من الأمور الهائلة إنما يكون لمن لا يكون عنده من محبة الله تعالى ما يكفه مانعاً عن المعصية ، وأما الذين سرهم مشغول بربهم فلا يحزنون بالعذاب ، فلما ذكر تعالى ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ وكان فيه من التخويف ما لا يخفى وكان التخويف بالذين يرغبون ويرهبون بالثواب والعقاب أولى ذكر مذكوره لقطع العذر لا لنفع الخبر ، وأما السابقون فهم غير محتاجين إلى ترغيب أو ترهيب فقدم سبحانه أصحاب اليمين الذين يسمعون ويرغبون ثم ذكر السابقين ليجتهد أصحاب اليمين ويقربوا من درجاتهم»^(١).

أقول : وما ذكره الرازي غوص في المعنى دقيق ولكن عند التحقيق نجد أنه لم يرزق فيما ذهب إليه التوفيق في قوله تعالى : { وأما السابقون فهم غير محتاجين إلى ترغيب أو ترهيب } كيف وقد أثنى الله على الأنبياء وهم أئمة الهدى وسادات السابقين بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩٠) .

(١) مفاتيح الغيب ج ٢٩ ص ١٤٤.

وأقول : لقد أفرد السابقون بالذكر مؤخراً لبيان شرفهم وعظيم قربهم من الله ، ثم بدأ بهم عند بيان فضلهم وحسن جزائهم عند الله تعالى فيما بعد .

وللخازن رأي آخر عن سر التقديم والتأخير في هذه الآيات قال : « فإن قلت لم آخر ذكر السابقين وكانوا أولى بالتقديم عن أصحاب اليمين .

قلت : فيه لطيفة وذلك أن الله تعالى ذكر في أول السورة من الأمور الهائلة عند قيام الساعة تخويفاً لعباده ، فإما محسن فيزداد رغبة في الثواب وإما مسيء فيرجع عن إساءته خوفاً من العقاب ، فلذلك قدم أصحاب اليمين ليسمعوا ويرغبوا ثم ذكر أصحاب الشمال ليرهبوا ، ثم ذكر السابقين وهم الذين لا يحزنهم الفزع الأكبر ليجتهد أصحاب اليمين في القرب منهم » .^(١)

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ﴾ (الواقعة: ١٨).

في تأخير الكأس تأخير حسن ، وكذلك في تقديم الأكواب إذا كان الكوب منه يصب الشراب في الإبريق ومن الإبريق الكأس .

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴾  ﴿ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ﴾ (الواقعة: ٥٨، ٥٩).

أقول : وبعده ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ (الواقعة: ٦٣) وبعده ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ أَلْمَاءَ الَّذِي كَسَّرتُوهْنَ ﴾ (الواقعة: ٦٨) وبعده ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ أَلْنَارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ (الواقعة: ٧١) .

هنا سؤالان عن ترتيب هذه الأشياء التي تختص بقدرة الله تعالى وتقديم بعضها على بعض ، وهل كان يجوز تقديم النار على ذكر الماء ؟

وأقول : الأول هو خلق الإنسان من نطفة ، والنعمة في ذلك قبل النعمة في الثلاثة الأخر التي بعده ، فوجب تقديمه ، ثم بعده ما به قوام الإنسان من فائدة الحرث وهي الطعام الذي لا يستغني عنه الجسد الحي ، وذلك الحب يحتاج إلى الماء من قبل حصوله عندما بذر في الأرض إلى أن يخرج حباً ثم يحتاج بعد حصوله إلى ما يعجن به وهو الماء ، ثم إلى النار التي تعيده خبزاً ، فالترتيب على حسب الحاجة ، والنعمة الثانية بعد الأولى .

وقد تقدم في هذه السورة ذكر نعم الآخرة على نعم الدنيا من الآية الخامسة عشر وحتى الآية السابعة والثلاثين وهو من باب ذكر النتيجة أولاً ثم ذكر ما يدل عليها من نعم الدنيا من الآية التاسعة والخمسين إلى الآية الثالثة والسبعين لتكون قريبة الذكر وهادية للفكر .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ٩٥.

سورة الحديد

لما ختمت الواقعة بالأمر بتنزيه الله عما أنكره الكفرة من البعث ، جاءت هذه السورة لتقرير ذلك التنزيه وتبيينه بالدليل والبرهان وقد ختمت الواقعة بالأمر بالتسبيح ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الواقعة: ٩٦) وابتدأت الحديد بتسبيح الله سبحانه وتعالى ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الحديد: ١). ﴿ حُطِّمْنَا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ (الحديد: ٢٠).

قدم العذاب على المغفرة ، لأن الآية جاءت تواجه الذين خدعوا بالحياة الدنيا وأذهبوا طيباتهم فيها ولهذا جاءت فاصلة الآية مؤكدة لما بدت به ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعُ الْغُورِ ﴾ .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحديد: ٢٥).

لماذا تقدم وصف شدة الحديد وبأسه على صفة نفعه ؟

أقول : لأن دفع الضرر عن الإنسان أولى من جلب النفع لاسيما إن كان الضرر يتعلق بالدين لصد ودفع شر المعتدين الصادين عن سبيل المؤمنين ومن هنا قدم البأس الشديد على منافع الناس .

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ عِثْرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ (الحديد: ٢٧)

وتقديم الرهبانية هنا للتأكيد على ذم الابتداع ، وأنها لك تشرع من عند الله فكان البدء بها لإنكار .

قال البقاعي : « وفي التقديم على العامل سر آخر ، وهو الصلاحية على العطف على ما قبلها لئلا يتوهم من لفظ الابتداع أن لا صنع لله فيها » .^(١)

(١) نظم الدرر ج ٧ ص ٤٦٢ .

سورة المجادلة

مقصود السورة الإعلام بإيقاع البأس الشديد ، الذي أشارت إليه سورة الحديد بمن حاد الله ورسوله ، وكذلك الحديث عن أعمال المنافقين الذين استحقوا بسببها ضرب الظلمة عليهم والخلود في المذكورين في سورة الحديد ، فجاءت سورة المجادلة ذاكراً أسباب ذلك الحكم السابق عليهم .

﴿ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِمَّنْ نَسَاهُمْ مَا هُمْ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهُتُهُمْ إِلَّا النَّسَى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ ﴾ (١)
وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكُمْ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢﴾ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِينَ مَسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣﴾ (المجادلة: ٢-٤) .

هذا الترتيب في الكفارات هو الترتيب الواجب فيها ، فالإعتاق أولاً ثم الصيام ثم الإطعام ، وقد دلت الأحاديث في السنة على اعتبار هذا الترتيب القرآني ، كما ثبت في قصة الذي جامع امرأته في رمضان فقد رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه وفيه : { فقال أتجد ما تحرر به رقبة ؟ قال لا قال : فتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ قال : لا قال : أفوجد ما تطعم به ستين مسكيناً ؟ قال : لا قال : فأتني النبي صلى الله عليه وسلم بعرق فيه تمر وهو الزنبيل قال : أطعم هذا عنك قال : على أحوج منا ما بين لابتيها أهل بيت أحوج منا قال فاطعمه أهلك } (١)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(المجادلة: ٧)

بدأ بالعدد القليل قبل الكثير لأنه أخفى منه وأكد ذلك تقدم لفظة ﴿ أَدْنَى ﴾ على ﴿ أَكْثَر ﴾ في قوله : ﴿ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَر ﴾ .

(١) البخاري كتاب الصوم رقم ١٨٠١ .

سورة الحشر

لما تحدثت سورة المجادلة عن المنافقين الذين تولوا المشركين وظاهروهم على المسلمين ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (المجادلة: ١٤) جاءت سورة الحشر لتحدث عن المؤمنين بقسميهم المهاجرين ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُّونَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿ (الحشر: ٨) وتحدثت عن الأنصار ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر: ٩) ثم تحدثت عن قسم ثالث من المؤمنين الذين لم يدرخوا الصحابة ولكنهم يحبون المؤمنين ويخلصون لهم ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (الحشر: ١٠) ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَا نَعْتُهُمْ حُصُونَهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾ (الحشر: ٢).

تقدم الخبر ﴿ مَا نَعْتُهُمْ ﴾ على المبتدأ ﴿ حُصُونَهُمْ ﴾ ، فأصل الترتيب : وظنوا أن حصونهم مانعتهم من الله ، وقد تقدم الخبر هنا للإشعار بتفاوت الظنين ، وأن ظنهم قد قارب اليقين ، فناسب أن يؤتى بما يدل على فرط وثوقهم بما هم فيه فجىء - بمانعتهم مقدماً ، ومفاد التقديم ما فيه من الاختصاص ، فكانه لا حصن أمنع من حصونهم ، وبما يدل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة .

﴿ وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبُهمْ فِي الدُّنْيَا وَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿

(الحشر: ٣، ٤)

تقدم الإخبار أولاً بما فعل الله بهم من خزي الدنيا وما ينتظرهم من عذاب الآخرة مع أن حقه التأخير في الذكر بعد الآية التي تلت لكونها بيان لسبب كل

ما سبق وتعليل لما أصابهم ، وهذا التقديم بذكر العذاب للتشويق ، فيتساءل المستمع ولما كل ذلك فيكون الجواب كما ذكر ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ويحدث التمكن في قلب السامع .

﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ (الحشر: ٧).

بدأ سبحانه بذكر نفسه لما له من حق التقديم في قوله : ﴿ فَلِلَّهِ ﴾ ، ثم أتبعه بذكر الرسول ﷺ ﴿ وَلِلرَّسُولِ ﴾ لأنه أعظم خلقه ، ثم أتبع ذلك بذكر أقاربه وتعظيمهم لأجله ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ ولما ذكر أهل الشرف أتبعهم أهل الضعف فقال مقدماً أضعفهم ﴿ وَالْيَتَامَىٰ ﴾ الذين هم أحق الناس بالعطف ثم المساكين ﴿ وَالْمَسْكِينِ ﴾ لأنهم في الضعف يأتون بعدهم ثم الغرباء ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ إذ إن ضعفهم عارض وقي لانقطاعهم عن أوطانهم وعشائرتهم .

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (الحشر: ٨).

بدأ سبحانه بذكر صفاتهم مبتدئاً بالأشرف منها وهو الأخفى الذي لا يعلمه أحد سواه لبيان فضلهم وشرفهم فقال : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ﴾ ، وهذا طهارة الباطن وتركية السرائر ثم أتبع ذلك بطهارة الظاهر وتركية الأعمال بعد ذكر الإخلاص فقال : ﴿ وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ، ثم جاءت الآية التالية تشني على الأنصار الذين تأخر ذكرهم عن المهاجرين لشرف المهاجرين وتقدمهم بسبق الإيمان وقد مر ذلك من قبل .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ (الحشر: ١١).

لقد جاء الترتيب في هذه الآية موافقاً لترتيب أحداثها في الواقع ، فهي تتحدث عن غزوة بني النضير والتي كان من أسبابها حسبما أشارت المصادر أن بني النضير أرادوا قتل رسول الله ﷺ وحضهم قريش على قتاله ودلوهم على عورته ، وعندما صدر منهم ذلك طلب منهم النبي ﷺ الخروج من المدينة خلال عشرة أيام ،

وعندما استعدوا للخروج طلب منهم عبد الله بن أبي بن سلول عدم الخضوع ورفض الخروج ومناهم بالوقوف إلى جانبهم فحاصروهم المسلمون^(١). ولذا أرى أن تقديم الوعد بالخروج معهم إنما هو ترتيب زمني لسير الأحداث وتتابعها ، وأن وعدهم لهم بالخروج معهم إنما هو من أجل إيقاد نار الحرب بإعلانهم العصيان على طلب النبي ﷺ حيث إن رفضهم للخروج هو بمثابة إعلان للحرب واستعداد للقتال .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : « وقدّم الإخراج على القتل مع أن القتال هو الذي ينبغي أن يكون أولاً حتى إذا غلبوا على أمرهم أخرجوا وذلك ليكشف عما في عهد هؤلاء المنافقين من كذب ونفاق . . فهم لو كانوا على ولاء حقاً مع إخوانهم هؤلاء لحرضوهم على القتال ، ولقالوا لهم : نحن أولاء معكم بأسلحتنا إذا وقع بينكم وبين محمد قتال : ولكنهم جاءوا إليهم أولاً بالأمر الذي لا يكلفهم شيئاً أكثر من مجرد الكلام ، وما أرخصه في سوق المنافقين فبدلوا لهم القول في سخاء وبلا حساب قائلين : ﴿ لَئِنْ أَخْرَجْتُمْ لَتَخْرُجُنَّ مَعَكُمْ وَلَا تُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ﴾ ثم رأوا أن هذا القول الذي ألقوا به إلى أسماع إخوانهم الذين كفروا ، هو مجرد كلمة عزاء إذ ماذا يغني القوم إن أخرجوا من ديارهم وأموالهم أن يخرج معهم المنافقون أو لا يخرجوا؟ وهنا يتنبه المنافقون حين نظروا في وجه هذا الكلام الذي ألقوا به إلى القوم ، وحين رأوا أن القوم لم يمسكوا بشيء منه ، وأنهم قد أخرجوا من ديارهم ، أو هم على طريق الإخراج من الديار . .

حين رأى المنافقون ذلك ألقوا إليهم بهذه القولة الزائفة المنافقة ﴿ وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ﴾ ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان وبعد أن فُضح كذبهم ونفاقهم بقولهم أول الأمر ﴿ لَئِنْ أَخْرَجْتُمْ لَتَخْرُجُنَّ ﴾ ولهذا جاء قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ تعقيباً على هذه الوعود الكاذبة التي يبذلها المنافقون لإخوانهم بني النضير^(٢).

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ٤١٧-٤١٩

(٢) التفسير القرآني ج ٢٨ ص ٨٦٧.

﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ ﴾

(الحشر: ٢٠)

قال الألوسي : « ولعل تقديم أصحاب النار في الذكر للإيمان من أول الأمر بأن القصور الذي ينبنى عنه عدم الاستواء من جهتهم لا من جهة مقابلتهم ، فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشئيين المتفاوتين زيادة ونقصاناً وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص وعليه قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَةُ وَالنُّورُ ﴾ (الرعد: ١٦) ولعل تقديم الفاضل قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩) لأن صفته ملكة لصفة المفضول والإعدام مسبقة بملكاتها »^(١)

وما ذكره الألوسي ذكره القاسمي منسوباً لأبي السعود^(٢).

﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾

(الحشر: ٢٢)

سبق الحديث عن تقديم الغيب على الشهادة وتقديم الرحمن على الرحيم ، ومن أسرار التقديم أيضاً هنا هو أن الرحمن صفة ذات ، والرحيم صفة أفعال ، فهو من باب تقديم الموصوف على الصفة .

﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الحشر: ٢٤).

قدم لفظ الجلالة {الله} فمرجع الأسماء الحسنى كلها إليه كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ وإنما قدم ذكر الخالق على البارئ لأن ترجيح الإرادة مقدم على تأثير القدرة ، وقدم البارئ على المصور ، لأن إيجاد الذات مقدم على إيجاد الصفات ، وقدم العزيز على الحكيم لأن العزيز هو الذي يغلب كل شيء ولا يغلبه شيء ولا يوجد له مثل وتشتد الحاجة إليه ، ومن كان بهذه الصفة لا يتم أمره ويثبت كل ما يريده إلا إن كان على قانون الحكمة والتي تعني الإتيان في الأمر بما لا يمكن نقضه .

(١) روح المعاني ج ٢٧ ص ٦١.

(٢) تفسير القاسمي ج ٩ ص ١٩٥.

سورة الممتحنة

لما أبانت سورة الحشر موقف المشركين والمنافقين من المؤمنين وعدم ادخارهم الوسع في حربهم وتعاهدهم سوياً على محاربة المسلمين جاءت سورة الممتحنة تأمر المؤمنين بعدم مصادقة هؤلاء الذين أظهروا العداء لله ورسوله والمؤمنين .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَدًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾ (الممتحنة: ١).

تقدم قوله : ﴿ عَدُوِّي ﴾ على ﴿ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ تقدم سببي لأن عداوة المؤمنين للكفار كانت من أجل عداوتهم لله ، فلذلك قدم ما كان أصلاً في العداوة على ما كان تابعاً لها فرعاً عنها .

كما تقدم قوله : ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ ﴾ على قوله : ﴿ وَإِيَّاكُمْ ﴾ تشريفاً لمقام النبي ﷺ ، فبدأ بأعظم جرمهم وأقبح فعالهم إذ إن إخراج الرسول أكبر عند الله إثماً وأعظم جرماً ولهذا أخبر تعالى عن أنهم لو أخرجوه ما أمهلوا بل لعجل الله بهلاكهم وعذابهم كما في الآية السادسة والسبعين من سورة الإسراء ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيْسْتَغْفِرُوا نَلَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٧٦) قال مجاهد وقتادة : « نزلت في هم أهل مكة بإخراجه ، ولو أخرجوه ما أمهلوا ولكن الله أمره بالهجرة فخرج »^(١).

﴿ إِنْ يَتَّقُوا اللَّهَ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ (الممتحنة: ٢).

بدأ بذكر أشد صور العداوة المتمثلة في إيصال الأذى بالفعل : ﴿ وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ ثم بالقول : ﴿ وَأَلْسِنَتَهُم ﴾ فإن لم يمكن هذا ولا ذاك فبالقلب حيث تمنى

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٩٥.

حدوث الكفر من المؤمنين : ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تُكْفُرُونَ ﴾ ، وقد تكون إرادة الشر تلك من سبق الوجودي إذ هي عمل قلبي ، فالحقد هو الدافع والمحرك الأول لإيصال الأذى الذي يريده العدو من عدوه وتكون قد أفردت بالذكر لأهميتها ، إذ إن أعدى الأعداء لك من يتمنى أن يفوتك أعز الأشياء لديك ، وأعز الأشياء عند كل أحد هو دينه فقال متمما لما سبق مفرداً لهذه الصفة الرذيلة ﴿ وَوَدُّوا لَوْ تُكْفُرُونَ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (المتحنة: ٤).

تقدم ما حقه التأخير وهو الجار والمجرور على ما بعده لإفادة الحصر والاختصاص .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (المتحنة: ٦).

بدأ بهم في قوله : ﴿ لَكُمْ ﴾ حيث قدم الجار والمجرور للاهتمام والاعتناء بالناسي ، ولما بدأ بالأنفع لهم والأقرب إلى صلاحهم وهو وجوب موالاة المؤمنين وعدم خيانتهم بسبب العشيرة والأقرباء جاءت الآية التالية كجائزة لما تحقق في الآية السابقة قال تعالى : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُمْ مُّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المتحنة: ٧).

﴿ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ (المتحنة: ١٠).

تقدم قوله : ﴿ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ على قوله : ﴿ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ من باب التقديم الزماني حيث إن الأولى تتحدث عن الحاضر حيث قد أسلمت زوجة لمشرك مع بقاءه على الشرك ومن ثم تحصل الفرقة ، ولا يجوز استمرار الزوجية . أما الثانية فتتحدث عن منع الزواج ابتداءً وكذا المنع عن الاستئناف ، وهذا إنما يكون في المستقبل ، ولهذا تقدمت الأولى على الثانية .

﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهَتَّانٍ يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المتحنة: ١٢).

قال البقاعي : « ولما كان الشرك بذل حق الملك لمن لا يستحقه ، أتبعه أخذ مال الملك بغير حق لاقتضاء الحال لذلك يتمكن المرأة من اختلاس مال الزوج وعسر تحفظه منها فقال : ﴿ وَلَا يَسْرِقَنَّ ﴾ أي يأخذن مال الغير بغير استحقاق في خفية ، وأتبع ذلك بذل حق الغير لغير أهله فقال : ﴿ وَلَا يَزْنِينَ ﴾ أي يمكن أحداً من وطنهن بغير عقد صحيح ولما كان الزنى قد يكون سبباً في إيجاد أو إعدام نسمة بغير حقها أتبعه إعدام نسمة بغير حقه فقال : ﴿ وَلَا يَقْتُلَنَّ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ أي بالوآد كما تقدم في النحل وسواء في ذلك كونه من زنى أو لا ، ولما ذكر إعدام نسمة بغير حق ولا وجه شرعي أتبعه ما يشمل إيجاد نسمة بغير حل فقال مقبحاً له على سبيل الكناية عنه بالبهتان وما معه بالتصوير له بلوازمه وآثاره لأن استحضار القبيح وتصوير صورته أضر عنه فقال : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بِمُهْتَنٍ ﴾ أي ولد من غير الزوج يبهت من إلحاقه به حيرة في نفسه عنه ﴿ يَفْتَرِيَهُ ﴾ أي يتعمدن كذبه ، وحقق المراد به وصوره بقوله : ﴿ بَيْنَ أَيْلِيهِنَّ ﴾ أي بالحمل في البطون ﴿ وَأَرْجُلَيْهِ ﴾ أي بالوضع من الفروج ولأن عادة الولد مع أنه يسقط بين يدي أمه ورجليها أنه يمشي أمامها وهذا شامل لما كان من شبهة أو لقطة ، ولما حقق هذه الكبائر العظيمة تعظيماً لأمرها لعسر الاحتراز منها وأكد النهي عن الزنى مطابقة وإلزاماً لما يجر إليه من الشرور القتل فما دونه وغلظ أمر النسب لما يتفرع عليه من إيقاع الشبهات وانتهاك الحرمات ، عم في النهي فقال : ﴿ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ ﴾ أي فرد كان منه صغيراً أو كبيراً ، وفي ذكره مع العلم بأنه ﷺ لا يأمر إلا به إشعار بأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وقدم المنهيات على الأمور المستفادة من المعروف لأن التخلي عن الرذائل مقدم على التحلي بالفضائل ، لأن درء المفاسد أولى من جلب المصالح »^(١).

(١) نظم الدرر ج ٧ ص ٥٦٦ ، ٥٦٧ .

سورة الصف

جاءت سورة الصف تهيئ المؤمنين بعد البراءة من المشركين المحاربين للدعوة والمجاهرين بالعداء أن يتخذوا أسباب القوة ويتهيئوا للدفاع عن أنفسهم .

﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الصف: ١).

تقدم تسبيح ما في السموات على تسبيح ما في الأرض في صدر هذه السورة وفي صدر سورة الحديد والحشر والجمعة ، هذا التقديم راجع إلى جملة من الأسباب :

أولاً : سبق تسبيح الملائكة لأنهم أسبق وجوداً حيث إن الملائكة مخلوقون قبل الإنس وهذا واضح بين في قصة خلق آدم في القرآن .

ثانياً : كثرة المسبحين والتسبيح في السموات عن المسبحين والتسبيح في الأرض حيث إن السماء مجتمع الملائكة وهم أكثر عدداً ولا يفترون عن التسبيح كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ (الأنبياء: ١٩) وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ (فصلت: ٣٨).

ثالثاً : إن تسبيح الملائكة إنما هو تسبيح خشية لا يشوبه شيء مما يدخل على عبادة بني آدم كما قال تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ آذَنَ لَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِمْ مُشْفِقُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٨).

رابعاً : قد يوجد التسبيح في الأرض من الكافر والمنافق والصالح والطالح والطائع والعاصي ، بينما الملائكة كلهم أهل طاعة ليس بينهم عاص كما قال تعالى في وصفهم : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢٦) ومن هذا القبيل تقدم ذكر الساجدين في السماء على الساجدين في الأرض في آيات السجدة في سورتي النحل والحج

﴿ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَىٰ تَحْرِيقِ تَنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ ۞ تَوْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿ (الصف: ١٠، ١١).

تقدم قوله : ﴿ بِأَمْوَالِكُمْ ﴾ لقلة المال في ذلك الزمان ، أو لأن بالأموال قوام
الأنفس والأبدان ، أو لأنها أول مطلب من مطالب الجهاد ، فابتدأ به فيكون
الأسلوب للترقي من الصعب وهو إخراج المال الذي جبلت النفوس على حبه إلى
إخراج النفس أعز ما عند الإنسان إذ ليس فوقها شيء يعطى .

سورة الجمعة

بدأت سورة الجمعة بالتسبيح كسورة الصف ، وكما أمرت سورة الصف بالاجتماع لقتال من أعلنوا الحرب على المؤمنين جاءت سورة الجمعة تأمرهم بالاجتماع على أمر تعبدي آخر وهو صلاة الجمعة وبيان حال من تخلف عنها بسبب اللهو أو التجارة ، وأن الثبات في القتال إنما هو لأهل الثبات في مجاهدة النفس بلزوم العبادات وخاصة مع الجماعات . .

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (الجمعة: ٢).

بين النفس البشرية ومكارم الأخلاق عوارض وصوارف من الأخلاق الذميمة والعادات القبيحة ، فيعيش الإنسان تتجاذبه قوتان ، قوة المادة تجذبه للسفل وإجابة الشهوات الرخيصة وقوة الروح التي تسمو به نحو معالي الهمم ومراقي الشيم ، ويبقى الإنسان أسير إلفه وقيد رهنه وحبسه الذي يقعده عن طلب ما تسمو إليه الروح أو يضعف ويوهن من عزمه إن هو سار ليطلب الأدون منها أو يهملها أو يرجئها ، ومن هنا إن لم يتخلص الإنسان من تلك المعوقات لم يستطع أن يخوض سبيل معالي المهمات ، وسورة الجمعة نزلت بشأن بعض من الصحابة الذين تركوا أهم المطالب الإيمانية بعد الإيمان ألا وهو صلاة الجمعة حيث شغلوا عنها بقافلة التجارة التي وردت إلى المدينة ، وكان أولى بهم ألا يذهبوا عن النبي ﷺ وهو يخطب فيهم مريياً ومعلماً ، ومن ثم ابتدأت السورة في الآية الثانية بالتركية قبل التعليم ، لأنه بدون إزالة العوائق والأمراض النفسية والذهنية لن يكون هناك محل طيب لتلقي علماً أو الانتفاع بموعظة ، فكلما كثرت الحشائش في أرض القلوب كلما منعت أو أضعفت الماء أن يصل إلى شجرة الهممة والإرادة فلا تنبت ابتداءً أو تذبل سريعاً فلا يظهر لها أثر ، أولاً ينضج لها ثمر ، ومن هنا قال علماء السلوك التخلية مقدمة على التحلية .

قال البقاعي : « ولما كان المقام للتنزيه ولتأديب من وقع في مودة الكفار ونحو ذلك قدم التزكية فقال : ﴿ وَزَكَّيْهُمْ ﴾ أي عن الأخلاق الرذيلة والعقائد الزائفة فكانت تزكيتهم لهم مدة حياته بنظره الشريف إليهم وتعليمه لهم وتلاوته عليهم ... ولما كانوا بعد التزكية التي هي تخلية عن الرذائل أحوج ما يكون إلى تحلية بالفضائل قال : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ ﴾ أي المنزل عليه الجامع لكل خير ديني ودنيوي في الأولى والأخرى ﴿ وَالْحِكْمَةَ ﴾ وهي غاية الكتاب في قوة فهمه والعمل به ، فهي العلم المزين بالعمل والعمل المتقن بالعلم معقوله ومنقوله ليضعوا كل شيء منه في أحكم مواضعه فلا يزيغوا عن الكتاب كما زاغ بنو إسرائيل ^(١) .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا آنَفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكَوْكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنْ آلَهِوٍ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (الجمعة: ١١) .

قال ابن عطية : « وتأمل أن قدمت التجارة على اللهو في الرؤية ، لأنها أهم وأخرت مع التفضيل لتقع النفس أولاً على الأبين ^(٢) »

وقد ذكر البقاعي نحو قول ابن عطية قال : « ولما قدم التجارة أولاً اهتماماً بها ، قدم هنا ما كانت سبباً له ليصير كل منها مقصوداً بالنهي فقال : ﴿ مِّنْ آلَهِوٍ ﴾ ولما بدأ به لإقبال الأغلب في حال الرفاهية عليه قال معيداً الجار للتأكيد : ﴿ وَمِنَ التِّجَارَةِ ﴾ أي وإن عظمت . ^(٣) »

وقال الدكتور وهبة الزحيلي : « تفنن في العبارة فقدم التجارة أولاً لأنها المقصود الأصلي ، ثم قدم اللهو لأن الخسارة فيما لا نفع فيه أعظم فقدم المهم في كل موضع ^(٤) »

بينما يرى الألوسي أن تقديم اللهو على التجارة لأنه أقوى مذمة فناسب تقديمه في مقام الذم ^(٥) .

(١) نظم الدرر ج ٧ ص ٦٠٣ .

(٢) المحرر الوجيز ج ١٤ ص ٤٥١ .

(٣) نظم الدرر ج ٧ ص ٦٠٣ .

(٤) التفسير المنير ج ٢٨ ص ١٩٤ .

(٥) روح المعاني ج ٢٧ ص ١٠٤ .

سورة المنافقون

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ يُحَسِّبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْ يُؤَفَّكَوْنَ ﴾ (المنافقون: ١-٤).

تقدمت الآية الأولى على الثانية مع أنها بعدها في الترتيب الوجودي إذ إن قولهم ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ إنما خرج بعد نفاقهم فهو أسبق وجوداً ، فلماذا تقدم هنا تلاوة ؟

أقول : هذا من باب التشويق لمعرفة الحامل لهم على ذلك الكلام ولماذا قالوه ، فحينئذ ندرك أن الآية الثانية قد جاءت كتعليل لذلك الكذب في تلك الشهادة . وقد بدأ سبحانه وتعالى بوصف باطنهم إذ هو المحرك الأول الذي دفعهم لكل تلك الأفعال ، وبدأ بخراب الباطن وهو النفاق لعدم الاغترار بجمال الظاهر وهو صحة وجمال الأجسام ، ولما وصف الظاهر أتبعه ببيان أن ذلك الظاهر ليس له حقيقة ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْنَدَةٌ ﴾ أخشاب قطعت من مغارسها وقشرت وأسندت إلى الجدر تعجب الناظرين ولا ثبات لها ، ولا ثمرة لها ، ولا سقي ولا مدد لها من السماء ، فهم أشباح بلا أرواح وأحسام بلا أحلام .

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(المنافقون: ٨)

لما حصر سبحانه العزة هنا بما دل عليها من تقديم المعمول {الله} بدأ سبحانه
يبين أنه يعطي العزة لمن أراد وبدأ برسوله ﷺ لأن عزته من عزة الله له بالنبوة
وإظهار دينه على الدين كله ، ثم العزة للمؤمنين لإيمانهم بالرسول ﷺ الذي
أرشدهم إلى مصدر عزتهم وهو الله سبحانه وتعالى .

﴿ يَتَأَيُّمُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (المنافقون: ٩).

هذه الآية السابقة تحذيرية ، تخوف المؤمنين من الإقبال على الدنيا كلية
والاغترار بنعمها ، حتى إذا ما تمكنت الموعظة بها ، ورقت القلوب لتخويف ربها
وخف التعلق بالدنيا ومتعلقاتها أتبع التحذير بالترغيب في الإنفاق فيكون أقرب
إلى الإجابة وأدعى لتصديق ومن ثم جاء بعده قوله تعالى :

﴿ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا
أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (المنافقون: ١٠).

سورة التغابن

ختمت سورة {المنافقون} بصفة العلم والخبرة لله رب العالمين وبدأت هذه السورة بالتسبيح وإثبات الملك وتمام القدرة فعلم وخبرة بلا قدرة نقص وتمام ذلك هو إثبات تمام القدرة ولما كان من أسباب هلاك المنافقين هو اغترارهم بنعم الله من نعمة الصحة ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ (المنافقون: ٤) واغترارهم بالأموال ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا﴾ (المنافقون: ٧) واغترارهم بالأولاد والقوة ﴿يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ﴾ (المنافقون: ٨). جاءت سورة التغابن تأمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله والإنفاق في سبيل الله وعدم الاغترار بالأموال والأزواج والأولاد ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَالِحُونَ﴾ (التغابن: ١٥، ١٦).

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التغابن: ١).

تقدم الظرفان في قوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾ ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ على معنى الاختصاص أي أن الملك لله لا لغيره وكذلك الحمد، وهذا لا يعارض بملك غيره سبحانه، فالمقصود هنا بالملك هو الملك الحقيقي وليس التملك، فهو سبحانه مبدئ كل شيء ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه، وكذلك الحمد لأن أصول النعم وفروعها منه وأما ملك غيره فتسليط واسترعاء.

لما كانت أعظم الدلائل عليه سبحانه دلائل الآفاق كما قال تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣) بدأ هنا أيضاً بذكر دلائل الآفاق العلوية والسفلية ثم أتبعها بذكر دلائل النفس فقال:

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(التغابن: ٢)

وتقديم ﴿ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ ﴾ على ﴿ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ للكثرة ونظيره قوله تعالى :
﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ وقد مر الحديث عنها في سورة الواقعة ، و لما ذكر سبحانه
وتعالى المظروف ذكر ظرفه دالاً على تمام إحاطته بالبواطن والظواهر فقال :
﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾

(التغابن: ٣)

ولما ذكر الظرف والمظروف ذكر حالهما فقال : ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (التغابن: ٤).
﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التغابن: ١٣).
وتقديم الجار والمجرور هنا لإفادة الاختصاص فلا ينبغي أن يتوكل إلا على
الله.

سورة الطلاق

لما تحدثت سورة التغابن عن النساء وأن الرجل قد يفتن بالمرأة فيصرف عن الطاعة بسببها مع وجوب أخذ الحذر من إتباعهن في معصية الله وما قد ينجم عن ذلك من عداًء ، جاءت سورة الطلاق لتبين أن هذا العداًء قد يجر إلى الطلاق فبينت أحكام الطلاق وأمرت الرجل بعدم ظلم المرأة ، فلا تطلق إلا في طهر لم تجامع فيه حتى لا تطول عليها فترة العدة ، وكذلك عدم إخراج المرأة من البيت أثناء العدة ، وكذلك لا تخرج هي بنفسها ثم هددت وتوعدت من يفعل ذلك من الرجال بقوله : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ .

﴿ يَتَأْتِيَا النَّبِيَّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا تَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُخْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ (الطلاق: ١).

بدأ الأمر بتقوى الله تعالى ليكون أرجى للاستجابة ثم أتبعها ما يفسرها بعد ذلك ﴿ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا تَخْرُجْنَ ﴾ وقد تقدم قوله : ﴿ لَا تَخْرِجُوهُنَّ ﴾ على قوله : ﴿ وَلَا تَخْرُجْنَ ﴾ وهذا التقديم من باب البداء بأعظم الأمرين إثماً لما فيه من معصية الله بمخالفة أمره وهذا تعد على حق الله ، وكذلك تعديه على حق العباد بظلم المرأة وإجبارها على الخروج ، وكذلك تقدمت الآية الأولى على الآية الثانية تقدماً وجودياً ولما حد سبحانه وتعالى ما يفعل في العدة أتبعه ما يفعل بعد انقضائها فقال :

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾ (الطلاق: ٢).

بدأ بقوله : ﴿ فَأَمْسِكُوهُنَّ ﴾ وتقدم على قوله ﴿ فَارِقُوهُنَّ ﴾ مع أن - أو - للتخيير لأن الإمساك وعدم الفراق بالطلاق أحب إلى الله فبدأ بأحب الأمرين إليه سبحانه .

سورة التحريم

لما تحدثت سورة الطلاق عن أحكام الطلاق جاءت سورة التحريم لتبين عظم أخلاق النبي ﷺ مع نسائه ، وفيه تنبيه للغير من الرجال بملازمة باب الأدب ومصاحبة الصبر والتحلي بسماحة الأخلاق ، وكذلك تأديب للنساء بملازمة حسن المعاشرة مع أزواجهن والنهي عن المكر وإفشاء الأسرار ، فكل ذلك من أسباب وقوع الطلاق ، مع ضرب المثل بامرأتين من الكافرات عصتا زوجيهما وامرأتين من المؤمنات وهما امرأة فرعون ومريم بنت عمران للتأسي بهما .

﴿ إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (التحريم: ٤).

بعد أن ذكر تعالى أنه المعين لنبيه ﷺ ومولاه الحق وناصره ومظهره على كل من ناصبه العداوة ، ذكر من يعينه من مخلوقاته وأولهم وأفضلهم هنا هو جبريل - عليه السلام - لما أتاه من القوى وزاده بسطة في الخلق ، فهو خير ناصر بعد الله عز وجل لرسول الله ﷺ ، فقدم جبريل لأنه أعظم وأشد بلاءً في الدفاع عنه مع منزلته الرفيعة عند الله تعالى ، ثم أتبعه بصالح المؤمنين ، وقدمهم في الذكر على الملائكة مما يشعر بأفضليتهم عليهم وهذا ما تفيدته أيضاً لفظة ﴿ بَعْدَ ﴾ .

﴿ يَتَأْتِيَ النَّبِيُّ جُنُودَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَآغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحَ وَامْرَأَتَ لُوطَ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ۝ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ لَهَا فَكِهَمْ وَكَانَتْ مِنَ الْآلَيْنِ ﴾ (التحريم: ٩-١٢)

تقدم ضرب المثل للكافرين قبل ضرب المثل للمؤمنين حيث تقدم ذكر امرأة نوح وامرأة لوط على امرأة فرعون ومريم بنت عمران ، وهما من المؤمنات بينما الأوليان كافرتان ، وذلك التقديم يعود إلى أن ذكرهما معاً قد جاء مجملاً في آية واحدة وقعت بعد أمر الله نبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلبة عليهم ، وبيان سوء مصيرهم فكان هذا أنسب لمناسبة السياق من حيث التلاحم والتناسب ، ولما ضرب المثل للمؤمنين بذكر امرأة فرعون خصها تعالى بآية كاملة فصل فيها حسن عاقبة تلك المرأة وثباتها بالرغم من تعرضها لفتنة فرعون ولجوئها إلى الله تعالى تطلب منه الهدى والسداد والنجاة ، وكذلك فعل تعالى مع مريم بنت عمران التي أحصنت فرجها وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين فكان ذكرهما خاتمة حسنة للسورة تبهج النفس وتشحذ العزيمة ولتكون ألصق بالذهن ، وقد روعي الترتيب الزمني مع مثل الكافرين ومثل المؤمنين فقد تقدم ذكر امرأة نوح على امرأة لوط وفي مثل المؤمنين تقدم ذكر امرأة فرعون على مريم مع كون مريم أفضل منها التي طلبت من ربها القرب من رحمته وكان ذلك أهم عندها فقدمت الظرف وهو ﴿عِنْدَكَ﴾ ثم بينت مكان القرب فقالت في الجنة .

قال أبو حيان : « وقال بعض الظرفاء وقد سئل : أين في القرآن مثل قولهم الجار قبل الدار؟ قال : قوله تعالى ﴿أَبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ ف ﴿عِنْدَكَ﴾ هو المجاورة و ﴿بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ هو الدار»^(١).

أقول : وهناك تقديم آخر لم يلتفت إليه وهو تقديم النجاة من فرعون على النجاة من القوم الظالمين فبدأت بطلب النجاة من الذي ظلمه واقع بها على ما لم يقع بعد أو بدأت بطلب النجاة من الأشد ظلماً إذ لم يعلم من هو أشد منه ظلماً في عصره .

(١) البحر المحيط ج ٨ ص ٢٩٠.

سورة الملك

لما كان في آخر سورة التحريم عظيم العبرة لامرأتين كانتا تحت عبيدين صالحين قد بعثهما الله رحمة لعباده فحرم الهداية بنورهما أقرب الناس إليهما وأكثر الناس مشاهدة لمعجزاتهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، ثم أعقبت هذه العظة نقيض حالها وهو ذكر امرأة فرعون التي لم يفتنها فرعون بسلطانه ولا القرب منه والأنس به من قبل لما ذاق لذة الإيمان ، وكذلك مريم بنت عمران التي اصطفاه الله ورباها بعين اصطفائه ليعلم العاقل أن القلوب بيد الله العزيز الوهاب فهو صاحب الملك يؤتيه من يشاء ، ولذا ابتدأت سورة الملك بقوله :

﴿ تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الملك: ١).

تقدم الجار والمجرور ﴿ بِيَدِهِ ﴾ على المسند إليه ﴿ الْمُلْكُ ﴾ لإفادة الاختصاص أي أن الملك لله وحده بيده لا بيد غيره .

وكذلك تقديم المضاف والمضاف إليه ﴿ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ على متعلقه ﴿ قَدِيرٌ ﴾ لإفادة الاهتمام .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَنْتَسِ الْمَصِيرُ ﴾ (الملك: ٦).

تقدم الجار والمجرور ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ للتشويق لمعرفة المسند إليه اهتماماً بذلك المسند ﴿ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (الملك: ١٠).

تقدم السمع هنا على العقل مع أن العقل أشرف وأهم ، وهذا التقديم من باب تقديم الوسائل على الغايات ، فالسمع وسيلة والعقل هو الغاية من وراء هذه الوسائل .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (الملك: ١٢).

قدمت المغفرة على الأجر لأن التخلية مقدمة على التحلية ، وكذلك أفاد التقديم دخول الطمأنينة على قلوبهم لإذهاب وجل القلب من المؤاخذه بالذنوب ثم أعقب ذلك التبشير بالأجر الكبير .

﴿ وَأَسِرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِمْ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ بذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (الملك: ١٣).

قال المراغي : « وقدّم السر على الجهر للإيذان بافتضاح أمرهم ووقوع ما يحذرون على كل حال أسروا أو جهروا ، ولأن مرتبة السر مقدمة على مرتبة الجهر فما من شيء يجهر به إلا وهو أو مبادئه مضمرة في النفس » . (١)

﴿ ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورٌ ﴾ (٥) أَمْ أَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴿ (الملك: ١٦، ١٧) .

قال صاحب درة التنزيل : « للسائل أن يسأل عن تقديم التوعد بالخسف على التوعد بالحاصب ، وهل كان يختار التوعد بتقديم الحاصب على الخسف ، أم لم يجز في الاختيار إلا ما جاء عليه الوعيدان في الآيتين ؟

والجواب أن يقال : لما كانت الأرض التي خلقها الله لهم ومهدا لاستقرارهم يعبدون عليها غير خالقها ، ويعظمون عليها الأصنام التي هي من شجرها أو حجرها ، خوفهم بما هو أقرب إليهم من الأشياء التي أهلك بها من كان قبلهم ، الآية الثانية تخويف بالحاصب من السماء وهي التي لا يصعد إليها الطيب من كلامهم ولا الحسن من عملهم إلا سيئات أفعالهم ونتائج ما كتب عليهم ، وتلك حالة ثانية ، فذكر في الثانية » (٢) .

أقول : وهذا توجيه منه حسن وهناك توجيه آخر أراه ، فالتخويف هنا لكونهم على الأرض وأنها أقرب إليهم من السماء وتوقع العذاب من الأرض أقرب في التحقق وأبعد عن مظنة النجاة بينما عذاب السماء قد يظن معه النجاة في الملاجئ أو المغارات .

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الملك: ٢٤) .

تقديم الجار والمجرور ﴿ وَإِلَيْهِ ﴾ على متعلقه ﴿ تُحْشَرُونَ ﴾ لإفادة الاختصاص ، ونظيره تقديم الجار والمجرور ﴿ وَعَلَيْهِ ﴾ على متعلقه ﴿ تَوَكَّلْنَا ﴾ في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ ءَامَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ (الملك: ٢٩) .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴾ (الملك: ٢٧) .

وتقديم الجار والمجرور ﴿ بِهِ ﴾ على متعلقه ﴿ تَدْعُونَ ﴾ للاهتمام ولما فيه من حسن الفاصلة .

(١) تفسير المراغي ج ١٩ ص ١٤ .

(٢) درة التنزيل ص ٢٨٣ .

سورة القلم

لما تحدثت سورة الملك عن الكافرين وتهديدهم بعدم المانع لعذاب الله إن أصابهم به جاءت سورة القلم لتبين حال أولئك الذين عاقبهم الله بعذابه في الدنيا ، فأرسل على جنتهم حاصباً فأصبحوا يقلبون أيديهم تحسراً وندماً ، ولما سأل الكفار متى يأتي يوم القيامة جاءت سورة القلم لتبين صفة ذلك اليوم الذي يسألون عنه ﴿يَوْمٌ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ (القلم: ٤٢، ٤٣) أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ﴾ (القلم: ٤٢، ٤٣) ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ (القلم: ٢).

في هذه الآية جواب لسؤال متأخر في آخر السورة في قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (القلم: ٥١، ٥٢).

جاء الترتيب هنا في غاية الإحكام حيث بدأت السورة بتقديم تبرئة النبي ﷺ مما نسبوه إليه زوراً وبهتاناً من الجنون لتأكيد النفي القاطع بما يأتي ذكره مما نسب إليه ، وقد تقدم هنا أيضاً ذكر العلة التي من أجلها اتهم ﷺ بالجنون وهي نعمة الرسالة لتكون العلة نفسها التي اتهم من أجلها هي عين الدليل القاطع بالبراءة مما نسب إليه ، فهذه النعمة لا يختص بها إلا أعقل الناس وأرجحهم رأياً وأصوبهم فكراً ، وكذلك هنا سر آخر في التقديم وهو نفي الجنون عنه كلية ، لأن الاتهام إنما حصر بسبب تلك النعمة ، ولو جاء الأسلوب على تقدير [ما أنت بمجنون بنعمة ربك] لاحتل أن يكون مجنوناً بغير النعمة من الأسباب الأخر .

﴿هَمَّازٍ مَّشَاءً بِنَمِيمٍ﴾ (القلم: ١١).

التقديم هنا بالرتبة فالهماز هنا هو المعتاب ، وهو لا يفتقر إلى مشي ، بخلاف النميمة فإنها تفتقر إلى نقل الحديث من شخص إلى شخص إما بالمشي إليه أو بذل الجهد لتوصيل ذلك إليه وما كان مجرداً فهو سابق في الرتبة على ما كان له تعلقات بغيره .

﴿وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْذٍ قَنِيرٍ﴾ (القلم: ٢٥).

وتقديم الجار والمجرور ﴿عَلَىٰ حَرْذٍ﴾ على متعلقه ﴿قَنِيرٍ﴾ لإفادة الحصر أي أنهم في خروجهم لم يكن حال قدرتهم إلا الحنق والغضب .

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ (القلم: ٣٤).

تقدم المسند ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ على المسند إليه ﴿جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ لبيان شرفهم وفضلهم ، وكذلك ما فيه من التشويق لذكر جزائهم .

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ (القلم: ٤٧)

تقديم الخبر ﴿عِنْدَهُمُ﴾ على المبتدأ ﴿الْغَيْبُ﴾ لإفادة الاختصاص أي أن علم الغيب عنده سبحانه لا عند غيره .

سورة الحاقة

لما قدم سبحانه في سورة القلم الإنكار الشديد أن يسوي المحسن بالمسيء ، وذكر القيامة وأحوالها وختم بأن القرآن تذكير ومواعظ للعالمين وكان تأويل ذلك وظهور آثاره إنما يكون في يوم القيامة قال واصفاً إياها ومحذراً منها ﴿ الْحَاقَّةُ ﴾

(الحاقة: ١)

﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا ﴾ (الحاقة: ٧).

ابتدأ بذكر الليالي هنا لأن العذاب والمصائب في الليل أظنع وأقبح وأشنع ولما في ظلمة الليل من الرهبة وقلة المغيث وفجأة البلاء عند الراحة أو النوم .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ۖ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ۖ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۖ ۝١٢ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴾

(الحاقة: ١٣-١٦)

لما ذكر ما يحدث من تأثير في الخلائق بعد نفخة الصور بدأ بذكر السفليات ﴿ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾ لأنها هي الملابس للإنسان فتكون عبرته بها أكثر .

﴿ وَتَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَةٌ ﴾ (الحاقة: ١٧)

أصل الترتيب ويحمل عرش ربك ثمانية فوقهم يومئذ وإنما تأخر الفاعل للشوق إلى ماهيته فيكون ألصق بالذهن ليقع التعجب من العدد المذكور أو للإشعار بعظمتهم المستفادة من تقديم ﴿ فَوْقَهُمْ ﴾ التي يفيد فوقية العلو والقدرة والقوة .

﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ ۖ ۝٢٨ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴾ (الحاقة: ٢٨، ٢٩).

تقدم ذكر المال على السلطان لأن الغالب على أحوال الناس اعتقادهم أن إغناء الله إياهم بالمال كان لفضيلتهم وشرفهم على غيرهم ، ولهذا استنكروا أن يكون الرسول من غير الأغنياء كما قال تعالى : ﴿ قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ ﴾ (البقرة: ٢٤٧).

وكما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧٦﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٧٧﴾ (الفرقان: ٨، ٧).

والسبب الآخر لتقديم المال هو أنه السبب الأول للإلهاء والبعد عن واجبات الطاعة لما جبل عليه الإنسان من حبه له ﴿ وَتَحِبُّونَ أَلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (الفجر: ٢٠) أو لطغيانه به ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْفَىٰ ﴿١﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغْفَىٰ ﴾ (العلق: ٦، ٧)

﴿ ثُمَّ أَتَّخِجِمَ صَلَوهُ ﴾ ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ (الحاقة: ٣١، ٣٢)

يرى الزمخشري أن التقديم للتخصيص أي لا تصلوه إلا في الجحيم ولا تسلكوه إلا في هذه السلسلة^(١). وأقول : وقد يكون سبب التقديم للبداء بما يسوهم مع حسن الفاصلة^(٢).

(١) الكشف ج ٤ ص ٥٩٢

(٢) البحر المحيط ج ٨ ص ٣٢٧

سورة المعارج

جاءت سورة المعارج لمزيد من بيان صفة ذلك اليوم الذي ذكرته سورة الحاقة فذكرت طوله وحال المجرم الذي يود أن يفتدي بكل شيء من النار ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بِبَنِيهِ﴾ ﴿وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ﴾ ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ عَلَيْهَا﴾ ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾ (المعارج: ١١-١٤).

﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾

(المعارج: ٤)

تقدم ذكر الملائكة على ذكر جبريل وأخرت عنه في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ (النبا: ٣٨) أشار إلى ذلك أبوحيان دون أن يذكر السبب^(١).

وأقول : إن تقدم جبريل في سورة النبا لبيان شدة ذلك اليوم وخضوع الكل لله رب العالمين وبدأ بأقربهم من الله عز وجل وهو جبريل لبيان هيبة الموقف وآخر في سورة المعارج لأن الآية السابقة تتحدث عن عروج الملائكة إلى ربها فناسب ذكرها جملة ثم خص جبريل بالذكر لشرفه .

﴿يُبْصِرُكُمْ يُدْ أَلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ بِبَنِيهِ﴾ ﴿وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ﴾ ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ عَلَيْهَا﴾ ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾

(المعارج: ١١-١٤)

ولما كان السياق للافتداء ، بدأ بأعزهم في ذلك بخلاف ما سوف يأتي في سورة عبس فقال : ﴿بَنِيهِ﴾ لشدة ما يرى ، ولما ذكر ألصق الناس بالفؤاد وأعز من يلزمه لنصره والذب عنه ، أتبعه ما يليه في الرتبة والمودة وما الافتداء به لاسيما عند العرب من أقبح العار فقال : ﴿وَصَحْبَتِهِ﴾ أي زوجته التي يلزمه الذب عنها والكون دائماً معها لكونها عديلة روحه في الدنيا ، ولما ذكر الصاحبة لما فيها من تمام الوصلة أتبعها الشقيق الذي لا يلزم من الذب عنه ما يلزم من الذب عن الحريم فقال : ﴿وَأَخِيهِ﴾ ولما كان من بقي من الأقارب بعد ذلك متقاربين في

(١) التفسير القرآني ج ٢٩ ص ١١٦٤ ، ١١٦٦ .

الرتبة ذكر أقربهم فقال : ﴿ وَفَصِيلَتِهِ ﴾ أي عشيرته الذين هم أقرب من فصل عنهم ﴿ أَلْتَى تُقْوِيهِ ﴾ ثم ذكر الأبعد فقال : ﴿ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴾ .

وقد أحسن الأستاذ عبد الكريم الخطيب التصوير لهذا المشهد المهيّب في يوم القيامة وهو يتحدث عن أسرار التقديم والتأخير في هذه الآيات فقال : « إن الإنسان هنا في فم الهلاك ، وفي دائرة العذاب المطبق عليه وإن لدعة العذاب لتخرج الإنسان عن نفسه ، وتجعل أعضائه - في متدافع هذا العذاب - يرمي بعضها بعضاً ويتقي بعضها ببعض إنه لاشيء يحرص عليه الإنسان هنا . إن أقرب شيء إليه وأعزه إلى نفسه ليقدمه في غير وعي ليدفع به هذا العذاب الذي يأكله كما تأكل النار الحطب إنه لا يملك غير نفسه وقد احتواها العذاب فهل يحرص بعد هذا على شيء ؟ إنه يود أن لو كان بين يديه أبناؤه إذن لاتقى بهم هذا العذاب ولجعلهم دريئة له يتلقون عنه ألسنة اللهب ووهج السعير . .

ويود إذ يرمي بأبنائه في جهنم ثم لا يجد فيهم غناء ، يمد يده إلى من هم أبعد إليه منهم إنها صاحبتة ، أي زوجه وأم بنيه ثم هي زوج وصاحبة معاً قد سكن إليها وتعلق قلبه بها وليست مجرد زوجة .

ثم ماذا ؟ إنها لم تغن عنه شيئاً وهاهو ذا يمد يده إلى من هم أبعد من بنيه وصاحبتة إلى أخيه ثم إلى أهله وعشيرته ثم إلى كل من تطوله يده من قريب أو بعيد ثم لا يزال هكذا حتى يأتي على كل ما في الأرض من أنفس ومتاع . . إن هذا الترتيب المتتابع في تقديم ضحايا الفداء ، لا يمكن أن يقع على هذا الوجه إلا بحساب دقيق محكم لاتجاهات النفس ، وإلا بتقدير واقعي لارتباطها الشعوري بكل ضحية يضحي بها في هذا المقام . وقد يبدو غريباً - في ظاهر الأمر - أن يقدم الإنسان أول ما يقدم للفداء والتضحية أعز شيء لديه وهم أبناؤه وقد كان المتوقع أن يرضن بهم وأن يجعلهم آخر سهم يرمي به في وجه هذا الهلاك الذي يحتويه .

هذا الحساب إنما يجري على هذا الوجه حين تكون الأمور على ما ألفت الناس وحين يكون في الأمور شيء من السعة ، ولو كان بمقدار سم الخياط أما والعذاب هو عذاب جهنم فإن المعايير تختل والموازين تضطرب»^(١)

(١) صحيح مسلم ج ١ ص ٢٤٧ باب أركان الإسلام ودعائمه العظام .

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝ ﴾ (المعارج: ١٩-٢٥).

تقدمت الصلاة على كل الصفات في الآيات التالية لأنها الركن الأول من الأركان التي قام عليها الإسلام ، فهي الركن الثاني بعد التوحيد ، وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ (طه: ١٤). ثم تأتي الصفة التالية وهي إيتاء الزكاة وهي قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝ ﴾ وهذا الترتيب للأهمية ، فالصلاة حق الخالق ، والزكاة حق المخلوق ، فكان الابتداء بحق الخالق أولى ، وقد جمع الله سبحانه وتعالى بين الصلاة والزكاة في سبعة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم ، والتزم القرآن الكريم تقديم الصلاة على الزكاة في كل موضع اجتماعاً فيه ، وكذلك التزم هذا الترتيب في السنة ، حيث تقدمت الشهادتان على الصلاة وتقدمت الصلاة على الزكاة ، وفي صحيح مسلم حديث واضح بين عن أن هذا الترتيب والتقديم والتأخير في الذكر أمر مقصود لذاته التزمه الصحابة ونقلوه بنسقه لعلمهم بأهميته وما يترتب عليه من أحكام عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : { بني الإسلام على خمسة على أن يوحد الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان والحج } فقال رجل : الحج وصيام رمضان قال : لا صيام رمضان والحج هكذا سمعته من رسول الله . وفي تقديم الصلاة على الزكاة تنبيه على أن الصلاة هي التي تخلق في الإنسان عواطف الرحمة ومشاعر الإحسان فحينئذ يجود بماله للخلق بعد أن استجاب وخضع واستسلم للحق .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ ﴾ (المعارج: ٢٩، ٣٠).

تقدم ذكر الأزواج لشرفهن .

﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلِكَ مُهْطِعِينَ ۝ ﴾ (المعارج: ٣٦).

تقدم الظرف ﴿ قِبَلِكَ ﴾ على ﴿ مُهْطِعِينَ ﴾ للاهتمام به لأن التعجب من حالهم في حضرة النبي ﷺ أشد لما فيه من سوء الأدب ونهاية الوقاحة .

سورة نوح

جاءت سورة نوح في تمام المناسبة لآخر المعارج التي أقسم الله فيها على قدرته بإهلاك المنذرين وتبديل خير منهم ومن القدرة على إيجاد يوم القيامة ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَائِدُونَ ﴾ ﴿١﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٢﴾ فَذَرَهُمْ مَّخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٣﴾ يَوْمَ تَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاجًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٥﴾ (المعارج: ٤٠-٤٤)، فجاءت سورة نوح لبيان مثال مما فعله الله بهؤلاء المنذرين الذين أهلكهم الله وأبدل خيراً منهم .
﴿ قَالَ يَنْقُومُ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (نوح: ٢).

تقدم الجار والمجرور ﴿ لَكُمْ ﴾ على عامله ﴿ نَذِيرٌ ﴾ للاهتمام بأن النذارة والتخويف لهم لا لغيرهم .

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ ﴿١﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٢﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلَ لَكُمْ جَنَّاتٍ يَجْعَلُ لَكُمْ فِيهَا نَهَارًا ﴿٣﴾ (نوح: ١٠-١٢).
بدأ بذكر عاقبة التوبة في الآخرة لأنه هو المقام الأشرف والغاية العظمى بقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴾ ، ثم تلى بذكر عاقبة الاستغفار في الدنيا ، وبدأ فيه بالأهم وهو الماء الذي به حياة كل شيء ، فبدأ بـ ﴿ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴾ وهو نظير قوله تعالى : في سورة الجن ﴿ وَالْوِاسْتَقْنَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لِأَسْقَيْنَهُمْ مَّاءً غَدَقًا ﴾ (الجن: ١٦).

﴿ مِمَّا خَطِيئَتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴾ ﴿٤﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٥﴾ (نوح: ٢٥، ٢٦).

تقدم الخبر بإهلاك قوم نوح مع أنه كان بسبب دعائه عليهم بقوله : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴾ (نوح: ٢٦) فجاء الترتيب هنا على عكس ما حدث في الواقع وقدم الخبر هنا إما للاهتمام بتعظيم هذا الرسول في

إجابة دعوته تحذيراً للعرب أن يخرجوا رسولهم ﷺ فيضطروه إلى مثل ذلك ، وقد يكون أيضاً لمناسبة ما قبله وهو أمره بالاستغفار وما ينشأ عنه من خير آجل وعاجل ثم أتبعه ذكر الخطيئات وما يتبعه من النقمات والبليات .

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾ (نوح: ٢٨).

التقديم هنا للاهتمام والاعتناء فابتدأ بنفسه ثم بأقرب الناس إليه وهما والداه ثم أهله وذويه المؤمنين وعبر عنهم بمن دخل بيته ثم عمم المؤمنين والمؤمنات ثم بالدعاء على الكفرة .

سورة الجن

لما كانت السورة السابقة عن أول رسول أرسله الله إلى الأرض وهو نبي الله نوح عليه السلام - وقد دعا قومه في أوقات مختلفة وأزمان مديدة ولم يؤمن به إلا القليل جاءت سورة الجن عن آخر رسول إلى الأرض وهو محمد ﷺ وأظهرت فضل الجن الذين استمعوا لفترة وجيزة للقرآن وبدون دعوة من النبي ﷺ ، وفيها أيضاً إظهار التشابه بين كفرة نوح وكفرة العرب الذين سبقهم الجن بالإسلام من غير دعوة وصدودهم عن الإسلام مع جهاد الدعوة .

﴿ قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۖ ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۖ ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۖ ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَاقُولُ سَفِيهًا عَلَىٰ اللَّهِ شَطَطًا ۖ ﴿٤﴾ ﴾ (الجن: ١-٤).

بدأ الجن بذكر القرآن من جهة فضله وإعجازه ﴿ قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ ثم بينوا المقصود بالذات فقالوا ﴿ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾ ولما حصل لهم من القوة العقلية والعلمية ما استفادوه من العلم بالقرآن الكريم وما ينبغي لله رب العالمين ترجموا هذا العلم إلى العمل فقالوا : ﴿ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ ولما أظهروا العلم والعمل بدعوا في الدعاء إلى الله بقوة البيان ﴿ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ ولما وصفوه تعالى بالتعالي عن الشريك والولد والصاحبة وصفوا من قال بضد ذلك صيانة لدينهم وبراءة منهم ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ يَاقُولُ سَفِيهًا عَلَىٰ اللَّهِ شَطَطًا ﴾ وفي هذه الآية تقدم الجار والمجرور ﴿ عَلَى اللَّهِ ﴾ على المفعول به ، وهذا التقديم أفاد التعجب أن يقال على الله شططا لما له من صفات الكمال ونعوت الجلال وأن هذا الأمر قد يجوز على غيره ، أما هو فهذا عين الاستغراب ولذا قدم لفظ الجلالة .

﴿ وَأَنَا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ۖ ﴿٥﴾ ﴾ (الجن: ١٢) .
قال صاحب التحرير : « لما كان شأن الصلاح أن يكون مرضياً عند الله سبحانه وتعالى وشأن ضده بعكس ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أعقبوا لتعريض الإقلاع عن ضد الصلاح بما يقتضى أن الله قد أعد لغير الصالحين عقاباً فأيقنوا أن عقاب الله لا يفلت منه أحد استحقه وقدموه على الأمر بالإيمان الذي في قوله : ﴿ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ ﴾ لأن درء المفسد مقدم على جلب المصالح والتخلى مقدمة على التحلية»^(١).

سورة المزمل

لما جاء في آخر سورة الجن أن من تعظيم الوحي وأن من تعظيمه حفظ المرسل به من جميع الآفات العائقة للقيام بالإبلاغ ومن هذه الأسباب قطع الراحة المفضية لعدم القيام بأعباء الرسالة حق قيام فجاء في أول سورة المزمل ﴿يَتْلُوهَا الْمُزْمِلُ﴾ ﴿قَدْ آتَىٰ الْإِلَّاهُ قَلِيلًا﴾ ﴿نُصِفَهُ أَوْ أَنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ ﴿أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَزَلْ الْقُرْآنَ أَنْ تَزِيلًا﴾ ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ (المزمل: ١-٧).

بدأ بالأمر بقيام الليل وقدر وقته وعينه ، ثم أمر بترتيل القرآن ، وذلك كله صلاح الدين الذي عصمة الأمر به ، وأتبع ذلك ببيان فضائل قيام الليل فلما ذكر ما يكون به صلاح الدين ، وقدمه لشرفه ذكر بعد ذلك ما يكون به صلاح الدنيا التي فيها المعاش ليحصل منها على الرزق الذي يعينه على أمر دينه ويوسع به على عيال الله فقال : ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾.

﴿إِنْ رَزَقْتَكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَأْتَىٰ عَلَيْكُمْ فَآقَرُهُو مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ إِنَّ عَلِيمًا أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضًىٰ وَأَآخِرُونَ يَضْطَرُّونَ فِي الْأَرْضِ يَتَتَّبِعُونَ مِنَ فَضْلٍ اللَّهِ﴾ (المزمل: ٢٠).

تقدم اسمه عز وجل في قوله : ﴿وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ على معنى الاختصاص بالتقدير فما مقدر لهما إلا هو ، كما فيها التشريف بالبداة بذكر اسمه الكريم ، كما تقدم الليل النهار في الذكر هنا لأن قيام الليل والذكر فيه أفضل من النهار ، كما أنه هو المسبوق بالتحدث في الآية الكريمة ، إذ مدار الآية حول العبادة في الليل فناسب أيضاً البداة به .

بدأ هنا بعذر المريض لكونه أعم ولا قدرة للمريض على دفعه ، ثم أتبعه بالسفر للتجارة لأنه يليه في العموم .

سورة المدثر

لما ختمت المزمّل بالشارة لأرباب الأعمال الصالحة بالتوبة ومغفرة الذنوب افتتحت هذه السورة بمهمة الرسالة وهي الإنذار لغير المؤمنين ، وقد تشابهت السورتان في بداية كل منهما بتوجيه الخطاب للنبي ﷺ ، وكذلك تشابهت السورتان في الأمر الخاص بالنبي ﷺ ففي المزمّل ﴿يَتَأْتِيَ الْمُزْمَلُ﴾ وفي المدثر ﴿يَتَأْتِيَ الْمُدْثِرُ﴾ وقوله تعالى : ﴿فَمِرَّ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿يُصَفِّهُهُ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ (المزمّل: ٢-٣) وفي المدثر ﴿قَمَرٌ فَأَنْذَرُ﴾ ﴿وَرَيْكَ فَكَبِّرُ﴾ (المدثر: ٢-٣) أتبع الأولى ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُزْهُمْ هَجْرًا حَمِيلًا﴾ (المزمّل: ١٠) وفي المدثر أتبع بقوله : ﴿وَلِرَيْكَ فَاصْبِرْ﴾ (المدثر: ٧) وأتبع أمره بالصبر في المزمّل بتهديد الكفار ووعيدهم ﴿وَذَرْنِي وَالْكَذِبِينَ﴾ (المزمّل: ١١) وفي المدثر ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ (المدثر: ١١) فالسورتان واردتان في قصد واحد .

﴿وَرَيْكَ فَكَبِّرُ﴾ ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُزْ﴾ ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ﴾ ﴿وَلِرَيْكَ فَاصْبِرْ﴾ (المدثر: ٣-٧).

تقدم المفعول به ﴿وَرَيْكَ﴾ على فعله ﴿فَكَبِّرْ﴾ للاهتمام وقصر فعل الفاعل عليه أي لا تكبر غيره ، وكذلك التقديم في قوله : ﴿وَلِرَيْكَ فَاصْبِرْ﴾ . وفي الآيتين ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُزْ﴾ للاهتمام واشترك التقديم في كل الآيات لرعاية الفاصلة .

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ (المدثر: ٢٣).

قال أبوحيان : «والاستكبار يظهر أنه سبب للإدبار ، إذ الاستكبار معنى في القلب والإدبار حقيقة من فعل الجسم ، فهما سبب ومسبب ، فلا يعطف بشم ، وقد يعطف المسبب على السبب لأنه الظاهر للعين»^(١).

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ (المدثر: ١١-١٦)

(١) البحر المحيط ج ٨ ص ٣٦٧

ذكر الله تعالى في هذه الآيات الأسباب التي دعت هذا الطاغية الكافر أن يعاند في آيات الله ويستكبر على الحق ، وجاء الترتيب هنا على أحسن وجه ، فبدأ بذكر حاله يوم خلقه الله وأوجده من العدم وكان لا شيء وبعد إيجاده لم يكن لديه لا مال ولا ولد ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ ، ولما كان سبب الطغيان للإنسان هو التمكن والقوة بدأ بأهم أسبابها وقطب دائرتها ، وهو المال الذي أعطاه الله إياه بلا حول منه ولا قوة بدليل أن غيره أقوى منه بدنًا وقلبًا وأوسع فكرًا وعقلًا وهو دونه في ذلك .

﴿ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴾ ولما كان أول ما تمتد إليه النفس بعد المال هو الولد وكان المال سبباً في مجيئه عن طريق الزواج قال : ﴿ وَبَيْنَ شُحُودًا ﴾ ، ولما كان ما سبق تمهيداً للرياسة والسلطان والقوة والنفوذ أتبعه قوله : ﴿ وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴾ ، ولما كان كل ما سبق سبباً لبطره وعلوه حث يطلب المزيد مع استمراره في العناد والاستكبار ﴿ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴾ فجاء الجواب معللاً بحكمته ﴿ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾ .
﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ ﴾ (المدرثر: ٣١).

تقدم الجار والمجرور ﴿ كَذَلِكَ ﴾ الذي هو وصف للمفعول المطلق المحذوف والتقدير يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء إضلالاً وهدياً كذلك الإضلال والهدى .

والتقديم هنا للاهتمام بهذا التشبيه الذي يرشد إلى التفصيل التالي .
﴿ قَالُوا لِمَ تَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴾ ﴿ وَلَمْ تَكُ تَطْعِمُ الْمَسْكِينِ ﴾ ﴿ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴾ ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴾ (المدرثر: ٤٣-٤٦) .
قال الزمخشري : « فإن قلت لم أخرج التكذيب وهو أعظمها ؟ قلت : أراد أنهم بعد ذلك كله كانوا مكذبين بيوم الدين تعظيماً للتكذيب كقوله :

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ ﴾ (البلد: ١٧) ^(١) .
يقصد الزمخشري بآية البلد تقدم قوله تعالى : ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴾ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴾ ﴿ فَكُ رَقَبَةً ﴾ ﴿ أَوْ اطَّعِمْتُ فِي يَوْمِ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾ ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ ﴿ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ على الآية السابقة ، فقد تقدم الأمر بالتصدق على اليتيم والمسكين على أمر الإيمان وهو أشرف منهما وذلك لتعظيم أمر الإيمان وكأنه الأصل الذي يصدر عنه كل أفعال الخير .

(١) الكشف ج ٤ ص ٢٤٢ .

سورة القيامة

ذكر الله سبحانه وتعالى في سورة المدثر قول أهل الكفر : ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ
الَّذِينَ ﴾ (المدثر: ٤٦) ثم تقدم في صدر السورة قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا نُفِرَ فِي الْأَقْوَِرِ
﴿ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ (المدثر: ٨-١٠) .

والمراد بذلك اليوم يوم القيامة والوعيد به لمن ذكر بعد في قوله : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ
خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ (المدثر: ١١) ومن كان على شاكلته في التكذيب بذلك اليوم ثم
تكرر ذكره في جواب أهل النار لمن سألهم ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾ (المدثر: ٤٢)
فبسط القول في هذه السورة في بيان ذكر ذلك اليوم وأحواله ، وأشير إلى حال من
كذب به في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَحْسُبِ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾ (القيامة: ٣) ثم أتبع
ذلك بذكر أحوال الخلائق في ذلك اليوم ﴿ يُنْبِئُوا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾
(القيامة: ١٣)

﴿ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ (القيامة: ١٢) .

تقدم الخبر ﴿ إِلَى رَبِّكَ ﴾ على المبتدأ ﴿ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ لإفادة الاختصاص بأن
الرجوع والمنتهى إلى الله وحده .

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ (القيامة: ٢٢، ٢٣) .

وتقديم الجار والمجرور ﴿ إِلَى رَبِّهَا ﴾ على ﴿ نَاظِرَةٌ ﴾ ليس فقط لمجرد الاهتمام
بهذا العطاء كما ذهب صاحب التحرير حيث نفى أن يكون التقديم للاختصاص
وحجته في ذلك أنهم يرون بهجات كثيرة في الجنة ^(١) .

وإنما التقديم عندي للحصر والاختصاص فنظرهم إلى البهجات الكثيرات في
الجنة إنما يكون في غير وقت الرؤية ، أما وقت الرؤية فإنهم لا ينظرون إلا إلى
وجه ربهم غير ملتفتين إلى ما عده من النعيم ، أو أنه للتفضيل فإن أعظم عطاء
وأفضل نعيم هو نظر أهل الجنة إلى وجه ربنا الكريم ، ويؤيد صحة ما ذهبت إليه

(١) التحرير والتنوير ج ٢٩ ص ٣٥٥ .

من السنة ما رواه مسلم في كتاب الإيمان عن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : (إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى تريدون شيئاً أزدكم فيقولون ألم تببيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب قال فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل) ^(١)

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (القيامة: ٣٠).

وتقديم ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على متعلقه ﴿الْمَسَاقُ﴾ للاهتمام وقد يكون أيضاً للاختصاص .

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم {٢٦٦}.

سورة الإنسان

لما جاء فى آخر سورة القيامة التهديد والوعيد لمن كذب بالإيمان ﴿أَتَحْسَبُ
الْإِنْسَنُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة: ٣٦)، ولما تقدم فى القيامة حال منكري البعث
﴿أَتَحْسَبُ الْإِنْسَنُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ (القيامة: ٣) ثم يتكبر وتعامى عن الاستدلال
والنظر ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى﴾ ﴿وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾ ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ
يَتَمَطَّى﴾ (القيامة: ٣١-٣٣) وتذكيره بحاله وضعف خلقه .

﴿أَلَمْ يَكْ نُطْفِئْ مِنْ مَنًى يُمْنَى﴾ ﴿ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ
الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ (القيامة: ٣٧-٤٠)
أتبع ذلك فى سورة الإنسان بما هو أعرق فى التوبيخ وأوغل فى التعريف وهو أنه
قد كان لا شئ فلا نطفة ولا علقه ، ثم أنعم الله عليه بنعمة الإيجاد ونقله تعالى من
طور إلى طور ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَنِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾ ﴿إِنَّا
خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

(الإنسان: ١-٢)

ولما تقدم التهديد فى سورة القيامة بعدم ترك الإنسان بدون حساب
ولا عقاب جاء الوعيد أوضح والتهديد أعظم والتذكير بسوء المصير ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا
لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ (الإنسان: ٤).

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَنَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

(الإنسان: ٢)

قد يكون فى الآية تقديم وتأخير تقديره فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتيه ، لأن
الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة ، وعلى هذا التقدير يكون التقديم هنا للاهتمام
بذكر الغاية التى خلق من أجلها الإنسان وهى الابتلاء والامتحان ، ثم ذكر أنه أعطاه
ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر ، وهما كنايتان عن الفهم والتمييز أو هما

الحاستان المعروفتان ، وإنما خصهما بالذكر لأنهما أعظم الحواس وأشرفها ذكر ذلك الخازن . وذكر ذلك أيضاً الأستاذ عبد الكريم الخطيب^(١).

ولي مع هذه الآية وقفة تتعلق بجانب الإعجاز العلمي للقرآن الكريم الذى كشف النقاب عن ترتيب خلق الإنسان ترتيباً متوافقاً مع ما ذكره القرآن الكريم فى العديد من السور التى تعرضت لهذا الجانب والتى أخرت الحديث عنها لهذه السورة حتى أتاولها بشيء من التفصيل فأقول : النطفة فى اللغة العربية تعني قطرة أو جزءاً صغيراً من سائل والمقصود بها فى القرآن الكريم هو الحيوان المنوي للذكر والبويضة للأنثى ، المنى : سائل الرجل أو سائل المرأة ، الأمشاج : اختلاط سائل الرجل وسائل المرأة لتكوين خليط من السائلين ، قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِّن مَّنَى يَمْنَى ﴾ (القيامة: ٣٧) هذه النطفة التى استقرت فى رحم المرأة وهو القرار المكين المذكور فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾

(المؤمنون: ١٣) (٢)

هذا الترتيب الوجودي فى الخلق والتكوين والمذكور فى قوله تعالى : ﴿ خَلَقَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾ (الزمر: ٦) قد بين وفصل فى سورة المؤمنون فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (المؤمنون: ١٢-١٤)

ويشير القرآن هنا إلى تكون العظام بعد تكون العلقة والمضغة ﴿ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا ﴾ والنشأة هنا المقصود بها بدء مرحلة أخرى من التكوين وهى ترمز إلى تحول المضغة والعظام إلى جنين ويتكون فى نهاية الأسبوع الثامن بعد الحمل

﴿ فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾

(المؤمنون: ١٤)

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ٣٣٤ ، التفسير القرآني ج ٢٩ ص ١٣٥٣

(2) The developing human third edition clinically y ori 20a

ومثال هذا الترتيب المذكور قوله تعالى فى سورة الحج : ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنٰكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَيُقَرَّرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لَتَبَلِّغُوهُنَّ أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُّتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ (الحج: ٥)، ونلاحظ هنا فى ترتيب الآيات أن قوله تعالى : ﴿ وَمِنْكُمْ مَّن يُّتَوَفَّىٰ ﴾ قد تقدم فى الذكر على قوله : ﴿ وَمِنْكُمْ مَّن يُّرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ ﴾ وذلك التقديم راجع إلى أن المتوفى قد سبق الحي إلى الموت ، فهو تقدم وجودي .

وهنا كلام عظيم الفائدة ذكره الدكتور محمد علي البار فى حديثه عن النطفة الأمشاج قال :

« نبذة تاريخية : لم تكن البشرية تعرف شيئاً عن النطفة الأمشاج [وهي المختلطة أو الإخلاط من الذكر والأنثى] فقد كان الاعتقاد السائد لدى الفلاسفة والأطباء أن الجنين الإنساني إنما يتكون من ماء الرجل وإن رحم الأم ليس إلا محضن لذلك الجنين ، وشبهوا ذلك بالبذرة التي ترمى فى الأرض فتأخذ منها غذاءها وتخرج شجرة يافعة وارفة الظلال يانعة الثمار وليس للمرأة عند هؤلاء دور فى إيجاد الجنين سوى رعايته وتغذيته ، ويمضي الدكتور البار فى ذكر التسلسل التاريخي فى نظرية الخلق والإيجاد حتى قال : « لم يفتن أحد من هؤلاء الباحثين لمدة ألفي عام أن كلا من الذكر والأنثى يساهمان بالتساوي فى تكوين الجنين واستمرت هذه المعارك حتى فى عصر النهضة بل إنها استمرت حتى نهاية القرن العشرين حيث شيعت هاتان النظريتان إلى مثواهما الأخير . . وقد سيطرت فى القرن السابع عشر النظرية القائلة بأن الجنين موجود بصورة مصغرة فى الحيوان المنوي ، وأنه ليس للمرأة من دور سوى دور الرعاية والتغذية ، وأن الجنين جاهز التركيب بصورة دقيقة فى هذا الحيوان المنوي ويمثل ذلك أصدق تمثيل الرسم الذي قدمه هارتسوكر عام ١٦٩٤ وفيه يتمثل الجنين الإنساني فى رأس الحيوان المنوي وقد

قدم سوامر دام swammerdam هذه النظرية على أساس ما توهمه فى رأس الحيوان المنوي تحت الميكروسكوب وسمى نظريته بنظرية الخلق الجاهز»^(١).

«وقد أبان الدكتور البار عند مقارنته بين خلق الإنسان فى القرآن من خلال الآيات السابقة التطابق التام مع ما وصل إليه العلم الحديث مروراً بمرحلة خلق العظام التي ظهر من خلالها أنها تتكون قبل اللحم كما حكى القرآن الكريم»^(٢).

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَلْنَا وَسَعِيرًا ﴾ ﴿ إِنَّا لَا نَبْرَأُ الْبَشَرَ إِلَّا مِن نَّارِ الْإِنسَانِ ﴾ (الإنسان: ٤، ٥).

قال صاحب التحرير: «وأخر تفصيله عن تفصيل جزاء الكفور مع أن ﴿ شَاكِرًا ﴾ مذكور قبل ﴿ كَفُورًا ﴾ على طريقة اللف والنشر المعكوس ليتسع المجال لإطناب الكلام على صفة جزاء الشاكرين وما فيه من الخير والكرامة ، تقريباً للموصوف من المشاهدة المحسوسة . وتأکید الخبر عن جزاء الشاكرين لدفع إنكار المشركين أن يكون المؤمنون خيراً منهم فى عالم الخلود ، وإفادة الاهتمام بهذه البشارة بالنسبة للمؤمنين»^(٣).

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴾ (الإنسان: ٢٦).

تقدم الظرف ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ ﴾ للاعتناء والاهتمام لما فى الليل من مزيد كلفة وشدة نصب وأقرب إلى الإخلاص .

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص ١٨٥-١٨٩ ، وينظر من ص ٢٠٣ - ص ٢٨٩، الطب

القرآني غذاء ودواء ، ص ١٤١-١٦٨

(٢) المصدر السابق ينظر فيه من ص ٢٠٣ - ص ٢٨٨

(٣) تفسير التحرير والتنوير ج ٢٩ ص ٣٧٩

سورة المرسلات

لما ختمت سورة الإنسان بالوعد لأوليائه والوعيد لأعدائه ، وكان الكفار يكذبون بذلك ، افتتح هذه السورة بالإقسام على أن ذلك كائن فقال : ﴿ وَالْمُرْسَلَتِ عُرْفًا ﴾ ﴿ فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا ﴾ ﴿ وَالنَّشِيرَتِ نَشْرًا ﴾ ﴿ فَالْفَرِقَتِ فَرْقًا ﴾ ﴿ فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا ﴾ ﴿ عَذْرًا أَوْ تَذْرًا ﴾ ﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ (المرسلات: ١-٧) فأقسم تعالى بما ذكر من مخلوقاته على صدق الموعد به في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا ﴾ وَأَعْلَلًا وَسَعِيرًا ﴿ (الإنسان: ٤). وقوله : ﴿ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴾ ﴿ (الإنسان: ٢٧) وقوله : ﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (الإنسان: ٣١).

﴿ وَالْمُرْسَلَتِ عُرْفًا ﴾ ﴿ فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا ﴾ ﴿ وَالنَّشِيرَتِ نَشْرًا ﴾ ﴿ فَالْفَرِقَتِ فَرْقًا ﴾ ﴿ فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا ﴾ (المرسلات: ١-٥).

لما كان العصفوف للعواصف يتعقبه الهبوب قال ﴿ فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا ﴾ بعد قوله : ﴿ وَالْمُرْسَلَتِ عُرْفًا ﴾ ولما كان نشر الرياح للسحاب متراحياً عن هبوبها جاء بعده ﴿ وَالنَّشِيرَتِ نَشْرًا ﴾ ولما كان السحاب يجتمع بعد الثوران من مجال البخارات ويتكاثف ثم يحمل الماء ثم يؤمر بفرقه إلى حيث أراد الله قال : ﴿ فَالْفَرِقَتِ فَرْقًا ﴾ ولما كان السحاب عقب الفرق ينزل منها الماء أو البرد أو الثلج أو الصواعق مما هو باعث على ذكر الله قال : ﴿ فَالْمُلْقِيَتِ ذِكْرًا ﴾ فالترتيب هنا ترتيب وجودي .

﴿ أَلَمْ يَلِكْ أَلَوَّلِينَ ﴾ ﴿ ثُمَّ تَتَّبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴾ ﴿ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ﴿ أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴾ (المرسلات: ١٦-٢٠).

لما ذكر الإهلاك على ذلك الوجه الدال على القدرة التامة على البعث وعلى ما توعد به بعد البعث أتبعه بأعظم دلالة منه على سبيل الترقى في إثبات الحجة وهو دلالة ابتداء الخلق فقال : ﴿ أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴾ .

سورة النبأ

سورة النبأ مرتبة على تساؤل واستفهام وقع من الكفار فقوله : ﴿ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴾ (النبأ: ٥، ٤) فمناسب للوعيد المتكرر في قوله : ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ وكان قد قيل سيعلمون عاقبة تكذيبهم .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴾ (١) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (٢) وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا ﴾ (٣) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ (٤) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ (النبأ: ٦-١٠) .

بدأ بذكر الظرف الذي هو فرشهم وما فيه من تمام القدرة ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ﴾ (١) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (٢) أتبعه بذكر بما في هذا المظروف وهو أنفسهم لتجتمع آيات الأنفس والأفاق ﴿ وَخَلَقْنَاهُ أَزْوَاجًا ﴾ (٣) وبعدما ذكر ما هو سبب بقاء النوع أتبعه بالتذكير بما هو سبب لحفظه من إسراع الفساد فقال : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴾ (٤) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ (٥) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ (النبأ: ٩-١١) التذكير بنعمة البدن أتبعه بنعمة الزمن ، وبدأ بالليل لمناسبة ما قبله وهو النوم لأن غالب النوم إنما يكون فيه .

﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفُصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴾ (٦) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴾ (٧) وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴾ (٨) وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ (النبأ: ١٧-٢٠) .

بدأ بذكر بعث الخلق أولاً لأنهم هم المقصودون بالبعث ، وكل ما يحدث من أمور البعث إنما هي من أجلهم ولهذا بدأ بهم ، ولما ذكر السقف ﴿ السَّمَاءُ ﴾ (٨) أتبعه بأقرب الأرض إليه وهو الجبال ﴿ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴾ (٩) .

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴾ (النبأ: ٢٩) تقدم المفعول به ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ ﴾ (١٠) على فاعله ﴿ أَحْصَيْنَاهُ ﴾ (١١) إظهاراً للاهتمام الذي فيه معنى التحذير أو إظهار عدل الله وإحاطة علمه كل شيء .

سورة النازعات

لما أوضحت سورة النبأ حال الكافر في قوله : ﴿ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرْبًا ﴾ (النبأ: ٤٠) عند نظر ما قدمت يدها ومعانيته من العذاب عظيم ما يراه أتبع ذلك في سورة النازعات ما كان مستبعداً إياه في دنياه من العودة إلى الآخرة فأقسم تعالى بالملائكة الموكلة بذلك ليذكر بقرب وقوعه وعدم استبعاد حدوثه فقال :

﴿ وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّشِيطَاتِ ذُشْطًا ۝ وَالسَّيْحَاتِ سَبْحًا ۝ فَالسَّيْقَتِ سَبْحًا ۝ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴾ (النازعات: ١-٩).

﴿ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى ۝ وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ (النازعات: ١٨، ١٩)

تقدمت التزكية على الهداية ، والهداية على الخشية ، وذلك راجع أولاً إلى معنى التزكية وهو التطهر من الشرك ، فإذا تطهر من الشرك وادعاء الربوبية والألوهية صار أهلاً لمعرفة الله ، فإذا عرفه بنعوت كماله وصفات جلاله جاءت الخشية من الله تعالى كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا تَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ عَلَّمُوا ﴾ (فاطر: ٢٨)

وهذه الآية نظير قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِمْ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (آل عمران: ١٦٤).

﴿ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّيِّئَاتِ بَنْنَهَا ۝ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّيْنَهَا ۝ وَأَعْطَشَ لِيلَهَا وَأَخْرَجَ ضَحَكَهَا ۝ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحْنَهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَهَا ۝ وَالْجِبَالَ أَرْسَلَهَا ﴾ (النازعات: ٢٧-٣٢).

بدأ أيضاً كما هو عادة القرآن بتقديم الآيات العلوية على السفلية لأنها أدل بعجائبها الكثيرة ولشرف العلو على السفلى وقد مر بنا من قبل .

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا ۝ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَىٰ ﴾ (النازعات: ٤٢-٤٤) تقدم الخبر ﴿ فِيمَ ﴾ على المبتدأ ﴿ أَنْتَ ﴾ والمعنى : أنت في أي شيء من ذكرها ، وسبب تقديم الخبر هنا على اسمه ﷺ هو أن الخبر هو المقصود إذ إن الحديث إنما هو عن الساعة ووقت حدوثها فلهذا بدئ بها .

سورة عبس

لما ذكر سبحانه وتعالى في سورة النازعات أن الاعتبار والتذكر إنما ينفع الذين يخشون ربهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ (النازعات: ٢٦) وقال بعد : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّن مَّحْشَلَهَا﴾ (النازعات: ٤٥) افتتحت هذه السورة بمثال يكشف عن المقصود من حال أهل التذكر والخشية وجميل الاعتناء الرباني بهم ، ومنهم ابن أم مكتوم صاحب قصة هذه السورة والتي أنزلت بسببه ، فقد دخل على النبي ﷺ سائلاً ومسترشداً ، وكان النبي ﷺ يكلم رجلاً من أشرف قريش ، وقد طمع في إسلامه رجاء إنقاذه وأتباعه من النار ، فانشغل به ولم يلتفت لابن أم مكتوم تاركاً إياه لإيمانه خوفاً من تفلت الآخر ، فنزل القرآن يعاتبه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُذْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَزْكَى ۚ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ﴾ (عبس: ١-٤) وقد تقدم في السورة السابقة قول موسى لفرعون : ﴿هَلْ لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّى﴾ (النازعات: ١٨) .

﴿أَنَا صَبَيْنَا أَلْمَاءَ صَبًا ۖ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۖ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۖ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۖ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۖ وَحَدَادِقَ غُلَبًا ۖ وَفَلَكْهَةً وَأَبَا ۖ مَتَعًا لِّكُم ۖ وَلَا تَتَعَمَّكُم ۖ﴾ (عبس: ٢٥-٣٢) .

ترتبت هذه الآيات على السبق الوجودي ، فبدأ بالماء أولاً لأن به قوام حياة كل شيء ، ثم أتبعه شق الأرض بواسطة هذا النبات الضعيف ، وبدأ منه بالحب أولاً لأنه القوت الأصل في قوام حياة الإنسان ، وأتبعه العنب من الفاكهة لأنه فاكهة في حال نضجه وقوت باتخاذ زيباً ودساً وخلاً ، ولما ذكر ما لا يصلح أن يؤكل إلا رطباً من غير تأخير أتبعه ما لا يفسد سريعاً كسابقه وهو أكل ودهن ، ولما ذكر ما يأكله الناس وما يعلف للدواب ، وكان السياق هنا لطعام الإنسان قال مقدماً ضميرهم : ﴿مَتَعًا لِّكُم﴾ ثم قال : ﴿وَلَا تَتَعَمَّكُم﴾ بخلاف ما ورد في سورة

السجدة حيث قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا نَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ (السجدة: ٢٧) حيث تقدمت الأنعام على الأنفس ، وقد ذكرنا هناك قول أبي حيان لأن أول ما يخرج من النبات المزروع تبادره الأنعام بالأكل .

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٦﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٧﴾ وَصَلْبَتَيْهِ وَبَنِيهِ ﴾

(عبس: ٣٤-٣٦)

وفي فائدة هذا الترتيب كأنه قيل : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ بل من أبويه ، فإنهما أقرب من الأخوين بل من الصاحبة والولد لأن تعلق القلب بهما أشد من تعلقه بالأبوين ، ثم إنه تعالى لما ذكر الفرار أتبعه بذكر سببه وهذا فيه من التشويق وإثارة التساؤل لماذا يفر المرء من هؤلاء جميعاً؟ فيأتي الجواب ، ﴿ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (عبس: ٣٧).

سورة التكويد

لما ختمت سورة عبس بوعيد الكفرة الفجرة بيوم الصاخة ابتدئت هذه بإتمام ذلك فصورت السورة هذا اليوم وما يكون فيه من الأهوال كأنها رأي عين .

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ ١ ﴿ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ﴾ ٢ ﴿ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ ٣ ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾ ٤ ﴿ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴾ ٥ ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴾ ٦ (التكوير: ١-٦).

هذا التقديم فى أحداث الساعة جاء على الترتيب فى الوقوع ، حيث تبدأ أحداث التخريب فى العالم العلوي قبل السفلي ، وهذا الترتيب هو المذكور فى سورتي الانفطار والانشقاق مما يدل على أنه ترتيب وجودي ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ ٧ ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ ٨ ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ ٩ ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ ١٠

(الانفطار: ١-٤)

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ ١ ﴿ وَأُذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ ٢ ﴿ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ ٣ ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ ٤ ﴿ وَأُذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ ٥ (الانشقاق: ١-٥)، ويؤيد ما ذكرته ما أخرجه أحمد والترمذي والحاكم عن ابن عمر ؓ قال : قال رسول الله ﷺ من سره أن ينظر إلى القيامة كأنه رأي عين فليقرأ ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾ و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ .

سورة الانفطار

لما ختمت التكوين بأنه سبحانه لا يُخْرِجُ عن مشيئته وأنه موجد الخلق ومديرهم ، وكان من الناس من يعتقد أن هذا العالم هكذا بهذا الوصف لا آخر له ، أرحام تدفع وأرض تبلع ، ومن مات فلن يعود للبعث من الرفات ، افتتح الله سبحانه هذه السورة بما يكون مقدمة للسورة التي قبلها من أنه لا بد من نقضه لهذا العالم وإخراجه ليحاسب الناس كلأ بعمله .

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ ﴿١٣﴾ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٤﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي حَجِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ (الانفطار: ١٠-١٤).

بدأ بذكر صفة الحفظ للملائكة من باب التخويف من أن أعمالهم جميعاً محفوظة عليهم ليكون ذلك أدعى للخوف والحذر ومراقبة الله في أعمالهم ، ثم أتبع ذلك بما يفيد العدل وعدم الزيادة أو النقصان في كتابة الأعمال بقوله : ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ أي في غاية الأمانة وطهارة الأخلاق ، ثم ذكر نتيجة الكتابة بعد ذلك حيث ينقسم الناس ويتميزون حسب أعمالهم التي دونت عليهم فقال : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي حَجِيمٍ .

سورة المطففين

لما ختم سبحانه الانفطار بانقطاع الأسباب وعدم الانتفاع بالأنساب فى يوم الحساب ، وأبلغ فى التهديد بيوم الدين وأنه سبحانه وحده هو الأمر لا أمر معه ، وذكر الأشقياء والسعداء ، وكان أعظم ما يدور بين العباد المقادير ، وكانت المعصية فيها من أخس أنواع المعاصي وأدناها ، حذر من الخيانة فيها ، وذكر ما أعد لأهلها ، وجمع إليهم كل من اتصف بوصفهم فحمله وصفه على المعاصي كل ذلك تنبيه للغافلين .

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿١﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٢﴾ (المطففين: ١-٣).

بدأت الآية بكلمة ﴿ وَيْلٌ ﴾ لتعطي من الترهيب والتخويف والألم النفسي الحاصل من تصدرها الآية بخلاف ما لو تأخرت إضافة لما أفادته من التشويق لمعرفة السبب لهذا الويل المتوعد به ، وأما البدء بقوله : ﴿ إِذَا اكْتَالُوا ﴾ وتقدمه على قوله :

﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ ﴾ فأقول : لقد راعى التقديم أن المطففين لابد لهم من أن يكتالوا من الناس ، فهذا أمر لابد من حدوثه بشرائهم ضرورات حياتهم التي لابد لهم منها ثم يأتي أمر البيع للبعض ، وليس كل الناس يبيع ، بينما كل الناس يشتري .

سورة الانشقاق

مقصودها الدلالة على آخر المطففين من أن الأولياء ينعمون والأعداء يعذبون لأنهم كانوا لا يقرون بالبعث ولا يؤمنون بالعرض على الخالق الحكيم للثواب والعقاب ، ولذا ابتدأت سورة الانشقاق بالقسم على ذلك ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ﴾ ، ولما سبق في الانفطار التعريف بالحفظلة وأعمالهم واستقرار ذلك في المطففين في قوله : ﴿ إِنَّ كِتَابَ الْإِبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ وفي قوله : ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينَ ﴾ أتبع ذلك بعرض الكتب يوم القيامة عند العرض وأن أخذها بالآيمان عنوان السعادة وأخذها من وراء الظهر عنوان الشقاوة إذ قد تقدم في كلا السورتين ذكر الكتب واستقرارها .

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۖ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۖ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۖ لَتَرْكُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ (الانشقاق: ١٦-١٩).

جاء هذا القسم على الترتب في الوجود وما فيه من آيات الله الكوني التي تدل على صفة القدرة والتقدير ، فأقسم أولاً بالشفق وهو الضياء الذي يكون في المغرب عقب غروب الشمس أطباقاً حمرة ثم صفرة ثم كدرة إلى بياض ثم سواد الليل ، وكذلك الليل أوله بياض بغيرة ثم تتزايد غبرته قليلاً إلى أن يسود مرباداً فيجمع كل شيء ظلاماً ثم يظهر القمر واضحاً ، يبدأ صغيراً جداً حتى ينتهي كبيراً في ليلة التمام ، ويوضح ذلك الترتيب الوجودي بالقسم هو الاستدلال به على أحوال ترتيب الإنسان في حياته وبعد الموت وهو المقصود بقوله : ﴿ لَتَرْكُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ أي حالاً بعد حال من أطوار الحياة وأدوار العيش وغمرات الموت ، ثم أمور البرزخ ، ثم ما بعد الموت عند البعث ، ثم الاستقرار في أحد الدارين الجنة أو النار أعادنا الله منها برحمته .

سورة البروج

لما ختم سبحانه سورة الانشقاق بثواب المؤمن وعقاب الكافر والاستهزاء بهم جاءت سورة البروج تكشف عن أفعالهم الفظيعة حتى لا يشفق عليهم أحد ، ولإثبات صفة العدل الإلهية وأن ما استحقوه إنما هو بسبب فعلهم الآتي ذكره ، وبدأت السورة بالإقسام على لعنهم وعذابهم ، ثم ذكرت السبب

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝ وَالْيَوْمِ الْوَعْدِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝﴾

(البروج: ١-٨)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ جَنَّاتُ نَجْرٍ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ ۝﴾

(البروج: ١٠-١٣)

بدأ بذكر عقاب المعاندين أولاً لأن المقام له وموضوع السورة عنهم وهم المبدوء بهم في الذكر بعد القسم السابق لحكايتهم بقوله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ ۝ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝﴾ (البروج: ٤-٧).

وقد قدم أيضاً صفة البطش في قوله : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝﴾ على صفة الرحمة والمغفرة في قوله : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۝﴾ مع أنها أولى بالتقديم من أجل مناسبة السياق الجاري قبل .

سورة الطارق

لما ذكر سبحانه وتعالى في سورة البروج ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ (البروج: ٢٠) وكان في ذلك تعريف العباد أن الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شيء ولا يفوته شيء ، أتبع ذلك بمزيد من التفصيل من شهادته سبحانه على كل شيء وإحاطته بكل شيء فقال في سورة الطارق : ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْنَا حَافِظٌ﴾ ولما أقسم سبحانه ببروج السماء جاء هذا القسم الآخر في سورة الطارق بالقسم الخاص بالطارق الذي هو نجم من نجوم تلك السماء المقسم بها .

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾

(الطارق: ١-٣)

هذا الأسلوب جاء على هذا الترتيب للتشويق ، فبعد أن أقسم به وهو مبهم لم يعرف بعد ، سأله عنه تعظيماً للمقسم به وللتشويق إلى معرفته ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ ثم أخبر عنه ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ .
﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ (الطارق: ١٠).

بدأ بذكر أقرب ما يدفع به الإنسان عن نفسه ويبدأ به أولاً وهي قوته ، فإن لم تكن عنده قوة ، لجأ إلى الناصر والمعين ولهذا بدأ بقوله : ﴿قُوَّةٍ﴾ متقدماً به على قوله : ﴿ناصِرٍ﴾ .

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ﴾ ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ (الطارق: ١١، ١٢).

أقسم بالسماء مبتدئاً بهذا العالم العلوي لشرفه وقد مر سابقاً الإشارة إليه ثم أتبعه العالم السفلي فقال : ﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ (الطارق: ١٢).

سورة الأعلى

نهى الله سبحانه وتعالى في آخر سورة الطارق عن الاستعجال بما تضمنه الأمر بالإمهال ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا﴾ (الطارق: ١٧). فصفة الحلم صفة كمال ، وصفة الاستعجال صفة نقص ، ولهذا بدأ سبحانه سورة الأعلى بتسبيحه الذي يتضمن تنزيهه سبحانه عن كل نقص ، فبدأت السورة بقوله : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ (الأعلى: ١) وهذا التسبيح مرتبط بالسورة من جهة ثانية وهو جهل الكفار بالله رب العالمين وعدم تأديبهم معه بنص قوله في الطارق : ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهَلُهُمْ رُوَيْدًا ﴿٢﴾ (الطارق: ١٥-١٧) وكان وقوع ذلك من العبيد حمقا وجهلا فأتبع سبحانه ذلك بأمر نبيه ﷺ بتنزيه ربه عن سوء معتقدتهم وسيئ فعالهم فقال : ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ .

قال تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ ﴿١﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿٢﴾ (الأعلى: ١٤، ١٥). المقصود بقوله : ﴿تَزَكَّى﴾ هو إخراج زكاة الفطر لا مطلق الزكاة إذ إن عادة القرآن تقديم ذكر الصلاة على ذكر الزكاة ، وليس تقديم ذكر الزكاة على ذكر الصلاة فالتقديم هنا تقديم لسبق الوجود لأنه يجب إخراج زكاة الفطر قبل صلاة العيد ، روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضيهما الله عنهما { أن رسول الله ﷺ أمر بزكاة الفطر أن تؤدى قبل خروج الناس للصلاة } .^(١)

(١) صحيح مسلم باب الأمر بإخراج زكاة الفطر أن تؤدى قبل خروج الناس للصلاة حديث رقم {٩٨٦}.

سورة الغاشية

لما ختمت سورة الأعلى بالحث على تطهير النفوس ظاهراً وباطناً ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى﴾ (١) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿(الأعلى: ١٤، ١٥) ورغب في أمر الآخرة ورهب منها ﴿سَيَذْكُرُ مَن تَخْشَى﴾ (٢) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ﴿(الأعلى: ١٠، ١١) فقال تعالى مذكراً بأمر الآخرة التي حث عليها في آخر سورة الأعلى : ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (الغاشية: ١).

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ (٣) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٤﴾ تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٥﴾ تُسْقَى مِنَ عَيْنٍ عَاطِيَةٍ ﴿٦﴾ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن صَرِيرٍ ﴿٧﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنَ جُوعٍ ﴿٨﴾ (الغاشية: ٢-٧)

بدأ بذكر العذاب لأنه بدأ بذكر أصحابه أولاً ، وبدأ بأشد صورته وهي النار أولاً ﴿تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ (الغاشية: ٤) ثم العطش الشديد الذي يشربون من أجله الماء المغلي غاية الغليان ، ثم ذكر بعد ذلك المطعوم وابتدأ بذكر نفي السمن عنه مع كونه متأخر في الحدوث لأن الطعام إنما يذهب الجوع أولاً ثم السمنة ثانياً ، وفي سر هذا التقديم نقول : إنما ابتدأ بالسمنة قبل إذهاب الجوع لأن الآيات متوجهة لأهل الرخاء والمترفين من الكافرين الذين كانوا لا يأكلون لذهاب الجوع فحسب ، بل يزدون في الطعام إلى حد السمنة ولذا بدأ بها هنا .

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِيَةٌ﴾ (٨) لِسَعِيٍّ رَّاضِيَةٍ ﴿٩﴾ فِي حَنَّةٍ عَلِيَّةٍ ﴿١٠﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ (الغاشية: ٨-١٦).

وفي ذكر نعيم الجنة بدأ بأول ما يعتبر فيها وهو إزالة المنغص فقال : ﴿لِسَعِيٍّ رَّاضِيَةٍ﴾ وهذا نفي لمنغص الباطن بإزالة الهم والغم ثم اتبعه بنفي منغص السمع فقال ﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ ثم اتبعه بإزالة منغص البصر فقال ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ .

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿(الغاشية: ١٧-٢٠).

جاء الترتيب في النظر إلى الإبل ثم السماء ثم الجبال ثم الأرض ، وقد يكون هذا الترتيب قد راعى محل العين ، فأول ما يلفت النظر إلى الإبل هو قامتها العالية

ورقابها المرفوعة فناسب ذلك أن ينظروا إلى السماء ويلتفتوا إليها بعلوها الشاهق الذي لا يدرك له حد ، وقد تقدم ذكر السماء على الجبال فما من مكان إلا والسماء ترى فيه ، بينما ليس فى كل الأماكن تكون الجبال ، فلما كان النظر إلى السماء أكثر باعتبار حجمها ناسب أن تتقدم على الجبال ، فإذا ما أرخى الإنسان نظره قابله الأرض ولذا تأخرت فى الذكر .

وقد وافق ما ذكرناه عن سر هذا الترتيب قول المراغي حيث قال :
 « وإنما خص هذه المخلوقات بالذكر لأن الناظر منهم يفكر فى أقرب الأشياء إليه ، فهو يرى بعيره الذي يمتطيه ، ثم إذا هو رفع رأسه فوق رأى السماء ثم إذا التفت يمينه أو يسرة رأى ما حواليه من الجبال فإذا مد ناظريه أمامه أو تحته رأى الأرض ، فالعربي يرى ذلك كل يوم ومن ثم أمره الله بالتدبر فيها » .^(١)
 وقد نقل القاسمي كلاماً طريفاً عن السكاكي حول هذا الترتيب قال : « لطيفة : ذكر السكاكي فى {المفتاح} فى بحث الجامع الخيالي ، أن جمعه على مجرى الإلف والعادة بحسب ما تنعقد الأسباب فى استبعاد الصور خزانة الخيال وأنه إذ لم يوف حقه من التيقظ وأنه من أهل المدر ، أنى يستحلي كلام رب العزة مع أهل الوبر حيث يبصرهم الدلائل ناسقاً ذلك النسق ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ الآيات لبعد البعير عن خياله فى مقام النظر ثم لبعده فى خياله عن السماء ، وبعد خلقه عن رفعها وكذا البواقي لكن إذا وفاه حقه بتيقظه بما عليه تقلبهم فى حاجاتهم جاء الاستحلاء وذلك إذا نظر أهل الوبر إذا كان مطعمهم ومشربهم وملبسهم من المواشي ، كانت عنايتهم مصروفة لا محالة إلى أكثرها نفعاً وهي الإبل ثم إذا كان انتفاعهم بها لا يتحصل إلا بأن ترعى وتشرب كان جل مرمى غرضهم نزول المطر ، وأهم مسارح النظر عندهم السماء ثم إذا كانوا مضطرين إلى مأوى يؤويهم وإلى حصن يتحصنون فيه ولا مأوى ولا حصن إلا الجبال

لنا جبلٌ يحتله من نُجْبِرُهُ منيعٌ يرذُ الطرفَ وهو كليلُ
 فما ظنك باللتفات خاطرهم إليها ؟ ثم إذا تعذر طول مكثهم فى منزل - ومن لأصحاب مواشٍ بذاك - كان عقد الهمة عندهم بالتنقل من أرض إلى سواها من عزم الأمور » .^(٢)

(١) تفسير المراغي ج ٣٠ ص ١٣٧ .

(٢) تفسير القاسمي ج ٩ ص ٤٦٣ .

سورة الفجر

مقصود هذه السورة الاستدلال على أمر الغاشية حيث ختمت بأنه لا بد من الرجوع والحساب ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ (٢٥، ٢٦)، وأدل ما فيها على هذا المقصود هو القسم بالفجر حيث انبعث النيام من الموت الأصغر الذي يشبه انبعثهم من موتهم ليوم البعث الأكبر .

قال تعالى : ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ (الفجر: ٣).

إذا فسر الشفع والوتر بأنها هي الصلوات منها الشفع ومنها الوتر وهو الراجح لورود الدليل بذلك ، ففي الحديث {هي الصلوات منها الشفع ومنها الوتر} ^(١) رواه الإمام أحمد ، فإن التقديم يكون لسبق الوجود ، فإن وتر النهار هو صلاة المغرب ووتر الليل هو صلاة الوتر ، روى مسلم في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن صلاة الليل فقال رسول الله ﷺ : {صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خشي أحدكم الصبح صلى ركعة واحدة توتر له ما قد صلى} ، وقد أورد مسلم في هذا الباب تسعة عشر حديثاً في أن الوتر هو آخر صلاة منها {من صلى بالليل فليجعل آخر صلاته وتراً فإن رسول الله ﷺ كان يأمر بذلك} {اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وتراً} ^(٢)

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿١﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٢﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٣﴾ وَثُمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٤﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿٥﴾﴾

(الفجر: ٦-١٠)

تقدمت قصة عاد على ثمود كما هو المعهود في معظم آي القرآن ليس لأنهم أسبق زماناً ولكن لكون قصتهم أعجب وأغرب ، ثم تلى بأقرب الأمم منهم زماناً وهم قوم ثمود .

(١) مسند الإمام أحمد ٤/ ٤٣٨ .

(٢) صحيح مسلم باب صلاة الليل مثنى مثنى ، والوتر ركعة من آخر الليل ، باب من خاف أن لا يقوم من آخر الليل فليوتر أوله من ج ٦ من ص ٤٤ - ص ٥١ .

سورة البلد

لما ابتدأت سورة الفجر بالقسم الزماني الفجر والليل ، افتتحت سورة البلد بالقسم المكاني وهو مكة المكرمة ﴿ لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ (البلد: ١) ولما ختمت الفجر بالحدث عن أفضل أماكن الآخرة وهي الجنة ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴾ ﴿ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ﴾ ﴿ فَأَدْخِلِي فِي عِبْدِي ﴾ ﴿ وَأَدْخِلِي جَنَّتِي ﴾ (الفجر: ٢٧-٣٠)، بدأت سورة البلد بالحدث عن أفضل أماكن الدنيا وهي مكة المقسم بها ، ولما ذكر سبحانه في سورة الفجر أحوال الإنسان في النصب والتعب بسبب السلطان ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ ﴿ الَّذِينَ طَفَعُوا فِي الْبَلَدِ ﴾ ﴿ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴾ (الفجر: ١٠-١٢)، أو بسبب المال - وأنه ابتلاء في الإعطاء والمنع ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَيْنَاهُ رَبُّهُ فَآكَرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴾ ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَيْنَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴾ (الفجر: ١٥، ١٦)، جاءت سورة البلد تشرح هذه الحال ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴾ (البلد: ٤)، ولما سبق ذكر أهل الفساد والتكبر بالقوة ﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ (الفجر: ٩) أو بالحكم ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴾ (الفجر: ١٠)، وأن ذلك كان سبب غرورهم وكفرهم جاءت سورة البلد تبين خبيث ما انطوت عليه نفوس هؤلاء .

﴿ اُنْحَسِبْ أَنَّ لَنِ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ (البلد: ٥)، ولما ذكرت سورة الفجر شح الإنسان وبخله وعدم رحمته لليتيم ولا المسكين ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ﴾ ﴿ وَلَا تَحْضُرُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ (الفجر: ١٧، ١٨)، وبينت أن ذلك بسبب حب المال .

﴿ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ (الفجر: ٢٠)، جاءت سورة الفجر لتبين أن هذا الذي منع المال عن مستحقه والمحتاجين إليه بالغ في إجرامه حيث أنفق في وجوه الفساد وليس في مصالح العباد ﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴾ ﴿ اُنْحَسِبْ أَنَّ لَم يَرَهُ أَحَدٌ ﴾ (البلد: ٦، ٧).

قال تعالى : ﴿ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ (البلد: ١٥، ١٦).

تقدم اليتيم على المسكين لأمرين للقرابة ولأنه أشد حاجة وضعفاً من المسكين وقد مر بنا ذلك عند الآية ١٧٧ من سورة البقرة .

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَةِ ﴾ (البلد: ١٧).

قال الرازي : فإن قيل لما كان الإيمان شرطاً للانتفاع بهذه الطاعات وجب كونه مقدماً عليها ، فما السبب في أن الله تعالى أخره عنها بقوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ ؟ والجواب من وجوه :

أحدها : أن هذا التراخي في الذكر لا في الوجود ، كقوله :

إِنَّ مَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ

لم يرد بقوله ثم ساد أبوه التأخر في الوجود ، وإنما المعنى ، ثم اذكر أنه ساد أبوه ، كذلك في الآية .

وثانيها : أن يكون المراد ثم كان في عاقبة أمره من الذين ءامنوا وهو أن يموت على الإيمان فإن الموافاة شرط الانتفاع بالطاعات .

وثالثها : أن من أتى بهذه القرب تقريباً إلى الله تعالى قبل إيمانه بمحمد ﷺ ثم آمن بعد ذلك بمحمد - عليه الصلاة والسلام - فعند بعضهم أنه يثاب على تلك الطاعات ويدل عليه ما روي { أن حكيم بن حزام بعدما أسلم قال لرسول الله ﷺ : إِنَّا كُنَّا نَأْتِي بِأَعْمَالٍ خَيْرٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَهَلْ لَنَا مِنْهَا شَيْءٌ ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسَلِمْتَ عَلَى مَا قَدِمْتَ مِنَ الْخَيْرِ } .

ورابعها : أن المراد من قوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ (البلد: ١٧)، تراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة لأن درجة ثواب الإيمان أعظم بكثير من درجة ثواب سائر الأعمال ^(١) .

قال السمين الحلبي في قوله : ﴿ ثُمَّ كَانَ ﴾ « لتراخي الإيمان وتباعده في الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة ، لا في الوقت ، لأن الإيمان هو السابق ، ولا يثبت عمل إلا به » ^(٢) .

وقد يكون المعنى على النحو الآتي : ثم كان في عاقبة أمره من الذين وافوا الموت على الإيمان ، لأن الموافاة عليه شرط في الانتفاع بالطاعات ، أو يكون للتراخي في الذكر .

(١) تفسير مفاتيح الغيب ج ٣١ ص ١٨٧ .

(٢) تفسير الدر المنصور ج ٦ ص ٥٢٦ .

سورة الشمس

لما أثبت سبحانه في سورة البلد أن الإنسان في كبد وختمها بذكر حال أهل
الفجور وأنهم في النار المؤبدة ، بين سبحانه في سورة الشمس أن الإنسان الذي
في ذلك الأمر بين الهداية والضلال إنما سار بما أودع الله في نفسه من إرادة الخير
والشر ، وبدأ بذكر إلهامها فجورها قبل تقواها في قوله : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
وَتَقْوَاهَا ﴾ (الشمس: ٨)، لمناسبة الآية الأخيرة في سورة البلد التي ذكرت أحوال
أصحاب النار ﴿ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ ﴾ (البلد: ٢٠).

﴿ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴾ ١ ﴿ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ﴾ ٢ ﴿ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴾ ٣ ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا
يَغْشَاهَا ﴾ (الشمس: ١-٤).

بدأ بذكر الآيتين الشمسي والقمر ثم ذكر ما هما آيتاه وبدأ بهما وظهر أثرهما
فيه فقال : ﴿ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴾ وبدأ بالنهار لمناسبة ذكر ما قبله وهو تقدم ذكر
الشمس على القمر . ثم ذكر الليل التالي في الذكر ﴿ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴾ .
﴿ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ﴾ ٤ ﴿ وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّاهَا ﴾ (الشمس: ٥، ٦).

لما ذكر محل الوجود ﴿ وَالسَّمَاءَ ﴾ أتبعه محل التأثير فقال : ﴿ وَالْأَرْضَ
وَمَا طَحَّاهَا ﴾ .

﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ ٥ ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ ٦ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ ٧
﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (الشمس: ٧-١٠).

لم بدأ بإلهامها الفجور على التقوى مع أن التقوى أشرف وأظهر في المن ، كما
أن الهداية للتقوى سابقة عليه ، إذ هي الأسبق في الوجود ؟ فقد روى البخاري عن
أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : { كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه
أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء } ^(١)

أقول : بدأ بالفجور لأنه أعجب ، فأعجب أمور النفس هو الفجور مع أن
فطرتها هي الإسلام ، وتوالي ظهور النعم والإحسان ، فكيف غلب عليها المعاصي
والشهوات مع وجود صحيح النقل ووفور العقل ، ولهذا بدأ في الآية التالية بأهل
التقوى لشرفهم وليس بأهل الفجور لخبثهم فقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴾ ٧ ﴿ وَقَدْ
خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ .

(١) صحيح البخاري كتاب الجنائز رقم {١٢٩٦}.

سورة الليل

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ (الليل: ١-٤).

تقدم ذكر الليل الذي هو آية الظلام وسبب الخلط والخبط لما يحدث عنه من الإشكال أتبعه بذكر النهار الذي يزيل هذا الظلام وانكشاف الأمور ، وهذا إشارة لنور التوحيد الذي أنار ظلام الكون السابق عليه ، ولما ذكر المختلطين معنى لسبقهما في الوجود خدمة للبشر أتبعهما المختلطين حساً ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴾ ولما ذكر المحسوس التخالف من المعاني والأجرام أتبعه ما هو معقول التباين من الأعراض فقال : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ أي مختلفاً باختلاف ما تقدم .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ (الليل: ٥-١٠).

لما تقدم ذكر المزكي وثمرته لأنه أشرف أتبعه ذكر المدسي وشقوته ، وقد جاء الترتيب في الثاني على غرار الأول حيث قابل الإعطاء والتقوى البخل والاستغناء وقابل التصديق بالحسنى التكذيب بها .

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١١﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٢﴾﴾ (الليل: ١٢، ١٣).

تقدم الجار والمجرور في الموضعين لإفادة الاختصاص ، كما تقدم ذكر الآخرة على الأولى لشرف الآخرة على الدنيا .

سورة الضحى

نقل البقاعي عن الإمام أبي جعفر بن الزبير قوله : « لما قال تعالى : ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (الشمس: ٨) ، ثم أتبعه بقوله فى الليل : ﴿ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴾ (٧) وَأَمَّا مَنْ يَحْزَلْ وَأَسْتَعْفَى ﴿١﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿٢﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿٣﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴿٤﴾ (الليل: ٧-١١) ، ويقول : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ﴿٥﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى ﴾ (الليل: ١٢، ١٣) .

فلزم الخوف واشتد الفزع وتعين على الموحد الإذعان والتسليم والتضرع فى التخلص والتجاوؤ إلى السميع العليم ، أنس تعالى أحب عباده إليه وأعظمهم منزلة لديه وذكر له ما منحه من تقريبه واجتبائه وجمع خير الدارين له فقال تعالى :

﴿ وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ (الضحى: ١، ٤) ^(١) .

﴿ وَالضُّحَى ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ (الضحى: ٢، ١) .

تقدم فى هذه السورة ذكر الضحى على ذكر الليل ، بينما تقدم ذكر الليل فى السورة السابقة - سورة الليل - أقول : إن بالليل والنهار ينتظم مصالح الخلق ، والليل له فضيلته من حيث السبق والسبات والراحة ووقت الخلوة بالعبادة ، وكذلك النهار له فضله فهو وقت الضياء والاشتغال بالمصالح والمعاش ، فلما كان لكل واحد فضيلة ليست للآخر ، قدم هذا على ذاك تارة وذاك أخرى .

﴿ أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيمًا فَفَآوَى ﴿١﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٢﴾ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَى ﴿٣﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٤﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿٥﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿٦﴾ ﴾ (الضحى: ٦-١١)

قال أبوحيان : « ويظهر أنه لما تقدم ذكر الامتنان عليه بذكر الثلاثة ، أمره بثلاثة ، فذكر اليتيم أولاً وهي البداية ، ثم ذكر السائل ثانياً وهو العائل ، وكان أشرف

(١) نظم الدرر ص ٤٥٤ .

ما امتن عليه هي الهداية فترقى من هذين إلى الأشرف وجعله مقطع السورة وإنما وسط ذلك عند ذكر الثلاثة ، لأنه بعد اليتيم هو زمان التكليف وهو - عليه الصلاة والسلام - معصوم من اقتراف ما لا يرضي الله عز وجل في القول والفعل والعقيدة ، فكان ذكر الامتان بذلك على حسب الواقع بعد اليتيم وحالة التكليف . وفي الآخر ترقى إلى الأشرف فهما مقصدان في الخطاب»^(١).

قال الرازي : « فإن قيل فما الحكمة في أن أخر الله تعالى حق نفسه عن حق اليتيم والعائل ؟ قلنا فيه وجوه :

أحدها : كأنه يقول أنا غني وهما محتاجان وتقديم حق المحتاج أولى .
وثانيها : أنه وضع في حظهما الفعل ورضي لنفسه بالقول .
وثالثها : أن المقصود من جميع الطاعات استغراق القلب في ذكر الله تعالى ، فجعل خاتمة هذه الطاعات على ذكر الله » .^(٢)

أقول : وفي الآيات الثلاث الأخيرات رد على الزمخشري في القول بالتخصيص دائما عند تقدم المفعول على الفاعل ، ودليل ذلك أنه يلزم القول بالتخصيص أن يقهر النبي ﷺ غير اليتيم ، وأن ينهر غير السائل ، وألا يحدث إلا بنعمة الله . وهذا قول بين البطلان .

(١) تفسير البحر المحيط ج ٨ ص ٤٨٢ .

(٢) تفسير مفاتيح الغيب ج ٣١ ص ٢٢١ .

سورة الشرح

مقصود هذه السورة تفصيل ما فى آخر الضحى من النعمة ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١)، وبيان أن المراد بالتحديث بها هو شكرها بالنصب فى عبادة الله والرغبة إليه بتذكر إحسانه وعظيم رحمته ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ ﴿الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَأَرْغَبْ﴾

(الشرح: ١-٨)

تقدم الجار والمجرور ﴿لَكَ﴾ للبدء به لشرف مقامه وإظهار الاهتمام مع ما فيه من التشويق حيث عين المشروح له ولم يعين المشروح ، فزاد تشوف النفس إليه ليكون أضخم له ، فبيته ليكون بياناً بعد إبهام وليكون أعظم فى التنويه به ، وأجل فى التعريف بأمره فقال : ﴿صَدْرَكَ﴾ ، ولما كان شرف الذات فى أحسن الصفات لا يصفو إلا بعد الظهور فيكون كالعلامات الواضحات أتبعه قوله ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ، وتقدم ذكر العسر على اليسر لأنه أسبق فى الوجود ، وإنما يكون العسر بعد اليسر .

سورة التين

لما ذكر سبحانه فى السورة السابقة عظيم منزلة النبي ﷺ جاءت سورة التين لتبين فضله من جهة أخرى ، وهو شرف الأصل وشرف المكان ، فالقسم الوارد فى هذه السورة ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ (التين: ١) ، إشارة إلى بلاد الشام مهاجر أبيه إبراهيم ومولد أخيه عيسى - عليهما السلام - ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ (التين: ٢) ، إشارة إلى موسى واختصاصه بالرسالة والتكليم من هذا المكان المقدس .

﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (التين: ٣) إشارة إلى مكة بلد النبي ﷺ .

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾ ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (التين: ١-٣) .

بدأ بالقسم بالتين والزيتون إشارة إلى مواضع نبتهما فى بلاد الشام إيماء إلى من كان بها من الأنبياء لا سيما إبراهيم ولوط وإسحق ويعقوب وعيسى ، وأتبع ذلك بطور سينين حيث إقامة موسى وهارون وفيه كلم الله موسى واصطفاه رسولاً ثم ثلث بـ ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ إشارة إلى خاتمهم محمد - عليهم جميعاً الصلاة والسلام - ، وقد بدئ بذكر التين لأنه وحده غذاء كما أنه دواء ، أما الزيتون فلا يكتفى به وحده كغذاء وطعام .

قال صاحب كتاب (الطب القرآني غذاء ودواء) : « ترجع القيمة الغذائية لثمرة التين لما تحتويه من نسبة عالية من المواد السكرية وعنصري الكالسيوم والحديد ، ثم ذكر بعد ذلك الفوائد الطبية للتين كعلاج للإمساك وكسل الأمعاء والجروح والقروح واضطرابات الحيض وإدرار البول واللبين »^(١) .

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (التين: ٦) .

تقدم الجار والمجرور لإفادة اختصاص الأجر بهم لا لغيرهم .

(١) الطب القرآني غذاء ودواء ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

سورة العلق

بعد أن ذكرت سورة التين أن الله سبحانه هو خالق الإنسان في أحسن تقويم ، وأنه سبحانه لم يخلق هذا الخلق عبثاً وإنما لحكمة ، جاءت أولى هذه الحكم في بداية سورة العلق وهو الأمر بالقراءة للقرآن الكريم الذي به تمام المعرفة بهذا الخالق العظيم وما يجب على العبد تجاه ربه من حق التعظيم .

﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق: ١-٥).

بدأ بالخلق لأنه محسوس بالعين فهو أعلق بالفهم ، وأقرب إلى التصور وأدل على الوجود وعظيم القدرة وكمال الحكمة فكانت البداية به في هذه السورة التي هي أول ما نزل أنسب الأمور لأن أول الواجبات معرفة الله ، ثم جاء قوله : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ بيان لما قبله ثم بعد الخلق لم يتركهم هملاً ضائعين بل تولت معه عليهم وأحاطهم كرمه وشملتهم عنايته فجاء قوله : ﴿ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ لبيان ما فعله بعباده بعد الخلق وبعد نعم الإيجاد والخلق جاءت نعمة الإكرام وأخصها نعمة العلم فقال : ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ .

قال الإمام ابن القيم : « ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين البيان النطقي ، والبيان الخطي ، وقد اعتد بهما سبحانه في جملة ما اعتد به من نعمة على العبد فقال في أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فتأمل كيف جمع في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها ، وكيف تضمنت مراتب الموجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه ، فذكر أولاً عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجي ، ثم ذكر ثانياً خصوص خلق الإنسان ، لأنه موضع العبرة ، والآية فيه عظيمة ، ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم وذكر مادة خلقه ها هنا من العلق ، وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها ، أما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال الذي كالفخار أو مادة الفرع وهو الماء المهيّن ، وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق وهو العلق ، فإنه كان قبلها نظفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلق ، ثم ذكر ثالثاً التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده ، إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا

وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس وبه تقيد أخبار الماضين للباقيين اللاحقين ، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض ، ودرست السنن وتخبطت الأحكام ، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف . وكان معظم الخلل الداخل على الناس فى دينهم وديناهم إنما يعثورهم من النسيان الذي يمحور صور العلم من قلوبهم فجعل لهم الكتاب وعاء حافظاً للعلم من الضياع كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان ، فنعمة الله عز وجل بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم^(١).

﴿إِنْ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْجَيْتُ﴾ (العلق: ٨).

تقدم الجار والمجرور لإفادة الحصر والاختصاص فلا رجوع إلا إلى الله .

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿١﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ أَهْدَىٰ ﴿٣﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿٤﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٥﴾﴾ (العلق: ٩-١٣).

تقدم قوله : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿١﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ على قوله : ﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٥﴾﴾ للبداء بأقبح صفاته وهي أمره بالمنكر وصدّه عن الخير وعدم اقتصاره فى تكذيبه على نفسه بل تعدى أمر نفسه إلى كونه أمراً غيره بترك الإيمان . ﴿كَلَّا لَا تُطِيعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (العلق: ١٩).

تقدم الأمر بالسجود على الاقتراب من باب تقديم السبب على المسبب عنه ، فلما كان السجود سبب الاقتراب بدأ به ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ {أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء} ^(٢) روى أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن المغيرة بن شعبة وعائشة رضي الله عنهما بألفاظ مختلفة لما قالت للنبي ﷺ : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء فى السجود وما هذا الجهد الشديد ؟ قال : {أفلا أكون عبداً شكوراً} ^(٣).

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور دار الولاية ، ص ٢٨٩.

(٢) مسند الإمام أحمد باقى مسند المكثرين حديث رقم {٩٠٨٣}.

(٣) صحيح البخاري كتاب الجمعة رقم {١٠٦٢} وكتاب تفسير القرآن رقم {٤٤٥٩} وصحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار رقم {٥٠٤٥} ورقم {٥٠٤٦} ورواه الترمذي فى كتاب الصلاة رقم {٣٧٧} النسائي كتاب قيام الليل وتطوع النهار رقم {١٦٢٦} وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها رقم {١٤٠٩} و{١٤١٠} ورواه أحمد فى مسند الكوفيين رقم {٧٥٣٢} وباقى مسند الأنصار رقم {٢٣٧٠٠}.

سورة القدر

لما أمر سبحانه في سورة العلق بالقراءة أي قراءة القرآن الكريم جاءت سورة القدر لتبين عظيم هذا القرآن الذي أنزله الله وأمر بقراءته ولا سيما في هذه الليلة العظيمة التي أنزل فيها .

﴿ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴾ (القدر: ٥).

تقدم الخبر ﴿ سَلَّمَ ﴾ على مبتدئه ﴿ هِيَ ﴾ لنفي غير السلامة منها ، أي ما هي إلا سلامة وخير ليس فيها أي شر ، أما لو قيل هي سلام لاحتمل أن تكون سلاماً وغير سلام .

سورة البينة

هذه السورة تكملة للسورتين المتقدمتين - العلق والقدر - حيث أمر النبي ﷺ بقراءة القرآن الذي به قامت حجته وبانت طريقته ، ثم أتبع ذلك ببيان ليلة إنزاله ، وجاءت هذه السورة - البينة - لتبين أن هذا الكتاب هو الذي كانت اليهود تستفتح به على مشركي العرب وتعظم أمره وأمر الآتي به حتى إذا حصل ذلك مشاهداً لهم كانوا أول كافر به فقال تعالى :

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴾ (البينة: ٢، ١).

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (البينة: ٥).

تقدم الجار والمجرور ﴿ لَهُ ﴾ لإفادة الاختصاص بحصر الإخلاص في العبادة لله وحده .

﴿ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَسِيَ رَبُّهُ ﴾ (البينة: ٨).

لما وصف تعالى الجنة أتبعه بما هو أفضل من الجنة وهو الخلود أولاً والرضا ثانياً وروي أنه - عليه السلام - قال : {إن الخلود في الجنة خير من الجنة ورضا الله خير من الجنة} .

وحول هذا المعنى يعجبني ما ذكره الدكتور عبد الرحمن الحجي وهو في معرض حديثه عن الهجرة حيث قال : {فلقد اشتاقوا إلى الجنة ، لا إلى أطيارها وأزهارها ولا إلى أنهارها وثمارها فحسب ، بل قبل ذلك اشتاقوا أكثر وأكثر إلى رضا الله في دار المقامة عنده وصحبة النبي ﷺ وصحبه} ^(١).

(١) السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها ص ٢٩٠.

قال الرازي : « الصفة الثانية وهي الرضا ، فاعلم أن العبد مخلوق من جسد وروح فجنة الجسد هي الجنة الموصوفة ، وجنة الروح هي رضا الرب ، والإنسان مبتدأ أمره من عالم الجسد ، ومنتهى أمره من عالم العقل والروح ، فلا جرم ابتداء بالجنة وجعل المنتهى هو رضى الله ، ثم إنه قدم رضا الله عنهم على قوله : ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ لأن الأزلي هو المؤثر فى المحدث ، والمحدث لا يؤثر فى الأزلي^(١) وهذا التقديم للسبق نظير قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (المائدة: ٥٤)، حيث تقدم حبه على حبهم لسبق وجوده منه سبحانه أولاً ونظير قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ (البقرة: ١٦٥).

قال الخازن فى هذه الآية : « لأن الله أحبهم أولاً فأحبوه »^(٢).

(١) تفسير مفاتيح الغيب ج ٣٢ ص ٥٥.

(٢) تفسير الخازن ج ١ ص ١٨.

سورة الزلزلة

جاءت سورة الزلزلة عقب سورة البينة لتبين حصول جزاء الفريقين ومآل الصنفين المذكورين فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿ أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ إلى آخر السورة أعقب سبحانه ذلك بمآل الصنفين وبيان حال الفريقين .

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴾

(الزلزلة: ٧، ٨)

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۖ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۖ ﴾ (الزلزلة: ١، ٢).

تقدمت الزلزلة تقديمًا وجودياً لأنها أول ما يحدث من علامات الساعة حيث تحدث الزلزلة ، ثم تتشقق الأرض ثم يخرج منها الأموات بعد ذلك ، ولما أخبر تعالى بإخراج الأثقال اشتد التشوف إلى هيئة ذلك الإخراج وصفته فقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴾ (الزلزلة: ٦)، ثم بدأ بذكر جزاء الخير لشرفه قبل ذكر الشر فقال : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴾ (الزلزلة: ٧، ٨) .

سورة العاديات

جاءت سورة العاديات لتبين أهم ما تخرج الأرض من أثقالها وهو الموتى المقبورين فى باطن الأرض ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ (العاديات: ٩)، إذ على هؤلاء يكون البعث والحساب والثواب والعقاب .

﴿ وَالْعُدَيْتِ صُبْحًا ﴾ ﴿ فَالْمُورِتِ قَدْحًا ﴾ ﴿ فَالْمُغِيرَتِ صُبْحًا ﴾ ﴿ فَأُتْرُنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (العاديات: ١-٨).

بدأ بذكر الخيل العادية ثم أتبعه ما ينشأ عنها وهو ظهور النار من حوافرها بفعل الاصطكاك بالأحجار ، ثم ذكر المغيرات لأنها أشرف من المنهزمات الموليات ، وذلك من باب ذكر النتيجة قبل حدوثها لشرفها ، ثم ذكر ما يحدث بعد الإغارة من الكر والفر فى جميع الجوانب والاتجاهات مما ينشأ عنه الغبار فقال : ﴿ فَأُتْرُنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ وبعد المدافعة من الفريقين يبدو بواحد النصر عندما يتخلل الفريق المهاجم وسط الجيش قال : ﴿ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ .

تقدم متعلق الخبر ﴿ لِرَبِّهِ ﴾ على الخبر ﴿ لَكَنُودٌ ﴾ فى قوله : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ إذ أصل الترتيب : إن الإنسان لكنود لربه ، والسبب هنا هو الاهتمام بالبداة بذكره سبحانه ، مع ما أفاده من تعظيم أمر هذا الجحود ، فالكنود هو الكفور الجحود لنعم الله تعالى الذي يذكر المصائب وينسى النعم ، فقدّم اسمه سبحانه لأن الكفر بنعمه ليس كالكفر بنعم البشر ، إذ إحسانه وإنعامه فوق كل إحسان وإنعام ، بل هو مصدر كل إحسان وإنعام ﴿ وَمَا يَكُفُّمْ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ ﴾ ، هذا مع ما فى التقديم من حسن الفاصلة التي جاءت تابعة للمعنى وليس استقلالاً كما ادعى السمين الحلبي أن تقديم المتعلق للفواصل ^(١) .

كما تقدمت المتعلق فى قوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴾ ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ للاهتمام بالمذكور المتقدم الذي سيق الكلام من أجله .

(١) تفسير الدر المصون ج ٦ ص ٥٦٠ .

سورة القارعة

لما ختمت العاديات بالبعث ذكر صيحته فقال : ﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ (القارعة: ١). لأنها تفرع أسماع الناس وتدقها دقاً شديداً مزعجاً ، وجاءت سورة القارعة كأنها تجيب عن سؤال سائل عن قوله تعالى السابق فى سورة العاديات : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴾ ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ ﴿ إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ فجاء الجواب فى سورة القارعة إنه يوم القيامة يوم القارعة يوم الأمر العظيم الهائل .

﴿ الْقَارِعَةُ ﴾ ﴿ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ ﴿ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴾ ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ﴾ ﴿ نَارُ حَامِيَةٍ ﴾ (القارعة ١-١١).

بدأ بذكر الناس لأن كل ما يحدث فى يوم القيامة من أهوال إنما هو من أجل حسابهم ، أو أن يكون التقديم من باب الترقى فى التخويف والترهيب من العظيم إلى ما هو أعظم منه ، لأنه لما كانت الجبال أشد ما تكون من الخلق ولما كان اليوم يوصف من أجل ما يقع فيه سبب عن ذلك قوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴾ ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ .

سورة التكاثر

لما تقدم فى سورة القارعة من أمر الساعة وتقسيم الناس إلى شقي وسعيد وختم بالشقي افتتحت هذه السورة بعلة الشقاوة ومبدأ الحشر والنشر ليرتدع الكافر ويتوب العاصي ، فكانت كالتصريح بما أشارت إليه العاديات من أسباب الهلاك يوم الجمع الذي صورته القارعة الجمع للمال والإخلاق إلى دار الزوال ﴿ أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ ﴾ ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾ ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ ﴿ ثُمَّ لَتَسْتَلْنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (التكاثر: ١-٨).

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ (التكاثر: ٣-٥)

تقدمت الرؤية الأولى فى قوله تعالى : ﴿ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ لأنها رؤية عامة للكافرين والمؤمنين ، أما المؤمن فهي رؤية ورود بلا ولوج وهي التي قال الله فيها : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ (مریم: ٧١، ٧٢)، أما الكافرون فهم يرونها عياناً بالدخول فيها ومواقعة العذاب وهو قوله تعالى : ﴿ وَتَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ﴾ (مریم: ٧٢)، وقد تكون الرؤيا الأولى هي رؤية جهنم عندما يؤتى بها فى عرصات القيامة يجرها سبعون ألف ملك - الحديث - حيث يراها أهل الموقف جميعاً من بعيد ، ثم يراها عياناً من يدخلها من الكفار وعصاة المؤمنين الذين استوجب عليهم دخولهم فيها ثم يخرجون من بعد ، والتقديم هنا للترقي فى الرؤية .

سورة العصر

لما غلب على الإنسان الانشغال بنعيم الدنيا عن التزود للآخرة وكان ذلك هو سبب هلاك الكثيرين جاءت سورة العصر بهذا القسم على أن هؤلاء في خسارة إلا المؤمنين ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَفَىٰ خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا ۝٣ ﴾ (العصر: ١-٣).

تقدم التواصي بالحق على التواصي بالصبر لأنه لن يكون صبراً محموداً إلا إذا كان على الحق ، كما أن التواصي بالحق يدخل فيه أمر الدين كله من فعل الطاعات وترك المحرمات والصبر على المقدرات ، وكذلك يدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكلها تحتاج إلى الصبر ، فالعمل يكون أولاً والصبر ثانياً .

سورة الهمزة

مقصود هذه السورة بيان هؤلاء الخاسرين المذكورين في سورة العصر فقد بينت سورة العصر أوصاف الناجين ولم تبين أوصاف الخاسرين فجاءت سورة الهمزة تبين أحوال هؤلاء الخاسرين ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ ١ الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ ٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ٣ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ٤ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ٥ نَارُ اللَّهِ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْفُجُورَةِ ٦ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ٧ فِي عَمْدٍ مُّتَدَدَةٍ ٨ (الهمزة: ١-٩).

افتتحت السورة بـ ﴿وَيْلٌ﴾ للبداة بما يسوء من هذه صفته مع ما تفيد من التشويق لمعرفة لمن يكون هذا الويل ، وإذا كان الهمز بمعنى الذي يطعن في العلن ، واللمز هو الذي يطعن في السر ، فالبداة به بعد الويل من باب البدااة بالأسوأ من تلك الصفات .

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ تقدم الجار والمجرور ليس للاختصاص ، فإنها مؤصدة على غيرهم ولكن من باب الاهتمام والترهيب .

سورة الفيل

لما ذكر سبحانه في سورة الهمزة عاقبة المغرورين بالأموال وما كنزوه وأعدوه وأن مرجعهم إلى النار ذكر حالاً لمثال مشهود لبعض هؤلاء في الدنيا وهم أصحاب الفيل الذين اغتروا بأموالهم وقوتهم ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ ﴿ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ ﴿ جَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ (الفيل: ١-٥).

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ (الفيل: ٣).

تقدم الجار والمجرور ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ على متعلقه ﴿ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ للاختصاص بهم ، حيث أرسل الطير عليهم وحدهم ولم يرسل إلى غيرهم .

سورة قريش

مقصود هذه السورة الدلالة على بيان نعمة الله بقريش الذين قصدهم أصحاب الفيل وكيف أن الله أنعم عليهم بنعمة الأمن والإطعام عكس السابقين المعتدين الذين أرادوا بيت الله السوء اغتراراً بأموالهم وقوتهم ﴿لَا يَلْفِ قُرَيْشٌ ۖ لِّإِلَهِهِمْ رِحْلَةَ الْشِتَاءِ وَالصَّيْفِ ۖ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۖ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: ١-٤).

وقد نقل الزركشي عن الأخفش قوله : اتصالها بها - أي بسورة الفيل - من باب قوله : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ (القصص: ٨).

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ (قريش: ٤).

تقدم الجوع على الخوف إذ هو الأهم والأعظم في الامتنان إذ إنه مظنة الهلكة لاسيما وهم يقطنون في بلد غير ذي زرع ، وقد مر ذلك في سورة البقرة في الآية رقم ١٥٥ وفي سورة النحل بشيء من التفصيل في الآية ١١٢ .

سورة الماعون

جاءت هذه السورة كالمكملة لسابقتها ، فلما ذكرت السابقة فضل الله وإنعامه على قريش بالإطعام والأمن ذكرهم ألا ينسوا الضعفاء من البشر اليتيم والمساكين ، مع المداومة على شكر الله بلزوم التقرب إليه بالصلاة ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴾ ﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴾ ﴿ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾ ﴿ قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ (الماعون: ١-٧).

﴿ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴾ ﴿ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾

(الماعون: ٢، ٣)

تقدم الذم واللوم على من جفا اليتيم على من لم يحض على طعام المسكين ، وقد مر بنا ذلك سابقاً في سورة البقرة وسورة البينة .

﴿ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴾ ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ (الماعون: ٦، ٧) .

تقدم قوله : ﴿ يُرَاءُونَ ﴾ على ﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ من باب تقديم الصلاة على الزكاة فالمراعاة في الصلاة والمنع في الزكاة .

سورة الكوثر

لما كانت سورة الماعون ناهية عن مساوئ من البخل والشح وعدم معاونة الآخرين وعدم الاعتناء بأمر الصلاة جاءت سورة الكوثر بالأمر بمحاسن هذه الأخلاق ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ﴿ فَصَّلْ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (الكوثر: ١-٣)، وقد زاد الزركشي الأمر وضوحاً وبياناً فقال: «ومن لطائف سورة الكوثر أنها كالمقابلة للتي قبلها، لأن السابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمر أربعة: البخل، وترك الصلاة، والرياء فيها، ومنع الزكاة.

فذكر هنا في مقابلة البخل: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴾ (الكوثر: ١) أي الكثير وفي مقابلة ترك الصلاة ﴿ فَصَّلْ ﴾ أي: دُم عليها، وفي مقابلة الرياء ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ أي: لرضاه لا للناس، وفي مقابلة منع الماعون: ﴿ وَأَنْحَرْ ﴾ وأراد به: التصديق بلحم الأضاحي»^(١).

﴿ فَصَّلْ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ ﴾ (الكوثر: ٢).

تقدم أمر الصلاة هنا - صلاة عيد الأضحى - على الأمر بالنحر - الأضحية - لوجوب مراعاة ذلك الترتيب، حيث يجب لمن أراد أن يضحي أن يبدأ بصلاة العيد أولاً، ثم تكون الأضحية بعد الصلاة قال الحافظ ابن كثير: «الصحيح أن المراد بالنحر ذبح المناسك».

وقد جاء في حديث البراء بن عازب عند البخاري ومسلم: {كان رسول الله ﷺ يصلي العيد ثم ينحر نسكه، ويقول من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له.} ورواية مسلم عن جندب بن سفيان رضي الله عنه قال: شهدت الأضحى مع رسول الله ﷺ فلما قضى صلاته بالناس نظر إلى غنم قد ذبحت فقال: {من ذبح قبل الصلاة فليذبح شاة مكانها ومن لم يكن ذبح فليذبح على

(١) البرهان ج ١ ص ٦٥.

اسم الله} ^(١) وقد مر بنا وجوب مراعاة هذا الترتيب في سورة البقرة في قوله تعالى : ﴿ إِنِّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةُ ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾ ، وكل ذلك اتباعاً لقول النبي - عليه الصلاة والسلام - :
 {ابدؤوا بما بدأ الله به} وقد مر تخريجه .

قال الرازي : « ثم أمره حال حياته مجموع الطاعات ، لأن الطاعات إما أن تكون طاعة البدن أو طاعة القلب ، أما طاعة البدن فأفضله شيان ، لأن طاعة البدن هي الصلاة ، وطاعة المال هي الزكاة ، وأما طاعة القلب فهو أن لا يأتي بشيء إلا لأجل الله واللام في قوله : ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ يدل على هذه الحالة ، ثم كأنه نبه على أن طاعة القلب لا تحصل إلا بعد حصول طاعة البدن فقدم طاعة البدن في الذكر وهو قوله : ﴿ فَصَلِّ ﴾ وآخر اللام الدالة على طاعة القلب تنبيهاً على فساد مذهب الإباحية في أن العبد قد يستغني بطاعة قلبه عن طاعة جوارحه » ^(٢) .

أقول : وما قاله الرازي فيه نظر حيث إن أعمال الجوارح في كل الطاعات الواجبات والمندوبات شرط قبولها هو إخلاص النية وإفراد الله بالقصد ، وهذا إنما يكون قبل العمل بإجماع العلماء لا بعده ، فكيف تكون طاعة البدن سابقة على طاعة القلب وهي مترتبة عليه في الوجود ، فلولا طاعة القلب بالمعرفة والإيمان والانقياد والإذعان لما كان هناك امتثال لأمر ولا اجتناب لعصيان ، فهي سابقة في الوجود ولازمة لصحة ما يتقرب به إلى المعبود .

(١) صحيح مسلم كتاب الأضاحي باب وقتها حديث رقم {١٩٦٠} .

(٢) تفسير مفاتيح الغيب ج ٣٢ ص ١٣٥ .

سورة الكافرون

مقصودها لإثبات البراءة من مبغضيه ومخالفيه ﷺ الذين ختمت بهم سورة الكوثر

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ﴾، فجاءت هذه السورة لتبين تمام البراءة من هؤلاء وعبادتهم الباطلة ، ولما سبقت سورة الكوثر فى إثبات العبادة لله جاءت سورة الكافرون فى نفي العبادة عما سوى الله

﴿قُلْ يَتَأَيُّمُ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ (الكافرون: ١-٦)

تقدم قوله : ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ للاهتمام بما هو أهم وهو هنا البراءة من الشرك ومن آلهة المشركين ، وقد مر بنا ذلك من قبل فى سورة البقرة الآية ٢٥٦ ، وقد تقدم هنا أيضاً الجار والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ و ﴿وَلِيَ﴾ ليحمل معنى الاختصاص أي اختصاصهم بالهتهم لما قد صرح بالبراءة منه وكذلك اختصاصه بدينه لعدم مشاركته فيه فى أي وجه من الوجوه وعدم استطاعتهم صرفه عنه أبداً .

قال الخازن فى قوله تعالى : ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ (الكافرون: ٥) والمكرر فى الآية الخاصة أنه يحتمل أن تكون الآية الأولى للحال والثانية للاستقبال ، وقيل : يصلح كل واحد منهما أن يكون للحال وللإستقبال^(١) .

أقول : ويختلف المعنى من الحال للإستقبال ، فإذا أريد بالآية الأولى الحال والثانية للإستقبال ، فالترتيب هنا مراعاة للترتيب الوجودي ، وإذا كانت الأولى للإستقبال والثانية للحال فتقديم الإستقبال على الحال وإن كان متأخراً عنه زماناً للتيئيس منه ألا يطمعوا فى عبادته آلهتهم ، وإن كانت الآيتان بمعنى واحد فى الحال أو الإستقبال فالأولى بيان والثانية تأكيد .

(١) تفسير الخازن ج ٦ ص ٥١٥ .

سورة النصر

لما دلت سورة [الكافرون] على أن الكفار قد صاروا إلى حالة لا يلتفت إليهم فيها ولا عبرة لهم بها ، وكان هذا غير كاف في بيان عاقبة الفريقين المؤمنين والكافرين جاءت سورة النصر بشارة للمؤمنين ونذارة ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (النصر: ١-٣).

تقدم النصر على الفتح تقدم وجودي فليس فتح إلا إذا سبق بنصر ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ﴾ ، أما تقديم التسبيح على الحمد كما مر سابقاً فهو من باب تقديم التخلية على التحلية ، ومن باب نفي النقص قبل ثبات الكمال ، وكان النبي ﷺ يلتزم هذه الصيغة بنفس هذا الترتيب في صلاته ، فقد كان يقول بعدما أنزلت هذه السورة في ركوعه وسجوده : {سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي} ، روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي إسحاق سمعت أبا عبيدة عن أبيه قال كان النبي ﷺ يكثر أن يقول : {سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي إنك أنت التواب} ^(١) فكان يبدأ بما بدأ به القرآن كما مر بنا في آية الصفا والمروة في سورة البقرة وآية الوضوء في سورتي النساء والمائدة .

(١) مسند أحمد باقي مسند المكثرين من الصحابة رقم {٣٦٩٦} و {٣٩٢٦} و {٤١٢٢} و {٤١٢٦}.

سورة المسد

لما ذكرت سورة النصر بشارة المؤمنين ونذارة الكافرين وكان أبو جهل من أشد مناصبي النبي ﷺ العداء جاءت هذه السورة تبين سوء عاقبته في الدنيا والآخرة وما أحسن ما قاله الإمام جعفر بن الزبير : « هذه السورة وإن نزلت على سبب خاص وفي قصة معلومة فهي مع ما تقدمها واتصل بها في قوة أن لو قيل : قد انقضى عمرك يا محمد وانتهى ما قلدته من عظيم أمانة الرسالة أمرك وأدبت ما تحمته وحن أجلك ، وأمارة ذلك دخول الناس في دين الله أفواجا واستجابتهم بعد تلکؤهم - يقصد الإمام بذلك سورة النصر - والويل لمن عاندك وعدل عن متابعتك وإن كان أقرب الناس إليك فقد فصلت سورة الكافرون ﴿ قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ﴾ بين أوليائك وأعدائك وبان بها حكم من اتبعك ومن عاداك ، ولهذا سماها عليه الصلاة والسلام المبرئة من النفاق ، وليعلم كفار قريش وغيرهم أنه لا اعتصام لأحد من النار إلا بالإيمان ، وأن القرايات غير نافعة ولا مجدية شيئاً إلا مع الإيمان ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾^(١)

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۚ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۚ

(المسد: ١-٥)

بدأت السورة أيضاً بما يسوء أبا لهب زيادة في إهانته وإدخال الحزن عليه ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ ، وتقدم المال على الكسب في عدم الإغناء من العذاب من باب الترقى من الأخص إلى الأعم ، فإن الكسب عام يدخل فيه كل ما كان من كسبه من ولد وأهل ومكانة وسلطان ومال إلخ ، وهذا الترقى مثل قوله تعالى في المعارج : ﴿ يَوْمَذِ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِذِ بَنِيهِ ۚ وَصَحْبَيْهِ وَأَخِيهِ ۚ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤَيِّدُ ۚ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ۚ ﴾ (المعارج: ١١-١٤).

(١) نظم الدرر ج ٨ ص ٥٦٨.

سورة الإخلاص

لما جاءت سورة الكوثر لبيان ما أعده الله سبحانه لنبيه ﷺ في الآخرة وبيان ما فعله بمبغضه في الدنيا ، وجاءت سورة الكافرون بمتاركة أهل الكفر وعدم الاكتراث بهم ، وجاءت سورة المسد لبيان فعل الله بأشد الناس عداوة للنبي من إهلاكه وسوء منقلبه ، جاءت سورة النصر بالتبشير للنبي ﷺ بالنصر المبين والفتح الأعظم في الدنيا ومغفرة الذنب والتوبة من الله في الآخرة ، جاءت سورة الإخلاص لوصف الفاعل لذلك الذي هو خارج عن طوق البشر وخارق للعوائد وهو إظهار شخص واحد على الناس جميعاً مع شدة عداوتهم له ، فجاءت سورة الإخلاص كاشفة لما ثبت من عظمة ولي النبي ﷺ وهو الله سبحانه وتعالى القادر على نصر أوليائه وإهلاك أعدائه فلا يعجزه شيء ولا يقوم له شيء ولا يماثله شيء ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝ ﴾

(الإخلاص: ١-٤)

﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ (الإخلاص: ٣).

تقدم هنا نفي الولد على نفي الوالد ، فإنه لما وقع في الأول منازعة المنازعين وتقولهم اقتضت الرتبة بالطبع تقديمه في الذكر اعتناء به قبل التنزيه عن الوالد الذي لم ينازع فيه أحد من الأمم .

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص: ٤).

ولقد أحسن أبو حيان الرد على الزمخشري في قوله : « فإن قلت : الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم ، وقد نص سيويه على ذلك في كتابه فما باله مقدماً في أفصح الكلام وأعربه ؟ قلت : هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه وتعالى ، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف فكان لذلك أهم شيء وأعناه وأحقه بالتقديم وأحره .

قال أبو حيان ردّاً عليه : « وهذه الجملة ليست من هذا الباب وذلك أن قوله : ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ ليس الجار والمجرور فيه تاماً إنما هو ناقص لا يصلح أن يكون خبراً لـ {كان} ، بل هو متعلق بكفواً وقدم عليه ، فالتقدير : ولم يكن أحد كفواً له أي مكانته فهو في معنى المفعول متعلق بـ ﴿ كُفُوًا ﴾ وتقدم على كفواً للاهتمام إذ فيه ضمير الباري تعالى وتوسط الخبر وإن كان الأصل التأخر ، لأن تأخر الاسم هو فاصلة فحسن ذلك . وعلى هذا الذي قررنا يبطل إعراب مكّي وغيره أن ﴿ لَهُ ﴾ الخبر و﴿ كُفُوًا ﴾ حال من ﴿ أَحَدٌ ﴾ لأنه ظرف ناقص لا يصلح أن يكون خبراً وبذلك يبطل سؤال الزمخشري وجوابه .

وما قاله أبو حيان هو الصحيح من حيث الإعراب إذ إن الكلام لا يتم المعنى به على إعراب ﴿ لَهُ ﴾ على أنه خبر إذ كان الترتيب على هذا النحو ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ وقد صدق أبو حيان في قوله : {ولا يشك من له ذهن صحيح} أنه لا ينعقد كلام من قوله : {ولم يكن له أحد} ^(١).

حيث لا يفيد معنى ولا يثبت حكماً .

(١) تفسير البحر المحيط ج ٨ ص ٥٣٠ ، ٥٣١ .

سورة الفلق

لما كانت سورة الإخلاص تدور حول التعريف بالله سبحانه وصفاته كماله وأنه لا يعجزه شيء وأنه القائم على كل شيء ، فلما حصل لديهم تلك المعرفة به أمر عباده أن يستعينوا به من شر خلقه ليحصل لهم كمال التوكل عليه وحسن الاعتماد عليه والاطمئنان إلى أنه جدير بحفظهم ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴾ من شر ما خلق ﴿ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ ومن شر النفث في العقد ﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ (الفلق: ١-٥).

بدأ بقوله : ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أي من كل شيء سوى الله تعالى فيكون التقديم للعموم ثم أمر بالاستعاذة من شر الأشياء وهو الظلام فإنه أصل كل فساد ، وهو شر معنوي وحسي ، ثم ذكر أخص ما في الظلام من شر وهو السحر لأنه يعمل خفية والحسد إنما يكون في الظاهر ، ولذا كان السحر أيضاً أضر من الحسد من هذه الناحية ، لذا بدأ به قبله .

سورة الناس

لما كانت سورة الفلق للاستعاذة من شر ما خلق من المضار البدنية وغيرها جاءت سورة الناس بالاستعاذة من الشيطان الذي يفسد على الإنسان أموره الأخروية ، ووجه التعلق بينها وبين سورة الفلق هو الخصوص والعموم فجاءت سورة الفلق عامة ﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ ، وجاءت سورة الناس خاصة بالاستعاذة من وسوسة الصدر ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ، ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ ، ﴿ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ ، ﴿ الَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ ، ﴿ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ (الناس: ١-٦).

لما كان الرب والملك متقاربين في المفهوم ، وكان الرب أقرب في المفهوم إلى اللطف والتربية ، وكان الملك للقهر والاستيلاء وإظهار العدل وكان الرب قد لا يكون ملكاً اقتضت البلاغة تقديم الأول وإتباعه الثاني ، ولما كان الملك قد لا يكون إلهاً وكانت الإلهية خاصة لا تقبل الشرك بخلاف غيرها أنهى الأمر إليها وجعلها غاية البيان فقال : ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ .

قال صاحب درة التنزيل : « إنما اتصف الله تعالى أولاً بـ ﴿ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ ثم بـ ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ ثم بـ ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ ، لحكمة دعت إلى ذلك وأوجبت تقديم الأول وتعقيبه بالثاني والثالث على الترتيب الذي جاء ، لأن رب الشيء هو القائم بإصلاحه وتدبير أمره ، فنبه بتقديمه على ما ترتب من نعمه على الإنسان لما أنشأه ورباه ، وهذه أولى أحواله ، وللثانية إنعامه عليه بالعقل الذي ثبتت عليه ملكته له ، فعلم أنه عبد مملوك ، وإن الذي بلغت به تلك الحال من حد الطفولية هو الذي يملكه وأمثاله ، فجعل الوصف الثاني ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ ، ولما كان بعد ذلك تكليف العبادات التي هي حق الله تعالى على من عرفه نفسه أنه عبد مملوك ، وعرفه أنه عز وجل خالقه ، وتلزمه طاعته ليلتزم غاية التذلل لمن له أكبر الإنعام والأطول ، جعل الوصف الثالث ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ فصار الناس الذين أضيف إليهم رب كأنهم غير الناس الذين أضيف إليهم ملك غير الذين أضيف إليه إله ، وإذا أريد بالثاني غير الأول . . فترتيب الصفات تنبيه على أن المراد بالناس ذو الأحوال المختلفة في

الصغر والترعرع والبلوغ ، فسلم ذلك من التكرار ، ويتضمن هذا المعنى اللطيف الذي دل عليه ترتيب الصفات»^(١).

أقول : وتقدمت صفة الوسواس على الخناس لسبق الوجود إذ إن الشيطان يوسوس أولاً فإذا ذكر العبد ربه خنس وهذا المعنى هو المذكور في حديث ابن عباس رضي الله عنه روى البخاري في كتاب تفسير القرآن ويذكر عن ابن عباس رضي الله عنه ﴿الْوَسْوَاسُ﴾ إذا ولد خنسه الشيطان فإذا ذكر الله عز وجل ذهب وإذا لم يذكر الله ثبت على قلبه^(٢).

قال الدكتور وهبة الزحيلي : «وهذه صفات ثلاث لله عز وجل : الربوبية ، والملك ، والألوهية ، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة عبيد له وإنما قدم الربوبية لمناسبتها للاستعاذة ، فهي تتضمن نعمة الصون والحماية والرعاية ثم ذكر الملكية لأن المستعذ لا يجد عوناً له ولا غوثاً إلا ماله ثم ذكر الألوهية ، لبيان أنه المستحق للشكر والعبادة دون سواه»^(٣).

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ (الناس: ٦) .

فالاستعاذة من الجن وهم على كثرتهم وإجماع كفارهم على حرب المؤمنين وعدم توانيهم أو تكاسلهم عن الوسوسة مع استمرارهم فيها لا يفترون عنها أولى من الاستعاذة من شياطين الإنس ابتداءً ، على الرغم من أن شياطين الإنس لا يقلون شراً وكيداً لبني جنسهم عن شياطين الجن إلا أنهم أقل عدداً وقد يرجى منهم الصلاح بخلاف كفار الجن ، ولذا بدأت الاستعاذة من شياطين الجن قبل الإنس ، وقد عكس هذا التقديم في قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَجْمٍ عَدُوًّا شَيطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: ١١٢).

وقد سبق الإشارة إليه في سورة الأنعام ، وذكرنا أن التقديم إما لأنهم أظهر في العداوة أو أنهم أعظم خطراً ، وهنا احتمال آخر وهو أن يكون التقدم للسبق في الفعل ، لأن الإنس كانوا أسبق في إظهار العداوة ، فعلمهم بالرسالات كان متأخراً عن الإنس ، ويستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (الأحقاف: ٢٩).

(١) درة التنزيل ص ٣٠٦.

(٢) صحيح البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، باب وإني أعينها بك وذريتها من الشيطان.

(٣) التفسير المنير ج ٣٠ ص ٤٨٠.

ويؤيد الذي ذكرناه ما رواه الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنه قال : انطلق النبي - صلى الله تعالى عليه وسلم - في طائفة من أصحابه إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب قالوا : ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو أصحابه بنخلة - اسم مكان - عامدين إلى سوق عكاظ وهو عليه الصلاة والسلام يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء فهناك حين رجعوا إلى قومهم ^(١) .

أقول : وقد يكون التقديم لمناسبة ما قبله وهو ذكر الأنبياء وهم من الإنس فتقدم ذكر الإنس من أجل ذلك .

قال سيد قطب : « وقد أطلق النص الصفة أولاً ﴿ أَلَوْسَوَاسِ الْخَنَاسِ ﴾ وحدد عمله ﴿ أَلَّذِي يُوسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ ثم حدد ماهيته ﴿ مِنْ أَلْجَنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ . . . وهذا الترتيب يثير في الحس اليقظة والتلفت والانتباه لتبين حقيق الوسواس الخناس ، بعد إطلاق صفته في أول الكلام ، ولإدراك حقيقة فعله التي يتبين بها شره تأهباً لدفعه أو مراقبته ^(٢) .

قال المراغي : « وإنما قدم الربوبية لأنها من أوائل نعم الله على عباده ، ثم ثنى بذكر المالكية لأن العبد إنما يدرك ذلك بعد أن يصير عاقلاً مفكراً ، ثم ثلث بذكر الألوهية لأن المرء بعد أن يدرك ويعقل يعلم أنه هو المستوجب للخضوع والعزة والمستحق للعبادة ^(٣) .

لقد ختم سبحانه كتابه الكريم بتلك الطريق التي هي أشرف الطريقتين ، فبدأ بذكر صفات الله وشرح جلاله ، وهو سورة الإخلاص ثم أتبعه بذكر مراتب مخلوقاته في سورة [الفلق] ، ثم ختم الأمر بذكر مراتب النفس الإنسانية وعند ذلك ختم الكتاب .

(١) البخاري ، الجامع الصحيح ، كتاب الصلاة ، باب الجهر بقراءة القرآن حديث رقم ٧٧٣ ، وكتاب التفسير حديث رقم ٧٩٢١ صحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، باب الجهر بالقراءة في الصحيح والقراءة على الجن حديث رقم ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، مسند الإمام أحمد بن حنبل ، مسند ابن عباس حديث رقم ٢٢١٧ ، الترمذي في السنن ، كتاب التفسير حديث رقم ٣٣٢٣ .

(٢) في ظلال القرآن ج ٦ ص ٤٠١٠ .

(٣) تفسير المراغي ج ١٠ ص ٢٧٠ .